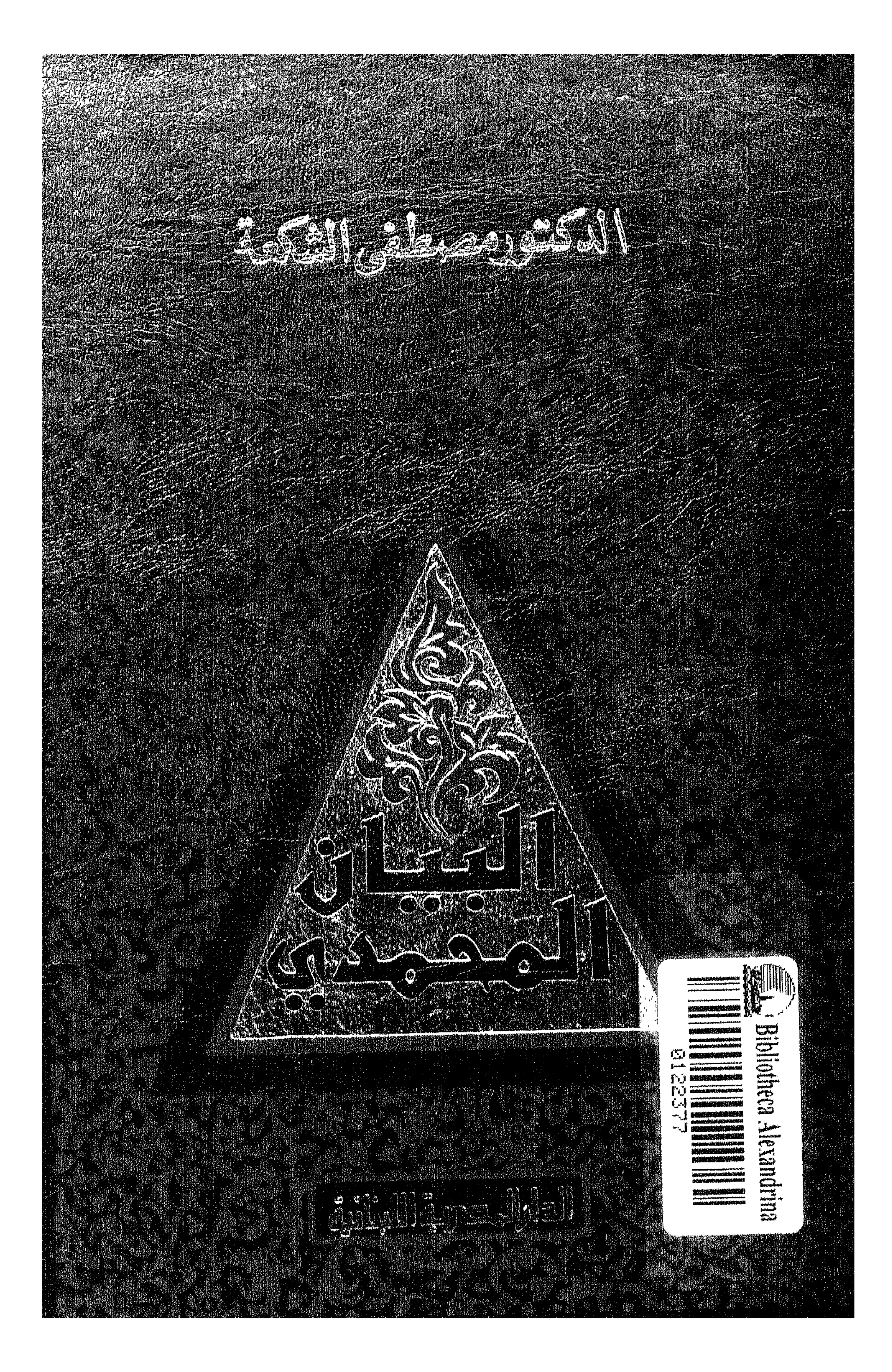
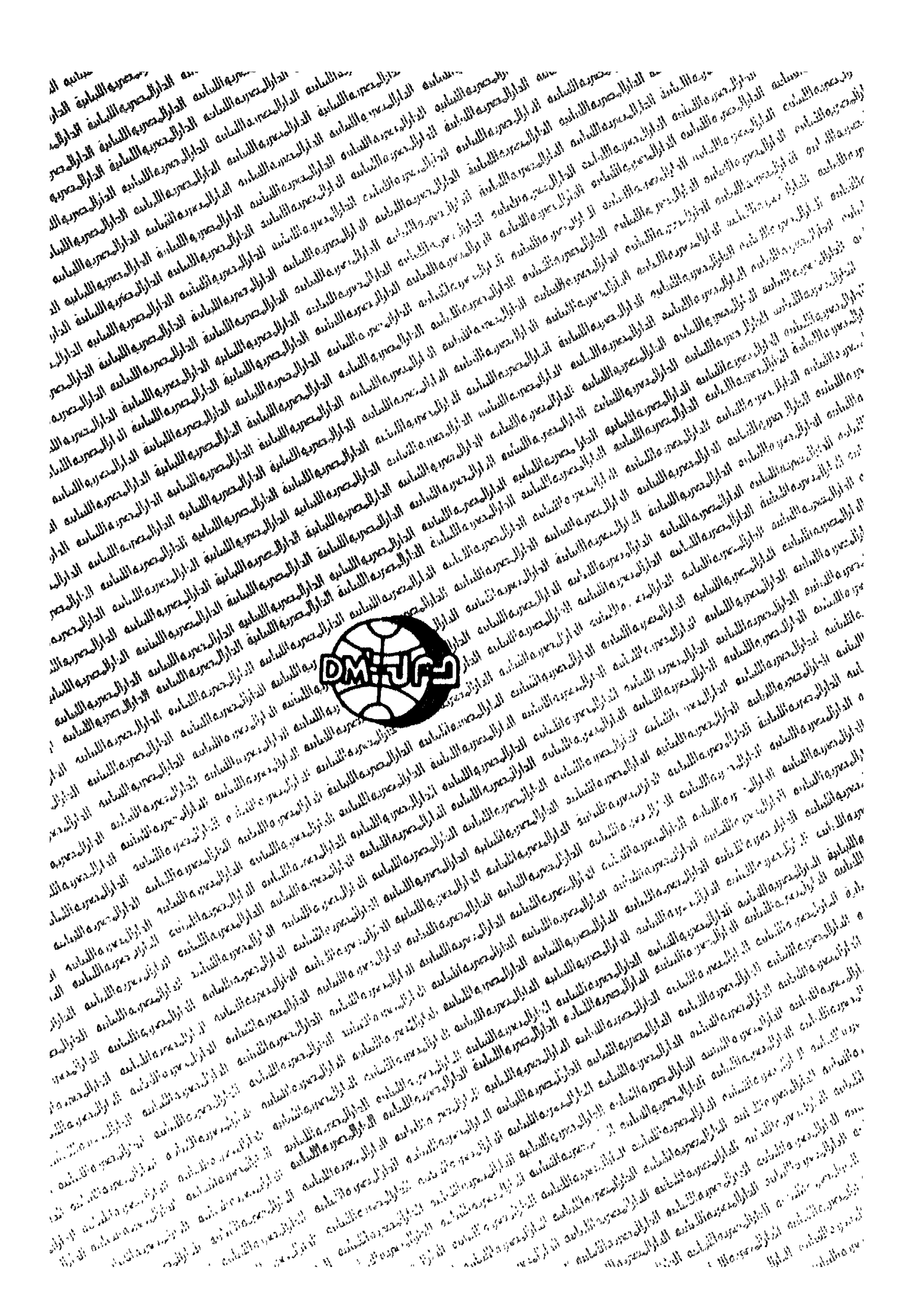
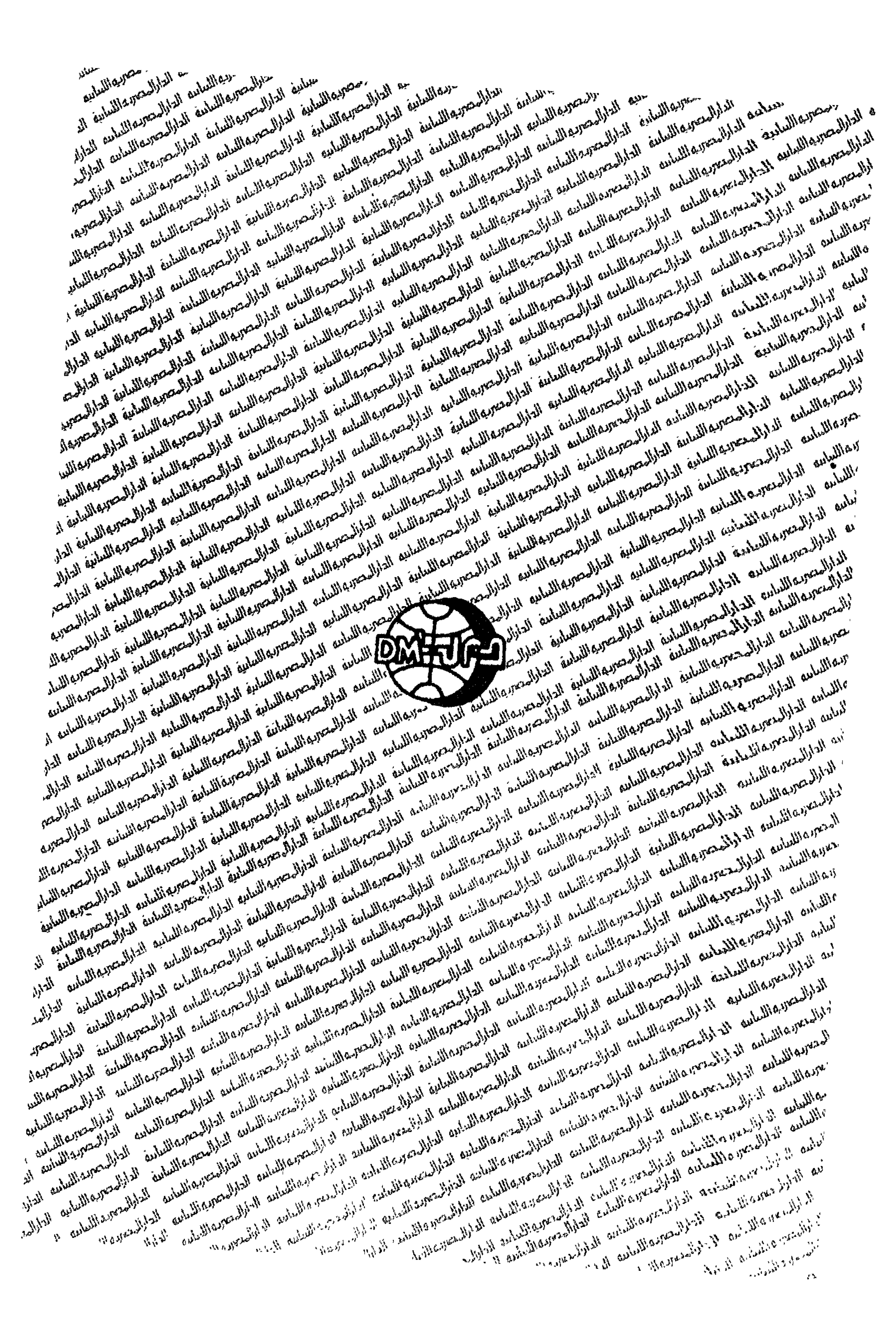

الدكتور مصطفى الشكعة
البيان المحمدي
الدار المصرية اللبنانية

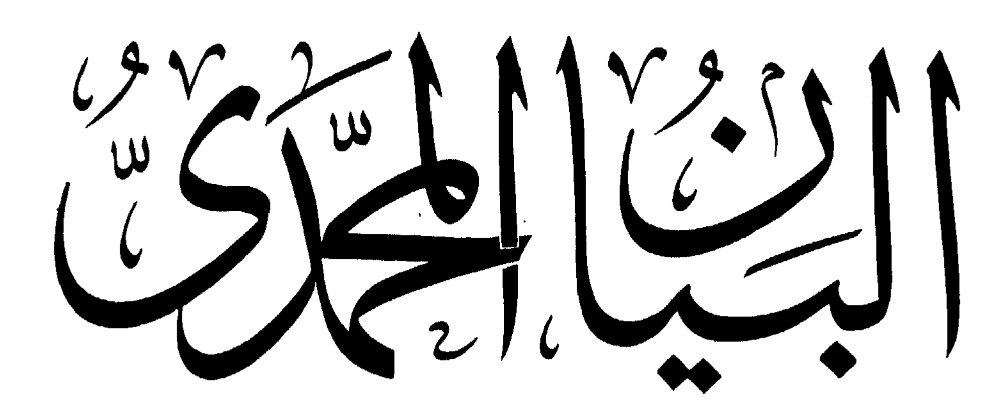



الدار المصرية اللبنانية
DM




البيان المحمدي





دكتور مصطفى الشكعة

الناشر
الدار المصرية اللبنانية




بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، واهب النعم، وبارىء النسم، وخالق السموات والأرضين، مالك يوم الدين، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد إمام المرسلين وخاتم النبيين، الذى حباه ربه بالتكريم، وحيَّاه فى القرآن الكريم بالخير العميم، فى قوله ـ عز وجل ـ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وبعد:

فإن السيرة النبوية حافلة بأسباب الهداية، مسددة بقوافل من النور، يجتنى الناس منها عماد الإيمان، ويثبّتون قواعد الإسلام، فينعمون بسعادة الدنيا، ويحققون النجاة فى الآخرة.

ومحمد ﷺ كان مدده القرآن الكريم، الذى أعجز الأولين والآخرين، وأداته البيان الناصع، والبلاغة الآسرة، فى مجتمع عرف بالفصاحة، وتزيّن بالشعر، وتجمل بالبيان، فكان محمد ﷺ سيد ذلك المجتمع أدبا وفضلا قبل المبعث، وفصاحة وبيانا وإلهاما بعد نزول الوحى والتكليف بأمانة الدعوة وحمل الرسالة.

كان محمد ﷺ أفصح الفصحاء، وأبين الأبيناء، وكان يعلن ذلك فى قوله الشريف: « **أنا أفصح العرب بَيْدَ أنى من قريش، وربيت فى بنى سعد** »، وكان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ يقول له: يا رسول الله؛ ما رأينا الذى هو أفصح منك. فكان يجيبه بالقول الشريف: « **أدبنى ربى فأحسن تأديبى** ».

لقد فاض بيان محمد ﷺ على العالمين منذ أكرمه الله بالرسالة، وظل هذا الفيض النورانى يواكب الحقب والأزمنة، يستضىء به المسلمون، وينهل منه المهتدون، وإذا

كانت السيرة العطرة فى جوانبها المتعددة قد لقيت اهتماما من العلماء فرووها، ومن المؤرخين فسجلوها، وتسابقت الأجيال فى روايتها، وتلاحقت الجهود فى الحفاظ عليها، فإن جانب البيان المحمدى كان ولايزال فى حاجة إلى مزيد من الجهود لإبانته، وعديد من البحوث لتجليته، هذا مع الاعتراف بفضل السابقين الذين توفروا على جوانب من بيان رسول الله ﷺ فجلّوها، وأطراف من فصاحته فدرسوها ووثقوها.

غير أن الجانب الأكبر من هذه الكنوز النبوية لا يزال محتاجا إلى مزيد من التجلية والجمع والترتيب والتوثيق، وتقديم ذلك كله فى دراسة مستقلة من خلال منهج متماسك وعرض متناسق.

ولقد أكرمنى الله ـ تعالى ـ بأن وفقنى للاضطلاع بهذا العبء الجهيد الذى بدأته منذ بضعة عشر عاما، كانت همتى خلال تلك الأعوام منصرفة إلى شرف معايشة بيان رسول الله ﷺ أجلس إليه، وأتوفر عليه، أسبح فى بركاته، وأغوص فى لجاته، وأقتبس من نفحاته، حتى خرج هذا الكتاب إلى حيز الوجود. أسأل الله ـ سبحانه ـ أن يتقبله قربة إليه، خالصا لوجهه الكريم، وأن يكون هذا العمل وسيلة إلى شفاعة رسول الله ﷺ وذريعة إلى السقيا من حوضه رشفات لاأظمأ بعدها أبدا، وسبيلا إلى الاستظلال برايته يوم البعث الأكبر، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

لقد جاء هذا الكتاب فى عشرة أبواب، تضمّن كل باب عددا من الفصول، يقل عددها ويكثر طبقا للمادة المقدمة، واستئناسا بالمنهج الذى جعلناه رائدا لهذه الدراسة.

لقد جعلنا عنوان الباب الأول « سمات الرسول وصفاته وشمائله فى الجاهلية والإسلام »، وقد جاء الباب فى فصول أربعة، تناول الفصل الأول جانبا من سيرته ﷺ قبل المبعث وبعده، فذكرنا رضاعته فى بنى سعد، واستسقاء جده عبد المطلب به وهو غلام، واحتكام قريش إليه فى وضع الحجر الأسود فى مكانه من الكعبة، وإسهامه فى حلف الفضول الذى ذكره ﷺ بعد المبعث فى قوله: « **لقد شهدت فى دار عبد الله**

ابن جدعان حلفا ما أحبّ أن لى به حمر النعم، لو دعى به فى الإسلام لأجبت » كما ذكرنا زواجه من خديجة رضى الله عنها.

وفى نفس الفصل جاء ذكره ﷺ بعد المبعث ابتداء من نزول الوحى، وموقف كل من خديجة وعمه أبى طالب بجواره، يشدّان من أزره، ويساندانه فى الدعوة إلى رسالة السماء، وقد ورد فى هذا الجزء من هذا الفصل ذكر صفته ﷺ كما أوضحها هند بن أبى هالة، وعلى بن أبى طالب، وأبو هريرة، وحسان، وعائشة، والبراء بن عازب، وغيرهم ممن عنوا بوصف رسول الله ﷺ كما ضم هذا الفصل وصف أبى سفيان بن حرب لرسول الله حين استقدمه قيصر الروم وسأله عن طبيعة رسول الله ودعوته.

وتناول الفصل الثانى « فصاحة رسول الله ﷺ » ونماذج من أقواله فى نطاق الإيجاز والتوسط والإطناب، مع ذكر قوله ﷺ: « **أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش، وربيت فى بنى سعد** » وقوله: « **أوتيت جوامع الكلم** ».

واشتمل الفصل الثالث على « أدب الحوار فى كلام رسول الله » سواء أكان ذلك مع المهاجرين أم الأنصار، ونماذج من حواره مع الوافدين عليه مثل ضمام بن ثعلبة، ووائل بن حجر الحضرمى، والطفيل بن عمرو الدوسى، هذا فضلا عن حواره مع عبد الله بن سلام فى المدينة، ومع سفّانة بنت حاتم الطائى وأخيها عدىٍّ، واليهودى زيد بن سعنة الذى اعتنق الإسلام بعد حوار جرى بينه وبين الرسول ﷺ وكان زيد هذا واحدا من أحبار اليهود قبل إسلامه.

وتناول الفصل الرابع جانبا من فصاحة رسول الله ﷺ فى نطاق لغات القبائل التى كان يجهلها أهل الحجاز، وذلك فى حواره مع الوافدين عليه، أو العائدين إلى قبائلهم من أمثال طهفة بن زهير النهدى، وجرير بن عبد الله البجلى، وخزيمة بن ثابت السلمى، وقد تبدّت فصاحة الرسول فى حواره معهم بلغاتهم، أو فى الكتب التى زودهم بها، وولاهم من خلالها أمر قبائلهم بعد أن أعلنوا إسلامهم.

وفى الباب الثانى تناولنا بالدراسة كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك من قياصرة وأكاسرة وأقيال وملوك ورؤساء قبائل يدعوهم إلى الإسلام، وقد جاء الباب فى ثلاثة فصول،

تناولنا فى الفصل الأول استعراض رسائله مع الملوك والرؤساء من أهل الكتاب، مثل قيصر وقد حمل الكتاب إليه دحية الكلبى، والمقوقس وقد حمل الكتاب إليه حاطب بن أبى بلتعة، والنجاشى وقد حمل الكتاب إليه عمرو بن أمية الضمرى، وأوضحنا بشىء من التفصيل موقف كل ملك من هؤلاء الملوك من دعوة الرسول، مثل عناية هرقل بالكتاب، ورقة المقوقس فى استقبال حامل الكتاب وحسن رده، كما عرضنا لتحقيق استجابة النجاشى لدعوة رسول الله واعتناقه الإسلام، وتولينا الرد على المستشرقين وبعض تلامذتهم من بنى جلدتنا الذين حاولوا بوسائل مختلفة نفى استجابة النجاشى إلى دعوة الإسلام، وبالتالى نفى اعتناقه للحنيفية السمحة.

وفى الفصل الثانى تناولنا بالدراسة والتحليل كتب رسول الله ﷺ إلى غير أهل الكتاب من أعاجم وعرب، وقد كان كبير الأعاجم ـ كسرى ـ قد أساء استقبال حامل كتاب رسول الله عبد الله بن حذاقة السهمى ومزق الكتاب فى غلظة واستكبار، وتعليق رسول الله ﷺ على الخبر، وماتنبأ به من سقوط ملك كسرى سريعا.

وأما ملوك العرب الذين استجابوا للدعوة فور أن استقبلوا كتب الرسول وحامليها فهم جيفر وعبد ابنا الجلندى مَلِكَا عُمَـان، والمنذر بن سَاوَى ملك البحرين، وأكثم ابن صيفى الذى صحب قومه إلى المدينة للمثول بين يدى رسول الله، ولكنه مات فى الطريق قبل أن يصل ركبه إلى المدينة، وكان قد أعلن إسلامه قبيل وفاته.

بقى اثنان تمردا على دعوة رسول الله ورفضا كتابه إليهما، وهما هوذة بن على ملك اليمامة الذى طلب أن يكون له شىء من الأمر، فلم يُسْلِمْ وباد ملكه، ومسيلمة الكذاب، وخبره معروف.

وتناولنا فى الفصل الثالث استعراض كتب رسول الله ﷺ التى اصطحبتها معها الوفود العائدة إلى أقوامهم، وفى مقدمتهم ذو المشعار الهمدانى، وطهفة النهدى، ووائل بن حجر الحضرمى، وقطن بن حارثة العليمى الكلبى، ومالك بن مرارة الحميرى، وكانت هذه الكتب ـ طبقا لما أسلفنا القول ـ مشحونة بالغريب من الألفاظ، مليئة بغير المأنوس من الكلمات، جرى ذلك فى كلام رسول الله فى يسر

وانثيال ، وفيها أعطاهم الرسول عهودا بالسيادة على أرضهم ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة واستمسكوا بتكافل الإسلام .

وكان موضوع الباب الثالث من هذا الكتاب « عهود الرسول ومعاهداته » ومثلما أن الرسول هو الصادق الأمين ، فكذلك كانت عهوده متسمة بالصدق ، موسومة بالأمانة ، مقرونة بالوفاء نصًّا وروحًا ، شكلا وموضوعا .

إن هذا الباب طويل نسبيا ، ومن ثم فقد ضم ستة فصول ، كان الفصل الأول عن العهود فى القرآن الكريم وتطبيق رسول الله ﷺ لها ، وتناول الفصل الثانى عهود ما قبل الهجرة ، وفى مقدمتها عهده ﷺ لتميم الدارى حين سأل الداريون الرسول أرضاً فوهبهم إياها . ومن عهود ما قبل الهجرة بيعة العقبة الأولى التى مثلت أولى مراحل دخول الإسلام إلى يثرب ، ثم بيعة العقبة الثانية وكانت فى السنة التالية فى أواسط أيام التشريق ، وفيها بايع المسلمون من أهل المدينة رسول الله ﷺ بيعة المناصرة والحفاظ عليه وعلى الدعوة ، وهى البيعة البعيدة الأثر فى مسرى الدعوة الإسلامية ، وقد كان العباس عم رسول الله شريكا فيها فى جانب الرسول على الرغم من أنه لم يكن بعدُ قد أعلن إسلامه .

وفى الفصل الثالث عرضنا وثيقة الموادعة بين المسلمين واليهود فى المدينة ، وقد أملى الرسول هذه الوثيقة بعد خطوات ثلاث تمثلت فى بناء مسجد قباء ، ثم بناء مسجده بالمدينة ، ثم المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، ثم كانت وثيقة الموادعة سالفة الذكر التى تكونت من سبع وأربعين مادة ، وبعقد هذه الوثيقة نشأت دولة المدينة التى قامت على أساس المواطنة الإسلامية ، وتمثل هذه الوثيقة خطوة أولى وأساسية فى نظام الدولة الحديثة ، ومن أهم موادها أن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، ومنها أن من خرج من المدينة فهو فى أمان ، ومن قعد فهو فى أمان إلا من ظَلَم وأَثِمَ ، ومنها المادة الفريدة التى فحواها : « من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم » .

وفى شأن هذه المعاهدة نقرر ما قرر غيرنا من المهتمين بدراسة المعاهدات فى الماضى

والحاضر أنه لم يمهّد لليهود احترام فى التاريخ مثلما مهدت لهم هذه الوثيقة، ولكنهم لا يحفظون عهدا.

والفصل الرابع خصصناه لصلح الحديبية ـ أو معاهدة الحديبية، كما يسميها بعض دارسى السيرة ـ وقد كانت سنة ست من الهجرة؛ إذ خرج الرسول من المدينة يريد العمرة وفى صحبته ألف وأربعمائة صحابى يريدون تأديتها معه، وقد حفلت الحديبية بأحداث كثيرة، منها تلك المفاوضات المتلاحقة التى جرت بين الرسول ومشركى قريش، ومنها احتجاز عثمان بن عفان حين قام بتمثيل رسول الله فى محادثات الحديبية داخل مكة، ومنها بيعة الرضوان التى كانت مهرجانا إسلاميا للشهادة والفداء، وفيها بايع المسلمون الرسول على قتال قريش، وفيها حيّا الله المؤمنين، فنزل قوله الكريم:

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾

وفيها كان الصلح على أن ينصرف المسلمون عائدين إلى المدينة، ثم يعودوا فى العام القادم، وأن تضع الحرب أوزارها عشر سنين فضلا عن بقية الشروط التى جاءت فى ذلك الفصل.

ثم نزول سورة الفتح التى بشر الله فيها المؤمنين بفتح مكة فى قوله ـ عز وجلّ ـ:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۞ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۞ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾

ومن المعجزات الربانية أنه لم يمض على صلح الحديبية عامان حتى فتحت مكة.

وفى الفصل الخامس عرضنا لعهود الرسول ﷺ مع نصارى الشام: مع صاحب أيلة، ومع أهل مقنا. ثم مع نصارى نجران.

كما تناول الفصل السادس عهوده ﷺ لكل من ثقيف واليمن.

والباب الرابع كان موضوعه « خطب الرسول ﷺ » وإنه ليس بغائب عن الخواطر أن رسول الله ﷺ هو سيد الفصاحة وإمام البيان، ومن ثم فإن خطبه هى سيدة الخطب

فصاحة وبيانا وحكمة وتبيانا، ومن هنا تظهر أهمية هذا الباب بشكل خاص.

ولقد قسمنا هذا الباب إلى أربعة فصول، عرضنا فى الفصل الأول للخطابة قبل الإسلام، وأشهر خطباء العرب آنئذ.

والفصل الثانى خصصناه لخطبه ﷺ فى الدعوة إلى الله، والوعظ، والتربية وحسن التوجيه، وحبّ الله، وحب القرآن، وحب الناس، وأول خطبة خطبها فى المدينة، وخطبة أول جمعة فى المدينة.

والفصل الثالث تضمن فتح مكة وخطبته ﷺ وسماحته يوم الفتح، وعددا آخر من خطبه يوم الأحزاب، وخروجه المعلن إلى تبوك، ونماذج من سلوك صحابته، وكثرة الأحداث المواكبة لتلك الغزوة المتميزة.

وأما خطبة الوداع فقد أفردنا لها فصلا مستقلا هو الفصل الرابع، وذلك لأهميتها بلاغة وشريعة، فقد تضمنت هذه الخطبة الوصايا الأخيرة لرسول الله ﷺ وبها استكملت الشريعة أحكامها، ففيها القول الفصل فى تحريم الربا، وحرمة الدماء، وإعلان المساواة بين الناس، وتشريع الدية فى قتل الخطأ شبه العمد، وصلاح الأسرة، والوصية بالنساء مالهن وما عليهن، وحق الزوج وحق الزوجة، والتوريث، وغير ذلك مما حوته خطبة الوداع من أحكام.

والباب الخامس من هذا الكتاب خصصناه لـ « أدعية الرسول وروحانيّاته » وقد جعلناه فى فصلين اثنين، فأما الفصل الأول فموضوعه « الدعاء والتسابيح والابتهالات» ومن الطبيعى أن يكون هذا الفصل مثابة كبرى لروحانيات رسول الله ﷺ فهو كثير التعبد، كثير التسبيح، كثير الدعاء، كثير الصلاة، إنه ﷺ يدعو الله عند الأذان، وقبل الصلاة وبعدها، ويدعو الله فى الصباح والمساء والليل، فلكل وقت دعاء، ثم دعاء القنوت، والاستخارة، ودعاء سجود التلاوة.

وثمت أدعية التعبد والتهجد والتسابيح والابتهال، وهنا أيضا سيد الاستغفار:

« اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما

استطعت، أبوء لك بنعمتك، وأبوء لك بذنبى، فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، أعوذ بك من شر ما صنعت » .

وللرسول ﷺ دعاء التهجد المشهور لدى المتقين :

« **اللهم لك الحمد أنت قيّم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، لك ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن . . .** » إلى آخر هذا الدعاء الربانى الوضىء .

ولرسول الله ﷺ دعاؤه الشهير فى الطائف بعد تعرضه للأذى الشديد من قبيلة ثقيف إثر مطاردة الصبية له بالحجارة : « **اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين . . .** » .

لقد حفل هذا الفصل بكثير من المدد الروحانى الذى علمنا الرسول إياه حتى نكون ـ نحن العبيد ـ على صلة دائمة برب العزة، تزيدنا ذلاً وقربا إليه، وتزيدنا عزة ومنعة أمام خلقه .

والفصل الثانى من هذا الباب أفردناه للأحاديث القدسية من حيث موضوعاتها والتعريف بها، وكونها نورانية فى مجملها، إشراقية فى وجهتها، ففيها تنزيه الخالق عن الولد والشريك، وفيها التوحيد والتمجيد، والحمد والخشية، وفيها فضل العبادات وثوابها، وفيها ذكر الله، والتوبة، والشهادة، والجهاد، والصبر، وفيها الحشر والنشور، والجنة والنار، وفيها السماح والمغفرة، وفيها شفاعة محمد ﷺ الذى نسأل الله أن نكون أهلا لشفاعته .

وكان لبّ اهتمامنا فى الباب السادس وصايا النبى ﷺ وهى وصايا ونصائح تحمل كل المسلمين إلى مرافىء السعادة وشواطىء الإيمان، وقد جعلنا هذا الباب فى ستة فصول، تناول الفصل الأول وصاياه ﷺ إلى صحابته من قواد ومعلمين، فإن وصاياه إلى قواد السرايا تشكل مدارس فى قيادة الجيوش، وقد أوردنا وصيته لعمرو بن العاص حين أخرجه إلى ذات السلاسل من بلاد قضاعة، كما تمثلنا لوصاياه للصحابة بوصيتين اثنتين، إحداهما لمعاذ، والثانية لأبى الدرداء، تشتركان فى عدد من القضايا، وتكمل

إحداهما الأخرى، ومن الوصايا البارزة تلك التى أوصى بها أبا ذر، وهى تضم بين دفتيها ثلاث عشرة وصية، وقد شرحناها بالتفصيل، كما ضم هذا الفصل عددا آخر من وصاياه ﷺ للنساء، وبخاصة وصيته لفاطمة، ووصيته لأم أنس.

واشتمل الفصل الثالث على وصيتين، إحداهما تعد من أنفس الوصايا وأقصرها؛ لأنها وقعت فى كلمتين اثنتين، وهى وإن كان الذى تلقاها رجلا مغموراً إلا أن قيمتها عند جمهرة المسلمين تمثل جوهر بناء للنفس المسلمة، وهى قوله ﷺ: « **لا تغضب**». وأما الوصية الثانية فكانت موجهة إلى رجل غير مسلم، انتهت به إلى مدارج الإيمان، فصار صحابيا معروفا، هو أبو جرىّ جابر بن سليمان.

والفصل الرابع جعلناه مختصا بوصاياه ﷺ بطلاب العلم، ولما كان طلبُ العلم فريضةً على كل مسلم طبقا لحديثه الشريف فإننا نتوقع إقبال الجحافل من الشباب على الجلوس فى حلقات العلم يسمعونه من أصحابه، ويتلقونه من رجاله، وفى هذا المجال ردَّدْنَا قول رسول الله ﷺ: « **سيأتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا: مرحبا بوصية رسول الله** ».

وكان موضوع الفصل الخامس هو وصاياه ﷺ إلى الخليفة من بعده، ولجمهرة الصحابة وسائر المسلمين.

ولما كان للأنصار شأنهم فى مسيرة الدعوة ومكانتهم الخاصة عند رسول الله ﷺ فقد كانت وصيته بهم حافلة بذكر أفضالهم، آمرة الصحابة بإكرامهم وتكريمهم، وغَضِّ الطرف عما يبدر من بعضهم من هنات، فكثيرا ما كان ﷺ يقول: « **الأنصار كرشى وعيبتى** » ومن ثم كانت وصية النبى بالأنصار هى آخر وصاياه.

والباب السابع من كتابنا هذا خصصناه للأمثال النبوية السائرة، وقد كانت الحكمة تسرى فى حواشى كلام رسول الله ﷺ حتى إن كلامه - باستثناء القليل منه - يشكل أمثالا حكيمة سائرة، ومن ثم كان اهتمام جامعى الأمثال كبيرا بأمثال رسول الله ﷺ وقد قسمنا هذا الباب إلى ثلاثة فصول:

تناولنا فى الفصل الأول دراسة عن الأمثال والذين ألفوا كتبا فيها، وهم كثيرون، ثم

الأمثال النبوية وحدها، وأن أشهر من ألف فيها مكتفياً بها عن غيرها هو ابن خلاد الرامهرمزى.

ثم جعلنا الفصل الثانى مختصا بموضوعات الأمثال النبوية السائرة، وقد شملت هذه الأمثال كل شىء فى حياة المسلمين من عبادات ومعاملات وحياة اجتماعية وثقافية وتعليمية وعسكرية، وكل ما هو موصول الأسباب بأمور الدين والدنيا.

وأما الفصل الثالث فقد جعلناه لعرض نماذج قدمناها من ثلاثة كتب كانت أكثر عناية من غيرها بأمثال رسول الله ﷺ وهى: الأمثال لأبى عبيد، وأمثال النبى لابن خلاد الرامهرمزى، وجمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى.

والباب الثامن فى كتابنا هذا هو « أسلوب القرآن وأسلوب النبى » وقد جعلناه فى أربعة فصول:

الفصل الأول عنوانه « التسليم الفطرى بأن القرآن كلام الله » هكذا فعل المؤمنون الأولون، وهكذا وقف المشركون أمامه متحيرين بدافع من فطرتهم البلاغية؛ لأن سماعهم القرآن كان يهزّهم هزًّا.

ولقد ضربنا لذلك عددا من الأمثلة، منها: عتبة بن ربيعة حين ناب عن أعيان قريش فى التحدث إلى رسول الله ﷺ كى يثنيه عن الدعوة إلى الله، فأسمعه النبى: ﴿ حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فقال عتبة لقريش: فكأن الكعبة مالت حتى خفت أن تمسّ رأسى من أعجازها.

ومثله أيضا الوليد بن المغيرة الذى يسمع السورة نفسها فيقول عن القرآن الكريم ذلك القول الجميل الذى ذاع على ألسنة القرآنيين: إن أعلاه لمورق، وإن أسفله لمعذق، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وليس هذا من كلام البشر.

ومثال ذلك أيضا البدوى الذى سمع رجلا يقول: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ فخرّ ساجدا يقول: سجدت لفصاحة هذا الكلام.

والفصل الثانى جعلنا عنوانه « القرآن معجزة محمد ﷺ » وفيه عرضنا لوجوه الإعجاز عند عدد من العلماء المعنيين بموضوع إعجاز القرآن الكريم وبخاصة الخطابى والباقلانى وأبى الحسن الماوردى، ثم عرضنا وجوه الإعجاز عند كل واحد من هؤلاء العلماء بشىء من التفصيل، مع الإشارة إلى وجهة نظر الباقلانى فى الفرق بين أسلوب القرآن وكلام الرسول .

وفى الفصل الثالث قدمنا نماذج اختيرت تلقائيا من الكتاب العزيز من سور: فصلت ، المؤمنون ، الرعد ، الكهف ، الحج ، فاطر ، البقرة ، آل عمران ، النور ، الإسراء .

إنها مجرد نُقُول مما وقعت العين عليه دون اختيار سابق أو اعتبار متعمد، كما نقلنا نماذج أخرى من كلام الرسول ﷺ سواء من حكمه أو توجيهاته أو خطبه، فإذا هى فوق كلام الشعراء والخطباء والحكماء والأبيناء، إنها فى إشراقها فوق كلام البشر ودون كلام الله .

والفصل الرابع خصصناه لعرض التناول القرآنى والتناول النبوى لقضايا بعينها عالجها القرآن، وتحدث فيها رسول الله ﷺ مثل: رحمة الله، الجهاد فى سبيل الله، اليتامى والمساكين، مكانة الأنصار ومحبتهم، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما ألمحنا إلى موضوعات الربا، الظلم، طلب العلم، كنز المال، وغير ذلك. فإذا كلام الله معجز بإطلاق، وإذا بكلام الرسول دون كلام الله وفوق كلام جميع الناس.

والباب التاسع خصصناه لموقف رسول الله ﷺ من الشعر، وجعلنا عنوانه « الرسول والشعر » وهى قضية تبدو لأول وهلة وكأنها شائكة تحتاج إلى حرص فى التناول وتردد فى إصدار الأحكام، ذلك أن نصوصا ثلاثة تفرض نفسها على الباحث الذى يعالج تلك القضية : نصان من القرآن الكريم، ونص من الحديث الشريف، فأما النصّان القرآنيان فهما قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۞ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (1) وقولـه تعـالى :

(1) سورة يس ، الآيتان : ٦٩ ، ٧٠ .

﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾(١)

وأما الحديث الشريف فهو قوله ﷺ : « **لأن يمتلىء جوف أحدكم قَيْحًا خير من أن يمتلىء شعرا** » .

لقد ذهب قلة من المفسرين إلى أن هذه النصوص تفيد تحريم الشعر، غير أن الأمر ليس كذلك ، فإن قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ يعنى أن الله ـ سبحانه ـ لم يمنح محمداً ﷺ ملكة الشعر؛ لأن محمدا أسمى مكانة وأرفع مرتبة من أن يكون شاعرا، وكان ذلك ردا على الذين ظنوا أن محمدا شاعر، وأن القرآن شعر؛ ولذلك كانت بقية الآية ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ وأما الآيات التى جاءت فى سورة الشعراء فإن المقصود بها الشعراء العابثون الذين يقولون الشعر المنحرف الذى ينال من أعراض الناس، وينتقص من مروءاتهم، أما الشعراء المؤمنون الذين يحسنون القول ويجعلون من الشعر أداة للدفاع عن الفضيلة ووسيلة لمكارم الأخلاق، فهؤلاء هم الذين عنتهم الآية الكريمة بالاستثناء؛ لأنهم مؤمنون يعملون الصالحات، ويذكرون الله، ومن ثم يكون الحديث الشريف الذى استقبح حفظ الشعر إنما يقصد ذلك الشعر الذى يتخذ وسيلة للإضرار عوضا عن أن يكون أداة نفع وهداية .

ولقد كان شعراء رسول الله فرسان الكلمة، خاضوا معارك الدعوة والدفاع عنها والذود عن حياضها بأقلامهم وأشعارهم، مثلما خاضها غيرهم من الصحابة بسيوفهم ورماحهم، بل إن من بين شعراء رسول الله من خاض المعارك بشعره وسيفه مثل عبد الله ابن رواحة الذى دافع عن الرسول وذاد عن الدعوة بشعره، مثلما اشترك فيها بسيفه قائدا لجيش المسلمين فى غزوة مؤتة، وظل ممسكا بسيفه إلى آخر قطرة فى دمه، ونال شرف الشهادة فى سبيل الله .

---

(١) سورة الشعراء ، الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٧ .

لقد قام الشعر بمهام عظمى فى صحبة رسول الله ﷺ ومن هنا كان هذا الباب أطول من غيره من أبواب هذا الكتاب؛ إذ تضمن تسعة فصول :

فالفصل الأول تعامل مع قضية « الرسول وموقفه من الشعر » وفيه تناولنا حقيقة أن الرسول لم يقل الشعر، ورفضُهُ للشعر القبيح ،ولكنه كان يستمع إلى الشعر الجاد ويمتدحه ويطرى صاحبه، وهو ﷺ القائل فى أكثر من مناسبة حال استماعه إلى شعر جيد : « **إن من البيان لسحرا** » وقال لخفاف الثقفى حين أنشده شعرا جميلا : « **إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة** » . وحين سمع بيت سويد بن عامر المصطلقى :

لَا تَـأْمَـنَنَّ وإِنْ أَمْسَـيْتَ فى حَـرَمٍ
إنَّ المـنـايَـا بِكَفَّـىْ كُـلِّ إِنْسَـانِ

قال : « **لو أدركته لأسلم** » .

وكان ﷺ يردد الشعر مع الصحابة يوم أحد لما دميت أصبعه متمثلا قول عبد الله بن رواحة :

هَـلْ أَنـْتِ إِلاَّ إِصْبَـعٌ دَمِيـتِ ... وفـى سَبِيـلِ اللهِ ما لَـقِيتِ

وكان عنوان الفصل الثانى « شعراء الصحابة يمدحون الرسول » والشعراء الصحابة من الكثرة بمكان، وكانوا يتسابقون فى مدح رسول الله ﷺ بالقول الجميل والشعر الأخاذ، وفى مقدمتهم حسان بن ثابت، والعباس عم رسول الله ﷺ والعباس بن مرداس السلمى، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، ومالك بن نمط، وعمرو بن سالم الخزاعى، وأنس بن زنيم، وخفاف بن نضلة الثقفى، وبجير بن زهير بن أبى سلمى .

كان هؤلاء الشعراء وغيرهم يطلبون إليه ﷺ أن يستمع إليهم ينشدون مدائحهم فيه، فكان يستجيب لهم، تكريما لهم، وتشجيعا لقرائحهم .

وكان الفصل الثالث فى « استسقاء النبى ﷺ » لقد كان الشعراء يناشدون الرسول

الاستسقاء بشعرهم، وقدمنا أكثر من مثال فى ذلك، منها استسقاء جده عبد المطلب لقومه حين كان الرسول غلاما، وقد رفعه جده على عاتقه.

وكان الرسول من سماحة النفس وبشاشة الوجه بحيث يطلب من الصحابة أن ينشدوه شعرا قاله عمه أبو طالب - وكان أبو طالب شاعرا مجيدا مقلاً - وقد استسقى به ﷺ وهو طفل.

وخصصنا الفصل الرابع للرسول وخبر قس بن ساعدة، وكان قس بن ساعدة حكيما فصيحا خطيبا شاعرا يؤمن بالله وبالبعث والقيامة، كان الرسول يسأل الصحابة من منهم يروى أبيات قس:

فى الـــذاهبيـــن الأوليـــن   من القـــرون لنـــا بصـــائر

وأبياتا أخرى له، فيسارع بعض الصحابة إلى إنشادها بين يديه، فيقول ﷺ: «**يرحم الله قسًّا، أما إنه سيبعث يوم القيامة أمة وحده**».

ومثلما خصصنا قس بن ساعدة بفصل وحده، فقد خصصنا كعب بن زهير وخبر إسلامه بفصل مستقل به أيضا هو الفصل الخامس. إن كعبا بعد أن كان لسان سوء فى حق الدعوة وصاحبها ﷺ يثوب إلى رشده بتوجيه من أخيه بجير، فيذهب إلى رسول الله ويدخل إليه فى مسجده عند صلاة الصبح ويعلن توبته، ثم ينشده قصيدته الشهيرة «بانت سعاد» فيحسن الرسول الاستماع إليه، ويخلع عليه بردته، وحين عرّض كعب بالأنصار فى بيت من قصيدته بسبب موقف بعضهم منه طلب إليه الرسول أن يمدحهم، فاستجاب إلى طلب الرسول ﷺ ومدحهم بأبيات رقيقة.

وكان عدد من صحابيات رسول الله شاعرات مجيدات، ومن ثم أفردنا لهن فصلا فى هذا الباب هو الفصل السادس، وجعلنا عنوانه «الصحابيات الشاعرات» اللاتى تأتى فى مقدمتهن الخنساء، وكان الرسول ﷺ يستمع إليها مستحسنا شعرها، ومنهن صفية عمة رسول الله، ونعم امرأة الصحابى شماس بن عثمان، وقد قالت فى رثائه أبياتا من أرق ما قيل فى الرثاء، وقتيلة بنت النضر التى أسمعت رسول الله رثاءها فى أبيها، وكان أسر وقتل يوم بدر، فتأثر رسول الله عند سماعه أبياتها وقال: «**لو بلغنى هذا قبل**

قتله لمننت عليه » وفى سياق الفصل عرضنا للشيماء ـ أخت رسول الله من الرضاع ـ وشعرها فيه طفلا، ثم شعرها حين وقعت فى السبى يوم حنين وهو لا يعرفها، وما كان من إكرامه لها، وهند بنت أثاثة التى كانت تناقض شعر هند بنت عتبة فى أبياتها فى مقتل حمزة عم رسول الله ﷺ.

ولقد تضمن الفصل السابع « الشعر عام الوفود » حيث كانت القبائل تبعث بوفودها إلى المدينة ومعهم خطباؤهم وشعراؤهم يعلنون إسلامهم ويبايعون رسول الله ﷺ مثل همدان، وجهينة، وبنى عذرة، ومزينة، وبنى كلب، وبنى قشير، وبنى تميم، لقد صنعَت بعض هذه الوفود ما يشبه مهرجانات للشعر، وكان من أشهر هذه الوفود التى احتفلت بالشعر على نطاق واسع وفد تميم وعلى رأسهم عطارد بن حاجب ابن زرارة، والزبرقان بن بدر، والأقرع بن حابس، وجرت مباريات فى الخطابة والشعر بين خطباء الرسول وشعرائه وخطباء تميم وشعرائها، كان الفوز فيها لشعراء رسول الله وخطبائه، وكان لحسان القدح المُعَلَّى فى ذلك، حتى إن الأقرع بن حابس قال: إن هذا الرجل ـ يقصد الرسول ـ لمؤتَّى له، لَخَطِيبُه أخطبُ من خطيبنا، ولَشَاعِرُه أَشْعَرُ من شاعرنا!!

كان عام الوفود علامة من علامات النصر للإسلام والمسلمين، القبائل تتوافد يتقدمها شيوخها، والشعراء يتسابقون فى إعلان إسلامهم، وتقديم البيعة لرسول الله ﷺ.

وتناولنا فى الفصل الثامن شعر الغزوات والسرايا، وهو كنز نفيس وتراث جليل اشتمل على نماذج من الشعر فى غزوة الخندق، وبنى قريظة، ومؤتة، وفتح مكة، وغير ذلك، وكان أبطال شعراء المسلمين فى هذه الغزوات حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، والعباس بن مرداس، وغيرهم من شعراء الدعوة، وكانت ثمت معارك شعرية أخذت شكل النقائض بين شعراء المسلمين وشعراء المشركين، ومن الأخبار الطريفة أن بعض شعراء المشركين أعلنوا إسلامهم يوم فتح مكة، ونقضوا كل ما سلف لهم من شعر، واستنكروا كل ما صدر عنهم من قول، وعلى رأسهم عبد الله بن الزبعرى.

وكان الفصل التاسع والأخير فى هذا الباب مخصصا لمراثى شعراء الرسول لشهداء الغزوات . إن القدر من الشعر الذى قيل فى هذا الغرض من الكثرة بمكان ، ومن الوفرة بمقدار، ومن الرقة وجَيَشَان العاطفة بحيث فرض نفسه على مسيرة الشعر العربى فى موكب الدعوة الإسلامية الباكرة .

كانت أكثر المناسبات وفرة فى الرثاء غزوة أُحُدٍ إثر استشهاد عدد كبير من الصحابة ، وعلى رأسهم حمزة عم رسول الله الذى استأثر بأكبر قدر من قصائد الرثاء ؛ وذلك لمكانته بين الصحابة ، ولحزن رسول الله عليه حزنا شديدا .

لقد شكّل شعر غزوة أحد معركة شعرية كبرى ، خاضها من الجانب الإسلامى حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة . ومن جانب المشركين عبد الله ابن الزبعرى ، وضرار بن الخطاب الفهرى ، وهبيرة المخزومى ، وعمرو بن العاص ، بل لقد اشتركت فيها بعض الشاعرات مثل صفية عمة رسول الله وشقيقة حمزة ، ونُعْمُ من جانب المسلمين ، وهند بنت عتبة من جانب المشركين .

كان محور المعانى التى دارت عليها المعركة الشعرية الإيمان بالله ، والعزة بالإسلام ، وحب الاستشهاد فى سبيل الله ، ونعت الجانب الآخر بالشرك والضلال ، وأما محاور معانى الشعر عند المشركين فلم تزد عن طَرْقِ المعانى الجاهلية ، والافتخار بقتل حمزة ورفاقه .

ومثلما نشط شعر الرثاء بعد موقعة أحد ، فإنه قد ازداد نشاطا أيضا بعد غزوة مؤتة حيث استشهد أمراء الجيش الثلاثة الواحد بعد الآخر: زيد بن حارثة ، ثم جعفر بن أبى طالب ، ثم عبد الله بن رواحة ، وقد استأثر جعفر بالنصيب الأوفر من قصائد الرثاء لمكانته الخاصة عند رسول الله ؛ فهو ابن عمه ، وأول المهاجرين إلى الحبشة ، وهو واحد من أقرب رجال بيت النبوة شبها برسول الله ، ولشدة حزن الرسول لموته وبكائه عليه حتى انتحب ، وكان الرسول ﷺ يقول له : « **أشبهت خَلْقِى وَخُلُقِى** » .

ومن عجائب غزوة مؤتة أن عبد الله بن رواحة ثالث أمراء جيشها كان قد رثى نفسه بأكثر من مقطوعة شعرية وهو فى طريقه إلى أتون المعركة .

والباب العاشر والأخير من كتابنا هذا، موضوعه « الأنواع البلاغية فى كلام رسول الله ﷺ » .

لقد وجد البلاغيون والنقاد ثروة كبيرة، وزادًا وافرا من الموضوعات البلاغية فى كتاب الله وكلام رسول الله ﷺ.

ولما كان البلاغيون قد حصروا الأنواع البلاغية فى أقسام ثلاثة، هى : المعانى، والبيان، والبديع، ثم وضعوا تحت كل قسم ما يتناسب معه من أنواع، فقد قسمنا هذا الباب إلى ثلاثة فصول :

اختص الفصل الأول بعلم المعانى وما يقع فى إطاره من أنواع، وإذا كان البلاغيون قد حصروا مسائل علم المعانى فى عشرة موضوعات، فإن الذى نتعامل معه منها فى مجال الكلام النبوى أربعة فقط، هى: الإيجاز، والإطناب، والإبهام والتفسير، والمساواة .

ولقد تمثلنا للإيجاز بنماذج كثيرة من كلام الله، وكلام الرسول، وهو فى الحقيقة إيجاز وإعجاز، وتناولنا الإطناب من خلال المنهج نفسه فى الكتاب والسنة، ثم عرجنا على الإبهام والتفسير، وهو كثير فى كتاب الله، وفير فى كلام رسول الله، ثم عرضنا للمساواة فى كلام الرسول، وهو بحر واسعُ مابين الشاطئين؛ لأن الأصل فى كلام رسول الله هو التوسط والمساواة، فهو السمت الغالب على كلامه ﷺ ولقد أجرينا تطبيقات كثيرة، وعرضنا نماذج متنوعة .

والفصل الثانى من هذا الباب خصصناه « للبيان » وكان أول ما عنينا به فى هذا الفصل هو موضوع التمثيل والمماثلة، وهو كثير فى كتاب الله، وكلام رسول الله ﷺ وقد جرى التمثيل فى كلام الرسول فى مجالات كثيرة، مثل الاعتصام بالكتاب والسنة، ومكانة الرسالة المحمدية، ومثل مكانة الرسول بالنسبة للأنبياء الآخرين، والقرآن وقراءته، والجليس الصالح وجليس السوء، ومماثلات للعبادات من وضوء وصلاة وصوم، وتمثيلات عدة لبناء المجتمع الإسلامى .

وانصرف اهتمامنا كذلك إلى بقية الأنواع البلاغية فى إطار « البيان » وبخاصة التشبيه

والمجاز والاستعارة والكناية، وأوردنا تعريفا شافيا لكل نوع من هذه الأنواع، وأتينا بنماذج منها .

ولقد عمدنا إلى توسيع الحديث عن المجاز؛ لأنه كثير فى كلام رسول الله، مثلما هو كذلك فى الكتاب العزيز، ذلك أن المجاز هو الأصل الذى تتفرع عنه أصناف البيان، فالاستعارة من المجاز ، والتشبيه من المجاز ، وكذلك الكناية من المجاز . ولقد جئنا بنماذج كثيرة من المجاز النبوى، وقد كان لكتاب « المجازات النبوية » للشريف الرضى يد كريمة فى تقديم مادة علمية وفيرة لنا فى هذا الفصل، أعانت على تقديمه فى إطار من الكفاية والوضوح .

والفصل الثالث جعلناه « للبديع » فى حديث رسول الله، ولقد قسم البلاغيون البديع إلى أقسام عديدة، غير أن أشهرها وأكثرها استعمالا قسمان، هما : السجع، ثم الجناس، والسجع مستقبح إذا كان متعسفا معاكسًا للطبع، مثل سجع الكهان الذى ذمه رسول الله ﷺ أما السجع الذى يوافق الطبع فهو ذلك الذى سرى حميدا فى كلام رسول الله ﷺ ولقد حفل الفصل بنماذج كثيرة من سجع رسول الله .

وكان تناولنا للجناس فى حديث رسول الله فيه مزيد من الإبانة والإيضاح، فقد قسم البلاغيون الجناس إلى جناس كامل، وجناس غير تام أو ناقص، فأما الجناس التام فلم نعثر فى كلام رسول الله إلا على مثال واحد هو قوله ﷺ : «**خلّوا بين جرير والجرير** » يقصد بذلك أن يُترك جرير بن عبد الله قابضا زمام الناقة . وأما الجناس غير التام فقد تجاوزت أصنافه خمسة عشر صنفا، ولم تكن أحاديث رسول الله متعاملة معها جميعا، وإنما وردت بعض الأحاديث ذات الجناس المختلف، والمطلق، والمصحَّف، والمضارع، والمعكوس، ولكنها قليلة ونادرة .

تبقى بعد ذلك المحسنات المعنوية الأخرى التى جاءت فى كلام رسول الله ﷺ وهى الطباق، والمقابلة، ثم لزوم ما لا يلزم، وهو قليل سواء فى القرآن أو فى الحديث، ثم الإرصاد، واللف والنشر، وهما موجودان فى كلام الله وكلام الرسول، ولكنها أيضا قليلة إلى حد الندرة، وعلى الرغم من ذلك فلقد عمدنا إلى تقديم ما هو متاح من نماذج هذه الأنواع، ما هو شائع منها وما هو نادر أو قليل .

وفى الختام نسأل الله أن يتقبل هذا الجهد، وأن يجعله مصدر نفع لمحبى كلام رسول الله ، ونبع معرفة لكل من شغلوا بسيرة رسول الله ، وجميع من شاقهم أن يدرسوا بيان محمد ﷺ فهو أفصح الفصحاء وأبين الأبيناء، يحدو كلامه التوجيه الإلهى لشخصه الشريف فى قوله : « **أدبنى ربى فأحسن تأديبى** » ويحدد مقاصده النهج المستقيم الذى تمثل فى قوله ﷺ : « **بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** » .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ ولك الحمد ربنا ولك الشكر، عليك توكلنا وإليك أنبنا، وعليك قصد السبيل .

مصطفى محمد الشكعة

مصر الجديدة فى ٢٨ من المحرم ١٤١٦ هـ.

٢٦ من يونية (حزيران) ١٩٩٥م.





سمات الرسول وصفاته وشمائله
فى الجاهلية والإسلام

الفصل الأول : قبل المبعث وبعده

الفصل الثانى : فصاحته ﷺ

الفصل الثالث : أدب الحوار فى كلام رسول الله

الفصل الرابع : الرسول يتحدث لغات القبائل





الفصل الأول

شخصية محمد : قبل المبعث وبعد المبعث



سمات الرسول ﷺ
وصفاته وشمائله قبل المبعث وبعده

فى الجاهلية :

محمد ﷺ سيد البشر وخاتم الرسل ، وهو البشير النذير ، وهو الصادق الأمين ، ورسول رب العالمين ، الشفيع يوم العطش الأكبر ، حيث لا شفاعة لنبى إلا هو ، صاحب العلم الكبير الذى يظل به أمته يوم الحشر العظيم ، أمته شهداء على الناس وهو عليهم شهيد ، اصطفاه الله واجتباه فخصه بالتكريم ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] وأكرمه بعظمة ورفعة الذكر ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾[2] وآثره بين جميع رسله بالرسالة الخاتمة : رسالة الإسلام الذى يجُبُّ ما قبله، فهو بحق خاتم النبيين، وسيد المرسلين ، ورسول رب العالمين .

كان محمد ﷺ قبل الرسالة فتى قريش الذى إليه يطمئنون ، وبأمانته يعترفون ، وباستقامته يضربون الأمثال ، فكان يعرف بينهم بالأمين ، وكان ﷺ ذا مهابة وجلال وجمال وهو فى فجر صباه ، وكان علماً فى قومه ، ما من قرشى لايعرف محمداً الصبى المستقيم ، والشاب الأمين ، مع تلافيه حضور مجتمعاتهم الصاخبة ، فقد عصمه الله من أوزارها ، وجنبه المشاركة فى عاداتهم الجامحة ، وأنجاه ربه من مباذلها، ومن ثم كانت صفحته قبل الرسالة وضاءة الجنبات ، وسيرته قبل النبوة عاطرة النفحات .

ولعل من المستحب ونحن نتحدث عن محمد ﷺ قبل البعثة أن نذهب بعيداً فى الزمان إلى ديار بنى سعد ، حيث كان محمد الرضيع يلقى الحب والعناية ، والحنان والرعاية ، من مرضعته حليمة ، ومن ابنتها الشيماء أخت محمد فى الرضاع .

---

(١) سورة القلم ، الآية : ٤

٢) سورة الشرح ، الآية ٤ .

كان للشيماء إخوة آخرون أشقاء ، رُضَّع ويافعون ، ولكن أحداً منهم لم يلق من الحب منها ما لقى محمد الرضيع الذى بحلوله بينهم حل الخير واتسع الرزق وعمت البركة ، هذا فضلاً عن جمال الطفل محمد ، وطيب ريحه وبهاء طلعته وفرط رقته .

كان من عادة نساء العرب أن يرقّصْنَ أطفالهن الرضع بضرب من الشعر عرف «بشعر الترقيص» . ولشدة تعلق الشيماء بحب أخيها الرضيع محمد ، فقد آثرته دون بقية إخوتها الأشقاء بأبيات من إنشائها بالغة الرقة ، داعبته بها غناء ونشيداً .

قالت الشيماء (واسمها حذافة ، وقيل : خذامة) ترقص الرضيع محمداً : [1]

يـا ربنا أبق أخـى محمـداً حـتى أراه يافـعاً وأمـرداً

واكبِتْ أعاديه معًا والحُسَّدَا وأعطـه عـزًّا يـدوم أبـداً

***

هـذا أخ لى لـم تلـده أمـى وليس مـن نسـل أبى وعمـى

فديـته مـن مخـول مُعـمٍّ فأنْمِهِ اللهـم فيمـا تُنْمـى

وكان محمد ﷺ يستسقى به وهو طفل إذا ضرب القحط قومه وعز المطر ، ذلك أن جده عبد المطلب ـ أو شيبة الحمد ـ كان إذا عم القحط ، وجفت الأرض ، وأضير الزرع والضرع ، فزع الناس إليه ليستسقوا بدعائه ، فكان إذا نهض إلى ذلك حمل حفيده محمدا الغلام على عاتقه ، ثم بدأ دعاء الاستسقاء .

إن «رُقَيْقَة» بنت أبى صيفى القرشية ، وكانت لدة لعبد المطلب تروى خبرا فى هذا الشأن ، وقد استسقى عبد المطلب لقومه، وحفيده محمد محمول على عاتقه ، فقالت[2]:

« تتابَعتْ على قُرَيْشٍ سِنُو جَدْبٍ ، أَقْحَلت الأرضَ والضَّرعَ ، وَأَرَقَّتِ العَظْمَ ، فبينا

(١) سبل الهدى والرشاد ١ / ٤٦٤ .

(٢) منال الطالب ١/ ٢٠٢ أخرجه الخطابى وأبو نعيم والزمخشرى ، وهو من حديث المِسْور بن مخرمة بن نوفل قال مخرمة : حدثتنى أمى رقيقة .

أنا راقدةٌ ـ اللَّهُمَّ ـ أو مُهَوِّمةٌ ، ومعى صِبْوَتى ، إذا أنا بهاتفٍ صَيِّتٍ يَصْرُخ بصوتٍ صَحِلٍ ، اقْشعَرَّ له جلدى ، يقول : يا معشرَ قريشٍ ، إن هذا النبىَّ المبعوث منكم قد أَظلَّتْكم أيّامُه ، وهذا إبّانُ نُجُومِه ، فَحَيَّ هَلاً بالحَيَا والخِصْب ، ألا فانظروا فيكم رجلاً وَسِيطًا عُظاماً جُساماً طُوالاً ، أبيضَ بَضًّا ، أَشَمَّ العِرْنِين ، أوْطفَ الأهداب ، سَهْلَ الخَدَّين ، له فَخْرٌ يَكْظِم عليه ، وسُنَّةٌ تَهْدى إليه ، ألا فَلْيَخْلُص هو وولَدُه ، ولْيَدْلِف

المعانى :

رُقَيْقَةُ : هي بنت أبى صَيْفِيّ بن هاشم بن عبد مناف . ويُشبه أن تكون تصغير الرَّقَّة ، وهى كل أرض إلى جَنْب وادٍ يَنْبسط عليها الماءُ أيّامَ المَدّ ، ثم يَنْضُب ، فتكون مَكْرُمة للنَّبات .

واللِّدَةُ : مصدر ولَدَ يَلِدُ لِدَةً ، كالعِدَة والزِّنَة ، مِن وعَد ووزَن . أي : أنها كانت في سِنّ عبد المطَّلب بن هاشم ، ومِن أقرانه ، لاتِّفاق ولادتها ، وكان عبد المطَّلب عَمَّها .

والجَدْب : القحْطُ .

والأصل في سنُو : سِنُونَ . فحذف النُّونَ لإضافتها إلى الجَدْب ، وهو من الجموع الشَّاذَّة .

وأقْحَلَتْ : أي أيْبَسَت الأرضَ فلم تَدَعْ فيها نباتاً ، والضَّرْعَ فلم تَدعْ فيه لَبَنا .

ويروى : « أقْحَلت الظِّلْفَ وهو للشَّاءِ كالحافِر للفَرَس ، وتُريد ذاتَ الظِّلْف ، أي : أن السِّنينَ المُجْدِبة هَزَلت الماشيةَ .

ويُرْوَى : « وأفْنَت العَظْمَ » أي : أذابَتْه .

والرُّقُود : النَّوم المُسْتحِكم المُمْتدُّ .

والتَّهْويم : النَّومُ الخفيف ، يقال : هَوَّم وتَهوَّم ، وكأنه من الهامة : الرأسِ . أي : حَرَّك رأسَه من النُّعاس .

والصِّبْوة : الأولاُد الصِّغار ، جمع صبىٍّ .

والهاتِف : الصائح ، وأكثر ما يُطلَق على مَن لا يُرَى شَخصُه .

والصَّيِّت : العالي الصَّوت .

والصُّراخُ : عُلُوُّ الصَّوْت .

والصَّحِلُ : الذي فى صوته بُحَّةٌ تُذهِبُ حِدَّتَه ، وهو مُسْتَلذٌّ فى السَّمْع .

واقْشَعَرَّ الجلْدُ : إذا ارْتَعَد وقام شَعَرُه ، كالذى يَعْرِض له عند مُفاجأة البرد .

وإبَّانُ نُجُومِه : وقتُ ظُهورِه . وإبَّانُ : فِعْلانُ من أبَّ الشىءُ : إذا تَهيَّأ .

ونجم النَّبتُ يَنْجُم : إذا طَلَع وظَهَر .

وحَيَّ هَلا : كلمةٌ مُرَكَّبَة من كلمتين ، إحداهما حَيَّ ، ومعناها هَلُمَّ وأَقْبِل ، والأخرى هَلاً ، وهى حَثٌّ واستعجالٌ .

والحَيَا ـ مقصوراً ـ : المَطَر ؛ لأنَّ به حياة الأرض .

والخِصْبُ : ضدّ الجَدْب ، وهو مِن أثر المطر .

والوَسِيطُ : أفْضَلُ القوم ، من الوَسَط .

والعُظامُ : العَظِيمُ القَدْرِ .

والجُسَامُ : العظيم الجِسْمِ .

والطُّوالُ , الطَّويلُ القامةِ .

والبَضُّ : الرَّقِيق اللَّونِ الذى يُؤَثِّر فيه كلُّ شىء .

إليه من كُلِّ بَطْنٍ رجلٌ ، ألا فَلْيَشُنُّوا من الماء ، ولْيَمَسُّوا من الطِّيب ، ولْيَسْتَلِمُوا الرُّكْنَ ، ولْيَطَّوَّفُوا بالبيت العتيق سَبعاً ، ثم لْيَرْتَقُوا أبا قُبَيْس ، ألا وفيهم الطَّيِّبُ الطاهِرُ لداتُه ، ألا فَلْيَسْتَسْقِ الرجلُ ، ولْيُؤَمِّنِ القومُ ، ألا فَغِثْتُمْ إذاً ما شِئتم وعِشْتُم .

قالت : « فأصبحتُ ـ عَلِمَ اللهُ ـ مَذْعُورة ، قد قَفَّ جِلْدِى ، ووَلِهَ عَقْلى ، فاقْتَصَصْتُ رُؤْياى ، ونِمْتُ فى شِعاب مكَّةَ ، فوالحُرْمَةِ والحَرَم إن بقى بها أبْطَحىٌّ إلاّ قال : هذا شَيْبَةُ الحَمْد ، وتَتامَّتْ عنده رجالاتُ قُرَيش ، وانقَضَّ إليه من كلِّ بَطْنٍ

= والعِرْنِينُ : الأنفُ ، وقيل : أعلاه .

والشَّمَمُ : ارتفاعُ أَرْنبة الأنف ، مع امتداد القَصَبة .

والأهداب : شَعَرُ أجفانِ العين .

والوَطَفُ : طُولُها .

وسَهْلُ الخَدَّين : طويلُهما غير ناتئهما .

والكَظْمُ : الكَتْم والإمساكُ على الشيء . تريد أنه من ذوى الفخر والشَّرف ، وهو يُخْفِى حَسَبه ولا يتبجح به .

والسُّنَّة : الطريقة الواضحة . أى أن سَجِيَّتَه وسيرتَه الجميلة تَهْدِي الناس إليه وتجمعهم عليه .

وقولها : « ألا فَلْيَخْلُصْ هو ووَلَدُه » أي : فلْيتميَّزُوا ، ولْيَنْفردوا من الناس .

والبَطْنُ : ما دُونَ القَبيلة وفوق الفَخِذ من العَشيرة .

والشَّنُّ ـ بالشين المعجمة ـ : صَبُّ الماء على الرأس والبَدَن متفرِّقاً ، ومنه شَنُّ الغارة : إذا أخذتَهم مِن نواحيهم .

واسْتِلامُ الرُّكن : لَمْسُه باليد وتقبيلُه .

والعَتيقُ : القديمُ من كلِّ شيء ، والعَتيقُ أيضاً : الكريمُ الخِيارُ من كلِّ شيء .

واللِّدَاتُ : جمعُ لِدَةٍ . تعنى أن مولدَه ومولدَ من مضَى من آبائه موصوف بالطُّهر والطِّيب .

والاستسقاء : طَلَبُ السُّقْيا مِن الله تعالى .

وقولها : « ألاَ فغثْتُم إذاً ما شِئتم » أي : مُطِرْتُم ، وهى بكسر الغين ، ، وقد تُضَمّ .

وقَفَّ الجلدُ : إذا تقبَّض وارتَعد .

والوَلَهُ : الحيرةُ والدَّهَشُ وذَهابُ العقل .

والشِّعابُ . الأوديةُ والأزِقَّة فيه .

والحُرْمةُ : حُرْمة البيت . والحَرَم : حَرَم مكة .

والأبْطَحىُّ : منسوبٌ إلى أبْطَح مكة ، وهو ظاهِرُها ، وهم سُكَّانُها من قريش وأهلُها .

وشَيْبة الحَمْد : لَقَب عبد المطلب ، سُمِّى به لشَيْبة كانت فى رأسه حين وُلِد ، واسمُ عبد المطَّلب : شَيْبَةُ ، وقيل : عامر ، وإنما قيل له عبدُ المطلب ؛ لأنَّ هاشِماً أباه تزوَّج سَلْمَى بنت زَيْدِ النَّجاريَّة ، فولدتْه ، فلما توفِّى هاشمٌ وشَبَّ الغلامُ انتزعه عمُّه المُطَّلب من أمِّه ، وأردَفَه على راحلته ، وقَدِم به مكة فسأله الناسُ عنه ، فقال : هو عَبْدِى ، حياءً أن يقول لهم : هو ابن أخى ، لرثاثة هيئته ساعَتَئذ ، فقال الناسُ : أردف المطلبُ عبدَه ، ولَزِمه هذا الاسم .

رجلٌ ، فشَنُّوا ، ومَسُّوا ، واسْتَلَموا واطَّوَّفوا ، ثم ارتَقَوْا أبا قُبَيْس ، وطَفِق القومُ يَدِفُّون حَوْلَه ، ما إن يُدْرِك سَعْيُهم مَهْلَه ، حتى قَرُّوا بِذرْوَة الجَبل ، واسْتَكَفُّوا جَنابَيْه .

فقام عبدُ المطلب ، فاعْتَضَد ابنَ ابنِه محمداً ، فرفعه على عاتقه ، وهو يومئذٍ غلامٌ قد أيفَع أو كَرَب ، ثم رفع يديه فقال : « اللهمَّ سادَّ الخَلَّةِ وكاشفَ الكُرْبة ، أنت عالِمٌ غير مُعَلَّم ، ومَسئُولٌ غير مُبَخَّل ، وهذه عِبِدَّاؤُك وإماؤُك بِعَذِرات حَرَمِك ، يَشْكُون إليك سَنَتَهم ، أذْهَبَت الخُفَّ والظِّلْفَ ، فاسْمَعَنَّ اللهُمَّ وأمْطِرَنَّ علينا غَيْثاً مُرْبِعاً مُغْدِقاً » . تقول رقيقة : فورَبِّ الكعبةِ ما رامُوا حتى تَفجَّرت السماءُ بمائها ، وكَظَّ الوادى بثَجيجه ، فسمعتُ شِيخانَ قُريش وجِلَّتَها : عبدَ الله بن جُدْعانَ ، وحَرْبَ بنَ أُميَّة ، وهشامَ بن المغيرة ، تقول لعبد المطَّلب : هنيئاً لك أبَا البَطْحاء » . وفى ذلك تقول رُقَيْقَة :

= والدَّفِيف : المَرُّ السَّريع ، وقد دَفَّ يَدِفُّ .
والسَّعْيُ : فوق المشى ، ودونَ العَدْو .
والمَهْلُ بالإسكان : التُّؤَدَة والتَّأنِّى .
والمَهَلُ ، بالتحريك : التَّقدُّم .
واسْتَكَفُّوا به : أحْدَقوا به وصاروا حَوْلَه ، من الكِفَّة - بالكسر - وهى ما كان مستديراً ، مثل كِفَّة الميزان .
والجَنابُ والجَنابة : الجانبُ والناحية .
واعْتَضَد الرجلُ بالصَّبىّ : إذا أخذ بعَضُدِه ورَفَعَه .
والعاتِق : أعلى الكَتِف إلى صفحة العُنُق .
والعِبِدَّاءُ - بكسر العين والباء وتشديد الدال والمَدّ والقَصْر - العَبيدُ ، جَمع عَبْدٍ .
والعَذِراتُ : جمع عَذِرةٍ ، وهى فِناء البيت .
والسَّنَةُ : الجدْب .
والخُفُّ للبعير : كالحافر للفَرَس ، وأرادَتْ ذواتَ الخُفّ .
والمُرْبِعُ : المَطَرُ الدائمُ المقيم ، المُغْنى عن الارتياد لعُمومِه .
والمُغْدِق : الواسع الكثير .
وما رامُوا : أى ما بَرِحُوا وما زالُوا ، وقد رامَ يَريم : إذا فارَق ، ولا يكادُ يستعمل إلا فى النفى .
وكَظَّ الوادى واكتظَّ : إذا امتلأ .
والثَّجِيج : الماء المصبوب المُتدفِّق ، فَعِيلٌ بمعنى مفعول .
وإنما قالوا لعبد المُطَّلِب : أبو البطحاء - وهى صحراء مكة ونواحيها - لأنَّ أهلَها عاشوا به ، وباستسقائه ، كما يُقال للمِطعام : أبو الأضياف .

بشَيْبةِ الحَمْـدِ أسْقَى الله بَلْدَتَنا ... وقـد فَقَـدْنـا الحَيَا واجْلَـوَّذَ المَطَـرُ

فَجـادَ بالمـاء جَـوْنِىٌّ لـه سَبَلٌ ... سَحًّا فعـاشَتْ بـه الأنعـامُ والشَّجَرُ

مَنًّـا مِن الله بالميمـونِ طائـرُهُ ... وخيـر مَن بُشِّـرتْ يـومـاً بـه مُضَـرُ

مُبارَكُ الوجـهِ يُسْتَسْقَى الغَمامُ به ... مـا فى الأنـامِ لـه عِـدْلٌ ولا خَـطَرُ

يورد محمد بن يوسف الشامى الصالحى هذا الخبر الذى يصور جانبا من صفات الرسول ﷺ وهو فى مستهل صباه [1]:

ذكر أبو هاشم محمد بن ظَفَر فى «خَيْر الْبِشَر بخير الْبَشَر» : حَجَّ أكثم بن صيفى حكيم العرب ، والنبى ﷺ فى سن الحُلُم ، فرآه أكثم ، فقال لأبى طالب : ما أسرع ما شبّ أخوك ! فقال : ليس بأخى ولكنه ابن أخى عبد الله ، فقال أكثم : أهو ابن الذبيحين ؟ قال : نعم . فجعل يتوسمه ثم قال لأبى طالب : ما تظنون به ؟ قال : نحسن به الظن ، وإنه لوفىّ سخىّ . قال : هل غير هذا ؟ قال : نعم ، إنه لذو شدة ولين ، ومجلس ركين ، وفضل متين (تُلاحظ بلاغة أبى طالب) . قال : فهل غير هذا؟ قال : إنا لنتيمّن بمشهده ، ونتعرف البركة فيما لمسه بيده . فقال أكثم : أقول غير هذا ، إنه ليضرب العرب قامطة ـ يعنى جامعة ـ بيد حائطة ، ورجْل لائطة ، ثم ينعق بهم إلى مَرْتَعٍ مَرِيع ، ووردٍ سريع ، فمن اخرورط إليه هداه ، ومن احرورن عنه أرداه » .

وفى تعففه ﷺ عن المشاركة فى عادات الجاهلية تقول أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله

وسَقَى وأَسْقَى بمعنىً ، وقيل : سَقَيْتُه لِشَفَتيه ، واسْقَيْتُه لماشيته وأرْضِه .
واجْلَوَّذَ المطر : أى ذَهَب وقَلَّ ، وأصلُه من اجْلَوَّذَ فى السَّيْر : إذا أسرع .
والجَوْنِىُّ : منسوبٌ إلى الجَوْن ، وهو الأسود أو الأبيض ، يعنى مَطَراً جاء من سَحابٍ أسودَ أو أبيضَ .
والسَّبَلُ ـ بالتحريك ـ المُسْبَل ، وقد أسْبَلت السماءُ : إذا هَطَلَتْ .
والسَّحُّ : الدافِق المُتَتابع .
وَالْمَيْمُونُ طائره : أى المبارك المُقْبِل السَّعيد . وهو من التَّيَمُّن بالطير السأنِحِ ، وَضِدُّه التشاؤم بالطَّير البارح . وتُريد به النبى ﷺ .
والعِدْل : المِثْل والنَّظير ، وقد تُكْسَر عينُه وتُفْتَح .
والخَطَر ـ بالتحريك ـ القَدْر والمَنزِلة ، وهذا خَطَرٌ لهذا وخَطِيرٌ : أى مِثْلُه فى القَدْر .
(١) سبل الهدى والرشاد ٢ / ١٨٩ .

عنها ـ : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يعيب كل ما ذبح لغير الله ، فما ذقت شيئاً ذبح على النصب حتى أكرمني الله برسالته**» (١).

وأما مكارم الفعال وجلائل الأعمال وخطير الاجتماعات والمسارعة إلى عمل المروءات فكان محمد الشاب يحرص عليها ويسهم فيها ، وإن قصة إعادة بناء الكعبة والاختلاف عن أى القبائل يضع الحجر الأسود فى مكانه من ركن البيت معروفة ، فلما أن اتفقوا على أن يضعه أول قادم ، وكان ذلك القادم هو الشاب محمد بن عبد الله استبشر الأقوام خيرا ، وقرّوا عينا ، فإن إجماعهم على حب محمد وتقديرهم لطهارة نفسه ونقاء ثوبه جعلهم يسندون الأمر إليه ، وكان ما كان من فرشه ثوبه ووضعه الحجر الأسود فى وسطه ، ثم طلب من كل قبيل أن يمسك طرفا من الثوب ، ويرفعوه إلى مستوى مكانه من البيت ، ثم أخذه بيده الكريمة ووضعه فى مكانه المعروف منذ أن رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل إلى يومنا هذا وإلى يوم يبعثون .

ويدخل فى إسهامه ﷺ فى كريم الفعال ومشاركته فى الخطير من الاجتماعات شهوده حلف الفضول ، والإشادة بهذا الحلف والتنويه بفضله .

يروى جبير بن مطعم ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدْعَان حلفاً ما أحبُّ أن لى به حُمْرَ النَّعَم ، ولو دعى به فى الإسلام لأجبت**» (٢).

كان هذا الحلف فيما روى محمد بن يوسف الصالحى (٣) فى ذى القعدة قبل المبعث بعشرين سنة مُنْصَرف قريش من الفِجَار ، ولرسول الله ﷺ يومئذ عشرون سنة . وكان أكرم حِلْف سُمع به وأَشْرفَه فى العرب .

وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وكان سببه أن رجلا من زَبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاصى بن وائِل السَّهْمى ، وكان ذا قَدْر وشرف بمكة ، فحبَس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيديُّ الأَحلافَ : عبد الدار

---

(١) دلائل النبوة لأبى نعيم ، صفحة ١٤٦ .

(٢) السيرة لابن هشام ١ / ١٣٤ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٢ / ٢٠٨ .

ومخزوما وجُمَحا وسَهْما ، فأبوا أن يعينوا الزبيدى على العاصى بن وائِل وزبَروه ونَهروه ، فلما رأى الزبيدى الشرَّ رَقى على أبى قُبَيْس عند طلوع الشمس وقريش فى أنديتهم حول الكعبة فقال بأعلى صوته :

يـا آل فِهـر لمظلـوم بضاعَتـه ... ببَطْن مكـةَ نائـى الـدار والـنفرِ

ومُـحْرم أَشعـث لم يقض عُمْرتَه ... يا لَلرجـال وبين الحِجْر والحـجَرِ

إنَّ الحـرام لمَـن تمَّـت مكارمـه ... ولا حـرام لثـوب الفاجـر الغـدرِ

فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال : ألهذا مَتْرك ؟ فاجتمعت هاشم وزُهْرة وتَيْم فى دار عبد الله بن جُدْعان فصنع لهم طعاما ، فحالفوا فى القعدة فى شهر حرام قياما فتعاقدوا وتعاهدوا ليكونُنَّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه ما بَلَّ بَحْر صوفة وما رَسَا حِرَاء وثَبِير مكانهما ، وعلى التآسى فى المعاش . فَسَمَّتْ قريش ذلك الحلف حِلف الفُضول وقالوا : لقد دخل هؤلاء فى فُضولٍ من الأمر . ثم مشوا إلى العاصى بن وائِل ، فانتزعوا منه سلعة الزبيدى فدفعوها إليه .

وقيل فى سبب تسمية هذا الحلف بحلف الفضول أن كان قد سبق قريشا إلى مثل هذا الحلف جُرْهم فى الزمن الأول فتحالف منهم ثلاثة هم ومن تبعهم ، أحدهم : الفضل بن فَضالة . والثانى : الفضل بن وَدَاعة . والثالث : الفضل بن الحارث . هذا قول القُتَبى . وقال الزبير : الفضل بن شراعة ، والفضل بن قضاعة ، فلما أَشْبه حلف الآخر فِعْل هؤلاء الجُرْهميين سمى حلف الفضول ، والفضول : جمع فَضْل ، وهى أسماء أولئك الذين تقدم ذكرهم .

وهناك قول آخر فى هذا الشأن رواه الحميدى عن سفيان عن عبدالله بن محمد وعبد الرحمن بن أبى بكر قالا : قال رسول الله ﷺ : « **لقد شهدت فى دار عبدالله بن جدعان حلفاً لو دعيت به فى الإسلام لأجبت ، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها ، ولا يعز ظالم على مظلوم** »[1] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٢ / ٢٠٩ عن السهيلى .

إن رواية الحديث على هذا النسق توضح لماذا سمى الحلف بحلف الفضول .

كان محمد ﷺ طفلا بينما توفى أبوه إبان حمل أمه به ، كفله جده عبد المطلب منذ مولده ثم كفله عمه أبو طالب بعد.وفاة جده ، ومن ثم لم يكن صاحب مال ، ولكنه كان بقومه عزيز الجناب ، وبسلوكه فتى قريش الذى لا يرجحه شاب آخر ، وقد صور عمه أبوطالب مقام ابن أخيه أجمل تصوير وأبلغه حين تقدم يخطب خديجة لمحمد قائلا[1]:

« الحمد لله الذى جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوجاً ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمد بن عبدالله ابن أخى من لا يوازن به فتى فى قريش إلا رجح عليه برًّا وفضلا ، وكرمًا وعقلا ، ومجداً ونبلا ، وإن كان فى المال قُلّ ، فإنما المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلىّ » .

تلك كانت شمائل محمد ﷺ فى صباه وقبل المبعث : سلوكه إرهاص بنبوته ، وخلقه يرشحه لمكانته ، وأدبه يبشر برسالته .

إن أم المؤمنين خديجة الكبرى تصف الرسول ﷺ حين أخبرها بخبر الوحى ، ووصف نزول جبريل عليه وقال لها : « لقد خشيت على نفسى » فقالت ـ رضى الله عنها ـ تسرّى عنه وتطيب خاطره وتثبت جأشه : « كلاّ ، والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لَتَصِلُ الرحم ، وتحمل الكَل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر » ثم أتت به بعد ذلك ابن عمها « ورقة بن نوفل » على النحو الذى فصلته كتب السيرة .

بهذه الكلمات الشديدة الإيجاز ، البعيدة الأعماق النبيلة المرامى ، وصفت أم المؤمنين خديجة محمدا أكمل وصف ، وصورته أصدق تصوير فى إيمان كامل بكل كلمة قالتها ، وكل لفظ نطقت به ، فلقد كانت تلك النعوت بعض أوصاف محمد ﷺ .

---

(١) صبح الأعشى ١ / ٢١٣ .

بعد المبعث :

إن محمدا الإنسان هو نفسه محمد الرسول المختار ، إن خلائقه وشمائله من جود وشجاعة وتقوى وحياء وأمانة وصدق وعفة وتصوُّن وحب للناس وصلة للرحم ، كل أولئك وأكثر قد تجمعت فى محمد الرسول وتحققت زبدتها فى شخصه العظيم .

هذا عبدالله بن عباس حبر هذه الأمة يصف رسول الله عن خُبْرٍ به فيقول : « **كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه كل ليلة فى رمضان فيدارسه القرآن** » ثم يمضى ابن عباس قائلا : **فَلَرَسُولُ الله ﷺ** أجود بالخير من الريح المرسلة .

وعن نسبه ومكانته بين بنى آدم يقول ﷺ :

« **إن الله ـ عز وجل ـ اختار خلقه ، فاختار منهم بنى آدم ، ثم اختار بنى آدم فاختار منهم العرب ، ثم اختار العرب فاختار منهم قريشا ، ثم اختار قريشا فاختار منهم بنى هاشم ، ثم اختار بنى هاشم فاختارنى منهم ، فلم أزل خيارا من خيار ، ألا مَنْ أَحَبَّ العربَ فَبحبِّى أَحَبَّهُمْ ، ومَنْ أَبْغَضَ العربَ فَبِبُغْضِى أَبْغَضَهُمْ** »(1).

ومن المواقف الجليلة التى وُصِفَ خلالها النبى ﷺ ذلك الموقف الذى وقفه أبوسفيان ابن حرب أمام قيصر لكى يستقصى فيه قيصر بعض خبر النبى ، وكان قد تسلم رسالة من الرسول ﷺ حملها دحية الكلبى ليسلمها إلى عظيم بصرى ، ليقوم هذا الأخير بدفعها إلى قيصر ، وكان قيصر آنذاك قد كتب له النصر فى حربه مع الفرس ، فسار من حمص إلى إيلياء (اسم من أسماء بيت المقدس) فى رحلة شكر لله على نصره إياه على جند فارس ، فلما أن تسلم قيصر كتاب رسول الله ﷺ قال حين قرأه : التمسوا لى هاهنا أحداً من قومه ، ولم يكن هذا الواحد غير أبى سفيان صاحب العداوة الشديدة لرسول الله ، فقد كان إذ ذاك على الكفر ، فهو لم يسلم إلا فى فتح مكة فى قصة معروفة .

---

(1) الشفا للقاضى عياض ، ص ٤٨١ رواه الطبرانى عن ابن عمر .

وها نحن ننقل الخبر كما رواه ابن عباس مستمدا من أبى سفيان نفسه. قال ابن عباس: [1] « أخبرنى أبو سفيان أنه كان بالشام فى رجال من قريش قدموا للتجارة فى المدة التى كانت بين النبى ﷺ وبين كفار قريش . قال أبو سفيان : فَوَجَدَنَا رسولُ قيصر ببعض الشام ، فانطلق بنا حتى قدمنا إيلياء ، فأدخلنا عليه ، فإذا هو جالس فى مجلسه وعليه التاج وحوله عظماء الروم . فقال لترجمانه : سلهم أيهم أقرب نسبا من هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ قلت : أنا أقربهم إليه نسبا . قال : ما قرابة ما بينك وبينه؟ قلت : هو ابن عمى . قال - أى : أبو سفيان لابن عباس - : وليس فى الركب يومئذ أحد من بنى عبد مناف غيرى ، قال : أدنوه منى ، ثمّ أمر بأصحابى فجعلهم خلف ظهرى عند كتفى ، ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه : إنى سائله عن هذا الذى يزعم أنه نبى ، فإن كذب فكذبوه .

قال أبو سفيان : والله لولا الحياء يومئذ أن يَأْثَرَ عنى أصحابى الكذب لكذبته عنه ، ثم قال لترجمانه : قل له : كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول أحد منكم قبله ؟ قلت : لا ، قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا ، قال : فهل من آبائه مَنْ مَلَكَ ؟ قلت : لا، قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم ، قال : فيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون ، قال : فهل يرتدّ أحد سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا ، قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن الآن منه فى مدة - يشير إلى المدة التى قاضاهم النبى ﷺ عليها يوم الحديبية وآخرها يوم الفتح - ونحن نخاف منه أن يغدر ، ولم يكن كلمة أُدْخِلُ فيها شيئا أَنْتَقِصُهُ بها لا أخاف أن تؤثر عنى غيرها . قال: فهل قاتلتموه وقاتلكم ؟ قلت : نعم ، قال : فكيف حربكم وحربه ؟ قلت : كانت دولا وسجالا ، يدال علينا المرة ، ويدال عليه الأخرى ، قال : فماذا يأمركم به ؟ قلت : يأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبى ، قسم المغازى ص ٤١٨ ، ٤١٩ .

قال : ـ أى : أبو سفيان ـ فقال لترجمانه : قل له : إنى سألتك عن نسبه فيكم فزعمت أنه ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها ، وسألتك : هل قال هذا القول أحد منكم قبله ؟ فزعمت أن لا . فقلت : لو كان أحد منكم قال هذا القول قبله لقلت : رجل يأتم بقول قد قيل قبله ، وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فزعمت أن لا ، فعرفتُ أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله . وسألتك : هل كان من آبائه مَنْ مَلَكَ ؟ فزعمتَ أن لا ، فقلت : لو كان من آبائه ملك قلت : رجل يطلب ملك آبائه ، وسألتك : أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فزعمت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل . وسألتك : هل يزيدون أم ينقصون ؟ فزعمت أنهم يزيدون . وكذلك الإيمان حتى يتم . وسألتك : هل يرتدُّ أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فزعمت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد ، وسألتك : هل يغدر ؟ فزعمت أن لا . وكذلك الرسل لا يغدرون ، وسألتك : هل قاتلتموه وقاتلكم ؟ فزعمت أن قد فعل وأن حربكم وحربه يكون دولا ، وكذلك الرسل تبتلى وتكون لها العاقبة ، وسألتك : ماذا يأمركم به ؟ فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة . وهذه صفة نبيّ قد كنت أعلم أنه خارج ، ولكن لم أظن أنه منكم ، وإن يكن ما قُلْتَ حقا ، يوشك أن يملك موضع قدميّ هاتين ، ولو أرجو أن أَخْلُصَ إليه لَتَجَشَّمْتُ لُقِيَّهُ ـ أى : لقاءه ـ ولو كنت عنده لغسلت قدميه » .

قال : ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ وأمر به فقرىء ، فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم : سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، وأَسْلِمْ يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين (*)

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا

(*) الأريسيون هم فلاحو السواد ، مفرده : أريس ، وقيل : هم قوم من المجوس غير أنهم لا يعبدون النار ، ويزعمون أنهم على دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقيل : إنه نسبة إلى فرقة تعرف بالأريسية فى رهط هرقل ، وقيل غير ذلك .

ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

قال أبو سفيان : « فلما أن قضى مقالته علت أصوات الذين حوله من عظماء الروم وكثر لغطهم ، فلا أدرى ما قالوا ، وأمر بنا فأخرجنا ، فلما أن خرجت مع أصحابى وخلوت بهم قلت : لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبى كَبْشَة (**) هذا ملك بنى الأصفر يخافه .

قال أبو سفيان : والله مازلت ذليلا مستيقنا بأن أمره سيظهر حتى أدخل الله قلبى الإسلام وأنا كاره » .

إن وصف المرء بالشمائل - فضلا عن ذروة الشمائل - يكون عادة من أصحابه ، أو من قوم ليسوا بالأصحاب ولا بالأعداء ، أما أن يجيء الوصف بقمة المحامد وذروة المكارم من عدوّ ، يزجى هذه الأوصاف مؤمنا بها وإن كان كارها لذكرها ، فهذا هو الأمر العجاب ، إن أبا سفيان وهو فى شدة عدائه لمحمد وذروة كراهيته للإسلام يقرر فى إجاباته لقيصر أن محمدا ذو نسب ، وأنه الصادق غير الكاذب ، وأن أحدًا لا يدخل دينه ثم يخرج منه ، وأنه صادق العهد لا يغدر ، وأنه شجاع فى الحرب ، وأنه يأمر بعبادة الله لا يُشْرَكُ به شيء ، وينهى عن عبادة الأصنام ، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وأين يحدث ذلك ؟ يحدث عند قيصر وكبار رجال دولته من حوله ، ولا يجد قيصر حرجا فى أن يمتدح محمدا ، بل يستخرج هذه الشهادة الجليلة بشمائل محمد ﷺ من قلب مشرك لم ينشرح صدره للإسلام إلا فى وقت متأخر .

وما دمنا بسبيل تسجيل أوصاف رسول الله ﷺ فإن من أدقها تناولا وأكثرها شمولا وصف هند بن أبى هالة التميمى ابن السيدة خديجة حين سأله ابن أخته الحسن : (١)

قال الحسنُ بنُ عليِّ بن أبي طالب - رضى الله عنه - : سألت خالى هندَ بن أبى هالةَ

(**) أمر أمره يعنى عظم شأنه ، وابن أبى كبشة أراد به النبى ﷺ على سبيل النيل منه ، فقد ورد فى الأخبار أن أبا كبشة رجل من خزاعة خالف قريشا فى عبادة الأوثان فعبد الشعرى ، فنسبوه إليه للاشتراك معه فى مطلق المخالفة فى دينهم .

(١) منال الطالب فى شرح طوال الغرائب ، لمجد الدين بن الأثير ١ / ١٦٨ .

التميمى عن حِلْية النبى ﷺ وكان وصَّافًا له ، وأنا أشتهى أن يصفَ لي منها شيئاً لعلِّى أتَعلَّق به .

فقال : « كان رسول الله ﷺ فَخماً مُفَخَّماً ، يتلألأ وجهُه تلألُؤ القمر ليلةَ البَدْر ، أطْول من المَرْبُوع ، وأقْصَرَ من المُشَذَّب ، عظيمَ الهامة ، رَجْلَ الشَّعر ، إن انْفَرَقت عَقِيصَتُهُ فَرَقَ ، وإلا فلا يُجاوز شَعَرُه شَحْمةَ أُذنَيْه إذا هو وَفَّرَه ، أزْهَرَ اللون ، واسعَ الجَبينَيْن ، أزَجَّ الحواجب ، سَوابغَ فى غير قرن ، بينهما عرْقٌ يُدِرُّه الغضَبُ ، أَقْنَى العرنين ، له نُور يَعْلُوه ، يَحْسِبُه من لم يتأمَّلْه أشَمَّ ، كَثَّ اللِّحْية ، سَهْلَ الخَدَّين ، ضَلِيعَ الفَم ، أشْنَبَ ، مُفَلَّجَ الأسنان ، دقيقَ المَسْرُبَة ، كأنّ عُنُقَه جِيدُ دُمْيةٍ فى صفاء الفِضَّة ، مُعتدلَ الخَلْقِ ، بادِناً مُتماسِكاً ، سواءَ البَطْن والصَّدْر ، عريض الصَّدْر ، بعيدَ ما بين المَنْكبَيْن ، ضَخْمَ الكَراديس ، أنْوَرَ المُتَجرد ، موصول ما بين اللَّبة والسُّرَّة بشَعَر يجرى كالخَطِّ ، عارىَ الثَّدْيين والبَطْن ممَّا سِوَى ذلك ، أشْعَرَ الذِّراعين والمَنْكِبَين وأعالى الصَّدْر ، طويلَ الزَّنْدَين ، رَحْبَ الراحة ، سَبْطَ القَصَب ، شَثْنَ الكَفَّيْن والقَدَمْين ، سائل الأطراف ، خُمْصانَ الأخْمَصَيْن ، مَسِيحَ القَدَمْين ، يَنْبُو عنهما الماءُ ، إذا زالَ زالَ قَلْعاً ، يَخْطُو تكَفِّئاً ، ويمشى هَوْناً ، ذَرِيعَ المِشْية ، إذا مَشَى كأنما يَنْحطُّ من صَبَب ، وإذا الْتَفَت التفَت جَميعاً ، خافِضَ الطَّرْف ، نَظَرُه إلى الأرض أطولُ من نظره إلى السماء ، جُلّ نَظَره المُلاحَظَة ، يَسُوقُ أصحابَه ، ويبدأ مَن لَقِيَه بالسَّلام » .

قلت : صفْ لى مَنْطقه .

قال : « كان رسول الله ﷺ مُتواصِلَ الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويلَ السَّكْت ، لا يتكلَّم فى غير حاجة ، يفتتح الكلامَ ويختِمه بأشْداقه ، ويتكلَّم بجَوامع الكَلِم ، فَصْلاً لا فُضُول ولا تقصيرَ ، دَمِثاً ليس بالجافى ولا المُهِين ، يُعَظِّم النِّعمة وإن دَقَّتْ ، ولا يَذُمُّ منها شيئاً ، غير أنه لم يكن يَذُمُّ ذَواقاً ولا يَمْدَحُه ولا تُغْضِبُه الدُّنيا ، ولا ما كان لها ، فإذا تُعُوطى الحَقُّ لم يعرفه أحدٌ ، ولم يَقُمْ لغَضبه شىء حتى ينتصر له ، لا يغضَبُ لنفسه ، ولا يَنْتَصرُ لها ، إذا أشارَ أشار بكَفِّه كُلِّها ، وإذا تَعَجَّب قَلَبَها ، وإذا تَحدَّث اتَّصل بها ، فيضربُ بباطن راحته اليُمْنى باطِنَ إبهامه اليُسْرَى ، فإذا

غَضب أعرضَ وأشاحَ ، وإذا فَرِح غَضَّ طَرْفَه ، جُلُّ ضحِكِه التَّبسُّم ، ويَفْتَرُّ عن مثل حَبِّ الغَمام » .

قال الحسن : فكَتَمْتُها الحسينَ زماناً ، ثم حَدَّثْتُه فوجدتُه سَبَقنى إليه ، فسأله عمّا سألته ، ووجدته قد سأل أباه ـ يعنى علياً كرَّم الله وَجْهَه ـ عن مَدْخَلِه ومَخْرَجِه وشَكْلِه ، فلم يَدَعْ منه شيئاً . فقال : « كان دُخولُه لنَفْسه مأذُوناً له فى ذلك ، فكان إذا أَوَى إلى منزله جَزَّأَ دُخُولَهُ ثلاثة أجزاءٍ : جزءاً لله عزَّ وجلّ ، وجزءاً لأهله ، وجزءاً لنَفْسه ، ثم جَزَّأَ جُزْءَه بينه وبين الناس ، فيرُدُّ ذلك على العامَّة بالخاصة ، ولا يَدَّخِرُ عنهم شيئاً . »

وذكَر دخولَ أصحابه عليه فقال : « يدخلون رُوَّاداً ، ولا يفترقون إلا عن ذَواق ، ويخرجون أدِلَّة . »

وذكر مجلسَه فقال : « مجلس حِلْم وحياء وصَبْر وأمانة ، لا تُرفَع فيه الأصوات ، ولا تُؤبنُ فيه الحُرَم ، ولا تُنْثَى فَلَتاتُه ، إذا تكلَّم أطرق جلساؤه كأنما على رُءُوسهم الطَّير ، فإذا سكت تكلَّموا ، كان دائمَ البِشْر ، سَهْلَ الخُلُق ، ليِّنَ الجانب ، ليس بفَظٍّ ولا غليظ ، ولا سخَّاب فى الأسواق ، ولا فَحَّاشٍ ولا عَيَّاب ولا مَدَّاح ، ولا يقبل الثناء إلا من مُكافِىء [1] » (*) .

---

(١) منال الطالب فى شرح طوال الغرائب ، لمجد الدين بن الأثير ١ / ١٦١ ، ١٦٢ .

(*) حلية النبى : صفته . المربوع : المعتدل القامة . المشذب : الطويل البائن الطول . الهامة : الرأس ، وعظم الرأس دليل على وفور العقل . الشعر الرَّجِل : الذى ليس شديد الجعودة ولا شديد السبوطة بل بينهما . العقيصة : الشعر المجموع كهيئة المضفور . وقيل : هى الخصلة من الشعر إذا عُقصت . الانفراق : الفصل بين الشيئين ، أى : كان لا يفرق شعره . وفره : أعفاه من الفرق . شحمة الأذن : طرفها الأسفل . اللون الأزهر : الأبيض المضىء . الزجج : دقة الحاجبين وسبوغهما إلى آخر العين مع تقوس خلقة ، القرن ـ بفتحتين ـ : أن تلتقى طرفاهما مما يلى أعلى الأنف ، وهو غير محمود عند العرب ويستحبون البلج ـ بفتحتين ـ وهو بياض ما بين رأس الحاجبين وخلوه من الشعر. السوابغ : جمع سابغ ، وهو الطويل التام . العرنين : الأنف . القنا : طول الأنف ودقة أرنبته مع ارتفاع فى وسط قصبته . الشمم : ارتفاع رأس الأنف . سهل الخدين : ليس فيهما نتوء وارتفاع . الضليع الفم : العظيم الواسع . الشنب : رقة الأسنان ودقتها وتحدد أطرافها . الفلج : تباعد ما بين الثنايا والرباعيات , الفرق ـ بفتحتين ـ فرجة بين الثنيتين . المسربة ـ بضم الراء ـ : ما دق من شعر الصدر سائلا إلى السرّة . البادن : الضخم التام اللحم . الكراديس : جمع كردوس ، وهو رأس كل عَظم كبير وملتقى كل عظمين ضخمين كالمنكبين والمرفقين . اللبَة ـ بالفتح ـ : الوهدة التى فى أعلى الصدر فى أسفل الحلق . الشثن : الغليظ الأطراف والأصابع . السبط : الممتد فى استواء . الأخمص من القدم : الموضع الذى لا يصل إلى الأرض منها عند الوطء , مسيح القدمين : أى ظاهرهما =

كان ذلك وصف هند بن أبى هالة للنبى ﷺ طبقا لما رواه له الحسن ابن أخته ـ الزهراء فاطمة ـ وكان الحسن قد سأل خاله هنداً عن صفة النبى ﷺ وكان هند وصّافا ، وقد رأينا ملحقا مختصرا ببعض صفات النبى ذكرها أمير المؤمنين على بن أبى طالب لولده الحسين رضى الله عنه . وها نحن نثبت وصفاً طبقا لما نعته به على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه (١):

« لم يكن بالطَّويل المُمَّغط ، ولا القصير المتردِّد ، كان رَبْعةً من القوم ، ولم يكن بالجَعْد القَطَط ولا السَّبط ، كان جَعْدا رَجِلاً ، ولم يكن بالمُطهَّم ولا المُكلْثَم ، أبيضُ مُشْرَبٌ أدْعَجُ العينين ، أَهْدَبُ الأشفار ، جَلِيلُ المُشاش والكتَد ، أَجْرَدُ ، شَثْنُ الكَفَّين والقدمين ، دقيقُ المَسْرُبة ، إذا مشى تقلَّع ، كأنما يمشى فى صبب ، وإذا التفتَ التفتَ معا ، بين كتفيه خاتَمُ النُّبُوَّة ، وهو خاتَمُ النبيين ، أَجْوَدُ الناس كَفًّا ، وأرحبُ الناس صَدْراً ، وأصدقُ الناسِ لهجةً ، وأوفَى الناس بِذمَّةٍ ، وأَلْيَنُهم عرِيكةً ، وأكرمهم عِشْرةً . مَن رآه بَدِيهةً هابَه ، ومَن خالَطَه معرفة أَحَبَّه . يقول ناعِتُه : لم أرَ قبلَه ولا بعدَه مثلَه » .

= ممسوح غير متعقد . إذا زال زال قلْعاً : يعنى قالعا لرجله من الأرض ، وفى حديث آخر : « كأنما ينحط من صبب» والانحدار من الصبب . التكفؤ : تمايل الماشى إلى قدام كما تتكفأ السفينة والغصن إذا هبت الريح . الهون ـ بسكون الواو ـ : المشى فى رفق ولين . الذريع : السريع . الملاحظة : أن ينظر الرجل بلحظ عينه ـ وهو شقها الذى يلى الصُّدغ والأذن . يسوق أصحابه : يقدمهم أمامه ويمشى وراءهم . طويل السكت : يعنى طويل السكوت . الأشداق : جمع شدق ، وهو جانب الفم . جوامع الكلم : القليلة الألفاظ الكثيرة المعانى ، ومنه الحديث : «أوتيت جوامع الكلم » يعنى القرآن . الدمث : السهل اللين الخلق ، وأصله من الدَّمَث وهى الأرض اللينة السهلة . الجافى : المعرض المتباعد عن الناس ، من الجفاء . المهين : ـ بضم الميم وفتحها ـ فالضم من الإهانة ، أى : لا يهين أحدا ، والفتح من المهانة ، وهى الحقارة والصغر . الذواق : اسم ما يذاق باللسان ، أى : لا يصف الطعام بطيب ولا بشاعة . إذا تعوطى الحق لم يعرفه أحد : أى إذا نيل من الحق أو تعرض للقدح فيه تنكر عليهم وخالف عادته معهم حتى لا يكاد يعرفه أحد منهم . الجزء الذى لله : اشتغاله بعبادته ومناجاته فى ليله ونهار. الجزء المختص بأهله : هو الوقت الذى يصحبهم ويعاشرهم فيه ، الجزء المختص بنفسه : هو الجزء الذى لا يتعبد فيه ولا يعاشر أهله ، فقسمه قسمين بينه وبين الناس .

الرواد : جمع رائد ، وهو الذى يتقدم القوم يكشف لهم حال الماء والمرعى قبل وصولهم إليه . يخرجون أدلّة : جمع دليل، أى : يدلون الناس بما قد علموه منه وعرفوه . لا يفترقون إلا عن ذواق : أى : لا يتفرقون إلا عن علم يتعلمونه يقوم لهم مقام الطعام والشراب . لا تؤبن فيه الحرم : أى لا تقذف ولا ترمى بعيب ، والحرم : جمع حرمة ، وهى المرأة وما يلزم الإنسان حفظه وصونه . لا تنثى فلتاته : لا يتحدث عن مجلسه بهفوة أو زلة ، يقال : نثوت الحديث فأنا أنثوه نثواً : إذا أذعته . السخّاب : فعّال من السخب وهو الضجة واضطراب الأصوات ، ويروى بالسين والصاد .

(١) المصدر السابق ١ / ١٧٤ .

زاد فى رواية أخرى « كان ضَخْمَ الرأس ، عظيمَ العينين ، كَثَّ اللِّحية ، أزهَرَ اللَّوْن، أبيضَ ، مُشْرَباً بياضُه حُمرةً ، أسودَ الحَدَقة ، لا قصيرٌ ولا طويلٌ ، وهو إلى الطُّولِ أقْرَبُ ، ليس بالطويلِ البائن ، ولا الطويل المُتَثنِّى ، ولا القصير الفاحش ، شَعَرُه إلى شحمة أُذُنه ، عريضَ الجَبْهة ، مُفَلَّجَ الثَّنايا ، أسيل الخَدِّ ، على شفته السُّفْلى خَالٌ ، كأنَّ عُنُقَه إبريقُ فِضَّة ، بعيدَ ما بين المنكبَيْن ، كأن كفَّه من لينها مسُّ أرْنَب ، كأنّ عَرَقَه اللُّؤلؤ ، وإذا جاءَ مع القوم غَمَرهم ، وإذا ضَحِك تبسَّم ، ليس بسَخَّابٍ فى الأسواق » (*).

هذا ما رُوِى فى صفته عن على بن أبى طالب ، على اختلاف طُرُقه ، بإسقاط المتكرّر منها فى الطُّرق .

إن الذين وصفوا رسول الله ﷺ كثيرون ، وكلهم رأوه رأى العين ، فهذا أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ يصفه وقد سمعه ربيعة بن أبى عبد الرحمن (١):

« كان ربعة من القوم ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، أزهر اللون ليس بأبيض أمهق ولا آدم ، ليس بجعد قطط ولا سبط رجل ، أنزل عليه وهو ابن أربعين ، فلبث بمكة عشر سنين ينزل عليه ، وبالمدينة عشر سنين ، وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء » .

قال ربيعة : فرأيت شعراً من شعره فإذا هو أحمر ، فسألت ، فقيل : احمرّ من الطيب .

وقد وصف أبو هريرة رسول الله ﷺ أكثر من مرة ، يقول مرة فى صفته ﷺ : **«كان**

(*) الممّغط ـ بتشديد الميم الثانية ـ الشديد الطول ، وأصله منمغط ، فأدغمت النون فى الميم . المتردد : الذى تردد بعض خلقه فى بعض فاجتمع بدنه وتداخل قصرا . القطط ـ بالفتح ـ : هو المتناهى الجعودة . السبط ـ بالفتح ـ الذى لا جعودة فيه أصلا . المطهم : المنتفخ الوجه . المكلثم : المستدير الوجه ، وقيل : هو القصير الحنك . المشرب : الذى خالط بياضه حمرة . الأدعج : الشديد سواد العين مع سعتها . الأهدب : الطويل شعر الأجفان . المشاش : رءوس العظام كالمنكبين والمرفقين . الكتد ـ بفتح الكاف وكسرها ـ : ما بين الأكتاف إلى الظهر . العريكة : الخلقة والسجيّة .

(١) صحيح البخارى باب صفة النبى ٢ / ١٨١ .

ربعة وهو إلى الطول أقرب ، شديد البياض ، أسود شعر اللحية ، حسن الثغر ، أهدب أشفار العينين ، بعيد ما بين المنكبين ، مفاض الخدّين ، يطأ بقدمه جميعا ليس لها أخمص ، يقبل جميعا ، ويدبر جميعا ، لم أر مثله قبل ولا بعد »[1].

وكان أبو هريرة ربما حدث عن النبى ﷺ فيقول : « حدثنيه أهدب الشفرين أبيض الكشحين ، إذا أقبل أقبل جميعا ، وإذا أدبر أدبر جميعاً ، لم تر عين مثله ولن تراه»[2].

وفى الصحيح : « كان النبى ﷺ مربوعا ، وقد رأيته فى حلة حمراء ، ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كأن الشمس تجرى فى جبهته » .

وقد قال حسان بن ثابت فى وصفه :

وأحسنُ منـك لم تَـرَ قَـطُّ عينـى
وأجمَـلُ منـكَ لـم تَلِـدِ النسـاءُ
خُلِقْـتَ مُبَرَّأً مِـنْ كـلِّ عيـبٍ
كـأنكَ قـد خُلِقْـتَ كـما تَشَـاءُ

وتصف أم المؤمنين عائشة رسول الله ﷺ وهو يتكلم فتقول : « ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بَيِّنٍ فصل ، يحفظه من جلس إليه»[*].

وعن أدبه ﷺ يقول له أبو بكر مرة : لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك ، فمن أدَّبك ـ أى : علَّمك ـ ؟ قال : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

وأما عن الشبيه فقد كان كل من الحسن والحسين حفيديه ﷺ يشبهانه ، يقول أبو جحيفة ـ رضى الله عنه ـ : رأيت النبى ﷺ وكان الحسن بن على ـ عليهما السلام ـ

---

(١) الأدب المفرد ، الحديث رقم ١١٥٥ ـ الأهدب : الذى طالت أهداب عينيه وكثرت أشفارها ، مفاض الخدين ، أى : مستوى الخدين .

(٢) المصدر السابق ، الحديث رقم ٢٥٥ .

(*) السرد : متابعة الكلام على الولاء أو التوالى .

يشبهه ، وعن عقبة بن الحارث قوله : صلى أبو بكر - رضى الله عنه - العصر ، ثم خرج يمشى ، فرأى الحسين يلعب مع الصبيان ، فحمله على عاتقه وقال : بأبى شبيه بالنبى لا شبيه بعلىّ ، وعلىّ يضحك (١).

إن واصفى رسول الله ﷺ من الصحابة كثيرون ، مثل على بن أبى طالب وعائشة أم المؤمنين ، وأنس بن مالك ، وأبى هريرة ، والبراء بن عازب ، وهند بن أبى هالة ، وأبى جحيفة ، وجابر بن سمرة ، وأم معبد ، وعبدالله بن عباس ، ومعرّض بن معيقيب ، وأبى الطفيل ، والعداء بن خالد ، وخريم بن فاتك ، وحكيم بن حزام ، وغيرهم ، ولقد جمع القاضى عياض أهم أوصافه مستعينا بكلام من أسلفنا ذكرهم وقال (٢):

« أزهر اللون ، أدعج ، أنجل ، أشكل ، أهدب الأشفار ، أبلج ، أزجّ ، أقنى ، أفلج ، مدور الوجه ، واسع الجبين ، كثّ اللحية تملأ صدره ، سواء البطن والصدر ، واسع الصدر ، عظيم المنكبين ، ضخم العظام ، عبل العضدين والذراعين والأسافل، رحب الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، أنور المتجرد ، دقيق المَسْرُبة ، ربعة القد ، ليس بالطويل البائن ، ولا القصير المتردد - ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد ينسب إلى الطول إلا طاله ﷺ رَجِلَ الشعر ، إذا افتر ضاحكا افتر عن مثل سنا البرق ، وعن مثل حب الغمام (البرد) ، إذا تكلم رئى كالنور يخرج من ثناياه ، أحسن الناس عنقا ، ليس بمطهم ولامكلثم ، متماسك البدن ضرب اللحم » .

ويذكر القاضى عياض فضل الله على سيدنا محمد ﷺ فى خلقه فيشير إلى كمال خلقته ، وجمال صورته ، وقوة عقله ، وصحة فهمه ، وفصاحة لسانه ، وقوة حواسه وأعضائه ، واعتدال حركاته ، وشرف نسبه ، وعزة قومه ، وكرم أرضه .

هكذا وجدنا كثيرا من الصحابة يصفون رسول الله ، وكلهم صادق فى وصفه ، فالكل متفق بعضهم مع بعض فى ذكرهم أوصافه ، ولكن الأمر الجليل أن عددا من الصحابة لم يستطيعوا ذكر أوصاف رسول الله ﷺ ليس لقصور فى بلاغتهم أو عيب فى

(١) البخارى : جـ٢ باب صفة النبى ص ١٨٤ .

(٢) كتاب الشفا ، ص : ٣٨ .

بيانهم ، فلقد كانوا بلغاء أبيناء ، ولكن لأن رسول الله ﷺ كان من المهابة بحيث لم يجرأوا على إطالة النظر فى وجهه الكريم ، فهذا عمرو بن العاص - وهو من هو قربا إلى رسول الله - يقول : « ما كان أحد أحب إلى من رسول الله ﷺ ولا أجل فى عينى منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالا له ولو سئلت أن أصفه ما أطقت ؛ لأنى لم أكن أملأ عينى منه » .

ويروى أنس - وكان خادم رسول الله وملازمه - « أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر ، فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر ، فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ، ويتبسمان إليه ويتبسم لهما » (١).

وأما أخلاقه الأخروية فهى : الدين ، والعلم ، والحلم ، والصبر ، والشكر ، والعدل ، والزهد ، والتواضع ، والعفو ، والفقه ، والجود ، والشجاعة ، والحياء ، والمروءة ، والصمت ، والتؤدة والوقار ، والرحمة ، وحسن الأدب والمعاشرة .

ويذكر القاضى عياض ما اختص الله به سيدنا محمدا ﷺ فيقول (٢):

اختصه الله بفضيلة النبوة ، والرسالة ، والخلة ، والمحبة ، والاصطفاء ، والإسراء ، والرؤية ، والقرب ، والدنوّ ، والوحى ، والشفاعة ، والوسيلة ، والفضيلة ، والدرجة الرفيعة ، والمقام المحمود ، والبراق ، والمعراج ، والبعث إلى الأحمر والأسود ، والصلاة بالأنبياء ، والشهادة بين الأنبياء والأمم ، وسيادة ولد آدم ، ولواء الحمد ، والبشارة ، والنذارة ، والمكانة عند ذى العرش ، والطاعة ، والأمانة ، والهداية ، ورحمة للعالمين ، وإعطاء الرضى والسؤل ، والكوثر ، وسماع القول ، وإتمام النعمة ، والعفو عما تقدم وتأخر ، وشرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر ، وعزة النصر ، ونزول السكينة ، والتأييد بالملائكة ، وإيتاء الكتاب والحكمة ، والسبع المثانى ، والقرآن العظيم ، وتزكية الأمة ، والدعاء إلى الله ، وصلاة الله - تعالى - والملائكة ، والحكم بين الناس بما أراده

---

(١) الشفا للقاضى عياض ٢ / ٣٠ .

(٢) الشفا ١ / ٣٨ .

الله ، ورفع الإصر والأغلال عنهم ، والقسَم باسمه ، وإجابة دعوته ، وتكليم الجمادات والعُجم ، وإحياء الموتى ، وإسماع الصُّم ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير القليل ، وانشقاق القمر ، وردّ الشمس ، وقلب الأعيان ، والنصر بالرعب ، والاطلاع على الغيب ، وظلّ الغمام ، وتسبيح الحصا ، وإبراء الآلام ، والعصمة من الناس » .

إن محمدا ﷺ هو النبى المصطفى ، وهو الرسول المجتبى ، وإنّ اصطفاء الله له واجتباءه إياه يتطلبان بداهة أنبل الفضائل ، وأكرم الشمائل ، وأكمل السمات ، وأجلّ الصفات ، وأرفع المواهب ، وأسمى المناقب ، ومن ثم فقد كرمه الله ـ تعالى ـ فى كثير من آيات كتابه العزيز بالإطراء الإلهى حينا ، وبالقسم بشخصه حينا آخر ، وبالقسم على تكريمه حينا ثالثا .

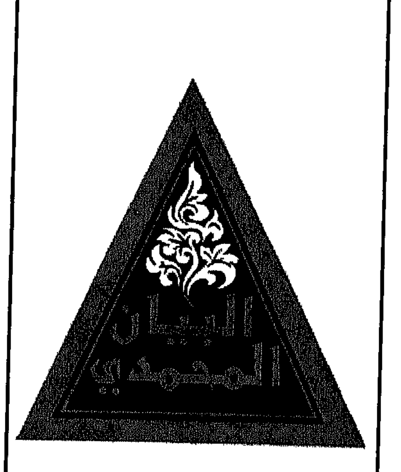
فالله ـ سبحانه ـ يقول فى مقام إطرائه ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ويقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ ويقول : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾

ويقول : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ ﴾

وفى مقام القسم يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ويقول : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ ويقول : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾

ولعل من أجلّ الأوصاف التى وصف بها رسول الله بألسنة البشر هو قول السيدة عائشة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ : « **كان خلقه القرآن ، يرضى برضاه ويسخط بسخطه** » . نضر الله وجه عائشة ، وصلى وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .





الفصل الثانى

فصاحة محمد ﷺ



فصاحة محمد ﷺ وبلاغته

فصاحة رسول الله ﷺ أمر معترف به عند العرب منذ فجر صباه ، وهو يعلم ذلك فى نفسه ، مثلما يعلمه الآخرون ، ولذلك كان ﷺ يقول : « **أنا أفصح العرب بيد أنّى من قريش ونشأت فى بنى سعد** » وفى رواية : « **فى بنى سعد بن بكر** » .

ولم يكن رسول الله ﷺ يقول ذلك على سبيل الفخر والمباهاة ، وإنما كان ذلك منه على سبيل الحقيقة والتقرير ؛ فإن فصاحة لسانه ونقاء بيانه أمران مقرران عند الخاصة فضلا عن الجمهرة ، وقد قال له أصحابه : ما رأينا الذى هو أفصح منك !! فقال ﷺ : « **وما يمنعنى وقد نزل القرآن بلسانى ، لسان عربى مبين** » (١).

إن القاضى عياضا ـ وهو ينظر فى قوله ﷺ : « **أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد** » يقول : فجمع له بذلك ﷺ قوة عارضة البادية وجزالتها ، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها ، إلى التأييد الإلهى الذى مدده الوحى الذى لا يحيط بعلمه بشرىّ (٢).

ويصف القاضى عياض فصاحة رسول الله ﷺ فيقول : « وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذى لا يجهل ، سلامة طبع ، وبراعة منزع ، وإيجاز مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معانٍ ، وقلة تكلف ، أوتى جوامع الكلم ، وخص ببدائع الحكم ، وعُلّم ألسنة العرب، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها فى منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه فى غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله » (٣).

---

(١) الشفا للقاضى عياض ١ / ٤٧ .

(٢) المصدر السابق الصفحة نفسها .

(٣) السابق ١ / ٤٤ .

وسوف يتبين لنا ذلك بوضوح كامل فى الفصل الخاص بكتبه ﷺ للوفود .

وأما مصطفى صادق الرافعى إمام مدرسة الكتابة الإسلامية فى القرن الرابع عشر الهجرى فيسبح فى خضم نفحات حديث « **أنا أفصح العرب . . . . الحديث** » ويقول : لو كان فيهم ـ أى : فى العرب ـ أفصح منه لعارضوه به . ثم يستطرد قائلا : كان مولده فى بنى هاشم ، وأخواله فى بنى زهرة ، ورضاعه فى سعد بن بكر ، ومنشؤه فى قريش ، ومتزوجه فى بنى أسد ، ومهاجرته إلى بنى عمرو : وهم الأوس والخزرج ، لم يخرج عن هؤلاء فى النشأة واللغة ، ولقد كان فى قريش وبنى سعد وحدهم ما يقوم بالعرب جملة .

ويمضى مصطفى صادق الرافعى قائلا : فكان ﷺ يعلم كل ذلك على حقه ـ أى لغات العرب على اختلاف مواطنهم واشتراك اللغات وانفرادها بينهم ـ كأنما تكاشفه أوضاع اللغة بأسرارها ، وتبادره بحقائقها ، فيخاطب كل قوم بلحنهم وعلى مذهبهم ، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطابا ، وأسدّهم لفظا ، وأبينهم عبارة ، ولم يعرف ذلك لغيره من العرب [(١)].

إن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ تصف كلامه وبيانه قائلة : « ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بيّن فصل ، يحفظه من جلس إليه» .

وهذه أم معبد صاحبة الحديث الطويل المشهور فى وصف رسول الله ﷺ تصف كلامه فتقول : حلو المنطق ، فَصْل ، لا نَزْرٌ ولا هَذْر ، كأن منطقه خرزاتٌ نُظِمْن ، وكان جهير الصوت حسن النغمة ﷺ [(٢)].

هكذا كان كلامه ﷺ وهكذا كان أداؤه حين ينطق ، وللأداء الأمثل قواعد وأصول ، أرسى أسسها وأحكم بنيانها رسول الله ﷺ فلا تشدق ولا تردد ، ولا استعلاء ولا تفيهق، فقد ذم هذه الخصال وقبحها ، ونبه المتحدثين إلى تجنبها فى قوله ﷺ : « إن

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص ٣١٥ ، ٣١٨ .
(٢) الشفا ١ / ٤٧ .

أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة ، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون » [1].

ولقد أكثر أعرابى عنده الكلام ، فقال ﷺ له : « **يا أعرابى ، كم دون لسانك من حجاب ؟** » قال : شفتاى وأسنانى . فقال ﷺ : « **إن الله يكره الانبعاق فى الكلام فنضّر الله وجه امرىء قصر من لسانه واقتصر على حاجته** » [2] أى : الاندفاع فيه والإكثار .

إن أبا الحسن الماوردى يلتقط هذا الملحظ النبوى البلاغى ـ أو كأنه فعل ذلك ـ فيصف فصاحة رسول الله ﷺ بحسبانها واحدة من خصاله فيقول : كان من خصال رسول الله ﷺ أنه أفصح الناس لسانا ، وأوضحهم بيانا ، وأوجزهم كلاما ، وأجزلهم ألفاظا ، وأصحهم معانى ، لا يظهر فيه هجنة التكلف ، ولا يتخلله فيهقة التعسف ، وكان يقول : « **أبغضكم إلىّ الثرثارون المتفيهقون** » وكان ﷺ يقول أيضا : « **إياك والتشادق** » [3].

ومن أجلّ أوصاف فصاحة الرسول ﷺ ما سطرته يراع الجاحظ فى هذا المقام إذ يقول بعد أن وصف شيئا من فن فصاحة الرسول : وأنا ذاكر بعد هذا فنًّا آخر من كلامه ﷺ وهو الكلام الذى قلّ عدد حروفه وكثرت معانيه ، وجلّ عن الصنعة ونُزّه عن التكلف ، وكان كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ قل يا محمد : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ فكيف وقد عاب التشديق ، وجانب أصحاب التقعيب ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السُّوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة ، وشُيِّد بالتأييد ، ويُسِّرَ بالتوفيق ، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول ، وجمع بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام ، وقلة عدد الكلام مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلّت له

---

(١) رواه الترمذى .

(٢) أعلام النبوة ص ٢٦٦ .

(٣) المصدر السابق الصفحة نفسها .

قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يَقُمْ له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذّ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلْج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطىء ولا يعجل ، ولا يسهب ولا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قطّ أعمَّ نفعا ، ولا أقْصَدَ لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح من معناه ، ولا أبين فى فحواه من كلامه ﷺ » (١).

ولأول مرة تقرن صفة البلاغة بصفة الفصاحة ، وذلك فى بعض ما وصف به أبوالحسن الماوردى كلام رسول الله ﷺ يقول الماوردى ذاكرا بعض سمات البلاغة وصفات الفصاحة الكامنة فى منطقة ﷺ: (٢).

«إن كلامه جامع لشروط البلاغة ومعرب عن منهج الفصاحة ، ولو مُزِجَ بغيره لتميز بأسلوبه ، ولظهر فيه آثار التنافر ، فلم يلتبس حقه من باطله ، ولبان صدقه من كذبه هذا ولم يكن متعاطيا للبلاغة ، ولا مخالطا لأهلها من خطباء أو شعراء أو فصحاء ، وإنما هو من غرائز فطرته ، وبداية جِبِلَّتِهِ ، وما ذاك إلا لغاية تراد ، وحادثة تشاد » .

ويضيف القاضى عياض لونا آخر من فصاحة لسان الرسول ﷺ وبلاغة قوله فضلا عن نصاعة اللفظ وبراعة المنزع هو قوله : (٣)

« وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول ، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذى لا يُجهل ، سلاسة طبع ، وبراعة منزع ، وإيجاز مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معانى ، وقلة تكلف . أوتى جوامع الكلم ، وخُصّ ببدائع

(١) البيان والتبيين ٢ / ١٧ ، ١٨ .

معانى بعض الألفاظ : التقعيب كالتقعير : هو أن يتكلم المرء بأقصى قعر فمه . الفلج ـ بالفتح والسكون ، وبالتحريك أيضا ـ : الفوز والظفر . الهمز : العيب فى الغيبة . واللمز : العيب فى الحاضرة . الحصر : العىّ فى الكلام .

(٢) أعلام النبوة ص ٢٦٨ .

(٣) الشفا ١ / ٤٤ .

الحكم . وعُلِّم ألسنة العرب ، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها فى منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه فى غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله . . . . . . وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ، ككلامه مع ذى المشعار الهمدانى - وطهفة النهدى ، وطَطَن بن حارثة العُليمى - والأشعث بن قيس ، ووائل بن حُجْر الكندى وغيرهم من أقيال حضرموت وملوك اليمن .

ومن نماذج أقواله ﷺ التى إعجازها فى إيجازها فبهرت العقول ، وأذهلت الفطن ، طبقا لما ذهب إليه أبو الحسن الماوردى فى وصفها - وهو أمى من أمة أميّة ، لم يقرأ كتابا ولا درس علما ، ولا صحب عالما ولا معلما - ما سطره فى تعامله معها على هذا النحو الرفيع : (١)

« أتى بما بهر العقول وأذهل الفطن ، من إتقان ما أبان ، وإحكام ما أظهر ، فلم يعثر فيه بزلل فى قول أو عمل ، وجعل مدار شرعه على أربعة أحاديث ، أوجز بها المراد ، وأحكم بها الاجتهاد ، أحدها قوله : « **إنما الأعمال بالنيّات ، وإنما لكل امرىء ما نوى** » والثانى قوله : « **الحلال بيّنٌ والحرام بيّنٌ ، وبين ذلك أمور مشتبهات ، ومن يحم حول الحمى يوشك أن يقع فيه** » والثالث قوله : « **من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه** » والرابع قوله : « **دع ما يريبك إلى ما لا يريبك** » .

وإذا كان الماوردى قد رأى من بلاغة الرسول ﷺ أن جعل مدار شرعه على أربعة أحاديث ، فإنه قد مضى فى ضرب الأمثله لبلاغة إيجاز الرسول من واقع ذكر عدد من أقواله الشريفة التى جرت مجرى الأمثال ، وهو ما سوف نتناوله بشىء من التوسع والتفصيل فى فصول قادمة إن شاء الله .

يقول الماوردى : إن من إيجازه قوله ﷺ : « **الناس بزمانهم أشبه** » وقوله : « **ما هَلَكَ امرؤٌ عرف قدره** » وقوله : « **لو تكاشفتم ما تدافنتم** » وقوله : « **السعيد من وُعِظ بغيره** » وقوله : « **حبك للشىء يعمى ويصمّ** » وقوله : « **العقل ألوف مألوف** » وقوله : «**أفضل**

---

(١) أعلام النبوة ص ٢٦٣ ، ٢٦٦ .

الصدقة جهد المقلّ » وقولـه : « اليد العليا خير من اليد السفلـى » وقوله : « تَرْكُ الشرّ صدقة » وقوله : « الخير كثير وقليل فاعله » . وقوله : « نزلت المعونة على قدر المؤونة » .

ويتحدث القاضى عياض عن الكلام المعتاد لرسول الله ﷺ فيقول : (١)

وأما كلامه المعتاد ، وفصاحته المعلومة ، وجوامع كلمه وحكمه المأثورة ، فقد ألف الناس فيها الدواوين ، وجمعت فى ألفاظها ومعانيها الكتب ، ومنها ما لا يوازى فصاحة ولا يبارى بلاغة ، كقوله ﷺ : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » وكقوله : « الناس كأسنان المشط » و « المرء مع من أحب » و « لا خير فى صحبة من لا يرى لك ما ترى له » و « الناس معادن » و « ما هلك امرؤ عرف قدره » و « المستشار مؤتمن ، وهو بالخيار ما لم يتكلم » و « رحم الله عبدا قال خيرا فغنم ، أو سكت فسلم » وقوله : « أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين » و « إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، الموطأون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون» وقوله : « لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ، ويبخل بما لا يغنيه » وقوله : « ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها . . . . . » وقوله : « اتق الله حيث كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » و « خير الأمور أوساطها . . . » وقوله فى دعائه : « اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى ، وتجمع بها أمرى ، وتلُمُّ بها شعثى ، وتصلح بها غائبى ، وترفع بها شاهدى ، وتزكى بها عملى ، وتلهمنى بها رشدى ، وتردّ بها أُلْفَتِى ، وتعصمنى بها من كل سوء ، اللهم إنى أسألك الفوز عند القضاء ، ونزل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء » .

ويمضى القاضى عياض على رِسْلِهِ ضاربا المثل تلو المثل من بلاغة رسول الله ﷺ فى أغراض مختلفة ، ومناسبات متباينة ، شأنه فى ذلك شأن من شغفوا برسول الله حبا وبرسالته إيمانا ، وببلاغته تعلقا .

ولقد صدق القاضى فى ذكر أن الناس قد ألّفوا فى فصاحته ﷺ الدواوين ، وجمعت فى ألفاظها ومعانيها الكتب ، فإنه قلما لم يهتم عالم من علماء المسلمين ـ فضلا عن

---

(١) الشفا ١ / ٤٦ .

أواسطهم ـ بسنة رسول الله وحديثه الشريف ، منذ أن ألفوا الكتابة فيها إلى يومنا هذا ، وإلى يوم يبعثون .

وها نحن من الذين ينتظمون هذا الموكب الشريف حبًّا فى رسول الله ، وإجلالا لسنته ، وطمعا فى شفاعته ورغبة فى بركته ـ صلى الله عليه وعلى آله إلى يوم الدين .

ليس من شك فى أن القاضى عياضا قد تمثل نهج من ساروا قبله فى هذا المضمار الشريف ، الذين حفلوا ببلاغة رسول الله ، ومنهم القاضى الماوردى الذى أسلفنا بعض انطباعاته فى هذا الشأن ، وها هو يضرب بعض الأمثلة لبلاغة الرسول ﷺ ممثلة فى الإيجاز [1]، منها قوله ﷺ :

« **لا تزال أمتى بخير ما لم تر الأمانة مغنما ، والصدقة مغرما** » وقوله ﷺ : « **رحم الله عبدا قال خيراً فغنم ، أو سكت فسلم** »

وقوله ﷺ : « **ثلاث منجيات ، وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات فخشية الله تعالى فى السر والعلانية ، والاقتصاد فى الغنى والفقر ، والحكم بالعدل فى الرضا والغضب ، أما المهلكات فشح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه** » .

لله در رسول الله !! فما أبين وما أبلغ وما أسمى هذا القول ، إيجازا وإعجازا ، وحكمة وتنويرا !!

ومن آيات إعجازه القولى وإيجازه البيانى فى تربية النفس المؤمنة قوله ﷺ : « **كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** »

ومن قمم الإيجار من بين أقواله ﷺ ذلك الحديث الشريف الذى رواه أبوحفص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وجعله النووى استفتاحا للأربعين حديثا التى اختارها من بين أحاديث رسول الله ﷺ : قال عمر ـ رضى الله عنه ـ : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله**

---

(١) أعلام النبوة ، ص ٢٦٧ .

ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

إن هذا الحديث الشريف ليس مثالا للإعجاز البيانى وحسب ، وليس طرازا للإيجاز البلاغى فقط ، مع أن كل عبارة من عباراته قمة إعجاز ومعجزة إيجاز ، ولكنه طراز لأدب التعبير وجلال الصوغ ، إن محمدا الذى أدبه ربه يلتزم الأدب الربانى فى عباراته ، فإذا كانت الهجرة إلى الله ورسوله قال : فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى أمر آخر ، مثل دنيا يصيبها ، أى : ربح ومال ومغنم ، أو إلى امرأة يريدها له ، لم يقل ﷺ : فهجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، وإنما قال فى مضمار من أدب الإيجاز : فهجرته إلى ما هاجر إليه .

إن هذا اللون من الأحاديث الشريفة يمثل دروسا فى أدب الكلمة ، وعفة اللفظ ، ونقاء العبارة ، ودقة المحتوى ، ورقة التناول ، إن الربيع بن سليمان يقول : سمعت الشافعى يقول : يدخل هذا الحديث ـ يعنى حديث : إنما الأعمال بالنيات ـ فى سبعين بابا من الفقه .

ومن صور الإيجاز المبهر فى حديث رسول الله ﷺ ما رواه أبو عمرو ـ وقيل : أبو عمرة ـ سفيان بن عبدالله قال : قلت يا رسول الله : قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك .

قال : « **قل آمنت بالله ، ثم استقم** » رواه مسلم (١).

إن هذا الحديث الشريف واحد من النماذج النبوية الكثيرة فى الإيجاز الموصول الأسباب بالإعجاز البيانى وإعجاز المعانى ، فإن قول رسول الله فى حديثه هذا يمثل الإسلام كل الإسلام ؛ ذلك أن الإسلام إيمان بالله ، ومن آمن بالله فقد آمن بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر من بعث ونشور وحساب فى نطاق الثواب والعقاب وجنة

---

(١) الأربعون النووية ، الحديث رقم ٢١ .

ونار، ويدخل فى ذلك أصلا الإيمان بمحمد رسولا ، وبالإسلام دينا ، وبالقرآن كتابا منزلا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

هذا تفسير موجز للجزء من حديث رسول الله : « قل آمنت بالله » ثم يأتى بعد ذلك بقيه الحديث الذى هو لفظ واحد يمثله فعل أمر مسبوق بحرف عطف : «استقم» إنه لفظ جامع شامل مؤداه الالتزام باتباع أوامر الله ، والانتهاء عما نهى عنه ، ولقد سبقنى إلى هذا المعنى جمهرة علماء المسلمين حين قالوا : معنى الاستقامة لزوم طاعة الله تعالى ، وقالوا أيضا : هى من جوامع الكلم ، وهى نظام الأمور [١]. فإذا تحققت الاستقامة ـ بعد الإيمان ـ فى سلوك الفرد والجماعة فى كل ما يتصل بأسباب الحياة كان ذلك محققا لوجود المجتمع الأمثل وهو مجتمع الإسلام ، وضمن المسلمون سعادة الدنيا وعزتها ، وثواب الآخرة وثمرتها .

وعن حارثة بن وهب ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبَرَّه ، ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عُتُلّ جَوَّاظٍ مستكبرٍ** » .

إن الضعيف المستضعف الذى قصده رسول الله هو الذى يكف أذاه عن المسلمين ، ويخفض جناحه لهم ، ومن ثم يتظاهر بالضعف ويمارس سلوكه مع جمهرة المسلمين ، وأما العتلّ فهو الغليظ الجافى ، والجوَّاظ : هو الجموع المنوع ، وقيل : الضخم المختال فى مشيته ، وهذه الصفات تتنافى مع سلوك المسلم ، وبالتالى لا يكون صاحبها من أهل الجنة .

وهكذا يكون الرسول ﷺ قد عرّف أهل الجنة وأهل النار فى ألفاظ قليلة محدودة ، يعبر لفظها عن معناه ، ويحمل جرسها مرماه ، ففريق الجنة ضعيف متضعف ، وفريق النار عتلّ جواظ مستكبر .

وهكذا لا تقف فصاحة رسول الله ﷺ عند حد الكلمات المأنوسة ، ولكنها تتعدى

---

(١) رياض الصالحين ص ٥٣ ط : مصطفى البابى الحلبى .

ذلك إلى كلمات ؛ وإن كانت غير مأنوسة ، فهى دقيقة التعبير لفظا وبنية وجرسا .

ومن ألفاظ رسول الله ﷺ التى تحمل بنيتها معانيها ، ويشتمل جرسها على مدلولها ما رواه جابر- رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « **إن من أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون** » قالوا : يا رسول الله قد علمنا (الثرثارون والمتشدقون) فما المتفيهقون ؟ قال : « **المتكبرون** »(١).

يعلّم رسول الله صحابته أن الثرثرة - وهى كثرة الكلام بغير هدف أو طائل - ، والتشدق - وهو التطاول على الناس فى الكلام - والتفيهق ، وهو التكبر ، من مساوىء الأخلاق التى تباعد بين أصحابها وبين مجلس الرسول ﷺ مثلها فى ذلك مثل بعض عظائم الذنوب ، ولذلك فإن صحابة رسول الله كانوا أقل الناس كلاما إلا فيما يكون فيه صلاح الناس ، أما تلطفهم فى الكلام وتواضعهم فى القول ، فكان ذلك جزءا من تكوينهم الذى نَشَّأهم عليه الصادق الأمين .

وفى هذه المناسبة يؤثر عن أمير المؤمنين على - كرم الله وجهه - قوله : « **ما ندمت على كلمة لم أقلها قط** » .

هكذا ينبه رسول الله ﷺ إلى أن التقعر والتشدق والتفيهق فى الكلام صفات مذمومة، وسلوك غير محمود ، يتناقضان مع فضيلة حسن الخلق .

ومن ضروب الإيجاز المحمدى فى ترغيب المسلمين إلى التزام العبادات وتحبيبها إليهم ذلك الحديث الموجز فى قوله ﷺ : « **الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر** » رواه مسلم .

وهكذا نرى بلاغة الإيجاز الشاملة على نورانية الترغيب وغاية التحبيب .

ولا يظنن ظان - ونحن فى معرض الحديث عن البلاغة النبوية فى مضمار الإيجاز - أن تلك المأثرة البيانية موقوفة على الإيجاز دون الإطناب ؛ لأن فصاحته ﷺ متحققة فى كل

---

(١) سنن الترمذى ، كتاب البر والصلة ٤ / ٣٧٠ الحديث رقم ٢٠١٨ .

جملة ، مستوفاة فى كل كلام ، إيجازا واعتدالا وإطنابا ، فهذا أمر مسلم به ، وسوف نعرض له بإفاضة فى باب مستقل ، ولكن لا بأس ـ ونحن فى حديث الإيجاز ـ أن نضرب مثلا سريعا لبلاغة الإطناب فى كلام رسول الله . قال ﷺ : « **من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا** » رواه مسلم .

إن رسول الله ﷺ يحض المسلمين أفرادا وجماعات على الدعوة إلى الهدى مرغبا إياهم إلى فعل ذلك فى حاشية من القول النبيل الجميل ، ولو أنه اكتفى بالقول ـ فى نطاق الترغيب ـ بعبارة : « **من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه** » ووقف على ذلك دون زيادة لما عدَّ الكلام من ضروب الإطناب ، ولكان فى هذا القدر من الألفاظ كفاية لتحقيق المراد ، ولكنه ﷺ بما جبل عليه من قمة الفصاحة وذروة البلاغة أكمل العبارة بهذا القول المؤكد لمعناه فى سلاسة من القول وحكمة من الصوغ : « **لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا** » وهنا يكون الإطناب ، ولكنه إطناب بليغ أكد المعنى المراد بجملة خفيفة على السمع ، سريعة الانسياب إلى القلب ، فورية القبول من النفس ، وبنفس المعيار يمكن تطبيق ذلك على النصف الثانى من الحديث .

نعود فى سرعة إلى ما كان يشغلنا من حديث رسول الله ﷺ وهو ظاهر الإيجاز البليغ المعجز الذى لايجارى . يقول رسول الله ﷺ فى مجال تربية المسلمين على التواصل ، وتنشئتهم على الفضائل : « **عائد المريض على مخارف الجنة حتى يرجع** » ومخارف الجنة روضاتها .

هذا كلام لا يسمو فوقه إلا كلام رب العالمين ، فمن ذا الذى يستطيع تصوير هذا المعنى فى ثياب من تلك الألفاظ الْعِذَابِ ، المحملة بقوافل من التبشير بالجنة لمن عاد مريضا إلا محمد ﷺ أى دنيا من البلاغة حوتْ هذا المعنى ؟ وأى قبيل من الرقة الرقراقة المحببة اشتمل عليه هذا القول ؟ !

وقبل أن ننتهى من هذا الفصل يجمل بنا أن نشير إلى أسلوب رسول الله وهو يتعامل

مع إحدى صديقات أم المؤمنين خديجة الكبرى بعد وفاتها ، أسلوب البساطة المطلقة .

كان رسول الله ﷺ أوفى الأوفياء ، ومن الوفاء بمكان أن يظل يذكر خديجة بعد وفاتها كلما سنحت الفرصة بذلك ؛ يترحم عليها ، ويمجد ذكراها . فهو القائل ـ والرواية لأبى هريرة ـ : « **أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم زوجة فرعون** » وفى الأدب المفرد من حديث أنس : كان النبى ﷺ إذا أتى بالشيء يقول : « **اذهبوا به إلى فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة** » .

وعن عائشة ـ رضى الله عنها وأرضاها ـ : جاءت عجوز إلى النبى ﷺ فقال : «**كيف أنتم ؟ كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟** » قالت : بخير بأبى أنت وأمى يا رسول الله . فلما خرجت قلت : يا رسول الله ، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ؟! فقال : « **يا عائشة ، إنها كانت تأتينا زمن خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان** » .

ولكثرة ما كان يذكر الرسول خديجة بالخير ، كانت أم المؤمنين عائشة تغار منها ، أو بالأحرى تغار ـ كزوجة ـ من كثرة احتفال الرسول ﷺ بزوجته الأولى ، ولا عليها فى ذلك ؛ فهى من البشر . ومن رواية أبى داود مرفوعا إلى السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ قولها : ما غرت على أحد من نساء النبى ﷺ ما غرت على خديجة ـ رضى الله عنها ـ وما رأيتها قط ، ولكن كان ـ أى : الرسول ـ يكثر ذكرها ، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها فى صدائق خديجة ، فربما قلت له : كأن لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة ؟؟!! فيقول لى : « **إنها كانت وكانت ، وكان لى منها ولد** » .

ومن آيات تكريم رسول الله ﷺ لخديجة ـ أو بالأحرى لذكرى خديجة ـ أنه فى فتح مكة ضرب خيمته بالحجون حيث كانت ترقد أم المؤمنين خديجة فى قبرها ، وارتفع علم الرسول ، ومن نفس المكان أشرف على معركة الفتح الأعظم ، ومنه دخل أم القرى حيث نصر الله عبده وأعز جنده .

قمة أدب التعبير :

من قمم الأدب فى التعبير حوار الرسول ﷺ مع ابنته زينب حين أجارت زوجها أبا العاص ، وتلك هى كمال القصة :

أصابت إحدى سرايا رسول الله ﷺ مالاً كان عند أبى العاص زوج زينب بنت رسول الله ﷺ وكان أبو العاص لا يزال على الشرك ، وهرب أبو العاص ثم جاء فى الليل إلى بيت زينب فى طلب المال ، واستجار بها ، فلما كبّر رسول الله ﷺ فى صلاة الصبح ، صرخت زينب من صُفّة النساء ـ قائلة ـ : أيها الناس ، إنى قد أجرت أبا العاص ، فلما سلم النبى ﷺ من الصلاة أقبل على الناس فقال : « **هل سمعتم ما سمعْتُ ؟** » **قالوا : نعم ، قال :** « **أما والذى نفسى بيده ما علمت بشىء حتى سمعت ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أدناهم** » .

ثم دخل رسول الله ﷺ إلى زينب فقال : « **أكرمى مثواه ، ولا يخلصَنَّ إليك ، فإنك لا تحلين له** » .

هنا تتجلى عظمة رسول الله ﷺ فى معنيين :

الأول هو مطالبته زينب أن تكرم مثوى الرجل الذى كان زوجا لها وصهرا لرسول الله ثم أوقف الشرك وعدم المسارعة إلى الإسلام هذا الزواج ، وهذا الطلب بالإكرام هو قمة أدب السلوك .

والثانى هو ذلك التعبير الذى جاوز غاية الأدب وقمة التهذيب فى عبارة غير مسبوقة فى كلام البشر ، وذلك قوله ﷺ : « **ولا يَخْلُصَنّ إليك فإنك لا تَحِلِّين له** » وذلك تنبيه من الرسول الأب إلى زينب الابنة التى لا شك كانت تدرك ذلك وتعرف كيف تحافظ على نفسها ، ولكن الدين يقتضى التنبيه ، فكان ذلك التنبيه الراقى الأدبى الذى لا يخدش حياء ، ولا يجرح أنوثة ، ولا ينال من مروءة .

أما بقية القصة فهى مثال لمروءة الرسول حيال أبى العاص ؛ لأنه يعرف سريرة نفسه وصفاء معدنه ، وجماع خلقه ، قال الرسول ﷺ للأنصار : « **إن تحسنوا وتردوا عليه المال فهو الذى نحب** » ثم يستطرد قائلا : « **وإن أبيتم فهو فىء الله أنتم أحق به** » فردوه إليه أجمع .

وفى رواية أنه ﷺ قال للأنصار : « **إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ـ أى : لزينب ـ**

وتردوا عليها مالها فافعلوا » ذلك أن زينب بنت رسول الله قد بعثت فى فداء أبى العاص بمال وبقلادة كانت أمها خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى عليها .

فقال الأنصار : نعم يا رسول الله ، فأطلقوه وردوا عليها المال والقلادة .

لقد فعل الرسول ﷺ هذا فى زينب لأنه رقّ لها ، إذ لم يكن عندها من المال ما يكفى للفداء ، فبعثت بالقلادة التى كانت لأمها وجهزتها بها وقت زواجها ، ولم يكن لأبى العاص مال ، وإنما كانت عنده أموال لقريش وبضائع يتجر بها .

أما ما كان من أبى العاص فإنه ارتحل إلى مكة ، فأدى إلى كل رجل من قريش ماله ، فقالوا : جزاك الله خيراً ، فقد وجدناك وفيًّا كريما ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، والله ما منعنى من الإسلام عنده - أى : عند رسول الله فى المدينة - إلا مخافة أن تظنوا أنى إنما أردت أكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم أسلمت . ثم خرج حتى قدم المدينة على رسول الله ﷺ فرد إليه زوجته زينب بالنكاح الأول ، وبقى بالمدينة حتى سار مع علىّ إلى اليمن فاستخلفه علىّ على اليمن لما رجع ، ثم كان مع علىّ يوم بويع أبو بكر .

ويتجلى ذلك أيضا حين سمعت السيدة عائشة رسول الله ﷺ يكثر من ذكر السيدة خديجة ، وهو لا يذكرها إلا بالخير العميم ، ويهش للقاء صديقاتها ويؤثرهن بكثير من الصِّلات وفاء لذكراها ، قالت له :

« وهل كانت إلا امرأة عجوزا ؟! فقد أبدلك الله خيرا منها ؟!! »

فغضب الرسول حتى اهتز مُقَدَّم شعره من الغضب ثم قال : « **لا والله ما أبدلنى الله خيرا منها ، آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذّبنى الناس ، وواستنى فى مالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الولد إذ حرمنى أولاد النساء** » .

فقالت عائشة : « فقلت فى نفسى : لا أذكرها بسيئة أبدا » .

لم تكن هذه طبيعة السيدة عائشة - رضى الله عنها - ولكنه كان طبع الزوجة فيها التى تغار على زوجها ، ذلك أن السيدة عائشة نفسها تصف أم المؤمنين زينب بنت

جحش ـ وهى أيضا ضرتها ـ فتقول : لم أر امرأة فى الدين خيرا من زينب وأتقى عند الله ـ عز وجل ـ وأصدق حديثا ، وأوصل للرحم ، وأعظم صدقة .

ولم يقف وفاء رسول الله ﷺ عند وفائه لخديجة خاصة ، وللمسلمين عامة ، بل اتسع قلبه الكبير لمكة المكرمة مسقط رأسه الشريف وأرض مولده ، وملعب صباه ، وملتقى وحى الله ، وميدان كفاحه ثلاث عشرة سنة منذ أكرمه ربه بالرسالة وخصه بالوحى . إن كلمات الوفاء التى خص بها زوجه خديجة ببلاغتها وعمقها تعانق كلمات الوفاء التى صدرت عنه ﷺ حين غادر مكة مهاجرا ، فقد قال ﷺ حين خرج من الغار ـ غار ثور ـ ونظر إلى مكة بعين دامعة وقسمات وجه حزين : « **ما أطيبك من بلد وأحبك إلىّ ، ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك** » .

بهذه الكلمات البليغة الموجزة ، وبهذه الجمل القليلة الحزينة ودع رسول الله ﷺ مكة حبا منه لها ، ووفاء من نفسه الشريفة لأم القرى . تماما مثلما صدرت عن قلبه ولسانه الشريفين كلمات الوفاء الموجزة فى حق أم المؤمنين خديجة الكبرى .

ومثلما قال الرسول ﷺ فى مجال الوفاء ما قاله من بلاغة الإيجاز ، فإن الأسلوب القولى نفسه يصدر عنه ﷺ فى مجال القناعة ، وما أكثر ما قال فى القناعة .

عن عبدالله بن محصن الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «**من أصبح منكم آمنا فى سربه ، معافًى فى جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**» رواه الترمذى .

والسرب : هو القوم ، وقيل : النفس .

إن حديث بلاغة الإيجاز عند رسول الله حبله طويل ، وسياقه ممتع ، وحصاده وفير، ولكننا نكتفى بهذا القدر مختتمين هذا اللون من حديث الإيجاز فى أقوال رسول الله بهذا المثال :

روى البخارى ـ رحمه الله تعالى ـ فى التاريخ ، والحارث بن أبى أُسامة ، وابن مَنْدَه ، والطبرانى ، والبزار ، والبيهقى ، برجال ثقات عن عبد الرحمن بن أَبى عقيل الثقفى ـ

رضى الله عنه ـ قال : انطلقت فى وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ فأتيناه فَأَنَخْنَا بالباب وما فى الناس رجل أبغض إلينا من رجل نَلِجُ عليه ، فلما خرجنا بعد دخولنا عليه فخرجنا وما فى الناس رجل أَحَبُّ إلينا من رجل دخلنا عليه . قال : فقال قائل منا : يا رسول الله أَلا سَأَلْتَ رَبَّكَ مُلْكاً كَمُلْكِ سليمان ؟ قال : فَضَحِكَ رسول الله ﷺ ثم قال : «فَلَعَلَّ لِصاحبكم عند الله أفضل من مُلْكِ سليمان ـ عليه السلام ـ إن الله ـ عز وجل ـ لم يبعث نبيًّا إلا أعطاه دعوة ، فمنهم من اتخذ بها دُنْيَا فأُعْطِيَهَا ، ومنهم من دَعَا بها على قَوْمِه إذ عَصَوْهُ فأُهْلِكُوا بها ، وإن الله ـ عز وجل ـ أعطانى دَعْوَةً فَاخْتَبَأْتُهَا عند ربِّى شفاعة لأمتى يوم القيامة » (١).

وهكذا تكون بلاغة الإيجاز فى حديث الشفاعة خاتمة لهذا النوع من فن القول عند رسول الله ﷺ فاللهم اجعلنا ممن يبعثون تحت رايته ، ويرتوون من حوضه ، ويفوزون بشفاعته ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٢).

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٦ / ٥٥٦ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيتان : ٨٨ ، ٨٩ .



الفصل الثالث

أدب الحوار في كلام النبي ﷺ



أدب الحوار فى كلام النبى ﷺ

كان رسول الله ﷺ أكثر الناس أدبا فى الحوار والسلوك ، وأشدهم حياء ، وأوفرهم مجاملة للآخرين ، كان هذا سلوكه مع الناس جميعا حتى مع مشركى قريش إذا حادثهم فى غير شئون الدعوة ، كانت وفرة أدبه ، ورقة مجاملته من الأمور التى يعرفها عامة الناس وخاصتهم على وجه سواء .

كان أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ خادما لرسول الله ﷺ ملازما له نحو عشر سنين فى دار الهجرة ، ولأنس أخبار كثيرة رواها عن أدب رسول الله وحلمه وتلطفه مع العام والخاص .

يقول أنس فى وصف آداب رسول الله وسمته : « **ما شممت رائحةً قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ قال : ولا تناول أحد يده فيتركها حتى يكون هو الذى يتركها ، وما أخرج ركبتيه بين يدى جليس له قط ، وما قعد إلى رسول الله ﷺ رجل قط فقام حتى يقوم** » (١) .

وفى رواية أخرى عن أنس قال : « **ما أخرج رسول الله ﷺ ركبتيه قط بين يدى جليس له : ولا قعد أحد إلى رسول الله ﷺ فيقوم حتى يقوم الآخر ، ولا ناول يده النبى ﷺ فيترك يده حتى يكون الرجل هو يتركها** » (٢).

وعن ابن أبى أوفى يقول : « **كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر ، ويقلُّ اللعن ، ويطيل الصلاة ، ويقصر الخطبة ، وكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين ،**

---

(١) أخلاق النبى وآدابه ، للحافظ أبى محمد عبدالله بن محمد الأصبهانى المعروف بأبى الشيخ الحديث رقم ٣٩ الدار المصرية اللبنانية .

(٢) المصدر السابق الحديث رقم ٤٠ .

فيقضى له حاجته »[1].

وعن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : « **ما ضرب النبى ﷺ امرأة قط ، ولا ضرب خادما قط ، ولا ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله عز وجل ، ولا نيل منه فانتقم من صاحبه ، إلا أن تنتهك محارمه فينتقم** »[2].

كانت تلك بعض صفات رسول الله ، ولونا من ألوان سلوكه ﷺ وكان هذا السلوك يتضح فى حواره مع غيره من البشر أفرادا كانوا أم جماعات ، حضرًا كانوا أم بدوًا ، مشركين كانوا أم مؤمنين ، كتابيين كانوا أم مسلمين ، أنصارا كانوا أم مهاجرين .

وإنا لموردون نماذج من حوار رسول الله مع نماذج من هؤلاء الذين تمثلناهم ، وحواره ﷺ يأخذ لكل حالة مقتضاها ، ولكل موقف لبوسه ، فى نطاق من نصاعة البيان ، وسلاسة القول ، ورقة الحوار ، وسعة الصدر ، وجلال التسامح ، وكظم الغيظ ، ويسر الإقناع ، ضاربا بذلك الأمثال للمسلمين ـ بل للناس جميعا ـ أن يتمثلوا حلمه ، ويحفظوا قوله ، ويلتزموا سبيله ، ويتبعوا سنته ، ويقتفوا أثره .

فمن نماذج الحوار الذى جرى بين الرسول ﷺ وبين واحد من البدو من مشركى العرب ، ذلك الحوار الذى أجراه ضمام بن ثعلبة مبعوث قبيلة سعد بن بكر الذى يورده ابن هشام على النحو التالى : [3]

بعث بنو سعد بن بكر « ضمام بن ثعلبة » وافداً إلى رسول الله .

فقدم عليه وأناخ « ضمام » بعيره ، على باب المسجد ثم عقله ، ثم دخل المسجد ورسول الله جالس فى أصحابه .

وكان « ضمام » رجلاً جلداً ، أشعر ، ذا غديرتين ، فأقبل حتى وقف على رسول الله فى أصحابه . فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ .

فقال رسول الله : « **أنا ابن عبد المطلب !** » قال : أمحمد ؟ قال : « **نعم !** » .

---

(١) أخرجه النسائى ٣ / ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٢) رواه مسلم فى كتاب الفضائل جـ ٤ / ٧٩ والبخارى ٦ / ٣٥٦٠ وأبو داود ٤ / ٤٧٨٥ .

(٣) السيرة ٢ / ٥٧٣ ، ٥٧٤ ط مصطفى البابى الحلبى .

قال : يا ابن عبد المطلب إنى سائلك ومغلظ عليك المسألة ، فلا تَجِدَنَّ فى نفسك .

قال : « **لا أجد فى نفسى ، فسل عما بدا لك** » .

قال : أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك : آلله بعثك إلينا رسولاً ؟

قال : « **اللهم نعم** » .

قال : فأنشدك الله إلهك ، وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك . آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ، ولا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟ .

قال : « **اللهم نعم** » .

وفى رواية أنه قال : يا محمد . . أتانا رسولك ، فزعم أنك تزعم أن الله أرسلك ! .

قال : « **صدق** » قال : فمن خلق السماء ؟ قال : « **الله !** » قال : فمن خلق الأرض؟

قال : « **الله !** » قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : « **الله** » .

قال : فبالذى خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال : آلله أرسلك ؟ .

قال : « **نعم . .** » .

قال ضمام : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات فى يومنا وليلتنا ؟ قال : «**صدق!**» .

قال : فبالذى أرسلك : آلله أمرك بهذا ؟ قال : « **نعم !** » .

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام وشرائعه على هذا النحو ، حتى إذا فرغ قال : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتنى عنه . ثم لا أزيد ولا أنقص ، وانصرف إلى بعيره راجعاً .

فقال رسول الله : « **إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة** » .

فأتى ضمام بعيره فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه ، فكان أول ما تكلم به أن قال : بئست اللات والعزى !! قالوا : مه يا ضمام ! اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون . . قال : ويلكم ، إنهما - والله - لا يضران ولا ينفعان . إن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً ، استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه . .

قال : « **فوالله ما أمسى فى الحى من ذلك اليوم رجل ولا امرأة إلا مسلما** » .

إن المتتبع لهذا الحوار يظن أنه من جانب واحد ، ذلك أن ضماما كان يسأل فى صيغة الاستيضاح ، وكان الرسول يجيب بما يفيد الإيجاب ، ولكن حقيقة الأمر أن حوارا قد جرى قبل ذلك بين ضمام وبعض قومه عن الإسلام حتى إنه استوعب أركانه بشكل شمولى تجلى فى صيغ الأسئلة التى وجهها إلى النبى ﷺ ثم جرى حوار آخر بينه وبين نفسه انتهى به إلى اليقين الذى جعله يؤمن بتلك القيم الربانية فيما لو كان ما بلغه عن الإسلام صحيحا ، ثم جاء ضمام بعد ذلك إلى رسول الله الذى قرأ فى وجهه - أى : وجه ضمام - ملامح الإيمان ، وإذا كانت فراسة المؤمن لا تخيب ، فإنه يكون من باب أولى ألا تخيب فراسة النبى ؛ لذلك كان الرسول فى حوار ضمام معه لا يزيد فى إجاباته عن : « نعم » «واللهم نعم » وكانت هذه « النعمات » أبلغ إجابة فى هذا المقام ، ولذلك فإن ضماما لم يتردد ، ولم يضيّع وقتا ، بل سارع إلى الإيمان والنطق بالشهادتين ، وأبدى الامتثال لأركان الإسلام التى أقره عليها رسول الله ﷺ وانصرف على الفور .

وهنا يقول الرسول ﷺ : « إن صدق ذو العقيصتين - يعنى الضفيرتين ، وكان ضمام ذا ضفيرتين - دخل الجنة » وقد كان ضمام عند صدق فراسة رسول الله ﷺ إذ أنه لم يكتف بإعلان إسلامه وحده ، وإنما بات جميع قومه مسلمين ، ويعلق عبدالله بن عباس على هذا الأمر قائلا : فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة [(١)] .

كان حوار ضمام مع رسول الله ﷺ فيه خشونة ، ولكن حلم رسول الله تذوب أمامه

---

(١) يراجع أيضا كتاب الطبقات الكبرى - وفد سعد بن بكر ٢ / ٢٩٩ .

كل خشونة ، وتلين حياله كل شدة ، لقد تحمل الرسول ﷺ خشونة رجل لا يعدو أن يكون واحداً من سادة قومه البسطاء .

فإذا ما انتقلنا إلى ذكر حوار لوافد آخر عليه ثياب الملك ، وجدنا لونا آخر من كرم رسول الله وتلطفه واحتفائه بضيفه والتبشير بمقدمه قبل وصوله بليال ثلاث .

روى البخارى ـ رحمه الله ـ فى التاريخ ، والبزار ، والطبرانى ، والبيهقى عن وائل بن حُجْر ـ رضى الله عنه ـ قال : بلغنا ظهور رسول الله ﷺ وأنا فى بلد عظيم ورفاهة عظيمة ، فَرفَضْتُ ذلك ـ أى : رفضت الرفاهة ـ ورغِبْتُ إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإلى رسول الله ﷺ فلما قَدِمْتُ عليه أخبرنى أصحابه أنه بشَّر بمقْدمِى عليهم قبل أن أَقْدم بثلاث لَيالٍ . قال الطبرانى : فلما قدِمْتُ على رسول الله ﷺ سلَّمْتُ عليه فَردَّ علَىَّ ، وبسط لى رداءه وأجلسنى عليه ، ثم صعِد مِنْبره وأقعدنى معه ورفع يديه وحمِد الله تعالى وأثنى عليه ، وصلى على النبى ﷺ واجتمع الناس إليه فقال لهم : « **يا أيها الناس ، هذا وائِل بن حُجْر قد أتاكم من أَرْض بعيدة ، من حضْرموْت ، طائعاً غير مُكْره ، راغباً فى الله وفى رسوله وفى دين بيته ، بقِيَّةُ أبناء الملوك** » . فقلت : يا رسول الله ، ما هو إلا أن بلَغنا ظهورُك ، ونحن فى مُلْكٍ عظيم وطاعة ، وأتيتك راغبا فى دين الله . فقال : «صدقْتَ» .

وعن وائل بن حُجْر قال : جِئتُ رسول الله ﷺ فقال : « هذا وائل بن حُجْر جاء حُبًّا لله ولرسوله » وبسط يده وأجلسه وضَمَّه إليه وأصعده المنبر ، وخطب الناس فقال : « ارفقوا به فإنه حديث عهْد بالملك » . فقلت : إن أهْلِى غَلَبونى على الذى لى ، فقال : « أنا أعْطيكَه وأُعْطِيكَ ضِعْفَه » . الحديث [1].

هكذا كان احتفاء الرسول ﷺ بوائل بن حجر الحضرمى الملك ابن الملوك ، يجلسه ويضمه ويصعده على المنبر ، لأنه يعلم أن بقية من رواسب الملك لا تزال تسرى فى دمائه ، ولقد كان وائل بالفعل على ما تصوره رسول الله ، فقد أمر النبى معاوية بن أبى سفيان أن يرافقه وينزله منزلا بالحرة ، قال معاوية : فانطلقت به وقد أحرقت رجلى

(١) سبل الهدى الرشاد ٦ / ٦٦٥ .

الرمضاء ، فقلت : أردفنى ، قال : لستَ من أرداف الملوك ، قلت : فأعطنى نعليك أتوقى بهما من الحر ، قال : لا يبلغ أهل اليمن أنّ سوقة لبس نعل ملك ، ولكن إن شئت قصرت عليك ناقتى فسرت فى ظلها . قال معاوية : فأتيت النبى ﷺ فأنبأته بقوله ، فقال : « **إن فيه لَعُبّية من عُبِّيَّة الجاهلية** » .

هكذا كان يلتقى رسول الله بالوافد أو الوفود ، فيتعامل معهم على قدر طبيعتهم ، ويحاورهم بما يتسق وأحوالهم .

وفى حال وائل بن حجر لم يكتف النبى ﷺ بتكريمه بحسن التلقى ورقة الحوار وحسن الضيافة وحسب، بل إنه زوده بكتاب كريم حمله معه إلى قومه كتدعيم لشخصه، وفى الوقت نفسه يشكل الكتاب تعهدا قبله وائل بشروطه، جاء فيه :

« **هذا كتاب من محمد النبى لوائل بن حجر قَيْلِ حضرموت : إنك أسلمت ، وجعلتُ لك ما فى يديك من الأرضين والحصون ، وأن يؤخذ منك من كل عشرة واحد ، ينظر فى ذلك ذو عدل ، وجعلتُ لك فيها ألا تُظْلم ما قام الدين ، والنبى والمؤمنون عليه أنصار** » (١).

إن نماذج الحوار الذى كان يجرى بين رسول الله ﷺ وبين الوافدين عليه من الناس سواء أكانوا قادمين عليه فى مكة أو فى المدينة لما ينبه العدل الكامن فى صدر الإنسان ، فيدفع به إلى ساحة الاقتناع ، ثم بعد ذلك إلى رحاب اليقين . وها نحن نتمثل الآن بحوار لم تسجل ألفاظه ، ومع ذلك فلنر نتيجته .

كان الطفيل بن عمرو الدَّوْسى ـ فيما يروى ابن هشام ـ يحدث أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها فمشى إليه رجال من قريش وقالوا له : يا طفيل إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا ـ يعنى محمدا ـ قد أعضل بنا ـ يعنى اشتد أمره ـ وقد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجه ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنّه ولا تسمعنّ منه شيئا .

---

(١) الطبقات الكبرى ٢ / ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

كان الطفيل رجلا شريفا شاعرا ومع ذلك فإنه يقول : فوالله ما زالوا بى حتى أجمعت ألا أسمع منـه شيئا . ولا أكلمه حـتى حشوت فى أذنىّ حين غدوت إلى المسجد كُرْسُفاً ـ يعنى قطنا ـ خشية أن يبلغنى شىء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه .

ويمضى الطفيل قائلا : فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة ، فقمت منه قريباً ، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله ، فسمعت كلاما حسنا ، فقلت فى نفسى : واثكل أمى ، والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى علىّ الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان الذى يأتى به حسنا قبلته ، وإن كان قبيحا تركته ، فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته ، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه ، فقلت : يا محمد ، إن قومك قد قالوا لى كذا وكذا ، فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذنى بكرسف لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك ، فسمعته قولا حسنا ، فاعرض علىّ أمرك ، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ، وتلا عليه القرآن . يقول الطفيل : فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه ، ولا أمرا أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت : يا نبى الله ، إنى امرؤ مطاع فى قومى ، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام ، فادع الله أن تكـون لى آية عـونا لى عليهـم فيما أدعوهم إليـه ، فقال : « **اللهم اجعل له آية** » .

قال الطفيل : فخرجت إلى قومى حتى إذا كنت بثنيّة تطلعنى عليهم وقع نور بين عينى مثل الصباح ، فقلت : اللهم فى غير وجهى ، إنى أخشى أن يظنوا أنها مُثْلةٌ وقعت فى وجهى لفراقى دينهم ، فتحول النور فوقع فى رأس سوطى ، فجعل القوم يتراءون ذلك النور فى سوطى كالقنديل المعلق ، وأنا أهبط إليهم من الثنية حتى جئتهم فأصبحت فيهم . فلما نزلت أتانى أبى ـ وكان شيخا كبيرا ـ فقلت : إليك عنى يا أبت ، فلست منك ولست منى ، قال : ولم يا بنى ؟ قلت : أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ قال : أى بنى ، فدينى دينك ، فقلت : فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثم تعال حتى أعلمك ما علمت ، فذهب فاغتسل وطهر ثيابه ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم .

ثم أتتنى صاحبتى فقلت : إليك عنى ، فلست منك ولست منى ، قالت : لم ؟ بأبى أنت وأمى ، قلت : قد فرق بينى وبينك الإسلام ، وتابعت دين محمد ﷺ قالت : فدينى دينك ، قلت : فاذهبى إلى حمى ذى الشرى فتطهرى منه ، وكان ذو الشرى صنما لدوس ، وكان الحمى به وشل من ماء يهبط من جبل ، فذهبت فاغتسلت ثم جاءت فعرضت عليها الإسلام فأسلمت .

ثم دعوت دوسا - يعنى قبيلته - إلى الإسلام فأبطأوا على ، ثم جئت رسول الله ﷺ بمكة ، فقلت له : يا نبى الله ، إنه قد غلبنى على دوس لهوهم فادع الله عليهم ، فقال : « **اللهم اهد دوساً ، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم** » قال : فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ومضى بدر وأحد والخندق ، ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم معى من قومى ، ورسول الله ﷺ بخيبر ، حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتا من دوس ، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر ، فأسهم لنا مع المسلمين ، ثم لم أزل مع رسول الله ﷺ حتى إذا فتح الله عليه مكة قلت : يا رسول الله ، ابعثنى إلى ذى الكفين - صنم عمر بن حُمَمَة - حتى أحرقه ، فخرج طفيل إليه ، وجعل يوقد النار عليه ، ويقول :

يـاذا الكفين لست مـن عُبّادكا ميلادنـا أقـدم مـن ميلادكـا

إنى حشوت النار فى فؤادكا

وهكذا كان حوار الرسول ﷺ مقنعا للعقلاء ، هاديا للنجباء من أمثال الطفيل بن عمرو الدوسى الذى لم يعلن تفاصيل حواره مع الرسول ، وعلى الرغم من ذلك فقد سعى لإسلام أبيه ، ثم إسلام صاحبته ، ثم إسلام دوس فى أكثرها . (١)

نماذج الحوار التى تمثلنا بها فيما سلف من صفحات كان الطرف الثانى فيها صنفاً من الرجال لم يكونوا قد أسلموا بعد ، ولكن كانوا بسبيلهم إلى الإسلام ، أو أسلم الواحد منهم ولكنه حديث عهد بالإسلام .

يبقى بعد ذلك أن نتمثل لنماذج من الحوار جرت بين الرسول ﷺ وبين أفراد من

---

(١) قصة إسلام الطفيل فى سيرة ابن هشام ١ / ٣٨٢ وما بعدها .

المسلمين الذيـن انتظموا الدعـوة ، وانخرطـوا فى سلكها ، وانـدمجـوا فى مضمارها .

إن من أنفس نماذج هذا الطراز من الحوار ، ذلك الذى جرى بين شاب من جمهرة شباب المسلمين ـ وإن لم يكن من خيارهم ـ وبين رسول الله ﷺ إن الشاب فى غيبة رشده ، والانصياع لغريزته ، يطلب إلى رسول الله مالم يطلبه أحد قبله ، فهو يطلب أن يؤذن له بالزنا ، فلما سمعه الناس صاحوا غضابا ، ولكن رسول الله ﷺ معلم البشرية ومبرىء سقامها ، لا يغضب ، وإنما يقرب الشاب إليه ، ويعالج ما يطلبه من الإذن له بالفاحشة بالحوار الهادىء الذى يشتمل على الكلمة الطيبة ، والموعظة الحسنة ، والنصح الجميل .

إن مجمل الخبر كما رواه الإمام أحمد عن أبى أمامة بإسناد جيد هو :

أتى شاب النبى ﷺ فقال : يانبى الله أتأذن لى فى الزنا ؟ فصاح الناس به ، فقال النبى ﷺ : « قربوه ، ادْنُ » فدنا حتى جلس بين يديه ، فقال عليه الصلاة والسلام: « أتحبه لأمك » ؟ قال : لا ، جعلنى الله فداك . قال :« كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم . أتحبه لابنتك ؟» قال : لا ، جعلنى الله فداك . قال : « فكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم » وزاد الراوى ابن عوف : حتى ذكر العمة والخالة . وهو يقول فى كل واحدة : لا ، جعلنى الله فداك ، والنبى ﷺ يقول : كذلك الناس لا يحبونه » ثم وضع الرسول ﷺ يده على صدره وقال : « اللهم طهر قلبه ، واغفر ذنبه وحصن فرجه » فلم يكن شىء أبغض إليه من الزنا .

وهذا صحابى جليل هو جابر بن عبدالله يجرى رسول الله معه حواراً فى عامة شئونه، يسأله عن أحواله الخاصة والعامة ، فإن وجد ثمت ما يحتاج فيه جابر العون أعانه ، وكان هذا شأن رسول الله ﷺ مع صحابته ، كان لهم الأب الحانى ، والمربى العظيم ، والراعى الأمين .

. . . عن الحجاج بن أبى عثمان الصواف ، عن أبى الزبير ، عن جابر ـ يعنى جابر ابن عبدالله ـ قال : « غزا رسول الله ﷺ إحدى وعشرين غزوة بنفسه، شهدت تسع عشرة ، وغبت عن اثنتين ، فبينا أنا معه فى بعض غزواته ، إذ أعيى ناضحى ـ يعنى

بعيرى ـ تحت الليل فبرك ، وكان رسول الله ﷺ فى آخرنا ، فى أخريات الناس ، فيزجى الضعيف ، ويردف ، ويدعو لهم ، فانتهى إلى ـ يعنى وصل إلى ـ وأنا أقول : يا لهف أمتاه ، وما زال لنا ناضح سوء ، فقال : « من هذا ؟ » فقلت : أنا جابر ، بأبى وأمى يا رسول الله ، قال : « ما شأنك ؟ » قلت : أُعْيِى ناضحى ، فقال : « أمعك عصا ؟ » قلت : نعم ، فضربه ، ثم بعثه ، ثم أناخه ووطىء على ذراعه وقال : « اركب» فركبت، فسايرته ، فجعل جملى يسبقه ، فاستغفر لى تلك الليلة خمسا وعشرين مرة فقال لى : « ما ترك عبد الله من الولد ؟ » ـ يعنى أباه ـ قلت : سبع نسوة ، قال : «أَتَرَكَ عليك دينا ؟ » قلت : نعم ، قال : « فإذا قدمت المدينة فقاطعهم ، فإن أبوا فإذا حضر جداد نخلكم ـ يعنى الذى يقطع زوائده ـ فآذنِّى » وقال لى : « هل تزوجت ؟» قلت : نعم ، قال : « ممن ؟ » قلت : فلانة بنت فلان ، بأيِّم كانت بالمدينة، قال : « فهلا فتاة تلاعبها وتلاعبك ؟ » قلت : يا رسول الله كنّ عندى نسوة خُرُق ـ يعنى أخواته ـ فكرهت أن آتيهن بامرأة خرقاء ، وقلت : هذه أجمع لأمرى ، قال : «فقد أصبتَ ورشدتَ » ، فقال : « بكم اشتريت جملك ؟ » قلت : بخمس أواق من ذهب ، قال : قد أخذناه » ـ يعنى اشتريناه ـ فلما قدم المدينة أتيته بالجمل ، فقال : « يا بلال ، أعطه خمس أواق من ذهب يستعين بها فى دين عبدالله ، وزده ثلاثا ، واردد عليه جمله » قال : « هل قاطعت غرماء عبدالله ؟ » قلت : لا يا رسول الله ، قال : « أَتَرَكَ وَفَاءً ؟ » قلت : لا ، قال : « لا عليك ، إذا حضر جداد نخلكم فآذنى » فآذنته ، فجاء ، فدعا لنا ، فاستوفى كل غريم ما كان يطلب ثمرا وفاء ، وبقى لنا ما كنا نجد وأكثر ، فقال رسول الله ﷺ : « ارفعوا ولا تكيلوا » فرفعنا ، فأكلنا منه زمانا » (١).

بهذه البساطة وهذا اليسر كان حوار رسول الله ﷺ مع صحابته ، يجرى الحوار ليتعرف على أحوالهم ، ويستكشف متاعبهم إن كان ثمت متاعب ، فيأخذ بيد الضعيف ، ويساعد المحتاج ، ويعاون من اضطربت شئونه وتغيرت أحواله ، ويسدى النصح ويوجه نحو السداد .

ومن نماذج الحوار بين رسول الله وبين أحد أفراد الصحابة ، بل رأس الصحابة ما

(١) أخلاق النبى وآدابه ، الحديث رقم ١٧٠ .

كان بينه وبين أبى بكر حين صلى أبو بكر بالناس ، وكان رسول الله بعيدا عن المسجد ليصلح بين قوم مختلفين فيما بينهم . وذلك خبر الحوار :

عن أبى العباس سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله ﷺ بلغه أن بنى عمرو بن عوف كان بينهم شر ، فخرج رسول الله ﷺ يصلح بينهم فى أناس معه فحبس رسول الله ﷺ وحانت الصلاة فجاء بلال إلى أبى بكر - رضى الله عنهما - فقال : يا أبا بكر إن رسول الله ﷺ قد حبس وحانت الصلاة فهل لك أن تؤم الناس ؟ قال : نعم إن شئت ، فأقام بلال الصلاة وتقدم أبو بكر فكبر وكبر الناس ، وجاء رسول الله ﷺ يمشى فى الصفوف حتى قام فى الصف فأخذ الناس فى التصفيق ، وكان أبو بكر رضى الله عنه لا يلتفت فى الصلاة ، فلما أكثر الناس التصفيق التفت فإذا رسول الله ﷺ فأشار إليه رسول الله ﷺ فرفع أبو بكر رضى الله عنه يده فحمد الله ورجع القهقرى وراءه حتى قام فى الصف ، فتقدم رسول الله ﷺ فصلى بالناس ، فلما فرغ أقبل على الناس فقال : « **أيها الناس ما لكم حين نابكم شىء فى الصلاة أخذتم فى التصفيق ، إنما التصفيق للنساء ، من نابه شىء فى صلاته فليقل سبحان الله ، فإنه لا يسمعه أحد حين يقول سبحان الله إلا التفت ، يا أبا بكر ما منعك أن تصلى بالناس حين أشرت إليك ؟ فقال أبو بكر : ما كان ينبغى لابن أبى قحافة أن يصلى بالناس بين يدى رسول الله ﷺ (متفق عليه) .**

معنى (حبس) : أمسكوه ليضيفوه» .

إن هذا الحوار القصير الموجز الذى جرى بين الرسول ﷺ وبين أبى بكر يشف عن جوهر الرسول الكريم الذى يرضى بأن يصلى مأموما بأبى بكر ، وعن مقدار إعظام أبى بكر للرسول فى كل المواقف ، وبخاصة فى موقف الصلاة ، إذ يقول فى أدب لا يتقنه إلا قلة من الصحابة وفى مقدمتهم أبو بكر : ما كان ينبغى لابن أبى قحافة أن يصلى بالناس بين يدى رسول الله ﷺ ناهيك عن الدرس القصير فى شأن الصلاة ، حيث إذا أراد الرجال أن ينبهوا الإمام إلى شىء ما فالذى يجمل بهم هو التسبيح ، وأما النساء فالتصفيق .

إن نماذج الحوار التى أسلفنا التمثل بها كانت بين الرسول ﷺ وبين أفراد بذواتهم ، بعضهم ممن انتوى دخول الإسلام ، وبعضهم حديث عهد بالإسلام ، وبعضهم

ينقصه سلوك راشد فوجد الرشاد فى حواره مع رسول الله ، وبعضهم صحابى يروى خبر حواره ، أو حوار مع صحابى اهتم بشأنه الرواة والحفاظ .

على أننا الآن بسبيل عرض نماذج من طراز مختلف فى مبنى الحوار وطبيعته وأسلوبه ؛ لأنه جرى بين الرسول ﷺ وبين بعض أهل الكتاب ، فمن نماذج هذا اللون من الحوار، ذلك الذى جرى بين الرسول وبين الحبر زيد بن سعنة وكان سببا فى إسلامه .

إن راوى هذا الحوار هو عبدالله بن سلام ، ولكن عن طريقين أو سلسلتين إحداهما يبدؤها ابن أبى عاصم ، والثانية يبدؤها أبو زرعة .

قال عبدالله بن سلام : إن الله ـ عز وجل ـ لما أراد هُدَى زيد بن سعنة ، قال زيد : ما من علامات النبوة شىء إلا وقد عرفتها فى وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه ، إلا اثنتان لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل إلا حلما ، فكنت أنطلق إليه لأخالطه فأعرف حلمه من جهله ، فخرج يوما من الحجرات ـ أى : الرسول ﷺ ومعه على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ فجاء رجل يسير على راحلته كالبدوى ، فقال : يا رسول الله إن قرية بنى فلان أسلموا ، ودخلوا فى الإسلام ، وحدثتهم أنهم إن أسلموا أتتهم أرزاقهم رغدا ، وقد أصابتهم سنة ـ يعنى : قحط ـ وشدة، وقحوط من العيش ، وإنى مشفق أن يخرجوا من الإسلام طمعا ، كما دخلوا فيه طمعا ، فإن رأيتَ أن ترسل إليهم بشىء تعينهم به فعلت . فقال زيد بن سعنة : فقلت : أنا أبتاع منك بكذا وكذا وسقاً فبايعنى ، وأطلقت هميانى وأعطيته ثمانين دينارا، فدفعها إلى الرجل وقال : اعجل عليهم بها وأغثهم .

فلما كان قبل المحِلّ ـ يعنى حلول السداد ـ بيوم أو يومين أو ثلاثة ، خرج رسول الله ﷺ إلى جنازة بالبقيع ، ومعه أبو بكر وعمر ، فى نفر من أصحابه ، فلما صلى على الجنازة ودنا من الجدار ، جذبت برديه جبذة شديدة حتى سقط من عاتقه ، ثم أقبلت بوجه جهم غليظ فقلت : ألا تقضينى يا محمد ؟ فوالله ما علمتكم بنى عبد المطلب لمطْل ، وقد كان لى بمخالطتكم علم . قال زيد : فارتعدت فرائص عمر ـ رضى الله عنه ـ كالفلك المستدير . ثم رمى ببصره ، ثم قال : أى عدوّ الله ، أتقول هذا لرسول

الله؟ وتصنع به ما أرى ؟ وتقول ما أسمع ؟ فوالذى بعثه بالحق لولا ما أخاف فوته لسبقنى رأسك ، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر فى تؤدة وسكون ، ثم تبسم ، ثم قال: « **لأنا وهو أحوج إلى غير هذا ، أن تأمرنى بحسن الأداء ، وتأمره بحسن اتباعه**»[1].

ثم يقول الرسول ﷺ ـ فى رواية أبى زرعة ـ: « **اذهب به يا عمر ، فاقض حقه وزده عشرين صاعا من تمر ، مكان ما رعته** » قال زيد بن سعنة : فذهب بى عمر ـ رضى الله عنه ـ فقضانى حقى ، وزادنى عشرين صاعا من تمر ، فقلت : ما هذا ؟ قال : أمرنى رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما رعتك . فقلت : أتعرفنى يا عمر؟ قال : لا، فمن أنت ؟ قال : أنا زيد بن سعنة ، قال : الحبر ؟ قلت : الحبر ، قال : فما دعاك إلى أن تفعل برسول الله ﷺ ما فعلت ؟ وتقول له ما قلت ؟ قلت : يا عمر إنه لم يبق من علامات النبوة شىء إلا وقد عرفتها فى وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتان لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما ، فقد اختبرته منه ، فأشهدك يا عمر أننى قد رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ، وأشهدك أن شطر مالى ـ فإنى أكثرها مالا ـ صدقة على أمة محمد ﷺ فقال عمر : أو على بعضهم فإنك لا تسعهم كلهم ، قلت : أو على بعضهم. قال : فرجع عمر وزيد ابن سعنة إلى رسول الله ﷺ فقال زيد : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

هكذا لم يستغرق الحوار بين رسول الله وبين زيد أكثر من جمل معدودة ظهر فيها حلم الرسول فى ذروته ، ما زاد على أن ابتسم وقت أن هوجم ، ثم الكلمات الطيبة يحسن بها توجيه عمر ، ثم سداد الدين ومعه زيادة بدلا عن الترويع الذى أوقعه عمر فى قلب زيد بن سعنة .

لقد آمن زيد وصدق بمحمد ﷺ وبايعه وشهد معه مشاهد كثيرة .

ومن أَجَلِّ ما يؤثر من حوار ، ذلك الذى جرى بين رسول الله ﷺ وبين سفانة ابنة حاتم الطائى وما خلعه عليها الرسول ﷺ من الرعاية ، وما حباها به من تكريم حين علم أنها ابنة كريم العرب فى الجاهلية حاتم الطائى ، ثم ذلك الحوار النفيس النبيل

---

(١) إلى هنا تنتهى رواية ابن أبى عاصم ، ثم تبدأ الزيادة التى جاءت برواية أبى زرعة .

الذى جرى بين الرسول ﷺ وبين عدى بن حاتم شقيق سفانة عند مقدمه إلى رسول الله طائعا بمحض اختياره حين عادت إليه أخته حرة طليقة محروسة بأمر رسول الله بنفر من قومها بعد أن كانت بين السبايا ، ثم صارت فى مقدمة الحرائر بين قومها مثلما كانت على أيام أبيها .

ونحن نميل إلى أن نترك عدى بن حاتم يحكى الخبر بلسانه ، ويروى صيغة الحوار الذى جرى بين الرسول ﷺ وبين سفانة ، ثم بين الرسول وبينه (١).

قال عدى بن حاتم ـ رضى الله عنه ـ : بُعِث رسول الله ﷺ بالنُّبُوَّة ولا أعلم أحداً من العرب كان أَشَدَّ كَرَاهِية لرسول الله ﷺ حين سَمِع به مِنِّى ، أما أنا فَكُنْتُ امرأً شريفاً وكنت نصرانيًّا ، وكنت أسير فى قومى بالمِرْبَاع ، وكنت فى نفسى على دين ، وكنت مَلِكاً فى قومى لما كان يُصْنَع بى ، فَلما سَمِعْتُ برسول الله ﷺ كَرِهْتُه أشد ما كرهت شيئاً ، فقلت لغلام كان لى عَرَبِى وكان راعياً لإبِلى : لا أبا لك أَعْدِدْ لى من إبِلى أَجْمَالا ذُلُلاً (٢) سِمَاناً فَاحْتَبِسْها قريباً مِنِّى ، فإذا سَمِعْتَ بجَيْش لمحمد قد وَطِىء هذه البلاد فآذِنِّى . فَفَعَل . ثم إنه أتانى ذات غداة فقال : يا عَدِى ما كُنْتَ صانعاً إذا غَشِيتْكَ خَيْلُ محمد فَاصْنَعْهُ الآن ، فإنى قد رأَيتُ رايات فسأَلتُ عنها فقالوا : هذه جيوش محمد . فقلت : قَرِّبْ إلىَّ أَجْمَالى ، فَقَرَّبَها فاحتملت بأهلى وولدى ، ثم قلت : أَلْحَقُ بأهل دينى من النصارى بالشام ، فسلكت الجُوشِيَّة (٢).

قال : فلما قدمت الشام أقمت بها ، وتخالفنى خيل لرسول الله ﷺ فتصيب ابنة حاتم فيمن أصابت ، فقدم بها على رسول الله ﷺ فى سبايا من طىء ، وقد بلغ رسول الله ﷺهربى إلى الشام . قال : فجعلت ابنة حاتم فى حظيرة بباب المسجد كانت السبايا تحبس فيها ، فمر بها رسول الله ﷺ فقامت إليه ، وكانت امرأة جزلة . وفى حديث على ـ رضى الله عنه ـ : لما أتى بسبايا طىء وقفت جارية جماء حمراء لعساء ، ذلفاء ، عيطاء ، شماء الأنف ، معتدلة القامة والهامة . قال : فلما رأيتها أعجبت بها ،

---

(١) السيرة لابن هشام مجلد ٢ / ٥٧٨ وما بعدها طـ الحلبى ، وسبل الهدى والرشاد ٦ / ٥٧٧ وما بعدها .

(٢) ذللا : جمع ذلول ـ بفتح اللام ـ وهو اللين . آذنى ، أى : أعلمنى ، الجوشية : موضع بين نجد والشام .

وقلت : لأطلبن إلى رسول الله ﷺ أن يجعلها فى فيئى . فلما تكلمت أنسيت جمالها لما سمعت من فصاحتها .

فقالت : يا محمد إن رأيت أن تُخلى عنا ولا تشمت بنا أحياء العرب فإنى ابنة سيد قومى ، وإن أبى كان يحمى الذمار ، ويفك العانى ، ويشبع الجائع ، ويكسو العارى ، ويقرى الضيف ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا ابنة حاتم طىء . فقال النبى ﷺ : « **يا جارية هذه صفة المؤمنين حقًّا ، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه ، خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، والله يحب مكارم الأخلاق** » .

وفى حديث ابن إسحاق : فقالت : يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد فامنن على منّ الله عليك . قال : « **من وافدك ؟** » قالت : عدى بن حاتم . قال : «**الفار من الله ورسوله ؟** » . قالت : ثم مضى رسول الله ﷺ وتركنى ، حتى إذا كان من الغد مر بى فقلت له مثل ذلك ، وقال لى مثل ما قال بالأمس . قالت : حتى إذا كان الغد مرَّبى وقد يئست منه ، فأشار إلىّ رجل من خلفه أن قومى فكلميه . قالت : فقمت إليه فقلت : يا رسول الله هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن على من الله عليك . فقال ﷺ : « **قد فعلت فلا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ثم آذنينى** » . فسألت عن الرجل الذى أشار إلى أن أكلمه فقيل : على بن أبى طالب رضى الله عنه . (*).

وأقمت حتى قدم ركب من بلىّ أو قضاعة . قالت : وإنما أريد أن آتى أخى بالشام . قالت : فجئت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله قد قدم رهط من قومى لى فيهم ثقة وبلاغ . قالت : فكسانى رسول الله ﷺ وحملنى وأعطانى نفقة ، فخرجت معهم حتى قدمت الشام .

(*) معانى المفردات :
جزلة : عاقلة أو تامة الخلق ، أو ذات كلام جزل ، أى : قوى شديد . جماء ـ بفتح وتشديد ـ : التى لا قرن لها . حمراء : يعنى بيضاء . لعساء : يعنى فى شفتها سواد . ذلفاء : من الذلف ـ بالتحريك ـ وهو صغر الأنف واستواء الأرنبة ، وقيل : ارتفاع فى طرفه مع صغر أرنبته . عيطاء ، أى : طويلة العنق فى اعتدال ، وللمذكر : أعيط . شماء الأنف ، أى : مرتفعة قصبة الأنف مع استواء أعلاها وإشراف الأرنبة قليلا .

قال عدى : فوالله إنى لقاعد فى أهلى إذ نظرت إلى ظعينة تصوب إلىَّ تؤمنا . قال : فقلت : ابنة حاتم ، قال : فإذا هِىَ هى . قال : فلما وقفت على انسلحت تقول : القاطع الظالم ، احتملت بأهلك وولدك وتركت بقية والدك عورتك (*). قال : قلتُ : أى أخية لا تقولى إلا خيراً ، فوالله مالى من عُذْر ، لقد صَنَعْتُ ما ذَكَرْتِ . قال : ثم نزلت فأقامت عندى . فقلت لها ـ وكانت امرأة حازمة ـ : ماذا ترين فى أمر هذا الرجل؟ قالت : أرى والله أن تلحق به سريعاً ، فإن يكن الرجل نبيًّا فللسابق إليه فضله ، فقد أتاه فلان فأصاب منه ، وأتاه فلان فأصاب منه ، وإن يكن ملكاً فلن تذل فى عز اليمن وأنت أنت . قال : قلت : والله إن هذا للرأى .

وفى حديث الشعبى : قال : فلما بلغنى ما يدعو إليه من الأخلاق الحسنة ، وما قد اجتمع إليه من الناس ، خرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فدخلت عليه وهو فى مسجده ، وعنده امرأة وصبيان أو صبى ، وذكر قربهم من رسول الله ﷺ قال : فعرفت أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر ، فسلمت عليه فقال : « من الرجل ؟ » فقلت : عدى بن حاتم . فقام رسول الله ﷺ فانطلق بى إلى بيته ، فوالله إنه لعامد بى إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته ، فوقف لها طويلاً فكلمته فى حاجتها ، فقلت فى نفسى : والله ما هذا بملك .

قال : ثم مضى بى رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفا فقدمها إلى فقال : « **اجلس على هذه** » . قال : قلت : يا رسول الله بل أنت فاجلس عليها ، قال : « **بل أنت** » فجلست عليها ، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض . فقال : « **يا عدى أخبرك أن لا إله إلا الله ، فهل من إله إلا الله ؟ وأخبرك أن الله تعالى أكبر ، فهل من شىء هو أكبر من الله عز وجل ؟** » ثم قال : « **يا عدى أسلم تسلم** » . فقلت : إنى على دينى . فقال : « **أنا أعلم منك بدينك** » فقلت : أنت أعلم منى بدينى ؟ قال : « **نعم** » يقولها ثلاثا . « **ألست ركوسيا ؟** » فقلت : بلى . قال :

(*) معانى المفردات :

الرهط : ما دون العشرة من الرجال . الظعينة : هى المرأة المرتحلة ، أو الراحلة التى يرتحل عليها . تؤمنا ، أى : تقصدنا . انسلحت ، أى : أرسلت الكلام . القاطع الظالم ، أى : أنت القاطع ، أنت الظالم .

« **ألست ترأس قومك ؟** » قلت : بلى . قال : « **أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع ؟** » قلت : بلى والله ، وعرفت أنه نبى مرسل يعلم ما يجهل . قال : « **فإن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك** » . ثم قال : « **يا عدى لعلك إنما يمنعك من الدخول فى هذا الدين أن رأيت خصاصة من عندنا ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف**» .

وفى رواية قال : « **هل رأيت الحيرة ؟** » قلت : لم أرها وقد علمت مكانها . قال : «**فإن الظعينة سترحل من الحيرة تطوف بالبيت فى غير جوار ، لا تخاف أحداً إلا الله عز وجل والذئب على غنمها** » . قال : فقلت فى نفسى : فأين ذعار طىء الذين سعروا البلاد ؟ قال : « **فلعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى الملك والسلطان فى غيرهم؟! والله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم** » . وفى رواية : « **لتفتحن عليهم كنوز كسرى بن هرمز** » . قلت : كنوز كسرى بن هرمز ؟ . قال : « **كنوز كسرى بن هرمز** » .

وفى رواية : « **ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج بملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه ، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم ، وينظر عن شماله فلا يرى إلا جهنم ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا شق تمرة فبكلمة طيبة** » . قال عدى ـ رضى الله عنه ـ : فأسلمت ، فرأيت وجه رسول الله ﷺ قد استبشر (*) .

إن عديا ـ رضى الله عنه ـ يشهد وقد طال به الأجل إلى ما بعد المائة والعشرين من العمر أنه قد رأى الظعينة ترحل من الكوفة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله عز وجل .

(*) معانى المفردات :

الركوسية : دين بين النصارى والصابئة . المرباع ، أى : ربع الغنيمة ، كان سادات الجاهلية يأخذونه . الخصاصة ـ بفتح الخاء ـ أى : الحاجة والفقر . ذعار طىء ، أى : الذين يفزعونهم . سعروا ـ بفتح السين ـ يعنى أوقدوا .

ويستطرد عدى ـ رضى الله عنه ـ قائلا : وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة سترون ما قاله أبو القاسم ﷺ .

وهناك نماذج كثيرة لمواقف حوار رسول الله مع صحابته ، وهى ـ شأنها شأن غيرها من ألوان حواره ﷺ ـ نماذج عديمة النظير من بلاغة القول ، وأمانة القصد ، وفصاحة التناول ، وأدب الخطاب ، وهو ﷺ يحاور كل فرد أو فريق بما يلائمه من أهداف الحديث وبيان المقصد ، ففى النماذج القليلة الثلاثة الماضية كان يحاور كتابيين ؛ لأن زيد بن سعنة كان يهوديا ، وعدى بن حاتم وأخته سفانة كانا نصرانيين مع بعض الاختلاف مع نصرانية النجرانيين والروم ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان حواره مع سفانة يفيض لطفا وحنانا وإشفاقا ، حتى إنه لم يأذن لها بالمسير بعد أن فك أسرها إلا مع من يأمنه عليها ، وكذلك كان حواره مع عدى ـ وكان فيه جاهلية ـ ولكن لين حديث رسول الله ورقته وبساطته وحكمته وألفته ، كل ذلك جعل عديًّا يدخل الإسلام من أوسع الأبواب على ما مر بنا من حديث قبل قليل .

كذلك كان رسول الله ﷺ فى حواره مع الصحابة وإن اختلفت طبيعة الحوار مع طبيعة المواقف ، وليس من شك فى أن قضايا حوار الرسول ﷺ مع الصحابة تختلف عنها عند الآخرين ، بل هى مع المهاجرين قد تختلف عنها مع الأنصار بحكم طبيعة كل موقف وسمة كل موضوع .

إن من أكثر نماذج حوار رسول الله ﷺ نبلاً ذلك الحوار الذى كان مع الأنصار إثر توزيع غنائم حنين ، إن النفوس الواجدة لم تلبث بعد حوار رسول الله معها ومكاشفتها بعصب القضية ، لم تلبث أن هدأت ورضيت وتبدل غضبها رضى ، وموجدتها صفاء ، وها هو الحوار بعد مقدمته التى تمثلت فى وصول خبر موجدة بعض الأنصار إلى مسامع رسول الله ، وإصدار أمره إلى سعد بن عبادة بجمعهم فى حظيرة من الحظائر لا يشرك غيرهم معهم (١).

روى ابن إسحاق ، والإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى ، والإمام أحمد ، والشيخان

(١) سبل الهدى والرشاد ٥ / ٥٨٤ وما بعدها .

من طريق أنس بن مالك ، والشيخان عن عبد الله بن يزيد بن عاصم ـ رضى الله عنهم ـ أن رسول الله ﷺ أصاب غنائم حنين . وقسم للمتألفين من قريش وسائر العرب ما قسم ، وفى رواية : طفق يعطى رجلا المائة من الإبل ، ولم يكن فى الأنصار منها شىء قليل ولا كثير ، فوجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم ، حتى كثر فيهم القالة حتى قال قائلهم : يغفر الله ـ تعالى ـ لرسول الله ﷺ إن هذا لهو العجب ؛ يعطى قريشا ـ وفى لفظ : الطلقاء والمهاجرين ـ ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ؟! إذا كانت شديدة فنحن ندعى ويعطى الغنيمة غيرنا؟! وددنا أنا نعلم ممن كان هذا ، فإن كان من أمر الله تعالى صبرنا ، وإن كان من رأى رسول الله ﷺ استعتبناه .

وفى حديث أبى سعيد : فقال رجل من الأنصار لأصحابه : لقد كنت أحدثكم أن لو استقامت الأمور لقد آثر عليكم . فردوا عليه ردا عنيفا . قال أنس : فحدث رسول الله ﷺ بمقالتهم ، وقال أبو سعيد : فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إن هذا الحى قد وجدوا عليك فى أنفسهم . قال : « فيم ؟» قال : فيما كان من قسمك هذه الغنائم فى قومك وفى سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شىء ، فقال رسول الله ﷺ : « فأين أنت من ذلك يا سعد » ؟ قال : ما أنا إلا امرؤ من قومى ، فقال رسول الله ﷺ : « فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة ـ وفى لفظ : فى هذه القبة ـ فإذا اجتمعوا فأعلمنى ، فخرج سعد يصرخ فيهم حتى جمعهم فى تلك الحظيرة .

وقال أنس : فأرسل إلى الأنصار فجمعهم فى قبة من أدم ولم يدع غيرهم ، فجاء رجال من المهاجرين فأذن لهم فيهم ، فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم ، حتى إذا لم يبق أحد من الأنصار إلا اجتمع له ، أتاه ـ أى : سعد ـ فقال : يا رسول الله : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار ، حيث أمرتنى أن أجمعهم ، فخرج رسول الله ﷺ فقال : « هل منكم أحد من غيركم » ؟ قالوا : لا يا رسول الله إلا ابن أختنا ، قال : « ابن أخت القوم منهم » فقام رسول الله ﷺ خطيبا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : « يا معشر الأنصار ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ـ تعالى ـ وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف بين قلوبكم ـ وفى رواية : « متفرقين فألفكم الله ؟ » ـ قالوا : بلى يا رسول الله ، الله ورسوله أمنُّ وأفضل .

وفى رواية : قال رسول الله ﷺ : « ألا تجيبون يا معشر الأنصار ؟ » قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ وماذا نجيبك ؟ المن لله ـ تعالى ـ ولرسوله ﷺ قال : « والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصُدِّقْتُمْ : جئتنا طريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك ، وخائفا فأمناك ، ومخذولا فنصرناك ، ومكذبا فصدقناك » فقالوا : المن لله ـ تعالى ـ ولرسوله ، فقال : «وما حديث بلغنى عنكم ؟ » فسكنوا، فقال : « ما حديث بلغنى عنكم » ؟ فقال فقهاء الأنصار : أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئا ، وأما أناس منا حديثة أسنانهم قالوا : يغفر الله ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ يعطى قريشا ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم !! فقال رسول الله ﷺ : « إنى لأعطى رجالاً حديثى عهد بكفر لأتألفهم بذلك » .

وفى رواية : إن قريشاً حديثو عهد بجاهلية ومصيبة ، وإنى أردت أن أجبرهم وأتألفهم ، أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة (*) من الدنيا تألفت بها قوما أسلموا ، ووكلتكم إلى ما قسم الله ـ تعالى ـ لكم من الإسلام ، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكم تحوزونه إلى بيوتكم ؟ فوالله لمن تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، فوالذى نفسى بيده لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار» .

وفى رواية : ـ« لو سلك الناس واديا وسلكت الأنصار شعباً ـ أنتم الشعار والناس دثار، الأنصار كِرْشِى وعَيْبَتى ، ولولا أنها الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار » فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا بالله ورسوله حظا وقسما .

إن رسول الله ﷺ يعرف كم هى طيبة طينة الأنصار ، وكم هى صافية طبيعتهم ، وكم هى مؤمنة نفوسهم ، إنهم الذين آووا ونصروا ، ولكنهم بشر تتأثر عامتهم بما يتأثر به عامة الناس ، إن الرسول يذكرهم بما كانوا فيه من ضلال وما قد صاروا إليه من هداية فى جواب قاطع حاسم ، ثم يدلف إلى قلوبهم وما يجول فيها من خواطر وأفكار ثم يطرح على أسماعهم ما قد جال فى خواطرهم قائلا : « **والله لو شئتم لقلتم فَصَدَقْتُمْ**

(*) اللعاعة : بقلة خضراء ناعمة ، شبه بها الرسول زهرة الدنيا ونعيمها ، والمقصود بها : بقية .

وَصُدِّقْتُم : جئتنا طريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك ، وخائفا فأَمَّنَّاك ، ومخذولا فنصرناك ، ومكذَّبا فصدقناك »

هنا تقرُّ بلابل القوم الساخطين ، فالرسول ـ فى بلاغته وصراحته وصدقه ـ قد أمن على ما يجول بخواطرهم ، ثم يبسط لهم الحكمة مما صنع « **إنى لأعطى رجالا حديثى عهد بكفر لأتألفهم بذلك** » ثم يختم الرسول الكريم حواره مع الأنصار على النحو الذى لا يرضيهم فى دنياهم وحسب ، وإنما يرضيهم ويكرمهم فى الدنيا والآخرة : «**أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير ، وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكم تحوزونه إلى بيوتكم ؟ فوالله لمن تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، فوالذى نفسى بيده لو أن الناس سلكوا شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار** » .

وكانت مدرسة محمد ﷺ تتسم ببلاغة القول وجمال البيان ، وكان الرسول ﷺ يعنى من خلال حواره مع صحابته يبتغى تنشئتهم على الفصاحة وحسن البيان . إن مصطفى صادق الرافعى رأس مدرسة البلاغة الإسلامية فى العصر الحديث يجىء بهذا الحوار الفريد فى مجال البيان المحمدى على هذا النحو : (١)

روى أنه ﷺ بينما هو جالس ذات يوم مع أصحابه إذ نشأت سحابة ، فقالوا : يا رسول الله ، هذه سحابة ، فقال : كيف ترون قواعدها أَوميضاً؟ قالوا : ما أحسنها وأشد تمكنها !! قال : وكيف ترون رحاها ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد استدارتها . قال : وكيف ترون بواسقها ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد استقامتها . قال : وكيف ترون برقها ؟ أو ميضاً أم خَفْيًا أم يشق شقا ؟ قالوا : بل يشق شقا . قال : فكيف ترون جونها ؟ قالوا : ما أحسنه وأشد سواده . فقال ـ عليه السلام ـ : الحيا المطر ، وقواعد السحابة : أسافلها ، ورحاها : وسطها . وبواسقها : أعاليها ، ووميض : اللمع الخفى ، وخعيا ـ بسكون العين ـ أى : ضعيفا ، وجون السحابة : أسودها . فقالوا : يا رسول الله ما رأينا الذى هو أفصح منك !! قال : وما يمنعنى من ذلك ، فإنما أنزل القرآن بلسانى ، لسان عربى مبين .

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٣٠١ طـ دار الكتاب العربى / بيروت .

ويعلق الرافعى على تعقيب الصحابة على رسول الله فى قولهم : « ما رأينا الذى هو أفصح منك » قائلا : فتأمل قولهم : « ما رأينا الذى هو أفصح منك » فإن تعبيرهم «بالذى » يدل على تمكن هذا الاعتقاد منهم ، وأنهم يخبرون عن نظر ومعرفة واستقصاء ، وأنه ليس فى جميعهم واحد يقال عنه « الذى » .

وصفحة الحوار مفتوحة دائما بين رسول الله ﷺ وصحابته تتناول مختلف الموضوعات وتغوص إلى أدق الشئون ، حتى تلك التى يبدو أن الحوار فيها محوط بالحرج والحديث حولها يدعو إلى إثارة النفوس ، مثل حديث الفقر والغنى ، أو مثل امتياز الأغنياء على الفقراء . إن شيئا من ذلك يثور فى نفوس الصحابة؛ لأن قدرة الغنى على كسب مزيد من الحسنات حين يبذل من ماله تضعه فى مقام أسمى ورتبة أرفع بقدر ما ينفق من مال فى سبيل الله ، وما يبذل من صدقات للسائل والمحروم وابن السبيل ، ولكن الصحابة ما إن يثيروا الموضوع فى ساحة الحوار مع رسول الله حتى يجدوا الجواب مقنعا ، والرد مرضيا ، والعلاج شافيا ، إقناع ورضى وشفاء ، ليس للنفوس وحسب وإنما للنفوس والقلوب والعقول جميعا .

عن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ أن أناسا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للنبى ﷺ : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم ، قال :

« أو ليس قد جعل الله لكم ما تَصَدَّقون ؟ إن بكلِّ تسبيحةٍ صدقةً ، وكلِّ تكبيرةٍ صدقةً ، وكلِّ تحميدةٍ صدقةً ، وكلِّ تهليلة صدقةً ، وأمرٍ بالمعروف صدقة ، ونهيٍ عن منكرٍ صدقةً ، وفى بُضْع أحدكم صدقة » .

قالوا : يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون فيها أجر؟ قال : « **أرأيتم لو وضعها فى حرام ، أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر** » (١). رواه مسلم

هكذا كان الحوار مع الرسول ﷺ علاجا لما كان يجول بخواطر بعض الصحابة من

---

(١) الأربعون النووية . الحديث رقم ٢٥ .

معانى المفردات : أهل الدثور : يعنى الأغنياء وأهل الوفرة . التهليلة : يعنى أن تقول : لا إله إلا الله .

تصور لفضل يفوز به أغنياء المسلمين دون فقرائهم بسبب الغنى ووفرة المال لدى الأغنياء ، وقلته لدى الفقراء . إن لدى الفقراء ما هو أفضل مما لدى الأغنياء ، لديهم التقرب إلى الله بكثرة التسبيح ، والإهلال بالتكبير ، والتكرار فى التحميد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

إن هذا اللون من ألوان الحوار يمكن أن نطلق عليه الحوار التعليمى ، ولعل هذه التسمية أكثر ما تكون اتفاقا وانطباقا على حديث التعريف بالإسلام والإيمان الذى رواه عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ :

عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال : « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه : على فخذيه وقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً قال : صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرنى عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ، قال فأخبرنى عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله : كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال فأخبرنى عن الساعة؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرنى عن أماراتها قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان ، ثم انطلق ، فلبثت مليا ، ثم قال : يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم ». رواه مسلم .

إن هذا الحوار فرد فى بابه ؛ لأنه ليس حوارا بين الرسول والصحابة ولا هو حوار بين الرسول وأحد من البشر . وإنما هو حوار طرفاه خاتم الرسل محمد ﷺ والروح الأمين جبريل ـ عليه السلام ـ جبريل يتولى توجيه السؤال ، والرسول ﷺ يجيب فى دقة وبلاغة ووضوح وإيجاز . جبريل يسأل عن الإسلام ثم عن الإيمان ، ثم عن الإحسان ، ثم عن

الساعة ، والرسول ﷺ يعرف بكل من الإسلام والإيمان والإحسان تعريفا محددا ، وأما حين سئل عن الساعة فكانت الإجابة التى لم ترتفع بلاغة فرد إلى أدنى مستوى من بلاغتها ، حتى صارت مثلا يجرى على ألسنة البلغاء أهل المسائل : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » [1].

وكأنما كان القصد من سؤال جبريل للرسول ﷺ عن تعريف كل من الإسلام والإيمان على حدة هو وضع حدّ نهائى فاصل بينهما ؛ حتى يقرّ فى قلوب المسلمين من كافة طبقاتهم أن الإيمان مرحلة أرفع من مجرد الإسلام، مصداقا لقول ربنا ـ عز وجل ـ :

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾ [2].

---

(١) رياض الصالحين . الحديث الأول فى باب المراقبة .

(٢) الحجرات، الآية : ١٤ .



الفصل الرابع

الرسول يتحدث لغات القبائل



الرسول يتحدث لغات القبائل

إن التنوع البلاغى فى أساليب الحوار وفنون القول لا يقف فى كلام رسول اللهﷺ عند حدٍّ من الحدود ، أو يقتصرعلى غاية من الغايات ، إنه السيل المتدفق ، السيل الذى لا يدمر ولا يجتاح ، وإنما هو السيل الذى يزرع الخير ، ويشيع النماء ، وينبت كل نافع من القيم والمعانى المتعددة الألوان ، المتكاملة الأهداف .

وإذا كانت ألوان الحوار التى قدمنا منها نماذج فى الصفحات السابقة قد جرت بين رسول اللهﷺ وبين أفراد مؤمنين وغير مؤمنين ، وبين جماعات بعضها احتلت سويداء قلب رسول الله سمو مكانة ، وعلو مقام ، كالصحابة من المهاجرين والأنصار، وبين بعض الملائكة المقربين وبين رؤساء وملوك ، وبين دهماء وسوقة وغيرهم ، فإن ثمت نوعا من الحوار جرى بين رسول اللهﷺ وبين بعض الوافدين عليه فى عام الوفود ـ عام تسع هجرية ـ اتسم بما لم يتسم به غيره من سابق ألوان الحوار الذى سبق التمثل له .

لقد اشتمل ذلك الحوار الذى نحن بصدده على ظاهرة غير مسبوقة ، تلك هى أن رسول الله ﷺ كان يخاطب كل قبيلة بلغتها أو بلهجتها المحلية مهما تعددت القبائل، ومهما تنوعت اللهجات ، يحاورهاﷺ بأرفع أسلوب عرفته لهجتها ، وكأنه نشأ فيهم وأقام بينهم ، مع أنه لم يسبق لهﷺ أن التقى بهم ، أو زار منازلهم وديارهم ، ومن ثم فالمسألة هنا تتعدى نطاق البلاغة إلى معجزات النبوة ، وإلا فكيف تعلل هذه البلاغة الفائقة فى لهجات ومصطلحات لم تألفها البيئة التى نشأ فيها الرسولﷺ ؟!

يتمثل هذا اللون فى عديد من اللقاءات التى جرت بين رسول الله وبين الوفود التى ارتحلت إليه فى المدينة المنورة عام تسع للهجرة ، ومنها ذلك الحوار الذى جرى بين الرسولﷺ وطهفة بن أبى زهير النهدى ، وهذا خبره :

قال عمران بن حصين وحذيفة بن اليمان ، صاحبا رسول الله ﷺ : لما قدمت وفود

العرب على النبى ﷺ قام طهفة بن أبى زهير النهدى ، فقال : أتيناك يا رسول الله ، من غَوْرَىْ تِهَامَةَ ، بأَكْوَارِ المَيْس ، تَرْتَمى بنا الْعِيسُ ، نستحلب الصَّبِيرَ ، ونَسْتَخْلِبُ الْخَبِيرَ ونَسْتَعْضِدُ الْبَرِيرَ ، وَنَسْتَخِيلُ الرِّهَامَ ، ونستحيل - أو نستجيل - الْجَهَامَ ، فى أرض غائلة النِّطَا ، غليظة الْمَوْطَا ، قد نَشِفَ الْمُدْهُنُ ويَبِسَ الْجِعْثِنُ ، وسقط الأُمْلُوجُ ، ومات العُسْلُوجُ ، وهلك الهَدِىُّ ومات الْوَدِىُّ ، برئنا يا رسول الله من الوثَنِ والْعَنَنِ ، وما يحدث الزمن ، لنا دعوة السلام وشريعة الإسلام ، ما طما البحر ، وقام تِعَار ، ولنا نَعَمٌ هَمَلٌ أَغْفَالٌ ما تَبِضُّ بِبِلاَلٍ ، وَوَقِيـرٌ كثيرُ الرَّسَلِ قليل الرِّسْلِ ، أصابتها سَنَةٌ حمراء مُؤْزِلَةٌ ، ليس لها عَلَلٌ ولا نَهَلٌ .

فقال رسول الله ﷺ :

« اللهم بارك لهم فى محضها ومخضها ، ومَذْقِهَا وَفَرْقِهَا ، وابعث رَاعِيَهَا فى الدَّثْرِ بيانع الثَّمرَ ، وافْجُرْ لهم الثَّمَدَ ، وبارك لهم فى المال والولد ، من أقام الصلاة كان مسلماً ، ومن آتى الزكاة كان محسناً ، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً . لكم يا بنى نهد ودائع الشِّرْكِ ووضائع الملك ، لا نلطط فى الزكاة ، ولا نلحد فى الحياة ، ولا نتثاقل عن الصلاة » .

وكتب معه كتاباً إلى بنى نهد : « من محمد رسول الله إلى بنى نَهْدِ بن زيد : السلام على من آمن بالله ورسوله ، لكم يا بنى نهد ، فى الوظيفة الفريضةُ ، ولكم العارضُ والْفَرِيشُ ، وذو العِنَان الرَّكُوبُ ، والْفَلُوُّ الضَّبِيسُ ، لا يُمْنَعُ سَرْحُكُمْ ، ولا يُعْضَدُ طَلْحَكم ، ولا يُحبس دَرُّكُمْ ، ولا يُوكَلُ أكلُكم ، مالم تضمروا الإماق وتأكلوا الرِّبَاقَ ، من أقر بما فى هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد ، والذمة ، ومن أبى فعليه الرِّبْوَةُ » .

وفى رواية بعد قوله : « ووضائع الملك » : « ما لم يكن عهد ولا موعد » (١).

لقد لفت هذا النهج من القول أصحاب رسول الله وهم قمة فصحاء هذه الأمة

(١) منال الطالب لمجد الدين بن الأثير صفحة ٣٥ وما بعدها. وقد أخرج هذا الحديث أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، وأبو سليمان حمد الخطابى ، وأبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى فى الفائق ، والحافظ الأصفهانى ، وهو - كما يقول ابن الأثير - حديث متداول مشهور .

بعده ﷺ فما أن سمعوا محمدا ﷺ يتدفق بلهجات غريبة عنهم حتى قال له على بن أبى طالب : يا رسول الله ، نراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ، ونحن بنو أب واحد . فقال : « **أدبنى ربى فأحسن تأديبى ، وربيت فى بنى سعد** » .

هكذا تتأكد الحقيقة بأن مقدرة رسول الله ﷺ فصاحة قول ، وتصرف لفظ ، وتعدد عبارة ، إنما هى منحة إلهية اختص بها دون سائر البشر ، حتى إن أصحابه حين سألوه بلسان على بن أبى طالب عن تلك الظاهرة الفريدة كانت إجابته الشريفة : «**أدبنى ربى فأحسن تأديبى**» .

- شرح الغريب :

الطهفة : من أسماء الأشجار مثل طلحة ، وهى أعالى الصِّلِّيان ، وهو نبت تسمن عليه الإبل ، والطهف : الذُّرة ، واحدتها : طهفة بفتح الطاء أو كسرها .

الغور : الأرض المنخفضة ، وهو ضد النجد .

تهامة : اسم لمكة وما حولها من الأغوار .

الأكوار : جمع الكور ـ بالضم ـ وهو رحل البعير ، كالسرج للفرس .

الميس ـ بسكون الياء ـ : شجر صلب أملس تتخذ منه الرحال ، وقيل أيضا : الميس هو الرحل .

ترتمى بنا : تسرع .

العيس : الإبل البيض التى فى بياضها ظلمة خفية ، واحدتها عيساء .

الصَّبير : سحاب أبيض متراكب ، وهو أقل السحاب مطراً ، واستحلاب الصبير : يعنى استدراره .

تستخلب : من الخلب ، وهو القطع والشَّق .

الخبير : النبات .

تستعضد : من العضد ـ بسكون الضاد ـ وهو القطع ، وبه سمى المعضد وهو المنجل .

البرير : ثمر الأراك . أراد أنهم يجنونه من شجره ويأكلونه للجدب والقحط .

نستخيل : من خِلْتُه أخاله : إذا ظننته ، وتخيَّلت السحابة : إذا تهيأت كأنها تمطر .

الجهام : الغيم الذى لا ماء فيه .

الغائلة : المهلكة ، من غاله يغوله ، إذا أهلكه .

النِّطاء : البعد ، والنطى : البعيد ، أى : أنها فلاة يُهلك بعدُها من سلكها ، ويروى : غائلة المنطا ـ بفتح الميم ـ وهو مَفْعَل منه .

الموطأ : موضع القدم فى المشى .

المدهن : ـ بضم الميم ـ : نقرة واسعة فى الجبل أو الصخر يجتمع فيها الماء .

الجعثن : أصل النبات .

الأملوج : واحد الأماليج ، وهى ورق كأنه عيدان ، وقيل : هو نوى المقل ، والمقل : هو ثمر الدوم .

العسلوج : الغصن الناعم الذى يتشعَّبُ ورقه .

الهديّ : الهَدْىُ ، وهو الذى يهدى من الإبل إلى الكعبة للنحر .

الوديّ , الفسيل الصغير من النخل ، واحدتها : ودية .

ولعل القارىء المستوعب لأعماق الحوار يلاحظ أن رسول الله ﷺ كان يحاور طهفة بلسان قومه المليء باللفظ المستغلق فهمه والكلم الغريب معناه ، فإذا كان الموضوع مرتبطا بالعقيدة والشريعة عمد رسول الله ﷺ إلى اللفظ المأنوس والمعنى القريب ، ذلك لأن الحوار هنا خرج من إطار الخاص إلى نطاق العام ؛ لأن حديث العقيدة والشريعة ليس قاصرا على طهفة وقومه ، وإنما هو لجميع المسلمين على اختلاف لهجاتهم ولغاتهم، فكانت اللفتة المحمدية الأسلوبية التى وضعت الكلام فى الثوب الأنيق الفصيح ، والإطار المفهوم الواضح : « من أقام الصلاة كان مسلما ، ومن آتى الزكاة كان محسنا ، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصا » فلما انتهى الرسول ﷺ من ذكر هذه الأركان عاد إلى مخاطبة طهفة بلغة قومه بنى نهد فى أغوار تهامة .

وإذا انتقلنا إلى حوار آخر من ألوان الحوار التى كانت تجرى بين رسول الله ﷺ وبين الوفود فإننا سوف نتمثل هذه المرة بحوار الرسول مع وافد من أطراف نجد ، إنه جرير ابن عبد الله البجلى الذى جاء يبايع الرسول فى أحد عشر راكبا من قومه وقد رواه عبدالله ابن عباس على النحو التالى : [1].

«كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة قعد فى مصلاه حتى تطلع الشمس ، فقال

= العنن : الاعتراض والاختلاف والباطل واللجاج .

طما البحر : ارتفع وعلا .

تعار : ـ بكسر التاء ـ جبل فى بلاد قيس من أعمال المدينة لا ينبت شيئا .

النَّعم : ـ بفتح النون المشددة ـ اسم جنس يقع على الإبل والبقر والغنم ، وأكثر ما يستعمل فى الإبل .

الهمل : ـ بفتح الهاء والميم المهملة ـ التى لا رعاة فيها ، ولا من يصلحها ويهديها .

الأغفال : جمع غفل ـ بالضم ـ وهى النَّعم التى لا سمة عليها . وقيل : الغفل : الذى لا يرجى لا خيره ولا شره ، وقيل : أراد بها التى لا ألبان لها .

بضّ يبضّ : إذا قطر منه اللبن .

البلال : ـ بالكسر والفتح ـ النداوة ، واليسير من الماء قدر ما يبل الشىء .

الوقير : الغنم الكثيرة .

الرسل : ـ بفتح الراء والسين ـ ما يرسل من الماشية إلى المرعى ، وجمعه : أرسال .

والرسل ـ بكسر الراء ـ : اللبن .

السنة الحمراء : الشديدة الجدب ، ويروى (سنية) بالتصغير للتعظيم .

المؤزلة : ـ بكسر الزاى الخفيفة ـ الضيقة الشديدة .

(١) منال الطالب ص ٨٢ . والحديث رواه ابن قتيبة فى غريب الحديث ١ / ٥٤٢ والزمخشرى فى الفائق ١ / ٤٣٢ .

يوما : يطلع عليكم من هذا الفج من خير ذى يمن ، عليه مسحة ملك . فطلع جرير بن عبدالله البجلى فى أحد عشر راكباً من قومه ، فعقلوا ركابهم ، ثم دنوا ، فقال جرير: يا معشر قريش ، أين رسول الله ؟ فقال رسول الله : يا جرير ، أسلم تسلم ، إن غلظ القلوب والجفاء والحوب فى أهل الوبر والصوف ، يا جرير ، إنك لن تستحق حقيقة الإسلام ، ولا تستكمل شريعة الإيمان حتى تدع عبادة الأوثان » .

ثم قال : « أين تنزلون يا جريرُ ؟» قال : نَنْزِلُ فى أكناف بيشَةَ ، بين سَلَمٍ وأراك ، وسَهْلٍ ودكدَاك ، وحُمُوض وعَناك ، ونَخْلَةٍ وضالة ، وسِدْرَةٍ وآءَة ، ونَجْمَةٍ وأثْلَة ، شتاؤنا ربيع ، ورَبِيعُنا مَرِيع ، وماؤنا يَمِيع ، لا يُقامُ ماتِحُها ، ولا يَحْسَرُ صابِحُها ، ولا يَعزُب سارحُها .

فقال النبى ﷺ : «أما إنّ خيرَ الماء الشَّبِمُ ، وخيرَ المالِ الغَنَمُ ، وخيرَ المَرْعَى الأراكُ والسَّلَم ، إذا أخلف كان لَجِينا ، وإذا أُكِل كان لَبِينا ، وإذا سقط كان دَرِينا» .

فقال جرير : يا رسول الله ، أخْبرنى عن السماء الدُّنيا ، وعن الأرض السُّفْلَى .

قال : «خلق الله السماء الدُّنيا من الموج المكْفُوف ، وحَفَّفَها بالنُّجوم ، وجَعلها رُجُوماً للشياطين ، وحِفْظاً من كل شيطانٍ رجيم ، وخلق الأرَض السُّفْلَى من الزَّبَد الجُفاء ، والماءِ الكَبَاء ، سبحان خالقِ النُّور » .

ثم ذكر إسلامه ومبايعته (*) .

لعله من الوضوح بمكان أن حوار رسول الله ﷺ مع جرير كان بلهجة بَجَلَة غير

(*) المعانى :

الفجّ : الطريق والمسلك الواسع . أذواء اليمن : ملوكهم . الحوب ـ بضم الحاء ـ : الإثم . أهل الوبر والصوف : أهل الإبل والغنم . الأكناف : النواحى . بيشة : واد كان لبنى خفاجة . الدكداك : الرمل المتلبد بالأرض . العناك : الرمل . آءة ـ بوزن عاهة ـ : شجر معروف . النجم : النبت مما لا يقوم على ساق . المريع : الخصب . يميع : يسيل . الماتح : الذى يستعمل الدلو . الحسور ـ بضم الحاء والسين ـ : التعب . لا يعزب سارحها : لا تبعد مواشيهم فى طلب المرعى . العازب : البعيد . الشبم : البارد . إذا أخلف : إذا أخرج الخلفة وهى الورق يخرج فى النبات بعد الورق الأول . اللجين ـ بتشديد اللام المفتوحة ـ : ورق تأكله الإبل ، ويسمى الخبط ـ بفتح ثم كسر ـ الدرين : حطام المرعى إذا قدم وتفتت . اللبين : من اللبن . الرجيم : المرجوم . الزبد الجفاء : ما جفاه الوادى . الماء الكبا ـ بفتح الكاف ـ : هو العالى العظيم ، من كبا الفرس يكبو : إذا ربا وانتفخ .

المألوفة على أسماع الحضور من أهل الحجاز من مهاجرين وأنصار . وهذا الحوار وإن يكن حوار مبايعة فهو فى الوقت نفسه درس من رسول الله ﷺ للسامعين جميعا من وافدين ومقيمين .

ومن ألوان الحوار العجيبة المباركة ، ذلك الحوار الذى جرى بين رسول الله وبين رجل صدق به قبل الرسالة ، وآمن به قبل أن يوحى إليه ، وهذا هو سبب العجب فى هذا الحوار . هذا الرجل هو خزيمة بن ثابت السلمى ثم البهزى ، وقيل : ابن حكيم بدلا من ثابت ، وكان قد خرج مع النبى قبل البعثة فى تجارة لخديجة ، والسفر يقتضى طول المصاحبة خاصة إذا استغرق أسابيع عديدة ، إن ما رآه خزيمة من سلوك محمد وشمائله التى لم يتصف بمثلها غيره قد جعلته يعتقد أن محمدا هو النبى المنتظر ، فآمن به قبل أن يبعث ، ووعده قبل أن يفترقا أن يسارع إليه متى سمع بخروجه ، ولكن تشاء المقادير ألا يلتقى خزيمة برسول الله إلا يوم فتح مكة ، أى : بعد المبعث بواحد وعشرين عاما . وهذه هى جملة الخبر ونص الحوار كما أوردها الشيخ مجد الدين بن الأثير (١).

خرج مع النبى ﷺ فى عير لخديجة بنت خويلد ، إلى الشام ، وكانت بينه وبين خديجة قرابة ، فقال له : يا محمد ، إنى أرى فيك خصالاً ، وأرى عليك من الناس محبة ، وأشهد أنك النبى الذى يخرج من تهامة ، وقد آمنت بك ، فإذا سمعت بخروجك أتيتك . .

فلما انصرفوا رجع خُزيمةُ إلى بلاده ، فأبطأ عن رسول الله ﷺ ، حتى كان يوم فتح مكة ، فوقف على النبى عليه السلام ، فلما رآه قال : «مرحباً بالمهاجر الأول ، ما الذى بَطّأ بك يا خزيمة ؟ أين ما وعدتنى» ؟ قال : يا رسولَ الله ، ما منعنى أن أكون من أول مَن أتاك ، وأنا مؤمنٌ بك ، غير منكر لبَيْعتك ، ولا ناكث لعَهْدِك ، وأنا مُقرٌّ بالقرآن ، كافِرٌ بالطُّغيان ، مؤمن بالرحمن ، بريء من الأوثان ، والله لقد أتيتك وعُذْرى عَدَدَ أصابعى هذه ، فما نَهنَهَنى عنك أن لا أكونَ أوّلَ من دان بدينك وأجاب دعوتك ، إلا أنه أصابتنا بعدَكَ سنواتٌ شدادٌ متواليات ، تركت المُخَّ رارًا ، والمطىَّ هاراً ، غاضتْ لها

---

(١) منال الطالب ، ص ٤٧ .

الدِّرَّة ، ونَقَصتْ لها الثَّـرَّة ، وعادَ لها النِّقادُ مُجْرَنْثِما ، والذِّيخُ مُحْرَنْجِما ، والفَرِيشُ مُسْحَنكِكا ، والعضاهُ مُسْتَحلِكا ، أيْبَسَتْ بأرض الوَدِيس ، واجتاحَتْ جَمِيمَ اليبيس ، وأفْنَتْ أصولَ الوشيج ، حتى آلَ السُّلامَى ، وأخْلَفَ الخُزامَى ، وأيْنَعت العَنَمةُ ، وسَقَطت البَرَمَةُ ، وبَضَّت الحَلَمةُ ، وتَفَطَّرَ اللِّحاءُ ، وحَمَل الراعى العُجالَةَ ، واكتفَى من حَمْله بالقَيْلَة ، أتيتُك مُسْرِعاً غيرَ مبدِّل لقولى .

فقال رسول الله ﷺ : «إن الله تبارك وتعالى يعرض على عبده نصيحة ، فإن قبلها سعد ، وإن تركها شقى ، وإن الله عز وجل يبسط يده لمسىء الليل بالنهار ليتوب ، فإن تاب تاب الله عليه ، ولمسىء النهار بالليل ليتوب ، فإن تاب تاب الله عليه ، وإن الحق ثقيل كثقله يوم القيامة ، وإن الباطل خفيف كخفته يوم القيامة ، وإن الجنة محظور عليها بالدآليل ، وإن النار محظور عليها بالشهوات . انعم صباحاً ، تربت يداك» (*).

(*) المعانى :

السلمى : منسوب إلى سليم (بضم ثم فتح) بن منصور من قيس عيلان . البهزى ـ بفتح الباء وسكون الهاء ـ : منسوب إلى بهز بن امرىء القيس بن بهثة ـ بضم ثم سكون ـ بن سليم .

العير : الإبل تحمل الميرة والبز وغيرهما من بلد إلى بلد للتجارة .

النكث : نقض العهد . الطغيان : مجاوزة الحد ، وأريد به مخالفة سنن الإسلام وحدوده .

الأوثان : جمع وثن ، وهو كل ما يعبد من دون الله .

والرحمن : اسم خاص لله تعالى ، لا يطلق على غيره ، وهو فعلان ، من الرحمة ، للمبالغة .

والنهنهة : الكف والمنع والزجر عن الشىء ، والأصل فيه : نهه ، بثلاث هاءات ، فأبدلوا من الهاء الوسطى نونا للفرق بين فَعْلَلَ وفَعَّلَ .

والدين : الطاعة ، يقال : دان له يدين : إذا أطاعه ودخل تحت حكمه ، ودان فلان بدين فلان : إذا أخذ به وتابعه عليه .

والسنوات : جمع صحة لسنة ، ويريد بها الجدب ، ولذلك وصفها بالشدة .

والرار : الرقيق الذائب ؛ لشدة الجدب والهزال ، فإن المخ مع السمن يكون ثخينا يملأ العظم .

والمطى : جمع مطية ، وهى الناقة التى يركب مطاها ، أى ظهرها ، وقيل : لأنها يمطى بها فى السير ، أى : يمد ، يقال : مطوت بهم فى السير ، أمطو مطوا .

والهار ـ بتخفيف الراء ـ : الساقط الضعيف ، من هار يهور هوراً ، فهو هائرٌ وهارٌ وهارٍ ، بالرفع والجر ، فأما هائر فهو الأصل ، كقائل من قال .

ويروى : « هارًّا » بالتشديد ، من هر يهر : إذا كلح فى وجهه وصاح عليه ، كما يهر الكلب ، أى : هر بعضها فى وجه بعض من الجهد وشدة الزمان .

. . . .

= والغيض : النقص ، وغاضت العين : إذا غارت .

والدرة : اللبن والمطر .

والثرة : كثرة اللبن . يقال : سحاب ثر : كثير الماء ، وناقة ثرة : واسعة مخرج اللبن من الضرع ، ويقال فيها : الثِّرة بالكسر .

والنقاد : جمع نقد ـ بالتحريك ـ وهى رذال الضأن وصغارها .

والمجرنثم : المجتمع المتقبض ، وتجمعها من الجدب ، لأنها لا تجد مرعى تنتشر فيه .

والنون زائدة . ولم يقل : مجرنثمة ، لأن لفظ النقاد لفظ الاسم الواحد ، كالجدار والحمار .

وفى رواية : « اليراع » بدل « النقاد » . واليراع : الضعاف من الغنم وغيرها ، والأصل فى اليراع : القصب ، ثم سمى به كل ضعيف ، ولذلك قيل للجبان : يراع ، كأنه خالى الجوف من قلبه ، خلو باطن القصب .

والذيخ ، بالذال والخاء المعجمتين : ذكر الضباع ، والأنثى : ذيخة .

والمحرنجم : الكالح المتقبض من شدة الجدب ، والنون زائدة . أى : عم المحل حتى نال السباع والبهائم .

والفريش : صغار الإبل ، وقيل : صغارها الفرش . والفريش : الناقة التى ولدت حديثاً ، كالنفساء من النساء . وقيل : الفريش من النبات : ما انبسط على وجه الأرض ، ولم يقم على ساق . وقال الأزهرى : هو الموضع الذى يكثر فيه النبات .

والمسحنكك : الشديد السواد ، من الاحتراق . يقال : اسحنكك الليل : إذا أظلم ، والنون زائدة .

والعضاه : شجر الشوك ، واحدتها عضة ، وهى أنواع كثيرة .

والمستحلك : الأسود ، يقال : أسود حالك ، أى : شديد السواد .

والبارض : أول ما يبدو من النبات ، من البهمى وغيرها ، وهو نبت ينبت فى السهل ، فهى ما دامت صغارا : بارض ، فإذا طالت تبينت أنواعها .

والوديس والودس : أول نبات الأرض ، وأودست الأرض وتودست : إذا أنبتت ما غطى وجهها ، وقيل : هو ماطال منه وكثر .

واجتاحت : أهلكت واستأصلت .

والوشيج : ماالتف من الشجر . أى : أفنت أصول الشجر ، إذ لم يبق فى الأرض ثرى ولا نداوة . وقيل : الوشيج : نبات له أغصان وورق لطاف .

والجميم : نبت يطول حتى يصير مثل جمة الشعر ، وقيل : هو ماطال من البارض ، والعميم أطول منه .

واليبيس : اليابس من النبات . يقال : يبس فهو يبيس ، مثل سلم فهو سليم .

وآل : بمعنى عاد ورجع ، والأول : الرجوع .

والسلامى : عظام الأصابع ، جمع سلامية ، وهى الأنملة من أنامل الأصابع . أى : عاد المخ إلى العظم ، يقال : آخر ما يبقى المخ فى السلامى .

والخزامى : نبت له زهر أزرق طيب الريح ، وهو خيرى البر .

وأخلف النبت : إذا أخرج نباتا وزهراً ، فصار يخلف نباتاً قبله .

والعنمة : واحدة العنم ، وهو شجر له أغصان دقاق ، وثمر أحمر ناعم ، يشبه به البنان .

كم هو باش سيدنا رسول الله ، وأى قدر من السماحة كان هذا الذى يحمله بين جنبيه الشريفين ، فهذا الحوار الرفيع ، يجرى فى أعز أيام الإسلام مكانة ، يوم فتح مكة ، يوم النصر المبين ، اليوم الفيصل فى مسيرةدعوة الإسلام ، ومع ذلك ما إن رأى رسول الله صاحبه القديم خزيمة حتى قال والبشاشة تملأ عطفيه : مرحبا بالمهاجر الأول ، ما الذى بطأ بك يا خزيمة ؟! .

إن الناظر فى حوار رسول الله ﷺ يجده صورة وضاءة من شخصيته السامية ، وخلائقه الرفيعة ، وشيمه الحميدة ، وفصاحته الفريدة ، وبلاغته العميقة ، وأسلوبه الوضاء ، ومحجته البيضاء ، حواره ﷺ آخذ بكل أسباب القول الوسيم الرقيق ، والأسلوب العذب الأنيق ، السهل الممتنع الذى تصافح معانيه الأسماع ثم تنسرب فى يسر إلى مجامع القلوب ، وتلامس حكمته العقول ، حتى تلك الجمل التى اقتضت مناسباتها أن تكون بنيتها ألفاظا بدوية ، أو كلمات غريبة لا تلبث النفس أن تقبل عليها ، وتقترب إليها ، سعيا وراء فهم مقاصدها ، واستيعاب معانيها ، فتصيب

= وأينعت الثمرة وينعت : إذا نضجت وأدركت .

والبرمة : واحدة البرم ، وهو ثمر الأراك ، ولاطعم له ، كانوا يضطرون إلى أكله عند الجدب ، فلما جاء الخصب سقط من شجرته واستغنوا عنه .

وبضت : أى سالت وتحلبت ، وكذلك ضبت ، على القلب .

والحلمة : رأس الثدى والضرع ، وهو أيضا نبات ينبت فى السهل .

والتفطر : التشقق .

واللحاء : قشر الشجر . أى : تشقق فطلعت فروعه وأغصانه لإخراج الثمر .

والعجالة ـ بالضم ـ : اللبن الذى يحمله الراعى من المرعى إلى أصحاب الغنم قبل أن تصدر ، وإنما يفعل ذلك إذا كثر اللبن عليه ، فيحلبها فى المرعى .

ويروى : « العجالة » ـ بالكسر ـ وهى ما يحمل الراعى عليه زاده ، كالتيس ، والكبش .

وقيل : هما بالضم والكسر : ما يتعجله الإنسان .

والقيلة ـ بالفتح ـ شرب نصف النهار ، من القائلة : شدة الحر . أى : إن الراعى يكتفى بشربه نصف النهار ، ولا يعرض لما يحمله ، من كثرة اللبن .

وبسط اليد : كناية عن الكرم والجود ، وفتح باب البر واللطف والرحمة .

ومسىء الليل والنهار : من باب إضافة اسم الفاعل إلى الظرف ، أى : المسىء فيهما . والباء فى الليل والنهار متعلقة بيبسط .

والحظر : المنع ، والمحظور : الممنوع ، كأنه جعل عليه حظيرة ، وهو ما يتخذ من الشجر حول الغنم .

والدآليل : الدواهى والشدائد ، واحدها : دؤلول .

النفس ثراء من هدى رسول الله ، ونقاء من توجيهاته ، وارتواء من منهجه ، واستقامة من محجته فتنتعش فيها فضيلة التفكر ، ويزيد تنبهها إلى نعمة الاقتناع به رسول حق ونبى صدق من لدن عزيز حكيم .

إن متتبع حوار رسول الله ﷺ يجد فيه شفاء لكل نفس ، وضياء لكل قلب ، وراحة لكل عقل ، وبلسما لكل جرح مهما تنوع موضوع الحوار وشخوصه . أو تباينت صيغه وأهدافه ، فهو مع الأعرابى مختلف عنه مع الصحابى ، وهو مع الوثنى غيره مع الكتابى ، ومع الملك غيره مع عامة البشر ، وهو مع الأنصار قريب إليه مع المهاجرين، ولكنه فى ذلك جميعا يأسر القلب ، ويخلب اللب ، ويأخذ المرء إلى وضاءة الحق ، ويضعه فى نور اليقين ، ويفتح له أبواب الخير ، ويغلق دونه منافذ الشر ، ويحله قرير العين فى رحاب دوحة الإيمان ، ورحابة جنة الرضوان .



البـــاب الثانى

كتب الرسول ﷺ ورسائله

الفصل الأول : كتب الرسول إلى الملوك من أهل الكتاب .

الفصل الثانى : كتب الرسول إلى غير أهل الكتاب من ملوك وغيرهم

الفصل الثالث : كتب الرسول مع الوفود العائدة .





الفصل الأول

كتبه ﷺ إلى الملوك من أهل الكتاب



كتبه إلى الملوك من أهل الكتاب

مرت الدعوة الإسلامية بقيادة رسول الله ﷺ بثلاث مراحل متميزة ، كانت المرحلة الأولى منها هى الأشد قسوة ، والأكثر مكابدة ، بسبب عنت قريش فى مواجهتهم لرسالة السماء ، وإيقاع الأذى برسول الله وصحابته الأولين على النحو الذى جاء مفصلا فى كتب السيرة .

وكانت المرحلة الثانية هى تلك التى بدأت بوصول الرسول ﷺ إلى مهجره فى المدينة ومن حوله الصحابة الذين وفدوا إلى دار الهجرة زرافات ووحدانا قبيل تحرك الرسول من مكة أو بعدها ، حيث لقوا من الأنصار كل ترحيب ودعم وإيثار وحماية، هذا فضلا عن المؤاخاة الكاملة التى أنشأها الرسول بين كل اثنين من المهاجرين والأنصار ، وفى هذه المرحلة الثانية صار للدعوة مركز ودولة فى « يثرب » التى صار اسمها بعد هجرة الرسول إليها « المدينة المنورة » .

ومن ثم بدأت الدعوة تدافع عن نفسها ضد أعدائها بالمواجهة العسكرية ، فكانت غزوة بدر الكبرى وما صاحبها من نصر الله للمؤمنين على جموع الشرك ، ثم كانت أحد التى تخلى النصر فيها عن المسلمين لانصرافهم عن الاستمساك بتعليمات القائد الأعظم سيدنا محمد ﷺ والتخلى عن أماكنهم الحصينة ، والإسراع إلى جمع بعض الغنائم ، ومع أن الهزيمة كانت شديدة الإيجاع للنبى وصحبه ، فإنها كانت أيضا درسا نافعا أفاد منه المؤمنون فى الغزوات التالية ، وقد استمرت هذه المرحلة إلى أن كان صلح الحديبية سنة ست هجرية ، حيث جرى ما يشبه الاعتراف بدولة المدينة من قبل كفار قريش .

أما المرحلة الثالثة فهى مرحلة ما بعد صلح الحديبية إلى أن انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وقد بسط علم الإسلام ضياءه على الجزيرة العربية بأكملها ، ففى المحرم

من السنة السابعة الهجرية [1] ـ أى : بُعَيْدَ صلح الحديبية مباشرة ـ بدأت أول حركة للدعوة الإسلامية خارج الحدود ، فى شكل حملة دبلوماسية مكثفة ، حيث أرسل الرسول ﷺ ستة نفر من الصحابة يحمل كل منهم كتابا إلى كبار ملوك عالم ذلك الزمان ورؤسائه ، فأرسل دحية بن خليفة الكلبى إلى قيصر الروم ، وعبدالله بن حذافة السهمى إلى كسرى ملك فارس ، وكان كل من قيصر وكسرى هما قطبى الرحى فى السيطرة على دائرة الأقطار المحيطة بالجزيرة العربية ، إذ كان قيصر يحتل بلاد الشام حتى شمالى الحجاز وله فيها نائب من أهل البلاد ، وكان كسرى يحتل الجزء الشمالى الشرقى من الجزيرة العربية ، كذلك أرسل النبى ﷺ حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس حاكم مصر من قبل الروم ، وعمرو بن أمية الضَّمْرى إلى النجاشى فى الحبشة ، وشجاع ابن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شمّر ملك البلقاء الخاضع لنفوذ قيصر ، وسليط ابن عمرو إلى هوذة بن على الحنفى ملك اليمامة .

هكذا يكون الرسول قد وسع آفاق الدعوة ، فتجاوزت منطقة الحجاز إلى أطراف الجزيرة العربية ، بل تجاوزت الجزيرة كلها إلى امبراطوريتى الروم والفرس اللتين كانتا تتحكمان فى الأقطار الشامية وآسيا الوسطى ومصر والشمال الإفريقى من جانب ، وفارس والعراق وبقية الغرب الآسيوى من جانب آخر ، مما يؤكد أن الدعوة الإسلامية موجهة من رب العالمين إلى الناس جميعاً فى المشرقين والمغربين وليس للعرب وحدهم حسبما يزعم بعض المستشرقين ويعض الأفراد من مقلديهم الذين يحملون أسماء عربية .

وبعد نحو اثنين وعشرين شهرا ، وفى ذى القعدة سنة ثمان على وجه التحديد أرسل الرسول ﷺ ثلاثة نفر من الصحابة يحمل كل واحد منهم كتابا منه ﷺ إلى ثلاثة من ملوك أطراف الجزيرة على هذا النحو : عمرو بن العاص إلى جيفر وعبدالله ابنى الجلندى الأزديين ملكى عمان ، والعلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين ، والمهاجر بن أبى أمية المخزومى إلى الحارث بن عبد كلال الحميرى ملك اليمن .

على أن رسائل الرسول وكتبه لم تتوقف بعد ذلك ، فقد كتب ﷺ العديد من الرسائل

---

(١) فى رواية أن ذلك كان فى ذى الحجة سنة ست .

إلى رؤساء القبائل ووجهاء العرب إما مبادأة ، وإما مع من وفدوا عليه معلنين إسلامهم - إذ كان يزودهم برسائل موجهة إلى أقوامهم لتثبيت ولايتهم عليهم ، ولتبصيرهم بفروض الإسلام وأحكامه فى الدين أوفى أمور الحياة العامة على ما سوف نعمد إلى بيانه وذكر نماذج منه فيما سوف نستقبل من صفحات إن شاء الله .

كتب الرسول إلى الملوك من أهل الكتاب

بعث الرسول ﷺ برسائل إلى أربعة من أهل الكتاب ، والرؤساء هم : هرقل قيصر الروم ، والحارث بن أبى شمر الغسانى ملك البلقاء ، والمقوقس الوالى الرومانى على مصر ، والنجاشى ملك الحبشة ، ولأن هؤلاء الملوك جميعا نصارى من أهل الكتاب فإن أسلوب الرسائل الأربع متقارب ، ومعانيها متشابهة .

كتابه إلى قيصر :

كان حامل كتاب رسول الله ﷺ إلى قيصر هو دحية بن خليفة الكلبى ، الصحابى الجليل ، وترجح أكثر الروايات أنه سلم كتاب رسول الله ﷺ وهو يحج ببيت المقدس ، وهذا نصُّه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام (*) « أسلم تسلم » ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين (*) ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين (*) « ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (١) .

كان طبيعيا أن تُحدث مثل هذه الدعوة دويا عظيما فى بلاط قيصر ، بل إنها أحدثت

(*) دعاية الإسلام : الكلمة الداعية إلى الإسلام . أجرك مرتين يعنى لإيمان أتباعك بسبب إيمانك ، أو لإيمانك بعيسى ثم محمد . الأريسيون : هم الفلاحون والرعاة .

(١) النص فى صحيح البخارى ١ / ٧ ، وتاريخ الطبرى ٣ / ٨٧ ، والكامل لابن الأثير ٢ / ٨١ وعيون الأثر ٢ / ٢٦٠ ، وزاد المعاد ٣ / ١٨ ، وصبح الأعشى ٦ / ٣٧٦ ، تاريخ الإسلام للذهبى : قسم المغازى ٤١٩ ، والوثائق السياسية فى العهد النبوى ١٠٩ .

ارتباكا وحيرة مصحوبتين بتفكير عميق من لدن قيصر وبطانته ، خاصة وأنهم خارجون من حرب طاحنة جرت بينهم وبين كسرى ، وكان النصر حليفهم فيها .

قال قيصر لرجاله : التمسوا لنا ها هنا أحدا من قوم هذا الرجل نسألهم عنه ، وهو تصرف الساسة المحنكين والملوك الحكماء ، وكان أبو سفيان بن حرب وبعض صحبه من رجال قريش قدموا تجاراً إلى بلاد الشام إبان الهدنة التى كانت بين الرسول ﷺ وبين كفار قريش بعد الحديبية ، فأتاهم رسول قيصر يستدعيهم ليمثلوا بين يديه ، لكى يعرف منهم مزيدا من أخبار محمد ﷺ وشخصيته .

إن أبا سفيان يقص على عبدالله بن عباس ماجرى بينه وبين قيصر من حوار حدث فى زمن لم يكن أبوسفيان قد أسلم بعد . يقول أبو سفيان [1]: إن هرقل (قيصر) أرسل إليه فى ركب من قريش فأتوه وهم بإيلياء ، فدعاهم فى مجلسه وعليه التاج وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال : أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ فقال أبو سفيان : قلت : أنا أقربهم نسبا . فقال : أدنوه منى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم : إنى سائل هذا عن هذا الرجل فإن كَذَبَنِي فَكَذِّبُوه . فقال : فوالله لولا الحياء من أن يؤثروا علىّ كذبا لكذبت عنه ، ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا . قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها (يعنى : نحن غائبون عنه منذ مدة من الزمن) قال ـ يعنى أبو سفيان مستمرا فى وصف الحوار ـ : ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة . قال هرقل : فهل قاتلتموه؟ قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب

---

(١) الذهبى : قسم المغازى ص ٤١٨ ، ٤١٩ طبعة دار الكتاب اللبنانى .

بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه . قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة . فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يتأسى بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا . قلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءكم اتبعوه وهم أتباع الرسل . وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب . وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك بما يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف . فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين . وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذى بعث به دحية الكلبى إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه ، فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال ، وفرغ من قراءة الكتاب ، كثر عنده الصخب ، وارتفعت الأصوات ، وأخرجنا . فقلت لأصحابى حين أخرجنا : لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبى

كبشة (*) إنه يخافه ملك بنى الأصفر ، فما زلت موقنا أنه سيظهر ـ أى : يتغلب ـ حتى أدخل الله علىّ الإسلام .

وإذا كانت رسالة النبى ﷺ قد قوبلت بهذا الاهتمام والاحترام من قبل قيصر ، فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لعامله على بلاد الشام المنذر بن الحارث الغسانى الذى أراد أن يوغر صدر قيصر ، وطلب إليه السير إلى المدينة لمحاربة الرسول ، ولكن حقده لم يجد أذنا صاغية ، إن قيصر قد أرسل ردًّا جميلا على كتاب الرسول ﷺ يقول فيه :

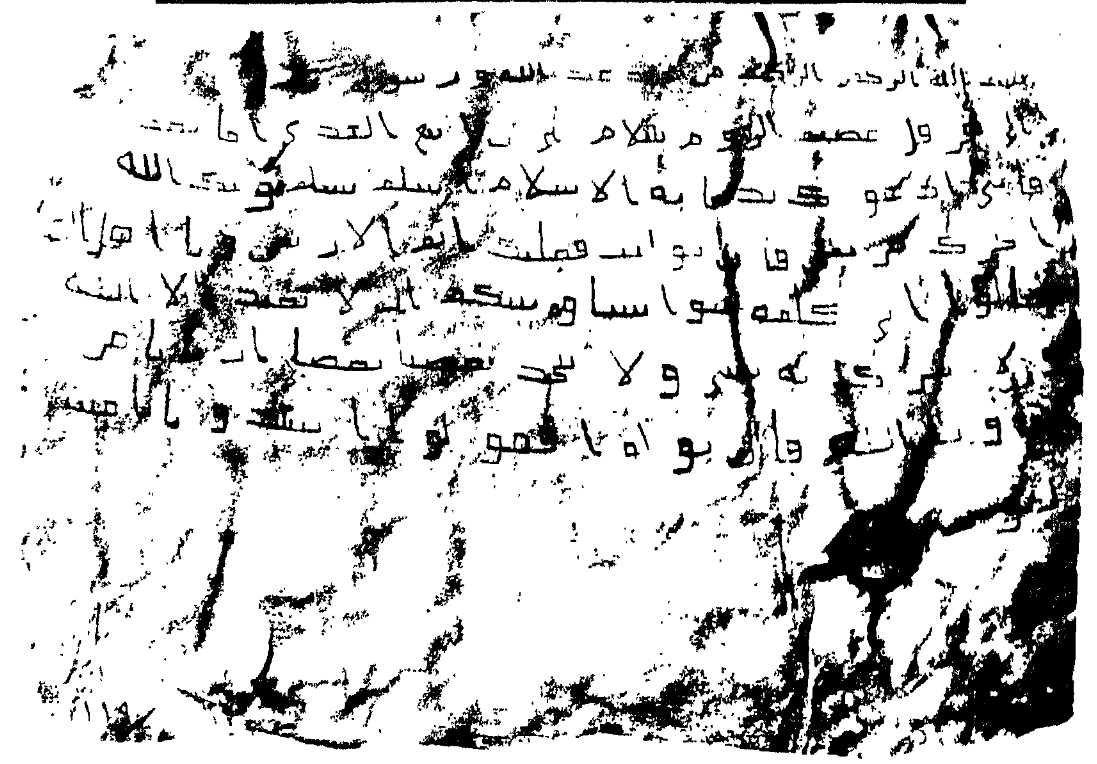
« إلى أحمد رسول الله الذى بشر به عيسى ، من قيصر ملك الروم . إنه جاءنى كتابك مع رسولك ، وإنى أشهد أنك رسول الله ، نجدك عندنا فى الإنجيل ، بشّرنا بك عيسى بن مريم ، وإنى دعوت الروم أن يؤمنوا بك فأبوا ، ولو أطاعونى لكان خيرا لهم ، ولوددت أنى عندك وأغسل قدميك » .

إن القارىء لكل من رسالة رسول الله ﷺ ورد قيصر عليه يلحظ التجانس فى فحوى كل رسالة . صحيح أنه لا مجال للمقارنة بين أسلوب الكتاب المحمدى وبنيته البلاغية الإعجازية وبين أسلوب كتاب قيصر فى الرد على كتاب الرسول ، وإنما الذى يدعو إلى التوقف والاعتبار هو محور الكتاب المحمدى الذى كل مداره على السلام . وتشجيع قيصر بالأجر الإلهى المضاعف ، والدعوة إلى عبادة الإله الواحد ، وأن لا يُشرِك به شىء من خلال النظم القرآنى المعجز الذى اقتبسه رسول الله فى دعوته قيصر إلى الإسلام .

كان طبيعيا أن يكون الرد على كتاب الرسول إيجابىّ الجواب ، إذ يبدو أن قيصر كان على معرفة جيدة بالعقيدة المسيحية التى لم يكن قد أصابها كثير من التحول بعد ، كما كان على إلمام بآيات الإنجيل المبشرة برسالة محمد ، ولم تكن هذه الآيات قد محيت أو تعرضت للحذف مثلما هو حادث فى الأناجيل المعاصرة ، ومن ثم كانت إجابة قيصر ناجزة ومستجيبة ، وإن لم يكن أمر الاستجابة حادثا من لدن رعاياه الروم .

(*) ابن أبى كبشة رجل من خزاعة خالف قريشاً فى عبادة الأوثان وعبد الشعرى فدعتهم مخالفته لهم أن يطلقوا عليه هذه الكنية ، وقد أراد أبو سفيان بقوله : ابن أبى كبشة ، أى : رسول الله ﷺ .

مخطوطات



كتابه ﷺ إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى :

كان الحارث بن أبى شمر ملكا على جنوب الشام ، وهى إمارة الغساسنة الذين كانوا ملوكا بالاسم ؛ لأن الحكم الحقيقى والأمر والنهى كان لقيصر الروم الذى كان يعدّ الغساسنة بمثابة حاجز بينه وبين عرب الجزيرة الذين كانوا يغيرون على أطراف دولة الروم بين الحين والحين .

وكان الرسول ﷺ يعرف من أمر الغساسنة أنهم على النصرانية ، وأنهم ذوو قوة ومال، وقد وفد عليهم كبار شعراء الجاهلية ، مثل : النابغة ، وعلقمة ، وحسان ، وقالوا فيهم شعرا جميلا ، ونالوا الكثير من عطاياهم .

ونحن نرجح أن الرسول ﷺ كان على دراية بخشونة الملك الغسانى ، وبكراهيته للإسلام ، وتأليبه قيصر ، وحضّه إياه على حرب الرسول كردّ على كتابه إليه ، ومن ثم كان كتاب الرسول إلى الملك الغسانى فى حسم قاطع ، وتهديد واضح : إما الإسلام وإما زوال الملك ، وهذا نص الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق ، فإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى لك ملكك » (١).

إنه كتاب اقتصر على الحسم والقطع والتهديد المباشر ، حمله فى ذى الحجة من السنة السادسة الصحابى شجاع بن وهب من بنى أسد إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى(٢)، فلما دفعه إليه قرأه ثم رمى به ، وقال : من ينزع منى ملكى ؟! وأنا سائر إليه ، وكتب إلى قيصر يخبره بالخبر ، فكتب إليه قيصر : لا تسر إليه ، والْـهُ عنه .

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ، لمحمد حميد الدين ، ص ١٢٦ .

(٢) الطبرى . القسم الأول ٣/ ١٥٥٩ .

كتابه ﷺ إلى المقوقس :

كان المقوقس حاكم مصر من قبل الرومان ، وكان نصرانيا على دين قومه ، ويقرن أكثر المؤرخين اسمه بالإسكندرية ، فيقولون : المقوقس صاحب الإسكندرية ، وقد بعث رسول الله ﷺ بكتاب يدعوه إلى الإسلام هذا نصه : (١)

«بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم القبط . يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

بعث الرسول بكتابه إلى المقوقس مع الصحابى حاطب بن أبى بلتعة ، فلما دخل عليه قال : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى - يعنى فرعون - فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك .

فقال المقوقس : إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه .

فقال له حاطب : ندعوك إلى دين الإسلام الكافى به الله فَقْدَ ما سواه ، إن هذا النبى دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوارة إلى الإنجيل ، وكل نبى أدرك قوما فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه هذا النبى ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكنا نأمرك به .

فقال المقوقس : إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده الساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء ، والإخبار بالنجوى ، وسأنظر . . . ثم دعا كاتبا له

(١) عيون الأثر ٢ / ٢٩٥ ، السيرة الحلبية ٢ / ٣٧١ ، زاد المعاد ٣ / ٧٢ .

يكتب بالعربية ، فكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبدالله من المقوقس عظيم القبط : سلام عليك ، أما بعد : فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها ، والسلام عليك »

ولم يزد المقوقس على هذا ولم يسلم ، والجاريتان هما : مارية وسيرين ، والبغلة هى : دُلْدُل التى بقيت إلى زمن معاوية .

إن كتاب الرسول ﷺ إلى المقوقس لا يكاد يختلف فى صيغته ومضمونه عن ذلك الذى بعث به فى نفس الوقت إلى قيصر إلا فى لفظ « القبط » التى وردت مكان لفظ «الأريسيين » فى كتاب قيصر ، فالكتابان متشابهان فى عبارة « أسلم تسلم » وفى عبارة «يؤتك الله أجرك مرتين »

والمتأمل فى أسلوب الكتابين يجدهما متسمين بالإيجاز البليغ ، وصفاء الكلمة ، وسهولة المعنى ، وارتياح الصيغة ، وامتزاج الترغيب بالترهيب امتزاجا لبقا ، غير منفّر ولا جارح .

لقد عمد الرسول ﷺ إلى العمل بآداب القرآن الكريم فى جدال أهل الكتاب فى قول الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ لـذلك كـان رد كـل مـن قيصر والمقوقس يفيضان أدبـا واحترامـا وتقديرا لرسـول الله ﷺ .

فأما رد قيصر فكان اعترافا صريحا : « إلى أحمد رسول الله الذى بشر به عيسى » وهو المعنى الدقيق للآية القرآنية الكريمة من سورة الصف : ﴿ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ ﴾ .

إن أحدا حتى الآن لم يطعن فى نص كتاب رسول الله ﷺ إلى قيصر ، وبالمثل فإن

أحدا لم يشكك فى صيغة رد قيصر على كتاب رسول الله ، وهو الرد الذى يقول فيه : «إلى أحمد رسول الله الذى بشر به عيسى » .

ومن المقطوع به أن قيصر لم يكن قد قرأ الآية الكريمة من سورة الصف التى ذكرناها ، بل إنه لم يكن يعرف شيئا عن النبى ﷺ ولذلك فقد سأل معاونيه أن يبحثوا له عن أحد يعرف شيئا عن هذا النبى الجديد ، وإذ بهم يعثرون على أبى سفيان ، وكان إذ ذاك فى تجارة مع بعض قومه من قريش فى بلاد الشام ، فيمثل بين يدى قيصر ويجرى بينهما من الحوار حول شخصية محمد ما قد أسلفنا ذكره قبل صفحات قليلة .

فإذا ما كان الأمر متعلقا برد المقوقس على كتاب الرسول ﷺ فإن الأخبار تذكر حسن استقباله لحاطب بن أبى بلتعة حامل الكتاب وحسن ضيافته إياه فى الإسكندرية عدة أيام ، ثم ذلك الأدب الجم فى صياغة الرد الذى لم يحمل رفضا صريحا لنبوة محمد ، وإنما صيغ فى لباقة وأدب ، أعرب من خلاله عن ظنه بأن النبى المرتقب يخرج من الشام، ولكى يكمل المقوقس إخراج الموقف إخراجا حسنا فإنه قد حمّل حاطبا بعض الهدايا القيمة التى ذكرناها وهى فى جملتها جاريتان صاحبتا مكانة عظيمة فى القبط ، هما مارية وأختها سيرين ، وثياب من قباطى مصر وبغلة عرفت فى كتب السيرة باسم (دُلْدُل) قيل : إنها أول بغلة رئيت فى الإسلام ، وحمار ذكر فى أكثر المراجع باسم (يعفور) وفى أقلها باسم (عفير) وخصىّ اسمه (مايور) أعتقه رسول الله وعسل وقدح من قوارير .

ومن الطريف أن مارية وأختها سيرين قد اعتنقتا الإسلام قبل وصولها إلى المدينة ، وعند وصولها إلى المدينة بنى رسول الله ﷺ بمارية ، وأنجبت له ولده إبراهيم فخلقت نسباً ثانيا بين آل إبراهيم ـ عليه السلام ـ وبين مصر .

وأما سيرين فقد أهداها رسول الله ﷺ إلى حسان بن ثابت صاحبه وشاعره تكريما له ولها ، فأنجبت له عبد الرحمن .

ويجىء الحديث النبوى الشريف فيؤكد إصهار الإسلام إلى مصر فى قوله ﷺ : « **إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ؛ فإن لهم فيكم صهرا وذمة**» .

وتتحقق نبوءة النبى ﷺ فلا تكاد تمضى سنوات تسع حتى يفتح المسلمون مصر سنة عشرة هجرية .

أما أصل خطاب الرسول إلى المقوقس فقد تم العثور عليه فى كنيسة قرب بلدة إخميم فى صعيد مصر ، وهو محفوظ بعناية كاملة فى متحف توب قابى باستامبول ، وتلك صورة له :

كتاب الرسول إلى النجاشى ملك الحبشة :

لعل كتابا من كتب الرسول إلى الملوك لم يثر من النقاش والحوار مثلما أثار هذا الكتاب المبارك ، أما لفظ (النجاشى) فهو لقب يطلق على أى ملك يعتلى عرش الحبشة ، مثله فى ذلك مثل (كسرى) عند الفرس ، و (قيصر) عند الروم ، و(فرعون) عند المصريين ، وهكذا .

أما النجاشى الذى نحن بصدد ذكره هنا فاسمه « أَصْحَمَةُ » . وإن كانت بعض المصادر قد ذكرته باسم الأصحم ، إن « أصحمَة » لم يكد يتسلم كتاب رسول الله ﷺ الذى حمله إليه الصحابى الجليل عمرو بن أمية الضمرى حتى سارع إلى إعلان إسلامه والإيمان بالله ربًّا واحدا لا شريك له ، وبمحمد نبيا صادقا ورسولا هاديا . وسجل أصحمة إسلامه فى كتاب حافل بالمودة ، مترع بدفء الإيمان ، بعث به ردا على دعوة الرسول له بالإسلام .

لقد فزع المستشرقون المحدثون من إسلام النجاشى ، فلم يجرأوا على إنكاره ، وإنما مالوا إلى استبعاد أن يسلم بهذه السرعة ، وقد ساقوا هذا الاستبعاد على سبيل الاستنتاج لا على سبيل التقرير ، وأوردوا فى ذلك حججا واهية ، واستنتاجات مريضة . وإذا كان مثل هذه الافتراءات على ثوابت الأحداث الإسلامية غير مستغربة من كثير من هذه الطائفة من الدارسين الغربيين ، فإن الأدهى من ذلك والأمرّ أن تصدر هذه الترهات من دارسين مسلمين نقلا عن المستشرقين ، وبدون الرجوع إلى المصادر الإسلامية الثبتة ، والمراجع العربية الصادقة ، الأمر الذى دفع بكاتب مسلم مجاهد هو اللواء محمود شيث خطاب أن يعطى هذا الأمر عناية خاصة ، فأصدر كتيبا قيما بعنوان « إسلام النجاشى »

يرد فيه على بحث بعنوان « الرسائل التى بعث بها النبى إلى ملوك الدول المجاورة » نشرته مجلة « الفيصل » العدد ٥٥ فى المحرم ١٤٠٢ هـ وفيه تورط كاتبه نقلا عن المستشرقين فى إنكار إسلام النجاشى ، وبالتالى إنكار الكتاب الذى أعلن فيه اعتناقه الإسلام ردا على كتاب رسول الله ﷺ إليه .

وأما كتاب رسول الله فهذا نصه :(١)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشى أصحمة ملك الحبشة ، أسلم أنت ، فإنى أحمد الله إليك ، الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى ، وتؤمن بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى » (*).

إن هذا النص يتميز بين كتب رسول الله إلى الملوك بأكثر من صفة ، أولها : البداية الكريمة بقوله ﷺ: « أسلم أنت » وفى رواية « سَلْمٌ أنت » وثانيتها : التحية الدافئة فى قول الرسول ﷺ لأصحمة : « أحمد الله إليك » ثم يتبع التحية بذكر عدد من أسماء الله الحسنى ، ثم تبع ذلك الحديث عن عيسى ـ عليه السلام ـ والإيمان به ، ووصف حقيقته خلقا وإنشاء وتكوينا بوسيلة إلهية مسبوقة بخلقه ـ سبحانه ـ آدم عليه السلام .

هذا ، وإن من ميزات هذا الكتاب ظاهرةَ طُولِهِ نسبيًّا بالقياس إلى كتب النبى التى بعث بها إلى الملوك الآخرين ، ولأن للنجاشى سابقة فضل على المهاجرين الأولين فى هجرتهم إلى الحبشة وحسن استقبال لهم ، وتكريم للرسول حين عقد له على أم المؤمنين

---

(١) عيون الأثر ٢ / ٢٦٤ وما بعدها . سبل الهدى والرشاد ٢ / ٥٢٤ وما بعدها . زاد المعاد ٣ / ٧١ وما بعدها . إعجاز القرآن للباقلانى . الوثائق السياسية ص ١٠١ ـ ١٠٣ .

(*) أصحمة : كلمة حبشية تعنى بالعربية عطية . البتول لغة : من البتل ، وهو القطع ، ومنه العذراء البتول ؛ لأنها قطعت عن الرجال ، ولأنها انقطعت عن الدنيا لعبادة الله .

أم حبيبة ، وبعث بها معززة مكرمة إليه فى المدينة ، فقد رأى النبى ﷺ أن يزيده تكريما بأن عزّز الوفد الذى يحمل الكتاب بأن جعل فيه ابن عمه جعفر بن أبى طالب الذى عرف بعد استشهاده فى « مؤتة » بجعفر الطيار .

هذا ، وقد بدأ الرسول كتابه بالسلام وختمه بالسلام ، وهى ظاهرة تمثل احتفاء خاصا ، وتكريما متفردا للنجاشى .

كان الرسول ﷺ يختار حملة كتبه إلى الملوك من الصحابة ذوى الفطنة واللياقة والجرأة والبيان ، وما كان أكثر البلغاء فى حضرته ، وأوفر ذوى الفطنة فى صحبته .

كان حامل الكتاب هو عمرو بن أميّة الضمرى طبقا لما أسلفنا القول ، وبعد أن قدم كتاب رسول الله ﷺ إلى النجاشى فى حضرة رجاله وصحبة جعفر ابن عم رسول الله قال : يا أصحمة : إن علىَّ القول وعليك الاستماع ، إنك كأنك فى الرقة علينا ، وكأنا فى الثقة بك منك ، لأنا لم نظن بك خيرا قط إلا نلناه ، ولم نخفك على شىء قط إلا أمناه ، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك ، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد ، وقاض لا يجور ، وفى ذلك الموقع الحق وإصابة المفصل ، وإلا فأنت فى هذا النبى الأمى كاليهود فى عيسى بن مريم ، وقد فرق النبى ﷺ رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم له ، وأمنك على ما أخافهم عليه ، الخير سالف وأجر ينتظر .

وهنا رد النجاشى على عمرو قائلا : أشهد بالله إنه للنبى الذى تنتظره أهل الكتاب ، وإن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل ، وإن العيان ليس بأشفى من الخبر . ثم بعث بكتاب أجاب فيه دعوة رسول الله إلى الإسلام حمله عمرو بن أمية وجعفر بن أبى طالب .

جواب النجاشى على كتاب الرسول ﷺ (*) :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

إلى محمد رسول الله من النجاشى أصحمة بن الأبحر ، سلام عليك يا نبى الله من

(*) الوثائق السياسية ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

الله ورحمته وبركاته ، لا إله إلا الذى هدانى إلى الإسلام ، فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فوربّ السماء والأرض إن عيسى لم يَزِد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد مرّ بنا ابن عمك وأصحابه ، فأشهدُ أنك لرسول الله صادقا مصدقاً ، وقد تبعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين ، وقد أرسلت بابنى أريحا بن أصحمة بن أبحر ، فإنى لا أملك إلا نفسى ، وإن أمرتنى أن أجىء فعلت يا رسول الله ، فإنى أشهد أن ما تقول حق » .

بهذه العبارات المترعة بالإيمان الدافقة بالطاعة أعلن النجاشى إسلامه ، وكان ثانى الملوك الكتابيين الذين أسلموا ، أما أولهم فهو قيصر ، وذلك طبقا للوثيقة المتمثلة فى رده على كتاب رسول الله .

ومن المعروف أن رسول الله ﷺ نعى النجاشى فى اليوم الذى مات فيه ، ففى حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ نعى النجاشى فى اليوم الذى مات فيه ، خرج إلى المصلى ، فصف بهم وكبّر أربعا (البخارى ومسلم)

وفى حديث جابر ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ صلى على أصحمة فكبر أربعا(١).

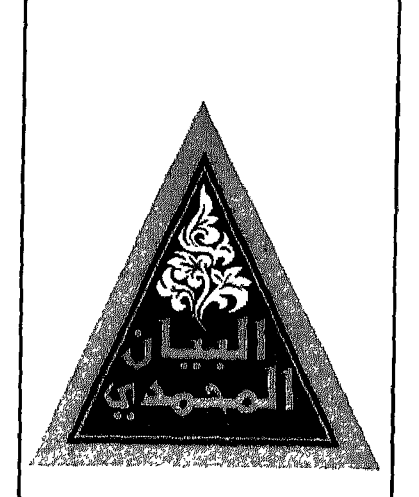
ولقد أجمعت مصادر الحديث النبوى على إسلام النجاشى ، وقد استنبط فقهاء المسلمين من إسلام النجاشى وصلاة النبى عليه صلاة الغائب وتكبيره أربع تكبيرات فى الصلاة عليه استنباطات فى صلاة الجنازة اتبعها المسلمون منذ موت النجاشى حتى اليوم ، وستبقى ما بقى الإسلام وبقى المسلمون (٢).

---

(١) حديثا أبى هريرة وجابر وردا فى كل من : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ص ١٩٣ وفتح البارى ٣ / ١٦٣ ، ١٦٤ ، والنووى على مسلم ٢ / ٣٣٧ .

(٢) إسلام النجاشى ، ص ١٨ لمحمود شيث خطاب .





الفصل الثانى

كتب الرسول إلى غير أهل الكتاب



كتب الرسول إلى غير أهل الكتاب

اقتصر تناولنا فى الفصل السابق على كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك الذين يشتركون فى صفة كونهم من أهل الكتاب ، فقد كانوا جميعا نصارى ، وهم قيصر الروم ، وملك الغساسنة ، والمقوقس حاكم الإسكندرية ، والنجاشى ملك الحبشة ، ولأن للإسلام موقفاً وديًّا من أهل الكتاب ، محدَّدًا بأحكام ثابتة فى علاقة الطرف الإسلامى بالطرف النصرانى ، فقد اتسمت كتب رسول الله ﷺ إلى هؤلاء الملوك بطابع متميز من لين الخطاب ، ورقة المدخل ، ودفء القول ، على النحو الذى فصلناه .

ومن ناحية أخرى كان مبعوثو رسول الله وحاملو كتبه فى موضع كريم من الحفاوة وحسن الاستقبال من لدن أولئك الملوك ، الذين استجاب اثنان منهم إلى دعوة الرسول وأعلنا إيمانهما بالرسالة النّبوية ، فدخلا فى حظيرة الإسلام ، وهما قيصر الروم ونجاشى الحبشة ، وإن كانا قد رغبا عن نشر الدعوة بين رعاياهما لأسباب وردت فى كتب التاريخ وفصلتها كتب السيرة ، وكان أشدها وضوحا تعاظم سلطة الكنيسة ، واستشراء نفوذ رجال الدين فى كل من بيزنطة والحبشة .

ونحن هنا فى هذا الفصل نعرض لكتب الرسول ﷺ إلى الملوك غير الكتابيين الذين يجىء كسرى ملك الفرس فى مقدمتهم ، ويليه بعد ذلك ملوك العرب وأقيالهم ، وسوف نلاحظ أن هذه الطائفة من كتب الرسول قد أخذت شكلا مغايرا لذلك الشكل الذى اتسمت به كتبه إلى الملوك من أهل الكتاب ، وأن هذه الكتب قد جرت فى إطار مختلف ، وسلكت مضمارا آخر ، بل مضامير متباينة عن تلك التى مرّ ذكرها .

كتاب النبى إلى كسرى :

اختار رسول الله ﷺ منصرفه من الحديبية الصحابى عبد الله بن حذافة السهمى

ليكون حامل كتابه إلى كسرى أبرويز ملك فارس ، وكان عبد الله بن حذافة ذا دربة فى معرفة بلاد فارس ، وكثير التردد على كسرى قبل إسلامه .

انطلق عبد الله بن حذافة السهمى مشرقا إلى المدائن ، حاملا كتاب رسول الله ﷺ مختوما وهذا نصه : [1].

كتابه إلى كسرى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى كسرى أبرويز عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة «لينذر من كان حيًّا ، ويحق القول على الكافرين » أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك إثم المجوس»

يقول عبد الله بن حذافة : انتهيت إلى باب كسرى، وطلبت الإذن بالدخول عليه حتى وصلت إليه ، فدفعت بكتاب رسول الله ﷺ إليه ، فقرىء عليه ، فأخذه ومزقه .

هنا يتبن الفرق بين سلوك ملك كتابى وشراسة ملك وثنى ، فالأولون أحسن كل منهم استقبال الكتاب وحامله ، وهذا ثار وزجر ومزّق الكتاب وهمّ بقتل حامله ، ثم أخذته العزة بالإثم وعبر عما يجيش فى نفسه ونفوس ملوك الأكاسرة من أن كل الناس عبيد لهم ، فقال : يكتب إلى هذا وهو عبدى !!

إنه فى الوقت الذى رحب فيه الملوك الكتابيون بكتب رسول الله ﷺ قام كسرى الوثنى بتمزيق الكتاب وتلفّظ بكلمات وقحة ؛ ذلك لأن الأولين معوّدون على قراءة الكتب السماوية ، ووجدوا فى كتاب رسول الله من خلال الآيات التى تضمنتها الكتب كلاما ربانيا يفيض حكمة ، ويتضوع نورا ، ويتغلغل فى أعماق النفس إقناعا ، وأما كسرى فهو مشغول ببيوت النار ، ملازم لها ، يعبد النار بلهيبها وتدميرها ، فخشن طبعه ، وساءت نفسه ، وأظلم قلبه ، فكان سوء سلوكه ووقاحة تصرفه منسجمين مع

---

(١) عيون الأثر ٢/ ٢٦٢، ٢٦٣ . زاد المعاد ٣/ ٧١ . إعجاز القرآن للباقلانى ، ص ١٣٤ .

طبيعة معبوده وسوء عقيدته ، إنه فضلا عن ذلك ثمت أمور أو ظواهر ينبغى ألا يغفل شأنها ونحن نعرض لهذه الواقعة .

أهمها هو ما قد سلفت الإشارة إليه من ضرورة اعتبار كسرى مشركا يعبد النار ، وليس كتابيا يؤمن بالله ، ويجىء بعد ذلك استهلال كتاب رسول الله بالإيمان بالله ورسوله وشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، ويتلو ذلك إبلاغ كسرى بأن محمدا رسول الله لكل من كان حيًّا ، مع صيغة الإنذار الشديد لمن كفر « ويحق القول على الكافرين » وتلك نغمة لم يألف سماعها ملوك الأكاسرة ، وأكثرهم رجال غلاظ يحسبون الناس جميعا عبيدا لهم .

هذا ، وقد صك سماع كسرى قول قارىء خطاب رسول الله : « فأسلم تسلم » وما تحمله هذه الجملة من معان أحس كسرى ساعتها أن عرشه يهتز من تحته ، فهو ليس مأمورا فى شخصه وحسب ، وإنما عليه أن يتحمل إثم المجوس ، وهو قول أطار صوابه .

وأما أسلوب الكتاب فهو معجز فى إيجازه واحتوائه ـ على قصره ـ عددًا من القضايا ، وقبائل من المعانى مع الشدة المهذبة ، والإصرار الذى لا يتزعزع .

والمأثور أن رسول الله ﷺ لما علم بفعلة كسرى وحماقته قال : «**مُزِّقَ ملكه** » أى : مزق الله ملكه . ولقد تحققت دعوة رسول الله ﷺ ونبوءته ، إذ لم تمض سنوات عشر على هذا الحادث حتى كان عرش كسرى قد مزق كل ممزق تحت سنابك خيل المسلمين وفرسانهم فى القادسية وماتلاها من انتصارات على مساحة الامبراطورية الكسروية .

ولاشك فى أن دعوة رسول الله لكسرى قد أقضت مضجعه ، فأخذ يؤلب ولاته على رسول الله ، ومنهم باذان واليه على اليمن الذى كان من أمره ما سجله ابن سيد الناس على هذا النحو : (١)

من حديث أبى هريرة وغيره أن كسرى بينا هو فى بيت كان يخلو فيه ، إذا رجل قد

---

(١) عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير ٢ / ٢٦٢ ـ ٢٦٤ .

خرج إليه وفى يده عصا ، فقال ياكسرى : إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا فأسلم تسلم ، واتبعْه يبقَ لك ملكك ، قال كسرى : أخّر هذا عنى آثرًا ما ، فدعا حجابه وبوابيه فتواعدهم وقال : من هذا الذى دخل علىّ ؟ قالوا : والله مادخل عليك أحد ، وما ضيعنا لك بابا ، ومكث حتى كان العام المقبل أتاه فقال له مثل ذلك ، وقال : إلاّ تسلم أكسرْ العصا ، قال : لا تفعل أخّر ذلك آثراً ما ، ثم جاء العام المقبل ففعل مثل ذلك ، وضرب بالعصا على رأسه فكسرها ، وخرج من عنده ، ويقال : إن ابنه قتله فى تلك الليلة ، وأعلم الله بذلك رسوله ﷺ لحدثان كونه ، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك رسل باذان إليه ، وكان باذان عامل كسرى على اليمن ، فلما بلغه ظهور النبى ﷺ ودعاؤه إلى الله ، كتب إلى باذان أن ابعث إلى هذا الرجل الذى خالف دين قومه فمره فليرجع إلى دين قومه ، فإن أبى فابعث إلىّ برأسه ـ ويروى : وإلا فليواعدك يوما تقتتلون فيه ـ فلما ورد كتابه إلى باذان ، بعث بكتابه مع رجلين من عنده ، فلما قدما على رسول الله ﷺ أنزلهما وأمرهما بالمقام فأقاما أياما ، ثم أرسل إليهما رسول الله ﷺ ذات غداة فقال : انطلقا إلى باذان فأعلماه أن ربى ـ عز وجل ـ قد قتل كسرى فى هذه الليلة ، فانطلقا حتى قدما على باذان فأخبراه بذلك فقال : إن يكن الأمر كما قال فوالله إن الرجل لنبى ، وسيأتى الخبر بذلك إلى يوم كذا ، فأتاه الخبر بذلك ، فبعث باذان بإسلامه وإسلام من معه إلى رسول الله ﷺ ويقال : إن الخبر أتاه بمقتل كسرى وهو مريض ، فاجتمعت إليه أساورته فقالوا : من تؤمِّرُ علينا ؟ فقال لهم : ملك مقبل وملك مدبر ، فاتبعوا هذا الرجل وادخلوا فى دينه وأسلموا . ومات باذان فبعث رءوسهم إلى رسول الله ﷺ وفدهم يعرفونه بإسلامهم .

كتاب النبى إلى ملك عُمان :

كانت عمان مملكة مستقرة ، وكان يحكمها ملك يدعى جيفر بن الجلندى ويشرك معه أخاه « عبدا» فى إدارة ملكه والنظر فى شئونه ، وكانت مملكة عمان من أكثر ممالك العرب استقرارا وأوفرها خيرات ، وكان طبيعيا أن يكتب رسول الله ﷺ إلى ملكه يدعوه إلى الإسلام مثلما كتب إلى غيره من ملوك ذلك الزمان ، سواء أكانوا عربا أم أعجاما ، كتابيِّين أم وثنيين ، وكان رسول الله ﷺ على دراية واسعة من أمر كل ملك يكتب إليه

وحال مملكته ، وكان يعلم أن عمان وإن كان ملكها هو « جيفر» إلا أن مفتاح السياسة وإصدار القرار فى يده أخيه الأصغر وشريكه فى الحكم « عبد » ومن ثم أملى رسول الله على الصحابى أبىّ بن كعب كتابه باسم الأخوين جيفر وعبد مقدما اسم (جيفر) لكبر سنّه على اسم (عبد) لأنه الأصغر سنا ، ثم اختار رسول الله ﷺ الصحابى القائد عمرو بن العاص لكى يحمل الكتاب ويقطع به طريقا طويلا حتى يصل إلى عاصمة الملكين العربيين الأزديين (جيفر وعبد) ابنى الجلندى وهذا نصه : (١).

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين . وإنكما إن أقررتما بالإسلام ولّيْتُكُما ، وإن أبيتما أن تُقرّا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما ، وخيلى تحلُّ بساحتكما ، وتظهر نبوتى على ملككما » .

كان عمرو بن العاص محاورا ذكيا ومفاوضا حصيفا ، وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد توقع أن يجرى حوار بين حامل كتابه وبين الملكين الأزديين ، وهو حوار غير يسير ؛ لأن مَلِكَىْ عمان يتسنمان ملكا بعيد الشقة من المدينة المنورة ، الأمر الذى قد يدخل فى روعهما استحالة تعرضهما لما يرغمهما على الإسلام من كتيبة جيش أو شدةحصار ، وهو ما حدث تماما ، وها هو عمرو بن العاص يروى تفاصيل الحوار وملخص الأحداث التى تمت فى رحلته (٢) .

قال عمرو : فخرجت حتى انتهيت إلى عمان ، فلما قدمتها عمدت إلى عبد ، وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقا . فقلت : إنى رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك . فقال : أخى المقدم على بالسن والملك ، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك . ثم قال : وما تدعو إليه ؟ قلت : أدعوك إلى الله وحده لاشريك له ، وتخلع ما عُبِدَ من دونه ،

---

(١) عيون الأثر ٢/ ٢٦٧ ، زاد المعاد ٣/ ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) زاد المعاد ٣/ ٧٣ ، ٧٤ .

وتشهد أن محمدا عبده ورسوله . قال : ياعمرو إنك ابن سيد قومك ، فكيف صنع أبوك ؟ فإن لنا فيه قدوة. قلت : مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ووددت أنه كان أسلم ، وصدق به ، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هدانى الله للإسلام . قال : فمتى تبعته ؟ قلت : قريبا . فسألنى : أين كان إسلامك ؟ قلت : عند النجاشى ، وأخبرته أن النجاشى قد أسلم . قال : فكيف صنع قومه بملكه ؟ فقلت : أقروه واتبعوه . قال : والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت : نعم . قال : انظر ياعمرو ماتقول ، إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له من الكذب . قلت : ماكذبتُ وما نستحلّه فى ديننا ، ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشى . قلت : بلى . قال : بأى شىء علمت ذلك ؟ قلت : كان النجاشى يخرج له خرجا ، فلما أسلم وصدّق بمحمد ﷺ قال : لا و الله لو سألنى درهما واحدا ما أعطيته ، فبلغ هرقل قوله فقال له النياق أخوه : أَتَدَعُ عبدك لايخرج لك خرجا ويدين بدين غيرك دينا محدثا ؟ قال هرقل : رجلٌ رغب فى دينٍ فاختاره لنفسه ما أصنع به ؟ والله لولا الضنُّ بملكى لصنعتُ كما صنع ، قال : انظر ماتقول ياعمرو ، قلت : والله صدقتك . قال عبد : فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه ؟ قلت : يأمر بطاعة الله - عز وجل - وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر ، وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان ،وعن الزنا وعن الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب ، قال : ما أحسن هذا الذى يدعو إليه ، لو كان أخى يتابعنى عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ، ولكن أخى أَضَنُّ بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا ، قلت : إنه إن أسلم ملّكه رسول الله ﷺ على قومه ، فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم . قال : إن هذا لخلق حسن ، وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ فى الصدقات فى الأموال حتى انتهيت إلى الإبل ، قال : ياعمرو وتؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى الشجر وترد المياه ؟ فقلت : نعم . فقال : والله ما أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا .

قال : فمكثت ببابه أياما ، وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبرى ، ثم إنه دعانى يوما فدخلت عليه ، فأخذ أعوانه بضبعىّ . فقال : دعوه ، فأرسلت ، فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعونى أجلس ، فنظرت إليه فقال : تكلم بحاجتك . فدفعت إليه

الكتاب مختوما ، ففض خاتمه وقرأ حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته ، إلا أنى رأيت أخاه أرق منه ، قال : ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت ؟ فقلت : تبعوه إما راغب فى الدين ، وإما مقهور بالسيف . قال : ومن معه ؟ قلت : الناس قد رغبوا فى الإسلام واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال ، فما أعلم أحدا بقى غيرك فى هذه الخرجة ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه توطئك الخيل وتبيد خضراك ، فأسلم تسلم ويستعملك على قومك ، ولا تدخل عليك الخيل والرجال ، قال : دعنى يومى هذا وارجع إلىّ غدا .

فرجعت إلى أخيه فقال : ياعمرو إنى لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه ، حتى إذا كان الغد أتيت إليه فأبى أن يأذن لى ، فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أنى لم أصل إليه ، فأوصلنى إليه ، فقال : إنى فكرت فيما دعوتنى إليه ، فإذا أنا أضعف العرب ، إن ملكت رجلا ما فى يدى وهو لا تبلغ خيله ههنا ، وإن بلغت خيله لاقت قتالا ليس كقتال من لاقى . قلت : وأنا خارج غدا ، فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه فقال : ما نحن فيما ظهر عليه ؟ وكل من أرسل إليه قد أجابه ، فأصبح فأرسل إلىّ فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعا ، وصدقا النبى ﷺ وخليا بينى وبين الصدقة ، وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لى عونا على من خالفنى .

ليس من شك فى أن السجيّة العربية فى حسن تفهم الخطاب الصادر عن أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء ﷺ قد يسرت على الملكين الأزديين بعض أمرهما ، فلم يسرفا فى التأبى وإن كانا قد أعطيا الحوار حقه من الأناة والتفكر ، وإن الأمر المؤكد أن حصافة عمرو بن العاص وطول باعه فى الإقناع ، وعمق ملكته فى الحوار، قد قربت طريق الإيمان إلى الملكين الأزديين الوثنيين ، وكان الفضل قبل ذلك وبعده إلى الصيغة المحمدية فى بلاغة الكتاب ، وفى مقدمتها الشعار المشترك فى جميع كتب رسول الله ﷺ: « أسلم تسلم » فلقد كانت هذه الجملة على إيجازها الشديد تمثل الهيبة المحمدية أمام قارئها ثم تنسرب إلى عقله ولبه فتقنعه ثم تفزعه، ولكن الشعار هنا يأخذ صيغة الخطاب إلى اثنين بدلا من واحد ، فكانت عبارته « أسلما تسلما » ولقد استجابا للدعوة المحمدية فأسلما وسلما .

كتاب النبى إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين :

الحق فى هذا المقام أن الذى صدر عن رسول الله إلى صاحب البحرين ليس كتابا واحدا ، وإنما هما كتابان تخللهما جواب من ملك البحرين يطلب التوجيه والنصح فيما عرض له من صعاب ، وإن كان الكتاب الأول قد أدى مهمته فور تسلم الملك إياه .

والبحرين ليست هى الجزر الحالية الواقعة فى الخليج العربى وحدها ، وإنما البحرين آنذاك هو مايعرف فى زماننا هذا بساحل عمان وما يتصل به من جزر مع الامتداد شمالا حتى حدود المملكة العربية السعودية من ناحية جنوبها الشرقى ، وقد أمدت بلاد البحرين تراث الشعر العربى بشاعرين جاهليين مجيدين ، هما : طرفة بن العبد ، والمتلمس ، والأول منهما ابن أخت الثانى .

كان المنذر بن ساوى ملكا للبحرين من قبل الفرس ، وقد اختار النبى ﷺ الصحابى الجليل العلاء بن الحضرمى وبعث معه سنة ٦ هـ كتابا إلى المنذر بن ساوى العبدى ، هذا نصه : (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى : سِلْمٌ أنت ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن من صلّى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم ، له ذمة الله وذمة رسوله ، فمن أحب ذلك من المجوس فإنه آمن ، ومن أبى فإن عليه الجزية »

فأسلم المنذر ، وكتب إلى رسول الله ﷺ :

« أما بعد يارسول الله : فإنى قد قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود ، فأحدث لى فى ذلك أمرك » .

هكذا كان استقبال المنذر لكتاب رسول الله إليه بالاستجابة الناجزة ، فاعتنق الإسلام من فوره ، ولعله كان يعرف شيئا غير قليل عن الإسلام ، وأن العلاء بن

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٨٨ ، وصبح الأعشى ٦ / ٣٧٦ .

الحضرمى قد قام بقسط من التعريف والترشيد ، ولكن مجتمع مملكة البحرين كان كما هو واضح من كتاب المنذر إلى رسول الله فيه تعقيد فى الأجناس وتنوع فى العقائد ، مما جعله يكتب إلى النبى ﷺ طالبا النصح والتوجيه ، فكتب ﷺ إليه مانصه : (١) .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد : فإنى أذكِّرُك الله ـ عزّ وجلّ ـ فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا ، وإنى قد شفعتك فى قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب ، فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية »

لقد ظل المنذر محافظا على حسن إسلامه ، متمسكا بعقيدته ، ومات قبل فتنة الردة .

كتاب النبى إلى هوذة بن على :

هوذة بن على صاحب اليمامة ، وفارس بنى حنيفة وشاعرها ، وكان ذا صلة بكسرى ويزوره فى المهمات ، كما كان يلقب بصاحب التاج ؛ لخرزات كانت تنظم على رأسه تشبهاً بالملوك ، وهو من أهل « قرّان » وهم أفصح بنى حنيفة ، وقد أرسل النبى ﷺ إليه كتابا مع سليط بن عمرو العامرى ، هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى هوذة بن على ، سلام على من اتبع الهدى ، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخُفّ والحافر ، فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يديك »

يروى ابن قيم الجوزية بقية الخبر قائلا : (٢) .

---

(١) صبح الأعشى ٦/ ٣٧٦ ، والسيرة الحلبية ٢ / ٣٧٤ .

(٢) زاد المعاد ٣/ ٧٤ .

فلما قدم عليه سليط بكتاب رسول الله ﷺ مختوما ، أنزله وحياه واقترأ عليه الكتاب فرد ردا دون رد ، وكتب إلى النبى ﷺ : « ماأحسن ماتدعو إليه وأجمله ، والعرب تهاب مكانى ، فاجعل إلى بعض الأمر أتبعك » وأجاز سليطا بجائزة ، وكساه أثوابا من نسج هجر ، فقدم سليط بذلك كله على النبى ﷺ فأخبره ، وقرأ النبى ﷺ كتابه فقال : « **لو سألنى سبابة من الأرض مافعلت، باد وباد ما فى يديه** » .

فلما انصرف رسول الله ﷺ من الفتح ، جاءه جبريل ـ عليه السلام ـ بأن هوذة مات، فقال النبى ﷺ : « **أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبى يقتل بعدى** » فقال قائل : يارسول الله من يقتله ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « **أنت وأصحابك ، فكان كذلك**».

وذكر الواقدى : أن أركون دمشق ـ عظيم من عظماء النصارى ـ كان عند هوذة ، فسأله عن النبى ﷺ فقال : جاءنى كتابه يدعونى إلى الإسلام فلم أجبه ، قال الأركون : لِمَ لَمْ تجب ؟ قال : ضننت بدينى ، وأنا ملك قومى ، وإن تبعته لم أملك . قال : بلى والله إن تبعته ليملّكنك ، فإن الخيرة لك فى اتباعه ، وإنه للنبى العربى الذى بشر به عيسى بن مريم ، وإنه لمكتوب عندنا فى الإنجيل : محمد رسول الله .

كان هوذة بن على الحنفى هو أول رئيس أو ملك عربى تمرد على دعوة رسول الله له إلى الإسلام . وكانت نهايته حسبما تنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتشاء المقادير أن يخرج من ديار حنيفة بعد هلاك هوذة بقليل رجل يدعى النبوة ، واحتل فى مسيرة فجر الدعوة مكانا غير كريم ، إنه مسيلمة بن ثمامة بن كبير الحنفى الذى ادعى النبوة فجأة ، فلقّبه النبى بمسيلمة الكذاب .

تذكر الرواية أنه لما فتح النبى مكة جاء وفد من بنى حنيفة إلى النبى ومنهم مسيلمة ، إلا أنه تخلف خارج مكة مع الرجال وهو شيخ هرم ، وأعلن الوفد إسلامه والرضا بالإسلام دينا وبمحمد رسولا ، وذكروا للنبى مكان مسيلمة ، فأمر له بمثل ما أمر به لهم . فلما رجعوا إلى ديارهم إذ بمسيلمة يكتب كتابا إلى رسول الله هذا نصه :

« من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك ، أما بعد : فإنى قد

أشركت فى الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشا قوم يعتدون » [1] .

كانت هذه الفتنة غريبة فى زمانها ؛ لأنها اشتعلت فى الوقت الذى كانت فيه الجزيرة كلها قد أسلمت وجاءت وفودها متتابعة متلاحقة صوب رسول الله فى المدينة تعلن إسلامها ومبايعتها .

كتاب النبى إلى مسيلمة :

حمل كتاب مسيلمة إلى رسول الله رجلان ، فلما قرأه قال لهما : فما تقولان ؟ قالا : نقول كما قال . فقال ﷺ : « **أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما** » ثم كتب إلى مسيلمة :

« **بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب : السلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** »

كان ذلك فى آخر سنة عشر .

مالبثت الأيام فى تلك الفترة أن شهدت وفاة رسول الله ﷺ بانتقاله إلى الرفيق الأعلى قبل القضاء على فتنة مسيلمة ، فقام أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ بتكليف خالد بن الوليد بقيادة جيش كبير من الصحابة لتأديب مسيلمة فى ديار قومه بنى حنيفة ، ودارت عدة معارك بين الجيش المسلم وجيش المرتدين انتهت فى معركة « الجبيلة » بمقتل مسيلمة سنة ١٢ هـ .

كانت معركة مشئومة فقد استشهد من جيش المسلمين فيها ألف ومائتا رجل ، منهم أربعمائة وخمسون من صحابة رسول الله .

كتاب النبى إلى أكثم بن صيفى[2] :

إن جميع من وجّه رسول الله ﷺإليهم كتبه كانوا ملوكا مثل قيصر وكسرى والنجاشى

---

(١) السيرة لابن هشام ٤ / ٦٠٠ .

(٢) سرح العيون ، ص : ١٤ .

والمقوقس وجيفر وعبد ابنى الجلندى والمنذر بن ساوى العبدى والحارث الغسانى وهوذة ابن على . إن الرسول ﷺقد كان البادىء بالكتابة إليهم داعيا إياهم إلى الإسلام ، وغنى عن البيان أن الرسول ﷺكتب خطابه إلى مسيلمة ردا على رسالته الوقحة ، ولم يكن صاحب المبادرة بالكتابة إليه ، وأما أكثم بن صيفى فكان المرء الوحيد الذى بادأه رسول الله بالكتابة إليه رغم أنه لم يكن ملكا ، ولكنه كان فى نظر رسول الله ﷺأرفع قدرا من ملك ، وأسمى مكانة من رئيس ؛ لأنه كان حكيم العرب قاطبة فى الجاهلية ، وقد عُمِّرَ طويلا ولم تتخلّ عنه حكمته خلال عمره الطويل .

ونحن نرجح أن الذى حمل كتاب رسول الله إلى أكثم هو ولده حبيش ، ذلك أنه لما بلغه مبعث النبى ﷺ قال : احملونى إليه ، قالوا : لا والله وأنت سن من أسنان العرب ، قال : فليأته أحدكم فليسأله عن ربه وعما أمره به .

يقول أبوحاتم السجستانى فى كتابه « المعمرين » : فأتاه - يعنى رسول الله - ولدُه حبيش بن أكثم فقال : يا محمد ، بم بعثك ربك ؟ قال : « **بعثنى بأن أكسر الأصنام** » قال : بم أمرك ؟ قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

فانصرف حبيش إلى أبيه فأخبره بكلام رسول الله ﷺوقرأ عليه الآية الشريفة فجعل يرددها ويقول : إن هذا لرب كريم يأمر بمحاسن الأخلاق وينهى عن مساويها ، ثم جمع إليه بنى تميم وقام فيهم خطيبا يدعوهم إلى الإسلام ، فقال مالك بن نويرة : لقد خرف شيخكم ، فلا تتعرضوا للبلاء . فقال أكثم كلمته المشهورة : ويل للشجى من الخلى ، لهفى على أمر لم أدركه ولم يسبقنى ، ثم رحل إلى النبى فمات فى الطريق ، وبعث بإسلامه مع من كان أسلم معه . ويذكر شيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى مزيدا من تفاصيل الخبر ، وأن أكثم حين سمع الآية الكريمة من ولده وقام خطيبا ودعا قومه إلى اتباع محمد ﷺ وقال لهم : إن سفيان بن مجاشع سمى ابنه محمدا حبًّا فى الرجل ، وإن أسقف نجران كان تحدث بخبره وبعثه ، وقال : يا قوم ، أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها ، كونوا فى هذا الأمر رءوسا ولا تكونوا أذنابا ، وكونوا فيه أولا قبل

أن تكونوا آخرا . فقال مالك بن نويرة : شيخكم خرف ، فقال أكثم : ويل للشجىّ من الخلىّ ، والله ما عليك آسى ولكن على العامة . ثم نادى قومه فتبعه منهم مائة رجل ، منهم الأقرع بن حابس ، ورباح بن الربيع ، وصفوان بن أسيد ، حتى إذا كانوا دون المدينة بأربع ليال أيقن أكثم بالموت ، فقال لأصحابه : أقدموا على هذا الرجل فأعلموه أنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله ، وانظروا إن كان معه كتاب بإيضاح ما يقول فآمنوا به واتبعوه وآزروه . فقدم القوم على رسول الله فأسلموا (١).

لذلك لا تكون ثمت غرابة فى أن يكون كتاب رسول الله إليه متميزا عن غيره من كتبه التى بعث بها إلى الملوك والرؤساء . ففيه إجابة غير مباشرة لما كان يجرى فى فكر أكثم ويجول فى خاطره ، وهذا هو نص الكتاب : (٢).

« من محمد رسول الله إلى أكثم بن صيفى

سلام الله ، أحمد الله إليك ، و إن الله أمرنى أن أقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له أقولها وآمر الناس بقولها ، والخلق خلق الله ، والأمر أمر الله وكله إلى الله خلقهم وأماتهم وهو ينشرهم وإليه المصير ، آذنتكم بأذانة المرسلين ، ولتسألن عن النبأ العظيم ، ولتعلمن نبأه بعد حين » .

لقد سعى أكثم بن صيفى على الرغم من شيخوخته الواهنة إلى لقاء رسول الله والتشرف بصحبته والمثول بين يديه ، والمسافة بعيدة بين ديار بنى تميم ومدينة الرسول ، ولكن شيخوخته لم تسعفه فى تحمل أعباء الرحلة القاسية والسفر البعيد ، فلبى نداء ربه فى الطريق ، ولئن كان قد حرم الصحبة الشريفة مع سعيه إليها ، فإن الله ـ سبحانه ـ قد عوضه بمنة كبرى ، فنزلت فى شأنه الآية الكريمة من سورة النساء : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ صدق الله العظيم .

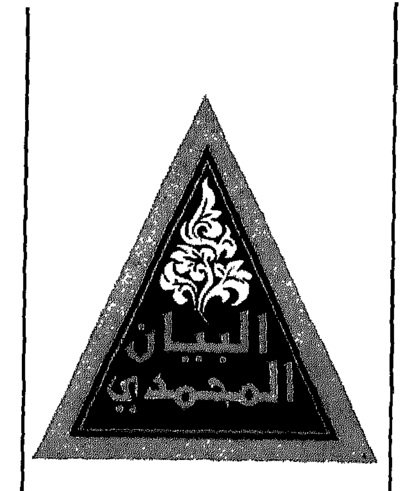
هكذا قال عبدالله بن عباس حين سئل عن هذه الآية الكريمة .

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ١ / ١١١ ، ١١٢ .

(٢) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ، وثيقة ١٤١ / ألف ـ ب ، ص : ٢٥٥ .





الفصل الثالث

كتب النبى مع الوفود العائدة



كتب النبى مع الوفود العائدة

يعرف عام سبعة للهجرة فى علم السيرة النبوية بعام الوفود ، ذلك أن قبائل العرب قد دخلت الإسلام زرافات ووحدانا ، وقد تسابقت ملوكهم ورؤساؤهم ونوابهم إلى المدينة المنورة يبايعون رسول الله ﷺ ويشرفون بمجالسته وصحبته والتزود من تعاليم الإسلام على يديه الشريفتين ، وكانت هذه الوفود يتسابق خطباؤها وشعراؤها ورؤساؤها فى مديح الرسول وتسجيل شمائله ، وكانوا إذا ما قضوا مدة بقائهم بالمدينة ، وعزموا على العودة إلى ديارهم طلبوا أن يزوّدهم رسول الله ﷺ بكتب إلى أقوامهم لتثبيت مكانتهم إن كانوا ملوكا ، ولحسن توجيه جماعاتهم إذا كانوا أعيانا ، وقد حفلت كتب السيرة بأخبار هذه الوفود فى وفرة وإفاضة بحيث شكلت خطبهم وقصائدهم ثروة أدبية إسلامية نفيسة وفريدة .

وقد توج رسول الله ناصية كل وفد بكتاب منه ، كان ـ ولا يزال ـ بمثابة تشريف لهذه القبيلة أو تلك ، يرفع من شأنها ويعلى من قدرها .

وإذا كنّا فى هذا الكتاب لا نستهدف الاستقصاء وإنما نعمد إلى جذب الانتباه إلى هذه الثروة المباركة من كتب رسول الله ﷺ فقد اخترنا عددا من هذه الكتب التى حملتها الوفود معها ، على سبيل التمثيل وليس على سبيل الانتقاء ، وإذا جاز لامرىء أن ينتقى من كلام الأدباء وخطب الخطباء وقصائد الشعراء ، فإنه لا يجوز له ذلك عندما يعرض لكلام رسول الله خطباً كانت أو كتباً أو عهوداً أو غير ذلك . ومن ثم فقد سقنا نماذج من كتب رسول الله مع الأفراد أو الوفود الآتى ذكرها : طهفة بن أبى زهير النهدى ، ذى المشعار الهمدانى ، وائل بن حُجْرٍ الحضرمى ، قَطَن بن حارثة العُلَيْمى ، مالك بن مُرارة الرهاوىّ ، وفد بارق ، وفود خثعم ، أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل .

كتاب الرسول إلى بنى نهد مع طهفة :

طهفة بن زهير النهدى زعيم بنى نهد ، وهم قبيلة من تهامة اليمن ، وقد وفد على رسول الله ﷺ بعد أن أسلم ومعه وفد من قومه النهديين فوقف بين يدى رسول الله وألقى خطبة نيابة عن قومه فى لغة وإن تكن سليمة البناء إلا أنها تطرق سمع الغريب عن جنوب تهامة كأنها لغة أخرى ؛ لما تشتمل عليه من ألفاظ غريبة ومسميات غير معروفة ولا مأنوسة . قال طهفة طبقا لما رواه الصحابيان الجليلان عمران بن حصين ، وحذيفة بن اليمان :

أتيناك يا رسول الله ، من غَوْرَىْ تِهامة ، بأكوار المَيْس ، ترتمى بنا العيس ، نَسْتَحْلب الصَّبير ، ونَسْتَخْلِب الخَبير ، ونَسْتَعْضِد البَرِير ، ونَسْتخِيل الرِّهام ، ونَسْتحيل أو نستجيل الجَهام ، فى أرض غائلة النِّطا ، غليظة المَوْطا ، قد نَشِف المُدْهُنُ ويَبِسَ الجُعْثُنُ وسقط الأُمْلوجُ ، ومات العُسْلُوجُ ، وهلك الهَدِىُّ ، ومات الوَدِىُّ ، برئنا يا رسول الله من الوَثَنِ والعَنَن ، وما يُحدث الزمَن ، لنا دعوةُ السلام وشريعة الإسلام ، ما طَما البَحْرُ وقام تعارُ ، ولنا نَعَمٌ هَمَلٌ أَغْفالٌ ما تَبضُّ بِبِلال ، ووَقِيرٌ كثيرُ الرَّسَلِ قليلُ الرِّسْل ، أصابتْها سَنَةٌ حمراءُ مُؤْزِلَةٌ ، ليس لها عَلَلٌ ولا نَهَلٌ (*).

● **شرح كلمات طهفة :**

الطهفة : من أسماء الأشجار مثل طلحة ، وهى أعالى الصِّلِّيَان ، وهو نبت تسمن عليه الإبل ، والطهف : الذُّرة ، واحدتها : طهفة بفتح الطاء أو كسرها .

الغور : الأرض المنخفضة ، وهو ضد النجد .

تهامة : اسم لمكة وما حولها من الأغوار .

الأكوار : جمع الكور ـ بالضم ـ وهو رحل البعير ـ كالسرج للفرس .

الميس : ـ بسكون الياء ـ شجر صلب أملس تتخذ منه الرحال . وقيل أيضا : الميس هو الرحل .

ترتمى بنا : تسرع .

العيس : الإبل البيض التى فى بياضها ظلمة خفية ، واحدتها : عيساء .

الصَّبير : سحاب أبيض متراكب ، وهو أقل السحاب مطراً ، واستحلاب الصبير يعنى استدراره .

نستخلب : من الخلب ، وهو القطع والشّق .

الخبير : النبات .

نستعضد : من العضد ـ بسكون الضاد ـ وهو القطع ، وبه سمى المعضد وهو المنجل .

البرير : ثمر الأراك . أراد أنهم يجنونه من شجره ويأكلونه للجدب والقحط .

نستخيل : من خِلْتُه أخاله : إذا ظننته ، وتخيّلت السحابة : إذا تهيأت كأنها تمطر .

الجهام : الغيم الذى لا ماء فيه .

فقال رسول الله ﷺ :

« اللهم بارِكْ لهم فى محضها ومَخْضِهَا ، ومَذْقِها وفِرْقِها ، وابعَثْ راعيَهَا فى الدَّثْر بيانع الثَّمَر ، وافجُرْ لهم الثَّمدَ ، وبارك لهم فى المال والولد ، من أقام الصلاة كان مسلما ، ومن آتى الزكاة كان محسناً ، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً . لكم يا بنى نَهْد ودائعُ الشِّرك ووضائعُ المُلْك ، لا نُلْطِط فى الزكاة ، ولا نُلْحِد فى الحياة ، ولا نتثاقل عن الصلاة ! » .

لقد استمع رسول الله ﷺ إلى خطاب طهفة برحابة صدر وابتسامة ثغر ، ولم يقف

= الغائلة : المهلكة ، من غاله يغوله : إذا أهلكه .

النِّطاء : البعد ، والنطىء : البعيد ، أى أنها فلاة يُهلك بُعْدُها من سلكها ، ويروى : غائلة المنطا ـ بفتح الميم ـ وهو مفعل منه .

الموطأ : موضع القدم فى المشى .

المدهن : ـ بضم الميم ـ نقرة واسعة فى الجبل أو الصخر يجتمع فيها الماء .

الجعثن : أصل النبات .

الأملوج : واحد الأماليج ، وهو ورق كأنه عيدان ، وقيل : هو نوى المقل ، والمقل هو ثمر الدوم .

العسلوج : الغصن الناعم الذى يتشعب ورقه .

الهدىّ : الهَدْىُ ، وهو الذى يهدى من الإبل إلى الكعبة للنحر .

الودىّ : الفسيل الصغير من النخل ، واحدتها : ودية .

العنن : الاعتراض والاختلاف والباطل واللجاج .

طما البحر : ارتفع وعلا .

تِعَارُ : ـ بكسر التاء ـ جبل فى بلاد قيس من أعمال المدينة لا ينبت شيئا .

النَّعم :ـ بفتح النون المشددة ـ اسم جنس يقع على الإبل والبقر والغنم ـ وأكثر ما يستعمل فى الإبل .

الهمل :ـ بفتح الهاء والميم المهملة ـ التى لا رعاة فيها ولا من يصلحها ويهديها .

الأغفال : جمع غفل ـ بالضم ـ وهى النَّعم التى لا سمة عليها . وقيل : الغفل الذى لا يرجى لا خيره ولا شره ، وقيل : أراد بها التى لا ألبان لها .

بضّ يبضّ : إذا قطر منه اللبن .

البلال : ـ بالكسر والفتح ـ النداوة واليسير من الماء قدر ما يبل الشىء .

الوقير : الغنم الكثيرة .

الرسل : ـ بفتح الراء والسين ـ ما يرسل من الماشية إلى المرعى ، وجمعه : أرسال .

والرسل : ـ بكسر الراء ـ اللبن .

السنة الحمراء : الشديدة الجدب ، ويروى سُنَيَّةٌ بالتصغير للتعظيم .

المؤزلة : ـ بكسر الزاى الخفيفة ـ الضيقة الشديدة .

الأمر برسول الله عند تزويد طهفة بكتاب إلى قومه النهديين ، ولكنه دعا لطهفة وقومه بلسان قبيلة بنى نهد مع استعمال ألفاظهم ونهج أسلوبهم ، وقدقصد رسول الله بذلك أن يجاملهم ، ذلك أن حديث المرء بلغة ضيفه يحسب من قبيل التحية وباب التكريم ، هذا فضلا عن قدرة الرسول ﷺ على أن يتحدث لغات العرب جميعا بأفصح مما يتكلمها أصحابها .

أما وقد دعا رسول الله لنهد على النحو النبيل الذى سلف نصه ، فإنه يزيد القوم تكريما ، ويحمل طهفة كتابا إلى بنى قومه ، فيه نصح لهم وحسن توجيه ، بنفس الأسلوب وعلى نفس النهج ، يقول فيه : (١)

« من محمد رسول الله إلى بنى نَهْد بن زيد : السلام على مَن آمن بالله ورسوله ، لكم يابنى نَهْد ، فى الوظيفة الفَرِيضَةُ ، ولكم العارضُ والفَرِيشُ ، وذُو العنان الرَّكُوبُ ، والفَلُوُّ الضَّبيسُ ، لا يُمْنَع سَرْحُكُمْ ، ولا يُعْضَدُ طَلْحُكُم ، ولا يُحْبَسُ دِرُّكُم ، ولا يُوكَلُ أكْلُكُم ، ما لم تُضْمِرُوا الإماق وتأكلوا الرِّباق ، مَن أقرَّ بها فى هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاءُ بالعهد ، والذِّمَّةُ ، ومَن أبَى فعليه الرَّبْوَةُ » .

ويبدو أن طهفة كان من أوائل القادمين على رسول الله ﷺ فى عام الوفود ؛ لأن على ابن أبى طالب ـ وكان حاضرا الحوار ـ أخذه التعجب فقال : يا رسول الله نراك تكلم

---

(١) منال الطالب لمجد الدين بن الأثير ١ / ٣٥ وما بعدها ، والعقد الفريد ٢ / ٥٣ وما بعدها . وقد أخرج الحديث أبو سليمان حمد بن محمد الخطّابى ، والزمخشرى فى الفائق ٢ / ٢٢٧ وخرجه ابن عبد البر فى الاستيعاب فى طهفة ص ٧٧٤ ، وابن حجر فى الإصابة ٣ / ٢٩٧ فى طهيّة .

معانى دعاء رسول الله وكتابه :

المحض : خالص اللبن . والمخض : ما مخض من اللبن وأخذ زبده . والمذق : اللبن الممزوج بالماء . الدثر : المال الكثير ، وقيل : الخصب والنبات الكثير . الثمد : الماء القليل ، ودائع الشرك : المراد بها العهود والمواثيق التى كانت بينهم وبين من جاورهم من الكفار فى المهادنة . الوضائع : جمع وضيعة ، وهى ما يلزم الناس فى أموالهم من الصدقة . لا نلطط : يعنى لا نمنع .

الوظيفة : النصاب فى الزكاة . والفريضة : الهرمة المسنة ، أى : لا نأخذ فى الصدقات هذا الصنف . الفارض : المريضة . الفريش من الإبل : الحديثة العهد بالنتاج . الركوب : الفرس المذلل للركوب . الفلو : المهر . الضبيس : الصعب العسر الركوب . السرح : ما سرح من المواشى . يعضد : يقطع . الطلح : الشجر لا ثمر له . الدر : اللبن . الإماق : الغيظ ، وقيل : إضمار الكفر . الرباق : جمع ربق : الحبل يجعل فيه عرى وتشد به البهيمة . تأكلوا الرباق : أى تنقضوا العهد . الربوة : الزيادة

وفود العرب بما لا نفهم أكثره ونحن بنو أب واحد ، فقال النبى : « **أدبنى ربى فأحسن تأديبى وربيت فى بنى سعد** » .

حديث ذى المشعار الهمدانى وكتاب رسول الله لقومه :

قدم على رسول الله ﷺ حين رجع من تبوك وفد همدان ، يضم فريقا من رءوسهم ، منهم : ذو المشعار مالك بن نَمَط ، ومالك بن أيفع ، وضِمام بن مالك السَّلمانى وعَمِيرة بن مالك الخارفى ، فلقوا رسول الله ﷺ وعليهم مقطعات الحبرات والعمائم العدنية - طبقا لرواية ابن هشام - برجال الميس على المَهْرِيَّةِ والأرحبية ، وذو المشعار ورجل آخر يرتجزان :

همدانُ خيرٌ سُوقةً وأقيالْ ... ليس لها فى العالمين أمثالْ

محلها الهضبُ ومنها الأبطال ... لها إطاباتٌ بها وآكالْ

ويقول الآخر :

إليكَ جاوزْنَ سوادَ الريفِ ... فى هَبَوَاتِ الصَّيْفِ والخريفِ

مُخَطَّماتٍ بحبالِ اللِّيفِ (*)

عند ذلك قام ذو المشعار بين يدى رسول الله ﷺ فقال :

يا رسول الله نَصِيَّة من هَمْدَان من كل حاضرٍ وباد ، أَتَوْكَ على قُلُص نَوَاج مُتَّصِلة بحبائل الإسلام ، لا تأْخذهم فى الله لَوْمَةُ لائم من مِخْلافِ خارف ، وَيَامَ وشاكر ، أهل السَّوَاد والْقَوْد ، أجابوا دَعْوَةَ الرسول ، وفارقوا الآلهات والأنْصاب ، عَهْدُهُمْ لا يُنْقَض عن سُنَّة ماحل ، ولا سوداءُ عَنْقَفِير ما أقام لَعْلَع ، وما جَرَى الْيَعْفُور بِصَيْلَع » .

(*) معانى المفردات :

المقطعات : ثياب مخيطة . الحبرات : برود يمانية . الميس : خشب تصنع منه الرحال التى تكون على ظهور الإبل . المهرية : إبل نجيبة تنسب إلى قبيلة مهرة اليمنية . الأرحبية : إبل تنسب إلى قبيلة أرحب اليمنية ، وهى بطن من همدان ، وقيل : أرحب فحل تنسب إليه النجائب .

السوقة : من هم دون الملوك من الناس . الأقيال : الملوك ، ومفردها قَيْلٌ - بفتح وسكون - . الإطابات : الأموال الطيبة . الآكال : ما يأخذه الملك من رعيته وظيفة لهم عليه . السواد : معناه هنا القرى الكثيرة ، والشجر والنخل . الريف : الأرض التى تقرب من المياه والأنهار . الهبوات : مفردها هبوة ، وهى الغبار . مخطمات : أى أن لها خطماً ، وهى الحبال تشد فى رءوس الإبل على أنوفها .

فكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لِمِخْلَاف خارف ، وأهل جِنَاب الهضْب ، وَحِقَاف الرَّمْل ، مع وافدها ذى الْمِشْعَار مالك بن نَمَط ، وَمَنْ أَسْلَمَ من قَوْمِهِ ، أن لهم فِرَاعَهَا ووِهَاطَها وعَزازَهَا ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، يأْكلون علافها وَيَرْعَوْنَ عَفَاءهَا [لنا من دِفْئِهم وصِرَامهم ما سَلَّمُوا بالميثاق والأمانة ، ولهم من الصَّدقة الثِّلْب والنَّاب والفَصِيل والْفَارِض وَالدَّاجِن والْكَبْش الْحَوَرِىّ وعليهم فيها الصَّالِغُ والْقَارِح ، لكم بذلك عَهْدُ الله وذِمَام رسوله ، وشاهِدُكُم المهاجرون والأنصار » (*).

لعلنا نلاحظ هنا مثلما لاحظنا فى الكتاب السابق أن الرسول ﷺ قد خاطب القوم بلغتهم التى يفهمونها مع كونها مشحونة بالغريب من الألفاظ ، وغير المأنوس من

معانى مفردات حديث ذى المشعار :

النَّصية : خيار القوم . القلص : مفردها قلوص ، هى الإبل الفتية ، نواج : مسرعة . المخلاف : المدينة بلغة اليمن . خارف ويام وشاكر : قبائل يمنية . السواد ـ بفتح السين المشددة ـ يعنى الإبل . والقود : الخيل . الأنصاب : حجارة كانوا يذبحون لها ، لعلع : اسم جبل . اليعفور : ولد الظبية . صيلع : اسم موضع باليمن .

(*) معانى كتاب النبى ﷺ :

مخلاف فى اليمن كالرستاق فى العراق . خارف : قبيلة يمنية . يام : بطن من همدان . شاكر : بطن من كهلان . جناب ـ بكسر الجيم ـ اسم موضع . الفراع : جمع فرعة ، وهو ما ارتفع من الأرض . الوهاط : ما اطمأن من الأرض . العزاز : ما صلب من الأرض . العلاف ـ بكسر العين ـ جمع علف كجبل ، وهو ما تأكله الدواب من نبات الأرض .

العفاء : العافى ، وهو ما ليس لأحد فيه ملك .

الدفء : نتاج الإبل وما ينتفع به منها ؛ سمى دفئاً لأنه يتخذ من أو بارها ما يستدفأ به .

الصرام : النخل ، وأصله : قطع الثمرة .

الثلب من ذكور الإبل : الذى هرم وتكسرت أسنانه .

الناب : المسنة من إناثها .

الفصيل من أولاد الإبل : الذى فصل عن أمه من الرضاع .

الفارض : المسن من الإبل .

الداجن : الشاة التى يعلفها الناس فى منازلهم .

الكبش الحورى : منسوب إلى الحور ، وهى جلود تتخذ من جلود الضأن ، وقيل : هو ما دبغ من الجلود بغير القرظ .

الصالغ ـ بالصاد المهملة والغين المعجمة ـ وهو من البقر والغنم الذى كمل وانتهى ، ويكون ذلك فى السنة السادسة . ويقال بالسين بدل الصاد .

القارح من الخيل : الذى دخل فى السنة الخامسة ، وجمعه قرح .

طلائح : جمع طليحة أى : معيية ، من طلح البعير ـ كمنع ـ طلحاً وطلاحة : أعيا .

الكلمات عند غيرهم ، وقد جرى هذا الغريب فى أسلوب رسول الله ﷺ فى يسر وانثيال وكأنه واحد منهم ، مع كمال البلاغة وتمام الإحاطة وشمول البيان .

وكان الرسول سخيًّا معهم ، مغدقاً عليهم حين أعطاهم عهدا بالسيادة على أرضهم ما بقى إسلامهم حسنا ، ولا يحسن إسلامهم إلا بإقام الصلاة التى هى عماد الدين ، وإيتاء الزكاة التى هى الركيزة الأساسية فى نظام التكافل الذى انفرد به الإسلام ، فضلا عن كونها الركن الثانى فى العبادات ، والركن الثالث فى بنية الإسلام ، ولعل أبا بكر - رضى الله عنه - قد اعتمد فى حربه المرتدين على هذا النص من منطق رسول الله ، هذا وقد جعل رسول الله ﷺ العهد لله ، والذمة له ، والشهادة للمهاجرين والأنصار تكريما لهم ورفعة لشأنهم .

هذا الموقف الجليل فى حضرة رسول الله ﷺ قد استولى على مجامع ذى المشعار ، فجاشت عاطفته ، وفاضت شاعريته ، فنطق بهذه الأبيات النفيسة (*):

ذَكَرْتُ رَسُولَ اللهِ فِى فَحْمَةِ الدُّجَى ... وَنَحْنُ بِأَعْلَى رَحْرَحَانَ وَصَلْدَدِ

وَهُنَّ بِنَا خُوصٌ طَلَائِحُ تَغْتَلِى ... بِرُكْبَانِهَا فِى لَاحِبٍ مُتَمَدِّدِ

عَلَى كُلِّ فَتْلَاءِ الذِّرَاعَيْنِ جَسْرَةٍ ... تَمُرُّ بِنَا مَرَّ الْهِجَفِّ الْخَفَيْدَدِ

حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقِصَاتِ إلَى مِنىً ... صَوَادِرَ بِالرُّكْبَانِ مِنْ هَضْبِ قَرْدَدِ

بِأَنَّ رَسُولَ اللهِ فِينَا مُصَدَّقٌ ... رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِى الْعَرْشِ مُهْتَدِ

فَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا ... أَبَرَّ وأَوفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدِ

وَأَعْطَى إِذَا مَا طَالِبُ الْعُرْفِ جَاءَهُ ... وَأَمْضَى بِحَدِّ الْمَشْرَفِيِّ الْمُهَنَّدِ

(*) معانى ألفاظ الأبيات :

فحمة الدجى : سواد ظلمة الليل . رحرحان : جبل قرب عكاظ . صلدد : موضع باليمن . خوص : جمع خوصاء ، يعنى غائرة العيون . قلائص : جمع قلوص ، وهى الناقة الشابة . تغتلى : من الاغتلاء ، وهو الإسراع فى السير . اللاحب واللحب : الطريق الواضح . الفتل : تباعد ما بين المرفقين عن جنبى البعير . الجسر : العظيم من الإبل ، ومؤنثه : جسرة . الهجف : الجافى الثقيل . الخفيدد : السريع من النعام . الراقصات : الإبل ترقص فى سيرها ، وهو ضرب من المشى . صوادر : رواجع . قردد : المكان الغليظ المرتفع . العرف : المعروف . المشرفى : سيوف نسبت إلى مشارف ، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف . المهند : السيف المصنوع من حديد الهند .

كتب الرسول حين قدم عليه وائل بن حُجْرِ الحضرمى :

إن وائل بن حجر واحد من أبناء الملوك الذين وفدوا على رسول الله ﷺ فى المدينة فأكرمه واحتفى به وأحسن استقباله طبقاً لما أوردناه فى الفصل الثالث من الباب الأول ، وكان الرسول ﷺ على الرغم من سجيته السمحة فى لقاء الوافدين عليه ، فقد خصّ وائلا برعاية جعلته فى مقدمة الوافدين مكانة وحسن استقبال ، خصه دون غيره بثلاثة كتب ـ وليس كتابا واحدا ـ حملها معه فى عودته إلى موطنه حضرموت ، وخصَّه بأن بشر الصحابة بمقدمه قبل دخوله على رسول الله ومثوله بين يديه بفترة من الزمان .

إن مجد الدين أبا السعادات بن الأثير يروى خبر مقدم وائل بن حُجْر على رسول الله ﷺ على هذا النحو (١) :

وفد على النبى ﷺ بالمدينة ، وقد كان بشَّر به أصحابه قبلَ قدومه ، فقال : «**يأتيكم وائل (*) بن حُجْر من أرضٍ بعيدة ، من حضْرَمَوْتَ ، طائعاً راغباً فى الله عَزَّ وجَلّ ، وفى رسوله ، بقيَّةُ أبناء الملوك**» فلما دخل عليه رحَّب به وأدناه من نفسه ، وبسط له رداءه ، فأجلسه عليه ، وقال : « **اللهمّ بارك فى وائل وولده وولد ولدِه** » واستعمله على الأقيال من حَضْرَمَوْتَ ، وكتب معه ثلاثة كتب ، كتابٌ خالِصٌ له على قومه ، وكتابٌ له ولأهل بيته ، وكتابٌ له ولقومه :

---

(١) الفائق للزمخشري ١/ ١٤ ، والإصابة ٣/ ٦٢٨ والطبقات الكبرى ١/ ٣٤٩ ومنال الطالب ١/ ٧٣ .

(*) المعانى :

وائل : اسم فاعل من وَأل يَئِلُ وَألاً : إذا لجأ إلى شىء ، والموْئِلُ : المَلْجأ .

وكان وائل قَيْلاً من أقيال حَضرْموتَ ، ومن أبناء ملوكها .

وحُجْرٌ ـ بضم الحاء ـ اسمٌ معروف ، تقول العربُ عند الأمر تنكره : حُجْراً له ، أى : دَفْعاً ، وهو استعاذةٌ من الأمر.

وأبو أُمَّية ، هكذا يروى بالرفع فى حال الجرّ ؛ لأنه اشتهر بذلك وعُرفَ به ، فجرى مَجْرى المثل ، وهذا المُهاجرُ هو صحابىٌّ من بنى المغيرة المخزومىّ أخو أمّ سلمة . بعثه رسولُ الله ﷺ إلى الحارث بن عبد كُلال الحِمْيرىّ ملكِ اليمن ، واستعمله على صنعاءَ وغيرها ، ثم ولّاه أبو بكر بعدَه اليمنَ .

والأقْيالُ : ملوك اليمن ، دون الملك الأعظم ، يكون كلُّ واحد منهم مَلِكاً على قومه ومِخْلافه ، وهو جمعُ قَيْل .

ويُسْتَسْعَى : أى يستعمل على الصَّدَقات ، من الساعى ، وهو عامل الصدقة الذى يأخذها من أربابها .

وَيَترفَّل : يَتَسَوَّدُ ويترأَّسُ ، يقال : رفَّلْتُه فترفَّلَ .

ففي الكتاب الأول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المهاجر بن أبو أمية ، إنّ وائلاً يُسْتَسْعَى وَيَتَرَفَّل على الأقوال حيث كانوا مِن حَضْرَمَوْت .

وأما الكتاب الثانى فهو لوائل ولأهل بيته ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المهاجر بن أبى أمية ، لأبناء مَعْشَر وأبناء ضَمْعَج ، أقوال شَبْوَةَ ، بما كان لهم فيها من ملكٍ وعُمرانٍ ، ومَزاهِرَ وعُرْمانٍ ، ومِلْحٍ ومَحْجَرٍ ، وما كان لهم من مالٍ بحَضْرَمَوْتَ ، أعلاها وأسفلِها ، من الجِوار والذِّمَّة ، الله لهم جارٌ والمؤمنون أنصارٌ إن كانوا صادقين » (*) .

ومن الوضوح بمكان أن هذا الكتاب الثانى يكاد يخلو من الألفاظ غير المأنوسة ، اللهم إلا أسماء الأقوام والقبائل والأمكنة ، وفيما عدا ذلك فالألفاظ مأنوسة ومفهومة .

والكتاب الذى أملاه رسول الله ﷺ موجه إلى وائل وإلى قومه جميعا من ملوك ومن هم فى مقام الملوك وإلى أهل حضرموت بصفة عامة ، وفيه الفرائض والتكاليف والأحكام ، وقد أجرى رسول الله ﷺ أسلوب الكتاب على سجية لغة القوم من أهل حضرموت ، وهى لغة غير معروفة ولا مأنوسة عند أهل الحجاز ، ولم تشر الأخبار من قريب أو بعيد أن النبى ﷺ قد زار حضرموت أو عايش الحضارمة فى مكة أو المدينة . وهو مع ذلك يتحدث لغتهم ويستعمل مصطلحاتهم ويجرى الخطاب بلغتهم فى يسر وانطلاق وكأنه عاش حياته بينهم ؛ فيستبدل النون بالعين ، والميم بالنون ، وغير ذلك مما درج عليه

● **معانى : الكتاب الثانى :**

مَعْشَرٌ وضَمْعَجُ : قبيلتان من حمْيَر وأهلِ حَضْرَمَوْت ، وهما من آباءِ وائل بن حُجْرٍ وقومه .

وضَمْعَجُ - بالضاد المعجمة والجيم - : هو اسم الناقة الضَّخمة التامَّة .

أقوال : لغة فى أقيال .

وشَبْوَةُ : اسم الناحية التى كانوا بها من حضرموت .

والعُمْران : المعمور من الأرض .

والمَزاهِر : الرِّياض ، جمع مَزْهَر ؛ لأنها تجمع أصنافَ الزَّهَر والنبات .

والعُرْمان : المزارع - وقيل : الأكَرَةُ - وهم حراث الأرض ، واحدها : أعْرَمُ ، وقيل : عَرِيمٌ .

ومَحْجَرٌ : قرية معروفة بحضرموت ، وقيل : هو مَحْجَنٌ ، بالنون : موضعٌ معروف بها .

والجِوار والذِّمَّة : الأمان والعهد , يقال : أجَرْتُ فلاناً : إذا منَعْتَ من ظُلمه ونصَرْتَه ، وأجاره الله من العذاب : أى أنقذه . والاسم : الجوار .

أهل حضرموت فى كلامهم فى ذلك الزمان ، وهذا هو نص الكتاب الثالث :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى وائل بن حُجْرٍ ، والأقْيال العباهلة ، والأرْواع المشابيب ، من أهل حَضْرَمَوْتَ ، بإقام الصلاة المفروضة ، وأداء الزكاة المعلومة ، عند مَحِلِّها ، على التِّيعَة شاةٌ ، لا مُقْوَرَّةُ الألْياط ، ولا ضِناك ، والتِّيمَةُ لصاحبها ، وأَنْطُوا الثَّبَجَةَ ، وفى السُّيُوب الخُمْسُ ، لا خِلاطَ ولا وِراطَ ولا شِناقَ ، ولا جَلَبَ ولا جَنَبَ ولا شِغارَ فى الإسلام ، ومن أَجْبا فقد أَرْبَى ، وكلُّ مُسْكِرٍ حرامٌ ، ومن زَنا مِمْ بِكْرٍ فاصْقَعُوه مائة ، واستَوْفِضُوه عاماً ، ومن زنا مِمْ ثَيِّبٍ فَضرِّجُوه بالأضامِيم ، لا تَوْصِيمَ فى الدِّين ، ولا غُمَّةَ فى فرائض الله ، لكل عشرة من السَّرايا ما يَحمل القِرابُ من التَّمر . ووائلُ بن حُجْرٍ يَتَرَفَّلُ على الأقيال ، أميرٌ أمَّره رسولُ الله ، فاسمعوا وأطيعوا »(*).

وجاء فى الخبر أن وائلا طلب من رسول الله ﷺ أن يقطعه أرضا فأقطعه إياها ،

● **معانى الكتاب الثالث :**

والعَباهلَةُ : الذين أقِرُّوا على ملكهم ، لا يُزالُون عنه ولا يُمْنَعُونَ منه ، من عَبْهَلَهُ : إذا أهملَهُ ، والأصل عَباهلُ ، كصَياقل ، ويجوز أن يكون الأصل عَباهِيل .

والأرْواعُ : الذين يَرُوعُون الناسَ بحُسْن المنظر وجمال الهيئة والشَّارة ، واحدها : رائعٌ كشاهد وأشْهاد .

والمَشابِيبُ : الزُّهرُ المُسْتنِيرُو الوُجوهِ ، الذين كأنما شُبَّتْ ألوانُهم : أى أُوقِدَتْ ، واحدهم : مَشْبُوبٌ ، يقال : شبَّ النارَ يشُبها : إذا أوقدها ، ورجلٌ مَشْبوبٌ : إذا كان أبيضَ الوجه ، أسودَ الشَّعر ، حَسَنَ المَنْظر .

ومَحِلُّ الزكاة ـ بكسر الحاء ـ : الوقت الذى تجب فيه باستكمال الحول .

التِّيعةُ : الأربعون من الغنم ، وقيل : هى اسمٌ لأدْنى ما تجب فيه الزكاة من الإبل والغنم وغيرها ، كأنها الجملةُ التى للسُّعاة عليها سبيل ، من تاعَ إليه يَتِيعُ : إذا ذهب إليه .

المُقْوَرَّةُ . المُسْتَرخِيةُ الجُلود بهُزالها ، وقد اقْوَرَّ الجِلدُ يَقْوَرُّ اقْوِراراً ، من قولهم : دارٌ قَوْراءُ ، أى : واسعة ، لأنه يَفْضُل حينئذ عن الجِسم ويتَّسعُ .

الِّلياطُ : جمع الِّليط ، وهو القِشْرُ اللاصق بالشَّجر والقَصَب ، من لاطَ حُبُّه بقلبى .

الضِّناك : المكتنزة اللحم ، من الضَّنْكِ : الضِّيقِ ؛ لأن الاكتنازَ تَضامٌّ وتَضايُقٌ .

أى : لا يؤخذ منهم الرَّدىء ولا النَّفيسُ ، إنما يؤخذ الوَسَطُ .

التِّيمة : الشاة الزائدة على التِّيعة ، حتى تبلُغَ الفريضةَ الأخرى . وقيل : هى الشاة المربوطة المعلوفة فى البيت للاحتلاب ، وأيَّتُهما كانت فهى المحبوسة ، إما عن الصدقة ، وإمَّا عن الرَّعْى .

الإنطاء : الإعطاءُ ، لغة يمانية . يقال : أَنْطَى يُنْطى ، كأعطى يُعطى .

والثَّبَجَة : الوسَط ، والأصل : الثَّبج . أى : أعطُوا المتوسطة بين الخِيار والرُّذال .

. . . .

= والسُّيُوب : الرِّكاز ، وهو المال المدفون فى الجاهلية ، أو المَعدِن ، جمع سَيْب ، وهو العطاء ، لأنه من فضل الله على مَن أصابه . وقيل : السُّيُوب : عُروقٌ من الذَّهب والفِضّة ، تسِيبُ فى المَعدِن ، أى : تجرى فيه .

والخُمسُ : سهمٌ من خمسة أسهم ، وتُضمّ ميمُه وتُسكَّن .

والخِلاطُ : مصدر خالَطَه يخالطه مُخالَطةً وخِلاطاً ، والمراد به أن يَخلِطَ الرجلُ مالَه بمال غيره ليمنعَ حقَّ الله منه ، أو يَبْخسَ الساعىَ فيما يجب له ، وهو معنى قوله فى الحديث الشريف : « لا يُجْمَعُ بين مُتفرِّقٍ ولا يُفرَّق بين مُجتمع خَشْيَةَ الصَّدقةِ » .

أما الجمعُ بين المتفرق ، وهو الخِلاط : فمثل أن يكون ثلاثة نَفَر ، لكلّ واحدٍ منهم أربعون شاةً ، وقد وجب على كلِّ واحدٍ منهم شاة ، فإذا أظلَّهم السَّاعى جمعوها لئلاّ يكونَ عليهم فيها إلا شاةٌ واحدةٌ .

وأما تفريقُ المجتمع : فأن يكون شريكان ولكلٍّ واحدٍ منهما مائة شاةٍ وشاةٌ ، فيكون عليهما فيها ثلاثُ شِياهٍ ، فإذا أظلَّهم السَّاعي فرّقا غنمهما ، فلم يكن على كلّ واحدٍ منهما إلا شاةٌ واحدة ، فَنُهُوا عن ذلك .

والوِراط : أن يجعل غنَمه أو إبلَه فى وَهْدةٍ من الأرض لتَخفَى على المُصَدِّق ، مأخوذٌ من الوَرْطة ، وهى الهُوَّةُ العميقة فى الأرض ، يقال : تورَّطت الغَنَمُ : إذا وقعتْ فى الوَرْطة ، ثم استُعير للناس إذا وقعوا فى بَلِيَّةٍ يَعْسُر المَخرجُ منها .

وقيل : الوِراطُ أن يُغَيِّبَ إبلَه أو غَنمه فى إبل غيره أو غنمِه ، لئلاّ يراها المُصدِّق .

والشِّناق : المشاركة فى الشَّنَق ، وهو ما بين الفريضتين من كلّ ما تجب فيه الزكاة ، كالزيادة على الخَمْس من الإبل إلى العَشر ، والزيادة على العَشر إلى الخمسَ عَشرة . أى : لا يُؤخَذُ فى الزيادة على الفريضة زكاةٌ ، إلى أن تبلغَ الفريضة الأخرى . وإنما سُمِّىَ شَنَقاً ، لأنه ليس بفريضةٍ تامَّةٍ ، فكأنه مشنوقٌ ، أى : مكفوفٌ عن التمام ، من شَنَقْتُ الناقة بزمامها : إذا كَفَفْتَهَا .

فمعنى قوله : « لا شِناقَ » أى : لا يَشْنِقُ الرجلُ غَنمه أو إبلَه إلى مال غيره ، ليبطِلَ الصدقة ، وهو قريبٌ من الخِلاط .

تقول العربُ إذا وجب على الرجل شاةٌ فى خمس من الإبل : قد أشْنَق ، أى وجب شَنَقٌ .

والجَلَبُ : يكون فى شيئين ، أحدهما فى الزكاة ، وهو أن يَقْدَمَ المُصدِّقُ على أهل الزكاة ، فينزلَ موضعاً من أرضهم ، ثم يرسلَ إلى المياه مَن يجلبُ إليه الأموال ، ويجمعُها عنده ليأخذَ صدقتها ، فَنُهى عن ذلك ، وأمِر أن تُؤخذَ صدقاتُهم على مِياههم ، يقال : جلب الشيءَ يَجْلِبُه ويَجلُبُه ، جَلْباً وجَلَباً .

والثانى : يكون فى السِّباق ، وهو أن يَتْبَع الرجلُ فرسَه فيزجُرَه ، ويُجلِبَ عليه ، حثًّا له على الجرى ، فنُهى عن ذلك .

يقال : جَلَب فرسه يَجْلُب جَلَباً : إذا صاح به مِن خَلْفِه ، واستحثه ، وأجلَبَ عليه مثلُه .

والجَنَبُ : يكون فى الزكاة كالجَلَب ، وهو أن يأمرَ المُصدِّقُ بالأموال أن تُجنَب إليه ليأخذَ صدقَتها ، يقال : جَنَبْتُ الدابّة جَنَباً : إذا قُدْتها إلى جَنْبك . وقيل : هو أن يُجْنِبَ ربُّ المال بمالِهِ ، أى : يُبعدَ عن موضعه ، حتى يحتاجَ المُصدِّقُ إلى الإبعاد فى طلبه واتِّباعه .

والشِّغار : نكاحٌ كان فى الجاهلية ، كان يقول الرجلُ للرجلِ : شاغِرْنى ، أى : زَوِّجْنى بنتك أو أختك ، أو مَن تَلى أمرَها ، حتى أزوِّجَك أختى أو بنتى ، أو مَن ألى أمرَها ، ولا يكون بينهما مَهْرٌ ، وقيل له : شِغارٌ ، لارتفاع المَهر بينهما ، مِن شَغَر الكلبُ : إذا رفع إحدى رجليه ليبولَ .

وأجْبا الرجلُ : إذا باع الزرعَ قبل أن يبدوَ صلاحُه ، وأصله الهمزُ ، من جبأ عن الشىء : إذا كفَّ عنه ، لأن المُبتاعَ مُمتنِعٌ من الانتفاع به إلى أن يُدرِك ، وإنما خُفِّفت الهمزة ليزاوِج أرْبَى .

وبعث معه معاوية بن أبى سفيان ليتسلمها ، ويبدو أنه كان بوائل بقية من استعلاء الملوك ؛ لأن معاوية قال له : أردفنى ، أى : أركب خلفك على الدابة التى تحملك ، فقال له وائل : لستَ من أرداف الملوك ، ورفض أن يردفه ، وقد عاش وائل إلى زمن خلافة معاوية ، فذهب إليه ، فتلقاه معاوية بالبشر وأكرمه . قال وائل : فوددت لو كنت حملته بين يدىّ .

كتاب الرسول لقبيلة كلب مع قَطَن بن حارثة العليمى :

كانت قبيلة كلب تسكن دومة الجندل وما حولها ، فقدم وفد بنى عليم - وهم بطن من كلب - ومعهم قَطَنُ بن حارثة العليمى وألقى خطبته نيابة عنهم بين يدى

= وقيل : أراد بالإجباء أن يُغَيِّب إبلَه عن المُصَدِّق ، من أجبأتُه : إذا واريتَه .

وأرْبَى : أى دخل فى الرِّبا ، يقال : أرْبَى يُرْبِى إرباءً ، وأصل الرِّبا : الزِّيادة ، وقد ربا المالُ يَرْبُو رَبْواً ، والاسم الرِّبا ، مقصورٌ .

وقوله : « ومَن زنا ممْ بِكْر » قلب نون « مِن » ميماً ، لوقوع باء « بِكْرٍ » بعدها ، وهو قلبٌ مُطَّرِدٌ إذا كانت النون ساكنة ، نحو عَنْبر ومِنْبر .

وأما قوله : ومَن زنا مِم ثَيِّبٍ » فإنّ قلبَ النونِ ميماً لغةٌ يمانيَةٌ ، كما يقلبون لام التعريف ميماً ، كقوله : « ليس من امْبِرِّ » يريد : من البرّ .

والبِكْر والثَّيِّب يقعان على الرجل والمرأة ، فالبكر : الذى لم يتزوج ، والثَّيِّب : الذى تزوَّج .

والصَّقْع : الضَّرْب على الرأس ، ومنه فرسٌ أصْقَعُ ، وهو المُبَيَّضُ أعلى رأسِه ، والمرادُ ها هنا الضَّربُ على الإطلاق .

والاستيفاضُ , التَّغْريبُ والنَّفْىُ والطَّرد ، مِن وَفَض وأوْفَض : إذا عَدا وأسرعَ ، واستوفَضَت الإبلُ . إذا تفرقتْ فى رَعْيها .

والتَضْريج : التَّدْمِيةُ ، مِن الضَّرْج ، وهو الشَّقُّ ، وثوبٌ مُضَرَّج ، أى : مصبوغٌ بالحُمْرة ، وتَضَرَّج : إذا تَلَطَّخ بالدَّم .

والأضاميمُ : الحِجارة ، واحدتها إضْمامَة ، إفْعالة من الضَّمِّ ، وأراد بذلك الرَّجْم الذى هو حدُّ الزانى الثَّيِّب .

والتَّوصِيمُ : الفُتور والتَّوانى ، أى : لا إهمالَ لإقامة الحُدُود ، وأصله من الوَصْم : الصَّدْع . ثم قيل لمن به وَجَعٌ وتكسُّرٌ فى عِظامه : مُوَصَّمٌ ، كما قيل لمن فى حَسَبه غَمِيزَةٌ : مَوْصُومٌ ، ثم شُبِّه الكَسلانُ المتثاقلُ بالوَجِع المتكسِّر ، فقيل : به تَوْصِيمٌ ، والمعنى : لا مُحاباةَ فى دين الله ولا تَوانِىَ .

والغُمَّةُ : مِن غَمَّه ، إذا سَتَره وغَطَّاه ، أى : لا تُستَر فرائضه ولا تُخْفَى ، إنما تُظْهرُ ويُجْهَرَ بها .

والسَّرايا : جمع سَرِيَّة ، وهى طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة ، تُبْعَث إلى العدُوّ ، سُمِّيت بذلك لأنهم يكونون خيارَ الجيش ، من السَّرِىِّ : النَّفِيس ، وقيل : لأنهم يُنَفَّذُونَ سرّاً . وقيل : هو مِن السُّرَى : سير الليل ، لأنَّ أكثر ما يُنَفَّذُون فيه

والقِرابُ : شِبْه جِرابٍ يضع فيه المسافر زادَه وسِلاحَه .

ويروى : « القِرافُ » بالفاء ، جمع قَرْفٍ ، بالسكون ، وهو وعاءٌ من جِلْد يُدْبَغ بالقِرْفَة ، وهى قِشْرُ الرُّمَّانِ .

أوجب عليهم أن يُزَوِّدُوا كلَّ عشرة من السَّرايا المجتازة بهم ما يَسَعُ هذا الوعاءُ من التَّمْر .

رسول الله ﷺ ، وقد استهلها بأبيات من الشعر فى مدح الرسول ﷺ قال فيها :

رأيتك يا خير البرية كلها نبتَّ نضاراً فى الأرومة من كعب

أغرّ كأن البدر سنة وجهه إذا ما بدا للناس فى حلل العصب

أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجها وربيت اليتامى فى السقاية والجدب

فكتب لهم رسول الله ﷺ كتابا يحمل فحواه ما تضمنه الكتاب الثالث الذى حمله وائل بن حجر السالف عرضه ، من حيث العبادات المفروضة من صلاة وزكاة وتفصيلات الصدقات التى عليهم تأديتها ، ومثلما أملى الرسول ﷺ كتبه لأهل حضرموت بلغتهم ولهجتهم ، فقد سلك ﷺ النهج نفسه مع قبيلة كلب ونواحى دومة الجندل من حيث اللغة واللهجة والألفاظ ومسمياتها . وهى إن بدت حوشيّة غير مأنوسة عند غيرهم فهى عندهم تحمل سمت البلاغة وغاية السلاسة . وهذا هو نص كتاب رسول الله لكلب وأحلافها : (١)

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتابٌ من محمد رسول الله ، لعمائر كَلْب وأحلافها ، ومَن ظَأَرَه الإسلامُ مِن غيرهم ، مع قَطَن بن حارثة العُلَيْمى ، بإقام الصلاةِ لوقتها ، وإيتاء الزكاة بحقِّها ، فى شدَّة عَقْدِها ووفاء عهدها ، بمَحْضَر من شُهود المسلمين : سعد بن عُبادة ، وعبدِالله بن أُنَيس ، ودِحْية بنِ خليفةَ الكلبىّ . عليهم فى الهَمُولَة الراعية البُساطِ الظُّؤارِ ، فى كلّ خمسين ناقةٌ ، غيرُ ذاتِ عَوارٍ ، والحَمُولَةُ المائرةُ لهم لاغيةٌ ، وفى الشَّوىِّ الوَرىِّ مُسِنَّةٌ حامِلٌ ، أو حائلٌ ، وفيما سَقَى الجَدْوَلُ مِن العَين المَعِين العُشْرُ من ثمرها ومِمَّا أخرجَتْ أرضُها . وفى العِذْى شَطْرُه بقيمة الأمين ، لا تُزادُ عليهم وَظِيفةٌ ولا تُفَرَّق . شهِد الله على ذلك ورسولُه . وكتب ثابتُ بنُ قيسِ بنِ شَمَّاسٍ(*).

---

(١) منال الطالب ١ / ٥٩ ، والعقد الفريد ٢ / ٣٤ ، والإصابة ٣ / ٢٨٣ .

(*) معانى الألفاظ :

العمائر : جمع عمارة ، وهى الحىّ العظيم ، أولها : الشّعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ .

من ظأره الإسلام : أى عطفه أو عطف عليه ورفق به ، ومنه قيل لمن ترضع غير ولدها : ظئر .

الأحلاف : جمع حليف ، وهو المحالف والمعاهد .

وشدة عقدها : ما تعاقدوا عليه من الإيمان والوفاء بالعهود .

الهمولة ـ بفتح الهاء ـ : الإبل التى أهملت للرعى وتركت ترعى حيث تشاء .

كتاب النبى مع رسول حمير :

كان ملوك اليمن وأقيالهم كثيرى العدد ، ومن ثم كثرت وفودهم إلى رسول الله ﷺ وكل واحد منهم يمثل المنطقة التى يلى شئونها ، ومنهم من اعتنق الإسلام وظل فى دياره ، واكتفى ببعث رجل من رجاله أو بعض رجاله ليخبر رسول الله ﷺ بإسلامه ، وإن بعض ملوك حمير من بنى كلال قد بعثوا إلى رسول الله مالك بن مرارة الرهاوى يحمل كتابا منهم إلى رسول الله بإسلامهم ، وهم الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد

والبُساط - يروى بالضم والفتح والكسر - فأما الضَّمّ فهو جمع بِسْطٍ بالكسر ، وهى التى معها أولادُها ، وجُمعتْ على فُعال .

وأما الكسر ، هو جمع بِسْطٍ ، بالكسر ، وهى الناقة التى تُرِكَتْ وولَدُها لا يُمْنَع منها ، ولا تُعْطَف على غيره . وبِسْطٌ : بمعنى مبسوطة .

وأما الفتح فهو الأرض الواسعة ، فيكون المعنى : فى الهَمُولة التى ترعى الأرضَ الواسعة .

والظُّؤار : جمع ظِئْر ، وهى التى ظُئِرت على غير ولدِها من النُّوق ، أى : عُطفت عليه ، وأُنّسَتْ به لتُرضِعَه .

وقوله : « وفى كلّ خمسين ناقةٌ » أى : فى كلّ خمسين ناقةً ناقةٌ

كأنه قال : فى كلّ خمسين من الإبل الهَمُولةِ الراعيةِ ناقة .

والعَوارُ - بالفتح - : العَيبُ ، وقد يُضَمّ ، أى : لا تُؤخَذ فى الزكاة ناقةٌ مَعِيبةٌ ، كما لا يؤخذ منهم النفيس الكريمُ عليهم وإنما يؤخذ منهم الوسط .

والحَمُولة - بالفتح - : ما يَحْتَمِلُ عليه الناسُ من الدَّوابِّ ، سواء كانت عليها الأحمالُ أو لم تكن ، كالرَّكوبة . وأما الحُمُولة - بالضم - فهى الأحمالُ . والحُمُول بلا هاء : الإبلُ التى عليها الهَوادجُ ، سواء كان فيها نساءٌ أو لم يكنّ .

والمائرة : التى تحمل المِيرةَ ، وتُجْلَب عليها الأقواتُ وغيرها ، وقَدْ مارَهُم يَميرُهم ، فهو مائرٌ .

واللاغيةُ : المُلْغاة المُطَّرحةُ متروكةٌ ، لا تُعدُّ عليهم ، ولا يُلْزَمُون لها صدقةً .

والشَّوِيُّ : جمع شاءٍ . نحو كَلْبٍ وكَلِيب . وقيل : هو اسم الجمع ، كالمَعِيز ، فى المَعْز .

والوَرِيُّ : السَّمِينُ ، ، يقال : وَرِىَ اللحمُ يَرى ، فهو وارٍ ووَرِىٌّ : إذا اكتنز وسَمِن .

والمُسِنَّة : الكبيرة من البقر والشاء ، وهى التى أثنَتْ بطلوع ثَنيّتها ، . ولا يُراد بالمُسِنَّة الهَرِمةُ الكبيرةُ .

والحاملُ : التى فى بطنها ولدُها .

والحائل : التى لم تَحْبَل ، يقال : حالت الناقةُ وأحالَتْ : إذا حَمَلَتْ عاماً ولم تحمل عاماً ، فهى حائلٌ ومُحِيلٌ .

والجَدْوَل : النَّهْرُ الصَّغير من الماء ، كالساقية .

والماء المَعِينُ : الذى جَرَتْ عيونُه . يقال : حَفَرْتُ حتى عِنْتُ ، أى : بلغتُ العُيونَ ، والماء مَعِينٌ ومَعْيونٌ : أى مُجْرًى مُسالٌ .

وأراد بالثَّمَر : ما يَخرج من غَلَّة الزُّرُوع ، لأنها ثمرُها .

والعِذْىُ - بكسر العين وسكون الذال - : ما لا يُسْقَى من الزَّرع ، ويَقْنَعُ بماء المطر . والشَّطْر : النِّصف .

وقوله : « بقيمة الأمين » أى : لا يُحاف عليهم ، بل تُقَوَّم غَلَّتُهم قيمةَ عَدْلٍ ، ويُؤخَذُ الواجبُ منها .

والوَظيفة : ما يُقدَّر للإنسان من الشىء وعلى المِلْك من خَراجٍ وغيره . وقد وظَّفْتَه توظيفاً .

كلال ، والنعمان قَيْل ذى رُعَيْن ومعافر وهمدان ، وذلك فى شهر رمضان سنة تسع ، وقبل مَقْدم رسول الله ﷺ من تبوك .

أمر رسول الله ﷺ بلالاً أن ينزله ويكرمه ويضيفه ، وكتب إليهم رسول الله ﷺ (١) :

« أما بعد ذلكم : فإنى أَحْمَدُ إليكم الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد : فإنه قد وقع بنا رَسُولُكُم مَقْفَلَنَا من أرض الروم ، فَبَلَّغ ما أرسلتم به ، وخَبَّر عَمَّا قِبلَكُمْ ، وأَنبأَنا بإسلامكم وقتلكم المشركين ، فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ قد هداكم بهدَاه إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، وأعطيتم من المَغْنَم خُمُسَ الله وخُمُسَ نَبِيِّه وصَفِيَّه ، وما كُتِب على المؤمنين من الصدقة [من العَقَار عُشْر ما سقت العَيْن وَسَقَتِ السماء ، وعلى ما سقى الغَرْب نصف العُشْر . إن فى الإبل الأربعين ابنةَ لَبُون ، وفى ثلاثين من الإبل ابن لَبُون ذَكَر ، وفى كل خَمْس من الإبل شاةٌ ، وفى كل عَشْر من الإبل شاتان ، وفى كل أربعين من البَقَر بَقَرة ، وفى كل ثلاثين من البَقَر تَبِيع جَذَع أو جَذَعة ، وفى كل أربعين من الغَنَم سائمة وَحْدَها شاة ، وإنها فريضة الله التى فَرَض على المؤمنين فى الصَّدَقَةِ ، فمن زاد خَيْراً فهو خَيْر له ، ومن أَدَّى ذلك وأشهد على إسلامه، وظَاهَر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين : له ما لَهُمْ وعليه ما عليهم ، وله

---

(١) سبل السلام ٦ / ٤٩١ وما بعدها .

المعانى:

الرَّهاوى : ـ بفتح الراء ـ نسبة إلى قبيلة ـ وبالضم ـ الرُّها : بَلَدٌ بالجزيرة ، وليس مُراداً هنا .

القَيْل : وهو أحد ملوك اليَمَن دُونَ الملك الأعظم ، وقيل : ذو رُعَيْن ، أى : ملكها : وهى قبيلة من اليَمَن تُنْسَب إلى ذى رُعَيْن ، [وذو رُعَيْن مَلك من ملوك حِمير] ورُعَيْن : حِصْنٌ كان له ، ورُعَيْن تصغير رَعْن : أنف الجَبَل .

مَعَافر : ـ بفتح الميم وتخفيف العين المهملة وكسر الفاء وبالراء ـ : حَى من اليَمَن . وقيل : برود من برود اليمن .

الغَرْب : ـ بفتح الغين المعجمة وسكون الراء وبالموحدة ـ الدَّلْو .

ابنة لَبُون : ـ بلام مفتوحة فموحدة مضمومة فواو فنون ـ : من الإبل ما أتى عليه سنتان ودخل فى الثالثة فصارت أمه لَبُوناً ، أى : ذات لَبَن .

التَّبِيع : ـ بفتح الفوقية وكسر الموحدة فمثناة تحتية فعين مهملة ـ : ولد البقرة أوّل سَنَة .

الجَذَع : ـ بالجيم والذال المعجمة المفتوحتين وعين مهملة ـ : من الإبل ما دخل فى السنة الخامسة ، ومن البَقَر والغَنَم ما دخل فى السنة الثانية ، وقيل : البَقَر فى الثالثة .

سائمة وَحْدعها : راعية وَحْدَها .

ظَاهَر : عَاوَن .

الذِّمَّة : الأمان والعَهْد .

ذِمَّةُ الله وذِمَّةُ رسوله ، وإنه مَنْ أسْلَمَ من يهودى أو نصرانى فإنه من المؤمنين له ما لَهُمْ وعليه ما عليهم ، ومَنْ كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُرَدُّ عنها ، وعليه الجِزْيَة على كل حَالِم ـ ذَكَر أو أنثى ، حُرّ أو عَبْد ـ دينار واف من قيمة المَعَافِر أو عِوَضُه ثياباً ، فمن أَدَّى ذلكَ إلى رسـول الله ﷺ فإن له ذِمَّةَ اللهِ وذِمَّةَ رسوله ، ومن مَنَعه فإنه عَدُو لله ولرسوله » .

وإذا كانت أكثر الرسائل التى مر ذكرها محمولة مع الوفود تفيد التعليم والتوجيه ، فإن هذا الكتاب يمثل عهداً بين المؤمنين بتوجيه من رسول الله ﷺ للنصارى واليهود ، يحفظ لهم حريتهم فى البقاء على دينهم ، ولا يردون عنه ، ولهم ذمة الله ورسوله متى أدوا الجزية .

ولعل أسلوب هذا الكتاب أكثر يسراً من سابقيه ، وذلك باستثناء تصنيف الماشية تبعا لأعمارها وصفاتها .

وفود بارق وكتاب رسول الله لهم :

بارق : قبيلة أخرى من قبائل اليمن ، ويفهم من خبر وفودهم على رسول الله ﷺ أنهم لم يكونوا أسلموا بعد ، وإنما تم إسلامهم حال وفودهم على النبى ﷺ إذ دعاهم إلى الإسلام فأسلموا وبايعوا ، فكتب لهم الرسول كتابا هذا نصه : (١)

هذا كتاب من محمد رسول الله لِبَارِقٍ : لا تُجَذّ ثِمَارُهُمْ ولا تُرْعَى بِلادُهُمْ فى مَرْبَع ولا مَصِيفٍ إلاَّ بمسألة من بارق ، ومَنْ مَرَّ بهم من المسلمين فى عَرْك أو جَدْب فَلَهُ ضِيَافَةُ ثَلاَثَةِ أيام ، وإذا أَيْنَعَتْ ثِمَارُهُمْ فلابن السبيل اللُّقَاطُ يُوسِعُ بَطْنَه من غير أن يقتثم » شَهِد أبو عُبَيْدة بن الجَرَّاح ، وَحُذَيْفة بن الْيَمَان ، وكتب أُبَىّ بن كَعْب .

---

(١) سبل السلام ٦ / ٤٩١ وما بعدها .

المعانى :

مَرْبَع : الموضع الذى يُنْزَل فيه أيام الربيع ، واسم جبل قرب مكة . وأما مِرْبَع ـ بكسر الميم ـ فمال بالمدينة فى بنى حارثة .

مَصِيف ـ بميم مفتوحة فصاد مهملة مكسورة فمثناة تحتية ففاء ـ : مكان يُنْزَل فيه أيام الصَّيْف .

عَرْك : تجريد الأرض من المَرْعَى .

أَيْنَعَتْ : أدركت ونَضِجت .

يقتثم : يَجْتَثّ ولم يُبْق له أصلا .

لعلنا نلاحظ هنا أن التعاليم التى حملها وفد بارق معه متضمنة فى كتاب رسول الله مبدأ اجتماعيا تربويا جليلا ، يتمثل فى حق الضيف المسلم فى أن يكرم ويقدم له القِرَى .

كتاب الرسول وخبر الأكيدر بن عبد الملك :

الأكيدر بن عبد الملك الكندى كان ملكا على دومة الجندل ، ولرسول اللهﷺ كتاب إليه حمله هو وخالد بن الوليد وهما عائدان معا إلى دومة الجندل بعد أن مثل الأكيدر بين يدى رسول الله ، وقدم إليه هدية عبارة عن جبة من ديباج منسوج فيها الذهب .

ولقد روى خبر وفادة الأكيدر على رسول الله بأكثر من صيغة ، بل لقد اختلف فى إسلام الأكيدر ، فتقول إحدى الروايات : إنه أسلم بين يدى رسول الله ، وعاد إلى مملكته ، ولكنه ارتد بعد وفاة الرسول فذهب إليه خالد وقتله ، وتقول رواية أخرى : إنه لم يسلم أصلا وقد أمّنه الرسول على نفسه ما حفظ العهد الذى تضمنه كتاب الرسول إليه ؛ لأنه كان ذميا نصرانيا ، فتركه الرسول على دينه وملكه وقصره ، ويبدو أن هذا القصر كان من النفائس المشهورة ؛ لأن حسان بن ثابت قد ضمنه قصيدته اللامية المشهورة التى قالها قبل الإسلام ، وفيها يقول فى مدح الغساسنة : [1].

بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابُهُمْ
شُمُّ الأنوفِ من الطرازِ الأولِ

فلبثتُ أزماناً طوالاً فيهمُ
ثم ادّكرْتُ كأننى لم أَفْعَلِ

إما تَرَىْ رَأْسِى تغيَّر لونه
شَمَطاً فأصبحَ كالثَّغَامِ المحْوِلِ

ولقد يرانى مُوعِدِىَّ كأننى
فى قَصْرِ دُومَةَ أو سَوَاءَ الهَيْكَلِ (*)

(1) ديوان حسان ص : ۱۸۳ ، ۱۸٤ ط دار إحياء التراث العربى - بيروت .

(*) معانى الألفاظ :
شم الأنوف : أصحاب أنفة وعزة . الشمط : بياض يخالط سواد الشعر . الثغام : نبات جبلى يبيّض لونه قبل يبسه . سواء الهيكل : وسط المعبد فى الكنيسة .

والشعر الذى قيل فى دومة الجندل غير قليل ، وقد أورد ياقوت الرومى نماذج منه فى كتابه « معجم البلدان » (١) .

ومهما تكن طبيعة أخبار الأكيدر ، فإن الشيء المحقق أنه مثل بين يدى رسول الله حين جاء به خالد أسيرا أو شبه أسير ، وأنه خاطب رسول الله بصفته الشريفة بقوله : يا رسول الله ، وأن الرسول ﷺ أمّنه وأكرمه وقبل هديته ، وأنه ﷺ زوده بكتاب ، هذا نصه :(٢)

« هذا كتابٌ من محمد رسول الله حين أجاب إلى الإسلام وخَلَع الأَنْدادَ والأصنام ، مع خالد بن الوليد سيفِ الله ، فى دَوْمَة الجَنْدَل وأكنافِها : أنّ لنا الضاحية من الضَّحْل والبَوْرَ والمَعامِىَ وأغفال الأرض والحَلْقَةَ والسِّلاحَ ، ولكم الضامنةُ من النَّخلِ ، والمَعِينُ من المعمور ، لا تُعْدَلُ سارِحَتُكم ، ولا تُعَدُّ فاردَتُكم ، ولا يُحْظَر عليكم النَّبات ، ولا يؤخذ منكم عُشْرُ البَتات ، تقيمون الصلاةَ لوقتها ، وتؤتون الزكاة لحقِّها ، عليكم بذلك الله وميثاقُهُ » .

---

(١) معجم البلدان ، مادة (دومة الجندل) .

(٢) منال الطالب ص : ٦٤ ، والإصابة ١ / ١٢٥ ـ ١٢٧ .

المعانى:

والأنداد : جمع نِدّ ونَدِيد ، وهما مِثْلُ الشىء المُضادّ له فى أموره ، ونادّه يُنادُّه مُنادَدَةً ونِداداً ، من نَدَّ البعيرُ : إذا نَفَر واسْتَعْصَى .

والأصنام : جمع صَنَم ، وهو ما كانوا يتّخذونه إلهاً من دون الله تعالى ، ممّا يصوِّرونه .

وخَلْعُها : كنايةٌ عن تركها والتّبرّى منها ، كما يخلع الإنسان قميصَه ، كأنه كان قد تَرَدَّى به واشتمل عليه ، فخرج عنه وفارَقَه .

والضاحِيةُ : النَّخلةُ الخارجةُ عن العِمارة ، وهى خِلاف الضامِنة .

والضَّحْلُ : الماء القليلُ ، وهو الضَّحْضاح ، ومنه قولهم للصخرة الضَّخمة التى لا يغمُرها الماءُ لقلّته : أتانُ الضَّحْل .

والبُـورُ : وهى الأرض الخراب التى لم تزرع .

والمَعامِى : جمع مَعْمَى ، وهو مَفْعَلٌ من العَمَى . يريد به الأراضى المجهولة التى ليس فيها أثرُ عِمارةٍ . كالمَجْهَل والمجَاهل .

والأغْفال : جمع غُفْل ـ بالضم ـ وهى الأراضى التى أُغفِلَت وأُهمِلَت ، فلا أثَرَ بها يدلُّ على عِمارتها ، ومنه الإبلُ الأغفالُ : التى لا سِمات عليها .

والحَلْقَةُ ـ بسكون اللام ـ : الدُّرُوع .

والسِّلاحُ : اسم عامٌّ ، يقع على السَّيف والرُّمح والسِّهام ، وكلِّ ما يُقاتَلُ به .

وإذا كانت الفئة الغالبة من المؤرخين قد رجح - وقطع بعضهم - أن الأكيدر ظل على نصرانيته، فإن صيغة الكتاب الذى نحن بصدده تفيد أنه قد اعتنق الإسلام . فضلا عن أن سبب قتله كان ارتداده عن الإسلام .

والكتاب مثل الكتب الأخرى التى كتبها رسول الله ﷺ مع الوفود من حيث المبادىء الملتزمة والألفاظ المأنوسة لدى كل قوم وُجِّهَ الخطاب إليهم .

إن ثمت حقائق ينبغى الالتفات إليها فى مجال استعراض هذه النماذج من كتب رسول الله ﷺ إلى قبائل العرب وما قد صاحبها من شمائل رسول الله ﷺ سلوكا راقيا يليق بأدب الأنبياء ، وفطنة وضاءة تتفق وجلال النبوة ، وبلاغة رفيعة يحيط بها إلمام كامل بلغة جميع القبائل ، الأمر الذى لم يتوفر لعربى غير محمد، هذا فضلا عن أدب الحوار ، وبشاشة الوجه ، ووضاءة القسمات ، مع الإكرام والتكريم إلى المدى الذى يجعله ﷺ يبسط ثوبه لكى يجلس عليه ضيفه .

ومن شمائله النبوية فى هذا المقام أنه ﷺ كان يشعر أبناء الملوك من الوافدين عليه بمعاملة خاصة مقصود إليها قصدا ؛ تأليفاً لقلوبهم ، وترطيباً لنفوسهم ، وكسباً لثقتهم حتى لا يظنوا أن الإسلام سلبهم حقا أو أفقدهم مكانة ، مع إشعارهم فى الوقت نفسه بالالتزام بأحكام الإسلام وأدبه ، والتأكيد على أن الناس تحت رايته سواء .

ومحمد ﷺ هو أبلغ البلغاء دون منازع ، ولكن لونا خاصا من بلاغته كان شديد الظهور فى هذه الطائفة من كتبه ، فقد وضح بشكل قاطع امتلاكه لناصية لغات العرب جميعا ، والكتابة إلى كل قبيلة بلسانها ولهجاتها وألفاظها ومسمياتها ، مما أثار عجب

= والمَعِين : الموضع الذى عانَ ماؤه ، أى : جَرَى .
والسَّارحةُ : المواشى إذا سَرَحتْ إل المَرْعَى وخرجَتْ إليه .
وعَدْلُها : صَرْفُها عن مَرْعىً تُريدُه ، يقال : عَدَل عن الشىء وإليه : إذا مالَ عنه وإليه .
والفارِدةُ : الشاةُ المُنفرِدة الزائدة على الفَرِيضة ، لا تُعَدُّ عليهم وتُحتَسَبُ فى الزكاة .
والحَظْرُ : المَنْع . أى : لا تُمْنَعُونَ من الرَّعْى أو من الزِّراعة حيث شئتم .
والبتاتُ : المتاع مما ليس للتجارة .

الصحابة ، حتى إن على بن أبى طالب ـ وهو أحد قمم البلاغة ـ حدثه فى ذلك قائلا : يا رسول الله ، نراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ونحن أبناء أب واحد .

هذا وإن هذه الكتب على الرغم من كونها تعليمية وتوجيهية إلا أنها تمثل عهودا نافذة واتفاقيات منفذة ، وتشكل دبلوماسية مبكرة ، مهذَّبة الصوغ ، رفيعة القيمة ، أرسى قواعدها فى يسر وبهاء أبين الأبيناء وسيد الأنبياء .



البـــاب الثالث

عهود الرسول ومعاهداته

الفصل الأول : العهود فى القرآن الكريم .
الفصل الثانى : عهود ما قبل الهجرة .
الفصل الثالث : عهد الموادعة مع اليهود .
الفصل الرابع : هدنة الحديبية ومعاهدتها .
الفصل الخامس : عهود الرسول مع نصارى الشام ونجران .
الفصل السادس : عهد ثقيف واليمن .





الفصل الأول

■ العهود فى القرآن



العهود في القرآن الكريم

حفل القرآن الكريم بكثير من الآيات التى تناولت العهود والوفاء بها ، ذلك أن الوفاء بالعهود من شروط الإيمان ، ومن سمات المؤمنين أن يلتزموا بعهودهم ويذعنوا لشروطها ، والله ـ سبحانه ـ يكرم الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه بقوله ـ عز وجل ـ :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ (1).

وقد شرف الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذين بايعوا الرسول فى الحديبية ، ووعد الصادقين منهم بحسن الجزاء فى قوله ـ تعالى ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (2).

ويعظم الله ـ سبحانه وتعالى ـ شأن الموفين بعهدهم ، ويسلكهم فى عقد النخبة المتميزة من المتقين الذين جمعتهم الآية الكريمة من قوله ـ جل وعز ـ :

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى

---

(1) الأحزاب ، الآية : 23 .

(2) سورة الفتح ، الآية : 10

ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (١).

لقد كرم الله ـ سبحانه ـ الموفين بعهدهم فى الآية سالفة الذكر ، فجعلهم مع صفوة المؤمنين بالله وبالملائكة وبكتبه ورسله واليوم الآخر ، ومع المنفقين فى وجوه الإنفاق التى يحبها الله ، وهى الإنفاق على ذوى القربى واليتامى والمساكين وأبناء السبيل والسائلين وفى فك الرقاب ، ومع من أقاموا الصلاة فأحسنوا القيام بها ، ومن آتوا الزكاة فى مصارفها الحقة ، ومع الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس .

ويهتم كتاب الله ـ عز وجل ـ بالوفاء بالعهد اهتماما شديدا ، وإن التوجيهات الربانية فى شأنه حاسمة قاطعة ملزمة ، لا تحتمل أى قدر من التهاون وإن قلّ ، فيقول ـ جل من قائل ـ : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢).

إن المتتبع لتسلسل الأحكام فى كتاب الله سيقع بصره على الآية السابقة على هذه الآية فى كتاب الله وهى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ وهى آية التوجيه الإلهى الأسمى لجمهرة المؤمنين ، ثم يتبعها مباشرة بالأمر بالوفاء بالعهد وعدم نقض الأيمان ، ويفسر القرطبى الوفاء بالعهد فى تلك الآية بأنه لفظ عام لجميع ما يعقد باللسان ويلتزمه الإنسان من بيع أو صلة أو مواثقة فى أمر موافق للديانة .

ومن العهود ذات القداسة التى احتفل بها الكتاب العزيز أيما احتفال ، تلك التى

---

(١) البقرة ، الآية : ١٧٧ .

(٢) النحل ، الآية : ٩١ .

قطعها ـ سبحانه وتعالى ـ على نفسه بالجنة وجعلها وعد حق عليه ـ عز وجل ـ فى كتبه المقدسة : التوراة والإنجيل والقرآن لمن ينصرون رسالته ، فيقاتلون فى سبيله فَيَقْتُلون وَيُقْتَلُونَ وهم الأنصار ، وذلك فى قوله ـ عز وجل ـ :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (١).

لقد نزلت هذه الآية فى البيعة الثانية ، وهى بيعة العقبة الكبرى التى أناف فيها رجال الأنصار على السبعين ، وكان أصغرهم سنا عقبة بن عمرو ، ذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ عند العقبة ، فقال عبدالله بن رواحة للنبى ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال النبى ﷺ : « **أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى ما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم** » قالوا : فإذا فعلنا ذلك ، فما لنا ؟ فقال الرسول ﷺ : « **الجنة** » . قالوا : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل ، فنزلت الآية الكريمة ﴿ إن الله اشترى . . . ﴾

يقول الحسن البصرى : والله ما على الأرض مؤمن إلا يدخل فى هذه البيعة .

ويقول الحسن أيضا : مر أعرابى على النبى ﷺ وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ إلى آخر الآية ، فقال : كلام من هذا ؟ قال النبى : كلام الله ، فقال الأعرابى : بيع ـ والله ـ مربح ، لا نقيله ولا نستقيله ، فخرج إلى الغزو واستشهد (٢).

وعهود الله ـ سبحانه وتعالى ـ تبلغ فى سموها وجوهر الحفاظ عليها ما يجعل المرء المؤمن يزداد إيمانا ، وما يجعل المرء المشرك يعيد النظر فى سوء عقيدته ،

---

(١) التوبة ، الآية : ١١١ .

(٢) القرطبى تفسير الآية السابقة .

ويقترب من الإيمان بالله رويدا رويدا ، إن عهود الله لا تُنْقَض حتى مع المشركين .

يتجلى سمو العهد الإلهى فى قوله ـ عز وجل ـ :

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (١).

لقد نزل الأمر الإلهى بألا يحجّ بعد ذلك العام (التاسع للهجرة وفيه حجّ أبو بكر ، وقيل : العاشر ، وفيه كانت حجة الوداع) مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن المفسرين من ذهب إلى أن يوم الحج الأكبر هو يوم عرفة ، ومنهم من قال : إنه يوم النحر استئناسا بقول الرسول يوم النحر فى الحجة التى حج فيها : « **أى يوم هذا ؟ فقالوا: يوم النحر ، فقال : هذا يوم الحج الأكبر** » وقد استثنى الحكم الإلهى المشركين الذين تربطهم بالمسلمين معاهدة وثبتوا عليها ووفوا بها ولم ينقضوها ، استثناهم من منعهم من الحج إلى نهاية مدة معاهدتهم . وهنا تحضرنا الآية الجليلة فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ التوبة : ١١١ .

هكذا يكون مبدأ عقد المعاهدات مشروعا فى الإسلام ، باعتبار كونه نوعا من التنسيق لعلاقات المسلمين بغير المسلمين من كتابيين ومشركين .

سمات المعاهدات فى الإسلام كما طبقها النبى

المعاهدات والعهود تعقد فى الإسلام تحت شروط معينة ، منها : تنفيذ ما اتفق عليه

---

(١) التوبة ، الآيتان : ٣ ، ٤ .

فيها بين الطرفين ما دامت متمشية مع كتاب الله وسنة رسوله ، وذلك تقيدا بقول رسول الله ﷺ : « **كل شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل** »[1] وكلّ ما يتنافى مع هذا الحديث الشريف فإنه يكون باطلا ، وفى ذلك يقول الرسول ﷺ : « **ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله ؟! ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل ، وإن كان مائة شرط ، قضاء الله أحق ، وشرط الله أوثق** » متفق عليه واللفظ للبخارى .

يقول الدكتور محمد الصادق عفيفى : لقد أخذ بهذا التوجيه النبوى الكريم فقهاء القانون الدولى فى العصر الحديث ، فوضعوا نصوصا ثابتة تكون بمثابة القوانين العامة لجميع الدول ، تحتكم إليها إذا حزبها الأمر ، ومن ثم إذا أبرمت إحدى الدول اتفاقية أو معاهدة وخالفت فيها نصا من نصوص القاعدة التشريعية العامة يكون الحكم ببطلان الاتفاقية أو المعاهدة .

ثمت شروط أخرى كثيرة لصحة المعاهدات وكمال فعاليتها ، مثل الرضا المتبادل بين طرفى العهد ، وتبعاً لذلك لا ينعقد عقد بالإكراه ، ومثل وضوح الحقوق والواجبات لكل طرف من أطراف العقد حتى لا تؤوّل المواد عند التطبيق تأويلا يبعث على الخلاف[2].

وتحتل حصانة المبعوثين مكانة جوهرية فى الإسلام ، فلا يجوز مساءلتهم أو العدوان عليهم وإن تجاوزوا الحدود التى يجب مراعاتها ، ومثال ذلك ما ارتكبه رسولا مسيلمة الكذاب من حماقة فى حضرة رسول الله ﷺ واكتفى بقوله الشريف : « **أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربتُ أعناقكما** » [3].

وإذا كان رسول الله ﷺ قد ضرب هذا المثل الرفيع فى تعامله مع حاملى رسالة مسيلمة الكذاب ، فإنه ﷺ قد ضرب مثلا من نوع آخر فى الدقة والأمانة فى تنفيذ العهود ، فإنه ﷺ لم يكد ينتهى من توقيع وثيقة الهدنة مع سهيل بن عمرو ممثل مشركى

---

(١) السيوطى : الجامع الصغير ٢ / ٧٧ .
(٢) الإسلام والعلاقات الدولية ص : ٢٦٥ ، ٢٦٦ .
(٣) السيرة لابن هشام ٢ / ٦٠٠ .

قريش فى الحديبية حتى فوجىء بأبى جندل بن سهيل بن عمرو ـ وكان قد أنعم الله عليه بالإسلام ـ وقد انفلت وهو يرسف فى الحديد زاحفا إلى حيث رسول الله ، فلما رأى سهيل ولده أبا جندل ، قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ، ثم قال : يامحمد ، قد لجّتْ القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا ، قال : صدقت . فجعل سهيل يجذب أبا جندل من تلابيبه ويجرّه ليرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أأُجَرُّ إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟! فقال رسول الله ﷺ : « **يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك ، وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم** » (١).

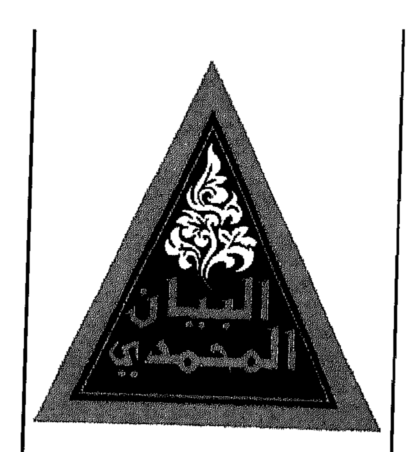
ولقد صبر أبوجندل ونزلت الآية الكريمة تكرمه هو ومن معه من المسلمين الصابرين والصابرات فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾(٢).

---

(١) المصدر السابق ٢ / ٣١٨ .

(٢) من الآية ٢٥ من سورة الفتح . والمعنى هو : لولا كراهة أن تهلكوا أناسا مؤمنين بين ظهرانى الكفار بمكة جاهلين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ، لما كف أيديكم عنهم ـ أى : عن الكفار ـ وكان بمكة من ضعفاء المؤمنين تسعة نفر : سبعة رجال وامرأتان منهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو ، والوليد بن الوليد بن المغيرة ، وسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



الفصل الثانى

عهود ما قبل الهجرة



عهود ما قبل الهجرة

إن عهود رسول الله ﷺ قبل الهجرة ثلاثة ، أولها كان لتميم الدارى ، والثانى والثالث كانا عند العقبة الأولى والعقبة الثانية .

عهد الداريين :

وفد الداريون وعلى رأسهم تميم الدارى على رسول الله مرتين : مرة قبل الهجرة ، ومرة بعد الهجرة ، ومن الجدير بالذكر أن تميما الدارى وقومه من لخم ، وليسوا أقرباء لبنى عبد الدار بن قصى .

فى المرة الأولى سألوا رسول الله ﷺ أرضا ، فدعا بقطعة من أدم وكتب ما نسخته :[1]

« بسم الله الرحمن الرحيم ـ هذا كتاب ذكر فيه ما وهب محمد رسول الله للداريين إذا أعطاه الله الأرض ، وهب لهم بيت عيون ، وحبرون ، والمرطوم ، وبيت إبراهيم ومن فيهم إلى الأبد .

شهد عباس بن عبد المطلب ، وخزيمة بن قيس ، وشرحبيل بن حسنة وكتب » .

فلما هاجر ﷺ إلى المدينة قدموا عليه وسألوه أن يجدد لهم الكتاب ، فكتب ما نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم :

هذا كتاب من محمد رسول الله لتميم بن أوس الدارى ، إن له قرية حبرون ، وبيت عينون ، قريتها كلها وسهلها وجبلها ، وماءها وحرثها ، وأنباطها وبقرها ،

(١) الوثائق السياسية ١٢٩ ـ ١٣١ .

ولعقبه من بعده ، لا يحاقّه فيها أحد ، ولا يلجها عليهم أحد بظلم ، فمن ظلم وأخذ منهم شيئا فإن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

وقرية حبرون : هى مدينة الخليل الحالية ، وقد أسلم تميم سنة ٩ هـ وقيل : سنة ٧هـ وأقام بالمدينة زمنا ثم انتقل إلى الشام بعد مقتل ذى النورين عثمان ، فسكن بيت المقدس وهو أول من أسرج السراج بالمسجد .

بيعة العقبة الأولى :

من أخبار السيرة النبوية أن رسول الله ﷺ كان يعرض نفسه على قبائل العرب فى الموسم ، وفى الموسم الذى أراد الله فيه إظهار دينه وإعزاز نبيه وبينما كان الرسول عند العقبة لقى رهطا من الخزرج وهم قبيلة من سكان يثرب فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه ، ودعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

كان الخزرج بحكم جوارهم اليهود قد سمعوا بمبعث نبى هذا زمانه ، فقال بعضهم لبعض : والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود ، فلا تسبقنّكم إليه ، فصدقوا الرسول ﷺ وقبلوا ما عرضه عليهم من الإسلام ، ثم قالوا لرسول الله : إنا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة شرّ مستطير فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله فلا رجل أعزّ منك [1].

وكان عدد هذا الرهط من الخزرج ستة ، هم : أسعد بن زرارة المكنى بأبى أمامة ، وعوف بن الحارث بن رفاعة ، وكلاهما من بنى النجار ، ورافع بن مالك بن العجلان ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وعقبة بن عامر ، وجابر بن عبدالله ، وقد ورد أنه أول من أسلم من الأنصار قبل العقبة الأولى بعام ، وهو غير جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصارى الصحابى ابن الصحابى .

---

(١) السيرة لابن هشام ١ / ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

فلما كان العام التالى حضر الموسم اثنا عشر رجلا من الأنصار بعضهم ممن أسلموا فى الموسم المنصرم ، وقد لقوا رسول الله بالعقبة ـ وهى العقبة الأولى ـ فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وبيعة النساء قد ورد ذكرها فى قوله تعالى : ﴿ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾[1] وكانت مبايعته ﷺ للنساء تعنى أنه يأخذ عليهن العهد والميثاق ، ومن ثم فإن مصطلح بيعة النساء لوفد الأنصار تعنى أنهم لم يبايعوه على القتال .

وأما هؤلاء النجوم الاثنا عشر أنصاريا فهم : أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وعوف ومعاذ ابنا الحارث بن سواد بن مالك ، وثلاثتهم من بنى النجار . ورافع بن مالك بن العجلان ، وذكوان بن عبد قيس بن خلدة من بنى رزيق بن عامر . وعبادة بن الصامت ، وأبو عبد الرحمن بن يزيد بن ثعلبة من بنى عوف بن الخزرج . والعباس بن عبادة بن نضلة من بنى سالم ، وعقبة بن عامر من بنى سلمة ـ بكسر اللام ـ وقطبة بن عامر بن حديدة من بنى سواد . وأبو الهيثم بن التَّيِّهان واسمه مالك ، من الأوس وعويم بن ساعدة بن عائش بن قيس من بنى عمرو بن عوف .

إن الصحابى الجليل الفارس الفاتح عبادة بن الصامت يروى خبر هذه البيعة فيقول : « كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنى عشر رجلا ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفرض الحرب ، على ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه فى معروف ، فإن وفّيتم فلكم الجنة ، وإن غَشِيتُمْ من ذلك شيئا فأمركم إلى الله ـ عز وجل ـ إن شاء عذب ، وإن شاء غفر »

وفى رواية موفق الدين بن قدامة :[2]

---

(١) الآية كاملة هى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن ، واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم ﴾ الممتحنة ، الآية : ١٢ .

(٢) الاستبصار فى نسب الصحابة من الأنصار ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

« **تبايعونى على السمع والطاعة ، فى النشاط والكسل ، وعلى النفقة فى العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن تقولوا فى الله لا تأخذكم لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى إذا قدمتُ عليكم ، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة** » .

وعند موفق الدين أيضاً فى ترجمة أبى أمامة أسعد بن زرارة نقيب النقباء :

قال الشعبى : قال النبى ﷺ ليلة العقبة : « **يا معشر الأنصار : تكلّموا وأوجزوا، فإن علينا عيونا** » . قال الشعبى : فخطب أبو أمامة أسعد بن زرارة خطبة ما خطب المُرْدُ ولا الشيب مثلها قط . فقال : يا رسول الله ، اشترط لربك ، واشترط لنفسك ، واشترط لأصحابك . قال ﷺ : « **أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأهليكم ؛ وأشترط لأصحابى المواساة من ذات أيديكم** » قالوا : هذا لك ؛ فما لنا ؟ قال : **الجنة** . قالوا : ابسط يدك .

ولم يكن هناك وثيقة مكتوبة .

فلما انصرف النقباء الاثنا عشر قافلين إلى يثرب بعد ذلك ، بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى وأمره أن يقرئهم القرآن ويفقههم فى الدين ، وكان منزله عند أبى أمامة أسعد بن زرارة .

بيعة العقبة الثانية :

فلما كان الموسم التالى رجع مصعب بن عمير إلى مكة . وخرج الأنصار من المسلمين مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فواعدوا رسول الله ﷺ « العقبة » فى أواسط أيام التشريق .

يقول كعب بن مالك : فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله ﷺ لها نمنا تلك الليلة مع قومنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ومعنا امرأتان من نسائنا هما أم عمارة نسيبة بنت كعب ، وأم

منيع أسماء بنت عمرو بن عدى ، وانتظرنا فى الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب [(١)].

لقد حضر العباس ـ وكان قريبا إلى قلب رسول الله ـ لكى يطمئن على ما أقدم عليه ابن أخيه رسول الله من ربط أسبابه بأسباب الخزرج من أهل يثرب . وقد وجه كلاما إلى القوم مقتضاه إما أن يتحملوا التبعة كاملة فى الوفاء والمنعة وإلا فليعفوا أنفسهم مما هم قادمون عليه .

قال الخزرج : قد سمعنا ما قلت . فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب فى الإسلام . ثم قال :

« **أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم** » .

قال : فأخذ البراء بن مَعرور بيده ، ثم قال :

« نعم ، والذى بعثك بالحق ! لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا . . فبايِعْنا يا رسول الله ، فنحن ـ والله ـ أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً » .

وقال أبو الهيثم بن التيهان : « يا رسول الله ! إن بيننا وبين الرجال حبالاً ، وإنّا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتَدَعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال :

« **بل الدمُ ، الدم ؛ والهدمُ ، الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم مَن سالمتم** » .

. . قال رسول الله ﷺ : « **أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيباً ، ليكونوا على قومهم بما فيهم** » فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس . .

وتخير كل من الخزرج والأوس نقباءهم على النحو التالى : أبو أمامة أسعد بن زرارة ،

---

(١) ابن هشام ١ / ٤٤٠ ، ٤٤١ .

سعد بن الربيع ، عبدالله بن رواحة . رافع بن مالك بن العجلان ، البراء بن معرور ، عبدالله بن عمرو بن حرام ، عبادة بن الصامت ، سعد بن عبادة ، المنذر بن عمرو بن خنيس ، أسيد بن حضير بن سماك ، سعد بن خيثمة ، رفاعة بن عبد المنذر . والجدير بالذكر أن كلا من أسيد ، وسعد ، ورفاعة من الأوس .

فلما اجتمع القوم لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن نضلة أخو بنى سالم ابن عوف مبلغا القوم بخطورة ما هم مقدمون عليه من عهد ، وثقل التبعة التى ألقوها على كواهلهم :

« يا معشر الخزرج ! هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل ؟» قالوا : « نعم » . قال : « إنكم تبايعون على حرب الأحمر والأسود من الناس ! فإن كنتم ترون أنكم إذا هلكت أموالُكم مصيبة ، وأشرافكم قتلاً ، أسلمتموه ، فمن الآن . فهو ـ والله ـ إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وافُونَ له بما دعوتموه إليه عن نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه . فهو ـ والله ـ خير الدنيا والآخرة » . قالوا : « فإنّا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فما لنا يا رسول الله ! إن نحن وفينا ؟» قال : «**الجنة**»[1].

قالوا : ابسط يدك يا رسول الله . فبسط يده ، فبايعوه على الشروط التى شرحها العباس بن عبادة بن نضلة .

يقول كعب بن مالك : كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور ، ثم بايع بعده القوم

ويؤكد عبادة بن الصامت بيعته قائلا : بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب .

لقد كان الأنصار بعد بيعتهم يتشوقون إلى الحرب فى سبيل الله ويستعجلونها ، حتى إن رسول الله ﷺ لما طلب إليهم التفرق إلى رحالهم . قال له العباس بن عبادة بن نضلة ـ وهو الذى بصّر قومه بخطورة تبعات البيعة ـ : والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلنّ على أهل منى غدا بأسيافنا ، فقال له رسول الله ﷺ :

(١) المصدر السابق ٤٤٧ .

« **لم نؤمر بعد ولكن ارجعوا إلى رحالكم** » .

وبيعة العقبة الثانية تكون قد انتهت مرحلة قاسية من مراحل الدعوة ، وبدأت مرحلة جديدة تفيأ المسلمون تحت ظلالها مشاعر العزة ، ومكابدة الحرب ، وثمرات النصر ، وولادة أول حكومة إسلامية فى المدينة المنورة تحت قيادة سيد الخلق وخاتم المرسلين .

ولذلك لم يبخل الرسول ﷺ على الأنصار بجميل الثناء وعظيم التكريم حين قال : «**الأنصار كرشى وعيبتى** » ، وحين قال : « **لو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار** » .





الفصل الثالث

عهد الموادعة بين المسلمين واليهود



الموادعة بين المسلمين واليهود في المدينة

وصل رسول الله ﷺ إلى قباء ـ وهى الضاحية الجنوبية للمدينة ـ وأقام بها أياما ، وبنى فيها مسجد قباء الذى يصلى فيه منذ بناء رسول الله كل من يزور المدينة المنورة بعد الصلاة فى مسجد رسول الله ، فقد ورد أن الصلاة فى مسجد قباء تعادل عُمْرَةً ، وهو المسجد الذى شرفه المولى ـ عز وجل ـ فوصفه فى كتابه العزيز بأنه « أسس على التقوى » وذلك فى قوله ـ تعالى ـ : بعد أن أمر رسوله ألا يصلى فى المسجد الذى أنشىء ضرارا :

﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ۞ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (1)

انصرف الرسول ﷺ من قباء مواصلا سيره إلى المدينة وقد التف حوله الأنصار ، وفى مقدمتهم بنو النجار أخوال جده عبد المطلب الذين كانوا قد سارعوا إلى التشرف بالترحيب به والسلام عليه فى قباء ، وكان كل أنصارى يمسك بزمام « القصواء » ناقة رسول الله ، متوسلا إلى الرسول أن ينزل عنده ، مرغباً إياه فى ذلك بعبارات تفيض حبًّا وإجلالا ، ولكنه ﷺ كان يقول لهم : « **دعوها فإنها مأمورة** » وظلت الناقة تسير وقد أرخى عنانها ، ورسول الله على ظهرها ، إلى أن وقفت أمام دار أبى أيوب الأنصار ، فقال الرسول ﷺ : « **ها هنا المنزل إن شاء الله** » .

---

(1) التوبة ، الآيتان ١٠٨ ، ١٠٩ .

الرسول يغير اسم يثرب ويسميها المدينة وطيبة :

كان الاسم الذى يطلق على المدينة قبل هجرة رسول الله ﷺ إليها هو « يثرب » فما أن حل بها الرسول البشير حتى غيّر اسمها إلى « المدينة » وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ :

« **للمدينة عشرة أسماء هى : المدينة ، وطَيْبَة ، وطابة ، ومسكينة ، وجابرة ، ومجبورة ، ويندد ـ كجعفر ـ ويثرب ، والدار** » .

وفى صفة دار الهجرة يقول رسول الله ﷺ : « **أمرت بقرية تأكل القُرَى ، يقولون يثرب ، وهى المدينة ، تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد** » [1].

ولقد نهى رسول الله ﷺ عن تسميتها بيثرب فى قوله ﷺ : « **من سمّى المدينة بيثرب فليستغفر الله ، هى طابة ، هى طابة ، هى طابة** » . وهى رواية الإمام أحمد وابن أبى حاتم وابن مردويه بسند جيد عن البراء بن عازب رضى الله عنهما [2].

وفى رواية عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال : « **لا تدعوها يثرب فإنها طيبة ، ومن قال يثرب فليستغفر الله ثلاث مرات ، هى طيبة ، هى طيبة ، هى طيبة** » .

يقول الإمام الصالحى صاحب « سبل الهدى والرشاد » : إن سبب الكراهة فى تسميتها بيثرب إما لكون ذلك مأخوذا من الثَّرَب وهو الفساد ، أو من التثريب وهو المؤاخذة بالذنب . وكان ﷺ يحب الاسم الحسن ، ولهذا أسماها طيبة وطابة ، وأما تسميتها فى القرآن يثرب فذلك حكاية عن قول المنافقين [3].

هذا وقد أحصى بعض كُتّاب السيرة خمسة وتسعين اسما للمدينة مثل الزركشى فى : « إعلام الساجد بأحكام المساجد » ، ومجد الدين الفيروزابادى فى « الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف » ، والسيد نور الدين السمهودى فى « وفاء الوفا بأخبار دار

---

(١) صحيح البخارى كتاب (الحج) ٣/ ٥٠ .

(٢) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ٣ / ٤٢٧ .

(٣) المصدر السابق الصفحة نفسها .

المصطفى » ومحمد يوسف الصالحى الشامى فى « سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد » .

واحتفالا منا بمدينة رسول الله ﷺ وتعميما للفائدة فإننا نعرض نماذج من هذه الأسماء الخمسة والتسعين .

● **أثْرب** . وهى لغة فى يثرب ، وقيل : إن ذلك هو اسم من سكنها أولا .

● **أرض الله** . لقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ (١) .

● **أكالة القُرى** . لقول رسول الله ﷺ : « **أُمِرْت بقرية تأكل القرى** » (٢) وقيل : فى معنى « تأكل القرى » ثلاثة أقوال ، هى : أنها مركز الجيوش الإسلامية . أن أكلها وميرتها من القرى المفتتحة . أنها تفرغ القرى بوجوب الهجرة إليها .

● **البارّة ، والبَرّة** .

لكثرة برها بأهلها خصوصا ، ولجميع العالم عموما ؛ لأنها منبع الأسرار وإشراق الأنوار ، وبها العيشة الهنية والبركات النبوية .

● **الْبَحْرَة ، والْبُحَيْرَة ، والْبَحِيرة** .

يقولون : هذه بحرتنا ، أى : أرضناَ وبلدنا ، والبحيرة مدينة الرسول ﷺ وهو تصغير البحرة ، والعرب تسمى المدن والقرى البحار (٣) .

● **بلد رسول الله** . وذلك لقول رسول الله ﷺ : « **إن الشياطين قد يئست أن تعيد فى بلدى** » (٤) .

● **جَبَار ، الجَابِرَة ، الجَبّارَة ، المجبورة** .

سميت بهذه الأسماء الأربعة لأنها تجبر الكسير ، وتغنى الفقير ، وتجبر على

---

(١) النساء : من الآية : ٩٧ .

(٢) صحيح مسلم فى باب : المدينة تنفى شرارها .

(٣) إعلام الساجد ص ٢٣٥ ، والنهاية لابن الأثير ١ / ٦٢ .

(٤) النهاية ١ / ٢١٧ ونص الحديث هو « إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى جزيرة العرب ، ولكن فى التحريش بينهم » .

الإذعان ؛ لأنها جبرت البلاد على الإسلام [1] .

● **الخيّرة ، الخيرة .**

بالتشديد فى الأولى والتخفيف فى الثانية ـ بمعنى كثيرة الخير . وفى الحديث : «**والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون** » .

● **الدار ، دار المختار ، دار الإيمان ، دار الأبرار .**

وذلك لقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ﴾ [2] .

ولأنها دار المصطفى المختار والمهاجرين والأنصار ، ولقوله ﷺ : « **المدينة قبة الإسلام ، ودار الإيمان ، وأرض الهجرة ، ومبوأ الحلال والحرام** » .

● **دار السنة ، دار الفتح .**

لأن منها انتشرت السنة فى الأقطار ، ومنها فتحت مكة وسائر الأمصار .

● **ذات الحِرَار .**

بكسر الحاء : جمع حرة ـ بفتح الحاء ـ وهى الحجارة السود ؛ لكثرتها بها .

● **ذات النخل :**

ففى الحديث الشريف : « **أريت دار هجرتى ذات نخل وحرة** » .

● **الشافية .**

للحديث الشريف « **ترابها شفاء من كل داء** » .

● **طابة ، طَيْبَة ، طَيِّبة ، طائب .**

روى مسلم عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الله تعالى سمى المدينة طابة** » وفى رواية : « **إن الله أمرنى أن أسمى المدينة طابة** »

---

(١) هذا قول السمهودى فى وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ١ / ١٠ .

(٢) الحشر ، من الآية : ٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعن وهب بن منبه : « **إن اسمها فى كتاب الله ـ هنا يعنى التوراة ـ طَيْبَة وطابة** » .

● **العاصمة .**

وذلك لعصمتها المهاجرين من المشركين ؛ ولأنها الدرع الحصينة .

● **العذراء .**

وذلك لصعوبتها وامتناعها على الأعداء حتى تسلمها مالكها الحقيقى سيد الأنام ﷺ .

● **الغرّاء .**

تأنيث الأغرّ : ذى الغرة والبياض فى مقدم الوجه ، والغرة أيضا : خيار كل شىء ، وغرة الإنسان : وجهه ، والرجل الأغر : يعنى الكريم ، واليوم الأغر : الشديد الحر ، والغراء : نبت طيب الرائحة ، والغراء : السيدة الكبيرة ؛ فسميت المدينة بذلك لأنها سادت القرى .

● **قبة الإسلام .**

وذلك لحديث رسول الله ﷺ: « **المدينة قبة الإسلام** » .

● **المؤمنة ، المباركة .**

لاتصاف أهلها بالإيمان ، ولقول الرسول ﷺ : « **والذى نفسى بيده إن تربتها لمؤمنة**» .

وهى مباركة ؛ لأن الله ـ تعالى ـ بارك فيها بدعائه ﷺ وحلوله بها ، ولقوله ﷺ : «**اللهم اجعل بالمدينة ضعفى ما جعلت بمكة من البركة** » (١) .

● **المحِبّة ، المحَبّبة ، المحبوبة .**

والأسماء الثلاثة مشتقة من لفظ (الحب) فهى محبة لساكنها العظيم ولسكانها المباركين وهى محبوبة منهم ومحببة إليهم .

---

(١) صحيح البخارى (كتاب الحج) والحديث رواه أنس .

● **المحبورة .**

من الحبر ـ بفتح ثم سكون ـ وهو السرور .

● **المحروسة .**

للحديث : « **المدينة مشتبكة بالملائكة ، على كل نقب منها ملك يحرسها** » .

● **المختارة .**

لأن الله ـ تعالى ـ اختارها للمختار من خلقه فى حياته ومماته .

● **المرحومة .**

لأنها دار المبعوث رحمة للعالمين ، وبها تنزل الرحمات .

● **المقرّ .**

من القرار . وفى دعائه ﷺ لها قوله : « **اللهم اجعل لنا بها قرارا ورزقا حسنا** » .

● **المدينة .**

وهى تسمية الرسول ﷺ لها استجابة للتوجيه القرآنى الكريم ، ولتكراره فى القرآن . والمدينة مِنْ : مَدَنَ بالمكان ، أى : أقام به ، أو من : دان إذا أطاع . إذ يطاع السلطان بالمدينة لسكناه بها ، وهى بيوت كثيرة تجاوز حد القرى ولم تبلغ حد الأمصار ، وقيل : يقال لكل مصر ، وتطلق على أماكن كثيرة ، ومع ذلك فهو عَلَمٌ على المدينة النبوية ؛ بحيث إذا أطلق لا يتبادر الفهم إلى غيرها ، ولا يستعمل فيها إلا المعرفة ، أما النكرة فاسم لكل مدينة ، ونسبوا للكل : (مدينى) وللمدينة النبوية (مدنى) للفرق .

● **مدينة رسول الله :**

وذلك لقوله ﷺ فى حديث الطبرانى : « **من أحدث فى مدينتى هذه حدثا ، أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا**»(١) **فأضافها إليه لسكناه بها .**

---

(١) أخرجه البخارى فى الصحيح ٣ / ٥ .

وجماع القول هو تغيير اسم مهاجر رسول الله ﷺ من « يثرب » إلى « المدينة » التى زيد إليها صفة « المنورة » تكريما لها لحلول رسول الله ﷺ بها مقيما فى حياته ، واحتوائها لرفاته الطاهر بعد وفاته ، ثم تعددت أسماؤها وصفاتها فى الأزمنة التالية ، وكل هذه الأسماء تدل على شرف المسمى ، وسمو قدره ، وجلال مكانته .

الرسول يبنى مسجده :

سلف القول أن الأنصار كانوا يمسكون زمام ناقة رسول الله ﷺ ويتوسل الواحد منهم إلى الرسول أن ينزل عنده حوزا للشرف وطلبا للبركة ، ولكنه ﷺ كان يقول لهم : «**دعوها ـ أى : الناقة ـ فإنها مأمورة** » وظل الأمر هكذا إلى أن وقفت أمام دار أبى أيوب الأنصارى ، فقال الرسول : « **ها هنا المنزل إن شاء الله** » .

كان مبرك الناقة عند المكان الذى صار باباً لمسجده ﷺ فقال وهو آخذ فى النزول : ﴿ رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾(١) . وكان المكان مربداً(٢) ليتيمين ، هما : سهل وسهيل ابنا رافع بن أبى عمرو بن عائذ . . . . . . من مالك بن النجار ، وكانا فى حجر أسعد بن زرارة ، فأرسل الرسول إلى بنى النجار بسبب موضع المسجد فقال : « **يا بنى النجار : ثامنونى بحائطكم هذا** » فقالوا : والله لا نطلب ثمنه إلا من الله . . وفى رواية أن الرسول ﷺ دعا بالغلامين وساومهما بالمربد الذى يملكانه ليتخذه مسجدا ، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى أن يقبله هبة وابتاعه منهما ، ثم بناه مسجدا .

وهناك رواية عن النَّوار بنت مالك ـ أم زيد بن ثابت كاتب الوحى ـ أنها رأت أسعد ابن زرارة قبل أن يقدم النبى ﷺ يصلى بالناس الصلوات الخمس ويُجَمِّع بهم فى مسجد بناه فى مربد سهل وسهيل ابنى رافع بن أبى عمرو بن عائذ ، وفى رواية عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن المسجد كان جدارا ليس له سقف وقبلته إلى القدس ، فأمر رسول الله ﷺ بالنخل بالغرقد أن يقطع ، وأمر بتسوية الأرض ، وعمل رسول الله ﷺ مع الصحابة فى

---

(١) سورة « المؤمنون » الآية : ٢٩ .

(٢) المربد : هو الموضع الذى يجعل فيه التمر .

بناء المسجد بنفسه ، وطفق ينقل معهم اللَّبِنَ ترغيبا لهم فى العمل ويقول مرددا بيت عبدالله بن رواحة :

اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

ويقول الزهرى : إن رسول الله ﷺ كان يقول : اللهم لا خير إلا خير الآخرة فارحم المهاجرين والأنصار ، فقد كان لا يقيم الشعر .

وعن أم سلمة رضى الله عنها أنها قالت : « بنى رسول الله ﷺ مسجده فقرب اللبن وما يحتاجون إليه ، فقام رسول الله ﷺ فوضع رداءه ، فلما رأى ذلك المهاجرون الأولون والأنصار ألقوا أرديتهم وأكسيتهم وجعلوا يرتجزون ويعملون ويقولون :

لئن قعدنا والنبيُّ يعمــلُ ذاكَ إذنْ لَلْعَمَــلُ المـضَلَّلُ

وكان الرسول يصرّ على حمل اللبن ولا يرضى أن يتحمل عنه الصحابة بعض المشقة ، فقد روى أسامة بن زيد عن أبيه ـ رضى الله عنهما ـ قال : خرج رسول الله ﷺ ومعه حجر ، فلقيه أُسَيْد بن حُضَيْر ، فقال : يا رسول الله أعطنيه ، فقال : « **اذهب فاحتمل غيره فإنك لست بأفقر إلى الله منى** » .

وفى صفة المسجد يقول خارجة بن زيد بن ثابت : « بنى رسول الله ﷺ مسجده سبعين فى ستين ذراعا أو يزيد ، لَبِنَةً لَبِنَةً من بقيع الْخَبْخَبَة ، وقيل : الْخَبْخَبَة ـ موضع بالمدينة ـ وجعله جدارا ، وجعل سواريه خشبا شُقَّةً شُقَّةً ، وجعل وسطه رحبة ، وبنى بيتين لزوجتيه » .

وعن الإمام جعفر الصادق أن النبى ﷺ بنى مسجده مرتين : بناه حين قَدِمَ أقلَّ من مائة فى مائة ، فلما فتح الله عليه خيبر بناه وزاد عليه مثله فى الدور [1] .

إن بناء الرسول ﷺ بهذه السرعة دلالة على أن الرسول قد شرع فى بناء المجتمع المسلم الذى يشكل المسجد ركيزته الأولى ؛ ففيه تلتقى جموع المسلمين للصلاة والعبادة ودراسة شئونهم والتشاور فى حل مشكلاتهم .

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٣ / ٤٨٥ وما بعدها ، فصل « فى بناء مسجده الأعظم »

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

المؤمنــون جميعــا إخــوة تطبيقا لقــول الله ـ عــز وجــل ـ فى كتابــه العزيــز : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (١) .

لهذا شرع رسول الله ﷺ أول وصوله إلى المدينة فى مؤاخاة المهاجرين والأنصار أخوة صادقة إلى درجة أن يتوارثوا بعد الممات ، وظلت هذه الموارثة قائمة ومقدمة على حقوق القرابة حتى غزوة بدر ونزول آية المواريث .

قال ﷺ : « **تآخوا فى الله أخوين أخوين** » ثم أخذ بيد علىّ بن أبى طالب وقال : « **هذا أخى** » .

وكان حمزة بن عبد المطلب ـ عم رسول الله ـ وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين ، وإليه أوصى حمزة يوم « أحد » إن حدث به حادث الموت ، جعفر أبى طالب (الطيار) ومعاذ بن جبل (وكان جعفر غائبا بأرض الحبشة) . أبو بكر وخارجة بن زهير . وعمر ابن الخطاب وَعِتْبَان بن مالك . أبو عبيدة بن عبدالله الجراح (واسمه عامر) وسعد بن معاذ . عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع . الزبير بن العوام وسلامة بن سلامة بن وَقْش . عثمان بن عفان وأوس بن ثابت (من بنى النجار) . طلحة بن عبيد الله وكعب ابن مالك . سعد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل وأُبَىّ بن كعب (من بنى النجار)مصعب ابن عمير وأبو أيوب خالد بن زيد (من بنى النجار ، وهو أبو أيوب الأنصارى) . أبو حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر بن وقش . عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان . وفى رواية : عمار بن ياسر وثابت بن قيس بن الشماس الخزرجى (خطيب رسول الله). أبو ذر الغفار (جندب بن جنادة وقيل برير بن جنادة) والمنذر بن عمرو . حاطب بن أبى بلتعة وعويم بن ساعدة (من بنى عمرو بن عوف) . سلمان الفارسى وأبو الدرداء (عويمر بن ثعلبة أخو بلحارث بن الخزرج) . بلال مؤذن الرسول وأبو رويحة عبدالله ابن عبد الرحمن الخثعمى . (يروى أن رسول الله ﷺ عقد لأبى رويحة لواء عام الفتح وأمر أن ينادى : من دخل تحت لواء أبى رويحة فهو آمن) .

---

(١) الحجرات ، الآية : ١٠ .

بهذه المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار انتظم سلك الجماعة الإسلامية وتوحدت صفوفهم وانصهرت أرواحهم بعضها فى بعض وصاروا يشكلون جدارا صلبا وحصنا حصينا تجاه شركائهم فى سكنى المدينة وهم اليهود بقبائلهم الثلاث ـ بنى قريظة وبني قينقاع وبنى النضير ـ وبقية من لم يسلموا بعد من الأوس والخزرج ، وصارت الجماعة مؤهلة لأن تخوض الغمار وتستأثر بالنصر وتحوز الفخار .

وثيقة المهادنة والموادعة :

سلف القول بأن مجتمع المدينة كان يتكون من المهاجرين والأنصار ـ وهم الأوس والخزرج ـ واليهود وبقية من لم يسلموا بعد من الأوس والخزرج ، ولقد ذوب الإسلام ما بين الأوس والخزرج من حقد ، وأزال ما بينهما من ضغائن ، ثم آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار على النحو الموضَّح فى الفقرة السابقة ، ولكى تستقر الأحوال فى المدينة كان لا بدّ من خلق جو من الأمن بين جميع سكانها يسطر فى وثيقة مكتوبة تلزم جميع الأطراف ببنود محددة يستشعرون من خلالها الأمان على أنفسهم ، والحفاظ على عقائدهم وأموالهم ، وأن تحترم بنود هذه الوثيقة دون نقض أو إخلال ، وقد أملى النبى ﷺ بنود الوثيقة وارتضتها الأطراف جميعا . وهذا هو نصها (١) .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم ، وإنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على رِبْعتهم (أى : الحال التى جاء الإسلام وهم عليها) يتعاقلون بينهم ، وهم يَفْدون عانيهم (العانى : الأسير) بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو جُشَم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين

---

(١) السيرة لابن هشام ١/ ٥٠١ وعيون الأثر ١/ ١٩٧ والبداية والنهاية ٣/ ٢٢٤ والأموال ٢٠٢ وسبل الهدى والرشاد ٣/ ٥٥٦ ومجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى ، ص : ٤٧ .

المؤمنين ، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى . وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وأن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحا (المفرح : المثقل بالدين والكثير العيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمنٌ مؤمناً فى كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن ، وإن ذمَّةَ الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وأن كل غازية غزت معنا يُعقب بعضها بعضا ، وإن المؤمنين يبىء بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله ، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن غير بينة (أى : قتله بلا جناية منه توجب قتله) فإنه قودٌ به إلا أن يرضى ولى المقتول . وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وأنه لا يحلّ لمؤمن آمن بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدثا ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، لا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله - عز وجل - وإلى محمد ﷺ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأَثِم فإنه لا يُوتِغُ (يهلك) إلا نفسه وأهلَ بيته ، وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى

عوف ، وأن ليهود بنى جُشم مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته ، وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وأن لبنى الشّطَيْبة مثل ما ليهود بنى عوف . وأن البر دون الإثم ، وأن موالى ثعلبة كأنفسهم ، وأن بطانة يهود « يعنى خاصتهم وأهلهم » كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمدﷺ وإنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وأنه من فَتك فبنفسه فتك وأهل بيته ، إلا من ظلم ، وإن الله على أبرّ هذا ، (يعنى على الرضا به) وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم ، وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وأن الجار كالنفس غير مُضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده فإن مرده إلى الله ـ عز وجل ـ وإلى محمد رسول الله ﷺ وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره ، (يعنى أن الله وحزبه المؤمنين على الرضا به) ، وأنه لا تُجار قريش ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على دَهْم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين ، إلا من حارب فى الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قِبَلَهم ، وأن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة » .

يقول الأستاذ الدكتور طه بدوى : إنه بعد بيعة العقبة الثانية وهجرة المسلمين من مكة إلى المدينة وامتزاجهم بالأنصار وتوحدهم معهم داخل نطاق إقليم مشترك ، كل ذلك جعل للمسلمين أرضا يأمنون فيها ، ويسيطرون على بعض مواردها الاقتصادية سيطرة تجعل لدى الأفراد نوعا من الشعور بالتضامن فى تحقيق الخير المشترك الذى يهىء مرحلة التأسيس لمجتمع متميز ، ثم يبقى بعد ذلك العنصر الذى يفضى إلى تحويل هذا التجمع من مجرد مجتمع إنسانى إلى مجتمع سياسى تتوفر له السلطة السياسية ، وقد تحقق ذلك بوصول الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة ، وتولى السلطة فيها بعد أن وطد أركان

قطاعات المجتمع المختلفة بالوثيقة التى اصطلح كثير من الباحثين بتسميتها : « دستور المدينة » (١).

وهكذا نشأت دولة المدينة التى قامت على أساس المواطنة الإسلامية ، وهو أساس جديد لم يكن معروفا قبل ذلك ، ووصفت الوثيقة مجتمع المدينة بأنه أمة من دون الناس، وحلت الرابطة الدينية محل الرابطة القبلية ، ذلك أن العرب لم يكونوا يجتمعون قبل الإسلام إلا على صلات من القرابة والنسب .

لقد ضمت الوثيقة سبعا وأربعين مادة طبقا لتقسيم الدكتور محمد حميد الدين لها ، وقد رأينا أن نعيد عرض الوثيقة طبقا للتقسيم الذى قدمها الدكتور حميد الدين من خلاله (٢).

بسم الرحمن الرحيم

١ ـ هذا كتاب من محمد النبى ، رسول الله ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ، وأهل يثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم .

٢ ـ أنهم أمة واحدة من دون الناس .

٣ ـ المهاجرون من قريش على رَبْعَتِهِمْ ، يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٤ ـ وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٥ ـ وبنوالحارث بن الخزرج على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالقسط والمعروف بين المؤمنين .

---

(١) أصول علم السياسة : ٣٧ ـ ٤٢ .

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ص : ٥٩ وما بعدها .

معانى المفردات :

ـ على ربعتهم : أى أمرهم وشأنهم الذى كانوا عليه . وقال السهيل فى شرح السيرة : الحال التى جاء الإسلام وهم عليها .

ـ التعاقل : إعطاء المعاقل ، وهى الديات . أى : يكونون على ما كانوا عليه من إعطاء الديات وأخذها فى الجاهلية .

ـ العانى : الأسير .

٦ ـ وبنو ساعدة على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٧ ـ وبنو جشم على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٨ ـ وبنو النجار على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٩ ـ وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١٠ ـ وبنو النَّبيت على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١١ ـ وبنو الأوس على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١٢ ـ وأن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء ، أو عَقْلٍ (*).

١٣ ـ وأن لا يُحالِفَ مؤمنٌ مولى مؤمنٍ دونه .

١٤ ـ وأن المؤمنين المتقين ، أيديهم على كل من بغى منهم ، أو ابتغى دَسِيعَةَ (*) ظلم ، أو إثماً ، أو عدواناً ، أو فساداً بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعا ، ولو كان ولد أحدهم .

(*) المفرح : المثقل بالدين ولا يجد قضاءه ، وقيل : هو الذى لا مال له ، وقيل : هو الذى لا عشيرة له .
العقل : الدية .

(*) الدسع : الدفع والعطية . وفى اللسان : أى طلب دفعا على سبيل الظلم .
الغازية : الجماعة تخرج للغزو .
يعقب بعضهم بعضا : أى يتناوبون . فإذا خرجت طائفة غازية ثم عادت تكلف أن تعود ثانية حتى تعقبها أخرى غيرها ، يعنى أن يكون الغزو بينهم بالتناوب .
يبىء بعضهم عن بعض : أى يتعادلون ويتكافأون ويتساوون .

١٥ ـ ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن .

١٦ ـ وأن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض ، دون الناس .

١٧ ـ وأنه من تبعنا من يهود ، فإن له النصرة والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

١٨ـ وأن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم .

١٩ ـ وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً .

٢٠ ـ وأن المؤمنين يُبِىءُ بعضهم عن بعض ، بما نال دماءهم فى سبيل الله .

٢١ ـ وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .

٢٢ ـ وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ، ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن .

٢٣ ـ وأنه من اعتبط (*) مؤمناً قتلا عن غير بينة ، فإنه قود به ، إلا أن يرضى ولى المقتول بالعقل ، وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

٢٤ ـ وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ، أو يؤويه ، وأن من نصره ، أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

٢٥ ـ وأنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله وإلى محمد .

٢٦ ـ وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ، ماداموا محاربين .

٢٧ ـ وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

(*) اعتبطه : أى قتله بلا جناية منه توجب قتله .

القود : القصاص فى القتل ، بمعنى أن القاتل يقاد به فيقتل . المحدث : الجانى .

العدل : الفداء . والصرف : التوبة . وقيل : الصرف القيمة ، والعدل : المثل (بكسر ثم سكون)

يوتغ : يهلك .

٢٨ ـ وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف .

٢٩ ـ وأن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف .

٣٠ ـ وأن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف .

٣١ ـ وأن ليهود بنى جُشَم مثل ما ليهود بنى عوف .

٣٢ ـ وأن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف .

٣٣ ـ وأن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه ، وأهل بيته .

٣٤ ـ وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

٣٥ ـ وأن لبنى الشُّطَيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن البر دون الإثم (*).

٣٦ ـ وأن موالى ثعلبة كأنفسهم .

٣٧ ـ وأن بطانة يهود كأنفسهم .

٣٨ ـ وأن لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد .

٣٩ ـ وأنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته ، إلا من ظلم ، وأن الله على أبر هذا .

٤٠ ـ وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم .

٤١ ـ وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم .

٤٢ ـ وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

(*) البرّ دون الإثم : أى أن البر بين أهل الصحيفة يحول بينهم وبين الإثم . يعنى أن البر والوفاء ينبغى أن يكون حاجزا عن الإثم .

حجزه فانحجز : منعه وحال بينه وبين غرضه .

النصر هنا بمعنى المناصرة .

٤٣ ـ وأن يثرب حرام جوفها (*) لأهل هذه الصحيفة .

٤٤ ـ وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

٤٥ ـ وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .

٤٦ ـ وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث ، أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ، وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره .

٤٧ ـ وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

٤٨ ـ وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .

٤٩ ـ وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ، ويلبسونه(*) فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين .

٥٠ ـ على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم .

٥١ ـ وأن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة (*). وأن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره .

٥٢ ـ وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم وأثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله ﷺ .

لقد كانت وثيقة الموادعة تلك مترعة بأسباب السماحة الإسلامية ، مليئة بالمبادىء

(*) الجوف : المطمئن من الأرض ، والجمع أجواف .
يظنّ أن المراد بالحرمة هنا حرمة الجوار فلا يجير الجار مستجيراً إلا بإذن مجيره . وذهب آخرون إلى أن معنى هذا النص ألا تجير امرأة إلا بإذن أهلها . والأول أقرب إلى الصواب والله أعلم . ويؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ « قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء » بعد أن شكت إليه أن أخاها « على بن أبى طالب » أراد أن يقتل رجلا من المشركين أجارته بأمانها . والحديث متفق عليه .
الحدث : الأمر الحادث المنكر .

(*) يلبسونه من لبسه : إذا خالطه واشترك فيه .

(*) إلى هنا ينتهى النص طبقا لرواية ابن هشام ، وإن ماتلا ذلك من زيادة فهى من « عيون الأثر » ١ / ١٩٧ ، ١٩٨ .

الإنسانية ، فمن أبرز موادها أن « لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » و « من خرج من المدينة فهو فى أمان ومن قعد فهو فى أمان إلا من ظلم وأثم » و « المسلمون جميعا ضد من ظلم أو بغى أو اعتدى أو أفسد بين المؤمنين ولو كان ولد أحدهم » و « أنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم » و « أن بطانة يهود كأنفسهم » و « أنه لا يأثم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم » و « أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين » و « أن الجار كالنفس غير مُضَارٍّ ولا آثم » .

وكان من أنصع مواد هذه المعاهدة أن التحكيم فى شئونها مردّه إلى الله وإلى الرسول ﷺ وذلك فى الفقرة رقم (٤٢) التى تقرر : « وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ وأن الله على أتْقَى ما فى هذه الصحيفة وأبرّه » .

يقول الدكتور جعفر عبد السلام : إن المتمعن فى نصوص الوثيقة يستخلص منها كيف اهتم الرسول ﷺ ببناء الأمة ، أى : تحديد الروابط السياسية والاجتماعية والقانونية بين فئات السكان ، فالرسول برغم إقامته الدولة على أساس العقيدة ، فإنه لم يغفل فئات السكان الأخرى التى تعيش معه فى مكان واحد فى الدولة الجديدة ، يؤدون واجبهم نحوها فى الذود عنها ، وصيانة أمنها الداخلى والخارجى ، والحفاظ على البناء الأساسى الذى وطده الرسول فى يثرب [١].

هذا فضلا عن عناصر أساسية فى بناء الدولة الحاضرية اشتملت عليها الوثيقة وتنبه إليها صاحب البحث يمكن عرض أهم مبادئها على النحو التالى :

● إن تحديد العلاقات بين الأطراف يضعنا أمام لجنة تأسيسية هى كل بطون المدينة والمهاجرين إليها فضلا عن قائدها ونبيّها ، وهذه اللجنة التأسيسية تضع عقدا اجتماعيا ترسى فيه مبادىء دستورية توضح أساس التعامل بين مختلف فئات المجتمع .

● شهدت أرض يثرب عملية بناء ضخم تمت فى العام الأول للهجرة ، فقد كان

---

(١) وثيقة إنشاء الدولة الإسلامية فى المدينة ص ٣٥١ من مجلة الشريعة والقانون ، العدد الثانى ـ تصدرها كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر .

الرسول ﷺ يبحث عن إقليم الدولة ، أو الإقليم الذى يأوى إليه لكى يتمكن من نشر دعوة الإسلام وبناء الأمة الإسلامية ، وقد وجد الرسول ضالته فى المدينة ، لذلك اهتم بأمر هذا الإقليم ، فحدده وجعله حرما آمنا لمن يأوى إليه ، وإذا ما تتبعنا حياةالرسول فى المدينة نجده ﷺ قد اهتم بأمور عدة أهمها ثلاثة إنجازات كبيرة :

أولها : المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وهى عملية فريدة لم تتكرر فى تاريخ الإنسانية كلها .

وثانيها : وضع هذه الوثيقة .

وثالثها : بناء المسجد الذى هو دائما فى الإسلام وحدة دينية واجتماعية وسياسية .

● اهتم الرسول بفكرة إقليم الدولة ؛ حيث نصّ فى الوثيقة على أن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، أى : تحريم قتل الأنفس ونهب الأموال ، بل تحريم قطع الشجر وقتل الطير .

وقد أورد المرحوم ظافر القاسمى أنه ورد فى بعض المراجع أن الرسول ﷺ أرسل بعض أصحابه لكى يضعوا أعلاما على حدود حرم المدينة بين لابتيها شرقا وغربا ، وبين جبل ثور فى الشمال وجبل عير فى الجنوب ووادى العقيق [1].

● كان الضمان الاجتماعى يشكل مظلة ظليلة على مجتمع الدولة الإسلامية فى المدينة، فقد جاء به الإسلام شاملا وقام نظام الدولة الإسلامية على فرض الزكاة ، وفرض توزيع أموال من بيت المال على المحتاجين ، وهو ما نصت عليه الوثيقة فى وضوح . ذلك أن المسلمين لا يتركون مفرحاً ـ أى : مثقلا بالدين ـ وإنما يعطونه بالمعروف فضلا عن الفداء من الأسر وتحمل الديات .

هذا وقد ورد بالصحيفة نصوص على حرية العقيدة وعلى التأكيد على المساواة بين عناصر الدولة .

ومجمل القول أن هذه الوثيقة تعدّ سبقاً تاريخيا فى وضع وثائق بناء الدول ، وفى

---

(١) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى ، ص : ٣٥ .

صياغة مبادىء وأسس تتضمنها الوثائق الدستورية الحديثة منذ أن بدأت الدول تعرف هذا المصطلح فى القرن السادس عشر الميلادى حتى الآن .

إن اليهود لم يمهد لهم احترام فى التاريخ بمثل ما مهدت لهم هذه الوثيقة المحمدية الشريفة ، فقد كان لهم نصيب فى المغنم إذا ما قاتلوا مع المسلمين مما جعل بعض المؤرخين يعلل هذا التسامح العظيم تارة بأن الإسلام كان لا يزال ضعيفا آنذاك ، وتارة أخرى بأن هذا العهد كتب قبل أن تفرض الجزية ، ولكن الأمر ليس كذلك تماما ؛ لأن اليهود هم الذين نقضوا العهد ، وكان الإسلام قد خاض غزوة بدر ، وكان النصر المؤزر الكبير حليف المسلمين .

لم يصبر اليهود على فضيلة الأمانة وحفظ العهد اللذين ألزمهم بها وثيقة العهد ، فعاودهم الحنين إلى طبيعتهم الغادرة ، وسجيتهم المخادعة ، فما أن يئس كفار قريش من الإيقاع بين مسلمي المدينة من مهاجرين وأنصار حتى كتبوا إلى يهود المدينة بعد موقعة بدر مهددين ومرغبين ، وهنا بدأ الغدر يسيطر على نفوس اليهود ، فأجمعت بنو النضير على الغدر ، ورسموا خطة خسيسة بأن أرسلوا إلى النبى ﷺ قائلين : «اخرج إلينا فى ثلاثين رجلا من أصحابك ، ولنخرج فى ثلاثين حبراً حتى نلتقى فى مكان كذا » وقد عقدوا العزم على قتل الرسول ﷺ ثم ما لبثوا أن قال بعضهم لبعض: كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلا من أصحابه كلهم يحب أن يموت قبله؟! فأرسلوا إليه : كيف تفهم ونفهم ونحن ستون رجلا ؟ اخرج فى ثلاثة من أصحابك ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا فليسمعوا منك ، فإن آمنوا بك آمنا كلنا وصدقناك .

فخرج النبى ﷺ فى ثلاثة نفر من أصحابه ، وخرج اليهود مشتملين على الخناجر، وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ فأرسلت امرأة ناصحة من بنى النضير إلى أحد بنى أخيها وهو رجل مسلم من الأنصار ، وأخبرته بعزم بنى النضير على الغدر برسول الله ﷺ فأقبل أخوها سريعا حتى أدرك النبى ﷺ فسارّه بخبره قبل أن يصل إليهم ، فرجع النبى، فلما كان من الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحاصرهم وقال لهم : «إنكم لا تأمنون عندى إلا بعهد تعاهدونىٰ عليه » فأبوا أن يعطوا عهدا ، فقاتلهم

يومهم ذلك هو والمسلمون ، ثم غدا الغد على بنى قريظة بالخيل والكتائب ، ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه ، فانصرف عنهم وغدا إلى بنى النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم ما أقلّت الإبل إلا الحلقة .

وهكذا أبت على اليهود طبيعتهم الغادرة إلا أن يخونوا العهد ، وينقضوا الوثيقة ، فكانوا البادئين فى أسباب إجلائهم عن مدينة رسول الله ﷺ وتلك سليقتهم على مرّ السنين وكرّ الدهور .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



الفصل الرابع

هدنة الحديبية
أو
صلح الحديبية



صلح الحديبية

أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ينظم شئون دولة الإسلام ، ويوطىء أكناف الأمن فيها ؛ لأن جماعات اليهود ، وزرافات المنافقين كانت للرسالة وصاحبها بالمرصاد ، لا تلبث أن تشعل فتنة أو تنقض عهدا بين الحين والحين ، وكان الرسول ﷺ لايغادر المدينة إلا إلى غزوة يدرأ بها خطرا متوقعا أو عدوا متربصا ، فلما كان شهر ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة عقد العزم على زيارة بيت الله الحرام ، وأداء شعائر العمرة .

لم يكن الرسول ﷺ ليغادر المدينة إلا وقد اطمأن إلى أمن أهلها إبان غيابه ، وشعورهم بالاستقرار ، وأنهم بمنجاة من عدوّ كامن ، أو مهاجم متربص .

لقد قضى رسول الله السنة الخامسة للهجرة كلها وشهورا من السنة السادسة قبل ميعاد مغادرة المدينة إلى مكة وهو لا يكاد ينتهى من غزوة إلا إلى أخرى ، وذلك فضلا عن نصر الله له فى الخندق والقضاء على اليهود من فرق الأحزاب ، وهم بنو قريظة الناقضو العهد المتآمرون على المسلمين .

وخاض رسول الله ﷺ فى السنة الخامسة غزوة ذات الرقاع ، وغزوة دومة الجندل ، وغزوة الخندق أو الأحزاب ، ثم فى إثرها مباشرة غزوة بنى قريظة التى استأصل فيها شأفتهم وقضى على كل أسباب تآمرهم وأجلاهم عن المدينة .

فلما كانت السنة السادسة خاض رسول الله ﷺ غزوة بنى لحيان فى جمادى الأولى ، وأتبعها بغزوة ذى قَرَد ، ثم غزوة بنى المصطلق أو المريسيع فى شهر شعبان .

بذلك يكون رسول الله ﷺ قد تخلص من شرور أعدائه ، وأمن على نساء المهاجرين والأنصار وذراريهم إن هو غادر المدينة إلى أداء العمرة ، وبخاصة بعد أن نصره الله على

الأحزاب فمزق شملهم ، وعلى بنى قريظة من يهود المدينة فهزمهم وأجلاهم وأمن شرورهم .

المسير إلى مكة :

خرج رسول الله ﷺ من المدينة بعد أن استعمل عليها نميلة بن عبد الله الليثى يريد زيارة البيت ، وسار ومن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب لا يريد قتالا فى ألف وأربعمائة ـ على أصح الروايات ـ فلما كان بذى الحليفة(١) قلد الهدى وأشعره(٢) وأحرم بالعمرة هو وأصحابه ؛ ليأمن الناس من حربه ، وليعلمهم أنه خرج لزيارة البيت الحرام ، حتى إذا كان بعسفان أرسل بشر بن سفيان الكعبى يستكشف له الطريق ، فعاد الرجل من مهمته يخبر رسول الله بأن قريشا سمعت بمسيره ، فخرجت بنسائها وصبيانها ونزلوا بذى طوى ـ ضاحية لمكة ـ يعاهدون الله لاتدخلها عليهم أبدا ، وخرج خالد بن الوليد بخيله ورجاله إلى موضع يقال له كراع الغميم بين مكة والمدينة ، فقال رسول الله ﷺ معلقاً على حشود قريش : « **ياويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلّوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة** » ـ كناية عن الموت ـ .

ثم قال ﷺ : « **مَنْ رجلٌ يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟** » فقال رجل من أسلم ، أنا يارسول الله : فسلك بهم طريقا وعرا كثير الحجارة بين شعاب ، فلما أفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادى ، أمر رسول الله ﷺ أن يسلك الناس طريقا يؤدى إلى ثنية المرار مهبط الحديبية ، فسلكوا ذلك الطريق ، فلما رأت خيل قريش غبار مسيرة الرسول وصحابته رجعوا قافلين إلى قريش ، واستمر رسول الله حتى إذا سلك فى

---

(١) هى مايعرف حاليا بآبار علىّ ، وهى ميقات أهل المدينة .

(٢) قلدها : يعنى وضع فى أعناقها شيئا كقطعة من الجلد لِيُعْلَم أنها هَدىٌ .

وأشعرها : يعنى ضرب صفحة السنام اليمنى بحديدة فلطخها بالدم إشعارا بأنها هَدْىٌ . وكانت هذه عادة العرب فيما يهدون إلى البيت الحرام من الذبائح .

ثنية المرار بركت ناقته ، فقال الناس : خلأت الناقة ـ يعنى بركت ـ فقال الرسول ﷺ : **«ماخلأت وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل بمكة »** ثم أردف ﷺ قائلا : **«لا تدعونى قريش اليوم إلى خُطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها »** وهكذا كان محمد ﷺ إنسانا عاطفا حفيًّا على ذوى رحمه وإن كانوا يريدون قتله .

ثم قال الرسول للناس : « انزلوا » قيل له : يارسول الله ما بالوادى ماء ننزل عليه ، فأخرج ﷺ سهما من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه من قيل : هو ناجية بن جندب ابن عمير بن يعمر بن أسلم سائق بدن رسول الله ، وقيل : بل هو البراء بن عازب ـ فنزل به فى قليب من تلك القلب فغرزه فى جوفه ، فجاش بالرَّواء وتدفق بالماء الغزير .

فلما اطمأن رسول الله ﷺ فى منزله الذى اختاره للركب ، أتاه بُدَيْل بن ورقاء الخزاعى فى جمع من قومه ، فكلموا رسول الله وسألوه عن مقدمه ، فأخبرهم أنه لم يأت لحرب يخوضها ، وإنما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته ، فرجعوا إلى قريش ، وهنا تجرى بين الفريقين مايسمى بلغة العصر : محادثات ، ثم تتبعها مفاوضات .

لقد استغرقت هذه المحادثات أربع جولات ثم كانت المرحلة الخامسة هى المفاوضات التى انتهت بعقد الهدنة أو الصلح الذى عرف فى تاريخ السيرة النبوية بصلح الحديبية .

جـولات المحـادثات :

كانت الجولة الأولى متمثلة فى بديل بن ورقاء الخزاعى ورجاله ـ الذين مر ذكرهم ـ الذين رجعوا لقريش فقالوا : يامعشر قريش ، إنكم تعجلون على محمد ، وإن محمدا لم يأت لقتال ، إنما جاء زائرا هذا البيت ، فلم تحسن قريش الاستماع إلى كلام الخزاعى ورهطه ، وخاطبوهم فى خشونة قائلين : وإن جاء ولا يريد قتالا !! فوالله لايدخلها علينا عنوة أبدا ، ولاتتحدث بذلك عنا العرب .

والأمر الجدير بالذكر هنا أن خزاعة كانت عيبة نصح رسول الله ، أى : خاصته وأصحاب سرّه : مسلمها ومشركها ، لايخفون عنه شيئا كان بمكة .

وكانت الجولة الثانية من المحادثات أو الحوار حين بعثت قريش إلى رسول الله مِكْرَز

ابن حفص بن عامر بن لؤى ، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلا قال : هذا رجل غادر ، فلما انتهى إلى رسول الله وكلمه ، قال له الرسول نحواً مما قال لبديل وأصحابه ، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكانت جولة فاشلة .

وكانت الجولة الثالثة حين بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ الحُليس بن علقمة بن زبّان ـ وكان يومئذ سيد الأحابيش [1] ـ وهو أحد بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : إن هذا من قوم يتألهون ـ أى : يتعبدون ويعظمون أمر الإله ـ فابعثوا الهَدْىَ فى وجهه حتى يراه ـ فلما رأى الهدى يسيل عليه من جانب الوادى فى قلائده ، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محلّه ـ أى : الموضع الذى ينحر فيه ـ رجع إلى قريش دون أن يصل إلى رسول الله إعظاما لما رأى ، فقال لهم ذلك ، فقالوا له : اجلس فإنما أنت أعرابى لاعلم لك .

هنا غضب الحليس وقال : يامعشر قريش : والله ماعلى هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم ، أيُصَدُّ عن بيت الله من جاء معظما له ؟ والذى نفس الحليس بيده لتُخَلُّنَّ بين محمد وبين ماجاء له ، أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد . فقالوا له وقد استشعروا غضبه : مه ، كفّ عنا ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا مانرضى به . فكانت جولة محادثات ليست بين الرسول والحليس ، وإنما بين الحليس وقريش ، وكانت أقرب إلى النجاح على كل حال ؛ لأنها مهدت للجولة الرابعة التى كانت حاسمة .

بدأت الجولة الرابعة حين بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفى ، ولكنه قبل أن يتجه إلى رسول الله رأى أن يستوثق لنفسه من قريش التى تقرّع كل من يعود إليها من عند رسول الله ، قال عروة موجها كلامه إلى قريش : يامعشر قريش ، إنى قد رأيت مايلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد ـ يعنى الواحد منكم مثل والدى ـ وقد سمعت بالذى نابكم ، فجمعت من أطاعنى من قومى ثم جئتكم حتى آسيتكم ـ يعنى عاونتكم ـ بنفسى . قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم . فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين

---

(١) الأحابيش : من انضموا إلى قريش وليسوا منها ، وحُبْشِىّ : جبل بأسفل مكة ، يقال : به سمى أحابيش قريش .

يديه ، ثم قال : يامحمد ، أجمعت أوشاب الناس ، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم ؟ إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله ألا تدخلها - يعنى مكة - عليهم عنوة أبدا ، وايم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا [1] .

هنا غضب أبو بكر - وكان قاعدا خلف رسول الله - فقال على غير سليقته لعروة : امصص بظر اللات ، أنحن ننكشف عنه ؟! قال عروة : من هذا يامحمد ؟ قال هذا ابن أبى قحافة . قال مشيرا إلى أبى بكر : أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها . ولكن هذه بتلك . ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله فى الحديد ، فجعل يقرع يد عروة إذا تناول لحية رسول الله ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل ألا تصل إليك . فيقول عروة : ويحك - ما أفظك وأغلظك !! فقال عروة : من هذا يامحمد ؟ قال : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة . قال : أى غُدَر : وهل غسلْتُ سوءتَكَ إلا بالأمس؟[2] فكلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم به أصحابه ، وأخبره أنه لم يأت يريد حربا .

فقام عروة من عند رسول الله ﷺ وقد رأى مايصنع به أصحابه من تعظيم : لا يتوضأ إلا ابتدروا وَضُوءهُ ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه ، فرجع إلى قريش فقال : يامعشر قريش ، إنى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله مارأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا ، فروا رأيكم .

إن قريشا كانت شديدة العناد إلى المدى الذى يجعلها أقرب إلى التجمد الأحمق ، فلم تستجب لسفارة عروة وقد وصفته بالأمانة فى قولهم : ماأنت عندنا بمتهم .

---

(١) أوشاب الناس : يعنى أخلاط الناس . بيضة الرجل : أهله وقبيلته وموطنه . تفضها : يعنى تكسرها . العوذ : جمع عائذ ، وهى من الإبل الحديثة النتاج . والمطافيل : التى معها أولادها ، يريد أن قريشا خرجت ومعها نساؤها وأطفالها .

(٢) أراد عروة بقوله هذا أن المغيرة بن شعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلا من بنى مالك من ثقيف ، فتهايج الحيان من ثقيف : بنو مالك رهط المقتولين ، والأحلاف رهط المغيرة ، فتحمل عروة دية المقتولين ثلاث عشرة دية .

حينئذ تجرى أحداث خطيرة تنتهى ببيعة الرضوان قبل أن يقر قرار قريش على الهدنة .

رسول الله ﷺ لسعة صدره ووفرة سماحته يرسل خراش بن أمية الخزاعى إلى قريش بمكة محمولا على بعير لرسول الله ﷺ اسمه الثعلب ؛ ليبلغ أشرافهم عن رسول الله ماجاء له ، ولكنهم يعقرون جمل رسول الله ويهمون بقتل خراش ، فتتصدى لهم الأحابيش ويحفظون على خراش حياته ويخلون سبيله .

إن قريشا لا تكتفى بحماقتها تلك ، وإنما تبعث أربعين رجلا ـ وقيل : خمسين ـ وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا لهم من أصحابه أحدا ، ولكن حرس رسول الله يأخذونهم أخذا ، ويحضرونهم أمام رسول الله ﷺ فيعفو عنهم ، ويخلى سبيلهم برغم سوء فعلتهم وحماقاتهم ، فقد كانوا رموا فى عسكر رسول الله بالحجارة والنّبل .

ثم يمضى رسول الله ﷺ فى مسعاه الحميد ، ويفكر فى إرسال أحد كبار صحابته سفيرا لدى قريش حتى ينجز ما لم توفق إليه رسل قريش . دعا رسول الله عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة مبلغا أشراف قريش ما جاء له ، فقال عمر : يارسول الله إنى أخاف قريشا على نفسى ، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى ـ يعنى يحمينى ـ وقد عرفت قريش عداوتى إياها ، وغلظتى عليها ، ولكنى أدلك على رجل أعزّ بها منى ، إنه عثمان بن عفان . فدعا رسول الله ﷺ عثمان فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم بأن رسول الله لم يأت لحرب وإنما جاء زائرا للبيت معظما لحرمته .

ويتوجه عثمان إلى مكة ويلتقى بأبى سفيان وعظماء قريش ـ وكان أبان بن سعيد بن العاص قد لقيه حال دخوله مكة فأجاره ـ ويبلغهم رسالة رسول الله ، فلما فرغ من إبلاغها قالوا له : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فيقول لهم ـ وقد ربى فى مدرسة محمد ﷺ : ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ فاحتبسته قريش عندها ، ولم تسمح له بالعودة ، فارتكبت بذلك جرما كبيرا ، وهنا يمكن المقارنة بين سماحة رسول الله ﷺ مع الأربعين أو الخمسين قرشيا الذى رموا معسكره بالحجارة والنبل حين أمر

بتخلية سبيلهم ، وعفا عنهم ، وقد كانوا مخربين مسلحين ولم يكونوا رسلا ، وبين فعلة قريش فى حجزهم عثمان الذى كان سفيرا لرسول الله . لقد كان الموقف متسما بالغرابة والاستنكار لسوء ما فعلت قريش بحجز عثمان ، والحيلولة دون رجوعه إلى معسكر رسول الله ﷺ .

بيعة الرضوان :

لم يلبث الموقف أن تأزم حين أبلغ رسول الله أن عثمان قد قتلته قريش ، مما أدى إلى تحول كامل فى كل الخطوات التى كان يمكن اتخاذها فى نطاق السلم ومزيد من المفاوضات ، فيصدر رسول الله أمرا بالقتال فى قوله ﷺ: « **لانبرح حتى نناجز القوم** » .

يروى الصحابى سلمة بن الأكوع قائلا : بينما نحن جالسون قائلون ـ أى : مسترخون وقت الظهيرة ـ إذ نادى منادى رسول الله ـ وكان عمر بن الخطاب ـ : أيها الناس ، البيعة البيعة ، فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة . وأقبل الناس يبايعون متزاحمين ثم لبسوا السلاح وقامت أم عمارة إلى عمود كانت تستظل به فأخذته بيدها وشدَّت سكينا فى وسطها .

يقول عبد الله بن أبى بكر : كان الناس يقولون بايعهم رسول الله ﷺ على الموت وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله لم يبايعنا على الموت ولكن بايعنا على ألا نفرّ .

والحق أن الرواية الراجحة فى هذا الموقف أن الصحابة المرافقين لرسول الله ﷺ بعديدهم الألف والأربعمائة قد بايعوا رسول الله على عدم الفرار ، فإما الفتح وإما الشهادة ، ولم يتخلف منه أحد إلا الجدُّ بْنُ قيس ، وكان من المنافقين ، إن سلمة بن الأكوع يصفه حال تخلفه قائلا : لكأنى أنظر إليه لاصقا يإبط ناقته يستتر بها من الناس .

لقد بايع كل الصحابة رسول الله إلا عثمان الذى كان الرسول ﷺ يرجح أنه محتجز وليس مقتولا . فعزَّ عليه ﷺ ألا يكون مبايعا من المبايعين ، وهو يعلم قدر هذه البيعة وثوابها ، فبايع عنه بأن وضع يده الشريفة اليمنى على يده الشريفة اليسرى وقال :

«اللهم إن هذه بيعة عثمان فإنه فى حاجتك وحاجة رسولك ، فأنا أبايع عنه» .

كانت البيعة تحت سَمُرَةٍ ، وهى واحدة شجر السَّمُر وهو الطلح وسميت بيعة الرضوان ؛ لقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى شأنها : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ (١) .

وسميت أيضا بيعة الله لقوله ـ تعالى ـ فى شأنها : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (٢) .

وفى أجر المبايعين قال رسول الله ﷺ : **«لايدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»**(٣) .

كانت بيعة الرضوان بمثابة مهرجان للصمود وللفداء . تقول الرواية : إن أول من بايع رسول الله ﷺ هو سنان بن أبى سنان الأسدى ، قال لرسول الله : أبايعك على مافى نفسك ، فقال ﷺ : وما فى نفسى ؟ قال : أضرب بسيفى بين يديك حتى يظهرك الله أو أقتل . فصار الناس يقولون لرسول الله ﷺ : نبايعك على مابايعك عليه أبو سنان . ومن الصحابة من بايع أكثر من مرة ، فقد بايع الصحابى سلمة بن الأكوع ثلاث مرات : مرة مع أول المبايعين ، ومرة مع أواسطهم ، ومرة مع أواخرهم ، ومن الذين بايعوا أكثر من مرة عبد الله بن عمر ؛ فقد بايع مرتين .

عجيب وعظيم أمر هؤلاء الصحابة الألف والأربعمائة الذين بايعوا محمداً ﷺ تحت الشجرة على الثبات والنصر أو الشهادة ، وهم يعلمون حق العلم أنهم سيواجهون قريشا وحلفاءها وأعوانها بكل ما تملك قريش من فرسان وعتاد وأموال وأحلاف . وأين ؟ إنه فى عقر دارها ، إنها بكل المقاييس المادية مغامرة غير محسوبة العواقب ، ولكن مقاييس رجال محمد لم تكن كذلك وإنما كانت مستمدة من إيمانهم بعقيدتهم وأنهم فى سبيل الله يقاتلون ، وقد ألفوا أن الله يدافع عن الذين آمنوا ، وأنه ناصرهم

---

(١) الفتح ، الآية : ١٨ .

(٢) الفتح ، الآية : ١٠ .

(٣) السيرة الحلبية ٢/ ٢٠ .

على قلة عددهم ، ألم ينصرهم فى بدر على قلة عددهم !! لقد صدق سنان بن أبى سنان الأسدى حين قال لرسول الله ﷺ : أبايعك على ما فى نفسك ، فقال له الرسول : « ومافى نفسى ؟» قال : أضربُ بسيفى بين يديك حتى يظهرك الله أو أقتل . وكذلك صدق الناس حين قالوا لرسول الله : نبايعك على ما بايعك عليه سنان .

الجولة الأخيرة من المفاوضات وعقد الصلح :

ليس ثمت شك فى أن قريشا قد علمت ببيعة المسلمين لرسول الله على القتال حتى النصر أو الشهادة ، ولقد خبرت قريش بأس المسلمين وبسالتهم قبل أربع سنوات فى بدر ، ثم قبل عام واحد لمست صبرهم واستماتتهم أمام الخندق ، ولاشك أيضا فى أن أخبار المسلمين فى المدينة وهزيمتهم لبنى قريظة المعتصمين بقلاعهم المترسين خلف حصونهم كانت ماثلة أمامهم .

كذلك كانت لاتزال تصك آذانهم الكلمات التى ألقاها بديل بن ورقاء الخزاعى فى مسامعهم ، والنصائح التى وجهها إليهم الحليس بن علقمة سيد الأحابيش ، والصورة التى نقلها إليهم سفيرهم عروة بن مسعود الثقفى عن شخصية الرسول ﷺ وتعظيم رجاله له ، وأدبهم فى حضرته ، وتعلقهم به وتمسكهم بدينه ، وأنهم لا يسلمونه أبدا . ونصائح عروة لهم فى قوله : إنه ـ أى : رسول الله ـ عرض عليكم رشدا فاقبلوا ما عرض عليكم ، فإنى لكم ناصح مع أنى أخاف ألا تُنْصَرُوا عليه .

قال جماعة من عقلاء قريش : إن الخير فى أن نصالح محمدا على أن ينصرف عنا عامه هذا ولا يخلص إلى البيت حتى يسمع من سمع بمسيره من العرب أناّ قد صددناه ، ويرجع قابلا ـ أى : العام القادم ـ فيقيم ثلاثا وينحر هَدْيَهُ وينصرف ، ويقيم ببلدنا ولا يدخل علينا ، فأجمعوا على الصلح والموادعة ، اقترحوا وفدا من ثلاثة على رأسهم خطيب قريش سهيل بن عمرو ، وأما الاثنان الآخران فهما حويطب بن عبد العزّى العامرى ومِكْرَز بن حفص بن الأخيف ، وقالوا لسهيل : اذهب إلى محمد فصالحه ، وليكن فى صلحك ألا يدخل مكة عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب أنه دخل علينا عنوة .

شروط الصلح :

ذهب سهيل إلى رسول الله ﷺ فلما رآه الرسول قال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا ، وفى رواية أن الرسول قال لصحبه : سهل أمركم . جلس رسول الله ﷺ متربعا ، وكان واقفا على رأسه كل من عباد بن بشر وسلمة بن أسلم بن حريش وهما مقنّعان بالحديد ، فبرك سهيل على ركبتيه ـ وكان حريا به أن يفعل ذلك ، لأنه كان أسيرا فى غزوة بدر ، وافتدته قريش ، فكلم رسول الله فأطال الكلام وارتفعت الأصوات وانخفضت ، فقال عباد بن بشر لسهيل : اخفض من صوتك عند رسول الله ، وأجرى سهيل حواره مع رسول الله والصحابة جلوس ، واتفقا على أن توضع الحرب بينهما عشر سنين ، وأن يأمن الناس بعضهم بعضا ، وأن يرجع رسول الله ﷺ عامه هذا ، فإذا كان العام المقبل قدمها فخلّوا بينه وبين مكة ، ليقيم فيها ثلاثا ، ولا يدخلها إلا بسلاح الراكب والسيوف فى القرب لا يدخلها بغيره ، وأنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليّه ـ وإن كان على دين محمد ـ ردّه إلى وليه ، وأنه من أتى قريشا ممن اتبع محمدا لم يردوه عليه ، وأن بينهم وبين رسول الله ﷺ عيبة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلال[1] . وأن من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل . هنا تواثبت خزاعة وقالوا : نحن فى عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنوبكر فقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم .

امتعض المسلمون وقد سمعوا الحوار وما قد حوى الصلح من شروط ، وكان أكثرهم معارضة لشروط الاتفاقية عمر بن الخطاب إلى المدى الذى جعله يكلم رسول الله ﷺ مفصحا له عما فى نفسه من عدم الرضا ، وهى زلة ندم عليها عمر كثيرا فيما بعد ، ولكن سماحة رسول الله ﷺ وحدبه على أصحابه كانت من السماحة والسعة بحيث تستوعب مثل هذه المواقف ، ويغفر لمقترفيها ؛ لأنه رسول موحى إليه ، وهم بشر غير معصومين .

كان ذلك على مسمع من سهيل ، فأصرَّ سهيل على شروطه ، فلما آن وقت الكتابة

---

(١) يريد أن تكف عنا ونكف عنك ، والإسلال : السرقة . والإغلال : الخيانة والغدر .

وثب عمر إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يارسول الله ، ألست نبى الله حقا ؟ قال : بلى . قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال: بلى . قال : عَلاَمَ نعطى الدَّنِيَّةَ فى ديننا ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **إنى عبد الله ورسوله ، ولست أعصيه ، ولن يضيعنى وهو ناصرى** » قال عمر : أو ليس كنت تحدثنا أننا سوف نأتى البيت فنطوف حقا ؟ قال : بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه العام ؟ قال : لا ، قال : « **فإنك آتية ومُطَوِّفٌ به** » .

ثم ذهب عمر إلى أبى بكر وسأله فيما جرى بينه وبين رسول الله ﷺ فقال أبو بكر وهو أقرب إلى الغيظ : أيها الرجل ، إنه رسول الله وليس يعصى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه ـ يعنى الزم أمره ـ حتى تموت ، فوالله إنه لعلى الحق .

يقول عمر : والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ ، فيقول أبو عبيدة بن الجراح : ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله ﷺ يقول ما يقول ؟ تعوّذ بالله من الشيطان واتَّهِمْ رأيك . قال عمر : فجعلت أتعوذ بالله من الشيطان حياء ، فما أصابنى شىء قط مثل ذلك اليوم ، وعملت بذلك أعمالا لتكفر عنى ما مضى من التوقف فى امتثال الأمر ابتداء .

فلما شرع فى الكتابة قال سهيل : هات اكتب بيننا وبينك كتابا ، فدعا رسول الله ﷺ عليًّا فقال له : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » . فقال سهيل : أما الرحمن الرحيم فوالله ما أدرى ما هو ؟ ولكن اكتب : باسمك اللهم كما كنت تكتب . اكتب فى قضيتنا ما نعرف ، فقال المسلمون : والله لا تكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم » . فقال النبى ﷺ : « اكتب باسمك اللهم » ثم قال : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ فقال سهيل : والله لوكنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، اكتب فى قضيتنا ما نعرف ، اكتب : محمد بن عبد الله . فقال رسول الله ﷺ لعلىّ : امحه ، فقال علىّ : ما أنا بالذى أمحاه ـ وفى رواية : أمحاك ـ فجعل علىّ يتلكأ ، وأبى أن يكتب إلا « محمد رسول الله » فقال رسول الله ﷺ : اكتب فإن لك مثلها وأنت مضطهد ـ يعنى مضطر ـ فأخذ أُسيْد بن الحضُيْر وسعد بن عَبَادَة بيد علىّ

ومنعاه أن يكتب إلا « محمد رسول الله » وإلا فالسيف بيننا وبينهم ، فارتفعت الأصوات ، فجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخفضهم ويومىء بيده إليهم : اسكتوا . ثم قال : أرنيه ـ يعنى أرنى مكانها ـ فأراه إياه ، فمحاه رسول الله بيده وقال ، اكتب : محمد بن عبد الله ، فقال رسول الله لسهيل : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف ، فقال سهيل : لا والله لا تَحَدَّثُ العربُ أناَّ أُخِذْنَا ضُغْطَة ، ولكن لك من العام المقبل ، فكتب ، فقال سهيل : على أنه لا يأتيك منا أحد بغير إذن وليه ـ وإن كان على دينك ـ إلا سددته إلينا . فقال المسلمون : سبحان الله !! أيكتب هذا ؟ كيف يردّ إلى المشركين وقد جاء مسلما ؟ ! فقال رسول الله ﷺ : « نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاء منهم إلينا سيجعل الله له فرجا ومخرجا» .

وكانت الفقرة التى تلزم المسلمين بإعادة من يأتى إليهم من قريش بغير إذن أوليائهم قد فرضت نفسها على الموقف قبل أن يجف المداد ، ولما يوقع الطرفان الوثيقة بعد ، فقد كان لسهيل بن عمرو الذى يشكل الطرف الثانى فى المعاهدة ابن مؤمن ، وكان أبوه قد حبسه ووضعه فى القيد عقابا له على إسلامه هو أبو جندل ، فبينما كان الطرفان ينهيان كتابة وثيقة الصلح إذ بالجميع يفاجأون بوجود « أبى جندل » بينهم فى الحديبية يرسف فى قيوده ملقيا بنفسه بين أظهر المسلمين الذى خفوا إليه يرحبون به ويهنئونه ، فلما رآه أبوه سهيل قام إليه فضرب وجهه بغصن شوك ، وأمسك بتلابيبه ثم قال : يامحمد هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده ، فقال رسول الله ﷺ : « **إنا لم نقض الكتاب بعد** » قال سهيل : إذن والله لا أصالحك على شىء أبدا » قال : فأجزه لى . قال : ما أنا بمجيزه لك . فقال أبو جندل : أى معاشر المسلمين ، أَأُرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلما ؟ ألا ترون ما قد لقيت ؟ ـ وكان قد عذب عذابا شديدا ـ فرفع رسول الله ﷺ صوته وقال : « **يا أبا جندل : اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا مع القوم صلحا وأعطونا على ذلك عهدا ، وإنا لا نغدر** » .

وبانتهاء تحرير بنود الصلح شهد عليه رجال من المسلمين ورجال من المشركين : أبو بكر ، وعمر ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وعلى بن أبى

طالب، وعبد الله بن سهيل بن عمرو (أخو أبى جندل) ومحمود بن مسلمة ، ومكرز ابن حفص .

لقد حرص رسول الله ﷺ على تنفيذ المعاهدة بكل موادها حتى قبل أن يتم التوقيع عليها طبقا لما جرى فى قضية أبى جندل بن سهيل بن عمرو .

أبو بصير وأبو جندل :

وثمت موقف آخر حدث بعد عودة الرسول من الحديبية إلى المدينة ممثلا فى ثقفى مسلم آخر هو أبو بَصِير عُتْبَةُ بن أَسِيد بن جارية الثقفى حليف بنى زهرة ، أفلت من قومه سائرا على قدميه ساعيا إلى المدينة ، فكتب أزهر بن عبد عوف الزهرى إلى رسول الله ﷺ كتابا بعث به مع خنيس بن جابر العامرى يذكر عهد الصلح وردّ أبى بصير إلى مكة ، فقدم العامرى إلى المدينة بصحبة دليل له يقال له (كوثر) بعد أبى بصير بثلاثة أيام ، فأمر رسول الله ﷺ أبا بصير أن يرجع معهما ، فقال : يا رسول الله : تردنى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ ! فقال ﷺ: « **يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله تعالى جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجا ومخرجا** » فقال : يارسول الله تردنى إلى المشركين ؟ ! قال : « **انطلق يا أبا بصير فإن الله سيجعل لك فرجا ومخرجا** » .

فسار أبو بصير معهما والمسلمون يسيرون معه ويطيبون خاطره ويشجعونه ، ولمّا أن وصلوا إلى ذى الحليفة وكان الوقت ظهرا صلى أبو بصير صلاة المسافر ، واشترك مع حارسيه فى تناول بعض الطعام ، وبحيلة ذكية استطاع أبو بصير أن يأخذ السيف ، فقتل العامرى ، وهمّ بقتل الرجل الآخر ، ولكنه أفلت منه وخرج هاربا يعدو إلى المدينة وأبو بصير فى أثره ، فلما انتهى إلى رسول الله قال له : ويحك مالك ؟ قال : قتل والله صاحبكم صاحبى وأفلتّ منه ولم أكد ، وإنى لمقتول ، واستغاث برسول الله فأمّنه ، وأقبل أبو بصير فأناخ بعير العامرى ودخل متوشحا سيفه فقال : يارسول الله قد وفت ذمتك وأدى الله عنك ، وقد أسلمتنى بيد العدو ، وقد امتنعت بدينى من أن أفتن ، فقال رسول الله ﷺ: « **ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال** » .

ثم خرج أبو بصير ومعه خمسة كانوا قد قدموا معه مسلمين من مكة حتى قدموا سيف البحر .

فلما بلغ سهيلا قتلُ أبى بصير العامرىَّ اشتد وقال : ما صالحنا محمدا على هذا ، وجرت فى ذلك مناقشات حول دية القتيل ومن يتحملها ، ومن الطريف أن أبا سفيان ابن حرب كان من رأيه أن الرسول ﷺ غير مسئول عن دم القتيل .

ومما يزيد القصة إمتاعا أن أبا جندل بن سهيل بن عمرو انفلت فخرج هو وسبعون راكبا ممن أسلموا فلحقوا بأبى بصير ، ولأن أبا جندل قرشى فقد سلم له أبو بصير الأمر، فكان أبو جندل يؤمهم فى الصلاة ، واجتمع إلى أبى جندل ناس من بنى غفار وأسلم وجهينة لا تمر بهم عير لقريش إلا أخذوها وقتلوا من فيها وضيقوا على قريش فلا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ، وتطور الأمر إلى جانب من الطرافة ، فأخذ أبو جندل يقول فى ذلك شعرا منه : (*) .

أَبْلِغْ قريشاً عن أبى جندل ... أنـاً بـذى المَـرْوَة فى الساحـلِ

فى معـــشر تَخْفِقُ رَايَاتــُـهمْ ... بالبِيـضِ فيـها والقـَنَا الذَّابِلِ

يَأْبَوْنَ أنْ تبــقَى لهـمْ رُفْقَـــةٌ ... مِـنْ بعـدِ إسْلامهم الواصـلِ

أو يجعــلَ اللهُ لهمْ مخرجــًا ... الحـقُّ لا يـُغْلَبُ بالبـاطـِلِ

فَيـــَسْلَمُ المرءُ بإســـلامــِهِ ... ويُقْتَلُ المـــرءُ ولـم يَأْتـَـلِ

ولما استشرى فزع قريش من أبى جندل وأبى بصير أرسلت قريش أبا سفيان إلى رسول الله ﷺ يسألونه ويتضرعون إليه أن يبعث إلى أبى بصير وأبى جندل ومن معهم ، وقالوا ـ وهنا تقع المفارقة العظمى ـ : من خرج منا إليك فأمسكه فهو لك حلال غير حرج أنت فيه ، وقال ـ أى : أبو سفيان ـ فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا بابا لا يصلح إقراره . فكتب رسول الله ﷺ إلى أبى بصير وأبى جندل يأمرهما أن يقدما عليه ،

(*) **المعانى** : ذو المروة : موضع فى أرض جهينة مما يلى سيف البحر بين مكة والمدينة .
القنا : جمع قناة ، وهى الرمح ، الذابل : صفة للقنا ، أى : أنها رماح رقاق .
لم يأتل : يعنى لم يحلف .

ويأمر من معهما ممن اتبعهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم فلا يتعرضوا لأحد مَرَّ بهم من قريش وعيرانها ، فقدم كتاب رسول الله على أبى بصير وهو يموت ، فجعل يقرؤه ومات وهو فى يديه ، فدفنه أبو جندل وجعل عند قبره مسجدا . وقدم أبو جندل على رسول الله ﷺ ومعه ناس من أصحابه ورجع سائرهم إلى أهليهم ، وأمنت بعد ذلك عَيرَاتُ قريش .

لنعد مرة أخرى إلى أعقاب رجوع رسول الله إلى المدينة بعد توقيع الهدنة ، فقد كان فى الركب بعض ضعاف الإيمان بجدوى المعاهدة ، وكان ذلك قد شكل قضية عند واحد من مقدمى الصحابى وهو عمر طبقا لما أوضحناه قبل صفحة أو صفحتين ، يروى البيهقى عن عروة أنه لما قفل رسول الله راجعا قال رجل من أصحابه ﷺ : ما هذا بفتح ، لقد صُدِدْناَ عن البيت وصُدَّ هَدْيناَ ، وردّ رسول الله رجلين من المؤمنين كانا قد خرجا إليه ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال « **بئس الكلام ، بل هو أعظم الفتح ، وقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ، ويسألوكم القضية - يعنى القضاء فى العام القادم - ويرغبون إليكم فى الأمان ، ولقد رأوا منكم ما كرهوا ، وأظفركم الله تعالى عليهم ، وردكم سالمين مأجورين ، فهو أعظم الفتح** » ويمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تنبيه عقول المسلمين وقلوبهم الذين لم يستوعبوا حكمة الهدنة ، وأنها كانت نصرا ومقدمة لانتصارات كبيرة : « أنسيتم يوم الأحزاب ؟ ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ (*)ـ فقال المسلمون : صدق الله ورسوله ، فهو أعظم الفتح ، والله يانبى الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ، ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا .

إلى هنا يكون المسلمون جميعا قد آمنوا بمنطق رسول الله ﷺ من أن الحديبية كانت أعظم فتح ، فقد أقنعهم رسول الله بالحجة الدامغة ، وذكرهم بمواقف ثابتة ومواقع سالفة ، ولكن مشيئة الله تأبى إلا أن تختم هذا الموقف بالوحى منزلا مصدقا للصادق المصدوق خير الأنبياء وخاتم المرسلين .

(*) الأحزاب ، الآية : ١٠ .

يروى عمر بن الخطاب ـ وكان الصوت الأعلى فى مجادلة رسول الله حول الحديبية ـ فسألته عن شىء ثلاث مرات فلم يرد علىّ ، فقلت فى نفسى : ثكلتك أمك يا ابن الخطّاب نَزَّرْتَ ـ أى : ألححت ـ رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك ، فحركت بعيرى أمام الناس ، وخشيت أن ينزل فىَّ القرآن ، فما نشبت أن سمعت صارخا يصرخ بى ، فرجعت وأنا أظن أنه نزل فىّ شىء ، فقال النبى ﷺ : « لقد أنزلت علىّ الليلة سورة هى أحبّ إلىَّ من الدنيا وما فيها : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ وبقية السورة إلى آخرها ، إذ يقول ـ عز وجل ـ : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾

ويزيد الموقف جلاء حول نزول سورة الفتح مارواه الصحابى الجليل مجمع بن جارية ابن عامر الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ قال : شهدنا الحديبية مع رسول الله ، فلما انصرفنا عنها إلى « كُرَاعِ الْغَمِيم » ـ اسم موضع ـ إذا الناس يوجفون الأباعر ـ يعنى يسرعون السير ـ فقال الناس بعضهم لبعض : ماللناس ؟ ! قالوا : أوحى لرسول الله ﷺ فخرجنا مع الناس نوجف ، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند « كُرَاعِ الْغَمِيم » فاجتمع الناس إليه فقرأ عليهم ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ فقال رجل من أصحاب

النبى ﷺ: أَوَهُوَ فتح ؟ فقال : « إى والذى نفسى بيده إنه فتح » .

لقد صدق رسول الله وايم الله ، فهو فتح عظيم ، وصدق الله ـ عز وجل ـ فى تصديقه رسوله وتأييده بوصف الفتح : بالفتح المبين ، وآيات ذلك وعلاماته كثيرة ، أولها أنه ﷺما كاد يعود إلى المدينة ويزيل وعثاء السفر حتى نادى بعالمية الرسالة ، وكاتب الملوك والأقيال ، وأرسل سفراءه يحملون كتبه إلى كسرى وقيصر والمقوقس والنجاشى وبقية ملوك العرب وأمرائهم على النحو الذى أوضحناه فى الفصل الخاص برسائله ﷺ .

إنه لم يكد يمر العام ويحل شهر ذى القعدة من العام السابع حتى اتخذ رسول الله وصحبه العدة للمسير إلى عمرة القضاء ـ وتسمى عام القضية ـ فلما حلق رأسه قال لصحبه : « **هذا الذى وعدتكم به** » .

ولم يمرّ على صلح الحديبية عامان ـ وكانت مدة الهدنة عشرة أعوام ـ حتى نقضتها قريش فكان الفتح الأعظم ، وكانت عدة جيوش رسول الله ﷺأضعاف عدد من رافقوه فى سفرة الحديبية ، واستسلمت قريش كلها ، وأعلنوا إسلامهم وعلى رأسهم أبو سفيان زعيم قريش وسهيل بن عمرو كبير المفاوضين ومنكر صيغة « بسم الله الرحمن الرحيم » و« محمد رسول الله » ومُوَقِّع وثيقة الهدنة .

وفى ذلك اليوم ـ يوم الفتح ـ أخذ رسول الله ﷺالمفتاح وقال : ادعوا لى عمر بن الخطاب ، فقال : « **هذا الذى قلت لكم** » .

ولما كان الرسول ﷺفى حجة الوداع أراد أن ينبه إلى أن هذا النصر كانت بدايته صلح الحديبية ، فوقف بعرفة وقال : « أى عمر ، هذا الذى قلت لكم إنى رسول الله ، والله ما كان فتح فى الإسلام أعظم من صلح الحديبية»[١] .

---

(١) مراجع صلح الحديبية : السيرة لابن هشام ، السيرة لابن كثير ، تاريخ الإسلام للذهبى (قسم المغازى) ، سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد للصالحى ، السيرة الحلبية ، طبقات ابن سعد ، تاريخ الطبرى ، تفسير الطبرى السيرة النبوية للطبرى ، عيون الأثر ، البداية والنهاية . ، الكامل لابن الأثير ، الروض الأنف ، صحيح البخارى ، الوثائق السياسية للعهد النبوى لحميد الله .





الفصل الخامس

عهوده ﷺ
مع نصارى الشام ونجران



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(١)

عهد الرسول ليوحنا بن رؤبة صاحب أيلة

تعد بلدة أيلة آخر الحجاز وأول الشام ، والبعض يعتبرها من الشام ، فقد اختلف الجغرافيون العرب كثيرا فى تبعية البلدان للأقطار ، فهم يعتبرون واحة تيماء من الشام ، وهى تبعد عن تبوك جنوبا بنحو مائتى كيلومتر بمقاييس زماننا .

لقد كانت غزوة الرسول ﷺفى تبوك غزوة شامية ، ولقد منحه الله النصر والفوز فيها ، وانسحبت جيوش الروم شمالا .

يقول ابن هشام : إنه لما انتهى رسول الله إلى تبوك أتاه صاحب أيلة - وكانت غزوة تبوك سنة ٩هـ على ما هو معروف - فصالحه وأعطاه الجزية ، فكتب له رسول الله ﷺ هذا العهد : (١) .

« بسم الله الرحمن الرحيم هذه أَمَنَةٌ من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنه بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسيَّارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحلّ أن يُمْنَعُوا ماءً يَرِدُونَهُ ، ولا طريقا يريدونه من بحر أو برّ » .

وفى هذا العهد قد يسر رسول الله على يوحنه صاحب أيلة وأهل أيلة ، ويبدو أنه كان من رجال الدين المسيحى ، ولرسول الله ﷺمعاملة متميزة مع رجال الدين النصارى ، حدث هذا مع صاحب أيلة ذلك الذى نتحدث عنه ، وحدث ذلك أيضا

(١) السيرة النبوية ٢/ ٥٢٦ وزاد المعاد ٣/ ٧ والوثائق السياسية ، ص : ١١٧ ، ١١٨ .

مع أهل (مقنا) الذين هم موضوع حديثنا بعد قليل ، وحدث أيضا مع نصارى نجران فى مشهدهم وفى غيابهم .

لقد كان الرسول ﷺ كريما - كالعهد به - فى تعامله مع أهل أيلة وصاحبها من خلال هذا العهد ، فلم يكتف بإعطاء العهد على ما فى البر وحسب ، بل شمل العهد سفنهم فى البحر ، وشمل من كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، لقد تعهد رسول الله ﷺ بأمانهم فى طرق البر وطرق البحر ، وحذرهم بوضوح من نقضهم عهده .

(٢)

معاهدته ﷺ مع أهل مَقْنَا

مقنا - بفتح الميم وسكون القاف - : بلدة على خليج العقبة بجوار أيلة ، ولقد أعطاها رسول الله ﷺ عهدا فيه مزيد من التفصيل بالقياس إلى ذلك الذى أعطاه لأهل أيلة ، ذلك أن أهل مقنا فيما يبدو قد صدرت عنهم بعض المشاحنات مما يفهم من نص عهد رسول الله لهم .

لقد كتب هذا العهد فى نفس الوقت الذى كتب فيه عهد أهل أيلة ، وكان ذلك سنة ٩ هـ وقد أملاه رسول الله ﷺ على علىّ بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وهذا هو نص العهد :

« من محمد رسول الله إلى بنى جَنْبة وإلى أهل مقنا .

أما بعد : فقد نزل علىّ آيتكم راجعين إلى قريتكم ، فإذا جاءكم كتابى هذا فإنكم آمنون ، لكم ذمة الله وذمة رسوله ، وإن رسوله غافر لكم سيئاتكم وكلّ ذنوبكم ، وإن لكم ذمة الله وذمة رسوله ، لاظلم عليكم ولا عدى ، وإن رسول الله جار لكم مما منع منه نفسه .

فإن لرسول الله بَزَّكم وكلَّ رقيق فيكم والكراع والحلقة (*) ، إلا ما عفا عنه رسول الله

(*) الحلقة : الماشية .

أو رسول رسول الله ، وإن عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخلكم ، وربع ماصادت عروككم (*) ، وربع ما اغتزل نساؤكم ، وإنكم برئتم بعد من كل جزية أو سخرة ، فإن سمعتم وأطعتم ، فإن على رسول الله أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم .

أما بعد: فإلى المؤمنين والمسلمين : من أطلع أهل مقنا بخير فهو خير له ، ومن أطلعهم بشرّ فهو شرّ له .

وأن ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم ، أو من أهل رسول الله ، والسلام » (1).

لقد تميزت هذه المعاهدة بعدة عناصر جعلت أهل مقنا متميزين على غيرهم ممن حظوا بعهود من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثل قوله الشريف : « وإن رسوله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم » ومثل حضّ المسلمين على الإحسان إليهم ، والتحذير من الإساءة إليهم ، وذلك فى قوله ﷺ: « من أطلع أهل مقنا بخير فهو خير له ، ومن أطلعهم بشرّ فهو شرّ له »

وقد زادهم الرسول ﷺتكريما فى أن جعل أميرهم منهم أو من أهل رسول الله ، وذلك فى آخر مواد المعاهدة : « وأن ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل رسول الله »

(٣)

معاهدته ﷺ مع نصارى نجران

إذا كانت كل من المعاهدتين السابقيتن قد تضمنت الكثير من سماحة رسول الله ﷺ وكرمه وتيسيره على كل من أطراف المعاهدتين ، فإن معاهدته ﷺ مع نصارى نجران قد أترعت كرما وملئت سماحة وفاضت فضلا ، فقد منحهم ﷺ من الفضل والإكرام ما قد يعجزون هم أنفسهم عن أن يقدموه لأنفسهم ، لقد منحهم السماحة والتسامح ووهبهم الكرم والتكريم ، وخلع عليهم العفو والمعروف ، ولعل قوله ﷺ

(*) العروك : صيادو السمك

(1) الوثائق السياسية ، ص : ١٢٠ ، وإمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ٤٣٩ ، ومغازى الواقدى ٣/ ١٦٠ .

الذى جمع بين البلاغة والسماحة المتضمنتين فى المعاهدة هو أوضح بيان لموادها . وهذا هو نص المعاهدة (1) .

« بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتب محمدٌ النبى رسول الله ﷺ لأهل نجران : إذا كان عليهم حُكمُه فى كل ثمرةٍ ، وفى كل صَفراءَ وبيَضاءَ ورقيق ، فأفضلَ ذلك عليهم ، وتَرَكَ ذلك كلّه لهم ، على ألفيِ حُلّة من حُلَل الأواقى : فى كل رَجَب ألف حُلّة ، وفى كل صَفَر ألف حُلّة ، كل حُلّة أوقية من الفضة . فما زادت على الخَراج ، أو نَقَصَتْ عن الأواقى فبالحساب . وما قَضَوا من دروع ، أوخيل ، أو ركاب ، أو عروض أُخِذَ منهم بالحساب . وعلى نجران مؤنةُ رُسُلى ومتعتهم ، ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك ، ولاتُحْبَسُ رُسُلى فوق شهر .

وعليهم عارية ثلاثين درعاً ، وثلاثين فَرَساً ، وثلاثين بعيراً ، إذا كان كيد باليمن ومَعرّة . وما هَلك مما أعاروا رُسُلى من دروع ، أوخيلٍ ، أو ركابٍ ، أو عروضٍ ، فهو ضمين على رُسُلى ، حتى يؤدُّوه إليهم .

ولنجران وحاشيتها ، جوار الله وذِمة محمدٍ النبيِ رسولِ الله على أموالهم ، وأنفسهم ، وملّتهم ، وغائِبهم ، وشاهدهم وعشيرتهم ، وبيَعِهم وكلِّ ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . لا يُغيَّر أُسقُف من أُسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته . وليس عليهم رُبِّيَة ، ولا دمُ جاهلية . ولا يُحشَرون (*) ، ولا يُعشَرون ، ولا يطأ أرضهم جيشٌ ، ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصَف غير ظالمين ولا مظلومين .

ومن أكل رباً من ذى قُبلٍ فذمتى منه بريئة . ولا يؤخَذُ رجلٌ منهم بظلمِ آخرَ .

---

(1) الوثائق السياسية ، ص : ١٧٥ ، ١٧٦ ، الوثائق السياسية اليمنية لمحمد بن على الأكوع ، ص : ٩٤ـ٩٦ ، إمتاع الأسماع للمقريزى ١ / ٥٠٢ ، السير للشيبانى ، باب ماجاء عن النبى وأصحابه فى أهل نجران وتغلب ، وزاد المعاد ٤٧/٣ .

(*) لايحشرون : يعنى لا يكلفون بالجهاد . ولا يُعشرون ، أى : لايدفعون الزكاة .

وعلى ما فى هذا الكتاب جوار الله ، وذِمّة محمدٍ النبى رسول الله ، حتى يأتى اللّهُ بأمره ، ما نصَحوا وأصلَحوا ما عليهم ، غير مثقَلين بظُلم .

شهد أبو سفيان بن حرب ، وغيلانُ بن عمرو، ومالك بن عوفٍ من بنى النَّصر ، والأقرع بن حابس الحنظلى ، والمغيرةُ بن شعبةَ .

وكتب لهم هذا الكتابَ عبدُ الله بن أبى بكر » .

لقد أعطى رسول الله ﷺ هذه العهود لنصارى نجران برغم أنهم لم يستجيبوا لعروض الرسول ولم يقبلوا الملاعنة التى استعدّ لها الرسول فخرج إليهم بسبطيه الحسن والحسين وهما طفلان ومن ورائه فلذة كبده الزهراء البتول فاطمة ، فصاروا بعد ذلك من رعايا الدولة الإسلامية التى يحكمها سيد البشر ، وتحت حمايته .

إن هذه السماحة التى عامل بها الرسول نصارى نجران ، لم يقابلها تسامح ولو لمرة واحدة من نصارى أوربا منذ أن نبا لها ظفر أو نبت لها ناب ، وإن مافعله نصارى أوروبا بالمسلمين فى الحروب الصليبية أو فى الأندلس أو فى الزمن المعاصر لنا فى فلسطين أو فى البلقان فى ضرب أهل البوسنة والهرسك لمما تتقزز له نفس كل من يمتلك قدرا ضئيلا من الإنسانية .

وإن واحدا من أعلام المسلمين المعاصرين يستعرض من المعاهدة بعض فقراتها مثل هذا البند الذى يقرر « أن لنصارى نجران جوار الله وذمة محمد النبى ، على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم . وغائبهم وشاهدهم ، وعشيرتهم وبيعهم . وألا يغيروا مما كانوا عليه ، ولايغيَّر حق من حقوقهم ولا ملتهم ، ولايغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا ما تحت أيديهم من قليل أو كثير .

وليس عليهم ربية ولادم جاهلية ولا يحشرون ولايعشرون ولايطأ أرضهم جيش .

ومن سأل منهم حقاً فبينهم النَّصَفُ غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل ربا فذمتى منه بريئة ، ولايؤخذ رجل منهم بظلم آخر .

وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد رسول الله حتى يأتى الله بأمره مانصحوا وأصلحوا فيها عليهم غير منقلبين بظلم » .

يقول الشيخ محمد الغزالى وقد قرأ هذه الفقرة القصيرة من المعاهدة وقد أُترعت سماحة، وفاضت رحمة ، وتدفقت إحسانا : « ونحن نسأل على وجه التحدى : هل عاملت الطوائف المسيحية بعضها بعضا بهذه السماحة الرائعة ؟ أم كان ذلك مسلكا أضاء به الإسلام وحده ظلمات القرون الأولى ؟

ويمضى الشيخ الجليل فى وصف موقف هذه القبائل النصرانية من الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ قائلا :

ثم نسأل مرة أخرى : هل احترم أهل الكتاب ماعليهم من واجب ، وهل أنصفوا الدين الذى رعى ذمامهم ؟ .

لقد دخلت السنة العاشرة على الإسلام وهو يبسط تعاليمه على حساب الوثنية المتقلصة ، فإذا بعض القبائل فى الجنوب تثور ضده تحسب أن رجلاً من قريش ملك العرب بادعاء النبوة ، فليس يعجزها أن تقدم من مفاليكها من يزعم النبوة كذلك ؟! لعله يملك مثل ما ملك محمد بن عبد الله .

ومن المؤسف أن النصارى فى جنوب الجزيرة ساعدوا فى إشعال هذه الثورات ، وأن نصارى نجران كاتبوا الأسود العنسى فسار إليهم ـ وهو أحد المتنبئين ـ ثم رحل عنهم إلى اليمن ، فملكها حتى قتلته امرأته هناك وأراحت الأرض منه .

أكانت هذه الفتن معاونة لنصارى الشمال فى حربهم ضد الإسلام ، أم كانت شغباً يمليه الكره المجرد فحسب ؟ .

وما فعله نصارى نجران فى تأييد الأسود العنسى . فعل مثله نصارى تغلب فى تأييد مسيلمة الكذاب حين ادعى ـ هو الآخر ـ أنه نبى .

ونحن نفهم أن يرفض أهل نجران وبنو تغلب الدخول فى الإسلام ، وأن يؤثروا البقاء على ما اقتنعوا به من دياناتهم الموروثة ، لكننا لم نفهم بتة أن يُكَذِّب رجلٌ بصحف الوحى العالى وأن يؤمن ـ مثلاً ـ بالبعكوكة .

ذاك إن كانوا قد آمنوا حقاً بالأسود ومسيلمة .

أما إذا كان الأمر لايعدو الإعانة على حرب الإسلام بأى سلاح ومع أى حليف ، فهذه مسألة أخرى يحتار فى علاجها أطباء القلوب [1] .

(١) فقه السيرة ، للشيخ محمد الغزالى ص : ٤٤٢ ، ٤٤٣ .





الفصل السادس

عهودهُ ﷺ لثقيف - لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن



(١)

عهد رسول الله ﷺ لثقيف

لثقيف موقف غير كريم من رسول الله حين خرج من مكة- إلى الطائف مستجيرا بهم ، فكانوا بئس المجير ، وناله ﷺ منهم أذى كبير ، وأمروا صغارهم أن يقذفوه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان على ما هو معروف تفصيلا فى كتب السيرة .

ثم ازدهرت الدعوة الإسلامية ، وكتب الله النصر لرسوله ، وما فتىء الناس يدخلون فى دين الله أفواجا باستثناء بعض القبائل التى كان لا مفرّ من غزوها حتى تستسلم ومنها ثقيف .

وحين غزا رسول الله ﷺ ثقيفاً لم يجعل لأذاهم له إبان لجوئه إليهم موضعا ، ولا حاول أن يكون منتقما منهم أو مضفياً حسابا قديما معهم ، فلم تكن هذه الثارات من شمائل محمد الذى لم يكن يرجح سعادته شىء بقدر هداية فرد واحد فضلا عن هداية جماعة .

لقد غزا النبى ﷺ ثقيفا ، فلما أن سمع صخر بن العيلة الأحمسى بخيل رسول الله ، همّ بالاستعداد لمعاونة جيش رسول الله ، فركب فى خيل يمدّ بها جيش النبى ﷺ ولكنه وجد النبى قد انصرف ولم يكمل الفتح ، فعاهد صخر الله ألا يفارق قصره حتى تنزل ثقيف على حكم رسول الله ﷺ فلما نزلوا على حكم رسول الله ، كتب صخر إلى النبى ﷺ مانصه :

« أما بعد فإن ثقيفا قد نزلت على حكمك يارسول الله ، وأنا مقبل إليك وهم فى خيل » .

وما أن وصلوا حتى أمر رسول الله ﷺ بالصلاة جامعة ، وجرت مفاوضات انتهت بإسلامهم وعلى كتاب هذا العهد لهم [1] :

١) بسم الله الرحمن الرحيم .

٢) هذا كتاب من محمد النبى رسول الله صلى الله عليه وسلم لثَقيف :

٣) كَتَبَ : إنّ لهم ذِمّة الله الذى لا إله إلاّ هو ، وذِمّة محمد بن عبد الله النبى ، على ما كَتَب لهم فى هذه الصحيفة :

٤) إنَّ واديهم حرام محرم لله كله ، عضاهه وصَيده وظلم فيه وسرق فيه أو إساءة .

٥) وثقيف أحقّ الناس بوجّ . ولا يُعبَر « طائفهم » ولا يَدخُله عليهم أحد من المسلمين يَغلبهم عليه . وما شاءوا أحدَثوا فى « طائفهم » من بنيان أو سواه بواديهم .

٦) ولا يحشرون ولا يُعشَرون ولا يسُتكرَهون بمال ولا نفس .

٧) وهم أُمّة مِن المسلمين ، يتولّجون من المسلمين حيث ماشاءوا ، وأين ما تولّجوا ولجوا .

٨) وما كان لهم من أسير فهو لهم ، هم أحقّ الناس به حتى يفعلوا به ما شاءوا .

٩) وما كان لهم من دَين فى رَهن فبلغ أجَلُه فإنه لياط (*) مُبرأ من الله وماكان من دَين فى رهن وراء عُكاظ فإنه يقضى إلى عكاظ برأسه .

١٠) وما كان لثقيف من دَين فى صُحُفهم اليوم الذى أسلموا عليه فى الناس فإنه لهم .

١١) وما كان لثقيف من وَديعة فى الناس أو مال أو نفس غَنِمها مودعها أو أضاعها ، ألا فإنها مؤدّاة .

---

(١) الوثائق السياسية ص : ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(*) اللياط : الربا .

١٢) وما كان لثقيف من نفس غائبة أو مال فإنّ له من الأمن ما لشاهدهم . وما كان لهم من مال بلِيّةَ فإنَّ له من الأمن ما لهم بوَجّ .

١٣) وما كان لثقيف من حليف أو تاجر فإنّ له مثل قضية أمر ثقيف .

١٤) وإنْ طعن طاعن على ثقيف أو ظلمهم ظالم ، فإنه لا يطاع فيهم فى مال ولا نفس ، وإن الرسول ينصرهم على مَن ظلمهم والمؤمنون .

١٥) ومَن كرهوا أن يَلِج عليهم من الناس فإنه لا يَلج عليهم .

١٦) وإن السوق والبيع بأفنية البيوت .

١٧) وإنه لا يؤمَّر عليهم إلاَّ بعضهم على بعض ؛ على بنى مالك أميرُهم ، وعلى الأحلاف أميرُهم .

١٨) وما سَقتْ ثقيف من أعنابِ قريش فإنّ شطرها لمن سقاها .

١٩) وما كان لهم من دَين فى رَهن لم يُلط فإنْ وجدَ أهلهُ قضاءً قضوا . وإن لم يجدوا قضاء فإنه إلى جمادى الأولى من عام قابل . فمن بلغ أجله فلم يَقضِه فإنه قد لاطَه .

٢٠) وما كان لهم فى الناس من دَين فليس عليهم إلا رأسهُ .

٢١) وما كان لهم من أسير باعه ربه فإن له بيعَه . وما لم يبع فإن فيه ست قلائص ، : نصفان حِقاق وبنات لَبون كِرام سِمان .

٢٢) ومن كان له بيع اشتراه فإن له بيعه .

إن عهد الرسول لثقيف أقل ما يوصف به أنه يفيض أمنا ، ويموج كرما ، ونحن لا نستطيع أن نفضل بندا من المعاهدة على بند آخر ، وإنما تبقى قمة تكريمهم فى قوله ﷺ : « وإنه لا يؤمر عليهم إلا بعضهم على بعض ، على بنى مالك أميرهم ، وعلى الأحلاف أميرهم » .

(٢)

عهد الرسول لعمرو بن حزم
حين بعثه إلى اليمن

لقيت اليمن من عناية رسول الله وكرمه أكثر مما لقيه بلد آخر من بلدان الجزيرة ، فقد آثرهم بالعديد من خيرة صحابتهﷺ بعث إليهم على بن أبى طالب ، وبعث إليهم معاذ بن جبل ، وبعث إليهم خالد بن الوليد ، كلّ يؤدى للإسلام بين ظهرانيهم رسالة رفيعة وتوجيهات جليلة .

حتى أهل الكتاب من أهل اليمن لم يتوان رسول الله عن استقبالهم فى المدينة ، والأمر بإعداد المأوى المريح ، والإقامة الكريمة ، ثم الجدال بالحسنى ، وأمر بهم أن يعودوا محافظين على دينهم فى سماحة وتكريم .

وأما بنو الحارث بن كعب الذين يخصهم هذا العهد الشريف فهم من أهل نجران وقد بعث رسول اللهﷺ إليهم خالد بن الوليد فى شهر ربيع الآخر سنة عشر ، وقيل : فى جمادى الأولى ، فأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثا ، فإن استجابوا قَبِلَ إسلامهم ، وإن لم يفعلوا قاتلهم . وكانوا أولى عزم وبسالة فى القتال ، غير أنهم ما كادوا يسمعون رجال خالد يدعونهم إلى الإسلام حتى أجابوا ودخلوا فيما دعوا إليه ، فأقام فيهم خالد يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ، وكتب خالد إلى رسول اللهﷺ يسأله التوجيه ، فأجابه رسول الله بأن طلب إليه العودة إلى المدينة ، وأن يستصحب معه وفدهم ، فأقبل خالد إلى رسول الله وأقبل معه وفد بنى الحارث بن كعب ، منهم قيس ابن الحصين ذو الغصة ، ويزيد بن عبد المدان ، ويزيد بن المحجل ، وعبد الله بن قراد الزيادى ، وشداد بن عبد الله القنانى ، وعمرو بن عبد الله الضِّبابى .

وحين شرفوا بلقاء الرسولﷺ أجرى معهم حوارا سماته الجدة وشىء من الخشونة ؛

لأنهم ـ فيما يبدو ـ كانوا قد تأخروا عن الدخول فى دين الله وقاوموا الدعوة أول عهدهم بها .

يقول ابن هشام : (١) .

فلما قدموا على رسول الله ﷺ فرآهم ، قال : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند؟ قيل : يارسول الله ، هؤلاء رجال بنى الحارث بن كعب ؛ فلما وقفوا على رسول الله ﷺ سلّموا عليه ، وقالوا : نشهد أنك رسولُ الله ، وأنه لا إله إلا الله ؛ قال رسول الله ﷺ : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، ثم قال رسول الله ﷺ : أنتم الذين إذا زُجروا استقدموا ؟ فسكتوا ، فلم يراجِعه منهم أحد ، ثم أعادها الثانية ، فلم يراجعه منهم أحد ، ثم أعادها الثالثة ، فلم يراجعه منهم أحد ، ثم أعادها الرابعة ، فقال يزيد بن عبد المَدان : نعم ، يارسول الله ، نحن الذين إذا زُجروا استقدموا ، قالَها أربَع مِرار فقال رسول الله ﷺ : لو أن خالدًا لم يكتب إلى أنكم أسلمتم ولم تُقاتلوا لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم ؛ فقال يزيد بن عبد المَدان : أما والله ماحَمِدناك ولا حمدنا خالدا ، قال : فمن حَمِدْتُم ؟ قالوا : حمدنا الله ـ عزّ وجل ـ الذى هدانا بك يارسول الله ؛ قال : صدقتم . ثم قال رسول الله ﷺ : بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ قالوا : لم نكن نغلب أحدا ؛ قال : بلى ، قد كنتم تغلبون مَنْ قاتلكم ؛ قالوا : كنا نغلب مَنْ قاتلنا يا رسول الله إنا كنا نجتمع ولا نفترّق ، ولا نبدأ أحدا بظلم ؛ قال : صدقتم وأمر رسول الله ﷺ على بنى الحارث بن كعب قيس بن الحُصَين .

فرجع وفدُ بنى الحارث إلى قومهم فى بقية من شوال ، أو فى صدر ذى القعدة ، فلم يمكثوا بعد أن رجعوا إلى قومِهم إلا أربعة أشهر ، حتى تُوفىَ رسول الله ﷺ ورحم وبارك ، ورضى وأنعم .

لقد نصَب رسول الله على بنى الحارث بن كعب واحدا منهم مثلما فعل الصنيع نفسه مع ثقيف ، وتلك قمة الكياسة ولب السياسة ، ثم أرسل معهم الصحابى

---

(١) السيرة ٢ / ٥٩٤ وما بعدها .

الجليل عمرو بن حزم ليفقههم فى الدين ويعلمهم معالم الإسلام وسنة رسول الله ، ويأخذ صدقاتهم ، وزوده بهذا العهد :

« بسم الله الرحمن الرحيم

هذا بيان من الله ورسوله ، يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ، عهد من محمد النبىّ رسول الله لعمرو بن حزم ، حين بعثه إلى اليمن ، أمره بتَقْوى الله فى أمره كلِّه ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، وأمره أن يأخذ بالحقّ كما أمره الله ، وأن يبشر الناس بالخير ، ويأمرهم به ، ويُعلم الناس القرآن ، ويفقِّههم فيه ، وينهى الناس ، فلا يمس القرآن إنسان إلا وهو طاهر ، ويخبر الناس بالذى لهم ، والذى عليهم ، ويلينَ للناس فى الحق ، ويشتد عليهم فى الظلم ، فإن الله كره الظلم ، ونهى عنه ، فقال : « ألا لَعْنَةُ الله على الظَّالِمِينَ » ، ويبشر الناس بالجنة وبعمَلها ، ويُنْذِر الناس النار وعملها ، ويستألف الناس حتى يفقهوا فى الدين ، ويعلمَ الناس معالمَ الحجّ وسنته وفريضته ، وما أمر الله به ، والحجّ الأكبر : الحجّ الأكبر ، والحجّ الأصغر : هو العُمرة ؛ وينهى الناس أن يصلى أحدٌ فى ثوبٍ واحد صغير ، إلا أن يكون ثوبا يثنى طرفيه على عاتقيه ؛ وينهى الناس أن يحتبى أحد فى ثوب واحد يُفْضى بفَرْجه إلى السماء ، وينهى أن يعقص أحد شعر رأسه فى قفاه ، وينهى إذا كان بين الناس هَيْج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر ، وليكن دعواهم إلى الله عزّ وجل وحده لاشريك له ، فمن لم يدع إلى الله ، ودعا إلى القبائل والعشائر فَلْيُقْطَفُوا بالسيف ، حتى تكون دعواهم إلى الله وحده لاشريك له ، ويأمر الناس بإسباغ الوضوء وجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى الكعبين ويمسحون برءوسهم كما أمرهم الله ، وأمر بالصلاة لوقتها ، وإتمام الركوع والسجود والخشوع ، ويُغلِّس بالصبح ، ويهجِّر بالهاجرة حين تميل الشمس ، وصلاة العصر والشمس فى الأرض مدبرة ، والمغرب حين يقبل الليل ، لايؤخر حتى تبدو النجوم فى السماء ، والعشاء أول الليل ؛ وأمر بالسعى إلى الجمعة إذا نودِىَ بها والغسل عند الرواح إليها ؛ وأمره أن يأخذ من المغانم خُمس الله ؛ وماكُتب على

المؤمنين من الصَّدقة من العَقار عُشْرُ ما سقَت العين وسقت السماء ، وعلى ماسقَى الغرب(*) نصف العُشر ؛ وفى كلّ عَشر من الإبل شاتان ، وفى كل عشرين أربع شياه ، وفى كل أربعين من البقر بقرة ، وفى كلّ ثلاثين من البقر تَبيع ، جَذَعٌ أو جَذَعة ، وفى كل أربعين من الغنم سائمة وحدها ، شاة ، فإنها فريضة الله التى افترض على المومنين فى الصدقة ، فمن زاد خيرا فهو خير له ؛ وأنه من أسلم من يهودى أو نصرانىّ إسلاما خالصا من نفسه ، ودان بدين الإسلام ، فإنه من المؤمنين ، له مثل ما لهم ، وعليه مثل ماعليهم ، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لايُردُّ عنها ، وعلى كلّ حالم : ذكر أو أنثى ، حُرّ أو عبد ، دينارٌ وافٍ أو عوَضُه ثيابا .

فمن أدَّى ذلك ، فإن له ذمَّة الله وذمَّة رسوله ، ومن منع ذلك فإنه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعا ، صلوات الله على محمد ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته » .

وهذا العهد الذى أخذه ﷺ لعمرو بن حزم من دقة الصوغ والاشتمال على توجيهات رسول الله ﷺ مايجعله أهلا لأن يصدر عن أفصح الفصحاء الذى لاينطق عن الهوى ، فما أجمل وما أجلّ أن يصدر العهد بالقول الكريم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ ثم تترى بعد ذلك التوجيهات النبوية فيضا يغمر النفوس بالإيمان ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

ويتضمن العهد توجيهات بديعة التسلسل ، استهلالها أن يبشر بالخير ويأمر به ، ثم تعليم القرآن الكريم الذى هو مفتاح التوحيد ، وأن يلين فى الحق، ويشتد إذا ظلموا، ويبشر بالجنة وينذر بالنار ، وأن يتألف قلوب الناس حتى يقبلوا عليه فيحسنوا الأخذ منه ، ثم يبصرهم بأمور دينهم من صلاة وحج ووئام ، وأن يعلمهم الطهارة والوضوء والصلاة ومواقيتها ، وألا ينسوا الجمعة وصلاتها والتطهر قبل الذهاب إليها ، ثم يفصل لهم الزكاة والصدقات تفصيلا لايحتاج بعده إلى شرح أو بيان .

(*) الغرب : الدلو العظيم .

لقد كان هذا العهد من أواخر العهود التى صدرت عن رسول الله ﷺ إن لم يكن آخرها ، وفيه يبدو تمام الدين وكماله ، فقبل ذلك بعشرة شهور كان قد نزل قول الله عز وجل :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾



الباب الرابع

خطب الرسول ﷺ

الفصل الأول : الخطابة قبل الإسلام .

الفصل الثانى : خطب الدعوة إلى الله .

الفصل الثالث : فى فتح مكة وبعض الغزوات .

الفصل الرابع : حجة الوداع وخطبة الوداع .



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



الفصل الأول

الخطابة قبل الإسلام



الخطابة العربية قبل الإسلام

كانت الخطابة عند العرب قبل الإسلام متألقة مستتمة أسباب البلاغة كاملة عناصر الفصاحة ، وكان للخطيب مكانة ربما رجحت مكانة الشاعر ، ذلك أن الخطيب يرتجل خطبته على السليقة وهو مستعد دائما لارتقاء المنابر ونثر درر الكلام وفيض الفكر، بينما يحتاج الشاعر إلى تحبير وإعداد .

وكانت الخطابة متنوعة الأسباب متعددة الأغراض ، وكانت أكثر موضوعاتها هى موضوعات الشعر نفسه ، مثل المدح والذم للأشياء والقضايا ، والمفاخرة ، والمنافرة ، والمجادلة والنصح ، وإشعال الحروب ، واستثارة الهمم ، ودفع العزائم والتحكيم فى الخصومات واحتمال الديات ، ورعاية الجار ، كما كانت للخطابة موضوعات أخرى كالوفود على الملوك والأمراء المجاورين ، والسفارات ، مثل وفود قس بن ساعدة على قيصر . ووفود قيس بن رفاعة على النعمان بن المنذر فى الحيرة ، وعلى الحارث بن أبى شمر فى جلق ، ووفود أبى سفيان على كسرى ، ثم وفوده على قيصر وما جرى بينهما من حوار حول رسالة محمد ﷺ الذى انتهى بأن تنبأ قيصر بانتصار رسالة الإسلام طبقا لما أشرنا إليه فى موضع سابق من هذا الكتاب ، وقد كانت هناك أيضا خطب يلقيها الخطباء فى مناسبات الزواج .

ومن مشاهير خطباء العرب فى الجاهلية قس بن ساعدة الإدياى الذى يصفه الجاحظ بأنه من الشعراء الخطباء الأبيناء ، كما وصفه بأنه خطيب العرب قاطبة (١) ، وكعب بن لؤى الذى أرخ العرب بموته إلى أن جاء عام الفيل فأرخوا به ، وقيس بن سنان خطيب داحس والغبراء ، وخويلد بن عمر الغطفانى خطيب يوم الفجار ، وأبو طالب عم رسول الله ﷺ .

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٥٢ .

فأما قس بن ساعدة فلقد شرفه رسول الله ﷺ بذكره والثناء عليه فقال : « **رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت** » .

وهو القائل : « آيات محكمات ، مطر ونبات ، وآباء وأمهات ، وذاهب وآت ، ضوء وظلام ، وبرّ وأثام ، لباس ومركب ، ومطعم ومشرب ، ونجوم تمور ، وبحور لا تغور، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، وليل داج ، وسماء ذات أبراج ، مالى أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ؟ أم حبسوا فناموا ؟ » .

وهو القائل : « يا معشر إياد ، أين ثمود وعاد ؟ أين الآباء والأجداد ؟ أين المعروف الذى لم يشكر ؟ والظلم الذى لم ينكر ؟ أقسم قسّ قسما بالله إن لله دينا هو أرضى من دينكم هذا » (١).

ومن مشاهير الخطباء الجاهليين الذين أدركهم الإسلام فآمنوا سهيل بن عمرو بن عبد شمس ، وهو الذى تولى أمر الصلح بالحديبية ، وكان عمر بن الخطاب قد طلب أن ينزع ثنيبه السفليين حتى يدلع لسانه ، فلا يقوم خطيبا بعد ذلك على رسول الله ، ولكنه أسلم وكان من المؤلفة قلوبهم .

ومن مآثر رسول الله ﷺ فى شأن سهيل أن عمر بن الخطاب حين استأذن رسول الله ﷺ فى أن ينزع ثنيبه أجابه الرسول : دعها فلعلها تسرك يوما ، فلما مات النبى ﷺ قام سهيل بن عمرو فقال : « من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت » (٢).

ومنهم عمرو بن الأهتم أحد وفد تميم على رسول الله فى عام الوفود ، وهو الذى أعجب رسول الله ﷺ بنصاعة بيانه حين سأله عن الزبرقان بن بدر ، وهما ممن نادوا الرسول الكريم من وراء الحجرات ، وخبر ذلك قصة لطيفة يسمح المجال هنا بذكرها ، فقد سأل الرسول ﷺ عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر ـ وكانا ماثلين فى حضرة

(١) البيان والتبيين ١ / ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

(٢) المصدر السابق ١ / ٥٨ ، وقد نسب آخرون هذا القول لأبى بكر .

الرسول ـ فقال عمرو : « مانع لحوزته ، مطاع فى أدنيه » فقال الزبرقان غاضبا : « أما إنه قد علم أكثر مما قال ، ولكنه حسدنى شرفى » فقال عمرو : « أما إن قال ما قال ، فوالله ما علمته إلا ضيق الصدر ، زمر المروءة ـ يعنى قليلها ـ لئيم الخال ، حديث الغنى ، فلما رأى ـ يعنى عمرو ـ أنه خالف قوله الآخر قولَهُ الأول ورأى الإنكار فى عينى رسول الله ، قال : يا رسول الله : رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أقبح ما علمت ، وما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الآخرة . فقال رسول الله ﷺ: « **إن من البيان السحرا** » .

إن الجاحظ ينسب إلى كل من إياد ـ قبيلة قس بن ساعدة ـ وتميم ـ قبيلة ـ عمرو بن الأهتم ـ أن لهما فى الخطب خصلة ليست لأحد من العرب ، لأن رسول الله ﷺ هو الذى روى كلام قس ، ولأنه ﷺ علق على كلام عمرو بن الأهتم بقوله الشريف : «**إن من البيان لسحرا** » وفى مكان آخر من كتابه يقول الجاحظ : فهاتان الخصلتان خصت بهما إياد وتميم دون جميع القبائل (١) .

لقد كان النبوغ فى الخطابة مصدرا من مصادر شرف القبائل يتغنى به شعراؤها فى مفاخرهم ، مثل قول قيس بن عاصم المنقرى يذكر محاسن قومه فى الخطابة ، وبنو منقر بطن من تميم (٢) .

إنــى امـرؤ لا يعترى خلقـى — دنــسٌ يفنّــدهُ ولا أَفـْــنُ
من منقـرٍ فــى بيت مكـرمـة — الأصلُ ينبت حوله الغُصْـنُ
خطبــاءُ حين يقـوم قائلهـــم — بيض الوجـوه مصاقـعٌ لُسْنُ
لا يفطنـون لعيب جــارهــم — وهــمُ لحفظ جـوارهـم فُطـْنُ

وكان حسان بن ثابت يفخر بالبلاغة فى الخطابة بخاله مسلمة بن مخلد الصامت ، وبجده المنذر بن حرام ، فى قوله : (٣)

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٣ .
(٢) عيون الأخبار ١ / ٢٨٦ ، ٢٨٧ .
(٣) الديوان : القصيدة رقم ٥ .

إن خالى خطيب جابية الجـو لان عـند النعـمان حـين يقـومُ

وأبى فى سميحة القائل الفا صل يوم التفّت عليه الخصوم (*)

وإذا كانت خطبة قس بن ساعدة قد عُدَّت أشهر خطب الجاهلية ، فإن المبرد يعد خطبة أبى طالب عم رسول الله ﷺ يوم عقد قران رسول الله على أم المؤمنين خديجة من أقصر خطب الجاهلية (1)، وسبب ذلك أن العرب كانوا يطيلون حين يخطبون فى مناسبات الزواج . يقول الخريمى الشاعر الأديب البلاغى الناقد : والسنة فى خطبة النكاح أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب (2).

وإن خطب النكاح تعد من أصعب الخطب ، ومن ثم لم يكن يتقنها إلا الخطباء البلغاء ذوو الحذق والفصاحة ، وكان عمر بن الخطاب ـ على فصاحته وتذوقه لجميل الكلام ـ يقول : ما يتصعدنى كلام كما تتصعدنى خطبة النكاح (3) مما يعنى أن خطبة النكاح تشق على الخطيب ، ويصعب إنشاؤها على البلغاء ، وبرغم ذلك الذى ذكر عن صعوبة هذا النوع من الخطب نجد أن أبا طالب قد أنشأ خطبته فى مناسبة شريفة فى غير ما سرف فى القول أو مبالغة فى الكلام ، ودبجها فى ثوب من أناقة التعبير وسداد الحكمة ، ونصاعة البيان .

ولعل من الخير أن نختم تناولنا المقتضب للخطابة فى الجاهلية بهذه الخطبة البليغة الهاشمية القرشية ، وفيها يقول أبو طالب :

« الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكام على الناس ؛ ثم إن محمد بن عبدالله ـ ابنَ أخى ـ من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برًّا وفضلا ، وكرما وعقلا ، ومجدا ونبلا ، وإن

(*) النعمان : هو النعمان بن الحارث الغسانى . سميحة : بئر بالمدينة احتكم عندها الأوس والخزرج إلى المنذر بن حرام .

(1) الكامل ٤ / ٤ .

(2) البيان والتبيين ١ / ١١٧ .

(3) المصدر السابق ١ / ١١٨ .

كان فى المال قلّ ، فإنما المال ظل زائل ، وعاريّة مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلىّ » .

إن البلاغة العفوية واضحة المعالم فى الخطبة من أولها إلى آخرها ، وإن محمدا الشاب الذى لم يكن قد تجاوز نصف عقد العشرينيات من عمره المبارك قد صوره عمه أدق صورة وأصدقها فى سجع عفوى فى كلمات « الفضل » و « العقل » و « النبل » فضلا عن أن صفات الفضل فيه جاءت مقرونة بالبر ، والعقل مقرونا بالكرم ، والنبل مقرونا بالمجد ، ومن ثم فهو يرجح جميع فتيان قريش وسائر شبابها ، لقد عدد أبو طالب كل هذه المحامد فى سطور معدودة ، ولكنها على قصرها فاقت مثيلاتها من خطب النكاح الطوال .





الفصل الثانى

خطب الدعوة إلى الله



خطابة رسول الله فى الدعوة إلى الله

رسول الله ﷺ هو أبلغ العرب وأفصح قريش ، تنثال المعانى الرفيعة من فمه الكريم انثيال السيل ، لا يدانيه فى ذلك قائل ، ولا يباريه خطيب وهو هكذا فى كل حالاته ، سواء أقال كلاما مرسلا أم اعتلى منبرا للخطابة ، أم حاور محدثيه ، أم أملى مستكتبيه .

وبلاغة رسول ﷺ جاءته وراثة واكتسابا ، وراثة من بلاغة بنى هاشم فى قريش ، واكتسابا من بنى سعد الذين استرضع فى باديتهم ، ومما زاد فضله فى البيان أنه علم ألسنة العرب ، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها فى منزع بلاغتها ، ولذلك كان ﷺ يقول : « **أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد** » وقد سأله يوما أبو بكر عن سر فصاحته بقوله : ما رأينا الذى هو أفصح منك . فأجاب ﷺ قائلا : « **وما يمنعنى وقد نزل القرآن بلسانى ، لسان عربى مبين** » .

يقول ابن قتيبة فى صفة خطب رسول الله ﷺ : تتبعت خطب رسول الله ﷺ فوجدت أوائل أكثرها « **الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونؤمن به ونتوكل عليه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له** » .

ويمضى ابن قتيبة فى صفة خطب رسول الله ﷺ قائلا : ووجدت فى بعضها : «أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته . . . . ووجدت كل خطبة مفتاحها الحمد إلا خطبة العيد فإن مفتاحها التكبير ، وتكبير الإمام قبل أن ينزل عن المنبر أربع عشرة تكبيرة » (١).

---

(١) عيون الأخبار ٢ / ٢٣١ .

وأما صفته ﷺ حين يخطب فكان طبقا لرواية جابر بن عبدالله : « **إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه حتى كأنه نذير جيش يقول : صبحكم ومسّاكم ، ثم يقول : «بعثت أنا والساعة كهاتين ، ويفرق بين أصبعيه السبابة والوسطى**»[(١)].

وكان ﷺ ينفر من الكلام الذى يتسم بالتصنع ، ولا يرتاح إلى السجع الذى يجافى الطبع . ويؤذى السمع ، وقد ضاق ذرعا ـ على الرغم من حلمه الواسع ـ برجل قال كلاما يستغرب فيه دية حكم بها رسول الله لامرأة ضربتها ضرتها وكانت حاملا فأسقطت جنينها ، وكان الرجل ـ واسمه العلاء بن مسروح ـ وكان أخا للمرأة الضاربة . قال ابن مسروح للرسول ﷺ : يا رسول الله : كيف ندى ـ أى : ندفع دية ـ من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهلّ ، فمثل هذا يطلّ ؟! فقال ـ عليه السلام ـ : «**أسجعا كسجع الجاهلية ؟**» وفى رواية : « **أسجعا كسجع الكهان ؟** »

من البداهة بمكان أن قوله ﷺ لا يفيد باستكراه السجع ؛ لأن السجع ضرب من القول الجميل يزين الكلام ، ويريح الأسماع ، وكلامه ﷺ فيه سجع كثير جميل ، مثل قوله : « **أيها الناس : أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام . تدخلوا الجنة بسلام** » وإنما قصد الرسول بسجع الجاهلية أو سجع الكهان ذلك الكلام المتنافر الثقيل على الذوق والسمع وإن اتشح بقوالب السجع والتزم فواصله .

كانت موضوعات خطب رسول الله ﷺ هى كل ما يتعلق بالإسلام نفسه ، وأولها الدعوة إلى الله ، ثم التربية والتنبيه ، والوعظ وغرس التقوى فى نفوس العباد ، والتذكير بمضيِّ الأجل وبزوال الدنيا وحتمية الموت وانتظار الآخرة ، وذكر الفرائض والعبادات والمحافظة عليها ، وحب الله ، وحب القرآن ، وحب الناس بعضهم بعضا ، وخطبه فى الأيام العظام مثل دخوله المدينة ، وفتح تبوك ، وفتح مكة ، وعند المشاعر ، وخطبة الوداع التى ضمنها وأكد فيها على الحلال والحرام ، وإصدار الأحكام .

---

(١) أمثال الحديث للرامهرمزى ص : ١٩ .

الدعوة إلى الله :

لقد أثر عن رسول الله ﷺ كثير من الخطب فى هذا المقام اتسمت بالقصر ، واختصت بالعمق والتركيز ، وتميزت بالتدرج فى مضامينها .

كانت أولى هذه الخطب يوم أن نزل عليه قوله تعالى :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾(1).

فقال : « **يا معشر قريش : اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا بنى عبد المطلب ، لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئا ، يا صفية عمة رسول الله ، لا أغنى عنك من الله شيئا ، يا فاطمة بنت رسول الله ، سلينى ما شئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئا** » البخاري ٨/٤٠٨ ، ومسلم ١ / ١٣٢ .

ولأن هذه الخطبة هى أولى خطبه ﷺ فقد عمد فيها إلى الخطاب المباشر موجها إياه إلى عشيرته الأقربين من قريش ، بادئا بالأعم ومنتهيا بالأخص ، وبالبعيد من العشيرة ، وينتهى بالقريب ، إنه ﷺ يبدأ بقريش على عمومها ، ثم بعمه العباس ، وعمته صفية ، وينتهى بالبتول فاطمة صغرى بناته ، وأقربهن إلى قلبه ، وأشبههن به خلقا وخلقا ، يحذرهم جميعا بأبلغ عبارة ، وبأعمق ما يحذر به المرء امرأً آخر أثيرا لديه ، مرددا ذلك التحذير البليغ « **لا أغنى عنك من الله شيئا** » إنها دعوة الإيمان بالله التى تنجى من عذاب الآخرة وعقابها ، وتحض على صلاح الدنيا وعمرانها .

وتستمر استجابته ﷺ للأمر الإلهى ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ فيوسع دائرة النداء من إنذار أقرب الأقربين إلى الأقربين من بطون قريش ، وإذا كان النداء فى الخطبة السابقة قد بدأ بالأقرب وهم قريش ، ثم بالأشد قربا وهما العم والعمة ، ثم بالألصق به ﷺ وهى فاطمة ، فإن النداء هذه المرة يبدأ بالأقرب من العشيرة ، ثم

---

(1) الشعراء ، الآية : ٢١٤ .

بالقريب البعيد، ثم بالقريب الأكثر بعدا ، وهم على الترتيب بنو عبد المطلب ثم بنو فهر ، ثم بنو كعب ، لقد صعد النبي ﷺ هذه المرة جبل الصفا ثم نادى :

« **يا صباحاه : فاجتمع الناس عليه ، فقال : يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى كعب ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم . أكنتم مصدقيّ ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبا ، قال : إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد** » البداية والنهاية ٣ / ٣٨ .

إنه لما كانت قريش تثق فى صدقه ﷺ وأمانته حتى إنها لقبته بالأمين ، فقد جعل الرسول مدخله فى توجيه الإنذار إليهم من هذا الباب المأمون ، إذ قد امتحن إيمانهم بصدقه ، فلما أجابوا بنعم ، قال على الفور : «إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد» .

ولأول مرة يذكر التحذير مقرونا بالعذاب ، وكان قبل ذلك فى الخطبة السابقة مجرد تحذير لأهله الأقربين بأنه لا يغنى عنهم من الله شيئا .

ثم كانت بعد ذلك الخطبة الثالثة ، خطبة المواجهة الصريحة ، والمكاشفة الواضحة ، والدعوة الفاصلة .

لقد حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« **إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كَذَبْتُ الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم .**

والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة .

والله لَتَمُوتُنَّ كما تنامون ، ولَتُبْعَثُنَّ كما تستيقظون ، ولَتُحاسَبُنَّ بما تعملون ، ولَتُجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا .

وإنها لجنةٌ أبداً ، أو لنارٌ أبداً » .

إن الشأن فى هذه الخطبة مختلف عنه فى سابقتيها ، لقد بدأ ﷺ فى الأولى موجها الإنذار بادئا بالأعم ومنتهيا بأخص الأخص وهى ابنته فاطمة البتول التى وضعها فى موقف أبوة حانية بأنها بضعة منه « **فاطمة بضعة منى** » محذراً إياها بأنه ـ برغم

كرامته على الله ـ لا يغنى عنها منه شيئا ، وينسحب هذا التحذير تلقائيا على الآخرين .

وفى الخطبة الثانية كان خطابه ﷺ موجها إلى الأخص ثم الأعم ، مع إنذار شديد الاقتضاب ، ولكنه مخيف لأنه تحذير بشديد العذاب .

أما هذه الخطبة فإنها تتميز بالمحتوى الزاخر ، والإيجاز البليغ ، والإعجاز المبهر ، لقد انطلقت الخطبة من فمه الشريف حاملة أربعة عناصر ، يتلو الواحد منها الآخر ، مفصحة كلها عن جوهر الرسالة السماوية التى أنيط بمحمد ﷺ أمانة إبلاغها للعشيرة الأقربين فى إطار من الإنذار الذى أهَّل محمداً ﷺ للتبليغ به بالصيغة التى يراها مجدية مثمرة .

كان العنصر الأول هو ذلك المدخل المتسم بالنقاء الذى يحمل سمات الحب والتحبب إلى قومه ، واجتذاب مزيد من ثقتهم بما يقول ، وما أنفس ما يقول . « **والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم** » .

ثم كان العنصر الثانى وهو التالى من حيث المنطق والعفوية متمثلا فى الإبلاغ الصريح بالرسالة « **والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة** » .

ثم أطلق الرسول ﷺ العنصر الثالث بما يشبه الصدمة المنبهة من الغفلة ، المفيقة من الضلال بحديث الموت المحتم ، والبعث ثم الحساب ، والثواب والعقاب .

ثم كان العنصر الرابع وهو الحاسم القاطع بأن المصير هو الخلود فى الجنة للمستجيبين ، والخلود فى النار للمنكرين .

بعد هذه الخطبة بدأ الرسول ﷺ طريق الكفاح فى سبيل الدعوة ، مواجها من الإنكار والاضطهاد ما تعجز عن تحمله كواهل ذوى العزم من الرجال ، فلم يستسلم ولم تفتر له عزيمة ، ولم تَلِنْ له قناة حتى كان نصر الله .

الوعظ والتربية والتوجيه :

كان رسول الله ﷺ معلم هذه الأمة الإسلامية ، والآخذ بيدها إلى مسالك الهدى

والنور ، وواضعها على المحجة البيضاء ، الآمر بإذن من الله باتباع المعروف والنهى عن المنكر ، المبين لشريعة الله ، الشارح لكتاب الله ، المظهر للأحكام ، الموضح للعبادات، الفاصل فى المشكلات ، وحلال المعضلات ، القدوة للناس من شيوخ وشباب وذكور وإناث ، فكانت مدرسة محمد من صنع يده . وجماعة الإيمان من غرس يديه .

لقد كان ذلك كله حصاد أقواله المرسلة ، وخطبه الآسرة ، وأفعاله المقررة ، ولقد حملت خطبه ﷺ قدرا كبيرا من هذه الأغراض ، وكان للوعظ والتوجيه والتربية القسط الأكبر والنصيب الأوفى ، فمن هذا الطراز هذه الخطبة الشاملة التى يذكّر فيها رسول الله سائر الناس بالموت وحقيقته ومخلفاته ، والانشغال بعيب المرء عن عيوب الناس ، وبالدعوة إلى الكسب الحلال ، ومجالسة أهل العلم ، ومخالطة الفقراء والمساكين ، وإنفاق الفضل من المال ، وإمساك الفضل من القول ، والتزام السنة ، واجتناب البدعة .

لقد طرق رسول الله ﷺ هذه الموضوعات فى خطبة شهيرة ، تتسابق معانيها إلى القلوب فتقتحمها فى رضى ويسر ، وتتراكض أحكامها لتصافح الأسماع بأرق أسلوب ، وأدق معنى ، وأصدق قول . وأنصع بيان . قال ﷺ :(١)

« أيها الناس : كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب ، وكأن الذى نشيّع من الأموات سَفْرٌ عما قليل إلينا راجعون ، نبوئهم أجداثهم ونأكل من تراثهم ، كأنا مخلدون بعدهم ، ونسينا كل واعظة ، وأمِنّا كل جائحة .

طوبى لمن شغله عيبُه عن عيوب الناس ، طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية، وجالس أهل الفقه والحكمة ، وخالط أهل الذل والمسكنة ، طوبى لمن زكت وحسنت خليقته ، وطابت سريرته ، وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن أنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسعته السُّنَّة ، ولم تستهوه البدعة » (*).

---

(١) صبح الأعشى ١ / ٢١٣ وجمهرة خطب العرب ١ / ٥٢ ، وأعلام النبوة ١٦٧ .

(*) الجائحة : الهلاك . طوبى : مؤنث أطيب ، ومن معانيها : الحسنى والخير ، وشجرة فى الجنة ، والجنة .

وفى الغرض السابق ، والحض على التعامل مع الحياة كأنسب ما يكون التعامل التنبيه إلى أن الأيام تطوى ، والأعمار تفنى ، مما يدفع بالرجل الحصيف أن يكثر من الأعمال الباقيات الصالحات ، وينأى بنفسه عن الشهوات ، فالعمر سريع المضى ، والموت وشيك القدوم ، فمن أقواله ﷺ فى هذا المقام ما قاله فى إحدى خطبه (١).

« ألا إن الأيام تطوى ، والأعمار تفنى ، والأبدان فى الثرى تبلى ، وإن الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد ، يقربان كل بعيد ، ويخلقان كل جديد ، وفى ذلك ـ عباد الله ـ ما ألهى عن الشهوات ، ورغّب فى الباقيات الصالحات » .

ولما كانت الحياة والموت هما محور عناية رسول الله ﷺ فى التوجيه والتنبيه والتحذير؛ لأن الدنيا دار الفناء ، والحياة فيها محدودة ، والآخرة هى دار البقاء ، والحياة فيها مخلدة، ولما كان زاد الآخرة محمولا من الدنيا قبل الموت ، وحصاده فى الدار الآخرة ، وفيها يكون الأجر والثواب على الإحسان ، والمساءلة والعقاب على الإساءة والكفران ، فإن الرسول ﷺ إشفاقا منه على المسلمين ، وخشية منه عليهم من عذاب أليم قد طرق هذا الموضوع مرات عديدة ، وها نحن نستعرض خطبة أخرى له ﷺ بدأها فقال بعد أن حمدالله وأثنى عليه (٢):

« أيها الناس : إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، إن المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع به ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد لنفسه من نفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت ، والذى نفس محمد بيده ما بعد الموت مستعتب ، ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار » (*).

وفى التحذير من الدنيا يخطب ﷺ خطبة أخرى طويلة ، يقول عنها الصحابى أبو سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ : إنه ﷺ بدأها بعد العصر ، وظل على منبره ماضيا فى

(١) أعلام النبوة ص : ١٦٧ وأدب الدنيا والدين ، ص ١٤٩ .

(٢) عيون الأخبار ، كتاب العلم والبيان ٢ / ٢٣١ وأدب الدنيا والدين ص : ١٥٣ والبيان والتبيين ١ / ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(*) المعالم : مفردها معلم ، وهو الأثر يستدل به على الطريق .

والمراد : حدود الشريعة المطهرة . استعتبه : أعطاه العتبى ، وطلب إليه العتبى ، وهى الرضا والصفح .

وعظ الصحابة وتبصيرهم بأمور دينهم ودنياهم حتى أوشكت الشمس على المغيب ، وفى هذه الخطبة يحذّر الرسول الناس من الاغترار بالدنيا ؛ لأن الله استخلفهم فيها ، ويحذرهم من كيد النساء ، ويحضهم على قول الحق إذا علمه الفرد غير آبه بالناس أو خيفة منهم .

وتعد هذه الخطبة التى لم يصل منها إلينا إلا بضعة سطور من أطول خطب النبى ، بل لعلها أطولها جميعا ، ثم يليها فى الطول خطبة الوداع ؛ ذلك لأن خطبه ﷺ اتسمت بالقصر ، بل إنه قد ذكر بين شمائله ﷺ أنه كان يقصر الخطب ، بل كان يأمر بقصرها ، وهو ما يتضح من أحجام خطبه ﷺ التى نعرضها فى هذا الباب ، فإن عمار ابن ياسر قد تكلم يوما ـ يعنى خطب ـ فأوجز ، فقيل له : لو زدتنا ؟ فقال : أمرنا رسول الله ﷺ بإطالة الصلاة وقصر الخطب [1].

روى الصحابى الجليل أبو سعيد الخدرى خبر هذه الخطبة فيقول :

خطب رسول الله ﷺ بعد العصر ، فقال : [2]

« ألا إنَّ الدنيا خَضِرَةٌ حُلْوَة ؛ ألاَ وإنّ الله مُسْتَخْلِفكُم فيها ، فَنَاظِرٌ كَيفَ تعمَلون : فاتَّقُوا الدّنيا ، واتَّقوا النساءَ .

ألا لا يَمْنَعَنَّ رجلاً مَخَافةُ النَّاسِ أنْ يقولَ الحقَّ إذا عَلِمَه » .

قـال : ولم يَزَلْ يخطُبُ حتى لم تَبقَ من الشمس إلا حُمْرَةٌ على أطرافِ السَّعَفِ ؛ فقال :

« إنه لم يَبقَ من الدنيا فيما مَضَى ، إلا كما بَقِيَ من يومِكم هذا فيما مضى » .

خطبه فى حب الله وحب القرآن وحب الناس بعضهم بعضا :

لرسول الله ﷺ العديد من الأحاديث فى حب المؤمنين بعضهم بعضا ، وفى أحاديث المحبة عند رسول الله ﷺ ترغيب وترهيب ، وإغراء وتخويف ، ترغيب فى حب الناس

(١) البيان والتبيين ١ / ٣٠٣ .

(٢) عن إعجاز القرآن للباقلانى ، ص : ١٣٤ وجمهرة خطب العرب ١ / ٥٤ .

وإغراء به ، وترهيب لمن عزف من محبة المؤمنين وتخويف من ذلك ، فمن ذلك قوله ﷺ: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ».

ويقول ﷺ : « والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا ، أولا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم »

هكذا يربط رسول الله ﷺ المحبة بالإيمان ، فلا إيمان بغير الحب .

ويقول أيضا : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى ؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى » .

وشبيه بالحديث السابق قوله ﷺ : « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل، وشاب نشأ فى طاعة الله عز وجل ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابّا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة وأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » .

وعن حب الله وحب الرسول يروى أنس - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : «ثلاث من كنّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار »

هذه المعانى فى الحب مثلما جاءت مروية فى أحاديث الصادق المصدوق ﷺ فقد جاءت أيضا فى خطبه ، والحب فى هذه الخطبة هو حب الله الذى أحسن كل شىء خلقه ، وحب كتاب الله الذى هو أحسن الحديث ، وحب من أحَب الله ، ومن المسلَّم به أن أول من يحبهم الله هو رسوله وحبيبه ومصطفاه ﷺ ثم سائر المؤمنين . يقول النبى ﷺ: (١)

« إن الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ؛

---

(١) الباقلانى ص : ١٣ وجمهرة خطب العرب ١ / ٥٣ .

من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

إن أحسن الحديث كتاب الله ، قد أفلح من زينه الله فى قلبه ، وأدخله فى الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه .

أحبوا من أحب الله ، وأحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقسو عليه قلوبكم . اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا .

اتقوا الله حق تقاته ، وصدقوا صالح ما تعملون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

إن المرء ليحسّ وهو يستمع إلى خطب رسول الله ﷺ سائرها ـ وإلى هذه الخطبة على وجه الخصوص ـ بسهولة الأسلوب ويسره وطهره ونقائه ، ووضاءته وبهائه ، وجماله وعذوبته ، وفيضه وتدفقه ، وانسرابه إلى مواقع القبول من قلوب المؤمنين انسرابا جميلا ؛ ذلك لأنها خطبة توجه المؤمنين إلى حب الله ، وحب كتابه ، وحب رسوله ، وحب المؤمنين بعضهم بعضا .

أول خطبة جمعة فى المدينة :

المدينة المنورة كانت تسمى قبل هجرة الرسول إليها يثرب ، وكان أهلها أسبق أهل الحجاز إلى الإسلام ، وقد بايعوا رسول الله ﷺ بيعتين قبل أن يهاجر إليهم ، فلما أن أُذِن له ﷺ بالهجرة ، وكان من أمر أخبارها ما هو معروف ، كان أول منزله فى « قباء» وهى ضاحية المدينة جنوبا ، تريث رسول الله فيها بعض الوقت عند بنى عمرو بن عوف وابتنى مسجدها . وكان الرسول ﷺ يشهد البناء ويستمع إلى عبدالله بن رواحة وهو ينشد مرتجزا : أفلح من يعمر المساجدا .

فيقول رسول الله : المساجدا .

فقال عبدالله : ويقرأ القرآن قائما وقاعدا .

فيقول رسول الله : وقاعدا .

فقال عبدالله : ولا يبيت الليل عنه راقدا .

فيقول رسول الله : راقدا .

وهو تقليد يحمل تحية للشاعر أو المنشد أن يردد المستمع اللفظ الأخير من البيت الذى يمثل القافية ، ولا يزال هذا التقليد الجميل معمولا به حتى الآن فى حلقات الشعر فى إمارات ساحل عمان . إنه تقليد نبوى كريم لتحية الشعراء الجادين .

ولما أن عزم رسول الله ﷺ على دخول المدينة أرسل إلى أخواله من بنى النجار ـ وهم أخوال جده عبد المطلب ـ فجاءوا متقلدين السيوف ، وقالوا لرسول الله وأصحابه : «اركبوا آمنين مطاعين » وكان يوم جمعة ، فركب الرسول ﷺ ناقته « القصواء » والناس من حوله ، وكان استقبال الناس له عند ثنية الوداع ترحيبا بالطبول والأناشيد ، وقد روت السيدة عائشة أن الأنصار استقبلوا رسول الله يومئذ منشدين مرددين :(١)

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

كان رءوس الأوس والخزرج كل يطلب من رسول الله النزول بديارهم بعبارات رفيعة المعانى ، ملؤها الترحيب والثناء ، والحب والإجلال ، فكان ﷺ يقول : « **إنى أمرت بقرية تأكل القرى ، فخلوها ـ أى : ناقته ـ فإنها مأمورة** » .

إنه بقدر ما كان أعيان المدينة وشيوخها سعداء بمقدم سيد الخلق ورسول رب العالمين إلى بلدهم ، كان عبدالله بن أبىّ بن سلول أشقى الناس وأتعسهم ، لقد أراد رسول الله أن يكرمه وينزل عنده ضيفا عليه ، ولكن ابن سلول يحرم نفسه هذا الشرف ؛ لأن نفسه مريضة ، وقلبه ملىء بالحقد على رسول الله الذى بدد مقدمه المدينة أحلام ابن سلول بالملك على الخزرج ، وأما عبدالله بن سلام ـ رضى الله عنه ـ فقد قال ـ طبقا لرواية يحيى بن الحسن العلوى ـ : « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه ـ أى : أسرعوا ـ فجئت لأنظر إليه ، فلما تبينت وجهه علمت أن وجهه ليس بوجه

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٣ / ٣٨٦ .

كذاب» فكان أول شيء سمعته يتكلم به أن قال : « **يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام ، وصلوا والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام** »

ومثلما أثر عن رسول الله ﷺ ثلاث خطب يوم أوحى إليه بأن « أنذر عشيرتك الأقربين » فقد أثر عنه ﷺ ثلاث خطب يوم الجمعة الذى وصل فيه إلى المدينة المنورة .

لقد كانت خطبه ﷺ تتسم بالقصر ، ولكن المعانى التى تحتويها والمواعظ التى تشتمل عليها تنوء بشروحهاومضامينها الأسفار العديدة .

كانت خطبة الجمعة فى هذا اليوم هى الأطول والأكثر امتلاء بالوصايا ، والأوفر احتواء للمواعظ ، والجمع بين دلائل الإنذار والترهيب وبين جلائل البشارات والترغيب .

لقد روى ابن جرير الطبرى عن سعد بن عبد الرحمن الجمحى أن رسول الله ﷺ خطب فى أول جمعة صلوها بالمدينة فى بنى سالم بن عوف فقال :(١)

« **الحَمْدُ لله أَحْمَدُهُ وأَسْتَعِينُه ، وأَسْتَغْفِرهُ وأَسْتَهْدِيه ، وأومِنُ به ولا أَكْفُرُهُ ، وأعَادِى من يَكْفُرُه ، وأَشهد أن لا إله إلاّ الله وَحْدَه لا شريك له ، وأنَّ محمداً عَبْدُه ورسولُه أَرسله بالهُدَى ودين الحَقّ ، والنور والمَوْعِظَة ، على فَتْرةٍ من الرُّسُل ، وقِلَّةٍ من العِلْم ، وضلالةٍ من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودُنُوٍّ من الساعة ، وقُرْبٍ من الأَجَل ، مَنْ يُطِعِ الله ورسولَه فقد رَشَدَ ، ومن يَعْصِهِمَا فقد غَوَى وفَرَّط وضَلَّ ضَلالاً بعيداً . أُوصِيكُمْ بتقوى الله ؛ فإنه خَيْرُ ما أَوْصَى به المُسْلِمُ المُسْلِمَ أن يَحُضَّه على الآخرة ، وأَن يَأْمُرَه بتقوى الله عزَّ وجَلَّ ، فاحْذَرُوا ما حَذَّرَكم الله من نفسه ، ولا أَفْضَل من ذلك ذِكْراً ، وإن تقوى الله لمن عَمِلَ به على وَجَلٍ ومَخَافَةٍ مِنَ رَبِّه عَوْنُ صِدْقٍ على ما تَبْغُونَ من أمر الآخرة ، ومَنْ يُصْلِح الذى بينه وبين الله تعالى من أمره فى السِّرِّ والعلانية لا يَنْوى بذلك إلا وَجْهَ الله يَكُنْ له ذِكْراً فى عاجل أَمْرِه وذُخْراً فيما بعد الموت ، حين يفتقر المرء إلى ما قَدَّم . وما كان**

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ / ٢٢٥ وتفسير القرطبى ١٨ / ٩٨ ، ٩٩ وسبل الهدى والرشاد ٣ / ٤٧٨ ، ٤٧٩ .

مما سِوَى ذلك يَوَدُّ لو أَنَّ بَيْنَهُ وبَيْنَهُ أَمَداً بعيداً ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ هو الذى صَدَقَ قَوْلَه ، وأَنْجَزَ وَعْدَه ، لا خُلْفَ لذلك ، فإنه يقول عَزَّ وجَلّ : ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ فاتَّقُوا الله فى عاجِلِ أمْركم وآجِلِه فى السِّرِّ والعلانية فإنَّه ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ ومَنَ يَتَّقِ الله فقد فاز فوزاً عظيماً . وإن تَقْوَى الله تُوَقِّى مَقْتَه وتُوَقِّى عقُوبَتَه وَتُوَقِّى سَخَطَه وإن تَقْوَى الله تُبَيِّضُ الوجوه وتُرْضِى الرَّبَّ ، وترْفَعُ الدَّرَجة ، فَخُذُوا بِحَظِّكم ، ولا تُفَرِّطُوا فى جَنْبِ الله ، فقد عَلَّمكم كتابَه ، ونَهَجَ لكم سَبِيلَه ، ليعلمَ الذين صَدَقُوا وَلِيَعْلَمَ الكاذبين . فَأَحْسِنُوا كما أَحْسَنَ الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا فى الله حَق جِهَادِهِ، هو اجْتَبَاكُمْ وسَمَّاكم المسلمين ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾ ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله فَأَكْثِرُوا ذِكْرَ اللهِ تعالى واعملوا لما بعد الموت ، فإنه من يُصْلِحْ ما بينه وبين الله يَكْفِهِ الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يَقْضِى على الناس ولا يَقْضُونَ عليه ، ويَمْلِكُ من الناس ولا يَمْلِكُونَ منه . الله أكبر . ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله العَلِيّ العظيم» .

وإنه مما يؤكد أن هذه الخطبة هى أول خطبة صلى بها النبى الجمعة ، ما ذكره ابن عباس فى شأنها طبقا لرواية ابن كثير [1] .

لقد كان مجتمع المؤمنين فى المدينة مشوقا إلى سماع كلام رسول الله قبل أن يؤمهم فى صلاة أول جمعة يوم حل بديارهم ، ومن ثم فقد خطب أكثر من مرة فى نفس اليوم ، وكانت خطبته الثالثة هى خطبة الجمعة ، وأما سابقتاها فقد قيلتا فى مقام التوجيه والتعليم قبل الاتجاه لأداء فريضة الجمعة التى يصليها الرسول لأول مرة ، فلم يرد ما يفيد أنه ﷺ قد صلاها قبل الهجرة .

---

(١) البداية والنهاية ٣ / ٢٢٤ ونثر الدر للآبى ١ / ٢٦٠ .

ليس من شك فى أن هذه الخطبة ذات لون خاص ، وهى فى محتواها ومضامينها وعناصرها تتفق مع جلال مناسبتها ؛ لأنها أول خطبة جمعة ألقاها الرسول ، ولأن مكان إلقائها دار الهجرة يوم وصوله ﷺ إليها ، ولأن مستمعيها هم تلاميذ المدرسة المحمدية الذين قام بإعدادهم خير إعداد مصعب بن عمير مبعوث رسول الله إلى المدينة لتعليم من آمنوا القرآن الكريم بعد بيعة العقبة الثانية ، ثم بقية من أسلموا من أهل المدينة ، وكانوا يمثلون بيوتا بأكملها .

لقد اشتملت الخطبة على ما عرف بأركان خطبة الجمعة ، من حمد الله والثناء عليه ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، مع إبانة لفضل الرسالة وزمانها .

ولقد توالت وصايا الرسول فى هذه الخطبة بتقوى الله وطاعته فى صيغ شتى تزفّها البلاغة المحمدية : « **من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا** » ، **وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما يوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله** » وينال حديث التقوى عناية كبيرة ؛ لأن تقوى الله فيها عماد الأمر كله .

ومثلما طال الحديث عن التقوى فكذلك نال الإحسان ، والجهاد فى سبيل الله ، والإكثار من ذكره تعالى ، والعمل لما بعد الموت قدرا كبيرا من عناية الرسول ﷺ فى تلك الخطبة .

ولقد تفردت هذه الخطبة أيضا بالإكثار من الاستشهاد بآيات كتاب الله حتى بلغ عدد الاستشهاد فيها بالقرآن الكريم خمس مرات .

إن كثيرا من خطب رسول الله ﷺ وأحاديثه فيها استشهاد بالقرآن الكريم ، ولكن هذه الخطبة قد تميزت ـ بسبب مناسبتها ـ بكثره المواضع التى جرى فيها الاستشهاد بكتاب الله .

ومجمل القول فى هذه الخطبة أنها كانت نبراسا للمهاجرين وللأنصار على حد سواء اهتدوا فيها بنوره ، واستضاءوا بضيائه ، مثلما اهتدت به أجيال المسلمين بعد ذلك وإلى أبد الآبدين بمشيئة الله .

ثمت خطبة أخرى خطبها رسول الله ﷺ فى اليوم نفسه ، ولكن فى غير صلاة الجمعة وهذه الخطبة شديدة القصر لا تتجاوز ستة سطور فى موضوع التقوى ، وقد تضمنت القول الشريف المحفوظ فى قلوب المؤمنين : « **فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف** » .

إنه طبقا لسليقته ﷺ يقدم الإنذار ثم يردفه بالترغيب والبشرى ، فمثلما أنه نذير ، فهو أيضا البشير الذى يدعو إلى تقوى الله ، ومع دعوته هذه يذكّر بعظيم ثواب الله ، ويكرر أن الله سبحانه غافر الذنب ، قابل التوب ، وسعت رحمته كل شىء .

ثم خطب ﷺ وقد استقر به المقام خطبة ثالثة بدأها بالصيغة الشريفة المأثورة وهى حمد الله والتعوذ به من « **شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى ، قد أفلح من زينه الله فى قلبه ، وأدخله فى الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا من أحب الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقس عنه قلوبكم ، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى قد سماه الله خيرته من الأعمال ومصطفاه من العباد والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا واتقوه حق تقاته ، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، إن الله يغضب أن ينكث عهده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته** » .

لقد استهدفت هذه الخطبة مزيدا من التوجيه النبوى الشريف ، فقد تغيأت فى جماع مبانيها ومشتمل معانيها كتاب الله حفظا وانشغالا به وإقبالا عليه ذكرا وتلاوة ، كما اشتملت بعد ذلك على مجموعة من المواعظ المحمدية تبدأ بالترغيب فى حب الله وطاعته ، وتنتهى فى دعوة المؤمنين إلى التحاب ورعاية العهود .

أول خطبة جمعة :

على أن الأمر الجدير بالاهتمام هو أن الخطبة الأولى سالفة الذكر وإن كانت أول خطبة

جمعة لرسول الله ﷺ فى المدينة المنورة ، فإنها ليست أول خطبة جمعة اعتلى فيها المنبر؛ لأن الصحابى طلحة بن عبيدالله يخبر أنه سمع رسول الله ﷺ على منبره يقول :

« ألا أيها الناس : تُوبُوا إلى ربِّكم قبلَ أنْ تموتوا ، وبَادرُوا الأعمالَ الصالحةَ قبلَ أنْ تُشْغَلُوا ؛ وصِلُوا الذى بينكم وبيْنَ ربكم بكثرةِ ذكرِكم له ، وكثرةِ الصدقةِ فى السر والعلانيةِ ـ تُرزَقوا وتُؤْجَرُوا وتُنْصَروا .

واعلموا أن الله عز وجل قد افْتَرَضَ عليكم الجمعة فى مقامى هذا ، فى عامى هذا ، فى شهرى هذا ؛ إلى يوم القيامة : حياتى ومن بعد موتى ـ فمن تَرَكها وله إمام ـ فلا جَمَع الله له شَمْلَه ، ولا بارَكَ له فى أمره ، ألا ولا حجَّ له ، ألا ولا صوم له ، ألا ولا صدقة له ، ألا ولا بر له .

ألا ولا يَؤم أعْرابى مُهاجِراً ، ألا ولا يؤُم فَاجِرٌ مؤمناً ، إلا أنْ يَقْهَرَهُ سلطانٌ يخاف سيفَه أو سَوطَه » .

وبذلك ـ فيما لو صحت الرواية ـ تكون هذه الخطبة هى أول خطبة جمعة خطبها رسول الله ﷺ على منبره طبقا لرواية طلحة [١] ذلك أن رسول الله يخبر صحابته أن الله سبحانه افترض عليهم الجمعة ـ مثلما فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء والمعراج ـ ولكن فى يومه هذا الذى يخطبهم فيه ، وأنها ستظل فريضة عليهم إلى يوم القيامة ، ومن تركها فهو محروم من بركة الله . ولا يُتقبل منه حج ولا صوم ولا صدقة ولا برّ .

ولأن الخطبة بِكْرٌ فى موضوعها فقد اشتملت على حكم حاسم فى شأن طبيعتها وكونها خطبة جمعة فرضها الله عليهم ولم تكن فرضت قبل ذلك ، هذا فضلا عن أن النبى ﷺ يحض الصحابة فيها وجمهرة المسلمين على توثيق صلتهم بالله ـ عز وجل ـ بكثرة ذكرهم له ـ جل وعلا ـ وبكثرة الصدقات فى السر والعلن ، وينبه ﷺ المسلمين إلى أمور تتعلق بصلاة الجماعة ، منها : ألاَّ يؤمّ أعرابى مهاجرا ، وألا يؤم رجل فاجر رجلاً مؤمنا إلا فى حالات القهر .

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص : ١٢٩ .

ومن خطبه ﷺ فى العيد قوله ﷺ :(١)

« يأيها الناس : آمنُوا بِرَسول الله ، ﴿ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ .

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ .

هَٰذَا يَوْمٌ أَكْرَمَكُمُ الله به وخَصَّكُمْ ، وجَعَلَهُ لَكُمْ عيداً ، فاحمدوا الله كَمَا هَدَاكُمْ لِمَا ضَلَّ عَنْهُ غَيْرُكُمْ ، وَقَدْ بَيَّنَ الحَلالَ والحَرَامَ ؛ غَيْرَ أَنَّ بَيْنَهُمَا شُبَهاً من الأَمْرِ لَمْ يَعْلَمْهَا كَثير منَ النَّاسِ ، إلا مَنْ عَصَمَ الله ، فَمَنْ تَرَكَهَا حَفِظ عرضه وَدِينَهُ ، ومَنْ وَقَعَ فيها كَانَ كالراعِى إِلَى جَنْبِ الحِمَى أَوْشَكَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ ، فَعَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ اللهِ واجْتِنَابِ سُخْطِه ، غَفَرَ الله لَنَا ولَكُمْ » .

لقد تجلى البيان المحمدى أجمل ما يكون إشراقا فى اختياره ﷺ عناصر الخطب بحيث تكون منسجمة مع يوم العيد ، الذى هو نعمة من الله ـ سبحانه ـ حين هدى المؤمنين إلى الرسالة الإلهية التى يشكل العيد واحدا من نفحاتها ، وهنا اهتم رسول الله ﷺ بالحديث عن الحلال والحرام وما بينهما من شبهات ينبغى على المسلم تركها ؛ لكى يسلم عرضه ويبرأ دينه .

---

(١) نثر الدر ١ / ٢٦١ .





الفصل الثالث

خطبه ﷺ
فى فتح مكة وبعض الغزوات



خطب الرسول فى فتح مكة
وبعض الغزوات

خطبة رسول الله يوم فتح مكة .

كان فتح رسول الله ﷺ مكة هو النصر الأعظم الذى بشر الله به محمدا فى أكثر من آية ، بل أكثر من سورة : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۞ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۞ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ نزلت بعد الحديبية .

هكذا بشر الله بالفتح ، وهكذا صوره القرآن الكريم غفرانا ونعمة ، وهداية ونصراً .

وفى الفتح أيضا نزلت سورة النصر ، وتسمى أيضا سورة التوديع ؛ لأنها آخر مانزل من القرآن بالمدينة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ وبنزولها أيقن رسول الله بنهاية أجله ، وأنها بمثابة نعى نفسه إليه .

كانت سورة الفتح تثبيتا له ﷺ ولأصحابه فى الحديبية حين قبل شروط قريش التى رأى فيها بعض الصحابة إجحافا بالمسلمين ، وكانت سورة النصر تخليدا لانتصار دين الله ، وعودة البيت الحرام إلى أيدى المسلمين حتى أبد الآبدين .

ومن الحقائق الكبرى أن صلح الحديبية الذى كان من شأنه ماذكرنا هو نفسه السبب فى فتح مكة ، وعودة الكعبة إلى الله ورسوله والمؤمنين ، بعد أن كانت قد دنست

بالأصنام منصوبة فيها ، وأوذيت بالأوثان منتشرة حولها ، وقد قيل : إن عدد أصنامها تجاوز الثلاثمائة حطمها رسول الله ﷺ يوم الفتح .

كان من شروط صلح الحديبية الذى عقد بين رسول الله ﷺ وقريش : أنه من أحبّ أن يدخل فى عَقْد رسول الله ﷺ وعهده فليدخل معه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم فليدخل ، فدخلت بنو بكر فى عقد قريش ، ودخلت خزاعة فى عهد رسول الله مؤمنها وكافرها . ولكِنْ بنو بكر - حليفة قريش - نقضت العهد واعتدت على بنى كعب من خزاعة بمساعدة قريش بالمال والسلاح ، وساقوهم إلى الحرم وقاتلوهم فيه ، فكان ذلك نقضا صريحا للعقد الذى أبرم بينهم وبين رسول الله ﷺ فخرج عمرو بن سالم الخزاعى ومعه بعض قومه واتجهوا إلى المدينة يطلبون العون والإغاثة من رسول الله ، ووقف عمرو أمام رسول الله وهو جالسٌ فى المسجد ، وأنشده هذه الأبيات :

يــارب إنى نــاشد محـمـدا ... حلف أبينا وأبيه الأتــلــدا

قدكنــتمُ وُلْدًا وكــنا والــدا ... ثُمت أسلمنا فلم ننزع يـدا

فانصر هداك الله نصرا أعتدا ... وادع عباد الله يأتـوا مـددا

فيهم رســول الله قد تجــردا ... إن سيم خسفا وجهه تربّدا

فى فيلق كالبحر يجرى مزبـدا ... إن قريشا أخلفوك الموعــدا

ونقــضوا ميثــاقك المؤكــدا ... وجعلوا لى فى كــداء رصـدا

وزعموا أن لستُ أدعو أحـدا ... وهـم أذلّ وأقــلّ عــــددا

هم بيّتونا « بالوتــير» هُجّـدا ... وقتلــونا ركــّعا وسُجّــدا

فـانــصر هداك الله نصــرا أيـّدا

فلما انتهى عمرو من إنشاده قال رسول الله ﷺ :

« نُصِرْتَ ياعمرو بن سالم » . وفى رواية أن رسول الله قال : « لا نُصِرْتُ إن لم أَنْصُرْ

بنى كعب مماً أَنْصُرُ منه نفسى » . فأنشأت سحابة ، فقال رسول الله ﷺ : «إن هذه السحابة تستهلّ بنصر بنى كعب ، أبصروا أبا سفيان فإنه قادم عليكم يلتمس تجديد العهد والزيادة فى المدة . »

وكان خبر استغاثة عمرو بن سالم برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد تأكد لأبى سفيان ، فأسرع فى القدوم إلى المدينة ، ودخل على ابنته أم المؤمنين أم حبيبة ، فلما أراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه ، فقال لها : ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ ! فقالت : بل هو فراش رسول الله ﷺوأنت رجل مشرك نَجَس ، فقال لها : والله لقد أصابك يابُنَيَّةُ بعدى شر .

إن المرء المؤمن إذا ما خيّر بين حرمة العقيدة وحرمة البنوة ، لم يقصر فى اختيار العقيدة وترجيحها على صلة البنوة وحرمتها ، وهو مافعلته أم المؤمنين أم حبيبة عليها السلام .

لم ييأس أبو سفيان زعيم قريش الذى كان ـ إلى عهد قريب ـ يصول ويجول فى النَّيْلِ من المسلمين وتهديدهم والتضييق عليهم فى أرضه ، فذهب يلتمس تفادى الحرب بمد مفعول الهدنة فترة زمنية أخرى فلم يفلح ، لقد طرق باب رسول الله ، ثم أتى أبابكر، ثم عمر ، ولكن دون جدوى ، فأتى عليا وعنده فاطمة وابنها الحسن ، وكان لايزال صغيرا ، فجرى بينه وبينهم هذا الحوار العجيب :

قال أبو سفيان : ياعلىّ ، إنك أَمَسُّ القوم بى رحما ، وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا ، فاشفع لى إلى رسول الله . فقال : ويحك يا أبا سفيان ، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، فالتفت إلى فاطمة قائلا : ياابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بُنَيَّكِ هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ فقالت : والله مابلغ بُنَيَّ ذلك ، وما يجير أحد على رسول اللهﷺ قال : يا أبا حسن ، إنى أرى الأمور قد اشتدت علىّ فانصحنى فقال : والله ما أعلم شيئا يغنى عنك ، ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك ، قال أبو

سفيان : أو ترى ذلك مغنيا عنى ؟ قال : لا ، والله ما أظنه ، ولكن لا أجد لك غير ذلك ، فقام أبو سفيان فى المسجد فقال : أيها الناس ، إنى قد أجرت بين الناس . ثم ركب بعيره فانطلق إلى مكة راجعا غيرموفق فى مهمته[1] .

أمر رسول الله ﷺ بالجهاز والاستعداد للزحف إلى مكة لفتحها ، وأعلم الناس بذلك وقال : « **اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتهم فى بلادهم** »

غير أنه من الضرورة بمكان أن نقرر أن رسول الله لم يتخذ قرار الحرب والاستعداد للغزو إلا بعد أن رفضت قريش الانصياع لشروطه التى كان بعث بها إليهم مع ضمرة ابن سعد الضمرى ، خيّرهم فيها بين إحدى ثلاث : أن يَدُوا قتلى خزاعة ، أو أن يبرأوا من حلف نفاثة ، أو ينبذ إليهم على سواء ، فلما أبوا جدّ رسول الله ﷺ فى الجهاز للحرب ، حتى إن أبا بكر نفسه وهو صدّيق رسول الله قد فوجىء بذلك حين دخل على ابنته عائشة ورأى شيئا من جهاز رسول الله ، فقال لها : أين يريد رسول الله ﷺ ؟ فقالت عائشة : تجهّز فإن رسول الله ﷺ غازٍ قومك ، فدخل رسول الله فمكث ساعة يتحدث مع أبى بكر ثم قال : هل تجهزت يا أبا بكر ؟ قال : لماذا يارسول الله ؟ قال : لغزو قريش ، فإنهم قد غدروا ونقضوا العهد ، وإنّا غازون إن شاء الله . وأذن فى الناس بالغزو .

هنا يبدو ضرويا أن نشير إلى الخطأ الذى ارتكبه صحابى جليل هو حاطب بن أبى بلتعة الذى كتب رسالة إلى قريش يخبرهم فيها بالغزو ، حملتها امرأة فجعلتها فى رأسها ، ثم فتلت عليها ضفائرها ، فأنبأ الوحى رسول الله ﷺ بذلك ، فبعث الرسول ثلاثة من الصحابة خلفها ، هم : على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود، وقال لهم : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ـ موضع بقرب حمراء الأسد من المدينة ـ فإن بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها . فلحقوا بالمرأة وأخذوا منها الرسالة وأحضروها للرسولﷺ فإذا بها : من حاطب بن أبى بلتعة إلى بعض مشركى مكة يخبرهم بغزو الرسول لهم ، فجىء بحاطب وساءله الرسول عن فعلته فأبدى بعض

---

(١) تاريخ الإسلام ـ مجلد المغازى ، للحافظ شمس الدين الذهبى ص : ٤٣٧ ، ٤٣٨ .

العذر، فقال عمر : يارسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق، فقال له الرسول : «إنه **قد شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله تعالى اطّلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »** [١] .

جيش الرسول فى الطريق إلى مكة :

وتقدمت جيوش الإسلام تحت راية رسول الله ﷺ فى طريقها إلى مكة ، وعلى رأس كل جيش واحد من الصحابة أبطال الحرب : خالد بن الوليد ، الزبيربن العوام ، وسعد بن معاذ ، وضربت الخيام والفساطيط بالأراك على مقربة من مكة ، وخرج أبو سفيان ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء يستكشفون الخبر ، وظنوا أن الجيش لبنى كعب جاءت لتثأر لقتلاها ، فلما دخل أبو سفيان وصاحباه المعسكر فى جنح الليل أمسك بهم الحرس ، وأيقن أبو سفيان بالقتل بعد أن فطن إلى أنه أسير بأيدى المسلمين ، فنادى بأعلى صوته يطلب الغوث من العباس عم رسول الله ، وكانا صديقين فى الجاهلية ، فأتاه العباس ودفع عنه القتل وخلّصه من أيديهم ، وقال له : إنك مقتول إن لم تسلم وتشهد أن محمدا رسول الله ، فكان يعزم على ترديد الشهادة ولكن لسانه لا ينطلق بها ، وبات ليلته مع العباس ، وأما حكيم بن حزام وبديل بن ورقاءفدخلا على رسول الله ﷺ فأسلما ، وجعل يستخبرهما عن أهل مكة .

وفى الصباح قال أبو سفيان : يا عباس ؛ كلّم الرسول فى قومك ، هل عنده من عفو عنهم ؟ فانطلق العباس بـه حتى أدخله على النبى فقال : يا رسول الله ، هـذا أبو سفيان ، فقال أبو سفيان : يامحمد ، قد استنصرتُ بإلهى ، واستنصرتَ بإلهك ، فوالله مالقيتك من مرة إلا ظهرت علىّ ، فلو كان إلهى محقا وإلهك باطلا ظهرتُ عليك ، فأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

ثم أمر الرسول بأبى سفيان فاستبقى حيث كان ومعه العباس ، ثم بعث رسول الله ﷺ الخيل بعضها على إثر بعض ، وقسمها شطرين ، فبعث الزبير فى خيل عظيمة ،

---

(١) المصدر السابق نفس الصفحة .

فلما مروا بأبى سفيان قال للعباس : من هذا ؟ قال : الزبير ، وبعده مرّ خالد بالجيش من أسلم وغفار وقضاعة ، فقال أبو سفيان : هل هذا رسول الله ياعباس ؟ قال : لا، ولكن هذا خالد بن الوليد ، وبعث رسول الله ﷺ سعد بن عبادة فى كتيبة الأنصار فقال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحلّ الحرمة ، ثم دخل رسول الله ﷺ فى كتيبة الإيمان من المهاجرين والأنصار.

فلما رأى أبو سفيان وجوها كثيرة لا يعرفها قال : يارسول الله اخترت هذه الوجوه على قومك ؟ قال : أنت فعلت ذلك وقومك ، إن هؤلاء صدقونى إذ كذبتمونى ، ونصرونى إذ أخرجتمونى ، ومع النبى يومئذ الأقرع بن حابس ، وعباس بن مرداس السلمى ، وعيينة بن بدر ، فلما أبصرهم حول النبى ﷺ قال : من هؤلاء ياعباس ؟ قال: هذه كتيبة النبى ﷺ ومع هذه الموت الأحمر ، هؤلاء المهاجرون والأنصار . قال : امض ياعباس فلم أر كاليوم جنودا قط ولا جماعة ، وسار الزبير بالناس حتى إذا وقف بالحجون ، واندفع خالد حتى دخل من أسفل مكة ، فلقيته بنو بكر فقاتلهم فهزمهم حتى دخلوا الدور ، وتقهقرت طائفة منهم على الجبل على الخندمة ـ جبل بمكة ـ وأتبعهم المسلمون بالسيوف .

ودخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أخريات الناس ، ونادى مناد : من أغلق داره وكف يده فإنه آمن ، وكان النبى ﷺ نازلا بذى طوى ، فقال : كيف قال حسان ؟ فقال رجل من أصحابه : قال :

عَدِمْتُ بنيَّتِى إن لم تَرَوْهَا ... تثير النقع من كَنَفَىْ كداءِ

فأمرهم الرسول أن أدخلوا الخيل من حيث قال حسان ، فأدخلت من ذى طوى من أسفل مكة ، واستحرّ القتل ببنى بكر ، فأحل الله له مكة ساعة من نهار ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۞ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ فقال رسول الله ﷺ : **« ما أحلت الحرمة لأحد قبلى ولا بعدى ، ولا أحلت لى إلا ساعة من نهار »** (١) .

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبى قسم المغازى ، ص: ٤٤٥ ، ٤٤٦ .

إن مشاهد فتح مكة كثيرة وجليلة ، أليس هو الفتح الأعظم الذى بشر به المولى سبحانه محمدا فى ساعة ظُنَّ أنها استسلام وما كانت استسلاما ، ولكن كانت مقدمة لليوم العظيم الذى كرم الله فيه رسوله أعظم تكريم ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ .

خطبة فتح مكة :

كان دخول رسول الله ﷺ الكعبة فى رمضان سنة ثمان فطاف سبعا على راحلته ، ثم وقف قائما على باب الكعبة ، وألقى خطبة اليوم الخالد : يوم الفتح فقال : (١)

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ صَدَق وَعده ، ونَصَر عبْدَهُ ، وهزَمَ الأحْزَابَ وحدَه .

ألا كلُّ مأثُرة أو دم أو مال يُدَّعى فهو تحتَ قدميَّ هاتيْنِ ؛ إلا سدَانَةَ البيتِ ، وسقَايَةَ الحاجِّ .

ألا وقتيلُ الخطإ شبه العمد بالسوط والعصا ـ فيه الدية مُغَلَّظَة ، منها أربعون خلِفَة ، فى بطونها أولادُها .

يا معشرَ قُريش : إن الله قد أذهب عنكم نَخْوةَ الجاهلية وتَعَظُّمها بالآباء ؛ الناسُ من آدم ، وآدمُ خُلق من تراب ؛ ثم تلا قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

يامعشر قريش ـ أو يا أهل مكة ـ : « ما ترَوْنَ أنى فاعلٌ بكم ؟ قالوا : خيراً ؛ أخٌ كريمٌ ، وابنُ أخ كريم . ثم قال : فاذهَبُوا فأنتم الطلقاء » (*) .

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى، ص : ١٣٢ .

(*) المأثرة : الخصلة المحمودة تتوارث ويتحدث الناس عنها .

الخلفة ـ بفتح ثم كسر ـ : الحامل من النوق .

إنها خطبة كمال التوحيد ونهايه الشرك ، أعلن ذلك رسول الله من على باب الكعبة التى خلصت لدين الله ، وتحررت من الأصنام التى حطمها رسول الله ساعة دخوله ، وفى خطبة الفتح إعلان بأن الله صدق وعده بنصر المؤمنين وهزيمة الكافرين ، مع معان أخرى صدرت عن رسول الله فى هذا الموقف العظيم مثل تثبيت سدانة البيت وسقايه الحاج ، وتشريع حكم الدية فى قتل الخطأ شبه العمد ، وإعلان المساواة الكاملة بين الناس جميعا حيث لايكون التفاضل بينهم إلا بتقوى الله ، ثم أخيرا العفو العام .

وقد أثر عن رسول الله ﷺ أنه استجاب للعباس حين طلب إليه تكريم أبى سفيان لمقامه بين قومه بقوله الشريف : « **من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن** »

وقد كانت الفعال فى فتح مكة لاتقل إفصاحا عن الأقوال فقد عمّ كرمه ﷺ كل أهل مكة ، باستثناء أشخاص بأعينهم يقل عددهم عن أصابع اليد الواحدة ، وفاضت سماحته بحيث شملت جميع الناس وبينهم من كان قد ذهب فى إيقاع الأذى به مذهبا لا حدود له ، وأوغل فى تعذيبه إيغالا يصعب معه التسامح ، ولكنها أخلاق محمد وشمائله التى تسمو على الخلائق ، وتتضاءل أمامها كل شمائل أهل الأرض ، وفى كلمات ثلاث يبدل خوفهم أمنا ، ويحوّل إسارهم إلى حرية : « **اذهبوا فأنتم الطلقاء** » .

خطب الرسول فى الغزوات

خطبة يوم الأحزاب :

كان يوم الأحزاب من أشد أيام الكروب التى تعرض لها المسلمون فى عصر النبوة ، فقد اتحدت قبائل المشركين وحاصرت المدينة المنورة بجيوشهم الكثيفة المتربصة شرا ، ولم تكن المحنة متمثلة فى جيوش المشركين وحدهم ، وإنما كان العدو اليهودى الذى يساكن المسلمين مدينتهم ، يصنع كيده، ويبث سمومه ، وينسج تآمره ، وقد ألهم المسلمون أن يحفروا الخندق ليفصل بينهم وبين العدو ريثما يهىء الله النصر للمؤمنين الذين بلغت قلوب بعضهم الحناجر ، هنا يقف رسول الله لكى يزرع الصبر فى نفوس المؤمنين ، ويجدد الإيمان فى قلوبهم ، فيمزج الحماس بالدعاء إلى الله بالنصر ، والضراعة إلى المولى بتمزيق صفوف العدو وتشتيت شملهم .

يقول ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« والَّذى بَعَثَنِى بِالحَق ، إِنَّهُم لَحِزْبُ الشَّيَاطِينِ يُحَدِّثُونَهُمْ فَيَكْذِبُونَهُمْ ، ويمنُّونهم فَيَغُرُّونَهُمْ ، ويَعِدُونَهُمْ فَيُخْلِفُونَهُمْ ، واللهِ مَاحَدَّثْتُكُمْ فَكَذَبْتُكُمْ ، ولاَ مَنَّيْتُكُمْ فَغَرَرْتكم ، ولا وَعَدتكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ . اللهم اضربْ وجوهَهم ، وأَكِلَّ سِلاَحَهُمْ ، ولا تبارِكْ لهم فى مَقَامِهِمْ . اللهم مزِّقْهُمْ فى الأرْضِ تَمْزِيقَ الرياحِ الجَرَادَ . والذى بعثنى بالحقِّ لِئن أَمْسَيْتُمْ قليلا لتكثُرُنَّ ، ولئن كُنْتُمْ أَذِلَّةً لَتَعِزُّنَّ ، ولَئِنْ كُنْتُمْ وُضَعَاءَ لَتَشْرُفُنَّ حَتَّى تَكُونُوا نجوماً يُقْتَدَى بِوَاحِدِكُمْ ، يقال : قال فلان وقال فلان »(١).

لقد استجاب الله دعاء رسوله الكريم ؛ فلم يبارك للمشركين فى مقامهم، ومزقهم

(١) نثر الدر ١/ ٢٦٣.

فى الأرض تمزيق الرياح الجراد ، وأما صحابة رسول الله ـ الجنود الذين وهبوا أرواحهم ودماءهم لله ـ فلقد كثروا بعد قلة ، وعزّوا بعد ذلة ، وشرفوا بعد ضعة ، تلك كانت دعوات حبيب الله إلى الله ، فكانت إجابة المولى ـ عز وجل ـ سريعة ناجزة .

فى الطريق إلى تبوك :

إن غزوة تبوك من الغزوات المميزة لرسول الله ﷺ لأمور عدة ، منها : أنها أول مواجهة للمسلمين مع الروم ، ومنها أن المسافة التى قطعها الرسول وجيشه هى أطول مسافة قطعها رسول الله ﷺ فى أية غزوة غزاها ، فالمسافة بين المدينة وتبوك تصل إلى حوالى سبعمائة كيلومتر بمقاييس زماننا على طريق ممهد ، ومنها أن رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قطعها وجيشه فى أشد فصول السنة حرارة ، ومنها أنها جرت فى زمن العسرة ، ولذلك كان جيشها يسمى جيش العسرة .

قيل لعمر بن الخطاب ـ وهو أمير المؤمنين ـ : حدثنا عن شأن العسرة ؟ فقال : خرجنا إلى تبوك فى قيظ شديد ، فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى أن كان الرجل ينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل مابقى على كبده ، فقال أبو بكر : يارسول الله : إن الله قد عودك فى الدعاء خيرا ، فادع الله لنا قال : أتحب ذلك ؟ قال : نعم ، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأطلت ثم سكبت ، فملأوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر (١) .

ولقد تميّزت غزوة تبوك عن غيرها أيضا بأن رسول الله ﷺ قلما كان يخرج إلى غزوة إلا أظهر أنه يريد غيرها ، وأما غزوة تبوك فقد أعلن أنه يريدها ، وأنه يريد الروم ، وذلك فى قوله ﷺ : « **أيها الناس ، إنى أريد الروم** » .

إن أحداثا كثيرة ـ والأمر كذلك ـ جرت فى هذه الغزوة ، وارتبطت بها منذ أعلن رسول الله ﷺ التعبئة لها ، فقد جرت زمن العسرة حسبما أسلفنا القول ، وكان تمويلها وميرتها يبدوان أمرا عسيرا ، ولكن ما إن أمر ﷺ بالصدقة والنفقة حتى تسابق الصحابة

---

(١) الذهبى ٥٢٦ رواية نافع بن جبير عن ابن عباس .

إلى التبرع ، كل على قدر سعته ، وكان عثمان ـ رضى الله عنه ، شأنه فى ذلك شأنه فى مواقف البذل ـ الأسرع إلى الإسهام قائلا : يارسول الله ، علىّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله .

يقول الصحابى عبد الرحمن بن خباب : أنا شهدت رسول الله ﷺ وهو يقول على المنبر : « **ما عَلَى عثمان مَا عَمِلَ بعد اليوم** » وتصدق يومئذ عبد الرحمن بن عوف بمائتى أوقية ، فقال له النبى ﷺ: « **هل تركت لأهلك شيئا ؟ قال : نعم ، أكثر مما أنفقت وأطيب . قال : كم ؟ قال : ما وعد الله ورسوله من الرزق والخير** » .

وتصدق عمر بمائة أوقية ، وتصدق عاصم الأنصارى بتسعين وسقاً من التمر .

وبقدر ما كان المنافقون يثبطون همم المسلمين فى الخروج مع رسول الله ، بقدر ما كان المسلمون يتسابقون إلى الصحبة ، فإذا لم يجدوا مايحملون عليه انخرطوا فى البكاء لحرمانهم من صحبة رسول الله فى رحلة الجهاد لله ، وهم : أبو ليلى عبد الرحمن بن كعب ، وعبد الله بن المغفل ، وعُلبَةُ بن زيد ، وأربعة آخرون ، وقد سُمُّوا بالبكائين .

فأما أبو ليلى عبد الرحمن بن كعب ، وعبد الله بن المغفل فقد لقيهما أنصارى من الباذلين فى سبيل الله ـ هو يامين بن عمرو ـ وهما يبكيان ، فقال : مايبكيكما ؟ فقالا : جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا ـ أى : يعطينا ما نركبه فى الطريق إلى تبوك ـ فلم نجد عنده مايحملنا عليه ، وليس عندنا مانتقوى به على الخروج ، فأعطاهما ناضحا ـ أى بعيرا ـ فارتحلاه ، وزودهما شيئا من لبن .

وأما علبة بن زيد فبات ليلته يصلى ثم بكى واتجه إلى الله داعيا : اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندى ما أتقوّى به ، ولم تجعل فى يد رسولك ما يحملنى عليه ، وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى بها فى مال أو جسد أو عرض . ثم أصبح مع الناس ، فقال رسول الله ﷺ : « **أين المتصدق هذه الليلة ؟** » فلم يقم أحد ، ثم قال : « **أين المتصدق ؟ فليقم** » . فقام إليه علبة فأخبره ، فقال رسول الله ﷺ : « **أبشر فوالذى نفس محمد بيده لقد كُتِبَتْ فى الزكاة المتقَبَّلَةِ** » .

هذه نماذج من نوعية متميزة من الرجال هم صحابة رسول الله ، يبكون لأن صحبتهم إياه فى الجهاد تفوتهم ، فيعوضهم الله خيرا بإتمام الصحبة أو بقبول أعمالهم .

أبو ذرّ وأبو خيثمة :

غير أن نموذجين آخرين على جانب من التفانى فى حب الله ورسوله يجمل ذكر خبرهما فى هذا السياق ، هما أبوذر الغفارى ، وأبو خيثمة زهير بن معاوية بن خديج .

يروى ابن إسحاق مسلسلا الرواية إلى الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ لما سار إلى تبوك ، كان بعض الناس يتخلّف فى الطريق ، فيقول الصحابة : يارسول الله تخلف فلان ، فيقول : « دعوه ، إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » حتى قيل : يارسول الله : تخلف أبوذرّ وأبطأ به بعيره ، فقال : دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه » . وأما أبوذَرّ نفسه فكان يحث بعيره على المسير حتى يلحق برسول الله ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فجعله على ظهره ، ثم خرج يتبع رسول الله ﷺ ماشيا . ونزل رسول الله ﷺ فى بعض منازله ـ فى تلك الرحلة الطويلة ـ ونظر ناظر من المسلمين فقال : يارسول الله : إن هذا الرجل يمشى على الطريق ، فقال رسول الله ﷺ : كن أباذَرّ ـ على سبيل الدعوة والتمنى ـ فلما تأمله القوم قالوا : هو والله أبوذر ، فقال رسول الله ﷺ : « **يرحم الله أباذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده** » هكذا لحق أبو ذر بكتيبة رسول الله فى الطريق إلى تبوك .

أما نبوءة رسول الله ﷺ فى موت أبى ذر وحده وبعثه وحده فيقص خبرها ابن جرير الطبرى رواية عن سلسلة رأسها محمد بن كعب القرظى قال : لما نفى عثمان أباذر ، نزل أبو ذر الربذة (*) أصابه بها قدره ، ولم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه ، فأوصاهما أن غَسِّلاَنى وكَفِّنَانِى ثم ضَعَانِى على قارعة الطريق ، فأول ركب يمرّ بكم فقولوا : هذَا أبوذر صاحب رسول الله ، فأعينونا على دفنه ، فلما مات فَعَلاَ ذلك به ، ثم وضعاه على قارعة الطريق ، فأقبل عبد الله بن مسعود ورهط من أهل العراق عُمَّاراً ـ أى فى

(*) الربذة : قرية على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة .

طريقهم لأداء العمرة ـ فلم يرعهم إلا بجنازة على الطريق قد كادت الإبل تطؤها ، وقام إليهم الغلام فقال : هذا أبو ذر صاحب رسول الله ، فأعينونا على دفنه ، فبدأ عبد الله ابن مسعود يبكى ويقول : صدق رسول الله ، تمشى وحدك وتموت وحدك ، وتبعث وحدك . ثم نزل هو وأصحابه فواروه . ثم حدثهم ابن مسعود حديثه وما قال له رسول الله فى مسيره إلى تبوك (١) .

وأما أبو خيثمة فقد عاد إلى أهله بعد مسير رسول الله أياما فى يوم حار فوجد امرأتين له قد رشت كل منهما عريشها ، وَبَرَّدَتْ له فيه ماء ، وهيأت له فيه طعاما ، فلما دخل قام على باب العريش فقال : رسول الله فى الضِّح ـ الشمس ـ والريح والحر وأبو خيثمة فى ظل بارد وماء بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء فى مال مقيم ؟! ما هذا بالنصف ، ثم قال : لا ، والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيِّئا لى زاداً ، ففعلتا ، ثم قدم ناضحه ـ بعيره ـ فارتحله ، ثم خرج فى طلب رسول الله حتى أدركه حين نزل بتبوك ، وقد كان قد أدرك أبا خيثمة فى الطريق عمير بن وهب الجمحى يطلب اللحاق برسول الله ، فترافقا ، حتى إذا دَنَوَا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير : إن لى ذنبا ، فلا عليك أن تتخلف عنى حتى آتى رسول الله ﷺ ففعل ، حتى إذا دنا من رسول الله قال الناس : يارسول الله هذا راكب على الطريق مقبل ، فقال رسول الله ﷺ : « **كن أبا خيثمة** » فقالوا : يارسول الله : هو والله أبو خيثمة ، فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ فقال رسول الله : « **أولى لك يا أبا خيثمة** » ثم أخبر رسول الله بالخبر ، فقال له رسول الله خيرا ودعا له بالخير .

وما دمنا بسبيل ذكر نماذج من صحابة رسول الله فى غزوة تبوك ، فقد بات من الخير أن نذكر خبر الثلاثة المخلفين الذين تخلفوا عن الصحبة إلى تبوك بدون نفاق ولا شك ، وإنما هو خطأ وقعوا فيه ، وهم : كعب بن مالك ، ومُرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وقد رأى رسول الله أن يؤاخذهم على طريقة تشعرهم بعظم جريرتهم ، فلم يقبل لهم عذرا وقال : لا يكلمنَّ أحدٌ أحدًا من هؤلاء الثلاثة ، فاعتزل المسلمون كلامهم حتى

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، القسم الأول ٤/ ١٧٠٠ .

ضاقت بهم السبيل ، ولجأوا إلى الله تائبين ، فتقبل الله توبتهم ، وأنزل فيهم قوله ـ عز وجل ـ : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(*)

تحرك جيش رسول الله ﷺ من المدينة فى يوم خميس من شهر رجب سنة تسع هجرية فى ثلاثين ألفا من المجاهدين ، واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى ، وخلَّف علىّ بن أبى طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف به المنافقون ، فما كان من علىّ إلا أن أخذ سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وقال : يارسول الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى تستثقلنى وتخفف منى ، قال ﷺ : « **كذبوا ، ولكن خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى** » فرجع إلى المدينة .

لما خرج رسول الله ضرب عسكره على ثنية الوداع ، وضرب المنافق عبد الله بن أبى ابن سلول عسكره على حده فى نحو ثلاثين ألفا أو تزيد قليلا ، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه ابن سلول فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب[1] .

غذّ جيش العسرة المسير إلى تبوك فى تلك الظروف المناخية والطبيعية والإنسانية التى ألممنا بطرف منها ، ولما وصل إلى تبوك ميدان المعركة كان الروم قد جمعوا شتاتهم وانصرفوا ، فكان النصر فى تبوك بغير سفك قطرة دم ، ولم يمكث بها الرسول أكثر من بضع عشرة ليلة ، وفى رواية جابر : عشرين ليلة ، وعاد إلى المدينة فدخلها فى رمضان ، فتكون الغزوة ـ والأمر كذلك ـ قد استغرقت نحو شهرين : شهر شعبان كله ، والبقية كانت من رجب ورمضان .

(*) التوبة ، الآية : ١١٧ .

(١) الذهبى ، قسم المغازى ص : ٥٢٤ .

نص خطبة الرسول :

وهذا نصّ الخطبة كما ذكرها البيهقى والحاكم من حديث عقبة بن عامر ، وكما سجلها ابن قيم الجوزية :

« خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، فاسترقد رسول الله ﷺ ليلة لما كان منها على ليلة ، فلم يستيقظ فيها حتى كانت الشمس قيد رمح ، قال : ألم أقل لك يابلال اكلأ لنا الفجر ؟ فقال : يارسول الله ذهب بى النوم الذى ذهب بك ، فانتقل رسول الله ﷺ من ذلك المنزل غير بعيد ، ثم صلى ، ثم ذهب بقية يومه وليلته فأصبح بتبوك ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب اللهّ ، وأوثق الْعُرَى كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم ، وخير السنن سنة محمد ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وخير الأمور عوازمها ، وشر الأمور محدثاتها ، وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف الموت قتل الشهداء ، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى ، وخير الأعمال ما نفع ، وخير الهدى ما اتبع ، وشر العمى عمى القلب ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى ، وشر المعذرة حين يحضر الموت ، وشر الندامة يوم القيامة ، ومن الناس من لا يأتى الجمعة إلا دُبرا ، ومنهم من لايذكر الله إلا هُجرا . ومن أعظم الخطايا اللسان الكذاب ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل ، وخير ما وقر فى القلوب اليقين ، والارتياب من الكفر ، والنياحة من عمل الجاهلية ، والغلول من حر جهنم ، والسُّكر كَيٌّ من النار ، والشِّعر من إبليس ، والخمر جماع الإثم ، وشر المأكل مال اليتيم ، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقى من شقى فى بطن أمه ، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع ، والأمر إلى الآخرة ، وملاك العمل خواتمه ، وشر الرؤيا رؤيا الكذب ، وكل ما هو آت قريب ، وسباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن يتألى على الله يكذبه ، ومن يغفر يغفر له ، ومن يعف يعف الله عنه ، ومن يكظم الغيظ يأجره الله ، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ، ومن يتبع السمع يسمع

الله به ، ومن يتصبر يضعّف الله له ، ومن يعص الله يعذبه الله ، ثم استغفر ثلاثا »
.(١)

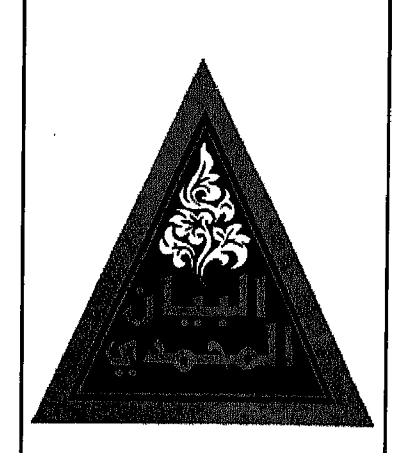
إن الخطبة تمثل لونا آخر من بلاغة رسول الله ﷺ إن كثرة الأحداث المتعلقة بالغزوة والمرتبطة بها ، ما كان إيجابيا منها وما كان سلبيا اقتضت أن يقف رسول الله من الصحابة المرافقين المجاهدين موقف المعلم الذى يرسل الإرشادات والأحكام تترى وتتواكب وتتلاحق مثلما تترى جموع السحاب وتتلاحق قطرات الغيث، فقد أترعت الخطبة بصيغ أفعل التفضيل ،وتزاحمت بالتشبيهات ، وامتلأت بالحكم وازدانت بالجمل التى صارت أمثالا سائرة بليغة .

هذا ولم تخل غزوة تبوك من مغانم ، ففيها وفد يُحَنَّة بن رؤبة صاحب أيلة ، فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء وأذرح (*) فأعطوه الجزية ، وبذلك تكون حدود الدولة الإسلامية فى الشمال على عهد الرسول أرض سورية الجنوبية .

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٩ .

(*) جرباء : من أعمال البلقاء من أرض الشام . وأذرح : من أعمال الشراة فى أطراف الشام ، وبين أذرح والجرباء ميل واحد .



الفصل الرابع

حجة الوداع وخطبة الوداع



حجة الوداع وخطبة الوداع

فى رحاب حجة الوداع :

إن خطبة الوداع مقترنة بحجة الوداع ، وهى المرة الوحيدة التى أدى فيها رسول الله ﷺ فريضة الحج ، ومن المعروف أن الفريضة الوحيدة الواجبة الأداء مرة واحدة فى حياة المسلم المستطيع هى فريضة الحج ، ومن هنا كان لحجة الوداع وخطبتها شأن كبير فى الإسلام بعامة ، وفى فقه العبادات بخاصة ، فأما من ناحية العموم فيأتى ذلك من منطلق الأحكام التى احتوتها خطبة رسول الله ﷺ يوم عرفة ، وأما من ناحية فقه العبادات فلأنها تشمل كل شعائر فريضة الحج طبقا لما أداه الرسول ﷺ أو أقره ووافق عليه .

بدأت رحلته ﷺ لأداء فريضة الحج فى الخامس والعشرين من ذى القعدة فى السنة العاشرة للهجرة ، وقد حرص على مصاحبته فيها جماهير غفيرة من المسلمين يصعب استقصاء عددهم ، وإن كان هناك من قدر عددهم بمائة وأربعة وعشرين ألفا .(١)

وقد يكون من الخير أن نروى خبر حجة الوداع من بدء القيام بها إلى نهايتها طبقا لما رواه الإمام جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن جابر ؛ فهى الوثيقة التى تثبت الكليات وكثيرا من الجزئيات (٢) .

وقد أطلق على هذه الحجة المباركة تارةحجة الوداع ، وتارة أخرى حجة الإسلام ،

(١) المغازى للذهبى ، ص : ٥٩١ .

(٢) وردت رواية عن الإمام جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن جابر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حج ثلاث حجج قبل أن يهاجر .

ورواية أخرى عن وكيع عن سفيان عن ابن جريج عن مجاهد أنه حج حجتين وهو بمكة قبل الهجرة .

ورواية ثالثة أنها واحدة بمكة وهذه الحجج ـ فيما نرجح لو صح خبرها ـ تختلف فى شعائرها عن حجة الإسلام .

وتارة ثالثة حجة البلاغ ، ويروى عن عبد الله بن عباس أنه كان يكره أن يقال حجة الـوداع ، ويقول : حجة الإسـلام [1] لأنها الفريضة التى تـؤدى مـرة واحـدة .

ولقد اهتم مؤرخو السيرة بالتسميات التى أطلقت على هذه الحجة ، وعلة كل تسمية ، فمن أطلق عليها حجة الوداع ذكر أن سبب تسميتها بذلك أن الرسول ﷺ قد ودع الناس فيها وقال : « **لعلّى لا ألقاكم بعد عامى هذا** » وعلم ﷺ أنه لايتفق له بعد هذا وقفة أخرى خاصة أنه قد نزلت فى أيام التشريق سورة النصر ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾

ومن سماها حجة البلاغ استند إلى قوله ﷺ بعد كل فقرة من الخطبة يوم عرفة جملة : « **هل بلغت ؟** » ولأنه بلغ الناس فيها الشرع فى الحج قولا وفعلا

ومن سماها حجة الإسلام قال ذلك لأنها التى حج فيها بأهل الإسلام ليس فيها مشرك ، ولأنه لم يحج من المدينة بعد فرض الحج غيرها .

وثمت فريق أطلق عليها حجة التمام والكمال ؛ لأن الله تعالى أنزل فى عصر يوم عرفة والرسول ممتط صهوة ناقته قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [2]

ومهما كانت التسمية فإن تسميتها حجة الوداع هو القول الأشهر [3] .

وأما بخصوص نزول آية الإكمال السالف ذكرها فإن الروايات تجمع على نزولها بعد عصر يوم الجمعة والنبى واقف بعرفات على ناقته العضباء ـ وفى رواية القصواء ـ فحين نزولها كاد عضد الناقة أن يدق من شدة ثقلها فبركت .

---

(١) حجة الوداع للكاندهلوى ص : ١٤٠ .

(٢) المائدة الآية : ٣ .

(٣) حجة الوداع للكاندهلوى ،ص: ١٤١ .

ويروى أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر ـ رضى الله تعالى عنه ـ فقال له النبى ﷺ: ما يبكيك ياعمر ؟ قال : بكائى أنا كنا فى زيادة من ديننا ، فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شىء إلا نقص ، قال : صدقت ، فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام ولاشىء من الفرائض والأحكام ، وعاش النبى بعد نزولها واحدا وثمانين يوما . (١)

وقد يكون من الخير ـ وقد أوردنا بعض أخبار حجة الوداع من الكتاب الذى يحمل اسمها ـ أن نروى خبرها طبقا لما رواه الإمام جعفر الصادق عن أبيه الإمام محمد الباقر عن جابر رضى الله عنه(٢) .

أذّن رسول الله ﷺفى الناس بالحج ، فاجتمع فى المدينة بشرٌ كثير . فخرج رسول الله ﷺلخَمْسٍ بقين من ذى القعدة ، أو لأربع ، فلمّا كان بذى الحليفة ولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبى بكر الصديق ، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ: كيف أصنع ؟ فقال : اغتسلى واستثفرى بثوبٍ . وصلى رسول الله ﷺ فى المسجد ، وركب ناقته القَصْواء حتى استوت به على البَيْداء ، فنظرتُ إلى مَدِّ بصرى ، بين يدىْ رسول الله ﷺ مِنْ راكب وماشٍ ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك . فأَهَلَّ رسول الله ﷺ بالتوحيد ، وأهلّ الناس بهذا الذى يُهِلُّون به ، فلم يَرُدَّ عليهم شيئاً منه . ولزم رسول الله ﷺ تَلْبِيَتَه . ولسنا نَنْوِى إلاّ الحجّ، لسنا نعرف العمرة، حتى أتينا البيت معه استلم الرُّكْن فرَمَل ثلاثاً ومشى أربعاً، ثم تقدم إلى مَقام إبراهيم فقرأ ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] ، فجعل المقام بينه وبين البيت .

قال جعفر : فكان أبى يقول ـ لا أعلمه ذكره إلاّ عن رسول الله ﷺ : كان يقرأ فى الركعتين ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ١] و ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون : ١] . ثم رجع إلى البيت فاستلم الركن ثم خرج من

(١) المصدر السابق، ص١٠٦ .
(٢) تاريخ الإسلام للذهبى ، قسم المغازى ص : ٥٨٣ وما بعدها .

الباب إلى الصَّفَا ، حتى إذا دنا من الصفا قرأ ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٥٨] ، أبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا فَرَقِىَ عليه حتى إذا رأى البيت فكبّر وهلل وقال : لا إله إلاّ الله وحده ، لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير . لا إله إلاّ الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ثم دعا بين ذلك فقال مثل ذلك ثلاث مرات . ثم نزل إلى المروة حتى إذا انْصَبَّتْ قدماه رمل فى بطن الوادى ، حتى إذا صَعِد مشى حتى أتى المروة ، فَعلاً عليها وفعل كما فعل على الصفا . فلما كان آخر الطواف على المروة قال : إنّى لو استقبلت من أمرى ما استدبرتُ لم أَسُق الهَدْىَ وجعلْتُها عُمْرةً . فمن كان منكم ليس معه هَدْى فَلْيَحْلِلْ ولْيجْعَلها عمرةً . فحلّ الناس كلهم وقصّروا ، إلاّ النبى ﷺ ومَنْ كان معه الهدى .

فقام سُرَاقَة بن مالكِ بن جُعْشُم فقال : يارسول الله أَلِعَامنا هذا أم للأبد ؟ قال فَشبَّكَ أصابعه وقال : دخلت العمرة مع الحج هكذا ؛ مرَّتَيْن ، لا ؛ بَلْ لأبد الأبَد .

وقدم علىّ ـ رضى الله عنه ـ من اليمن بِبُدنٍ إلى النبى ﷺفوجد فاطمة ممّن حَلَّ ولَبِستْ ثياباً صَبيغاً واكتَحَلتْ ، فأنكر عليها . فقالت : أبى أمرنى بهذا . فكان علىّ يقول بالعراق : فذهبت إلى رسول الله ﷺ مُحَرِّشًا بِالَّذِى صنعَتْهُ ، مُسْتَفْتِيًا رسولَ الله ﷺ فقال : صَدَقَتْ ، صَدَقتْ . ماذا قلتَ حين فرضْتَ الحج ؟ قال : قلت : اللهم إنى أُهِلُّ بما أَهَلَّ به رسولك . قال : فإن معى الهدى فلا تَحْلِلْ . قال : فكان الهدى الذى جاء معه ، والهدى الذى أتى به النبى ﷺ من المدينة مائةً .

ثم حلّ الناس وقَصَّروا ، إلاّ رسول الله ﷺومن معه هَدْى .

فلما كان يوم التَّرْوِيَة وجّهوا إلى منًى ، أَهَلُّوا بالحج ، وركب رسول الله ﷺ فصلّى بمنًى الظهر والعصرَ والمغربَ والعشاءَ والصبحَ . ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس وأمر بقُبّةٍ من شَعَرٍ فضُربت له بِنَمِرَة ، فسار رسول الله ﷺ ولا تشكّ قريشٌ إلاّ أنه واقفٌ عند المَشْعَر الحرام ، كما كانت قريش تصنع فى الجاهلية ، فأجازه رسول الله ﷺ حتى أتى عَرَفَة فوجد القبة قد ضُربت له بِنَمِرة فنزل بها ، حتى إذا زاغت الشمس أمر

بالقصواء فرُحِلَتْ له ، فركب حتى أتى بطن الوادى ، فخطب الناس وكان ذلك قبل الظهر فقال : (*)

« إن دماءكم وأموالكم عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا . ألاَ وإنّ كل شىء من أمر الجاهلية موضوع تحت قدمى ، ودماء الجاهلية موضوعة . وأول دم أضعه من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ؛ كان مُسْتَرْضِعاً فى بنى سعدٍ فقتلته هُذيْل . وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع ربانا ؛ ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله . واتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحْلَلْتُم فروجهنّ بكلمة الله ، وإن لكم عليهن أن لايوطِئْن فُرُشَكُم من تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهنّ ضرباً غير مُبَرِّح . ولهنّ عليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف . وقد تركت فيكم ما لن تَضِلُّوا بعده إن اعتصمتم به ؛ كتابَ الله تعالى . وأنتم مسئولون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ » قالوا : نشهد أن قد بلغت وأديت ونصحت . فقال ؛ بإصْبَعه السَّبَّابة يرفعها إلى السماء ويكبها إلى الناس : « اللّهم اشهدْ » ؛ ثلاثَ مرَّاتٍ . ثم أذن بلال ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يصلّ بينهما شيئاً . ثم ركب حتى أتى المَوْقِفَ ، فجعل بَطْن نَاقته إلى الصَّخَرات ، وجعل جبل المشاة بين يديه ، واستقبل القبْلة فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً حين غاب القرص وأردف أسامة بن زيد خلفه فدَفَع وقد شنَقَ للقصواء الزمام حتى إنّ رأسها ليُصيب مَوْرِكَ رَحْله ، ويقول بيده : « أيها الناس ، السَّكِينة السكينة » ، كلما أتى جبلاً من الجبال أَرْخَى لها قليلاً حتى تَصْعَد . حتى أتى المُزْدَلِفَة ، فصلّ بها المغرب والعشاء بأذان وإقامَتَيْن ، ولم يصلّ بينهما شيئاً . ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامةٍ . ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فَرَقِىَ عليه فحمد الله وكبّره وهلله فلم يزل واقفاً حتى أَسْفَر جدًّا ، ثم دَفَع قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباس ، وكان رجلاً حسن الشعر وسيماً . فلما دفع رسول الله ﷺ مرّ الظُّعنُ يَجْرِين ، فطفق الفضل ينظر إليهنَّ ، فوضع رسول الله

(*) هذا جزء من الخطبة اقتطفه المؤلف ، وليس الخطبة كلها .

ﷺ يده على وجه الفضل ، فصرف الفضل وجهه من الشِّقِّ الآخر فحول رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل . حتى إذا أتى مُحَسرا(*) حرك قليلاً ، ثم سَلَكَ الطريق الوُسْطى التى تخرجك على الجَمْرَة الكبرى ، حتى أتى الجمرة التى عند المسجد فرمى سَبْعَ حَصَياتٍ ، يكبّر مع كل حصاة مثل حصى الحَذْف، رَمَى من بطن الوادى . ثم انصرف إلى المَنْحَرِ ، فنحر ثلاثاً وستين بدنةً ، وأعطى عليًّا - رضى الله عنه - فنحر ما غَبَر وأَشْرَكه فى هَدْيه . ثم أمر من كل بدنةٍ ببَضْعةٍ فجُعلت فى قدرٍ وطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مَرَقها .

ثم أفاض رسول الله ﷺ إلى البيت ، فصلى بمكة الظهر ، فأتى على بنى عبد المطلب يَسْقُون من بئر زمزم ، فقال : انْزِعُوا بنى عبد المطلب ، فلولا أن تغلبكم الناس على سقَايتكم لنزعتُ معكم . فناولوه دَلْواً فشرب منه .

أخرجه مسلم(*) ، دون قوله : يُحيى ويميت .

خطبة الـوداع :

احتفلت الروايات وكتب السيرة والتاريخ الإسلامى بخطبة الوداع وما صاحبها من أخبار مرتبطة بها ، نذكر منها : السيرة لابن هشام ، وصحيح البخارى ، والسيرة النبوية للطبرى ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وإعجاز القرآن للباقلانى ، وتاريخ الرسل والملوك للطبرى ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير ، والمغازى للواقدى ، وقسم المغازى من تاريخ الإسلام للذهبى ، وغير ذلك من كتب التاريخ والأخبار .

وقد لاحظنا أن رواية الخطبة لكل من الجاحظ فى البيان والتبيين وأحمد بن عبد ربه فى العقد الفريد متطابقتان مما يدل على أن مصدرهما واحد ، أو أن الثانى أخذ عن الأول ، وكذلك لاحظنا أن رواية كل من ابن هشام فى كتابه السيرة النبوية ، والطبرى فى كتابه الذى يحمل العنوان نفسه متطابقتان ، مما يدل أيضا على أن مصدرهما واحد أو أن

(*) محسر : واد قرب المزدلفة بين عرفات ومنى .

(*) صحيح مسلم ، كتاب الحج ، باب حجة النبى ﷺ .

اللاحق فيهما وهو الطبرى ٣١٠ هـ قد أخذ عن السابق وهو ابن هشام ٢١٣ هـ ولقد اعتمدنا النص الذى جاء به كل من ابن هشام والطبرى : لأن الأول راويه تخصص فى كتابة سيرة رسول الله ﷺولأن الثانى إمام راوية مفسر مؤرخ فقيه .

ولأن العالمين الجليلين سالفى الذكر لم يسجلا صيغة التحميد التى استهل بها رسول الله ﷺخطبته بل اكتفيا بذكر جملة « فحمد الله وأثنى عليه » فقد أثبتنا نص التحميد والثناء من رواية الجاحظ وابن عبد ربه .

قال ﷺ :

« الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مُضِلَّ له ، ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذى هو خير »

وبقية الخطبة كما أثبتها ابن هشام والطبرى هى مايأتى : أيها الناس : اسمعوا قولى؛ فإنى لاأدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدًا ؛ أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقَوا ربكم ، كحُرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا وإنكم ستَلْقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلَّغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى مَن ائتمنه عليها ، وإن كلّ ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم ، لاتظلمون ولا تظلمون . قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا عبَّاس بن عبد المطلب موضوع كله ، وأن كلّ دم كان فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دمُ ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسُترضعا فى بنى ليث ، فقتلته هُذيل فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية .

أما بعد أيها الناس : فإن الشيطان قد يَئِس من أن يُعْبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يُطَع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحَقِرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم ، أيها الناس : « إنما النَّسىءَ زِيادَة فِى الكُفْرِ ، يضَلُّ به الَّذِينَ كَفَرُوا ، يُحِلُّونَهُ عاما ويُحَرِّمُونَه عاما ، لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ ؛ فَيُحِلُّوا ماحَرَّمَ اللهُ » وإن الزَّمان قد استدار

كهيئته يومَ خلق اللهُ السمواتِ والأرضَ « وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حُرم» ، ثلاثة متوالية ، ورجب مضر ، الذى بين جُمادى وشعبان . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أما بعد أيها الناس ، فإن لكم على نسائكم حقا ، ولهنَّ عليكم حقا ، لكم عليهنّ أن لايوطئن فُرُشَكُمْ أحدا تكرهونه ، وعليهنّ أن لا يأتين بفاحشة مبيِّنةٍ ، فإن فعلن فإنَّ الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المَضاجع وتَضْربوهن ضرباً غير مُبَرح ، فإن انتهين فلهنّ رزقُهنّ وكِسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرا ؛ فإنهن عندكم عَوَان لا يمْلكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهنّ بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قَوْلى ، فإنى قد بلغت ، وقد تركت فيكم ماإن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، أمرا بيناً ، كتاب الله وسنَّة نبيه .

أيها الناس ، اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمُنَّ أن كلّ مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحلّ لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمُنَّ أنفسكم ؛ اللهمّ هل بلغّت ؟ (*).

قال ابن إسحاق: فذُكر لى أن الناس قالوا : اللهم نعم ؛ فقال رسول الله ﷺ: اللهم اشهد .

وللخطبة بقية أوردها ابن هشام عن ابن إسحاق (١):

قال ابن إسحاق : حدثنى ليث بن أبى سُليْم عن شَهْر بن حوشب الأشعرى ، عن عمرو بن خارجة قال : بعثنى عَتَّاب بن أسَيْد إلى رسول الله ﷺ فى حاجة ، ورسول الله ﷺ واقف بعَرفة ، فبلغته ، ثم وقفت تحت ناقة رسول الله ﷺ وإن لُغامها ليقع على رأسى ، فسمعته وهو يقول : « أيها الناس ، إن الله قد أدّى إلى كلّ ذى حق حقه ،

(*) ورجب مضر : إنما قال ذلك لأن ربيعة كانت تحرم رمضان ، وتسميه رجبا ، فبيَّن ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه رجب مضر لارجب ربيعة ، وأنه الذى بين جمادى وشعبان .

غير مبرح : غير شديد .

عوان : جمع عانية ، وهى الأسيرة .

(١) السيرة ٢ / ٦٠٥ .

وإنه لاتجوز وصيَّة لوارث ، والولد للفراش ، وللعاهر الحَجَر ، ومن ادّعى إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لايقبل الله منه صَرفًا ولا عدلا» (*).

والموقف فى عرفة متسع وفسيح ولذلك كان هناك من يردد بصوت مرتفع ما يقوله رسول الله ﷺ

عن عباد بن عبد الله بن الزُّبير ، قال : كان الذى يصرخ فى الناس بقول رسول الله وهو على عرفة : ربيعة بن أميّة بن خلف ، قال : يقول له رسول الله : قل أيها الناس إنّ رسول الله يقول : هل تدرون أى شهر هذا ! فيقولون : الشهر الحرام ، فيقول : قل لهم : إن الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربّكم كحرمة شهركم هذا . ثم قال : قل : إنّ رسول الله يقول : أيها الناس ؛ فهل تدرون أى بلد هذا ؟ قال : فيصرخُ به ، فيقولون : البلد الحرام ، قال : فيقول : قل : إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة بلدكم هذا . ثم قال : قل : أيها الناس، هل تدرون أىّ يوم هذا ؟ فقال لهم ، فقالوا : يوم الحجّ الأكبر . فقال : قل : إن الله حرّم عليكم أموالكم ودماءكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا (١).

وكان الرسول ﷺ يشرح للمسلمين المواقف ويبين لهم المناسك فحين وقف بعرفة ، قال : هذا الموقف ـ للجبل الذى هو عليه ـ وكل عرفة موقف . وقال حين وقف على قزح صبيحة المزدلفة : هذا الموقف ، وكل المزدلفة موقف ، ثم لما نحر بالمنحر قال : هذا المنحر ، وكل منىً منحر ؛ فقضى رسول الله ﷺ الحجّ وقد أراهم مناسكهم ، وعلمهم ما افترض عليهم فى حجِّهم فى المواقف ، ورمى الجمار والطواف بالبيت ، وما أُحِلَّ لهم وما حرّم عليهم ، فكانت حجّة الوداع وحجة البلاغ ؛ وذلك أن رسول الله لم يحجّ بعدها (٢).

(*) اللغام : الرغوة التى تخرج على فم البعير .
معنى الصرف والعدل : أصل العدل : أن يقتل الرجل بالرجل ، والصرف : أن ينصرف عن الدم إلى أخذ الدية .
(١) السيرة النبوية لابن جرير الطبرى ، ص : ٣٥٩
(٢) المصدر السابق الصفحة نفسها .

بين يَدَى خطبة الوداع :

كان رسول الله ﷺ يشعر أن خطبته هذه لن تتكرر مرة أخرى فى هذا الموقع الذى هو عرفة ، ولم يلبث حسّه النبوى أن تحقق ؛ ففى عصر ذلك اليوم نزل علبه قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ فكان نزولها بمثابة الإخبار الإلهى بنهاية الرسالة ، وبالتالى نهاية أجله ﷺ ومن ثم فقد استهل الرسول خطبته بعد أن حمد الله وأثنى عليه بقوله : « **أيها الناس : اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى ، لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا** » وكان الرسول قد قال فى مستهل اتجاهه لأداء الفريضة : « **اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة** » .

لقد كان استهلال الخطبة على هذا النحو من الإشارة إلى الشك فى تكرارها مرة أخرى بمثابة استجابة للآية الكريمة ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ .

كان لنزول هذه الآية صداه عند صحابة رسول الله الذين شعروا بجلال الموقف المترتب على نزولها ، وقد تعدى صداها المحيط الإسلامى فيما بعد إلى دوائر أهل الكتاب، وذلك حين جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقال : يا أمير المؤمنين ، آية فى كتابكم تقرأونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً . قال : أىّ آية ؟ قال : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [(١)]، فقال : إنى لأعلم اليوم الذى نزلت فيه ، والمكان الذى نزلت فيه ، نزلت على رسول الله ﷺ بعرفات فى يوم جمعة[(٢)].

ولم يقف الأمر بجلال هذه الآية من كتاب الله عند اليهودى الذى أجرى حواره مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، بل تعداه إلى يهودى آخر كان عند ابن عباس وهو يقرأ ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ الآية فقال اليهودى : لو أنزلت علينا ـ هذه الآية ـ

---

(١) سورة المائدة من ، الآية : ٣

(٢) صحيح البخارى (كتاب الإيمان) باب زيادة الإيمان ونقصانه ١ / ١٨

لاتخذنا يومهاً عيدا ، فقال ابن عباس : فإنها نزلت فى يوم عيد ، يوم جمعة ، يوم عرفة[١].

لقد اشتملت الخطبة على كثير من القضايا التى تهم المسلمين فى كل زمان ومكان ، بل تهم الناس جميعا ، فقد كان الرسول يوجه نداءه إلى الناس لعلمه ﷺأن ما يتناوله من قضايا إنما ينصرف إلى الناس ـ كل الناس ـ وليس إلى أولئك الذين وقفوا معه وحدهم بعرفة فى ذلك الموسم ، وكان أول ما نبّه إليه حرمة الدماء ، وحرمة المال ، فدماء المسلمين محرم سفكها ، وأموال المسلمين حرام استباحتها ، ولقد اهتم الإسلام بحياة الناس، مثلما أحاط الملكية والأموال بسياج من القداسة جعل مصادرتها أو سرقتها أو ما يسمى تأميمها أمرا بالغ الحرمة ، وجريمة تستحق أشد العقاب . ثم يردف الرسول ﷺ القول بطلب أداء الأمانة : « فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها » وهذا التوجيه النبوى مستمد مـن التوجيه القرآنى فى قوله ـ عـز وجل ـ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ فالأمانة فضلا عن كونها قيمة إسلامية ـ بل دينية ـ كبرى ، فهى أيضا قيمة إنسانية عظمى ، فإن مادة « أمن» فيها سعادة الناس ، واستقرار البشر ، وإن أهل مكة فى مجال حبهم الكبير لمحمد ﷺ قبل المبعث لم يجدوا من كمال الوصف الذى يصفونه به أفضل ولا أعظم من صفة الأمانة فلقبوه بالأمين .

ولما كان الربا شائعا فى المجتمع المكى بخاصة ، وفى المجتمع العربى بعامة ، بحيث كان اقتصاد العرب مرتبطا به مشدوداً إليه ، فقد حرمه الله فى آيات محكمات من كتابه العزيز فى سورتين هما البقرة وآل عمران ، يقول ـ عز وجل ـ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن

(١) تاريخ الإسلام ـ مجلد المغازى : ص : ٥٨ .

رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ (١).

ويقول تعالى فى نفس السورة مشددا النهى عن بقايا التعامل بالربا ، مؤذنا العصاة بحرب منه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ (٢)

إن الأمر الإلهى بالانتهاء عن التعامل بالربا من أشد أوامره ـ جل وعلا ـ حسماً وجلاء ، فقد آذن المتعاملين به بحرب منه ومن رسوله ، وفى ذلك نفى لصفة الإيمان عنهم ، ومن ثم وجب حربهم مثلما تجب محاربة الكفار سواء بسواء .

ويتكرر نفس المنهج الإلهى فى تحريم الربا وإنذار آكليه بعذاب النار التى أعدها الله للكافرين فى قوله ـ عز من قائل ـ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ (٣).

الرسول ﷺ يحسم قضية الربا ويؤكد تحريمه استجابة للأوامر الربانية فى آيات الربا فيقول :

« وإن كل ربا موضوع ـ أى : لاغ ومهدر ـ ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا » .

وقد قسم الفقهاء الربا إلى نوعين : ربا الفضل ، وربا النسيئة ، فأما ربا الفضل

---

(١) البقرة ، الآيتان : ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٢) البقرة ، الآيتان : ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٣) آل عمران ، الآيتان : ١٣٠ ، ١٣١ .

فيكون فى البيع والشراء ، وأما ربا النسيئة فيكون فى الديون ، وكلا النوعين من الربا قد حرمه الله تحريما قاطعا واضحا لا لبس فيه لا إبهام ، ومن ثم لا اجتهاد فى شأنه ؛ لأنه لا اجتهاد مع نص ، والأمر هنا ليس مقرونا بنص واحد ، وإنما محسوم بنصوص عدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

وكان العباس عم رسول الله ﷺ - شأنه فى ذلك شأن كثير من أغنياء قريش - يتعامل بالربا ، فأدان رسول الله تعامل عمه بالربا . وهو صاحب المقام الأسمى لدى رسول الله ، وهو حاضن للدعوة قبل أن يعلن إسلامه ، والحاضر بيعة العقبة الأولى مع رسول الله لكى يطمئن على مقدرة الأنصار فى حماية ابن أخيه ورسالته ، وبذلك تكون آفة التعامل بالربا قد أدينت وحرمت إلى أبد الآبدين .

ويتناول الرسول ﷺ موضوع الدماء فيقول : « **وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية** » . ومثلما بدأ الرسول بتحريم ربا عمه العباس فإنه اختار دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، لقد أهملت أكثر الروايات اسم القتيل ، ولكن الجاحظ وابن عبدربه قد حددا شخصية القتيل ، فذكرا أنه عامر[1] وذكر الكاندهلوى أن اسمه إياس[2] ولأن جريمة القتل قد ارتكبت فى الجاهلية فقد أسقطها الإسلام ، فلا يحاسب مقترفها ولا يقتص منه ؛ لأن الإسلام يجبّ ما قبله ، ومن المعلوم أن إهدار دماء الجاهلية سابق على حجة الوداع ، ولكن الرسول ﷺ كرر ذلك فى خطبة الوداع شأن تكراره تحريم الربا ليقطع أى مظنة إمكان الأخذ بدماء الجاهلية ، ضاربا المثل فى ذلك بدم واحد من أبناء أعمامه .

ويروى كل من الجاحظ وابن عبد ربه هذه الفقرة من خطبة الوداع ، ولم ترد عند الرواة الآخرين : « **وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية ، والعَمْدُ قَوَدٌ ،**

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ٣١ .

(٢) حجة الوداع ، حاشية ص : ٩٧ .

وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية»(١).

بعد أن أهدر رسول الله ﷺ ربا الجاهلية ودماءها ، أهدر آثارها واستثنى من ذلك سدانة البيت ، وكانت لبنى عبد الدار فأقرها فيهم ، ولا تزال كذلك حتى اليوم ، وسدانة البيت هى خدمة الكعبة ، كما استثنى ﷺ أيضا سقاية الحجيج ، وكانت لقريش فأقرها لهم .

وفى هذه الفقرة أصدر رسول الله ﷺ شكل القصاص فى قتل العمد وقتل شبه العمد، فجعل قصاص العمد قتل القاتل بالقتيل ، وهو الْقَوَدُ ، وحدد دية القتل شبه العمد بمائة بعير لا غير ، ومن زاد عليها فقد خالف قواعد الإسلام واستمسك بعادات الجاهلية .

وفى غواية الشيطان المسلمين فى أرض الحجاز وصرفهم عن عبادة الله يقول ﷺ : **«أما بعد : أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يُطَعْ فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم»** .

المعنى المقصود بعبادة الشيطان هو طاعته فى الانصراف عن عبادة الله ، والعودة إلى عبادة الأصنام ، وهذا المعنى مأخوذ من قوله ـ عز وجل ـ فى سياق حديث سيدنا إبراهيم لأبيه : ﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا﴾ (٢) ومن ثم كانت عبادة الأصنام ، قد صارت مستحيلة فى أرض الحرمين ، ولن تعود إليها أبدا ، مصداقا لقوله ﷺ : « **إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه أبدا** » ولقد كان هذا القول انسجاما مع قول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ﴾ (٣).

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ٣١ والعقد الفريد ٤ / ٥٧ .

(٢) سورة مريم ، الآية : ٤٤ .

(٣) التوبة ، الآية :٢٨ .

ولأن العرب كانت تتحايل على شهور السنة بالنسىء ـ وهو التأخير ـ وذلك بتأخير أحد الأشهر الحرم عن ميعاده ، أو يُحِلُّونَ شهرا حراما ويحرمون شهرا من غير الأشهر الحرم، وهى عادة جاهلية قديمة ، فقد حكم الرسول على هؤلاء المزيفين للأشهر ـ عن طريق النسىء ـ بالكفر ؛ لأنهم يحلونه عاما ويحرمونه عاما . وفى ذلك يقول ﷺ : «أيها **الناس : إن النسىء زيادة فى الكفر ، يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله»** .

والمعروف أن الأشهر الحرم أربعة ، هى : رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم، فكانوا فى بعض السنين يحلون المحرم ـ مع أن اسم الشهر يؤكد تحريمه ـ ويحرمون صفر الذى يتلوه ؛ ولذلك كانوا يسمون المحرم وصفر بالصَّفَرَيْنِ ، وكان تحريمهم لهذا الشهر وإحلالهم لذاك بقصد مواطأة عدة الأشهر الحرم ، وهى أربعة .

وتمضى خطبة الوداع فى التعامل مع الزمان الذى يتحتم التزامه والابتعاد عن العبث به ، فقد حدد الخالق سبحانه الشهور وعددها منذ بدء الخليقة ، وفرض فيها أربعة محرمة ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ .

هكذا حدد القرآن الكريم عدد الشهور الحرم بأربعة ، ثم جاءت السنة الشريفة فتحددت من خلالها أسماء هذه الشهور ، وهى طبقا لما جاء فى خطبة الوداع : ثلاثة متوالية ـ ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ـ ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان . ولقد حدد الرسول رجب بنسبته إلى مضر التى كانت تلتزم به بين جمادى الثانية وشعبان، وذلك حتى لا يختلط مع رجب ربيعة ؛ لأن ربيعة كانت تحرم رمضان وتسميه رجبا . فبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة ، وأنه الذى بين جمادى وشعبان .

يقول الرسول ﷺ فى سياق الزمان : « **وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشرشهرا منها أربعة حرم : ثلاثة متوالية ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان** » .

يقول أبو سليمان حمد بن محمد الخطابى المتوفى ٣٨٨ هـ فى شرح هذه الفقرة من خطبة رسول الله : « كان أهل الجاهلية يخالفون بين أشهر السنة بالنسيء الذى كانوا يعتادونه ويقطعون به نسقها ، فيقدمون ويؤخرون كتأخيرهم المحرم إلى صفر ، وقد ذكر الله ـ سبحانه ـ ذلك فى كتابه فقال : ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا﴾ إنما كانوا يفعلون ذلك لأسباب تعرض لهم ، وذحول ـ أحقاد ـ ودماء تقع بينهم ، فربما استعجلوا الحرب ، فاستحلوا الشهر المحرم ، ثم حرموا من أجله شهر صفر بدلا منه ، وإذا استحلوا رجبا حرموا من أجله شعبان ، وعلى هذا القياس فى سائر الشهور ، فيتحول حسابهم فى شهور السنة ،و يتبدل إذا أتى على ذلك عدة من السنين حتى يتصرم ذلك الحساب ويستدير ويعود الأمر إلى أصل الحساب فيستقبل أول السنة من لدن المحرم ، فاتفق عام حج النبى ﷺ استدارة الزمان وعوده إلى أصل ما أنشىء عليه حساب أشهر السنة أولا ، فوقع الحج فى شهر ذى الحجة » .

ويمضى أبو سليمان الخطابى قائلا : « وقد ذهب قوم من العلماء إلى أن النبى ﷺ إنما تأنَّى بالحج وأخّره مع الإمكان إلى السنة التى حج فيها للذى كان وقع من النسيء فيها حتى وافوا السنة التى حج فيها استدارة الزمان وعود الأمر فى ذلك إلى أصل الحساب ، فحج فيها حجة الوداع »(١).

وهناك تعليل آخر قال به بعض الدارسين المحدثين حول قول الرسول : « **وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض** » على هذا النحو :

كانت خطبة الوداع يوم الجمعة ٩ من ذى الحجة سنة ١٠ هـ، أى : قبل عشرين يوما من غرة المحرم سنة ١١ هـ ، وهو اليوم الذى وافق بداية العام العبرى ، وهو تقويم قمرىُّ الشهرِ شمسى السنة يؤرخ به العبرانيون لبدء الخليقة التى يحددون لبدايتها سنة ٣٧٦١ ق . م . فهناك من الباحثين من يربط بين الحدثين : خطبة الوداع

(١) أعلام الحديث فى شرح صحيح البخارى ٣ / ١٧٨١ ط مركز إحياء التراث الإسلامى بجامعة أم القرى .

وموافقتها زمنا لبداية العام العبرى ، ويرى أن هذا التاريخ يمثل استدارة الزمان كيوم خلق الله السموات والأرض ، وهو ما عبر عنه الرسول ﷺ فى قوله : « **إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض** » .

وأما الاثنا عشر شهرا فهى الشهور العربية وليس غيرها . وهى التى أقرها الإسلام وعناها القرآن ، وإن كان ما ذكر منها فى القرآن الكريم هو شهر رمضان وحده دون غيره ؛ لأنه الشهر الذى تقترن به الفريضة الثالثة وهى الصوم .

ولأن المجتمع البشرى بعامة والمجتمع الإسلامى بخاصة محوره الأسرة الصالحة ، ولا يتم صلاح الأسرة إلا بصلاح الزوجة وامتثالها للوصف الربانى الذى جعلها سكنا لزوجها مقترنا بما يربط بينهما من مودة ورحمة . فقد قرر ﷺ فى خطبة الوداع حقوق كلٍّ من الزوجة والزوج موصولة الأسباب بواجباتهم :

« **أما بعد : أيها الناس ؛ فإن لكم على نسائكم حقا ، ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن أن لا يوطئن فُرُشَكُم أحداً تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مُبَيِّنَة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله** » .

لقد بدأ رسول الله ﷺ بذكر حق الزوج ، ثم ثنّى بذكر حق الزوجة ؛ لأن الرجال قوامون على النساء ؛ ولأن الله ـ سبحانه ـ بدأ خلق الإنسان بالرجل ثم المرأة ـ آدم ثم حواء ـ ويجمل رسول الله حق الأزواج على الزوجات بقوله : « **ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه** » . وقد ذهب الشراح فى ذلك مذاهب شتى ، حتى إن بعضهم فسّر عبارة «**ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه**» بالزنا ، وهو تفسير خاطىء ، لما ينبنى على الزنا من حدّ وهو هنا الرجم ، وأما المعنى المقصود فهو ألا يأذنَّ لأحد يكرهه الزوج فى دخول البيت والجلوس مطمئنا مرتاحا ، على فرش موطأ ، أيا كانت شخصية هذا الأحد ، رجلا كان أو امرأة ، قريبا أو غريبا ، وقد كانت عادة العرب فى جاهليتهم أن يجالس الرجال النساء فى غير ما إحساس بريبة أو شعور بالعيب .

وعلى الزوجة أيضا ألا تأتى بفاحشة مبينة ، والمعنى الذى يتبادر إلى الذهن هنا هو تفسير الفاحشة بالزنا ؛ لأن من معانى الفاحشة الزنا ، ولكن هذا التفسير مستبعد أيضا للسبب الذى ذكرنا فى « **ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه** » .

وعلى كل حال فقد ذهب المفسرون فى تعريف الفاحشة المبينة مذاهب شتى ، فقال بعضهم : إنها الزنا ، وقال آخرون : إنها سائر المعاصى بما فى ذلك الزنا ، وهناك فريق فسر الفاحشة المبينة فى ضوء ما تناولها به الرسول ﷺ فى خطبة الوداع وقرر أن المقصود بالفاحشة هنا هو بغض الزوج والنشوز ، أو هو الأذى وبذاءة اللسان على الأهل ، وسوء العشرة .

تلك هى حقوق الزوج ، فإذا لم تقم بها الزوجة « فإن الله قد أذن لكم ـ معشر الأزواج ـ أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح » لأن الزوجة التى تأتى من الأفعال ما قد سلف ذكره تكون قد أخلت بروح الوئام ، وهدمت ركن المودة ، وسلبت الزوج حق السكينة ، وهى قضايا تعرفها الزوجة ، ومن ثم تكون مستحقة للتأديب الذى أذن الله تعالى به من هجر فى المضاجع ، وضرب غير مبرح ، وتلك حقوق مقررة للزوج ، ليس حيال كل زوجة ـ فالزوجة الصالحة خليقة بالتكريم ، جديرة بالاحترام ـ ولكن حيال الزوجة المستحقة للتأديب مثلما يؤدب الناشىء من الصبية والفتيات .

فأما الزوجة المبرأة من هذه النقائص فلها جميع الحقوق التى نص عليها الشرع ، والتى تمثل لها الرسول بثلاث كلمات جامعات هى « رزقهن وكسوتهن بالمعروف » .

وقد تضمنت هذه الفقرة من خطبة الوداع من التوصية بالنساء ما لم يتضمنه قانون سماوى سابق ، ولا تشريع دنيوى لاحق من الإبانة والوضوح وجليل السبب وكريم التعليل : « **واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن عندكم عوان ـ أى كالأسرى ـ لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله**» .

وتشبيه الزوجات بالعوان ليس فيه ما يضير مشاعرهنّ ؛ لأن الزوجة أكثر تصرفاتها

مقيدة بموافقة الزوج ، الزوج المتصف بالعدالة وحسن المعاملة ، فقد روى عن الرسول ﷺ قوله : « **خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى** »[1].

وتمضى كلمات رسول الله فى خطبته تلك مسربلة بالنور ، وضاءة السنا طاهرة الصوغ، نقية اللفظ ، ربانية الأحكام فى قوله : « **إنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله** » .

ذلك أن الله ـ سبحانه ـ قد استأمن الأزواج على نسائهم ، وهذا أمر واضح فى وصية رسول الله بهن ، وأى أمانة أحرى بالعناية من أمانة الله ؟! وأما كلمات الله التى بها صارت الزوجات حلالا لأزواجهن فهى كلمة التوحيد ، وهى أسمى كلمة فى الكون ، فهى جسم الإيمان ومفتاح الجنة .

ويمضى موكب كلمات النور المضيئة من فم رسول الله : « **فاعقلوا أيها الناس قولى ، فإنى قد بلّغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، أمراً بيّناً ، كتاب الله وسنة نبيه** » .

« **أيها الناس : اسمعوا كلامى واعقلوه ، تعلمنّ أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمنّ أنفسكم ، اللهم هل بلغت** » .

إن الرسول ـ وقد غمره الإلهام بتوقف الرحلة ونهاية الطريق ـ ينبه جماعة المسلمين إلى أن هداهم وإيمانهم سيظلان النور الذى يهديهم ، والنبراس الذى ينير حياتهم ما كانوا معتصمين بكتاب الله وسنة رسوله ، فإن تخلوا عن أحدهما أو كليهما غمر الضلال حياتهم ، وغلب الذل على أمرهم ، وتحولوا من سادة الدنيا إلى سقط المتاع .

ثم يؤكد الرسول ﷺ على سامعيه فى الموقف أن يجمعوا بين سماع القول والعمل به ، وفحوى ذلك أن المسلم أخو المسلم ، وقد أكدت الرسالة منذ بزوغ نورها على هذا المفهوم قرآنيًّا فى قوله ـ جل وعزّ ـ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وسنيًّا فى قوله ﷺ :

---

(١) رواه ابن ماجه فى باب النكاح ، وكذلك الدارمى .

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » وهذه الأخوة لكى تؤتى ثمارها « **لا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه** » هى إذن أخوة مبرأة من كل إثم أو اعتداء أو انحراف ، وإن الانصراف عن هذه الالتزامات يُعَدُّ بمثابة إيقاع الظلم بالجماعة الإسلامية ، ولقد صدق رسول الله ﷺ قولا وفعلا وتوقّعاً وتنبؤاً ، فما أن تساهل المسلمون فى أخوتهم حتى ضاعت أرضهم ، واغتصبت أوطانهم وأعراضهم ، وتمزقت كياناتهم ، واستذلت جموعهم ، فضاعت الأندلس ، واغتصبت فلسطين ، وتقاتل الأفغان بعد انتصار ، وأحرقت البوسنة والهرسك ، واغتصبت فيها أعراض المسلمات الحرائر ، واستذلت قلة من الهندوس ملايين المسلمين فى كشمير ، وطورد المسلمون فى أوطان يشكلون الأغلبية بين سكانها ، بل طورد المسلمون فى ديارهم بأيدى حكام منهم .

إن المسلمين تخلوا عن أخوّتهم التى ألزمهم القرآن والسنة بالاستمساك بها ، فتخلى عنهم المجد ، واختفت عنهم العزة ، وتفرق شملهم بعد اجتماع ، وتبدد جمعهم بعد التئام .

لقد بلّغهم رسول الله فى قوله الشريف بين الفقرة والأخرى مشهدا الله على التبليغ : اللهم هل بلغت ، فقال الناس : اللهم نعم ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم فاشهد » .

وفى رواية الجاحظ وابن عبد ربه للخطبة أوردا فيها قضية الميراث والوصية فى المال وحدودها وأحكاما أخرى ، وذلك فى قوله الشريف : « **أيها الناس ، إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا تجوز وصية لوارث ، ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر ، من ادعى لغير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته** » .

كانت خطبة الوداع أو خطبة البلاغ تأدية للشهادة وتبليغاً للأمانة ، وطرحاً للوصايا الأخيرة ، أخذ فيها الرسول على المسلمين العهد والميثاق ، ومحا فيها آثار الجاهلية وطمسها ، ووضعها تحت قدميه ، ووضع المسلمين عل المحجة البيضاء .

خطبة الفراق :

كانت خطبة رسول الله ﷺ يوم عرفة خطبة الوداع ؛ ففيها ـ كما رأينا ـ شرّع أحكاماً نهائية فى موضوعات متصلة الأسباب بالعقيدة وبالنصح والإرشاد والتوجيه وإبطال عادات جاهلية كانت بعض ظلالها تطل على الساحة الإسلامية ، وغير ذلك من الأحكام التى سلف ذكرها . وبذلك كانت هذه الحجة ـ الوحيدة ـ بمثابة وداع فى إصدار الأحكام وتشريع المبادىء التى قضى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بإكمالها وتكفّل بكمالها ، فنزلت الآية الكريمة ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ .

ويبقى بعد ذلك محمد الإنسان الذى يغادر الدنيا بعد أن أدى أسمى رسالة ، ويستقبل الآخرة ليلقى وجه ربه آمنا مطمئناً ، وقد سعى المرض إلى أوصاله وآلم جسمه الشَّريف ، فأراد أن يبرىء ذمّته ـ وهى بريئة مطهّرة ـ من كل دَيْن ، ويَسُدّ دَينه إن كان ثمت ما هو مستحق عليه من مالٍ أو قَوَدَ (قِصاص) .

عن الفضل بن عباس قال : جاءنى رسول الله ﷺ فخرجت إليه فوجدته موعوكا قد عصب رأسه ، فقال : خذ بيدى يا فضل ، فأخذت بيده حتى جلس على المنبر ثم قال : ناد فى الناس ، فاجتمعوا إليه ، فقال :

« أما بعد : أيها الناس ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وإنه قد دنا منى خفوق بين أظهركم (خفق النجم يخفق خفوقا : غاب ، وخفق الطائر : طار) فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فلستقد منه (من القود : وهو القصاص) ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد منه ، ومن أخذت له مالاً فهذا مالى فليأخذ منه ولا يَخْشَ الشحناء من قبلى ؛ فإنها ليست من شأنى ، ألا وإن أحبكم إلىّ من أخذ منى حقا إن كان له ، أو حللنى فلقيت ربى وأنا طيب النفس . وقد أرى أن هذا غير مُغْنٍ عنى حتى أقوم فيكم مراراً »

ثم نزل فصلى الظهر ، ثم رجع فجلس على المنبر فعاد لمقالته الأولى .

فادعى رجل عليه بثلاثة دراهم ، فأعطاه عوضها ، ثم قال :

« **أيها الناس : من كان عنده شيء فليؤده ، ولا يقل فُضَوح الدنيا ، ألا وإن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة** » .

ثم صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم ثم قال : « **إن عبدا خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده** » فبكى أبو بكر وقال : فديناك بأنفسنا وآبائنا .

إن محمداً ﷺ يعلمُ أنَّه لم يأكلْ حقا ، ولم يشتم عرضاً، ولم يظلم صاحب قضيَّة ، ولكنَّه يضرب المثل الطيب للناس ـ كل الناس ـ حين تَقْتَرِب الآخرة ، وتدقّ ساعة الفراق ، أن يتركوا صفحاتهم بيضاء ، فيردوا إلى كل صاحب حق حقه ، ولكل صاحب دَيْنٍ دَيْنه ، ولكل صاحب قودٍ قصاصه ، حتى يلقى الله طيب النفس ، أهلاً للرضىٰ ، خليقا بالمغفرة ، ولا يخشى فى ذلك خجلاً ، أو يخاف فضيحة ؛ فخجل الآخرة لا ينفع ، وفضيحة الدنيا لا تساوى شيئا إزاء فضيحة الآخرة .

كانت هذه المبادىء مؤذنة بالفراق ، معبدة الطريق إلى جنة الرضوان ، وهو ما عَبَّر عنه رسول الله ﷺ قائلا فى شفافية من اللفظ ، وروحانية من العبارة : « **إن عبداً خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عنده** » . ففهم الصحابة أن ساعة الفراق قد حانت ، وأن رحلة رسول الله إلى الآخرة قد دنت، فأجهشوا بالبكاء . وقال صاحبه وصِدّيقه أبو بكر باكيًا : « فديناك بأنفسنا وآبائنا يا خير خلق الله » .



البـــاب الخامس

أدعية رسول الله ﷺ وروحانياته

الفصل الأول : الدعاء والتسبيح والابتهال .

الفصل الثانى : الأحاديث القدسية .





الفصل الأول

الدعاء والتسبيح والابتهال



الدعاء والتسبيح والابتهال

الله ـ سبحانه ـ هو خالق الكون ، بديع السموات والأرض ، المنعم اللطيف الخبير، الرزاق الرحمن الرحيم ، يعيش الخلق جميعا تحت رحمته ، لا تغفل عنايته عنهم طرفة عين ، ومن ثم كان دعاؤه غفرانا ، وتسبيحه رضوانا ، والابتهال إليه عرفانا .

العباد يدعون ويسبحون ويبتهلون ويسألون ، وهو ـ سبحانه ـ أرحم مدعوّ ، وأكرم مسئول ، وبقدر ما يكون الدعاء صادرا من قلب مؤمن ونفس مطمئنة ، بقدر ما تكون الاستجابة ، فهو ـ عز وجل ـ المشجع على الدعاء فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ وهـو ـ سبحانه ـ غافر الذنب ، قابل التوب ، ،وفى هذا المعنى يقول رسول الله ﷺ : **« والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله ـ تعالى ـ فيغفر لهم »**(١) .

ودعاء الله عنوان العبودية الخالصة والإيمان الكامل ، وقد كان رسول الله ﷺ أقرب الناس عبودية ، وأكملهم إيمانا وأدناهم إلى ربه ، وأحبهم إليه ، وأعزهم مكانة لديه ، ثم هو ﷺ أفصح الفصحاء وأَبْيَنُ الأَبيِنَاءِ وسيد الأنْبِيَاء ، فكان دعاؤه أبلغ الدعاء ، واستغفاره أنقى الاستغفار ، وتسبيحه أسمى التسبيح ، وابتهالاته أعمق الابتهالات .

إن كنوز الدعاء التى أثرت عنه ﷺ من الشفافية بحيث لا يطاولها دعاء ، ومن الصفاء بحيث لا يدانيها نقاء ، ومن القبول بحيث تقرب من يحفظها ويرويها ويرددها إلى الحضرة الربانية ، لينال الرضى ويحظى بالغفران .

لقد دعا رسول الله ربه فعلَّمنا أدب الدعاء ، واستغفر فدلنا على نهج الاستغفار ،

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب التوبة .

واستعاذ بالله فرسم لنا صيغ التعوذ بالذات العلية تنزهت ذاته وتقدست أسماؤه .

والرسول ﷺ يختار لكل موقف ما يناسبه من دعاء ، ولكل مناسبة ما يليق لها من ابتهال . فى الليل والنهار ، وفى الصباح والإمساء ، وعند النوم والاستيقاظ ، وساعة الخروج من البيت والعودة إليه ، وقبل الصلاة وأثناءها وفى أعقابها ، وعند السجود وساعة التشهد ، وحتى إذا استيقظ المسلم من نومه وسط الليل ، وهكذا يعيش المرء كل طرفة عين قريبا من ربه . ذاكرا لذاته ، مسبحا بحمده ، مرددا لصفاته ، مقبلا عليه ، مبتهلا إليه .

مطلق الدعاء :

إن الرسول يدعو الله بعلمه الغيب وقدرته على الخلق وفى دعائه - كما يقول ابن تيمية - أدب الطلب من الخالق الأعظم ، وهو دعاء دعا به عمار فى الصلاة . يقول ﷺ :

« اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحينى ما كانت الحياة خيرا لى ، وتوفّنى إذا كانت الوفاة خيرا لى ، اللهم إنى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وكلمة الحق فى الغضب والرضا ، والقصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيما لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك ، من غير ضراء مُضرّة ، ولا فتنة مضلّة ، اللهم زَيِّنَّا بزينة الإيمان ، واجعلنا هُداةً مهتدين » (١) .

وعن ابن مسعود يقول : كان دعاء رسول الله ﷺ :

« اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل برّ ، والفوز بالجنة والنجاة من النار » (٢) .

الرسول ﷺ فى الحديث الأول يدعو الله دعوات تليق بكمال الله ، وتناسب سليقة خير خلق الله ، فيسأله الجنة بعد الموت ، ولذةالنظر إلى وجهه الكريم ، وإذا كان هذا

---

(١) الحاكم فى المستدرك : كتاب الدعاء ١ / ٥٢٥ .

(٢) كتاب النبوات ، ص : ٦٧ رواه النسائى

الدعاء تميز بشىء من التفصيل فإن الدعاء فى الحديث الثانى يتميز بالإيجاز الذى يشتمل على مدلولات المعانى التى جاءت مفصلة فى سابقه ، وكلّ من الحديثين الشريفين آية من آيات الإعجاز النبوى فى البلاغة والتبيين .

ومن أحاديث الدعاء التى تشتمل على صلاح الدين والدنيا والآخرة قوله ﷺ :

« اللّهُمَ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِى هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِى وأَصْلِحْ لِي دُنْيَاىَ الَّتِى فِيهَا مَعَاشِى وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيها مَعَادِى وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زيادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِ شَرٍّ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ » .

ومع أن الرسول ﷺ معصوم من الخطأ والخطايا ، وأنه رسول الله وحبيبه ، فإنه كان دائم الدعاء بالمغفرة ؛ لأن الدعاء فى حدّ ذاته يُقرب إلى الله ، ولكى يعلّم الأمة الإسلامية كيف يكون الدعاء بالمغفرة .

« عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِى الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بهذَا الدُّعَاء :

« اللّهُمَّ اغفِرْلى خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسرَافِي فِي أَمْرِى وَمَا أَنْتَ أَعْلَم بِهِ مِنّي . اللّهُمَّ اغفِرْ لى جَدِّى وَهَزلِي ، وَخَطَئِى وَعَمدِى ، وَكُلُّ ذلكَ عِنْدِى اللّهُمّ اغفِرْلى مَا قدمْتُ ومَا أَخّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَم بِهِ مِنّى أَنْتَ الْمُقَدّمُ وَأَنْتَ الْمؤَخّرُ وأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِير » متفق عليه .

إن الله ـ سبحانه ـ يحب من العبد أن يبتهل إليه ساعة الدعاء ، فيذكر إيمانه به ، وتوكله عليه ، والإذعان لأحكامه ، وهو ما كان يفعله رسول الله ﷺ بين يدى الدعاء .

« عَنْ ابْن عَبّاس رَضِى الله عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُول : اللّهُمَ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيكَ أَنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ أَنْتَ الْمُقَدّمُ وَأَنْتَ الْمؤخرُ لاَ إله إلاّ أَنْتَ . زَادَ بَعْضُ الرُّوَاة : وَلاَ حَوْلَ ولاَ قُوّةَ إلا بالله » متفق عليه

ومن دعاء الرسول ﷺ الذى يتسم بالشمول مع فرط الأدب فى الطلب ، وكمال

العبودية فى السؤال ، ما رواه عبدالله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : بعثنى أبى العباسُ إلى رسول الله ﷺ فبتُّ عنده ، فسمعته يدعو :

« اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى ، وتجمع بها أمرى ، وتَلُمُّ بها شَعثِى ، وتُصلح بها غائبى ، وترفع بها شاهدى ، وتزكِّى بها عملى ، وتلهمنى بها رُشدى ، وترد بها الفتن عنى ، وتعصمنى بها من كل سوء ، اللهم إنى أسألك الفوز عند القضاء ، ونُزُل الشهداء ، وعيش السعداء والنصر على الأعداء (*) .

ومعنى الفوز عند القضاء يعنى يوم الحساب .

الرسول يعلّم آل بيته وأصحابه الدعاء :

كان عطف رسول الله ﷺ يفيض على كل الذين حوله سواء أكانوا من أهل بيته الشريف أم من صحابته ، أم من السائلين من عامة المسلمين ، وكان عطفه ﷺ عليهم يشمل كل ألوان الخير ، حتى الدعاء كان يعلمهم إياه ، حينا يعلمهم تطوعا منه وفضلا ، وحينا آخر يعلمهم بالأجوبة على أسئلتهم حين يسألونه .

فمن آل البيت كانت أم المؤمنين عائشة ، والحسن السبط وعبدالله بن عباس ، ومن الصحابة كان أبو بكر ، وجابر بن عبدالله ، وجابر بن حميد ، والطفيل بن عمرو الدوسى ، وغيرهم من هؤلاء وأولئك .

قال رسول الله ﷺ : « **يا عائشة عليك بجمل الدعاء وجوامعه . قالت : يا رسول الله ، وما جمل الدعاء وجوامعه ؟ قال : « قولى : اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ، ما علمت منه وما لم أعلم ، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ، ما علمت منه وما لم أعلم ، وأسألك الجنة وما قرّب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول أو عمل ، وأسألك مما سألك به محمد ، وأعوذ بك مما تعوّذ منه محمد ، وما قضيت لى من قضاء فاجعل عاقبته رشدا** » الحديث ٦٣٩ من الأدب المفرد للبخارى .

(*) هذا الحديث روته بعض المصادر وفى متنه بعض الزيادات ، ولكننا اعتمدنا هذه الرواية لأنها رواية حافظ المغرب القاضى عياض طبقا لما أثبتها فى كتابه « الشفا » ص : ٤٦ .

ومن آل البيت الذين علمهم رسول الله ﷺ الدعاء ، سبطه الحسن ، لقد سأله الحسن عن كلمات يقولها فى صلاة الوتر ، فعلمه الدعاء الشريف الذى عرف بعد ذلك بالقنوت :

عن الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ قال : علمنى رسول الله ﷺ كلمات أقولهن فى الوتر: « **اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت ، وتولنى فيمن توليت ، وبارك لى فيما أعطيت ، وقنى شر ما قضيت ، فإنك تقضى ولا يقضى عليك ، وإنه لا يذل من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت** » عن كتاب الأذكار للإمام النووى .

وفى هذا المقام يقول عبدالله بن عباس :

كان الرسول يعلمنا هذا الدعاء كما يعلمنا السورة من القرآن : « أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، وأعوذ بك من فتنة القبر » الحديث ٦٩٤ من الأدب المفرد للبخارى .

ويسأل الصديق أبو بكر رسول الله ﷺ أن يعلمه دعاء يدعو به فى صلاته مثلما سأله الحسن السبط على هذا النحو :

عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ : علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى . قال : « **قُلِ اللّهُمَّ إنى ظَلَمْتُ نَفْسِى ظُلْماً كثيرًا ولا يَغْفر الذُّنوب إلاَّ أَنْتَ فَاغْفِرْ لى مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ ، وارحَمْنِى إنَّكَ أنْتَ الْغَفُوُر الرحيمُ** » متفق عليه (وفى رواية) «وفى بيتى» وروى «ظلما كثيرا» وروى « كبيرا » ـ بالثاء المثلثة وبالباء الموحدة ـ فينبغى أن يجمع بينهما فيقال : كثيراً كبيراً .

والصحابى شَكَل بن حُميد ـ رضى الله عنه ـ يسأل الرسول أن يعلمه دعاء ، فيكون من شأنه ، ما كان من شأن أبى بكر :

عن شَكَل بْنِ حُمَيْدٍ رَضى الله عَنْهُ قال : قُلْتُ يَا رسُولَ الله : علِّمْني دُعاءً قال : «**قُلِ اللّهُمَّ إنّى أعُوذُ بِكَ مِنْ شرّ سَمْعِى وَمِنْ شَرِّ بَصَرِى وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي وَمِنْ شرِّ قلبى ومِنْ**

شَرِّ مَنِيِّي » رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرمِذِيّ وَقَال : حديثٌ حَسنٌ . رياض الصالحين ص٤٧٩

ومن الأدعية التى كان رسول الله ﷺ يعلمها للصحابة ، يقول الصحابى جابر بن عبدالله : إن الرسول كان يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كالسورة من القرآن :

عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال : **كان رسول ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كالسورة من القرآن . يقول : « إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ـ أو قال فى عاجل أمرى وآجله ـ فاقْدُرْهُ لى ويسّره لى ، ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرّ لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ـ أو قال : عاجل أمرى وآجله ـ فاصرفه عنى ، واقدر لى الخير حيث كان ، ثم رضنى به ، قال : ويسمى حاجته »** .

يقرأ فى الركعة الأولى بعد الفاتحة : قل يا أيها الكافرون . وفى الثانية : قل هو الله أحد . عن كتاب الأذكار للإمام النووى ص : ١١٠ .

وجاء النبىَّ ﷺ رجلٌ من عامة المسلمين يسأله دعاء يسأل به ربه طبقا لرواية مسلم على هذا النحو :

فى رواية عن طارق أنه سمع النبى ﷺ وأتاه رجل فقال : يا رسول الله كيف أقول حين أسأل ربى ؟ قال : « قل اللهم اغفر لى وارحمنى وعافنى وارزقنى فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك » رياض الصالحين ص : ٤٧٦ وكأنما خشى رسول الله ﷺ أن يَسْتَقِلَّ السائل حجم الدعاء مع أنه يجمع المغفرة والرحمة والعافية والرزق ، وهو جُلّ ما يطلبه سائل من خالقه ، فأراد ـ لطفا منه وإيناسا ـ أن يطمئن السائل ، فقال له : « **إن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك** » وهى صيغة فى قمة الإيجاز فى الدعاء .

ويروى الصحابى الجليل جابر بن عبدالله هذا الحديث المعلم على النحو التالى :

عن جابر بن عبدالله أن النبى ﷺ رقى المنبر ، فلما رقى الدرجة الأولى قال : «آمين» ثم رقى الثانية فقال : « آمين » ثم رقى الثالثة فقال : « آمين » . فقال : يا رسول الله ،

إنا سمعناك تقول آمين ثلاث مرات . قال : « لما رقيت الدرجة الأولى جاءنى جبريل ﷺ فقال : شَقِىَ عبدٌ أدْرك رمضان فانسلخ منه ولم يُغفر له ، فقلت : آمين . ثم قال : شَقِىَ عبدٌ أدْرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة ، فقلت : آمين . ثم قال : شَقِىَ عبدٌ ذُكِرْتَ عنده ولم يصلِّ عليك . فقلت آمين » . الحديث ٦٤٤ الأدب المفرد للبخارى .

ومن لطائف رسول الله ﷺ فى تعليم الصحابة أدب الدعاء هذا الخبر :

قدم الطفيل بن عمرو الدوسى على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إن دَوْساً قد عَصَتْ وأَبَتْ فادعُ عليها ، فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة ورفع يديه ، فظن الناس أنه يدعو عليهم ، فقال : « اللهم اهْدِ دَوْساً وائْتِ بهم » الحديث ٦١١ الأدب المفرد للبخارى .

لقد أراد الطفيل شيئا ، واتفقت إرادة الناس مع إرادة الطفيل ، لقد أرادوا جميعا شرًّا بقبيلة دوس ، ولكن شمائل الرسول أبت عليه ذلك ، فدعا لهم عوضاً عن أن يدعو عليهم ، فتقبل الله دعوته .

دعاء الرسول فى الصلاة :

الصلاة هى الركن الثانى من أركان الإسلام ، وهى الفريضة الأولى من فرائض التكليف ، فهى سابقة على الزكاة والصوم والحج ، وهى عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين .

والصلاة لغة : هى الدعاء ، والصلاة تستفتح بفاتحة الكتاب ، وهى حمد وتسبيح وابتهال ودعاء ، كما أنها تختم كذلك بالدعاء ، من أجل ذلك فإن رسول الله ﷺ قد خصها بأكبر قدر من أحاديث الدعاء إذا ما قورن بأحجام الدعاء التى خصصها ﷺ للفرائض الأخرى .

لقد رويت صيغ الدعاء عن رسول الله ﷺ فى كل جزئية من جزئيات الصلاة حتى

عند سماع الأذان ، إن لكل صلاة دعاءها ، وللركوع دعاء . وللقيام منه دعاء ، وللسجود دعاء ، ولسجود التلاوة دعاء ، وللتشهد الأخير دعاء ، ولدبر كل صلاة دعاء ، وللانصراف من الصلاة دعاء ، وللقنوت دعاء .

إن أحاديث دعاء الصلاة - وقد بنى صياغتها رسول الله ﷺ ببلاغته وبيانه وشفافيته وقربه من الله ، وخشيته منه ، ومحبته له ، وابتهاله إليه ، وتمجيده لذاته ، وتقديسه لصفاته - تشكل ضربا فريدا من صيغ التحميد والتمجيد ، يتقرب العبد بها إلى الله حال صلاته ، بل إنه بها يزداد قربا ؛ لأن المرء أصلا قريب من الله فى الصلاة ، مصداقا لقول الرسول ﷺ : « **أكثر ما يكون المؤمن قربا من ربه فى الصلاة** » وفى رواية : « **أقرب ما يكون العبد إلى ربه فى الصلاة** » إنه دعاء يجلو صدأ القلب ، ويذيب هموم النفس ، ويعمق الإيمان ، ويجدد شباب الروح المؤمنة .

وفيما يلى طائفة من أحاديث رسول الله ﷺ تتضمن الدعاء الذى يُدْعَى به فى الصلوات .

عن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : كان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح قال : «**اللهم إنى أسألك علما نافعاً ، وعملا متقبلاً ، ورزقاً طيباً** » ابن ماجه : كتاب (إقامة الصلاة) باب ما يقال بعد التسليم ١ / ٢٩٨ رقم ٩٢٥ .

ولما كان « القنوت » موصول الأسباب بصلاة الصبح وصلاة الوتر ، فقد وردت هذه الصيغة عن رسول الله ﷺ وهى دعاء وابتهال نعيد ذكرها :

عن الحسن بن على - رضى الله عنه - : عَلَّمنى رسول الله ﷺ كلمات أقولهن فى الوتر: « **اللهم اهدنى فيمَن هديت ، وعافنى فيمن عافيت ، وتولّنى فيمن توليت ، وبارك لى فيما أعطيت ، وقنى شرّ ما قضيت ، فإنك تقضِى ولا يُقْضَى عليك ، وإنه لا يَذِلّ من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت** » زاد النسائى والبيهقى - فى روايتهما - « **ولا يعزُّ من عاديت** » .

وإذا انصرف المسلم من صلاة المغرب ومن صلاة الصبح ، وردَّدَ هذا الحديث سبع مرات أجير من النار ، وهذا هو الحديث :

عن مسلم بن الحارث الصحابى ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه أسر إليه فقال : « **إذا انصرفْتَ من صلاة المغرب فقل : اللهم أَجِرْنِى من النار سبع مرات ، فإنك إذا قلتَ ذلك ثم مُتَّ من ليلتك كُتِبَ لك جِوَارٌ منها ، وإذا صليت الصبح فقل كذلك ، فإنك إذا مُتَّ من يومك كُتِب لك جِوارٌ منها** » أخرجه أبو داود .

وللسجود فى الصلاة أكثر من دعاء أُثر عن رسول الله ﷺ يقول ـ عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ :

« **اللهم إنى أعوذ برضاك من سَخَطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليكَ ، أنت كما أثنيت على نفسك** » .

ويقول أيضا : « **اللهم لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين** » الحديثان فى صحيح مسلم (كتاب الصلاة) ما يقال فى الركوع والسجود .

ومن الأدعية التى يحرص قارىء القرآن الكريم على الدعاء بها فى سجود التلاوة الدعاء السابق وهو :

« **اللهم لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين** » .

ويستحب أن يقول معه : « **اللهم اجعلها لى عندك ذخرا ، وَأَعْظِمْ لى بها أجراً ، وضع عنى بها وزراً ، وتقبلها منى كما تقبلتها من داود عليه السلام** » .

سنن الترمذى : ما جاء فى كثرة الركوع وفضله .

وبعد أن ينتهى رسول الله ﷺ من قراءة التشهد وقبل أن يسلم للخروج من الصلاة كان يتلو هذا الدعاء بالمغفرة من كل ذنب ومن أى ذنب :

عن على ـ رضى الله عنه ـ قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : « **اللهم اغفر لى ما قَدّمتُ وما أخّرتُ ، وما أسررْتُ وما أعلَنْتُ ، وما أسرفْتُ ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدّم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت** » رواه مسلم

وبعد التشهد الأخير كان الرسول ﷺ يدعو الله متعوذا من عذاب جهنم وعذاب القبر ، ومن فتن المحيا والممات والمسيح الدجال . كان ﷺ يقول :

« اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال »

صحيح البخارى : « كتاب الجنائز » باب التعوذ من عذاب القبر. وصحيح مسلم (كتاب المساجد) باب ما يستعاذ منه فى الصلاة ١ / ٤١٢ رقم ١٢٨ .

ولرسول الله ﷺ عدد من أحاديث الدعاء كان يقولها بعد الصلوات ، فبعد صلاة الصبح وقبل أن يصدر عن المُصَلى كان يهلل ويكبر بدعاء جيد يردده تكتب له به عشر حسنات ، وتمحى عنه عشر سيئات وترفع له عشر درجات .

عن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « **من قال فى دبر صلاة الصبح وهو ثانٍ رجليه قبل أن يتكلم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير عشر مرات ، كتب له عشر حسنات ، ومحى عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، وكان يومه ذلك فى حرز من كل مكروه، وحُرِس من الشيطان ، ولم ينبغ لذنب أن يدركه فى ذلك اليوم إلا الشرك بالله تعالى** » أخرجه الترمذى

وعن سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ دبر الصلاة بهؤلاء الكلمات :

« اللهم إنى أعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك أن أردّ إلى أرذل العُمُر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من عذاب القبر »

وعن أنس : كان النبى ﷺ يقول إذا انصرف من الصلاة : « **اللهم اجعل خير عمرى آخره ، وخير عملى خواتمه ، واجعل خير أيامى يوم ألقاك** » ابن السنى رقم ١٢٠.

وقد مرّ بنا قبل قليل أن أبا بكر الصديق طلب من رسول الله ﷺ أن يعلمه دعاء

يدعو به فى صلاته ، وهو : عن أبى بكر الصديق أنه قال لرسول الله ﷺ : علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى ، قال : « **قل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم**» البخارى والبيهقى .

دعاء التعوّذ :

من كمال الإيمان أن يلجأ العبد إلى ربه يسأله الرضى والعون ، ويستعيذ به من كافة الشرور الصادرة عن انحراف بعض الخلق ، وأن يسأله السلامة فيما سوف يعرض له بعد أن يودع هذه الحياة ، ويبدأ الحياة الآخرة فى دار الحق واليقين .

وإذا ما تعوذنا بالله مما قد يلم بنا من شرور فنحن إنما نستجيب لتوجيهات الخالق ـ جل وعلا ـ فيما ورد فى الكتاب العزيز من صيغ التعوذ ، ثم نثرى عقيدتنا بما أثر عن رسول الله ﷺ فى هذا المجال .

إن المؤمن كلما أحسّ بمكروه فى طريقه لأن يلم به ، أو أمر يخيفه سارع إلى التعوذ بخالقه ، قائلا : أعوذ بالله ، أو أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وهى الصيغة التى يستفتح بها قارىء القرآن التلاوة ، بل إن آخر سورتين فى القرآن الكريم يطلق عليهما المعوذتان ، وهما سورة الفلق وسورة الناس .

وكان رسول الله ﷺ كثير التعوذ بالله ـ سبحانه وتعالى ـ وكان أكثر ما يتعوذ بالله منه فتنة النار وعذابها ، وفتنة القبر وعذابه ، وشر الغنى ، وشر الفقر ، والبلاء والشقاء ، والهم ، والحزن ، والعجز ، والبخل ، والدَّيْن ، والجوع ، والخيانة ، والأمراض والأسقام ، وغير ذلك مما يضر الإنسان فى حياته الدنيا ، أويؤذيه فى حياته الآخرة .

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « **إذا تشهّد أحدكم فليستعذ بالله من أربع ، يقول : اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال** » رواه مسلم (رياض الصالحين ص : ٤٦١) .

وكان رسول الله ﷺ يتعوذ عند النوم بهذه الدعوات :

« **اللهم إنى أعوذ بوجهك الكريم ، وبكلماتك التامة من شرّ ما أنت آخذ بناصيته ، اللهم أنت تكشف المغرم والمأثم ، اللهم لا يُهزم جندك ولا يُخلف وعدك ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجد ، سبحانك وبحمدك** » سنن أبى داوود ، باب ما يقول عند النوم : ٥ / ٣٠٠ رقم ٥٠٥٠ .

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن النبى ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات : « **اللهم إنى أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار ، ومن شر الغنى والفقر** » رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وكان النبى ﷺ يتعوذ من الإصابة بالأمراض والأسقام ، وكان يسمى بعضها فى تعوذه بأسمائها ، مثل البرص والجنون والجذام ، مثلما كان يتعوذ من الجوع ويصفه بأنه بئس الضجيع ، ويتعوذ من الخيانة ويصفها بأنها بئست البطانة .

ففى تعوذه ﷺ كان يقول : « **اللهم إنى أعوذ بك من البرص والجنون والجذام وسىء الأسقام** » **رواه أبو داود بإسناد صحيح** .

(وعن) أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة » رواه أبو داود بإسناد صحيح .

وكثيرا ما كان رسول الله ﷺ يمزج بين التعوذ والدعاء ، كان يتعوذ بالله من العجز والكسل والبخل والهم وعذاب القبر ، ثم يتبع ذلك متجها إلى ربه بدعاء يجبّ هذه الآفات التى يتعوذ منها ، مثل ما ورد فى حديث زيد بن أرقم :

عن زيد بن أرقم : كان رسول الله ﷺ يقول :

« **اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل والهمّ وعذاب القبر ، اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها ، اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ، ومن دعوة لا تستجاب** » .

صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء) باب أكثر أهل الجنة الفقراء ، وأهل النار النساء ٤ / ٢٠٩٧ رقم ٩٦ .

وقد ورد تعوذه ﷺ من الجبن والبخل والعجز والهرم وفتنة الدنيا وفتنة القبر فى عدد من الأحاديث ، ذلك لأنها معائب ومصائب يُخشى وقوعها ، فكان ﷺ يتعوذ منها فى دبر الصلوات ، حيث تكون أبواب السماء مفتوحة لولوج الدعوات .

عن سعد بن أبى وقاص أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ دبر الصلوات بهؤلاء الكلمات :

« **اللهم إنى أعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من أن أُرَدَّ إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من فتنة القبر** » رواه البخارى (رياض الصالحين ص : ٤٦٠) .

ويروى البخارى مرة أخرى هذا الحديث ومواد التعوذ فيه بتقديم وتأخير ، وكان الرسول ﷺ يتعوذ من الشىء الواحد بأكثر من صيغة .

كان رسول الله ﷺ يتعوذ يقول : « **اللهم إنى أعوذ بك من الكسل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من الهرم ، وأعوذ بك من البخل** » الحديث ٦١٥ فى الجزء الثانى من الأدب المفرد . والكسل هو : التغافل عما لا ينبغى التغافل عنه .

ويستعيذ رسول الله ﷺ فيما يرويه أنس من هذه الهموم ـ فهى أصعب هموم الإنسان السوى وأشدها ـ مع بعض الزيادات .

فى الصحيحين عن أنس ؛ كان رسول الله ﷺ يقول : « **اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والهرم والبخل ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات** » **وفى رواية : وضلع الدَّيْن ـ أى : شدته وثقله ـ وغلبة الرجال** » .

صحيح البخارى (كتاب الدعوات) باب التعوذ ٨ / ٩٧ ، ٩٨ .

صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء) باب التعوذ من العجز ٤ / ٢٠٧٩ رقم ٥٠ .

ومن صيغ التعوذ بالله من المصائب التى يتعوذ المرء منها ما رواه أبو هريرة :

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « **تعوذوا بالله من جهد البلاء ، وَدَرَك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء** »

البخارى : (كتاب القدر ، باب من تعوذ بالله من درك الشقاء ٨ / ١٥٧).

ومسلم : (كتاب الذكر) باب فى التعوذ من سوء القضاء ٤ / ٢٠٨٠ رقم ٥٣ .

هذه نماذج من أحاديث الدعاء بالتعوذ بالله من مصائب تصيب المسلم ، أو نكبات يخشى وقوعها ، أثرت عن الصادق الشفيع ، نسأل الله أن ينفعنا ببركتها .

أدعية رسول الله ﷺ فى الصباح والمساء والليل :

الرسول ﷺ مرتبط الأسباب بخالقه - جل وعلا - فى جميع الأوقات ، فى كل آونة من صباح ، وكل لحظة من ليل ، بل كل طرفة عين من ليل أو نهار . وهو سيد من يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ؛ ولذلك كان ﷺ كثير الدعاء فى كل الأوقات بصيغ من القول مختلفة الأشكال متعددة المعانى .

كانت أدعية رسول الله فى مختلف الأوقات والأزمنة تصدر عنه تمجيداً مباشرا لرب العالمين ، وأحيانا أخرى كانت تصدر عنه فى صورة توجيهات نبوية شريفة للمسلمين ، كأن يقول : من قال حين يصبح كذا وكذا فثوابه كذا وكيت ، أو من قال حين يمسى كذا وكذا ، وهو فى ذلك يحضّ كل مسلم على أن يستحضر ذكر الله فى قلبه ووجدانه كل لحظة من ليل أو ومضة من نهار ، لأن الله - سبحانه - إذا كان ذكره مستقرا فى ضمير المرء فإنه يعيش معصوما من الزلل ، مبرأً عن اقتراف الموبقات .

وكثيرا ما كان الرسول ﷺ يسبح الله ويذكره بكلام الله جلّت قدرته :

عن عثمان بن عفان - رضى الله عنه - : قال رسول الله ﷺ : « **ما من عبد يقول فى صباح كل يوم ومساء كل ليلة : (باسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم)** ثلاث مرات لم يضره شىء » وفى رواية أبى داود : **لم تصبه فجأة بلاء** . رواه مسلم فى صحيحه .

وثمت دعاء نبوى شريف آخر لحمته وسداه كلام الله ، وهو مثل سابقه دعاء للصباح والمساء :

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قال حين يصبح ﴿ فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ أدرك ما فاته فى يومه ذلك ، ومن قالهن حين يمسى أدرك ما فاته فى ليلته » . أخرجه أبو داود.

ومثلما كان ﷺ يذكر الله ويدعوه بكلامه ـ عز وجل ـ فإنه كان يذكره ويدعوه ويسبحه ويمجده بكلامه الفصيح وبيانه المضىء ، من خلال صيغ التوحيد الخالص ، والعبودية الصادقة ، والشفافية المحمدية ، وكانت هذه التسبيحات تصدر فى صيغ توجيه طيب أو أوامر حانية ؛ لأن هدفها صلاح العبد ومباركته وسلامته .

عن عبدالله بن أبى أوفى ـ رضى الله عنهما ـ قال : « **كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال : أصبحنا وأصبح الملك لله ـ عز وجل ـ الحمد لله ، والكبرياء والعظمة لله ، والخلق والأمر ، والليل والنهار وما سكن فيهما لله تعالى ، اللهم اجعل أول هذا النهار صلاحا ، وأوسطه نجاحا ، وآخره فلاحا يا أرحم الراحمين** » أخرجه أبو داود .

وعن أبى مالك الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : « **إذا أصبح أحدكم فليقل : أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين ، اللهم إنى أسألك خير هذا اليوم : فتحه ونصره ونوره وبركته وهداه ، وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده ، ثم إذا أمسى فليقل مثل ذلك** » . سنن أبى داود ٥ / ٣٢٢ رقم ٥٠٩٠ .

ويورد البخارى فى الأدب المفرد صيغة أخرى من أدعية رسول الله فى الصباح والإمساء لا يخرج فيها ﷺ عن غاية واحدة : هى التمجيد والحمد والشكران ، مثال قوله :

كان النبى ﷺ إذا أصبح قال : أصبحنا وأصبح الملك لله ، والحمد كله لله ، لا

شريك له ، لا إله إلا الله ، وإليه النشور . وإذا أمسى قال : أمسينا وأمسى الملك لله ، الحمد لله لا شريك له ، لا إله إلا الله وإليه المصير » الحديث ٦٠٤ من الجزء الثانى .

ومثلما كان ﷺ يسبح المولى العظيم ويوحده ويشكره ويمجده إذا أصبح أو إذا أمسى ، فإنه كان أيضا يدعوه ـ عز وجل ـ بأجلّ ما يدعو به العبد ربه ، وبأشمل ما يطلب السائل وهو موقن بالإجابة .

يقول ابن عمر : لم يكن رسول الله ﷺ يَدَعُ هؤلاء الكلمات إذا أصبح وإذا أمسى : «**اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة ، اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى ، اللهم استر عوراتى ، وآمن روعاتى ، اللهم احفظنى من بين يدىّ ومن خلفى ، وعن يمينى وعن شمالى ، ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك من أن أُغْتَال من تحتى** » الحديث ١٢٠٠ من الجزء الثانى من الأدب المفرد .

ـ معنى (أغتال من تحت) يعنى : أدهى بالخسف من حيث لا أشعر .

وفى كثير من أدعية رسول الله ﷺ الصباحية والمسائية كان يتعوذ من شرور الليل والنهار ، ومن كثير من المخاوف التى يخشى المرء عاقبتها .

عن عبدالله مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : كان النبى ﷺ إذا أمسى قال : «**أمسينا وأمسى الملك لله ، والحمد لله ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ربِّ أسألك خير ما فى هذه الليلة ، وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شرّ ما فى هذه الليلة ، وشرّ ما بعدها ربّ أعوذ بك من الكسل ، والهرم وسوء الكبر ، أعوذ بك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر** » **وإذا أصبح قال ذلك أيضا : أصبحنا وأصبح الملك لله . .** » أخرجه مسلم فى صحيحه .

وعندما كان يخرج الرسول ﷺ كان حينا يردد صيغة توكله على الله ، ثم يتبعها بالتعوذ بالله مما يقلق أو يخيف ، مثال ذلك ما روته أم المؤمنين أم سلمة واسمها هند بنت أبى أمية حذيفة المخزومية ـ رضى الله عنها ـ أن النبى ﷺ كان إذا خرج من بيته قال : بسم الله توكلت على الله اللهم إنى أعوذ بك أن أَضِلَّ أو أُضَلَّ أو أَزِلَّ أو أُزَلَّ أو أَظْلِمَ أو أُظلَم أَوْ أَجْهَلَ أو يُجهَلَ علىَّ » . حديث صحيح رواه أبو داود والترمذى

والنسائى وابن ماجه بأسانيد صحيحة . قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

ومرات أخرى كان يكتفى بصيغتى التوكل والحوقلة ، مثال ذلك ما رواه أنس رضى الله عنه قال : قا ل رسول الله ﷺ : « **من قال ـ يعنى إذا خرج من بيته ـ : بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له : هديت وكفيت ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان** » رواه أبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم ، وقال الترمذى : حديث حسن ، زاد أبو داود : فيقول ـ يعنى الشيطان لشيطان آخر ـ : كيف لك برجل قد هُدِى وَكُفِى وَوُقِى ؟!

أدعية الرسول ﷺ عند النوم :

كان قلب الرسول ﷺ دائم الخشوع ، موصول الخضوع لخالقه فى صباحه ومسائه وعند نومه ، ويحب لأتباعه المؤمنين برسالته أن يكون الواحد منهم مرتبط القلب بذكر الله ، وتلك طبيعة فى تكوين النفس المسلمة ، فهى دائمة الذكر كاملة الخضوع ، كثيرة التفكر فى الله ، حامدة فضله ، شاكرة نعمته ، معظمة قدرته ، ومن ثم ظلت هذه النفس منقادة لخالقها ، مقتدية برسوله الأعظم عبادة وحمدا ، وخشوعا وذكرا ، ودعاء وابتهالا .

لقد أثر عن رسول الله ﷺ عدد كبير من أحاديث الدعاء عند النوم ، وتدور جميعها حول المعانى السامية ، والمواقف الخاشعة ، والأمانى الإيمانية التى مرّ ذكرها .

فى الصحيحين عن البراء بن عازب ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «**إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل : اللهم أسلمتُ نفسى إليك ، وفوضتُ أمرى إليك ، وألجأتُ ظهرى إليك ، آمنتُ بكتابك الذى أنزلتَ ونبيك الذى أرسلتَ . فإن مِتَّ مِتَّ على الفطرة ، واجعلها آخر ما تقول**» .

ويردُ الحديث برواية أخرى قليلة الاختلاف مع الرواية السابقة لنفس الصحابى الجليل : البراء بن عازب ، خالية من الأمر بالوضوء قبل أن يذهب المسلمُ إلى مضجعه :

عن البراء بن عازب :

كان النبى ﷺ إذا أوى إلى فراشه نام على شقه الأيمن ثم قال : « اللهم إنى وجهتُ وجهى إليك ، وأسلمتُ نفسى إليك ، وألجأتُ ظهرى إليك ، رهبةً ورغبةً إليك ، لا منجا ولا ملجأَ منك إلا إليك ، آمنتُ بكتابك الذى أنزلْتَ ، ونبيك الذى أرسلْتَ » .

قال « فمن قالهن فى ليلة ثم مات ، مات على الفطرة » الأدب المفرد الحديث ١٢١١

معنى (مات على الفطرة) أى : على هيئة متهيئة لقبول الإسلام ، مع خلو نيته عما يحثّه على الكفر .

وقد روى مسلم فى صحيحه الحديثين التاليين ، وكل منهما صيغة محمدية رفيعة القدر ، سامية الدرجة فى تمجيد الخالق الأعظم قبل النوم ، والتقرب منه والابتهال إليه ، وإن كان الحديث الثانى قد اشتمل على دعاءين فى قضاء الدَّين والغوث من الفقر :

« اللهم ربَّ السموات وربَّ الأرض وربَّ العرش العظيم وربَّ كلِّ شىء ، فالقَ الحبِّ والنوى ، منزلَ التوراةِ والإنجيلِ والقرآن ، أعوذ بك من شر كل دابةٍ أنت آخذٌ بناصيتها » مسلم .

وقوله ﷺ :

« اللهم أنت الأولُ فليس قبلَك شىء ، وأنتَ الآخُر فليس بعدَكَ شىء ، وأنت الظاهرُ فليس فوقَكَ شىء ، وأنتَ الباطِنُ فليس دُونَكَ شىء ، اقْضِ عنا الدَّين ، وأغننا من الفقر » مسلم .

وفى حديث رواه عبدالله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن لرسول الله صيغة أخرى فى الدعاء عند النوم أمر رجلا من المسلمين أن يتلوها قبل نومه :

عن ابن عمر ـ رضى الله عنه ـ أُمِرَ رجل إذا أخذ مضجعه أن يقول بحديث رسول الله ﷺ : « **اللهم أنت خَلَقْتَ نفسى وأنت تتوفاها ، لك مماتُهَا ومحياها ، إن أحييتها فاحفظها ، وإن أَمَتَّهَا فاغفرْ لها ، اللهم إنى أسألك العافية** » صحيح مسلم (كتاب الذكر) باب ما يقول عند النوم ٤ / ٢٠٨٣ رقم ٦٠ .

ويهتم الرسول ﷺ بسلامة المؤمن قبل أن يأوى إلى فراشه ، وفى هذا الصدد كان الرسول ينصح من يأوى إلى فراشه بالقيام ببعض الحركات التى تضمن سلامته : من نفض للفراش ، وفحصٍ لمكان نومه ، وما إلى ذلك مما يبعث الشعور بالأمان قبل المنام ، وفى ذلك يروى أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليحلّ داخلة إزاره ، فلينفض بها فراشه فإنه لا يدرى ما خلّف فى فراشه ، وليضطجع على شقه الأيمن وليقل : باسمك وضعت جنبى - وفى رواية : باسمك اللهم - فإن احتَبَسْتَ نفسى فارحمها ، وإن أَرْسَلْتَهَا فاحفظها بما تحفظ به الصالحين** » وفى رواية : عبادك الصالحين . الحديث ١٢١٠ من الأدب المفرد جـ ٢ .

ومن أحاديث الدعاء التى رويت عن رسول الله ﷺ وأوصى بتلاوتها عند كل صباح ومساء بغية المحافظة على النفس والأهل والمال ما رُوِىَ من أن رجلا جاء إلى أبى الدرداء - رضى الله عنه - فقال : يا أبا الدرداء ، قد احترق بيتك . قال : ما احترق ، لم يكن الله - عز وجل - ليفعل ذلك ، بكلمات سمعتهن من رسول الله ﷺ وقد قلتهن اليوم ، ثم قال : انهضوا بنا ، فانتهوا إلى داره وقد احترق ما حولها ولم يصبها شىء ، وهذه هى كلمات رسول الله ﷺ : « **من قال حين يصبح وحين يمسى : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، أَعْلَمُ أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما . اللهم إنى أعوذ بك من شرِّ نفسى ومن شرِّ كل دابة أنت آخذٌ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم » لم يصبه فى نفسه ولا أهله ولا ماله شىء يكرهه**» رواه ابن السنى عن أبى الدرداء فى عمل اليوم والليلة .

ومما يدخل فى هذا النهج من أدعية رسول الله ﷺ ما كان يقوله عند الشروع فى السفر ، فقد كان ﷺ إذا استوى على بعيره خارجاً للسفر ، كبَّر ثلاثا ثم قال : «**سبحان الذى سَخَّر لنا هذا وما كنا له مُقْرِنِينَ ، وإنَّا إلى ربنا لمنقلبون ، اللهم إنَّا نسألك فى سفرنا البرَّ والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هَوِّنْ علينا سفرنا هذا ، وَاطْوِ عنا بُعْدَهُ . اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل ، اللهم إنَّا نعوذ بك من وَعْثَاءِ السفر ، وَكَآبَةِ المنظر ، وسوء المُنْقَلَبِ فى المال والأهل** »

فإذا رجع ﷺ قالها وزادَ : « **آيبون تائبون ، ولربنا حامدون** » رواه مسلم عن عبدالله ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ .

لنعد مرة أخرى إلى أدعية رسول الله ﷺ التى كان يدعو الله بها فى الصَّباح والمساء وعند الاستيقاظ وساعة الذهاب إلى الفراش .

روى حذيفة بن اليمان وأبوذر الغفارى ـ رضى الله عنهما ـ قالا :

كان رسول الله ﷺ إذا آوى إلى فراشه قال : باسمك اللهم أحيا وأموت . وإذا استيقظ قال : الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور » رياض الصالحين ص : ٤٦٧ .

وعن عائشة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من النوم قال :

« **لا إله إلا أنت سبحانك اللهم ، أستغفرك لذنبى ، وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علما ، ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى ، وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب** » .

ويشجع الرسول ﷺ المؤمنين على الحمد والتسبيح خاصة إذا انتبه المرء من نومه ، فيروى أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما من رجل ينتبه من نومه فيقول : الحمد لله الذى خلق النوم واليقظة ، الحمد لله الذى بعثنى سالما سويا ، أشهد أن الله يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير ، إلا قال الله تعالى : صدق عبدى** » .

ابن السنّى فى عمل اليوم والليلة : باب ما يقول إذا استيقظ من منامه ١ / ٥ رقم ٩ .

فهل هناك شىء أعظم من أن يسبح المرء خالقه ويحمده فيؤمِّن الله ـ سبحانه ـ على تحميده قائلا : صدق عبدى ؟!

إن الرسول ﷺ يأخذ بأيدى المؤمنين فيوجههم إلى الذكر الذى يقربهم من رب العزة ، فيعيشون فى نور الإيمان ، ويقضون تحت مغفرة الرحمن .

أدعية التعبد والتهجد والتسبيح والابتهال :

المؤمنون من الخلق يعرفون قدر الخالق ـ سبحانه ـ ويعترفون بنعمه وآلائه عليهم ،

والنبيون أكثر معرفة بالخالق الأعظم ، وأقرب صلة به ـ عز وجل ـ وأعظم اعترافا بنعمه عليهم وعلى الخلق ، وأوفر عرفانا بآلائه ـ سبحانه وتعالى ـ ولذلك فهم جميعا ـ النبيون والمؤمنون ـ يتجهون بقلوبهم إلى الذات العلية حامدين شاكرين متعبدين ، متهجّدين مسبحين مبتهلين ما استطاعوا ، وما وسعتهم القدرة ليلا أو نهارا .

ومحمد ﷺ هو سيد الخلق جميعا ، وإمام النبيين ، ورسول رب العالمين ، اجتباه ربه بالفضل ، وسمو القدر ، واصطفاه برفعة الذكر ، وخصه بالرسالة الخاتمة ، فكان لذلك خاتم النبيين وإمام المرسلين ، فمحمد ﷺ بهذه الصفات وتلك الميزات هو أقرب الخلق إلى رب العالمين . وأعلمهم بفضله . وأخلقهم بشكره ، وأشدهم عرفانا بإنعامه ، وهو ﷺ أفصح الناس لسانا ، وأبلغهم بيانا ، وأوضحهم تبيانا ، ومن ثم فاضت صيغ التعبد والتهجد من قلبه العظيم شعاع نور على قلوب المؤمنين ، وتدفقت أحاديث الابتهال والتسبيح من بيانه العظيم قبس هداية يعم جمهرة المسلمين .

إن الرسول ﷺ يعلمنا ـ قاصدا ـ سبل الفناء فى العبودية لله بصيغ القول المبارك ، والتوجيه المنير كيف نناجى مولانا بأدب القول ، وذلة الابتهال ، وكيف نخاطب خالقنا بخشوع التعبد وشفافية التهجد .

يعلمنا الرسول ﷺ فضل الطهر والتحميد والتسبيح فى حديث أبى مالك الأشعرى :

عن أبى مالك الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « **الطُّهُور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السموات والأرض** » . صحيح مسلم (كتاب الطهارة) باب فضل الوضوء

وبأرق لسان وأنصع بيان يعلمنا رسول الله ﷺ فضل التسبيح والتحميد ، ويحببهما إلى قلوب المؤمنين ؛ لتربو حسناتهم وتثقل عند الحساب موازينهم :

عن أبى هريرة : قال رسول الله ﷺ : « **كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم** » .

صحيح البخارى (كتاب الدعوات) باب فضل التسبيح ٨ / ١٠٧ .

ويرسّخ رسول الله ﷺ أعماق الإيمان فى القلوب ، ويثبت جذور الإسلام فى النفوس ، ويؤكد الشهادة بنبوته فى الأفئدة بتشجيع المسلمين على ترديد حديث ثوبان ما وسعهم الترديد :

عن ثوبان ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « **من قال حين يمسى : رضيت بالله ربًّا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ، كان حقا على الله تعالى أن يرضيه** » أخرجه النسائى والترمذى

وفى رواية أبى داود وغيره : « **وبمحمد رسولا** » .

ولقد روى هذا الحديث كشطر من حديث أطول عند سماع الأذان ، رواه سعد بن أبى وقاص ، أن النبى ﷺ قال : « **من قال حين يسمع النداء : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، رضيت بالله ربا ، وبمحمد رسولا، وبالإسلام دينا ، غفر له ما تقدم من ذنبه** » أخرجه مسلم .

والرسول ﷺ يعمد ـ لطفا منه وأدبا وحسن توجيه ـ المرة بعد المرة إلى تكريم أمهات المؤمنين بجعلهن مصدرا للتبليغ ، ووسيلة للهداية ، لا فى أحكام الشرع وحده، ولكن فى أدب التعبّد ، ومنهاج التسبيح ، بالدعاء الموجز فى عدد كلماته ، الوفير فى جنى ثمراته .

عن جويرية أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ أن النبى ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهى فى مسجدها ، ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة فيه ، فقال : « **ما زِلْتِ اليوم على الحالة التى فارقتك عليها ؟ قالت : نعم ، فقال النبى ﷺ : لقد قلتُ بعدكِ أربع كلمات ـ ثلاث مرات ـ لو وُزِنَتْ بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته** »

صحيح مسلم (**كتاب الذكر والدعاء**) : باب التسبيح أول النهار وعند النوم .

وفى ساحة الرضا والمغفرة يردد رسول الله ﷺ صيغ التوحيد والعبودية والتمجيد والاعتراف بالذنب ، وطلب الغفران ، التى يستعصى عمق صياغتها ، ونصاعة

كلماتها، وصدق بيانها ، على أيٍّ من البشر إلا على محمد ﷺ وجلال ما صدر عنه ﷺ من صدق القول وشريف الدعاء ، يسميه سيد الاستغفار :

قال رسول الله ﷺ : « **سيد الاستغفار : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أبوء لك بنعمتك ، وأبوء لك بذنبى ، فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، أعوذ بك من شر ما صنعت » إذا قال حين يمسى فمات دخل الجنة ـ أو كان من أهل الجنة ـ وإذا قال حين يصبح فمات من يومه . . . مثله** » الحديث ٦١٧ من الأدب المفرد ، ج ٢ .

ويورد البخارى « سيد الاستغفار » فى صحيحه مرويًّا عن الصحابى شداد بن أوس ـ رضى الله عنه ـ باختلاف بسيط هو تقديم جملة « **أعوذ بك من شر ما صنعت** » وجعلها تالية لجملة « **وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت** » . صحيح البخارى (كتاب **الدعوات**) باب أفضل الاستغفار .

ومعنى (**أبوء**) فى موضعها من الحديث هو : أعترف وأقر . وأصل البوء : اللزوم ، وبوأه الله منزلا ، أى : أسكنه .

وإن واحداً من أجلّ الأدعية وأنقى الابتهالات التى صاغتهابلاغة أفصح الفصحاء ﷺ قد صدرت عنه إلى الحسن السبط ، حين طلب إليه أن يعلمه كلمات يقولها فى الوتر، فكان أن سكب الرسول ﷺ فى سمعه دعاء الهداية ، وما دامت هذه هى الصفة التى أسبغها رسول الله على هذا الدعاء ، فمعنى ذلك أنه لا يصدر إلا عن القانتين ، ولا يكون المسلم قانتا حتى يكون داعياً حامداً ومبتهلاً ممجِّدًا ، ولقد سبق ورود دعاء الهداية هذا والدعاء الذى يليه فى مناسبة سابقة .

عن الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ قال : علّمَنى رسول الله ﷺ كلمات أقولهن فى الوتر : « **اللهم اهدنى فيمن هَدَيْت ، وعافنى فيمن عَافَيْت ، وتولَّنى فمن تولَّيْت ، وبارك لى فيما أعطيت ، وقنى شر ما قضيت ، فإنك تَقْضِى ولا يُقْضَى عليك ، وإنه لا يَذِلُّ من واليت ، ولا يعزّ من عاديت ، تباركْتَ ربنا وتعاليت** » .

أبو داود ، والنسائى ، والترمذى ، وابن ماجه .

ويستحب أن يقول عقيب هذا الدعاء : اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آل محمد وسلم .

ومن صيغ الابتهال الفريدة ، وصور التذلل المنيبة ، وأساليب التمجيد المجيدة ، ما كان يقوله رسول الله ﷺ فى سجود القرآن ، وهو ما يعرف بسجود التّلاوة :

عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قال : كان رسول الله ﷺ يقول فى سجود القرآن : **«سجد وجهى للذى خلقه وصوَّره ، وشقّ سمعه وبصره بحوله وقوته ، فتبارك الله أحسن الخالقين »** .

ولرسول الله ﷺ الدعاء الذى رواه عبدالله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وهو ما عرف بدعاء التهجد ، إنه يناجى الخالق الأعظم بآدب كلام يناجى به العبد ربه ، وبأصدق استغفار يطلبه المستغفر من سيده ، وبأخلص ابتهال يصدر عن مؤمن يبتهل به إلى الخالق الأعظم ، لقد جمع رسول الله ﷺ صيغة تهجده تلك كل أعماق العبودية والاستغفار ، وكل أبعاد المناجاة والابتهال ، فى سياق من فيوض الإيمان بكل ماتتطلبه عناصر الإيمان فى جملته وتفصيله :

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ﷺ كان إذا قام من الليل يتهجد قال :

« اللهم لك الحمد ، أنت قيِّم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، لك ملك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، ومحمد حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت» وفى رواية **« ولا حول ولا قوة إلا بالله »** أخرجه البخارى ومسلم ، كما جاء فى الأدب المفرد جـ ٢ الحديث ٦٩٧

معنى (بك خاصمت) يعنى : بما أعطيتنى من البرهان .

معنى (إليك حاكمت) يعنى : جعلتك الحاكم ، وفوضت الحكم إليك .

ولقد تعرض النبيون والرسل للكيد والأذى والعذاب فى سبيل تبليغ كلمات الله ورسالاته ، من لدن إبراهيم أبى الأنبياء حتى محمد سيد الخلق وخاتم الرسل .

وتعرض رسول الله ﷺ للكثير من صنوف الأذى الذى كان يلقاه من قومه ، وقد اشتد الأذى والجحود عليه ﷺ فى سلسلة من الحلقات المتلاحقة ، وبلغ ذلك ذروته بعد عام الحزن الذى فقد فيه ناصريه الكبيرين : عمه أبا طالب وزوجه الجليلة أم المؤمنين خديجة الكبرى .

هنا قرر رسول الله ﷺ أن يرتحل إلى الطائف ينشد العون والتصديق به من بنى ثقيف ، وتوجه إلى ثلاثة نفر إخوة ، هم : عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب ، أبناء عمرو بن عمير ، وكلمهم فى عقيدة التوحيد ، فقابلوا الدعوة إلى الله بالسخرية والصد ، وزادوا على ذلك بأن أغروا به ﷺ سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويطاردونه ، حتى لجأ إلى الحائط ، ثم عمد إلى ظل شجرة عنب وقد تجمعت المتاعب فى جسمه الشريف وضاقت به الدنيا إلا من رحمة ربه الكريم ، فكانت مناجاته لخالقه هى أكبر مخرج له من الهم الذى حل به ، وأعظم سلوى من الأذى الذى وقع عليه ، فاتجه بكل نبضة فى قلبه الشريف إلى ربه العظيم شاكيا مناجيا متذللا مبتهلا طالبا الرضى والعون فى بكاء أو ما يشبه البكاء ، بأبلغ صيغة دعاء صدرت عن بشر فى مثل هذا الموقف :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدوّ ملّكته أمرى ؟ ! إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحلّ علىّ سخطك ، لك العُتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك»

ما أن ينتهى الرسول الحبيب من دعائه وابتهاله حتى يرقّ لحاله عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وكانا يتابعان من بعيد ما وقع على رسول الله ﷺ من أذى ، فأرسلا إليه غلاما لهما اسمه (عدّاس) يحمل قطفاً من العنب وضعه فى طبق وحمله إلى رسول الله ، وبعد حوار قصير جرى بينهما آمن عداس بنبوة محمد ، فكانت بمثابة ترضية سريعة من الخالق نزلت على قلبه بردا وسلاما .





الفصل الثانى

الأحاديث القدسيّة



الأحاديث القدسية

التعريف بها :

الأحاديث القدسية فى حقيقة جوهرها توجيهات إلهية ، وأحكام صمدانية ، وبُشْرَيَاتٌ ربانية ، وإنعامات رحمانية ، وإنذارات سماوية ، وفيوضات قدسية موحًى بها من لدن الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ إلى نبيه وخير خلقه محمد ﷺ بمعانيها وليس بألفاظها ، عبر عنها سيدنا رسول الله ﷺ ببيانه المفرد بين ألوان بيان البشر ، وبلاغته السامية التى لم يبلغ شأوها ناطق بالعربية قبله ولن يبلغها أحد بعده ؛ ولذلك فإن مقام أحاديث رسول الله ﷺ من حيث إعجازها البيانى ورقيها البنيانى يجىء فى الترتيب بعد كلام المولى ـ سبحانه وتعالى .

ولقد وصف أخونا وصديقنا الدكتور عز الدين إبراهيم أسلوب الحديث القدسى بأنه علوى الطابع ، روحى الصبغة ، عميق الإثارة [١].

ومثلما شغلتنا الأحاديث القدسية من حيث تعريفها ومضامينها وغاياتها ، فقد شغلت كثيرين غيرنا من شيوخنا رجال السلف الصالح وخدام حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحفاظه .

إن الشريف على بن محمد الجرجانى يعرف الحديث القدسى بقوله : « الحديث القدسى هو من حيث المعنى من عند الله تعالى ، ومن حيث اللفظ من رسول الله ﷺ فهو ما أخبر الله تعالى به نبيه بإلهام أو بالمنام ، فأخبر ـ عليه السلام ـ عن ذلك بعبارة نفسه ، فالقرآن مفضل عليه ؛ لأن لفظه منزل أيضا » [٢].

---

(١) مقدمة « الأربعون القدسية » ص : ٣٤

(٢) التعريفات ص : ٤٥ ط تونس ١٩٧١

ويتفق رجال الحديث على أن الحديث القدسى هو الذى الذى يكون لفظه من عند رسول الله ﷺ وأما المعنى فمن عند الله ـ تبارك وتعالى ـ يقول الملا على بن محمد القارى الحنفى : إنه ما « يرويه صدر الرواة ، وبدر الثقات ـ عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات ـ عن الله ـ تبارك وتعالى ـ تارة بواسطة جبريل ـ عليه السلام ـ وتارة بالوحى والإلهام والمنام ، مفوّضاً إليه التعبير بأى عبارة شاء من أنواع الكلام » ثم يستطرد الملا القارى فى مزيد من الإبانة قائلا : « وهى تغاير القرآن الحميد ، والفرقان المجيد ، بأن نزوله لا يكون إلا بواسطة الروح الأمين ، ويكون مقيدا باللفظ المنزل من اللوح المحفوظ على وجه التعيين ، ثم يكون نقله متواترا قطعيا فى كل طبقة وعصر وحين » (١).

إن نسبة هذه الأحاديث إلى القُدس إنما هى لإضافة معناها إلى الله وحده ، ومن ثم سمى هذا النوع من الحديث بالقدسى ، والإلهى ، والربانى .

وعلى الرغم من أن الأحاديث القدسية منزلة من الخالق ـ جل وعلا ـ بواسطة جبريل أو الوحى أو الإلهام أو المنام من حيث معانيها وليس ألفاظها ، فإن بينها وبين القرآن فروقا كثيرة ، منها : أنه لا تصح الصلاة بها ، ومنها عدم حرمة لمسها وقراءتها للجنب والحائض والنفساء ، ومنها عدم تعلق الإعجاز بها ، ومنها عدم كفر جاحدها .

ولرواية الحديث القدسى صيغتان : الأولى هى : « قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيما يرويه عن ربه » . والثانية هى : « قال الله تعالى فيما رواه عنه رسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم »

موضوعات الأحاديث القدسية :

للأحاديث القدسية خصوصيتها من حيث كونها موحى بها من رب العزة ـ سبحانه وتعالى ـ وهى فى ذلك تتباين عن الأحاديث النبوية الأخرى التى هى ترجمة لرسالة السماء بعد القرآن الكريم ، فإن الأحاديث النبوية غير القدسية على الرغم من كونها غير موحى بها إلا أنها منبعثة من لدن الرسول البشر الإنسان الذى أعده الله لحمل رسالته وتبليغها

---

(١) الأحاديث القدسية الأربعينية ، ص : ٢

فى نطاق العصمة التى خصه بها دون سائر البشر ، واختاره واصطفاه ، ثم أدبه الأدب الربانى الذى أَهَّلَهُ به لأن يكون رسولا ومعلما وهاديا وبشيرا ونذيرا ، ومن ثم وصفه المولى فى محكم كتابه بقوله ـ جل جلاله ـ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ثم عبَّر الصادق المصدوق عن هذه المنّة الربانية العظمى بقوله ﷺ : « **أدبنى ربى فأحسن تأديبى** » ، فالرسول ﷺ معصوم فى كل لفظ تلفظ به ، ربانى فى كل منطق نطق به ، فما أسمى ماتلفظ به ، وما أرفع ما نطق به ، فكل ذلك جرى من منطلق كونه رسولا إلى الناس كافة ، اختاره الله لهذه الرسالة وأعده لتبليغها ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

ذلك توضيح رأينا إثباته على الرغم من كونه مفهوما بداهة عند المشتغلين بعلوم حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

وحتى يستطيع المرء التعرف على الأحاديث القدسية حق المعرفة فإنّ عليه أن يستقصى مصادرها فى كتب الحديث ، وأن يغمس نفسه فى بركتها ، وأن يغمر ذاته فى فيوضها ، متفرغا لذلك كل التفرغ ، فإن فعل ذلك محتسبا لله خاشعا لمولاه مسترشدا بنور رسول الله مستعينا بتوجيه علماء الحديث ورجاله ، إنه إن فعل ذلك ، فإن آفاقا من النور تتسع أمام بصيرته ، ثم لا تلبث أن تحتويه جسدا وروحا وعقلا وقلبا وبصرا وسمعا ، حينئذ يستطيع أن يترجم عن بعض موضوعات الأحاديث القدسية لكى يقدمها للقارىء المنتفع ، والطالب المستزيد .

ولعل موضوعات الأحاديث القدسية التى أمكن تسجيلها تشمل القضايا التالية :

- التوحيد وتنزيه الخالق عن الولد والشريك .
- التوحيد والتكبير والحمد والتمجيد والخشية والمغفرة .
- فظاعة الشرك ، وتقبيح الرياء ، والعمل لغير الله فى نطاق البطولة والعلم والجود .
- فضل العبادات وثوابها كالصلاة والصيام والإنفاق .

- فضل ذكر الله وصيغ التسبيح .
- التوبة ، ومضاعفة الحسنات ، وغفران السيئات ، ورحمة الله الواسعة ، وما أعّد ـ سبحانه ـ للصالحين ما لم يشرك به .
- الجهاد والشهادة فى سبيل الله .
- الصبر على المكاره من فقد للأبناء والأقربين ، والمرض والعسر والاضطهاد .
- الظلم وتحريمه ، والرياء والسمعة .
- الأخوة والتحاب فى الله ومكارم الأخلاق .
- أحاديث الشفاعة : شفاعة محمد ﷺ وورود الحوض .
- الحشر والنشور والموقف والحساب والصراط .
- وصف الجنة والنار ، وأهلها ، وما حفّتا به .

تلك هى أكثر موضوعات الأحاديث القدسية ، وهى ـ كما هو واضح من أغراضها ـ ذات خصوصية متميزة ؛ لأن المولى ـ سبحانه ـ جعلها معبرا بين كتابه الكريم وبين حديث رسوله الصادق الأمين ، خاطب بها عباده ، وأجرى معانيها على لسان سيد الخلق الذى لاينطق عن الهوى ، وخصوصيات هذه الأحاديث القدسية أنها على الأغلب مستهدفة صلة العبد بربه فى نطاق أساسيات الإسلام وأهدافه الكبرى التى ذروتها التوحيد وتنزيهه ـ تعالى ـ عن أن يكون له ولد أو شريك ، مع التأكيد على حتمية البعث والنشور ، ثم تتواكب موضوعات الأحاديث القدسية على النحو الذى أوردناه فى السطور الماضية .

وها نحن نورد نماذج من هذه الأحاديث على سبيل التمثيل لا الحصر ، وارتباطها بالموضوعات سالفة الذكر .

الوحدانية والبعث :

عن الأعرج عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : «**قال الله تعالى : كذّبنى ابن آدم**

ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته . وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولدا ، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوًا أحد » [1].

يقول شيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى : تنزيه الخالق عن أن يولد أو يلد ؛ لأن الولد والوالد لا يكونان إلا من جسمين ، وهما من الأغيار ، والأغيار نقص يتنزه الله ـ تعالى ـ عنه ، وهذا الشرح للحديث يعد من أبلغ الشروح وضوحا وإقناعا .

والصمد : هو المصمود إليه ، أى : المقصود من كل الخلق ، وقيل : الصمد : الحى القيوم الذى لا زوال له ، وقيل : الصمد : نور يتلألأ .

التوحيد والتكبير والحمد والغفران :

التوحيد هنا هو توحيد العباد لخالقهم وتهليلهم ، والحمد فى نطاق العبادة الحقة ، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ يقول : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ والعبد من صفاته الخطأ ، ولكن رحمته ـ سبحانه ـ تتسع للمغفرة والصفح إذا كان الاستغفار من طبيعة العبد ، بل إن رحمته ـ سبحانه ـ تغمر جليس المستغفرين إذا كان من الخطائين .

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال :

« إن لله ـ تبارك وتعالى ـ ملائكة سيارة فُضُلاً ، يبتغون مجالس الذكر ، فإذا وجدوا مجلسا فيه ذِكْرٌ قعدوا معهم ، وحفَّ بعضهم بعضا بأجنحتهم حتى يملأوا مابينهم وبين السماء الدنيا ، فإذا انصرفوا عرجوا وصعدوا إلى السماء ، قال ـ أى : الرسول ﷺ : فيسألهم الله ـ عز وجل ، وهو أعلم بهم ـ : من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عباد لك فى الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك ، قال : وما يسألونى ؟ قالوا : يسألونك جنتك . قال : وهل رأوا جنتى ؟ قالوا : لا أى

---

(١) الحديث رقم ١٩ : مجموعة الأحاديث القدسية ، قام بتحقيقها جماعة من العلماء ، نشرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

رب ، قال : فكيف لو رأوا جنتى ؟ قالوا : ويستجيرونك ، قال : وممّ يستجيروننى ؟ قالوا : من نارك يارب ، قال : هل رأوا نارى ؟ قالوا : لا ، قال : فكيف لو رأوا نارى؟ قالوا : ويستغفرونك ، قال : يقول : قد غفرت لهم ، وأعطيتهم ما سألوا ، وأجرتهم مما استجاروا ، قال ـ أى : الرسول ـ : يقولون : ربِّ فيهم فلان ، عبدٌ خطّاء ، وإنما مَرَّ فجلس معهم ، قال : فيقول : وله غفرت ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » .
رواه البخارى ومسلم والترمذى

عمل الخير لغير الله ابتغاء المراءاة :

إن من أشد مايكرهه الله ـ سبحانه وتعالى ـ من العبد اقتراف المعاصى ، والمعاصى متعددة الأشكال متنوعة الألوان ، وتأتى فى مقدمة هذه المعاصى وعلى رأسها ، عمل الخير ولكن ليس لوجه الله ، وإنما للتفاخر والمراءاة ، كأن يخوض العبد معارك الحرب ليس ابتغاء رفع راية الإسلام ، ولكن لكى يقال إنه شجاع جسور ، أو أن يتعلم العلم لا لينفع به الناس ، وإنما لكى يقال عنه إنه عالم ، أو أن ينفق المال ليس امتثالا لفضيلة الإنفاق فى سبيل الله ، ولكن لكى يقال عنه جواد . هذه صفات يمقتها الله ـ سبحانه ـ من عبده أشد المقت ؛ ولذلك فإن الحديث القدسى يحذِّر من التورط فيها أشد التحذير ، وينذر المنغمس فى أدرانها بأشد العقاب .

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن أول الناس يُقْضَى يوم القيامة عليه رجلٌ اسْتُشْهِدِ ، فأُتِىَ به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عمِلْت فيها ؟ قال : قاتلْتُ فيك حتى اسْتُشْهِدْت ، قال : كذبتَ ، ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء ، فقد قيل ، ثم أُمِر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل تعلم العلم وعلّمه ، وقرأ القرآن ، فأُتِى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلَّمتُه ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم لكى يقال : عالم ، وقرأت القرآن لكى يقال : هو قارىء ، فقد قيل ، ثم أُمِر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل وسّع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به ، فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما

تركتُ من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار»[1].

فى فضل فريضتى الصلاة والصيام :

الصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين ، هكذا عُلِّمْناَ صغاراً مكانة الصلاة وفضلها ، وهكذا أيضا يعلّم أبناء المسلمين صغارا فضل الصلاة ومكانتها ، والتركيز على فضل الصلاة من القضايا الظاهرة فى كتاب الله وفى سنة رسول الله ، ولقد وهبها الله مكانة خاصة أيضا فى الأحاديث القدسية ؛ لأن الصلاة هى إظهار لعبودية المخلوق تجاه خالقه من حمد وتسبيح وتوحيد ودعاء وخضوع وسجود خمس مرات مفروضة غير التطوع قبل الفروض وبعدها فى صلاة السنن ، فضلا عن تطوع الضحى والتهجد وقيام رمضان ، وصلاة الكسوف والخسوف والاستسقاء والجنازات وغيرها ، ومن هنا كان فضل الصلاة ومكانتها وترتيبها المتقدمَ بين العبادات المفروضة ؛ ولذلك فإن بعض الأئمة قد أفتى بكفر تارك الصلاة ، مجرد الترك وليس الإنكار ، فمنكر الصلاة كافر كفرا صريحاً ؛ لأنه أنكر ركنا من أركان العقيدة ، ويتبدى خطر فريضة الصلاة فى وفرة ثوابها ، وفى كونها أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة ، فإن كان من المحافظين عليها المواظبين على أدائها أفلح ونجا .

ومثلما منحت الإرادة الإلهية الصلاة من عناية ، فإن فريضة الصيام قد لقيت بدورها قدرا من العناية الربانية فى الأحاديث القدسية ، ذلك أن كلا من الصلاة والصيام تمثلان صلة مباشرة بين العبد وربه ، وربما كان للصيام خصوصية متميزة ؛ لأنه فى حالة الصلاة قد يصلى المرء مراءاة للتظاهر بالتقوى ، وأما فى أداء فريضة الصيام فليس ثمت مكان للمراءاة ، فالصيام هو الصيام ، وهو امتناع ـ دون رقيب ـ عن المطعم والمشرب والشهوة والمأثم ، امتثالا لأمر الله واحتسابا للمغفرة والثواب .

---

(١) الحديث السادس : مجموعة « الأربعون القدسية » جمعها الدكتور عز الدين إبراهيم ، والأستاذ دينيس ديفز ، والحديث رقم ٢٩٥ من مجموعة الأحاديث القدسية للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، والحديث أخرجه مسلم فى صحيحه فى (الجهاد) باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار .

عن فريضة الصلاة يُرْوَى هذان الحديثان القدسيان كمثال لفضلها ومكانتها وتقدمها على سائر العبادات ، هذا فضلا عن أحاديث أخرى كثيرة أوردتها كتب السنن.

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ، فإن صَلَحَتْ فقد أفْلَحَ وَأَنْجَح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر ، فإن انْتَقَص من فريضته شىءٌ قال الرب ـ عز وجل ـ : انظروا هل لعبدى من تطوع فَيُكَمَّلُ بها ما انْتَقَصَ من الفريضة ؟ ثم يكون سائر عمله على ذلك »[1].

وعن عقبة بن عامر ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« يعجب ربك من راعى غنم فى رأس شَظِيَّة الجبل يُؤَذِّنُ بالصلاة ويصلى ، فيقول الله ـ عز وجل ـ : انظروا إلى عبدى هذا ، يؤذن ويقيم الصلاة ، يخاف منى ، قد غفرت لعبدى وأدخلته الجنة »[2].

ومن الأحاديث القدسية فى فضل الصوم وثوابه العظيم يروى هذا الحديث :

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال :

« يقول الله ـ عز وجل ـ : الصوم لى ، وأنا أَجْزِى به ، يدع شهوته وأكله وشربه من أجلى ، والصوم جُنَّةٌ ، وللصائم فرحتان : فرحة حين يفطر ، وفرحة حين يلقى ربه ، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك »[3].

حب الله لعباده ورحمته بهم ، وغفرانه لهم مالم يشركوا به :

من أسماء الله الحسنى : الغفار ، ومن أسمائه الحسنى أيضا : الرحمن الرحيم ،

---

(١) أخرجه النسائى فى باب (المحاسبة على الصلاة) ورواه أبو داود ، وابن ماجه ، وأحمد، ورواه الترمذى الحديث رقم ٤١٣ جـ٢ / ٢٧١ تحقيق أحمد محمد شاكر .

(٢) رواه النسائى بسنده . وشظيّة الجبل : هى الصخرة العظيمة ، أو فلقة منه .

(٣) رواه البخارى ومسلم ومالك والترمذى والنسائى وابن ماجه .

وهى أسماء تفرَّد المولى ـ سبحانه ـ بها ، فلا تطلق إلا على ذاته العلية ، وهى فى اللغة تعدُّ من صيغ المبالغة ، ومن ثم كانت مغفرته لعباده ورحمته بهم غير محدودة بحدود ، أو مشروطة بشروط ، إلا أن يشرك به ، فإذا مابرىء العبد من الشرك بالله كان موقعه تحت مظلة رحمة الرحمن الرحيم ، ومغفرة الغفار ، إذا ندم العبد على آثامه وتاب إلى الله توبة صادقة مما اقترفه من ذنوب ، أو اجترح من سيئات ، قال الله ذلك فى قرآنه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ وقال أيضا : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ والسنة النبوية الشريفة مترعة بأحاديث الرحمة والمغفرة ، وهاهى الأحاديث القدسية تبشر المذنبين من المؤمنين الذين لم يشركوا بربهم أحدا بالعفو والمغفرة فى أوسع آفاقهما مالم يشركوا بربهم أحدا .

عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **قال الله : يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرتُ لك على ما كان فيك ولا أبالى ، ياابن آدم لو بلغت ذنوبك عَنَانَ السماء ثم استغفرتنى غفرت لك . ولا أبالى إنك لو أتيتنى بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتنى ـ وفى رواية أتيتنى ـ لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة** »(١).

وفى ستر الله عباده فى الدنيا وغفرانه سيئاتهم يوم الحساب ـ ماعدا الكفار ـ يروى ابن عمر هذا الحديث على النحو التالى :

بينا ابن عمر يطوف إذ عرض له رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن ـ أو قال : يا ابن عمر ـ هل سمعت النبى ﷺ فى النجوى ؟ فقال : سمعت النبى ﷺ يقول : « **يُدْنَى المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه ، فيقرره بذنوبه ، تعرف ذنب كذا ؟ يقول :**

---

(١) الأربعون النووية ، رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح .

معانى الألفاظ : عنان السماء ـ بفتح العين ـ : هو السحاب ، واحدتها : عنانة ، وقيل العنان : ما عنّ لك . قراب الأرض ـ بضم القاف ويصحّ كسرها ـ معناها : مايقارب ملئها .

أعرف ، يقول : رب أعرف ـ مرتين ـ فيقول : سترتها فى الدنيا وأغفرها لك اليوم ، ثم تطوى صحيفة حسناته ، وأما الآخرون ـ أى : الكفار ـ فينادى على رءوس الأشهاد : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١) .

ولا تقف مشيئة الرحمن عند مغفرة الذنوب وحدها ، ولكن كرمه الواسع يشمل عبيده المحسنين ، فيجزى الحسنة بعشر أمثالها ، ولا يجزى السيئة إلا بمثلها ، ويزيد فضله ـ سبحانه ـ فمن همَّ بحسنة ولم يفعلها كتبت له حسنة ، ومن هم بسيئه ولم يفعلها لم تكتب عليه ، وهو ـ سبحانه ـ بعد ذلك كله يبسط رحمته على عباده فيغفر لهم ولو جاءوا بقراب الأرض خطيئة مالم يشركوا به شيئا :

عن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **«يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد ، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها أو أغفر ، ومن تقرّب منى شبرا تقربت إليه ذراعا ، ومن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة ، ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة ثم لا يشرك بى شيئا لقيته بمثلها مغفرة »** (٢).

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله ـ عز وجل ، وقوله الحق ـ : إذا همّ عبدى بحسنة فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها ، وإذا همّ بسيئة فلا تكتبوها ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، فإن تركها ـ وربما قال : ولم يعمل بها ـ فاكتبوها له حسنة ، ثم قرأ ـ أى : رسول الله ـ ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ ﴾ (٣).

---

(١) الحديث رقم ٣٥٣ من الأحاديث القدسية ، طباعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . أخرجه البخارى فى كتاب التفسير من سورة هود ، وأخرجه مسلم فى التوبة ، وأخرجه النسائى فى التفسير والرقائق ، وأخرجه ابن ماجه فى السنة .

(٢) الحديث رقم ٤٤ من « الأحاديث القدسية » إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وانظر أيضا الحديث رقم ٧٢ .

(٣) الحديث ٤٣ المصدر السابق . ويقول الترمذى : حديث حسن صحيح .

فضل الشهادة والجهاد فى سبيل الله :

إن مرتبة الشهادة فى سبيل الله رفيعة الدرجة ، سامية المكانة ، فمقام الشهداء يأتى بعد النبيين والصديقين ، وهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وذلك مصداق للكتاب العزيز فى قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

ثم تجىء الأحاديث القدسية فتزيد فضل الشهادة تفصيلا، ومقام الجهاد فى سبيل الله تفضيلا ، وهى ـ بحمد الله وفضله ـ كثيرة ، نسوق منها الحديث التالى على سبيل التمثيل :

عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « **يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول الله عز وجل : [يا ابن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى ربِّ ، خير منزل . فيقول : سل وتمنّ ، فيقول : أسائل أن تردّنى إلى الدنيا فأقتل فى سبيلك عشر مرات] ؛ لما يرى من فضل الشهادة** »(٢).

تحريم الظُّلم :

الظلم جريمة من أبشع الجرائم ؛ لأنها عمل شرير مدمر : مدمر للدول والشعوب والأفراد والنفوس ، وقد أدان القرآن الكريم الظلم والظالمين ، وما حل الظلم فى دولة

---

(١) آل عمران ، الآيات ١٦٩ ـ ١٧١ .

(٢) الحديث ١٨٨ من مجموعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

إلا خربها ، وما وقع على إنسان إلا كان أجره على الله ، ولم يعرف التاريخ ظالما واحدا أفلح مسعاه أو نال ما تمناه ، بل العكس هو الصحيح ، وجميع الظالمين من حكام وأفراد كانت نهاياتهم بشعة ، وذكراهم دنسة ، وقد صدق رسول الله ﷺ حين أدان الظلم بأبلغ وصف نطق به بشر حين قال : « **الظلم ظلمات** » .

إن الله سبحانه ـ في الحديث القدسي ـ يخاطب عباده محذراً إياهم من الظلم ، فيبين ضعفهم وقلة حيلتهم ، ويحيطهم علما بعظمة ملكه وجلال شأنه ، وهو ـ سبحانه ـ بكمال ذاته وتنزيه صفاته قد حرم الظلم على نفسه كما حرمه على عباده ، فكيف بهم يظلم بعضهم بعضا ، وهم الضعفاء المحتاجون إليه ، وقد هداهم من ضلال ، وأطعمهم من جوع ، وكساهم من عرى ، وغفرلهم خطايا الليل وذنوب النهار؟! .

عن سعيد بن عبد العزيز ، عن ربيعة بن يزيد ، عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر جُنْدُب بن جُنادة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ فيما يروى عن الله ـ تبارك وتعالى ـ أنه قال :

« يَاعِبَادِى إِنّى حَرَّمْتُ الظلْمَ عَلَى نفسِى وَجَعَلْتُهُ مُحَرّماً فَلاَ تَظَالَمُوا ، يَاعبادى كُلّكُمْ ضَال إلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونى أَهْدِكُمْ ، ياعبادى كُلّكُمْ جَائِعٌ إلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِى أُطْعِمْكُمْ ، يَاعبادِى كُلّكُمْ عَارٍ إلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِى أكْسُكُمْ ، يَاعِبَادى إنّكُمْ تُخْطِئونَ باللّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أغفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً فَاسْتَغْفِرُونِى أَغْفِرْلَكُمْ ، يَاعَبادِى إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِىّ فَتَضُرُّونى وَلَنْ تَبْلغُوا نَفْعِى فتنفعونى ، يَاعِبَادى لَوْ أَنَّ أَوّلَكُمْ وَآ خِركُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقى قَلبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُم مَازَادَ ذلِكَ فِى مُلْكِى شَيْئاً ، ياعبادى لَوْ أَنَّ أَوّلَكُمْ وآخركُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَانَقَصَ ذلِكَ مِنْ مُلْكِى شَيْئاً ، يَاعَبادِى لَوْ أَنَّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِى صَعيدٍ وَاحَدٍ فَسَأَلُونِى فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إنسانٍ مَسْأَلَتَهُ مَانَقَص ذلِكَ مِمَّا عِنْدِى إلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَاعِبَادِى إنَّمَا هِىَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيها

لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَن وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ» .

قال سعيد بن عبد العزيز : كان أبو إدريس إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه .

وروى عن الإمام أحمد بن حنبل قوله : ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث (١) .

الأخوة بين المؤمنين والتّحاب فى الله :

الإسلام دين السلام والحب ، والمؤمنون تجمعهم الأخوة فى الله ، وقد قال الله فى محكم كتابه : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ولذلك فلا شحناء بين الإخوة فى الإيمان ، ولا خصومة بينهم ، وقد بشر المولى ـ سبحانه وتعالى ـ المتحابين بالجنة جزاء ، وبالغفران ثوابا ، ولا تفتح أبواب الجنة لمتشاحنين حتى يصطلحا .

عن قتيبة بن سعيد ، عن مالك بن أنس فيما قرىء عليه ، عن سهل ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « **تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً ، إلا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء ، فيقال : أنْظِرُوا هذين حتى يصطلحا ، أنظروا هذين حتى يصطلحا ، أنظروا هذين حتى يصطلحا** » (٢) .

عن معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **قال الله عز وجل : المتحابون فى جلالى لهم منابر (*) من نور ، يغبطهم النبيون والشهداء** » (٣) .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ، باب تحريم الظلم ، والحديث رقم ٢٦٦ من مجموعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) أخرجه مسلم فى باب النهى عن الشحناء .

(٣) أخرجه الترمذى فى باب (الحب فى الله) وانظر الحديث ٢٦٤ مجموعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(*) لهم منابر من نور ، أى : يكون ذلك يوم القيامة فى الحشر والخلق فى غاية الكرب والازدحام والحر الشديد ، قال الله تعالى : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ .

يغبطهم النبيون والشهداء ، يعنى : يتمنون مثل ما حصل لهم ، وهذه المزية لا تقتضى أفضليتهم على النبيين والشهداء ؛ فإن لهم مزايا ومنازل لا تتحقق لغيرهم .

هذا ، ولما كانت أخوّة المؤمنين ظاهرة تفرد بها الإسلام وحدد لها معالم نبيلة من التحاب والتعاطف والتواصل والمودة والتعاون والصفاء ، إلى غير ذلك من العناصر الإنسانية الرفيعة ، فقد ورد فى تأكيد هذه العناصر العديد من الأحاديث القدسية التى تمثلنا ببعضها ، والأحاديث النبوية التى سوف نورد أمثلة منها فى غير هذا الفصل ـ إن شاء الله ـ ولقد ركزت الأحاديث الشريفة من نبوية وقدسية على هذه القيم ، ونعنى بها قيم المحبة والمودة فى نطاق الأخوة ، وفى الوقت نفسه استنكرت البغض والشحناء والتقاطع بين المؤمنين ، وقبحت مسالكها حتى يكون المجتمع الإسلامى متساندا كالجسد الواحد ، وحتى يتحقق فيه وصف الخالق الأعظم لهذه الأمة فى قوله عز وجل : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ .

أهل الجنة :

الجنة هى وعد الله للمؤمنين به ربًّا واحدا لا شريك له، وهى جزاؤه للمتقين الذين يعملون الصالحات ويمتثلون لأوامره ، والذين ينأون بأنفسهم عن فعل الخطايا واقتراف الآثام وعمل الخبائث ، الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وإذا كانت الجنة فى حد ذاتها هى النعيم الأكبر الذى ينتظره المؤمنون ، فإن كرم الله غير المتناهى وفضله الذى لا تحده حدود يعمّ أهل الجنة فيزيدهم نعيما ، ويغمرهم فيزيدهم أمناً على أمنهم وسعادة على سعادتهم بخطابه ـ جل وعلا ـ لهم ، وإفاضته عليهم من رضوانه ، والأحاديث القدسية عديدة فى هذا الموقف الجليل :

حدثنا معاذ بن أسد . . . . . . عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخُدْرِى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ :

«إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، يقولون : لبَّيْكَ رَبَّنَا وسَعْدَيْكَ ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقك ؟ فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك ، قالوا : يارب وأى شىء أفضل من ذلك ؟

فيقول : أُحِلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا»(١).

وروى أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « **قال الله : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فاقرأوا إن شئتم** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ »(٢)

ويقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى محكم كتابه : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ والذين أحسنوا مصيرهم إلى الجنة ، وهى نعم الجزاء ونعم المستقر ، وهى المراد فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ فما هى الزيادة ؟ إن ذلك هو ما يفصح عنه الحديث القدسى الذى رواه صهيب عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

فى الصحيح عن صهيب عن النبى ﷺ (٣).

« **يقول الله : ياأهل الجنة ، إن لكم عندى موعداً أريد أن أنجزكموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم تنضِّرْ وجوهنا وتثقل موازيننا وتدخلنا الجنة وتجرنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه ، وهى الزيادة** » .

الزيادة هى الواردة فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخارى فى (كتاب الرقاق) باب صفة الجنة والنار ، وفى (كتاب التوحيد) باب كلام الرب مع أهل الجنة وأخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب (الجنة ونعيمها وأهلها)

(٢) الحديث رقم ٥٢ من مجموعة « الأحاديث القدسية » إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٣) النبوات ، ص ٦٧ .





البــاب السادس

الــوصــايــا

الفصل الأول : وصايا الرسول للصحابة القواد والموجهين .

الفصـل الثانـى : بعض وصايا الرسول للنساء .

الفصـل الثـالث : وصيتان لرجلين مغمورين .

الفصـل الرابـع : الرسول يوصى بطلاب العلم .

الفصل الخـامس : وصية الرسول بالأنصار .

الفصل السـادس : وصية الرسول للخليفة وللمسلمين ، وموقفهم من حكامهم.





الفصل الأول

وصايا الرسول للصحابة من قواد وموجهين



وصايا رسول الله ﷺ

تمهيد :

الوصايا : ضرب من القول يتسم بالبلاغة فى الصوغ والنصاعة فى التعبير ، يتضمن نصائح غالية وتوجيهات سديدة تصدر عادة عن حكيم صاحب تجربة ، أو عاقل صاحب بصيرة ، ولقد حفلت كتب تراثنا بالكثير من الوصايا الحكيمة والتجارب النفيسة التى صدرت عن حكماء العرب ومفكرى المسلمين .

فإذا كانت هذه الوصايا صادرة عن سيد الخلق وخاتم الأنبياء وأفصح الفصحاء وأحكم الحكماء فإنها بغير شك تحتل الموقع الأسمى والمقام الأرفع بين جميع الوصايا التى صدرت عن البشر .

وإذا كانت وصايا البشر استهدفت الحكمة الدنيوية ، فإن وصايا محمد ﷺ قد تميزت عن قريناتها بأنها تستهدف سعادة الدنيا ونعيم الآخرة ، وذلك من خلال منهج الرسول الخاتم الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ؛ مصداقا لقوله ﷺ: « **أدبنى ربى فأحسن تأديبى** » ومن ثم فإنه يؤدب البشر أفرادا وجماعات من خلال وصاياه الحكيمة التى عزّ مثلها ، واستعصى نظيرها .

إن وصايا رسول الله ﷺ تكون حينا استجابة لطلب صحابى أو واحد من جمهرة المسلمين طلب إليه أن يوجهه بوصية شريفة ، وحينا آخر تصدر لواحدة من أهل بيته أو لصحابية جليلة ، وأحيانا تصدر لتنظيم مجتمع المسلمين ، مثل وصيته بالجار أو بطلاب العلم ، وأحيانا لتزكية قوم رآهم جديرين بالتحية والتكريم . وأحيانا أخرى تصدر وصاياه ﷺ للتنظيم السياسى ، أو لرشاد نظام الحكم ، وغير ذلك من الأغراض التى يراها ﷺ ضرورية لوضع المسلمين فى النهج القويم وعلى المحجة البيضاء .

هذا ، وإن وصاياه ﷺ لجند لمسلمين وهم خارجون للغزاة تمثل دستور الحرب فى الإسلام ؛ لأن الحرب فى الإسلام تأخذ شكل العلاج لحالات المرض ، ومن ثم فهى ليست غدراً ولا غشًّا ؛ لأنها خالية من الغدر ، بريئة من الغلول ، لا قتل فيها لصبى أو شيخ أو امرأة ، ولا حرق فيها لشجر أو نخل أو حصاد .

وصاياه للصحابه من قواد وموجهين

لقد أكرم الرسول ﷺ عددا غير قليل من صحابته الميامين بوصايا أصلحت من شأنهم ، وصارت نهجا التزمه المسلمون فيما بعد ، يستمدون منها أحكام دينهم ، ويسترشدون بهداها فى سيرة دنياهم وآخرتهم .

إن معاذا يقصّ وصية الرسول ﷺ له فيقول :

أوصانى رسول الله ﷺ بعشر كلمات ، قال :

« لا تشرك بالله شيئا وإن قتلت وحرقت ، ولا تعقّن والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك . ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدا ؛ فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله ، ولا تشربن خمرا فإنه رأس كل فاحشة ، وإياك والمعصية فإن بالمعصية حل سخط الله - عز وجل - وإياك والفرار من الزحف ، وإن هلك الناس فاثبت ، وإذا أصاب الناس موتان وأنت فيهم فاثبت ، وأنفق على عيالك من طولك ، ولا ترفع عليهم عصاك ، وأخفهم فى الله » مسند أحمد ٥ / ٢٣٨ .

لقد أوصى رسول الله ﷺ معاذا وصية غالية اشتملت فى واقع الأمر على عشر وصايا ، أطلق معاذ لفظ كلمة على كل وصية .

فالوصية الأولى : ألا يشرك بالله شيئا ولو عذب بالقتل أو الحرق ، والوصية الثانية : ألا يعق والديه مهما كانت الأسباب والملابسات إلا أن يأمراه بالإشراك بالله ، وقد قام الشطر الأول من الوصية بتنبيهه إلى ذلك ، والوصية الثالثة : المواظبة على أداء الصلوات المفروضة ؛ لأن عدم المواظبة عليها مما يباعد بين العبد وربه ، ولقد أوصى الرسول بالمواظبة على الصلاة لأنها الفريضة الأولى ، ولأنها عماد الدين ، ولأن تاركها عامدا متعمدا جزاؤه جهنم .

والوصية الرابعة نهى من معاقرة أم الكبائر ، وقد أطلق عليها رسول الله ﷺ هذه التسمية الدقيقة : رأس كل فاحشة ، وتتواكب وصايا رسول الله ﷺ وتوجيهاته بين أمر يتبعه ، ونهى عما ينتهى عنه : نهى عن اقتراف المعاصى ، ونهى عن الفرار ساعة القتال فى جيش المسلمين والثبات فى مكانه إذا كثر الموت فى الميدان ، وعدم الارتحال من بلدة هو فيها إذا انتشر الوباء ، ثم بعد ذلك ثلاث وصايا تتعلق بالأسرة والعيال ، وهى : الإنفاق عليهم ، وإشعارهم بالأمان ، وتنبيههم إلى مخافة الله ، مصداقا لقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ واهتداء بقوله ﷺ : « **رأس الحكمة مخافة الله** » .

وقربت من وصية رسول الله ﷺ لمعاذ وصيته لأبى الدرداء ، وهو بدوره صحابى جليل ، وإذا كانت وصية الرسول لمعاذ اشتملت على عشر كلمات ـ أى : عشر مواعظ ـ فإن وصيته ﷺ لأبى الدرداء اشتملت على تسع . قال أبو الدرداء ـ رضى الله عنه ـ : أوصانى رسول الله ﷺ بتسع :

« **لا تشرك بالله شيئا وإن قطعت أو حرقت ، ولا تتركن الصلاة المكتوبة متعمدا ، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله ، ولا تشربن الخمر فإنها مفتاح كل شر ، وأطع والديك وإن أمراك أن تخرج من دنياك فاخرج لهما ، ولا تنازعن ولاة الأمر وإن رأيت أنك أنت ، ولا تفرّ من الزحف وإن هلكت ، وأنفق من طولك على أهلك ، ولا ترفع عصاك على أهلك ، وأَخِفْهُمْ فى الله عز وجل** » الأدب المفرد .

والوصيتان تكمل إحداهما الأخرى ، فهما تنظمان أمور الدين والدنيا ، وإن كانت وصيته ﷺ لأبى الدرداء تميزت عن سابقتها بحكم يتصل بصلة المسلمين بمن يلى أمرهم ، فأوصى أبا الدرداء وجمهرة المسلمين تبعا لذلك بالانصراف عن منازعة ولى الأمر حفاظا على وحدة كلمة الأمة واستقرار أمورها ، كما أن الرسول ﷺ فى نهيه أبا الدرداء من شرب الخمر أعطاها هنا وصفا جديدا فسماها « مفتاح كل شر » وكان سماها هناك «رأس كل فاحشة» وكل من التسميتين تمثل أثر الخمر فى تخريب المجتمع أبلغ تمثيل .

إن رسول الله ﷺ وقد كشفت عنه الحجب يعلم أن فتنًا كثيرة سوف تحل بالمسلمين ، وقد سمعه علىّ ـ كرم الله وجهه ـ ينبىء بذلك فسأله عن المخرج منها ، فأجابه ﷺ بأن

المخرج هو كتاب الله ، والاستمساك بأحكامه على النحو الذى قرره الرسول ﷺ وتلك رواية الوصية طبقا لرواية أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ :

عن على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : «ستكُونُ فِتْنَةٌ . قلت : فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يا رَسُول الله ؟ قال : كِتَابُ الله ، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ ، وخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ ، وحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ ، هُوَ لَيْسَ بِالْهَزْلِ ، من تَرَكَهُ مِن جَبَّارٍ قَصَمَهُ الله ، هُوَ حَبْلُ الله المَتِينُ ، وهوَ الذِّكْرُ الحكيمُ ، وهو الصراطُ المستقيمُ ، وهو الذى لا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ ، ولا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ ، ولا يشبع مِنْهُ العُلَمَاءُ ، ولا يخلق عن رد ، ولا تَنقَضِى عَجَائِبُهُ ، هو الذى لم يَنْتِه الجن حين سَمِعْتُه حتى قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدق ، ومَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ ، ومَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ ، ومَنْ خَاصَمَ بِهِ فَلَجَ ، ومنِ اعْتَصَمَ بِهِ هُدِىَ إِلَى صِرَاط مُستَقِيم »[1] .

كان رسول الله ﷺ يؤكد فى كل مناسبة على الاستمساك بكتاب الله وسنة رسوله ، وقد صنع ذلك فى خطبة حجة الوداع فى قوله ﷺ : **« تركت فيكم ما إن استمسكتم به لن تضلوا أبدا : كتاب الله وسنتى »** .

وصايا النبى للغزاة :

كان الرسول ﷺ كلما وجه سرية أو جيشا إلى غزوة من الغزوات زود الغزاة بوصاياه التى هى فى حقيقة أمرها توجيهات تعد بمثابة قواعد لأحكام الحرب فى الإسلام ، وكانت هذه الوصايا تصدر منه ﷺ حينا لجمهرة الغزاة ، وحينا آخر لقائد الجيش أو رأس السرية ، فمن النوع الأول الموجه إلى جمهرة المقاتلين قوله ﷺ :

« اغزُوا بِاسم الله وفى سَبِيل الله ، لا تَغْدُروا ولا تَميلُوا ، ولا تَجْبُنُوا ولا تَغُلُّوا ، وإِذَا أَنْتَ لَقِيتَ عَدُوَّكَ من المشركِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلاثِ خِصَال ، مَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ : ادْعُهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا فى الإِسْلَام ؛ فإِن فعلوا كَانَ لَهُمْ مَا للْمُسْلمينَ ، وعَلَيْهِمْ مَا

---

(١) نثر الدر للآبى ١ / ٢٥٨ من مسند الرضا .

عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ أَبَوْا فَإِلَى أَنْ يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَد وَهُمْ صَاغرُونَ ، فَإِنْ أَبوْا فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِمْ بِالله وقَاتِلْهُمْ ، ولا تُنْزِلُوهُمْ عَلَى حُكْم الله ؛ فَإنَّكُمْ لا تَدْرُونَ أَتُصِيبُونَ حُكْمَ الله فيهِمْ أم لا ، ولكن أنزلوهم فى حكمكم ، ولا تعطوهم ذمة الله ولا ذمة رسوله ، ولكن أعطوهم ذممكم وذمم آبائكم ، فإنكم أَنْ تخفروها خير من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله»(١).

إنها وصايا جديدة على دستور الحروب ، إذ الحروب فى الماضى بل والحاضر قتل للأنفس بغير تمييز . وحرق للأخضر واليابس ، وتدمير للمنشآت بما فيها بيوت الله ، هذا فضلا عن الغدر واستباحة الحرمات ، وأما دستور الحرب فى الإسلام فإن بعضها هو ما جرى على لسانه الشريف فى تلك الوصية الشريفة ، وإن بعضا آخر من وصاياه ﷺ فى دستور الحروب يتمثل فى بقية وصاياه فى هذا السبيل .

فمن وصاياه ﷺ إلى قواد السرايا ما كتبه لعبد الله بن جحش ، وكان قد أخرجه فى ثمانية من المهاجرين : « **من محمد رسول الله ، عليكُمْ بِتَقْوَى الله ، سيرُوا عَلَى بَرَكَة الله حتَّى تَأْتُوا نخيلة ، فَعَلَيْكُمْ إقَامَة يَوْمَيْن ، فَإنْ لَقيتُمْ كَيْداً فاصْبِرُوا ، وَإن غَنِمْتُمْ فَوَفِّرُوا ، وَإنْ قَتَلْتُمْ فَأَثْخِنُوا ، وإنْ أَعْطَيْتُمْ عَهْداً فَأَوْفُوا ، وَلاَ تَقْبَلُوا عَهْدَ الْمُشْرِكِين** »(٢).

وتضم هذه الوصية على إيجازها الشديد سبعة أحكام من دستور الحرب فى الإسلام ، هى على ترتيب صدورها من صاحب الرسالة : تقوى الله ، وإقامة يومين للاستطلاع ، والصبر ، وتوفير الغنيمة ، والقتال باستبسال إذا لم يكن من القتال بد ، والوفاء بالعهد، ورفض عهد المشركين .

ومن وصاياه ﷺ لأمراء الجيوش ما زود به عمرو بن العاص حين أخرجه إلى ذات السلاسل من بلاد قضاعة فى ثلاثمائة رجل من أهل الشرف من المهاجرين والأنصار ، قائلا :

---

(١) سنن الدارمى ٣٢٢ ومسند الإمام زيد ١٤٩ .

(٢) البداية والنهاية ٣/ ٥٠ .

« يا عمرو ، إنى قَدْ بَعَثْتُ مَعَكَ المُهَاجِرِينَ قَبْلَكَ ، واسْتَعْمَلْتُكَ عَلَى مَنْ هُوَ خَيْر منْكَ . إذَا أذَّنَ مُؤَذِّنُكَ للصَّلاة فاسْبِقْهِمْ ، فَإِذَا جَهَرْتَ بالقراءة فارْفَعْ صوتَكَ وأسمِعْهُمْ تَكْبِيَرَكَ ، ولا تُقَصِّرْ فى الصَّلاَة فَتُضَيِّعَ أجْرَهُمْ ، ولا تُطَوِّلْ فَتُمِلَّهُمْ ، واسْمر بهم فَإِنَّه أذْكَى لحرَاسَتهمْ ، ولا تُحَدِّثْهُمْ عَنْ مُلُوكِ الأعاجِمِ فَيَتَعَلَّمُوا الغَدْرَ ، ورَغِّبْهُمْ فى الوفاء فَإِنَّ ذلكَ الملك أُخذَ بِغَيْرِ الله ، وعُملَ فيه بِمَعْصِيَة الله فَدَمَّرَهُ الله تَدْميراً » .

ثم أَمده بأَبى عُبيدة ، ومَعَهُ أبو بكر وعُمَر وغيرهما ، بمائتين وقال لـه ـ أى لأبى عبيدة ـ :

« لا تَسْتَأْخِرَنَّ عَنِ الله فَتُسْبَقَ إليْه ، قُلْ مَا تَفْعَلُ ، واعْمَلْ مَا تَأْمُرُ ولا تُشَقِّقِ الكَلاَمَ تَشْقيقَ الكُهَّانِ ، ولا تَبْحَثْ عَنِ المَعْصِيةِ ، ولا تَسْأَلْ عَنِ القَالَة . وتَغَمَّدْ مَا لم تَكُنْ البَيِّنَةُ، وإذَا وَجَبَ الحَدُّ فَلاَ تُقَصِّر عَنْهُ ، وَإِذَا قَدِمْتَ عَلى صَاحِبِكَ فَإِنْ عَصَاكَ فَأَطِعْهُ».

كانت هذه الغزوة فى السنة الثامنة للهجرة لدعوة قضاعة وبنى عذرة للإسلام ، وقد اشتملت الوصية الشريفة على وصيتين لا وصية واحدة ، الأولى لعمرو بن العاص ، والثانية لأبى عبيدة بن الجراح الذى جعله رسول الله أميرا على جيش المدد الذى ضم الصحابيين الجليلين أبا بكر وعمر ، فأما الوصية الأولى فهى نصح لعمرو فى فن قيادة الجند المسلمين ، فضلا عن توجيه خاص منصرف إلى شخص عمرو .

والوصية الثانية كانت للصحابى القائد أبى عبيدة ، وهى الأخرى توجيهات فائقة فى فن قيادة الرجال ، والرسول ﷺ يعلم قدر الرجلين ، ولكن أبا عبيدة مقدم عنده على عمرو ، ولكنه ﷺ توقع أن عمرو بن العاص ربما تمسك بقيادة الجيش ـ وهو ما حدث بالفعل ـ وقد ذكره الطبرى تفصيلا (*) ، ولذلك فإن رسول الله ﷺ ختم وصيته لأبى عبيدة بقوله الشريف : « **وإذا قدمت على صاحبك ، فإن عصاك فأطعه**» .

(*) تاريخ الرسل والملوك ، قسم أول ٣ / ١٦٠٤ طـ ليدن .

إن أبا بكرالصديق هو الصحابى الأول ، وهو فى أكثر الصحابة علما بأحاديث رسول الله ﷺ ووصاياه بشكل عام ، وفى الحروب وتوجيهات أمراء الجيوش بشكل خاص ، ومن ثم فإنه قد جمع هذه الوصايا النبوية فى فن قيادة الجيوش وآداب الحرب وصاغها فى رسالته التى بعث بها إلى القائد يزيد أبى سفيان ، وهو ما سوف نفصله فى كتابنا عن مدرسة رسول الله فى الفصاحة بعون الله .

وصيته لأبى ذر :

ومن الصحابة الذين حظوا بقدر كبير من وصايا رسول الله ﷺ وتوجيهاته واستقبلوا الكثير من أوامره ونواهيه الصحابى الجليل أبو ذر الغفارى ، فقد كان صادق الحب لرسول الله ، شديد الاتصال به ، كثير الجلوس إليه ، وربما نال أبو ذر من وصايا الرسول ﷺ أكثر مما نال غيره من الصحابة ، لقد كان فى أبى ذر شىء من الاندفاع ، ولذلك وصفه رسول الله ﷺ بالضعف حين طلب أن يكون واليا . وإن فى وصايا النبى ﷺ لأبى ذر تفصيلا أكثر مما فى وصاياه لغيره ، وبخاصة ما كان يتصل بالناس ومقدار صلاته بهم ، وهذه واحدة من وصايا الرسول ﷺ لأبى ذرّ :

« أوصيك بتقوى الله ، فإنه زينة الأمر كله ، وعليك بتلاوة القرآن ، واذكر الله فإنه ذكرٌ لك فى السماء ونور لك فى الأرض ، وعليك بطول الصمت إلا من خير ، فإنه مطردةٌ للشيطان عنك ، وعون لك على أمر دينك ، وإياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ، ويذهب بنور الوجه ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية أمتى ، وأَحِبَّ المساكين وجالسهم وانظر إلى من تحتك ولا تنظر إلى من فوقك ؛ فإنه أجدر ألا تزدرى نعمة الله عليك ، وصِلْ قرابتك وإن قطعوك ، وقل الحق وإن كان مرًّا ، ولا تخف فى الله لومة لائم ، وليحجزك عن الناس ما تعلم فى نفسك ، ولا تَجُرْ عليهم فيما تأتى ، وكفى بالمرء جبناً أن يكون فيه ثلاث خصال : أن يعرف من الناس ما لا يعرف من نفسه ، ويستحيى لهم مما هو فيه ، ويؤذى . يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالكف ، ولا حسن كحسن الخلق » (١).

---

(١) كنز العمال ١٥ / ٩٠٩ .

إنها ثلاث عشرة وصية :

الأولى : تقوى الله ، نعم إنها الأساس بعد الإيمان ، طوبى للمتقين . ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ والمتقون هم ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ وهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ وهم الذين بوأهم الله مقاعد صدق عنده : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۞ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ .

الثانية : تلاوة القرآن ، وتلاوته ربيع القلوب ، والمرء موصول الأسباب بخالقه ما قرأ القرآن ، والرسول ﷺ يقول : « **ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يقرأون القرآن ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده** » أخرجه أبو داود فى سننه : عن أبى هريرة .

الثالثة : ذكر الله ، إن ذكره ـ جل وعلا ـ هو التهليل والتكبير والتسبيح والحمد والثناء ، وهو استحضار للخشيةوالتقى ، واستشعار للعبودية والحب ، وترديد للخضوع والشكران .

الرابعة : الصمت ، إن عقبة بن عامر يسأل رسول الله ﷺ عن النجاة قائلا : ما النجاة ؟ فيجيبه ﷺ : « **أمسك عليك لسانك** » ومنه قوله ﷺ لمعاذ : « **وهل يكب الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم ؟!** » رواه الترمذى فى الإيمان وصححه . ومن الأقوال الحكيمة فى الصمت قول الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ : ما ندمت على كلمة لم أقلها قط .

الخامسة : التحذير من كثرة الضحك ، والنهى الذى قصده الرسول ﷺ هو كثرة الضحك ، وليس مجرد الضحك ؛ لأن الضحك نفسه مطلوب ولكن متى دعا الموقف إلى ذلك ، وكان ﷺ هاشا باشا باسم القسمات يضحك أحيانا ، أما كثرة الضحك فإنها مرذولة ؛ لأنها تميت القلب ، أى : تصيبه بالغفلة عن ذكر الله .

السادسة : الجهاد رهبانية أمتى ، هكذا وصف رسول الله الجهاد ، وهو أبلغ ما

يوصف به الجهاد فى سبيل الله ، إن الجهاد حسب تعبير آخر لسيد المرسلين هو : ذروة سنام « الأمر » . فى حديث معاذ يقول له رسول الله ﷺ : « **ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قال : بلى يا رسول الله ، قال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد** » أخرجه الترمذى ، وصححه .

وبقية الحديث يقول فيه رسول الله ﷺ : « **ألا أخبرك بملاك ذلك كله** » ؟ **قال معاذ : بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسانه ثم قال** : « **كف عليك هذا** » **قال معاذ : يا نبى الله أو نحن مؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال** : « **ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم ؟** » أخرجه الترمذى ، وصححه .

السابعة : حب المساكين ومجالستهم ، تلك هى الوصية السابعة لأبى ذرّ ، والمساكين : هم ضعاف الناس غير ذوى الجاه أو القوة ، ومن منطلق الأخوة الإسلامية وترابط المجتمع الإسلامى تكون مجالسة المساكين والتحبب إليهم وإشعارهم بأنهم جزء من كيان الأمة أمرا واجبا ، وقد ورد فى بعض الروايات ما أثر عن الرسول من قوله : «**اللهم أحينى مسكيناً وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين** » .

أخرجه عبد بن حميد فى مسنده ، وابن ماجه فى سننه عن أبى سعيد الخدرى .

الثامنة : انظر إلى من تحتك ولا تنظر إلى من فوقك ، ويقرن الرسول ﷺ هذه الوصية بالتوضيح والإبانة والتعليل فيقول لأبى ذرّ ـ رضى الله عنه ـ : « **فإنه أجدر ألا تزدرى نعمة الله عليك** » لأن المرء إذا نظر إلى من هو أعلى منه غنى أو جاها أو صحة أو وسامة ربما صغر شأنه أمام نفسه ، ومن ثم يخشى عليه إذا لم يكن واقفا على أرض صلبة من الإيمان أن يشعر بضآلته أمام الآخرين ، ولكنه إذا نظر إلى من هو تحته ـ يعنى من هو أقل مالا أو جاها أو صحة أو وسامة أو غير ذلك من المواهب والصفات ـ فإنه يحس بنعمة الله عليه ، ويستشعر الرضى فى نفسه ، ويحمد الله على ما هو فيه من حال .

التاسعة : صلة ذوى القربى ، وهذه الوصية تكليف قرآنى صريح ، وكان أول من أمره الله بصلة ذوى القربى هو رسول الله نفسه فى قوله ـ عز وجل ـ :

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ النساء ، الآية : ٣٦ .

لقد جاء ترتيب صلة الرحم فى الآية الكريمة فى الرتبة الثالثة بعد عبادة الله وعدم الشرك به ، وبعد الأمر ببرّ الوالدين ، فكان الأمر الثالث بعد هاتين هو صلة ذوى القربى أو الإحسان إليهم طبقا للتعبير القرآنى . ولم يقف الأمر بصلة ذوى القربى فى هذه الآية وفى العديد غيرها من سور القرآن الكريم ، وإنما تعددت التوجيهات فى هذا الشأن فى حديث رسول الله ﷺ فى شخصه الكريم ، فمن الأحاديث الواردة فى هذا الشأن ، والمأنوسة لدى المشتغلين بحديث رسول الله قوله ﷺ : « **أوصانى الله بذى القربى وأن أبدأ بالعباس** » .

إن صلة ذوى القربى وصية إلهية فى الحديث الشريف ، والوصية الإلهية هى بمثابة التكليف الذى لا فكاك من الالتزام به ، أما لماذا أوصى الله ـ سبحانه ـ نبيه أن يبدأ بالعباس فهذا أمر يطول الحديث فيه ، ولكن مجمله أن العباس كان شديد الحب والاهتمام برسول الله ورسالة ربه إليه ، خاصة بعد وفاة عمه أبى طالب ، وتذهب روايات كثيرة إلى أن العباس كان مؤمنا بالرسالة فى وقت مبكر ، وإنما كان يخفى إيمانه لكى يدافع عن ابن أخيه فى محافل المشركين من قريش وينقل إليه ما يفيد الدعوة وما يفسد كيدهم .

فإذا ما عدنا إلى وصية رسول الله ﷺ لأبى ذر وجدناه ﷺ يؤكد على ضرورة صلة ذوى الرحم حتى وإن قطعوه ، وهذا التوجيه النبوى الكريم يقضى على عنصر القطيعة بين ذوى الأرحام الذين هم عرضة لكثير من الخلافات التى تقع بينهم لأسباب دنيوية ، ومن ثم فلو أن كل مسلم عمل بهذه الوصية الشريفة لما كانت هناك شبهة قطيعة فى مجتمعات ذوى الأرحام .

العاشرة : قول الحق وإن كان مرًّا ، إن قول الحق هو صدق الحديث ، والصدق

يبنى المجتمعات الصالحة ، والكذب يهدمها ، وكان الرسول ﷺ يُعْرَفُ قبل الرسالة بالصادق الأمين ، وهى منة مَنَّ الله بها عليه حتى قبل أن يخصه بالرسالة الخاتمة .

وقول الحق ليس سهلا دائما ، فكثيرا ما يكون صعبا أمام سلطان جائر ، أو باطش ظالم ، بل تشتد مرارته إذا كان فيه ما يؤدى بالمساس بذوى القربى من أب أو أخ أو ابن أو عم أو ما شاكل ذلك ، ولكن المجتمع الصالح - ومجتمع المسلمين أكثرها صلاحا - لا يقوم إلا على الصدق ، ومن ذلك فإن الرسول ﷺ يقول فى الحديث الشريف الذى رواه عنه عبادة بن الصامت : « **اضمنوا لى ستا أضمن لكم الجنة** » وجعل أول المبادىء الست التى تدخل الجنة الصدق فى الحديث ، وأما تمام الحديث الشريف فهو : «**اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا إذا ائتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفّوا أيديكم** »[(١)] أما عكس ذلك من كذب فى الحديث ، ونقض للعهود ، وخيانة للأمانة فهى صفات المنافقين ، وقد نبه إليها الرسول ﷺ فى قوله الشريف : « **آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان**»[(٢)] وقول الحق الذى هو صدق الحديث يهدى إلى الجنة طبقا لما روى عنه ﷺ من حديث ابن مسعود قال : « **الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة** »[(٣)].

ويؤكد الرسول ﷺ على ضرورة قول الصدق وإن ظُن أنه مؤد إلى الهلاك ، فما هلك صاحب قول صادق أبدا . يقول الصادق المصدوق ﷺ : « **تحروا الصدق وإن رأيتم أن الهلكة فيه ، فإن فيه النجاة** »[(٤)] وقد ترجم المسلمون على ممر العصور هذا الحديث الشريف فى حكمة تجرى على ألسنة الخاصة والعامة فى قولهم : (الصدق منجاة) .

الحادية عشرة : لا تخف فى الله لومة لائم ، والمعنى المراد من هذه الوصية هو ألا يخشى أبو ذر - رضى الله عنه - وسائر المسلمين لوما فيما يتصل بأوامر الله وحدوده ،

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ، وابن حبان ، والحاكم فى المستدرك ، والبيهقى فى شعب الإيمان : عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه .

(٢) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى : عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) رواه أبو داود فى سننه : عن ابن مسعود رضى الله عنه .

(٤) رواه ابن أبى الدنيا فى الصمت : عن منصور بن المعتمر مرسلا .

ويتمثل ذلك أكثر ما يتمثل فى تطبيق الأحكام على الجميع دون استثناء : على الشريف والوضيع ، وعلى القوى والضعيف ، وعلى الغنى والفقير ، وقد اتخذ الصديق أبو بكر هذه الوصية شعارا لحكمه حين اعتلى المنبر ساعة بويع بخلافة رسول الله ، فقال : ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه .

الثانية عشرة : وليحجزك عن الناس ما تعلم فى نفسك ، والمراد أن يعنى المرء أولا بما فى نفسه من عيوب ومآخذ ، ولا يلوم الآخرين على عيوب أخذها عليهم ، وهى كامنة فيه ، ومن ثم كانت بقية الوصية : ولا تَجُرْ عليهم فيما تأتى ، ولا شك أن التفات الأفراد إلى عيوبهم سوف يصرفهم عن متابعة ما فى الآخرين من عيوب ، لأن المرء لو صدق إيمانه لن يرضى عن نفسه المنحرفة قبل أن يردها إلى الطريق السوى ، فإذا عمل كل مسلم بهذه الوصية النبوية الشريفة سارع إلى إصلاح شأنه ، وتهذيب نفسه ، وتبعا لذلك يكون المجتمع الإسلامى كله خاليا من العيوب .

الثالثة عشرة : تلافى خصال الجبن ، إن الرسول ﷺ ينبّه إلى خصال مقيتة ينبغى للمرء الصالح أن ينزه نفسه منها ؛ لأنها إذا توفرت فيه جعلته جبانا ، والجبن ـ كما هو معروف عنه ـ من أخَسِّ الصفات .

يحدد رسول الله ﷺ هذه الصفات فى ثلاث ، يقول الصادق الأمين : « **وكفى بالمرء جبنا أن يكون فيه ثلاث خصال : أن يعرف من الناس مالا يعرف من نفسه ، ويستحيى لهم مما هو فيه ، ويؤذى** » . وهى صفات يمسك بعضها بخناق بعض على خستها ، إذا اجتمعت فى امرىء صنفته فى قائمة الجبناء ، أولها أن يتابع عيوب الآخرين فى الوقت الذى هى كامنة فيه متمكنة منه ، وأولى به أن ينزه نفسه عنها ، وثانيتها أن يظهر الاستحياء لهم من عيوبهم ولا يستحيى هو نفسه من نفسه لتجمّع هذه العيوب فيه ، وثالثتها الأذى ، والمراد هو أن يوقع الأذى بالآخرين بسبب ما رآه من عيوبهم فى حالة أن الأجدر به أن يكف عن ذلك ، وأن يعالج شئونه ويصلح عيوبه . وكما أسلفنا القول ، لو أن كل مسلم فعل ذلك لصلح حال الناس جميعا .

ويختم الرسول ﷺ وصيته ـ بل وصاياه ـ لأبى ذر بهذه الكلمات المضيئة : « **يا أبا ذر، لا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالكف ، ولا حُسْنَ كحسن الخلق** » . والمعنى هنا من الوضوح بمكان ، فالتدبير : هو وضع الأمور فى نصابها ، ولا يصدر ذلك إلا عن عقل راسخ رزين ، والكف : هو الإقلاع عن عمل النقائص ، وممارسة المعائب ، واقتراف السيئات فى حق الله وحق عباده .

إن أبا ذر صاحب أكبر عدد من وصايا رسول الله ﷺ بين الصحابة ، وإذا كانت الوصية التى عرضنا لها بشىء من الإبانة قد شملت أمور الدنيا وشئون الآخرة ، فإننا نعرض لوصية أخرى وجهها الرسول ﷺ اقتصرت على شئون العبادة .

قال أبو ذر ـ رضى الله عنه ـ : « أوصانى حِبِّى بثلاث لا أدعهن إن شاء الله أبدا ، أوصانى بصلاة الضحى ، وبالوتر قبل النوم ، وبصيام ثلاثة أيام كل شهر » . وهى من قبيل العبادات التطوعية ولكن ثواب كل منها يضيف إلى ميزان حسنات مؤديها ما يرجح كفته يوم ينصب الميزان إن شاء الله .

وصايا الرسول لأبى هريرة :

أبو هريرة هو صاحب رسول الله ﷺ وراوى أكبر عدد من الأحاديث الصحيحة ، وكان شديد القرب من رسول الله ﷺ فى سنواته الأخيرة ، ولذلك فإننا نتوقع أن يفوز أبو هريرة بعدد نفيس من وصايا صاحب الشريعة ﷺ .

قال أبو هريرة : « **أوصانى خليلى بثلاث ، قال هشيم ـ الحافظ الثقة ـ : فلا أدعهن حتى أموت : بالوتر قبل النوم وصيام ثلاثة أيام كل شهر ، والغسل يوم الجمعة** » **مسند الإمام أحمد ٢ / ٢٢٩ .**

وفى رواية أخرى ذكر أبو هريرة أن رسول الله ﷺ أوصاه قائلا ؛ « **أوصيك يا أبا هريرة بخصال أربع ، لا تدعهن أبدا ما بقيت : عليك بالغسل يوم الجمعة ، والبكور إليها ، ولا تَلْغَ ، ولاَ تَلْهُ ، وأوصيك بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ؛ فإنه صيام الدهر، وأوصيك بالوتر قبل النوم ، وأوصيك بركعتى الفجر ، لا تدعهما وإن صليت الليل كله؛ فإن فيهما الرغائب** » كنز العمال ١٢ / ٨٥٧ .

والملاحظ أن ثمت نصيحتين مشتركتين بين نصائح الرسول ﷺ لكل من أبى ذر وأبى هريرة ، وهما الوتر قبل النوم ، وصيام ثلاثة أيام كل شهر ، ومعنى ذلك أن ثواب صلاة الوتر وثواب صيام الأيام الثلاثة من كل شهر مقدمان على غيرهما من نوافل الصلاة ونوافل الصوم . ذلك أن صلاة الوتر عند بعض الأئمة هى دون الفرض وفوق السنة ، ومن ثم اعتبرها الإمام أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ واجبا ، أما ركعتا الفجر اللتان أوصى بهما الرسول الصحابى أبا هريرة فإنهما على ثوابهما الكبير يدخلان فى باب السنن المؤكدة التى كان الرسول يحرص على أدائها ، ومن ثم كان تأكيد الرسول على أبى هريرة بأدائهما وألا يدعهما وإن صلى الليل كله فإن فيهما الرغائب ، ففى حديث لأبى هريرة قال رسول الله ﷺ : « **لا تدعوا ركعتى الفجر ولو طاردتكم الخيل** » وهما ركعتان تصليان قبل الفجر على ما هو معروف للمحافظين على أداء الصلاة ، ولقد تكرر ذكر رسول الله لفضلهما والتوصية بأدائهما فى حديث لعبدالله بن عمر قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ وقال : يا رسول الله ، دلنى على عمل ينفعنى الله به ، قال : « **عليك بركعتى الفجر فإن فيهما فضيلة** » .

وأما الأيام الثلاثة التى أوصى رسول الله ﷺ كلا من أبى ذر وأبى هريرة بصومها ففى تحديد توقيتها بين أيام الشهر خلاف ، ففى رأى أنها الأيام البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر ، وقيل : هى اليوم الأول والحادى عشر والواحد والعشرون ، وهو رأى الإمام مالك ، وقيل : بل يجوز أن تكون أية ثلاثة أيام من أيام الشهر تيسيرا على الناس فى العبادة التطوعية .

وإذا كان ثمت خلاف فى توقيت هذه الأيام الثلاثة التى أوصى رسول الله ﷺ بصيامها كل شهر ، فإن هناك أيضا أياما محددة بمواقعها من الشهر سنّ رسول الله ﷺ صيامها ، وهى ست من شوال ، والاثنين والخميس ، ويوم عرفة ، ويوم عاشوراء ، فأما الأيام الستة من شوال فقد ورد فى شأنها قوله ﷺ : « **من صام رمضان وأتبعه ستًّا من شوال كان كمن صام الدهر** » [1] ويجوز صيامها متصلة متتابعة أو منفصلة متفرقة ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ، والإمام مسلم فى صحيحه ، وأبو داود ، والنسائى ، والترمذى ، وابن ماجه .

ولكن الإمامَ مالكا ـ رضى الله عنه ـ كان يكره صيامها متصلة حتى لا تصبح بمرور الزمن جزءا من رمضان وتلحق به .

وعن سنة صوم يومى الاثنين والخميس ففى هذين اليومين تعرض أعمال العباد على الله ، وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ : « **أحب أن تعرض أعمالى وأنا صائم** » (١).

وأما صوم عرفة فهو سنّة عن رسول الله إلا للذين يكونون فى الموقف يؤدون فريضة الحج ، وقد روى عن الرسول ﷺ قوله : « **صوم يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله والسنة التى بعده** » (٢).

وعن صوم يوم العاشر من المحرم (عاشوراء) فقد كان اليهود يصومونه ، فسألهم الرسول ﷺ عن ذلك فقالوا : لأن الله نجّى موسى من فرعون فصامه موسى شكرا لله ، فقال ﷺ : « **نحن أحق بموسى منكم** » (٣) فصامه وأمر الناس بصيامه .

(١) رواه أصحاب السنن : عن أسامة بن زيد .

(٢) رواه مسلم وأبو داود والنسائى والترمذى : عن أبى قتادة .

(٣) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى : عن ابن عباس رضى الله عنهما .



الفصل الثانى

بعض وصايا الرسول للنساء



وصايا الرسول للنساء

مثلما حظى كثير من الصحابة بوصايا رسول الله ﷺ فإن عددا من الصحابيات قد حظين كذلك بوصاياه الشريفة ، ومن المعروف أن الصحابيات كن يسألن الرسول ﷺ فى شئون دينهن ، وأنهن كن يبايعنه مثلما يبايعه الصحابة من الرجال ، وكان الرسول ﷺ يعرف للنساء الفضليات أقدارهن ، وقد كرمهن الله فى كتابه العزيز ، وكذلك كرمهن الرسول فى أحاديثه الشريفة ، لقد كان الرسول زوجا مثاليا ، وكان يقول : « **خياركم خياركم لنسائهم** » (١) . وكان يقول أيضا : « **الدنيا كلها متاع . وخير متاعها المرأة الصالحة** » (٢).

وفى نطاق الأبوة كان الرسول الأب الحانى والوالد المشفق على أولاده ، وإن موقفه من حادثة ابنته زينب حين أجارت زوجها أبا العاصى بن الربيع فى المدينة قبل أن يسلم معروفة مشهورة ، وقد ألمحنا إليها فى فصل سابق .

والأمر المبهر فى أبوته ﷺ قد تجلى بشكل أوضح مع ابنته فاطمة الزهراء ، ولعل مرد ذلك يرجع إلى أنها صغرى بناته ، وأنها ظلت لصيقة به حتى بعد زواجها ، وأنها أم السبطين الجليلين : الحسن والحسن سيدى شباب أهل الجنة ، وأنها أشبه الناس بالرسول ﷺ وكان ﷺ لشدة تعلقه بها يقول : « **فاطمة بضعة منى يؤذينى ما آذاها ويريبنى ما رابها** » (٣).

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه : عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم ، وأحمد ، والنسائى : عن ابن عمرو رضى الله عنه .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (مناقب فاطمة) : « فاطمة بضعة منى ، فمن أغضبها أغضبنى » عن المسور بن مخرمة رضى الله عنه .

وصية الرسول لفاطمة :

إن أبلغ ما عبر به أب عن حبه لابنته هو ما عبر به رسول الله ﷺ عن حبه لفاطمة فى الحديث السابق ذكره : « فاطمة بضعة منى . . الحديث » وقد بشرها بأنها واحدة من أربع هن أفضل نساء أهل الجنة فى قوله ﷺ : « **أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ومريم وآسية** » (١).

لم يكن غريبا والأمر كذلك أن تصدر عنه ﷺ وصية لفاطمة وبمبادرة منه ؛ لأن أكثر الوصايا التى صدرت عنه ﷺ كانت مطلبا تقدم به أصحابها ، ولذلك كان استهلال صيغة وصيته لفاطمة مختلفا عن غيره فى قوله ﷺ لها : « **ما يمنعك أن تسمعى ما أوصيك به** » ثم يمضى ﷺ معلنا وصيته للزهراء قائلا : « **أن تقولى إذا أصبحت وإذا أمسيت : يا حىّ يا قيوم برحمتك أستغيث ، أصلح لى شأنى كله ، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين** » (٢).

إن رسول الله ﷺ يختار لها أن تناجى الخالق ـ جل ذكره ـ سائلة إياه باثنين من أحب أسمائه الحسنى إليه هما : الحى ، القيوم . فالحى : هو دائم الحياة وواهب الحياة ، والقيوم : هو القيم على خلقه من سموات وأرضين وبشر وحيوان وجماد ، لا يغفل عن القيام بأمرها طرفة عين ، ويتبدى جلال هذين الاسمين الجليلين من أسمائه الحسنى فى إيراده ـ جل جلاله ـ إياهما فى كتابه العزيز مقترنين أحدهما بالآخر فى أكثر من آية وأكثر من سورة ، جاء ذكرهما فى مقام حتمية خضوع العبد خضوعا مطلقا لذاته ـ عز وجل ـ فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ كما جاء ذكرهما على نفس السمت فى آية الكرسى ذات الشأن الأسمى فى كتابه العزيز : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد ، والطبرانى فى الكبير ، والحاكم فى المستدرك : عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ بلفظ : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ».

(٢) رواه النسائى فى سننه ، والحاكم فى مستدركه : عن أنس رضى الله عنه .

إن دعاء هذه صيغته يتوجه به العبد إلى خالقه مستجاب إن شاء الله ، خاصة إذا كان صادرا من فاطمة الطّاهرة الزهراء البتول العابدة ابنة محمد ﷺ وإحدى فضليات أربع نساء فى الدنيا والآخرة .

وصية الرسول لأم أنس :

قالت أم أنس : يا رسول الله أوصنى ، فقال ﷺ : « **اهجرى المعاصى ؛ فإنها أفضل الجهاد ، وأكثرى من ذكر الله ؛ فإنك لا تأتين الله بشىء أحب إليه من كثرة ذكره**»[1] .

لعلنا نلاحظ هنا أن أم أنس هى التى طلبت من رسول الله أن يوصيها ، بينما فى حالة الزهراء البتول كانت المبادرة من رسول الله ؛ لأنه آنذاك الرسول الوالد ، وهو هنا ﷺ الرسول المبلّغ ، ووصية رسول الله لأم أنس جاءت فى صيغتين : نهى عن منكر : «**اهجرى المعاصى** » وأمر بمعروف : « **أكثرى من ذكر الله** » ولكن المعانى المتجمعة فى الصيغتين تؤدى إلى صلاح الدنيا والآخرة .

« **اهجرى المعاصى فإنها أفضل الجهاد** » والمعاصى تصدر عن النفس الأمارة بالسوء وهجر المعاصى مجاهدة للنفس ، ومجاهدة النفس هى الجهاد الأكبر ، تصديقا لقول رسول الله حين عاد من إحدى المعارك فقال : « **عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر** » .

وأما الصيغة الثانية فلا يستطيع امرؤ مهما أوتى من مراتب البلاغة وموهبة البيان أن يعللها بأبلغ مما عللها رسول الله : « وأكثرى من ذكر الله فإنك لا تأتين الله بشىء أحب إليه من كثرة ذكره » .

بقى أن ننوه إلى أن الرسول ﷺ لم يوص فاطمة بهجر المعاصى ، مع العلم بأن وصية الرسول لأم أنس لا تعنى أنها تقترب المعاصى ، فالوصايا مثلما أنها موجهة إلى شخص بذاته فهى كذلك موجهة إلى جماعة المسلمين فى كل زمان ، ولكن الرسول ـ وقد أدبها بأدبه ورباها تحت بصره ـ يعلم أنها تتوقى المعاصى . إنه ﷺ يقول : « **أدبنى ربى فأحسن تأديبى** » والذى أدبه الله مؤهل لأن يؤدب ابنته أدبا مستمدا من تأديب الله له .

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير : عن أم أنس ، ولفظه : « اهجرى المعاصى ؛ فإنها أفضل الهجرة ، وحافظى على الفرائض ؛ فإنها أفضل الجهاد ، وأكثرى من ذكر الله فإنك لا تأتين بشىء أحب إليه من ذكره » .





الفصل الثالث

وصيتان لواحد من العامة ولآخر لم يكن أسلم



وصيتان لواحد من العامة ، ولآخر لم يكن أسلم

ليس كل من حظوا بوصايا النبى ﷺ من الرجال المعروفين أو الصحابة المرموقين ، ذلك أن باب الرسول ﷺ كان مفتوحا لكل قادم ، وكان صدره من الرحابة والاتساع بحيث يستمع لكل سائل ، ويجيب كل طالب ، فكان يفد عليه الرجل من الطريق غير معروف الاسم أو الهوية ويطلب إليه أن يوصيه وينصرف بعد ذلك ظافرا ببغيته ، مثلما جاء مجهول الاسم مغمور الهوية ، أو ينصرف وقد عرف اسمه فصار من الصحابة الذين يروون حديث رسول الله ، وربما لم يكن مسلما حين وفد سائلا فصار مسلما حين انصرف راضيا .

وصية العامى :

من وصايا الفريق الأول ، الذى يفد الرجل منهم على رسول الله وينصرف وهو على حالته غير معروف ، ما رواه أبو هريرة .

قال أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله أوصنى ـ وفى رواية ـ علمنى شيئا ولا تكثر علىّ لعلى أعيه ، قال : « لاتغضب »

وفى رواية الترمذى قال : يارسول الله دلّنى على عمل يدخلنى الجنة ولا تكثر علىّ ، قال : « لاتغضب »[1] .

الرسول ﷺ لم يسأل هذا الماثل بين يديه عن اسمه أو عمله ، ولكنه يطلب نصيحة تصلح شأنه ، أو وصية يعمل بها فتقيه المعاصى وتفتح أمامه أبواب الرضوان ، ولما كان

---

(١) أخرجه البخارى ، وأحمد ، والترمذى : عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وأخرجه أيضا أحمد والحاكم : عن جارية بن قدامة رضى الله عنه .

الرجل قد حدد إطار الوصية التى طلبها بأن تكون موجزة حتى يعيها ، فإن الرسول ﷺ أجابه إلى سؤله على الصورة التى وردت فى الحديث : « **لا تغضب** » .

نِعْمَ الوصية هى ، إنها وصية جالبة للخير ، مفضية إلى رضاء الله ؛ لأن الغضب غول العقل ، وما أتى امرؤ فعلا وهو غضبان إلا جانبه التوفيق ، وما أصدر غاضب حكما إلا جانبه الصواب ، لأن الغضب مصحوب بالانغلاق ، وكيف يأتى تصرف صائب من عقل منغلق ؟ ! .

إن امتلاك المرء لنفسه وقت الغضب هو القوة الحقيقية ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « **ليس الشديد بالصُّرْعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب** » [1]. والله سبحانه يقول فى محكم كتابه : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ آل عمران : ١٣٤ .

فإذا التزم السائل بوصية رسول الله ﷺ لفظا وروحا وتجنب الغضب لاجتنب ما ينتج عن الغضب من سيئات وأخطاء ، ولوجد طريقه ممهدا إلى الجنة بإذن الله .

وصيته للثانى :

ومن وصايا رسول الله ﷺ للفريق الثانى ، وصيته لأبى جرى جابر بن سليم الذى وقف يرصد تعامل رسول الله ﷺ مع الناس دون أن يعرفه فاستولت شمائل الرسول على مجامع مشاعره ، فتقدم إلى رسول الله يسأله ويستوصيه ، فكان من شأنه أنه دخل على الرسول كافرا وانصرف مسلما ، وإنه حل فى حضرة رسول الله مغمورا وخرج صحابيا جليلا يروى أحاديث النبى ويرعى سنته .

وها هى أخبار هذه الوصية وملابساتها طبقا لما رواها متلقيها أبو جرى :

عن أبى جرىّ جابر بن سليم ـ رضى الله عنه ـ قال : رأيت رجلا يصدر الناس عن رأيه ، لا يقول شيئا إلا صدروا عنه . قلت : من هذا ؟ قالوا : رسول الله ـ صلى الله

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ، والشيخان : عن أبى هريرة رضى الله عنه .

عليه وسلم ـ قلت : عليك السلام يارسول الله ، قال : « **لا تقل : عليك السلام ؛ عليك السلام تحية الميت ، قل : السلام عليك** » قال : قلت : أنت رسول الله ؟ قال : « **أنا رسول الله الذى إذا أصابك ضرّ فدعوته كشف عنك ، وإذا أصابك عام سَنَةٍ فدعوته أنْبَتَها لك ، وإذا كنت بأرض قفر أو فلاة فضلّت راحلتك فدعوته ردها عليك**» قال : قلت : اعهد إلىّ ـ وفى المسند : قلت أوصنى ـ قال : « **لا تَسُبَّنَّ أحدًا** » فما سببت بعده حرا ولا عبدا ولا بعيرا ولا شاة منذ أوصانى رسول الله ﷺ قال : « **ولا تَحْقِرَنَّ شيئامن المعروف ولو مُنْبَسَطَ وجهك إلى أخيك وأنت تكلمه ، وأَفْرِغْ من دَلْوِك فى إناء المستسقِى ، وارفع إزارَكَ إلى نصف الساق ، فإن أبَيْتَ فإلى الكعبين ، وإياك وإِسْبالَ الإزار فإنها من المَخِيلة ، وإن الله لا يحبُّ المخيلة ، وإن امرؤٌ شتمك وعَيَّرَكَ بما فيك ، فلا تعيّره بما تعلم فيه ، فإنما وَبَال ذلك عليه**» (١) .

لقد انبهر أبو جرى بشخصية رسول الله ، وقد وقف أمامه وهو لا يعرف أنه رسول الله ، ولم يكن مسلما ، ولكن الرسول ﷺ ، وهو الذى حباه ربه بفصل الخطاب ، بدأ يصحح لأبى جُرَىٍّ أسلوب حواره ، ثم بدأ يشرح له نعم الله عليه « **الله الذى إذا أصابك ضر فدعوته كشف عنك ، وإذا أصابك عام سنة فدعوته أنبتها لك ، وإذا كنت بأرض قفر أو فلاة فضلّت راحلتك فدعوته ردها عليك**» ما إن يسمع أبو جرىّ هذا النهج القويم من الكلم صادرا من رسول الله مغمورا بالصدق مكللا بالهيبة حتى ينشرح صدره للإسلام فيشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ويسارع إلى طلب الوصية من رسول الله قائلا : أوصنى ، وفى رواية اعهد إلىّ ، والمعنى واحد فى كلتا الصيغتين . فتكون أولى بنود وصية رسول الله له : «**لا تسبن أحداً**» ثم تتدفق بقية بنود الوصية على سمع أبى جرى بما يصلح أمره فى دخيلة نفسه وفى علاقته بالناس ، ومن ثم إلى رضاء ربه .

لقد كان أبو جرى نعم المهتدى المتقبل لوصية رسول الله ، العامل بتوجيهاتها مع أن طبيعة حوار الرسول معه توحى بأنه بدوى قادم من الصحراء ، ولكن الطمأنينة إذا

---

(١) الإمام أحمد فى مسنده ٤ / ٦٥ ، والترغيب والترهيب ٣ / ٤٦٨ .

حلت في نفس ، والإيمان إذا استقر في قلب لم يفرقا بين نفس بدوى أو قلب حضرى .
يقول أبو جرى بعد أن أوصاه النبى « **لا تسبن أحدا** » : فما سببت بعده حرا ولا عبدا ، ولا بعيرا ولا شاة منذ أو صانى رسول الله ﷺ .

كان الرسول ﷺ يحرص في وصاياه إلى المؤمنين على أن يربيهم على نسق من الأدب الرفيع ، كان بعض وصيته لأبى جرى « **لاتسبن أحدا** » وكانت أيضا وصيته لجرموز الجهنى حين قال : يارسول الله أوصنى ، قال : « **أوصيك ألا تكون لعانا** » .

إنه خلق محمد وإنه أدب النبوة الذى سجله القرآن الكريم في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وسجله الرسول في قوله الشريف : « **أدبنى ربى فأحسن تأديبى** »



الفصل الرابع

الرسول يوصى بطلاب العلم



وصاياه ﷺ بطلاب العلم

الرسول يوصى بطلاب العلم :

إن أحاديث الرسول ﷺ فى طلب العلم كثيرة ، منها قوله : ﷺ « طلب العلم فريضة على كل مسلم » (١) .

ومنها حديث أبى هريرة الذى أوله : « من نفَّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » وهو يشتمل على فقرة خاصة بالعلم وطلابه فى قوله ﷺ : « ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاّ حفَّتهم الملائكة ، ونزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله فيمن عنده » (٢) .

ومن أقوال رسول الله ﷺ فى إشاعة العلم ما رواه أبو هريرة - قوله ﷺ : « أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخاه المسلم » (٣) .

هكذا كان اهتمام رسول الله ﷺ بالعلم واحتفاله به والحث على طلبه ، ذلك أن كل خطوة إلى الأمام فى طلب العلم تقرّب صاحبها من الله ، وقد قال - عز وجل - فى كتابه العزيز : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ فاطر : ٢٨

لذلك لم يكن غريبا أن يكون طلاب العلم موضع اهتمام الرسول ﷺ وأن يكونوا أهلا لأن يوصى بهم خيرا وأن يحض على الترحيب بهم وبذل العلم لهم .

---

(١) - أخرجه ابن عدى فى الكامل ، والبيهقى فى شعب الإيمان : عن أنس - رضى الله عنه .
والطبرانى فى المعجم الصغير ، والخطيب فى تاريخ بغداد : عن الحسين بن على - رضى الله عنهما .
والطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى الشعب : عن أبى سعيد - رضى الله عنه .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه : عن أبى هريرة - رضى الله عنه .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى سننه ١ / ٨٩ رقم ٢٤٣ .

عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال :

« سيأتيكم أقوام يطلبون العلم ، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم : مرحباً مرحباً بوصية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واقْنُوهم »[1] يعنى علموهم .

هكذا أوصى رسول الله ﷺ صحابته وسائر علماء الأمة أن يهتموا بطلاب العلم بالترحيب بهم ، وبذل العلم الذى يطلبون .

وينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وتشاء المقادير أن يكون أبو سعيد الخدرى ـ راوية حديث طلاب العلم ـ أحد علماء الأمة الذين يجلسون لبذل العلم لطالبيه ، فكان إذا جاءه الطلاب بادرهم بالتحية ملتزما كلمة الترحيب التى خص بها رسول الله طلاب العلم قائلا : مرحبا بوصية رسول الله ﷺ .

يقول هارون العبدى : كنا ـ يعنى هو ورفاقه من طلاب العلم ـ إذا جئنا أبا سعيد الخدرى قال :

مرحبا بوصية رسول الله ﷺ إن رسول الله ﷺ قال لنا : « **إن الناس لكم تبع ، وإنهم سيأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين ، فإذا جاءوكم فَاسْتَوْصُوا بهم خيراً**»[2].

---

(١) ابن ماجه فى سننه ١ / ٩٠ ، ٩١ رقم ٢٤٧ .

(٢) رواه ابن ماجه فى سننه (المقدمة) ١ / ٩١ ، ٩٢ رقم ٢٤٩ .



الفصل الخامس

وصية الرسول بالأنصار



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وصية الرسول بالأنصار

كانت وصيتهﷺ بالأنصار هى ختام ارتقائه منبرهﷺ وبعد ذلك لم يَرْقَ منبره الشريف ، ثم لحق بعدها بأيام بالرفيق الأعلى ، ومن ثم فقد أراد رسول الله أن تكون خاتمة مواقفه على المنبر تكريم الأنصار ، والتنبيه إلى فضلهم ، والتذكير بأقدارهم فى وصيته بهم .

قال أنس بن مالك خادم رسول الله والملازم له : مرّ أبو بكر والعباس ـ رضى الله عنهما ـ بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون ، فقال : ما يبكيكم ؟ قالوا : ذكرنا مجلس النبىﷺ منّا ، فدخل ـ أى أبو بكر ـ على النبىﷺ فأخبره بذلك . قال : فخرج ﷺوقد عصب على رأسه حاشية برد . قال : فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم ، فحمد الله ثم أثنى عليه ثم قال : « **أوصيكم بالأنصار ؛ فإنهم كَرِشِى وَعَيْبَتى ، وقد قضوا الذى عليهم ،وبقى الذى لهم ، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم**»(١) .

إن الرسول ﷺ يعرف قدر الأنصار ، وحبهم له ، وتعلقهم به ، ومساندتهم لرسالته، وفتح قلوبهم وديارهم له ولصحابته المهاجرين ، وخوضهم غمار الحرب فى سبيل دعوة الإسلام والذود عن حياضها ، وبذل الدماء والأموال فى سبيل الله ، ومن ثم كانوا جديرين بحدب رسول الله ؛ لأنهم أحباؤه ونصراؤه ، ومحمدﷺ يمثل قمة الخلق الكريم، فلقد خصه الله ـ سبحانه ـ من بين سائر خلقه بالتأديب فقالﷺ فى ذلك : « **أدبنى ربى فأحسن تأديبى** »(٢) وإن الله ـ سبحانه ـ يثبت ذلك فى محكم

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه : عن أنس رضى الله عنه ـ فى فضائل الأنصار ٤ / ٢١٠ .

(٢) رواه ابن السمعانى فى (أدب الإملاء) : عن ابن مسعود رضى الله عنه .

كتابه فيكرم رسوله وسيد خلقه بقـوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(١) ولذلك فإن شمائل محمد هى قمة الشمائل ، وفضائله هى رأس الفضائل ، وإن من قمم الشمائل فضيلة الوفاء ، وعلى هذا الأساس نهض الرسولﷺ من علته ، وتغلب على مرضه حين أبلغ أن جماعة من الأنصار يبكون لمرضه وخشيتهم من فراقه ، سار إلى المنبر معتليا مراقيه للمرة الأخيرة فى حياته الشريفة ليوصى بالأنصار بخير ما يوصى به وفىّ لأوفياء ، فسجلﷺ مكانتهم منه فقال : إنهم كرشى وعيبتى ، والكرش هو مستقر الطعام الذى يتحول إلى غذاء يقوى به الجسم ، وتتكامل الأعضاء ، فهم ـ والأمر كذلك ـ غذاء الدعوة ومددها منذ بيعة العقبة إلى أن كتب الله لدينه النصر والغلبة ، وأما العيبة فهى الخزانة التى يحتفظ المرء فيها بمتاعه ونفائسه .

ولقد كان مقام الأنصار من رسول الله كمكانة العيبة من الإنسان ، وهل هناك أنفس من الرسالة نفسها ؟ وهل هناك أنفس من إكرام صحابة رسول الله من المهاجرين الذين فتح الأنصار لهم بيوتهم وتنازلوا لهم عن أموالهم وآثروهم على أنفسهم ؟!

لقد نال الأنصار شرف تكريم المولى لهم فى كتابه العزيز فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

الحشر : ٩

لم يكن الله ـ سبحانه ـ ليكرم قوما بذكرهم فى كتابه الكريم ،وقرآنه العظيم ، إلا إذا كانوا أهلا لذلك .

لقد كان الأنصار فى مقدمة المحبين للرسول والرسالة ، وكانوا على رأس الباذلين للدفاع عقيدة السماء ، وفى قمة الطاعة والطواعية لتوجيهات رسول الله حتى حين ظنوا أن حيفاً وقع عليهم من لدنهﷺحين قسم غنائم حنين التى كانت من الكثرة بحيث كان ينال الشخص الواحد المائة من الإبل . لقد أعطى الرسول بطون قريش من

---

(١) سورة القلم ، الآية : ٤ .

بنى أمية وبنى مخزوم وبنى عبد الدار وبنى عدىّ وبنى عامر وبنى سهم وبنى جمح وغيرهم من قبائل سليم وغطفان ولم يعط الأنصار ، فَوَجَدُوا فى أنفسهم وكثرت القالة بينهم ، حتى إن أحدهم قال : لقد لقى رسول الله ﷺ قومه ، أى : مال إلى جانبهم وتجاهَلَنَا ، وتمضى الحادثة فى طريقها قدما حين يدخل سعد بن عبادة سيد الأنصار على رسول الله ويقول : يارسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وَجدُوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت ، قسمت فى قومك وأعطيت عطايا عظاماً فى قبائل العرب ، ولم يك فى هذا الحى من الأنصار منها شىء ، فيقول رسول الله ﷺ - طبقا لرواية ابن هشام فى السيرة - : فأين أنت من ذلك ياسعد ؟» يعنى مارأيك أنت فى ذلك ؟ فيقول سعد : يارسول الله ما أنا إلا من قومى ، قال رسول الله : « فاجمعْ لى قومك فى هذه الحظيرة » فلما اجتمعوا قال سعد : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار ، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « **يامعشر الأنصار ، ما مقالة بلغتنى عنكم ؟ وجدةٌ وجدتموها علىّ فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلّالا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ » قالوا : بلى ، الله ورسوله أمنّ وأفضل ، ثم قال : « ألا تجيبونى يامعشر الأنصار ؟ » قالوا : بماذا نجيبك يارسول الله ؟ لله ولرسوله المنُّ والفضل . قال : « أما والله لو شئتم لقلتم فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدِّقْتُمْ : أتيتنا مكذَّبا فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك ؟ ! أَوَجدْتُمْ يامعشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة (*) من الدنيا تألفْتُ بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعْباً وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار »**

فحين انتهى رسول الله ﷺ من قوله بكى القوم حتى اخضلت لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظًّا .

إن رسول الله ﷺ يرى بنور الله ، وينفذ إلى أعماق القلوب فيستبطن أسرارها ،

(*) اللعاعة : النبتة الخضراء .

ويغوص إلى دخائل النفوس فيستقرىء خباياها ، وإن الأنصار حين استمعوا إليه أحسّوا بأنهﷺ يقرأ هذه المعانى التى ترجرجت فى قلوبهم على غير ثبات ، فقد منعهم إيمانهم بالله ورسوله أن يسلّموا بها ، ولكن الرسولﷺكاشفهم بما يحوك فى صدورهم ، فتذكروا آنذاك أنه لم يكن يجمل بهم أن يعترضوا على صنيع صدر عن رسول الله، ثم مالبث الرسول بعطفه عليهم وحبه لهم أن أوضح لهم ماغمض أمره عليهم من أنه فعل ما فعل لتوسعة دائرة الإسلام فى نطاق قوم أراد أن يؤلف قلوبهم ، أما الأنصار فإنهم من عمق الإيمان وثبات اليقين وغنى النفس وفضل القناعة بحيث لم يكونوا ليطمعوا فى عطايا زائلة وفىء سوف يكون بين أيديهم منه الكثير .

ثم استطرد الرسول العظيم فأرضاهم الرضى الذى لم يكونوا يحلمون به ، فلم يكن لديهم من صور التعبير عن هذا الرضى إلا البكاء بدموع اخضلت منها لحاهم ، وهو أنه لولا الهجرة لكان واحدا منهم ، يسلك شعبهم لو سلك الناس غيره ، ويدعو لهم ولأبنائهم ولأحفادهم .

من أجل ذلك خلع الرسولﷺ على الأنصار الشرف الرفيع بأنهم كرشه وعيبته ، وأنهم قضوا الذى عليهم ، ولم يأخذوا بعدُ حقوقهم وينالوا حسن جزائهم ، ومن ثم كان جوهر وصية رسول الله بهم أن يُقْبَلَ من محسنهم وأن يُتَجَاوَزَ عن مسيئهم ، وهو امتياز منحه رسول الله إياهم دون سواهم .



الفصل السادس

وصية الرسول إلى الخليفة من بعده
ووصيته ﷺ المسلمين حيال حكامهم



وصية الرسول إلى الخليفة من بعده ووصيته للمسلمين حيال حكامهم

كان الرسول ﷺ مطمئنا على جماعة المسلمين ما دام يعيش بينهم ، ولكنه يعى قول الله ـ جل وعزّ ـ : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ (1) ومن ثَمَّ قرر أن يترك وصية معلنة لمن يخلفه فى ولاية أمر المسلمين من بعده . والخليفة هنا : هو كل من يلى أمر الأمة الإسلامية منذ أن ينتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، على أن تخريجنا هذا لايمنع أن يكون المقصود هو الخليفة من بعده مباشرة .

عن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

« أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله ، وأوصيه بجماعة المسلمين ، أن يعظم كبيرهم، ويرحم صغيرهم ، ويوقر عالمهم ، وألا يضربهم فيذلهم ، ولا يوحشهم فيكفرهم ، وألا يغلق بابه دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم » (2) .

إن وصية الرسول ﷺ للخليفة من بعده تضم العناصر السبعة الأساسية التى ينبغى أن يلتزم بها الحاكم مجتمعة ، وألا يخلّ بواحد منها ، فالخليفة أو الرئيس الذى لا يلتزم بتقوى الله يكون صدى حكمه مختلاً ، بل تكون إمارته فاسدة . وإن حاكما ـ خليفة كان أو ملكا أو رئيسا ـ لا يعظم الكبير ولا يرحم الصغير ولا يوقر العلماء يكون حاكما فاسدا ، وإن حاكما يضرب جماعة المسلمين ويوقع الرعب فى قلوبهم ويغلق بابه دونهم يكون مدمِّرا لدولته ، فالوحشة هى المجافاة ، وإغلاق أبواب الحاكم فى وجه الناس إهدار لمصالحهم ؛ فيكفرون به خليفة وراعيا ، وتتسع دائرة القطيعة والكراهية بينهم

(1) سورة الرعد ، من الآية : ٣٨

(2) البيهقى فى السنن الكبرى : عن أبى أمامة (من جامع الأحاديث للسيوطى رقم ٨٨١٨)

وبينه ، فتضعف مكانته كخليفة ، وتضطرب أمورهم كرعايا ، ويسود الظلم ، ويُفْتَقَدُ الأمن والأمان .

ولو أن حكام المسلمين التزموا بوصية رسول الله لهم طبقا لما ورد فيها لكان حال المسلمين اليوم غير ماهو عليه الآن من ذل وفقر وجهل وهوان .

ثمت وصية من الوصايا الأخيرة التى صدرت عن رسول الله ﷺ إنها وصية مودع ، بل وصايا مرتحل ، فمثلما أوصى الرسول ﷺ الخليفة من بعده ، فإنه هنا يوصى جماعة المسلمين بالخليفة وإن كان عبدا حبشيا ، ولكنه صدّر كلاًّ من الوصيتين بالتزام العمود الفقرى للإيمان ، وهو تقوى الله .

عن أبى نجيح العرباض بن سارية ـ رضى الله عنه ـ قال : صلى لنا رسول الله ﷺ الفجر ، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، قلنا ـ أو قالوا ـ : يارسول الله كأن هذه موعظة مودع فأوصنا ، قال :

« أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن كان عبدا حبشيا ، فإنه من يعش منكم ير بعدى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وإن كل بدعة ضلالة » (١).

وصيته للمسلمين بحكامهم :

أما وقد جرى ذكر وصيتى الرسول ﷺ لكل من الخليفة والرعية ، فإنه يكون من المناسب أن نورد حكم طاعة الإمام وعصيانه ، ويتضح ذلك كل الوضوح فى حديث عوف بن مالك الأشجعى وهو :

عن عوف بن مالك الأشجعى ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلّون عليهم ويصلون عليكم ،

(١) جامع العلوم والحكم ص ١٢٦ من رواية أبى داود والترمذى .

وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » قال : قلنا يارسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك ؟ قال : « لا ما أقاموا الصلاة فيكم ، ألا من ولى عليه وال فرآه يأتى شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتى من معصية الله تعالى ولا ينزعنّ يدًا من طاعة » [1].

إنه حكم قاطع الوضوح حول ما يدور هذه الأيام عن موقف بعض جماعات المسلمين من بعض حكام المسلمين .

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه : عن عوف بن مالك . (جامع الأحاديث رقم ١١٦٩٣) .





الباب السابع

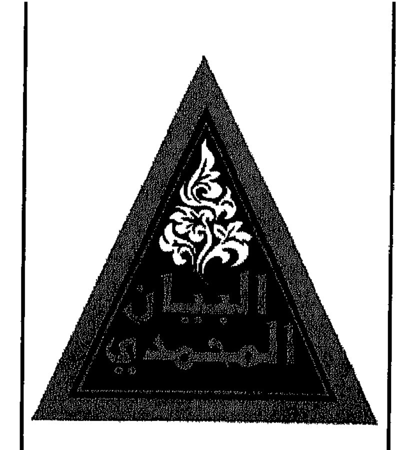
الأمثال النبوية السائرة

الفصل الأول : الأمثال ومن صنف فيها من العلماء

الفصل الثانى : من موضوعات الأمثال النبوية

الفصل الثالث : نماذج من الأمثال النبوية السائرة





الفصل الأول

الأمثال ومن صنف فيهـا مـن العلمـاء


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأمثال ومن صنف فيها

الأمثال : ضرب من فنون القول البليغ ، عرف العرب الأقدمون به مثلما عرفوا بالشعر والخطابة ، وقد توفر عدد غير قليل من العلماء على جمع الأمثال ، ووضع كل منهم حصيلة ما جمع بين دفتى كتاب ، وإن أهم ما بين أيدى الدارسين من كتب الأمثال كتاب : « الأمثال » لأبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ

ولكن جهد أبى عبيد لايغضّ من فضل علماء آخرين رواداً أساتذة توفروا على جمع «الأمثال » والتأليف فيها مثل المفضل الضبى المتوفى سنة ١٨٠ هـ ، وأبى فيد مؤرج السدوسى المتوفى سنة ١٩٨ هـ ، وأبى عكرمة الضبى المتوفى سنة ٢٥٠ هـ ، والمفضل ابن سلمة المتوفى ٢٩١ هـ ، وقد أطلق على كتابه « الفاخر» وأبى بكر بن دريد فى كتابه « المجتنى » ، وحمزة بن حسن الأصفهانى المتوفى سنة ٣٥١ وقد أطلق على كتابه «الدرة الفاخرة فى الأمثال السائرة » وأبى الحسن بن خلاد الرامهرمزى المتوفى سنة ٣٦٠هـ وأطلق على كتابه «أمثال النبى » وأبى هلال العسكرى المتوفى ٣٩٥ هـ وقد أطلق على كتابه «جمهرة الأمثال » وعلى بن الفضل الطالقانى المتوفى سنة ٤٢١ هـ ، وأبى الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ ويحمل كل من الكتابين عنوان «الأمثال» وأبى الحسن الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ وعنوان كتابه « الأمثال والحكم » وأبى الحسن على بن أحمد الواحدى المتوفى سنة ٤٦٨ هـ وعنوان كتابه «الوسيط فى الأمثال»، و أحمد بن محمد الميدانى النيسابورى المتوفى سنة ٥١٨ هـ وكتابه يعد أشهر كتب الأمثال قاطبة وعنوانه « مجمع الأمثال » .

هذا وقد اهتم كثير من المؤلفين فى فنون الأدب بالأمثال فأفردوا لها فصولا خاصة مجمعة حينا ومفرقة حينا آخر ، وأشهر من عنى بهذا النهج أحمد بن عبد ربه فى كتابه «العقد الفريد » حيث أفرد بابا كبيرا من العقد وأطلق عليه « كتاب الجوهر » فى الأمثال

وكذلك فعل أبو الحسن الماوردى في كتابه « أدب الدنيا والدين » فقد ألحق بكل باب من أبواب كتابه مجموعة من الأمثال التى تتسق مع موضوع الباب ، هذا فضلا عن كتابه « الأمثال والحكم » . هذه الكتب التى ذكرنا كلها مطبوعة ومحققة تحقيقا جيدا ، ولا يزال عدد آخر من كتب الأمثال لعلماء أجلاء مثل الأصمعى وابن الأنبارى والبيهقى مخطوطة لم تطبع بعد .

وإن أكثر من ألف فى الأمثال أشاد بفضلها فى تعليم الأدب ، ونبه إلى مكانتها بين فنونه ، فأبوعبيد يقول عنها فى مقدمة كتابه : « هى حكمة العرب فى الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض أحلامها ، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها فى المنطق بكناية غير تصريح ، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه ، ثم ذكر شيئا من منهجه فى تأليفها[1] .

وحين يعرض أحمد بن عبد ربه للأمثال يكتب عنها فصلا ممتعا يقول فيه : « ونحن قائلون ـ بعون الله وتوفيقه ـ فى الأمثال التى هى وشى الكلام وجوهر اللفظ وحَلْىُ المعانى ، والتى تخيرتها العرب ، وقدمتها العجم ، ونطق بها فى كل زمان ، وعلى كل لسان ، فهى أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة ، لم يسر شىء مسيرها ، ولا عم عمومها ، حتى قيلَ : أَسْيَرُ من مثل ، قال الشاعر :

ما أنت إلاَّ مثلٌ سائرُ ‏ ‏ ‏ ‏ يعرفه الجاهلُ والخابرُ[2]

وعن الأمثال يقول أبو الحسن الماوردى [3] : « لها من الكلام موقع الأسماع والتأثير فى القلوب ، فلا يكاد المرسل يبلغ مبلغها ، ولا يؤثر تأثيرها ؛ لأن المعانى بها لائحة ، والشواهد بها واضحة ، والنفوس بها وامقة ، والقلوب بها واثقة ، والعقول لها موافقة » ويمضى الماوردى قائلا : « فلذلك ضرب الله الأمثال فى كتابه العزيز ، وجعلها من دلائل رسله وأوضح بها الحجة على خلقه ؛ لأنها فى العقول معقولة ، وفى القلوب مقبولة» .

---

(١) الأمثال ، ص : ٣٤

(٢) العقد الفريد ٣ / ٦٣

(٣) أدب الدنيا والدين ، ص : ٢٧٥

الأمثال النبوية السّائرة والتأليف فيها :

أما وتلك هى قيمة الأمثال بلاغة صنع ، وإيجاز قول ، ونصاعة بيان ، وسهولة مأخذ ، وسمو مكانة بين ضروب القول ، فقد بات من البداهة بمكان أن يكون لسيد الفصحاء ، وأبلغ البلغاء محمدﷺ السهم الأوفر فى مراتبها ، والقدح المعلى فى نصاعتها ، ومن ثم فإن كل الذين ألفوا فى الأمثال طرزوا كتبهم وشرفوا تصانيفهم بقافلة من الأمثال النبوية الشريفة .

إن أبا عبيد يذكر ذلك صراحة فى خطبة كتابه فيقول : « وكان مما دعانا إلى تأليف هذا الكتاب وحثنا عليه ، ما روينا من الأحاديث المأثورة عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قد ضربها وتمثل بها هو ومن بعده من السلف ، وقد ذكرنا ذلك ليكون حجة لمذهبنا » (١) .

وعلى نفس المنوال ينسج أحمد بن عبد ربه فيقول : « وقد ضرب الله ـ عز وجل ـ الأمثال فى كتابه ، وضربها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كلامه » (٢) ثم يتمثل بعد ذلك بالكثير من الأمثال التى قالها رسول الله ﷺ .

هكذا تكون أمثال الحديث النبوى هى السبب المباشر الذى دعا أبا عبيد إلى تأليف كتابه « الأمثال » مثلما أنها سبب كذلك وإن يكن غير مباشر لأن يخصص لها أحمد بن عبد ربه قسما غير صغير فى كتابه الكبير « العقد الفريد »

ولكن المتوفرين على حديث رسول الله رواية وحفظا سرعان ما أدركوا أن أمثال الحديث الشريف جديرة بأن تستقل بكتب خاصة بها وحدها دون غيرها من أمثال العرب .

وإن أول كتاب صادفناه فى التأليف المستقل بالأحاديث النبوية التى تجرى مجرى الأمثال السائرة هو « الأمثال السائرة عن النبىﷺ وعن غيره» للحسين بن محمد الحرانى

---

(١) الأمثال ، ص : ٣٤ .

(٢) العقد الفريد ٣/ ٦٣ .

المتوفى سنة ٣١٨ هـ وشهرته أبو عروبة ، كان محدثا حافظا مؤرخا مفتيا لحران ، والكتاب قد ضاع ولم يبق منه غير ورقة واحدة كتبت سنة ٨٠٧هـ(١)وذكر له صاحب تذكرة الحفاظ كتابا بعنوان « الأمثال والأوائل » .

ويدل عنوان الكتاب على أن أمثالا أخرى لغير رسول الله ﷺ قد ضمتها صفحاته ، ويذكر ابن خير الأشبيلى أن المادة الخاصة بأمثال النبى ﷺ قد رويت مسلسلة الإسناد عن عبد الله بن عمرو بن العاص الذى قال : حفظت عن رسول الله ﷺ ألف مثل(٢).

ويلى كتاب « الأمثال السائرة » من حيث الترتيب الزمنى كتاب « أمثال الحديث » للقاضى أبى محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الشهير بالرامهرمزى المتوفى سنة ٣٦٠ هـ .

وكان ابن خلاد يجمع بين علوم السنة وبين الأدب من شعر رقيق ونثر أنيق ، فهو يؤلف فى الأدب كتبا مثل « ربيع المتيم فى أخبار العشاق » أو كتاب « الفلك فى مختار الأخبار والأشعار » أو كتاب « مباسطة الوزراء » نراه يؤلف كتاب « المحدث الفاصل بين الراوى والواعى » فى علوم الحديث ، وكتاب « أمثال النبى الله صلى الله عليه وسلم » وكتاب « التنزيل فى علم القرآن » و « كتاب الريحانتين الحسن والحسين » (٣).

ومن طريف شعره قوله :

قل لابن خلاد إذا جئتـه مستندا فى المسجد الجامع
هذا زمان ليس يحظى به « حدثنا الأعمش عن نافع»

وقد عاش ابن خلاد فى زمان الحكام الوزراء العلماء الأدباء الذين منهم أبو الفضل ابن العميد ، وأبو محمد المهلبى ، والأمير عضد الدولة بن بويه ، وكانوا يحترمونه،

---

(١) معجم ما ألف عن رسول الله ، لصلاح الدين المنجد .
(٢) فهرسة ابن خير الأشبيلى ١ / ٢١٣ .
(٣) يراجع معجم الأدباء ٤ / ١٤٠ وتذكرة الحفاظ ٣ / ٩٠٥ .

ويبدأونه بالمكاتبات ، ويلقونه بالتكريم ، ويفسحون له فى مجالسهم ، ويحسنون الاستماع إليه ، وكان علماء زمانه يطلقون عليه « محدّث العجم » .

ويعاصر ابن خلاد ، الحافظ المحدث عبد الله بن محمد بن جعفر الأنصارى أبو محمد المتوفى سنة ٣٦٩ هـ صاحب كتاب (السنة) وكتاب (طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها) ، وكتاب (عظمة الله ومخلوقاته) وكتاب (التاريخ على السنين) (١) ثم الكتاب الذى نعنى به هنا وهو كتاب (الأمثال) أو (أمثال الرسول) (٢) .

ويعيش فى نفس العصر الذى عاش فيه ابن خلاد وعبد الله بن محمد بن جعفر ، عالم آخر شهير هو أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكرى المتوفى سنة ٣٨٢ هـ وهذا يعنى أنه قد عاصر ابن خلاد وإن لم يلتقيا ، وهو غير الحسن العسكرى الإمام الحادى عشر للشيعة الاثنا عشرية ، فأبو أحمد الحسن العسكرى منسوب إلى بلدته التى ولد فيها ومات بها وهى « عسكر مُكْرَم» وهى مدينةبالأهواز ، وأما الحسن العسكرى الإمام فينسب إلى « العسكر » وهى نفسها مدينة « سرّ من رأى » التى بناها المعتصم العباسى لعسكره بعيدا عن بغداد؛ حتى يتقى الناس شرورهم ، وكان يطلق عليها « العسكر » مثلما كانت تسمى « سرّ من رأى » ثم عرفت بعد ذلك وحتى عصرنا بـ« سامَرّا » .

ولأبى أحمد العسكرى ـ الذى هو موضوع حديثنا ـ مؤلفات كثيرة ونفيسة مثل : (صناعة الشعر) و (التصحيف) و (الزواجر والمواعظ) و (راحة الأرواح) و (الحكم والأمثال المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) ويضيف ابن خير إلى عنوان الكتاب عبارة « وشرح ألفاظه التى لم يسبق إليها »

والعجيب أن كثيرا ممن ترجموا لأبى أحمد العسكرى ـ بل جلُّهم ـ حينما ذكروا مؤلفاته ذكروا بينها « كتاب الحكم والأمثال » مجردا من نسبة محتواه من حكم وأمثال إلى رسول الله ﷺ وإن المؤلف الوحيد الذى ذكر عنوان الكتاب كاملا ومنضبطا ـ حسب علمنا ـ

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبى ٣/ ٩٤٥ .

(٢) الأمثال العربية القديمة لرودلف زلهايم ص : ٣٧ ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب .

هو ابن خير الأشبيلى فى فهرسته [1] ونقل عنه الدكتور صلاح المنجد [2] .

لقد خلف أبو أحمد العسكرى عددا كبيرا من الكتب لم يصل منها إلينا مطبوعا غير كتابين هما « المصون » فى الأدب ، و « التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم »

وكان العسكرى من أعيان العلماء الحفاظ الأدباء الشعراء المؤلفين ، وكان الصاحب ابن عباد يحترمه ويكبره ، وقد جرت بينهما مكاتبة فريدة اتسمت بالظرف والأدب ، والأمر الجدير بالذكر أن عالمنا الكبير هو خال أبى هلال العسكرى وأستاذه ، بل إنهما يشتركان فى الاسم والصفة وإن اختلفا فى الكنية .

لا تكاد تمضى عقود قليلة من السنين حتى يظهر فى الأفق الإسلامى عالمان جليلان مرموقان هما أبو الحسن الماوردى (المتوفى سنة ٤٥٠ هـ) فى بغداد ، وأبو عبد الله القضاعى (المتوفى سنة ٤٥٤ هـ) فى الفسطاط .

كان الماوردى فقيها كبيرا ، وكان يلقب بأقضى القضاة ، ولقد أثرى المكتبة الإسلامية بتآليفه الكثيرة الجليلة التى منها (الآداب السلطانية) و (أدب الدنيا والدين) و (تفسير القرآن الكريم) و (الحاوى) فى الفقه الشافعى نيف وعشرون جزءا، و (أعلام النبوة) و (قانون الوزارة) و (سياسة الملك) و (تسهيل النظر) و(الأمثال والحكم) و (أمثال القرآن) وغيرها .

والذى يعنينا فى هذا المقام من مؤلفات الماوردى كتاباه الأخيران : (الأمثال والحكم) و (أمثال القرآن) .

إن كتاب الماوردى الموسوم بـ « الأمثال والحكم » لا يبدو من عنوانه أنه إسهام فى التأليف فى الأمثال النبوية ، ذلك أن منهج الكتاب اقتضى من المؤلف أن يخصه بهذا العنوان الذى يفسره قوله فى مقدمته :

« أما بعد : فإن أول ما تأدب به المهمل الغافل ، واتعظ بن الفطن العاقل : كتاب

---

(١) الفهرسة ١ / ٢٤٥ .

(٢) معجم ما ألف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ص ٢٩٥ .

الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، قد جمع الله فيه جوامع الحكم والأمثال ، وجعله تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ، فحق عباد الله أن يكونوا بكتابه مستمسكين ، وبأدبه آخذين ، وبحكمه وأمثاله معتبرين » .

ويستطرد الماوردى فى مقدمة كتابه « الأمثال والحكم » قائلا : حكى الأصمعى أن أعرابيا وصى ابنه عند موته فقال : يابنى وصيتى إياك مع وصية الله منجية ، وإن الرضا بها القناعة ، وعود الخير أحمد ، وإنى أسترعى لك بعد وفاتى الذى أحسن إليك فى حياتى ، فأولى الأمور بعد كتاب الله سنة رسول الله ﷺ فقد قال ـ عليه السلام ـ : « **أوتيت جوامع الكلم واختصرت إلى الحكمة اختصارا** » ثم بعد السنة أمثال الحكماء وأقوال الشعراء ، فقد قال رسول الله ﷺ : « **إن من الشعر لحكمة** » و « **إن من البيان لسحرا** » .

يقول الماوردى : وقد جمعت فى كتابى هذا من سنة رسول الله ﷺ أحاديث وجيزة الألفاظ واضحة المعانى (يقصد أمثال الحديث النبوى) ومن أمثال الحكماء وأقوال الشعراء ما كان عذب البديهة سائر الذكر .

لقد ضمّن الماوردى كتابه « الأمثال والحكم » ثلاثمائة حديث تحمل كلها أدب الرسول ﷺ وتعاليمه ، ويجرى جُلُّهَا مجرى الأمثال الحكيمة السائرة ، هذا فضلا عن ثلاثمائة حكمة لبلغاء العرب ، وثلاثمائة بيت شعر تجرى مجرى الأمثال ، وبذلك يمكن أن يحسب هذا الكتاب واحدا من الكتب القلائل التى عنيت بالأمثال النبوية التى جرت على ألسنة المسلمين فى مجال التمثل بالحكمة السائرة البليغة الخفيفة على السمع ، السريعة إلى القلب ، الطلقة على اللسان .

وإذا كان ابو الحسن الماوردى يمثل ثقلا معتبراً فى العلوم الإسلامية فى بغداد ، فقد كان أبو عبد الله القضاعى يمثل بدوره ثقلا شبه متوازن فى الفسطاط عاصمة مصر العلمية ، فقد كان فقيها مفسرا مؤرخا إخباريا قاضيا ، وهو مؤلف عدد غير قليل من الكتب النفيسة الشهيرة التى يجىء فى مقدمتها كتاب « الشهاب فى الآداب والأمثال

والمواعظ والحكم المروية عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ »وكان القضاعى يعرف « بالشهاب » مثلما يعرف الماوردى بالآداب السلطانية ، فكان يقال : القضاعى الفقيه الشافعى صاحب الشهاب ، وقد نال كتاب الشهاب حظوة وشهرة عند علماء المسلمين فى المشرق والمغرب والأندلس ، وكان علماء الأندلس يفدون إلى الفسطاط ليسمعوا أبا عبد الله القضاعى يقرأ عليهم كتابه « الشهاب » فى منزله بمصر ، ومنهم من حدد موقع المنزل فقال : وأنا أسمع فى داره بسوق بربر بفسطاط مصر سنة ٤٥٠ هـ (١).

لم يكن كتاب الشهاب ـ على شهرته ـ هو المؤلف النفيس الوحيد للقضاعى ، ذلك أن للرجل إسهامات جليلة فى خدمة العلوم الإسلامية ، فمن كتبه المطبوعة بين أيدينا بالإضافة إلى « الشهاب » ، كتاب « دقائق الأخبار وحدائق الاعتبار » و « دستور معالم الحكم » من كلام الإمام على بن أبى طالب ، و « ألف ومائتا كلمة من حديث رسول الله » .

ومن كتبه المخطوطة « مسند الشهاب » وهو شقيق لكتاب « الشهاب فى الآداب والأمثال والمواعظ والحكم المروية عن رسول الله » غير أن « مسند الشهاب » موضوعه أحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد نال بدوره شهرة واسعة ، وأقرأه مؤلفه عددا من المحدثين والرواة فى مشرق الدولة الإسلامية ومغربها (٢). وله أيضا من الكتب المخطوطة : «درة الواعظين وذخرة العابدين » و « عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف » و « الإنباء عن الأنبياء » و « نزهة الألباء فى التاريخ » و « مناقب الشافعى ، ومعجم شيوخه » و « تاريخ مصر من مبدأ الخلق إلى زمانه » و « تواريخ الخلفاء » و «خطط مصر » .

ومن طريف ما قيل فى تمجيد كتاب الشهاب قول فارس بن الحسين الهذلى (٣).

إن الشهابَ كتابٌ يُسْتَضَـاءُ بـه ... فى العلم والحلم والآدابِ والحكمِ

(١) فهرسة ابن خير ١ / ٢٢١ .
(٢) المصدر السابق ١ / ٢٢٣ .
(٣) الوافى بالوفيات ٣ / ١١٩ .

سقى القضاعىَّ غيثٌ كلما لمعتْ　　　هذى المصابيحُ فى الأوراقِ والكلمِ

ولا ينبغى أن يغيب عن أذهاننا فى هذه العجالة أن نذكر العالم الجليل الحسن بن الفضل صاحب كتاب « الأمثال الكامنة فى القرآن والسنة »وذلك طبقا للعنوان الذى نقله محقق كتاب « الوسيط فى الأمثال » للواحدى ، لأننا سوف نعود مرة أخرى لهذا الكتاب عند التعريف بكتب « أمثال القرآن » لأنه سيرد بعد ذلك ككتاب أمثال للقرآن وحده دون السنة .

وفى العصر الحديث صنف يوسف بن إسماعيل النبهانى كتابا عنوانه « الأحاديث الأربعين فى أمثال أفصح العالمين » .

والنبهانى من مواليد قرى حيفا بفلسطين سنة ١٢٥٦ هـ/ ١٨٤٩ م تعلم فى الأزهر الشريف ، وعمل محررا فى جريدة (الجوائب) فى الآستانة ، ثم قاضيا فى بيروت ، ثم مجاورا للروضة الشريفة فى المدينة المنورة ، وتوفى ١٣٥٠ هـ/ ١٩٣٢ م وهو فى مقدمة من توفروا على سنة رسول الله تأليفا ، ومن توفروا على مدحه ﷺ شعرا وله فى ذلك دواوين عديدة وقصائد نفيسة .

أما وقد ذكرنا أشهر كتب الأمثال النبوية السائرة . فإن إشارة سريعة « لأمثال القرآن الكريم » جديرة بالعناية ، خليقة بالاعتبار .

لقد سلفت الإشارة إلى ما أُلِّف فى أمثال القرآن والحديث مجتمعين ، مثل كتاب «الأمثال الكامنة فى القرآن والسنة » للحسن بن الفضل ، غير أن ذكر الكتب التى خصصت لأمثال القرآن غير المختلطة بأغراض أخرى يبدو أمرا ضرويا فى مثل هذا المقام .

لعل أقدم كتاب ألف فى أمثال القرآن هو كتاب الصوفى الشهير أبى القاسم الجنيد ابن محمد الجنيد المتوفى سنة ٢٩٧ هـ الملقب بالقواريرى الخزاز ، لأن أباه كان يصنع القوارير ، وأما هو فكان يعمل الخزّ شأن أكثر علماء المسلمين الذين كانوا يأكلون من عمل أيديهم .

ولا يستغربن امرؤ أن يؤلف الجنيد كتابا فى أمثال القرآن ، وقد اشتهر بالإيغال فى التصوف ، وحتى تبطل هذه الغرابة فمن الحقائق التاريخية أن معتدلى المتصوفة كانوا من أكثر العلماء استمساكا بالقرآن الكريم والسنة النبوية والفقه ، وقد كان الجنيد فقيها وتتلمذ فى شبابه على أبى ثور ، وكان يفتى فى حضرة أستاذه فى حلقته، والحديث فى ذلك طويل ، وباختصار شديد كان الجنيد يقول : علمنا مضبوط بالكتاب والسنة ، من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به . والجنيد هو ابن أخت السرى السقطى ، وللجنيد من الكتب غير أمثال القرآن « المقصد إلى الله تعالى » «معانى الهمم فى الفتاوى الصوفية » و « السر فى أنفاس الصوفية» (١).

ويلى الجنيد زمنيا فى التأليف فى أمثال القرآن إبراهيم بن محمد بن عرفة ، المشهور بلقب « نفطويه » المولود فى واسط سنة ٢٤٤ هـ والمتوفى ببغداد سنة ٣٢٣ هـ ، ونفطويه عربى المحتد أزدى المنتمى ، وهو من أحفاد المهلب بن أبى صفرة ، وكان ـ على الرغم من علمه الوفير فى اللغة وعلوم القرآن والتاريخ والعقائد ـ قذر الملبس ؛ بحيث تبدو ملابسه وكأنها اتسخت بالنِّفط فلقب بنفطويه على قياس غير دقيق بلفظ سيبويه ؛ لأنه كان فى النحو من مدرسة سيبويه ، ولقد أحصى له كل من ابن النديم وياقوت الرومى عددا من المؤلفات فى موضوعات نفيسة مثل كتاب (أمثال القرآن) وكتاب (الأمثال) وكتاب (غريب القرآن) وكتاب (الوزراء) وكتاب (الملح) وكتاب (المصادر) وكتاب (القوافى) وغير ذلك (٢).

وثمت متصوف آخر ألف كتابا فى « أمثال القرآن » هو محمد بن الحسين بن موسى السلمى الأزدى النيسابورى ، والمكنى بأبى عبد الرحمن المتوفى بنيسابور سنة ٤١٢ هـ وكانت ولادته سنة ٣٢٥ هـ (٣)فهو أزدى مثل سابقه « نفطويه» وصوفى مثل الجنيد ، وقد تجاوزت مؤلفات أبى عبد الرحمن المائة عدًّا ، والمشهور المطبوع منها كتاب (طبقات

---

(١) الفهرست لابن النديم ١ / ١٨٥ ، تاريخ بغداد ٧ / ٢٤١ـ٢٤٩ .
(٢) معجم الأدباء ١ / ٣٠٧ـ٣١٥ .
(٣) حاجى خليفة ١ / ١٥٠ .

الصوفية) و (رسالة الملامتية) و (آداب الصحبة) و (عيوب النفس ومداواتها) و(الأربعين فى الحديث) .

ومن العلماء الذين صنّفوا فى أمثال القرآن أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن إسحاق القضاعى ، وهو غير أبى عبد الله القضاعى المصرى الذى سلف ذكره فى مصنفى كتب أمثال الحديث النبوى ، فأبو محمد أسبق زمناً من أبى عبد الله .

يقول ابن خير الأشبيلى : إن أبا محمد الحسن بن عبد الرحمن بن إسحاق القضاعى قد ألف « كتاب الأمثال الكامنة فى القرآن » ويوثق هذا الخبر قائلا : حدثنى به الشيخ أبو الحسن عباد بن سرحان المعافرى سماعا عليه ، قال : قرأت على الشيخ الزاهد أبى بكر محمد بن طرخان ، قال : أنبأنا الشيخ أبو الحسن على بن غنائم بن عمر المالكى ، قال : حدثنا أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن إسحاق القضاعى لفظا [١] .

ومن الذين ألفوا أيضا فى « أمثال القرآن » الحسن بن الفضل الذى مر ذكره عند استعراض الكتب التى صنفت فى أمثال الحديث ، ذلك أن الكتاب الذى ذكر آنذاك يحمل عنوان « الأمثال الكامنة فى القرآن والسنة » غير أن ابن خير يذكره بنفس العنوان ولكن مجردا من كلمة السنة ، يعنى أن عنوان الكتاب كما ذكره ابن خير هو كتاب «الأمثال الكامنة فى القرآن » استخراج الحسن بن الفضل [٢] .

وتدل رواية ابن خير فى توثيق الكتاب على أن الحسن بن الفضل عاش ـ على أكثر تقدير ـ فى القرن الرابع الهجرى .

المصنفون فى أمثال القرآن :

ومن المصنفين لكتب أمثال القرآن أيضا أبو الحسن الماوردى العالم الجليل السابق ذكره فى أمثال الحديث ، فلم يفته أن يعنى بأمثال القرآن الكريم عنايته بأمثال الحديث بكتابه « الأمثال والحكم » فألف كتابه « أمثال القرآن » وقد سلف القول أن الماوردى توفى فى منتصف القرن الخامس ، وعلى وجه التحديد سنة ٤٥٠ هـ ، ولقد وقع بعض

---

(١) فهرسة ابن خير ١ / ٩٣ .
(٢) المصدر السابق ١ / ٩٣ .

الخلط عند بعض المؤلفين ـ وبخاصة المستشرقين ـ بين كتابى « الأمثال والحكم » و«أمثال القرآن » وظنوهما ـ خطأ ـ كتابا واحدا ، بينها هما كتابان منفصلان .

ويبدو لنا أن التأليف فى أمثال القرآن والحديث قد بدأ فى وقت متزامن نوعا ما ، وقد يكون التأليف فى أمثال القرآن بدأ قبل التأليف فى أمثال الحديث بعقود قليلة من السنين إذا ما صح أن أول كتاب فى أمثال القرآن قد ألفه الجنيد ، وأن أول كتاب فى أمثال الحديث قد ألفه الحسين بن محمد الحرانى ؛ ذلك لأن الجنيد توفى ٢٩٧ هـ والحرانى توفى سنة ٣١٨ هـ .

والمرجح أن أمثال القرآن قد شغلت دارسى العلوم القرآنية بشكل مكثف، وهو ما يلمسه كل من غمس نفسه بشرف العمل فى الدراسات القرآنية ، من ذلك أن أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم سمع أباه يقول للحسن بن الفضل الذى تكرر ذكره فيما سلف من سطور : إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن ، فهل تجد فى كتاب الله : خير الأمور أوساطها ؟ قال : نعم ، فى أربعة مواضع [(١)]، قوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ .

ثم عاد مضارب بن إبراهيم يسأل الحسن بن الفضل : هل تجد فى كتاب الله : من جهل شيئا عاداه ؟ قال : نعم ، فى موضعين ، قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ قال مضارب إبراهيم : فهل تجد فى كتاب الله : ليس الخبر كالعيان ؟ قال : نعم ، فى قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾

(١) فهرسة ابن خير ص ١٩٤ والإتقان ٢ / ١٣٢ .

يقول الماوردى فى هذا السياق كلاما ينبه الغافل ويسر العاقل فيما يتصل بأمثال القرآن ، فمن ذلك قوله : من أعظم علم القرآن علم أمثاله ، والناس فى غفلة عنه .

وإن الذين اهتموا بالتأليف فى الآداب لم يفتهم أن يضمِّنُوا مؤلفاتهم نماذج مما ورد فى كتب الأمثال السائرة الواردة فى آيات الكتاب العزيز ، من ذلك على سبيل المثال ماصنعه جعفر بن محمد شمس الخلافة المتوفى بمصر سنة ٦٢٢ هـ فى كتابه « الآداب النافعة بالألفاظ المختارة الجامعة » فقد عقد بابا فى ألفاظ أو جمل من القرآن الكريم جارية مجرى المثل منها : (١)

* ﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ .
* ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ .
* ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ .
* ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ .
* ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ .
* ﴿ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ .
* ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ .
* ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ .
* ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .
* ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ .
* ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ .
* ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ .

---

(١) الإتقان ٢ / ١٣٣ .

* ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ .
* ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾ .
* ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ .
* ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ .
* ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ .
* ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ .
* ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ .
* ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ .
* ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ .
* ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ .
* ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾
* ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ .
* ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ .
* ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾



الفصل الثانى

من موضوعات الأمثال النبوية



من موضوعات الأمثال النبوية السائرة

موضوعات الأمثال النبوية السائرة :

شملت الأمثال النبوية كل شئون المسلمين فى نطاق حكمة التجربة السديدة ، ومكارم الأخلاق . وبنية المجتمع ، وشئون الفرد والجماعة ، من علم وعمل، ومروءة وكرم وحرص ، وحرب وسلام ، وصداقة وعداوة، ومحبة وكراهية ، وعبادة وعصيان ، وشجاعة وجبن ، وبلاغة وعيّ ، والكلام والصمت ، والصدق والكذب ، والأمانة والخيانة ، ومشورة واستبداد ، وزواج وطلاق ، وغير ذلك من أمور الناس ، وقضايا الدنيا وشئون الآخرة .

ولا يقف الأمر فى القضية أو الموضوع عند حديث واحد ، وإنما كانت القضية الواحدة تعالج من لدن رسول الله ﷺ بعدد من الأحاديث التى تجرى مجرى الأمثال السائرة .

أمثال فى العلم والعلماء :

فإذا ما ذكرنا موضوعا كالعلم والعلماء على سبيل المثال ، فإننا نقع على عدد غير قليل من الأمثال النبوية فى هذا المجال ، مثل قوله ﷺ :

- **« فضل العلم خير من فضل العبادة »**
- **« قيدوا العلم بالكتاب »**
- **« ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا فى طلب العلم »**
- **« من غدا فى طلب العلم صلت عليه الملائكة »**
- **« طلب العلم فريضة على كل مسلم »**

- « العالم والمتعلم شريكان فى الخير »
- « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم رجلا »
- « من ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حقه »
- « العلماء ورثة الأنبياء »
- « خير أمتى علماؤها ، وخير علمائها فقهاؤها » وفى رواية : « خيار أمتى »
- « للأنبياء على العلماء فضل درجتين ، وللعلماء على الشهداء فضل درجة »
- « لكل شىء فترة ، فمن كانت فترته على العلم فقد نجا »
- « كونوا علماء صالحين ، فإن لم تكونوا علماء صالحين فجالسوا العلماء ، واسمعوا علما يدلكم على الهدى ويردكم عن الردى »
- « من وقّر عالما فقد وقّر ربه »
- « العلم خزائن ومفتاحها السؤال »
- « حسن السؤال نصف العلم »
- « قليل العلم خير من كثير العبادة »
- « لا تمنعوا العلم أهله فتظلموا ، ولا تضعوه فى غير أهله فتأثموا »
- « أجر المعلم كأجر الصائم القائم »
- « اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع »
- « من تعلم علما لغير الله وأراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار »
- « من كتم علما يحسنه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »
- « واضع العلم فى غير موضعه كمقلّد الخنازير اللؤلؤ »
- « إن مثل العلماء فى الأرض كمثل النجوم فى السماء ، يُهتدى بها فى ظلمات البر والبحر »

تلك أكثر من عشرين حديثا من الأمثال قالها رسول الله ﷺ فى موضوع واحد هو العلم والعلماء ، ولاشك فى أن ثمت أحاديث أخرى رويت فى هذا المقام وربما جرى بعضها أيضا مجرى الأمثال ، وهى فى جملتها نبراس لكل بليغ ، وقبس من نور لكل حكيم ، ونعم الزاد والمعين لكل طالب علم .

أمثال فى المشورة :

وإذا استعرضنا أحاديث رسول الله ﷺ التى تناولت الشورى والمشورة وجدناها متممة لمبدأ الشورى الذى جاء فى آيتين من آيات القرآن الكريم ، وقد صاغتها بلاغة رسول الله ﷺ بحيث تسرى إلى قلب كل مسلم قبل أن تجرى على لسانه مثلا سائرا يقول رسول الله ﷺ :

- **« ما خاب من استخار ولا ندم من استشار »**
- **« لن يهلك امرؤ بعد مشورة »**
- **« المستشار مؤتمن »**
- **« المستشير مُعَان »**
- **« المستشار بالخيار ، إن شاء قال ، وإن شاء أمسك »**
- **« رحم الله عبدا قال خيرا فغنم ، أو سكت فسلم »**
- **« المشاورة حصن من الندامة ، وأمن من الملامة »**

أمثال فى المرأة والنساء :

النساء نصف المجتمع ، ومن صنائع الإسلام الاهتمام بالمرأة وإعطاؤها ما تستحق من مكانة وتكريم ؛ لأنها الأم والأخت والابنة والزوجة والعمة والخالة ، وهى عمدة كل بيت ، ومربية كل جيل ، ومن ثم فقد احتلت مساحة كبيرة فى السنة النبوية توجيها وتكريما وتشريعا وتوصيفا وغير ذلك مما يتعلق بشئونها ، ولقد جرى الكثير من أقوال رسول الله فيها مجرى المثل السائر ، وتلك نماذج من هذه الأمثال :

- « فاطمة سيدة نساء العالمين، ماخلا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم »
- « خير نساء ركبن الإبل صوالح قريش ، أحناه على ولد فى صغره ، وأرعاه على بعل فى ذات يده ».
- « إذا تزوجت المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد من عوز » (تساعد زوجها وتعفه وتعينه)
- « تنكح المرأة لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »
- « تزوجوا الزرق فإن فيهن يمنا »
- « تزوجوا الشوابّ فإنهن أَغَرُّ أخلاقا »

(من الغرّة يعنى أبعد عن الشر والمكر)

- « الأيم أحق بنفسها من وليّها ، والبكر تستأذن ، وإذنها صماتها » (يعنى سكوتها)
- « خير النساء الولود الودود»
- « أحسن النساء بركة ، أحسنهن وجها ، وأرخصهن مهرا »
- « إياكم وخضراء الدمن ، قيل : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء فى منبت السوء »
- « خياركم خيركم لأهله »
- « لا تغالوا بالنساء فإنهن سقيا الله »
- « أنا وسفعاء الخدين كها تين يوم القيامة »

(يعنى : سوداء الخدين : لأنها تركت الزينة وقامت على تربية أولادها بعد وفاة زوجها)

- « ليس للنساء سروات الطريق » (سروات الطريق : أعاليها والبارز فيها)
- « رفقا بالقوارير » (قاله الرسول لأنجشة وهو يسوق الإبل بسرعة وعليها النساء) وسيأتى تفصيلا

- « إن الجنة لا يدخلها عجوز »

(يعنى : تعود العجوز شابة متى استحقت دخول الجنة)

- « دخلت امرأة النار فى هرّة »

- « مالكم ولابن سمية ، يدعوكم إلى الجنة وتدعونه إلى النار » (سمية أول شهيدة فى الإسلام ، وابنها هو عمار بن ياسر)

- « ارحموا عزيزاً ذلّ ، وارحموا غنيًّا افتقر » .

(قاله الرسول حين توسلت إليه سفانة ابنة حاتم الطائى أن يطلق إسارها)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



الفصل الثالث

نماذج من الأمثال النبوية السائرة

اخترناها من بعض كتب الأمثال



نماذج من كتب أمثال الحديث

لقد اخترنا نماذج من ثلاثة كتب هى الأمثال لأبى عبيد ، وأمثال النبى للرامهرمزى ومن « جمهرة الأمثال » لأبى هلال العسكرى .

(١)

نماذج من أمثال الحديث من كتاب الأمثال لأبى عبيد :

● من صَدَق الله نَجَا .

وفى حديث آخر مرفوع « وهل يَكُبُّ الناسَ على مَناخِرهم فى النَّار إلا حصَائِدُ ألسنتِهم »[١].

● ومنها قوله ﷺ حين ذَكر الْغُلُوَّ فى العبادة :

« إنَّ المنْبتَّ لا أرضًا قَطَع ولا ظَهْراً أبْقَى » يقول : إن هذا إذا كلَّف نفسه فوق طاقتها من العبادة بقى حَسيراً ، كالذى أفرط فى إغْذاذ السَّيْر حتى عَطِبت راحلته ، ولم يَقْض سَفره[٢].

● « إيَّاكُمْ وخضْراءَ الدِّمَن » قيل : وما خضراءُ الدِّمَن ؟ قال : « المرأةُ الحسناءُ فى مَنْبت السُّوء »[٣].

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب الإيمان (حديث ٢٦١٦) وأحمد فى مسنده ٥ / ٢٣١ ، ٢٣٧ .

(٢) الحديث أخرجه أحمد فى مسنده ٣ / ١٩٩ وصدره « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك ، فإن المنبت . . . » والمنبتّ : الذى أتعب دابته حتى عطبت فبقى منقطعا به . قاله ﷺ لرجل اجتهد فى العبادة حتى هجمت عيناه ، أى : غارتا .

(٣) جمع الجوامع للسيوطى ١ / ٣٦٣ ، والدمن : جمع دمنة ، وهى الموضع الذى تجتمع فيه الغنم ، فتتلبد أبوالها وأبعارها، وقد ضربه النبى ﷺ مثلاً لخبث المنبت ، كما ضرب جودة النبات مثلاً لحسن المرأة .

ومنها قوله ﷺ حين ذَكر كثرةَ الرِّبا فى آخر الزمان :

« مَنْ لم يَأْكُلْهُ أَصَابهُ من غُبَارِهِ » فقد عُلم أنه ليس ثَمَّ غبار ، إنما هذا مَثَل لما ينال الناس منه (١).

● « الحَرْبُ خدْعَةٌ » .

قال على : قال أبو محمد سَلَمة : من قال : « الحرب خَدْعَة » فمعناه أنه من خُدِع فيها خَدْعة فزلَّت قدمه وعَطِب فليس له إقالة ، ومن قال : « خُدَعَة » أى : إنها تَخْدع أهلَها ، ومن قال : الحرب خُدْعَة » [بضم الخاء وتسكين الدَّال] فهى تَخْدَع ، فإذا خَدع أحدُ الفريقين صاحبه فكأنما خَدَعَتْ هى . قال أبو عبد الله الزُّبَير بن بَكَّار القاضى : هى عندنا « خَدْعَة » قال الزبير : حَدَّثنى سفيان بن عُيَيْنة عن عَمرو بن دينار قال : سمعت جابر بن عبدالله يقول : قال رسول الله ﷺ : « الحربُ خَدْعَةٌ » قال علىّ : فقلت للزبير : أتَراها مَحْكِيَّة ؟ فقال : نَعَمْ »(٢).

وقال فى فَرَس ركبه :

● « وَجَدْتُهُ بَحْراً » (٣).

● « إنَّ مِنَ البَيانِ لَسِحْرًا » (٤).

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب التجارات (حديث ٢٢٧٨) .

(٢) أخرجه البخارى فى (كتاب الجهاد) باب « الحرب خدعة » (فتح البارى ٦ / ١١٨) وأحمد فى مسنده ١ / ٨١ .

(٣) أخرجه البخارى فى (كتاب الجهاد) باب « الشجاعة فى الحرب والجبن » (فتح البارى ٦ / ٢٧) وأحمد فى مسنده ٣ / ١٤٧ ، ٦٣ .

(٤) البخارى فى (كتاب الطب) « إن من البيان لسحرا » (فتح البارى ١٠ / ١٩٤ ، ١٩٥) أحمد فى مسنده ١ / ٢٦٩ ، ٢٧٣ وأصله أن رسول الله ﷺ سأل عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بدر فقال :

هو مانع لحوزته ، مطاع فى أدنيه ، فقال الزبرقان : أما إنه قد علم أكثر مما قال . ولكن حسدنى شرفى ، فقال عمرو: أما إذ قال ما قال فوالله ما علمته إلا ضيق الصدر ، زمر المروءة ، لئيم الخال ، حديث الغنى ، فلما أن رأى أنه قد خالف قوله الآخر قوله الأول ، ورأى الإنكار فى عينى رسول الله قال : يا رسول الله ، رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت ، وما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الأخرى ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام : « إن من البيان لسحرا » .

● « مَنْ حَفَّنَا أو رَفَّنَا فَلْيَقْتَصِدْ » [1]. يقول : مَنْ مَدَحنا فلا يَغْلُوَنَّ فى ذلك ، ولكنْ ليتَكَلَّمْ بالحقِّ منه . قال أبو عبيد : ومنه حديث مرفوع « أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال : أنتَ أفضل قُرَيْش قولاً ، وأَعْظَمُها طَوْلاً ، فقال النبى - عليه السَّلام - : «يا أيُّها الناسُ ، قُولُوا بقولكم ، ولا يَسْتَجْرِيَنَّكم الشَّيطانُ » .

● أَقِيلُوا ذَوِى الهَيْئات عَثَرَاتِهِمْ [2].

● العِـــدَةُ عَطِيَّة [3].

● قال ﷺ لأصحابه : « أى شىء خير للنِّساء ؟ » فلم يَدْرُوا ما يقولون ، فَرَجع علىٌّ رضى الله عنه إلى فاطمةَ بنت رسول الله ﷺ ، فأخْبرها بمقالة النبى عليه السلام ، فقالتْ فاطمة رضى الله عنها : « أَنْ لاَ يَراهُنَّ الرجالُ ولا يَرَيْنَهم » فَبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال : « إِنَّها بَضْعَةٌ مِنِّى » [4].

● حُبُّكَ الشَّىْءَ يُعْمِى ويُصِمُّ » .

وهذا المثل يُروى عن أبى الدَّرداء . ومنه حديث ابن عباس « ما ذَكر الله الهَوى فى موضع من كتابه إلاَّ ذَمَّه » وقول الشَّعْبى : إنما سُمِّى هَوًى لأنه يَهْوِى بصاحبه . وقال بعض الحكماء : إذا أَشْكل عليك أمران فلم تَدْر أيُّهما أدنى إلى الصواب والسَّداد فانظر أثقلَهما عليك فاتَّبعْه ، ودَعِ الذى تَهْوَى ، فإنك لا تدرى لعلَّ الهَوى هو الذى زَيَّنه فى قلبك ، وحسَّنه عندك [5].

● « مَطْلُ الغَنِىِّ ظُلْمٌ » [6].

---

(١) معنى « حفنا أو رفنا » تعطف علينا وأعطانا ، فلان يحف بفلان : إذا طاف به وألطفه ، فهو به حَفٍ وحَفِىٌّ ، ويقال : رففت الرجل أرفه ، إذا أسديتَ إليه يداً ، ومن أمثالهم : « هو يحفّ له ويرفّ » أى : يقوم له ويقعده ، وينصح ويشفق .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب الحدود) حديث ٤٣٧٥ ، وأحمد فى مسنده ٦ / ١٨١ ، ورواه الميدانى ٢ / ١٢٣ .

(٣) وهو من حديث شريف طويل ، أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه ١١ / ٩٥ ، وأخرجه كذلك أبو نعيم فى الحلية ٨ / ٢٥٩ .

(٤) أخرجه البزار مختصرا ، انظر مجمع الزوائد ٩ / ٢٠٢ .

(٥) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب (حديث ٥١٣٠) .

(٦) أخرجه البخارى فى (كتاب الاستقراض) باب « مطل الغنى ظلم » (فتح البارى ٥ / ٤٥٩) .

● « الْجَارَ قبلَ الدَّار ، والرَّفِيق قَبْلَ الطَّريق » (١).

● « اصْطِنَاعُ المعروف يَقِى مَصارعَ السُّوء » (٢). وفى حديث آخر: « أهلُ المعروف فى الدنيا هم أهلُ المعروف فى الآخرة » وفى حديث ثالث: « السَّخِىُّ قريبٌ من الله ، قريبٌ من النَّاس ، قريبٌ من الجَنَّة ، بعيدٌ من النار » .

● « إنَّما المرْءُ بِخَليِله ، فلْيَنْظُر امْرؤ مَنْ يُخَال » (٣).

● « انْصُرْ أخَاكَ ظَالِمًا أو مَظْلومًا » (٤).

وهذا الحَرْف يُروى فى حديث مرفوع ، إلا أنَّ فيه « قيل » يا رسول الله ، هذا يَنْصُره مظلوماً فكيف يَنْصُره ظالماً ؟ قال : يَكُفه عن الظُّلْم » .

● « الدِّينُ النَّصِيحةُ ، قِيل : لِمَنْ؟ قال : للهِ ولرسولِه ولأئمَّة المسلمين وعَامَّتِهم»(٥).

● « مِنْ حُسْن إسْلام المَرْءِ تَرْكُهُ ما لاَ يَعْنِيه » (٦). ويُروى عن لقمان الحكيم أنه سُئل : أىُّ عملِك أوْثَقُ فى نفسك ؟ فقالَ : تَركى ما لا يَعنينى .

● « التَّائِبُ من الذَّنْبِ كمَنْ لا ذَنْبَ له » (٧). ومثله : «أتْبع السَّيِّئَةَ الحسَنَةَ تَمْحُها». وكذلك قوله : « النَّدَمُ تَوْبَةٌ » .

(٢)
نماذج من كتب أمثال النبى للرامهرمزى (ابن خلاد)

عن عبدالله بن قيس :

---

(١) الحديث ذكره الهيثمى فى مجمعه (٨/ ١٦٤) والسيوطى فى الجامع الكبير (١ / ٤٠٢) .

(٢) الحديث فى جمع الجوامع ١ / ٣٣٤ ، وعزاه إلى ابن أبى الدنيا فى قضاء الحوائج .

(٣) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب (حديث ٤٨٣٣) بلفظ : « الرجل على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل » وأحمد فى مسنده ٣٠٣ ، ٣٣٤ .

(٤) أخرجه البخارى فى (كتاب المظالم) باب « أعن أخاك ظالما أو مظلوما » (فتح البارى ٦ / ٢٣) وأحمد فى مسنده ٣/ ٩٩ ، ٢٠١ ، ٣٢٤ .

(٥) الحديث أخرجه البخارى فى (كتاب الإيمان) باب « قول النبى : الدين النصيحة » (فتح البارى ١ / ١١٣) .

(٦) أخرجه الترمذى فى (كتاب الزهد) حديث ٢٣١٧ وابن ماجه فى (كتاب الفتن) ١٢ ، وأحمد فى مسنده ١ / ٢٠١ .

(٧) الحديث أخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد (حديث ٤٢٥٠) .

● قال رسول الله ﷺ : « **إن الجنة تحت ظلال السيوف** »[١] .

المعنى أن حامل سيفه فى سبيل الله مطيعا لله به يصل إلى الجنة .

● عن أبى هريرة : قال رسول الله ﷺ : « **من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله هى الجنة** »[٢] .

يعنى : من خاف النار جد فى العمل ، ومن جد فى العمل وصل إلى الجنة ، فجعل خائف النار بمنزلة المسافر الذى يخاف فوت المنزل فيرحل مدلجا ، والإدلاج : هو السير من أول الليل ، وجعلت غالية لشرفها ، ولأنها لا تنال بالهوينى والتقصير ، وإنما تنال بمجاهدة النفس ومغالبة الهوى وترك الشهوات .

« إن هذه الكناية من أوجز الكنايات وأدلّها على معنى لا يتعلق بشىء من لفظه » .

خضراء الدمن :

عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى ﷺ قال : « **إياكم وخضراء الدمن . قيل : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء فى منبت السوء** »[٣] .

المعنى « أن الريح تجمع الدمن وهى البعر فى المكان من الأرض ثم يجىء المطر فينبت فى ذلك المكان نبتا ناعما غضا فيروق الإبل فتأكله فتمرض . والمعنى : لا تنكحوا المرأة لجمالها وهى خبيثة الأصل .

● عن مرداس الأسلمى : قال رسول الله ﷺ : « **يذهب الصالحون أسلافا الأول فالأول ، حتى لا يبقى إلا حثالة التمر والشعير ، لا يبالى الله بهم** » .

الحثالة من كل شىء : رذالته .

● عن أبى هريرة : قال رسول الله ﷺ : « **إذا تقارب الزمان انتقى الموت خيار أمتى كما ينتقى أحدكم خيار الرطب من الطبق** » .

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك ، ولفظه : « الجنة تحت ظلال السيوف » جامع الأحاديث ، رقم ١١١٢٣ .

(٢) الترمذى ، والحاكم (جامع الأحاديث رقم ٢٠٥٩١) .

(٣) الدار قطنى فى الأفراد ، والديلمى ، والرامهرمزى فى الأمثال (جامع الأحاديث رقم ٩٤٨٤) .



فى السماءِ ، يُهْتَدَى بها فى ظلماتِ البر والبحرِ ، فإذا انطمست النجومُ أَوْشَكَ أن يَضِلَّ الهُدى » .

● عن أبى أمامة عن النبىﷺ أن لقمان قال لابنه : « يا بُنَىَّ عليكَ بمجالسةِ العلماء ، واستماعِ الحكماءِ ، فإنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يُحْيِى القلوبَ بنورِ الحكمةِ كما يُحْيِى الأرضَ بوابِلِ المطرِ » .

حديث السفينة موجود فى ص ١٠٣ . (كتاب أمثال الحديث) .

● عن أنس ، عن النبىﷺ قال : « مَثَلُ الجليس الصالحِ مثلُ العطَّارِ إنْ لَمْ يُصِبْكَ من عِطْرِه أَصَبْت من ريحه ، ومثلُ الجليسِ السُّوء كمثل صاحبِ الْكِيرِ إن لم يُصِبْكَ من شَرَارِه أصابك من رِيحِه » .

● قال أسامة بن زيد : سمعت رسول اللهﷺ وذكر الجنة فقال : « أَلاَ مُشَمِّر لها ؟ هِىَ وربِّ الكعبةِ ريحانةٌ تَهْتَزُّ ، ونُورٌ يتلألأ ، ونهرٌ يطّرِدُ ، وزوجةٌ لا تموتُ ، فى حُبُورٍ ونعيم ومُقامٍ أبداً » .

أبو سعيد قال : سمعت أبا هريرة ـ رضى الله عنه ـ يقول : قال رسول اللهﷺ : « إن الصراطَ بين أظْهُرِ جهنمَ ، دحض مزلة ، والأنبياء عليه يقولون : ربِّ سلّم سلّمْ ، والناسُ عليه كالبرق ، وكَطَرْفَةِ العين ، وكأجواد الخيْلِ والرّكاب وشَدًّا على الأقدام ، فناجٍ مسلَّم ، ومخدوشٌ مرسلٌ ، ومطْروحٌ فيها ، ولها سبعة أبواب لكل باب منهم جزءٌ مقسوم » .

● جاء الحسن والحسين ـ عليهما السلام ـ يستبقان إلى رسول اللهﷺ فضمهما إليه وقال : « الْوَلَدُ مَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ » .

المعنى أن حب الولد يمنع من بذل المال للإبقاء عليهم ، وعن لقاء العدو إشفاقا من الضيعة لهم .

قال الرسولﷺ يوم بدر : « أَلْقَتْ إليكمْ مكةُ أَفْلاذَ كَبِدِها » .

يريد : أشرافها وأعز أبنائها، وهذا القول من أبلغ الاستعارات وأعمقها معنى ، وأدقها تصويرا ، فهو كلام سيد البلغاء الأبيناء .

● عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ: « أَكْثِرُوا من قولِ : سبحانَ الله ، والحمدُ لله ، ولا إِلَهَ إلاّ اللهُ ، واللهُ أكبرُ ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاّ بالله ، فإنهن من الباقيات الصالحات ، وَهُنَّ يَحْطُطْنَ الخطايا كما تَحْطُطُ الشجرةُ وَرَقَها ، وهُنَّ من كُنوزِ الجنَّةِ » .

وجعل ابن خلّاد هذا الحديث فى باب التشبيه .

● « الْغَنَمُ بَرَكَةٌ ، والإبل عِزٌّ لأهلها ، والخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة» .

نهى رسول الله ﷺ عن جزّ أذناب الخيل وأعرافها ونواصيها . وقال : « أما أعرافها فإنها أدفاؤها ، وأما أذنابها فإنها مَذَابُّها ، وأما نواصيها فإن الخير معقود فى نواصيها » .

(٣)

نماذج من الأمثال النبوية السائرة

مختارة من « جمهرة الأمثال »

لأبى هلال العسكرى :

● « إذَا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه » .

● الحسبُ المالُ ، والكرمُ التقوى » .

● « إذا تزوجْتَ المرأة لدينها وجمالها كان فيها سِدَادٌ من عَوَزٍ » أى : إذا تزوجها ليستعف بها أعانه الله وكان فيها سداد من عوز المال وعفة السلوك .

● « الأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » أخذ المعنى أبو نواس فقال :

إنَّ القلـوبَ لأجنـادٌ مُجَنَّـدَةٌ ... لله فى الأرضِ بالأهواءِ تَأْتلفُ

فما تعارفَ منها فهو معترِفٌ ... ومـا تَنَاكـرَ منهـا فهو مُخْتِلَفُ

● « **استعيذوا بالله من الرُّغْبِ** »

والرغب : هو كثرة الأكل ، وكانت العرب تمدح بقلة الأكل ، وفى ذلك يقول أعشى باهلة :

تَكْفِيه حُزَّةُ فِلْذٍ إن أَلَمَّ بها ... من الشِّواءِ ويُرْوِى شُرْبَهُ الْغَمَرُ

والغَمَر : هو القدح الصغير .

وفى هذا الموضوع يقول الرسول أيضا : « **إن الرغب من الشؤم** » .

● « **استعينوا على كل صناعة بأهلها** » .

وفى ذلك يقول الشاعر :

يا بارى القـوس بـريـا لست تحْكِمُـهُ

لا تظلم القوس أعط القوس باريها

● « **أَفْرَخَ رَوْعُك** » .

أى : زال ما كنت تخاف منه ، والروع : الفزع .

والمثل جزء من حديث قاله الرسول ﷺ لعروة بن مضرِّس ، فقد قال عروة : انتهيت إلى النبى ﷺ وهو بجمع قبل أن يصلى الغداة ، فقلت يا نبى الله : قد طويت الجبلين ، ولقيت شدة ، فقال ﷺ : « **أَفْرَخَ روعك ، من أدرك إفاضتنا هذه فقد أدرك** » يعنى الحج . وأصل المثل من الناحية اللغوية : خروج الفرخ من البيضة، وانكشاف الغم عنه . وأما قول الرسول ﷺ لعروة بن مضرس فمعناه : زال ما كنت ترتاع له وتخاف ، وهو فوات الحج .

● « **ألا إن هذا الدِّينَ متين ، فأَوْغِلْ فيه برفق ، فإن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى** » وفى رواية « **إن هذا الدين . . .** »

والحديث يشكل مثلين بليغين ، فصدره يشكل مثلا مستقلا وعجزه يشكل مثلا آخر مشهورا .

والرسول ﷺ ينهى فى هذا الحديث عن الإفراط ؛ لأن الإفراط مذموم فى كل شىء ، فمن أفرط فى المدح نُسِب إلى الملق ، ومن أفرط فى الشجاعة كان متهوِّرا ، ومن أفرط فى البذل كان سفيها ، ومن أفرط فى القصد كان بخيلا ، وهكذا . .

والإيغال : شدة السير ، وهو فى الحديث بمعنى الوغول ، وهو الدخول . ومثل هذا الحديث قوله ﷺ : « مَنْ يُشَادَّ هذا الدين غلبه » .

● « مَنْ كَثُرَ كلامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ » .

والحديث الشريف هنا يشكل مثلا لمن يسرف فى الكلام شأن من يسرف فى السير، ومن يسرف فى شعائر الدين فى القول الشريف : « ألا إن هذا الدين متين . . الحديث» .

والمثل هنا جزء من الحديث الشريف : « مَنْ كَثُرَ كلامُهُ كَثُرَ سَقَطُه ، ومن كثر سَقَطُه كثر كَذِبُهُ ، ومن كَثُرَ كذِبُه كثرتْ ذُنُوبه ، ومن كثرتْ ذنوبه فالنارُ أَوْلى به » .

● « إنَّ من البيانِ لَسِحْراً » .

كان هذا القول الشريف تعليقاً من الرسول ﷺ على فصاحة عمرو بن الأهتم حين تحاور مع الزبرقان فى حضرة النبى ﷺ .

فقد قال رسول الله لعمرو بن الأهتم : أخبرنا عن الزبرقان . فقال : إنه مطاع فى أدنيه (وفى رواية : أدانيه . وفى رواية : أنديته) شديد العارضة ، مانع لما وراء ظهره .

فقال الزبرقان : يا رسول الله ، إنه ليعلم منّى أكثر من ذلك ، ولكن حسدنى .

فقال عمرو : والله يا رسول الله إنه لَزَمِرُ المروءة (*) ضيِّقُ العَطَنِ ، حديث الغنى ، أحمق الوالد ، لئيم الخال ، وما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الأخرى ، رضيت فقلت بأحسن ما علمت ، وسخطت فقلت بأسوأ ما علمت . فقال النبى ﷺ : «إن من البيان لسحرا » .

(*) زمر المروءة يعنى قليلها . . والعطن : مناخ الإبل حول الماء ، وهو كناية عن البخل .

ولقد ذهب بعض الشراح إلى أن قول الرسول ﷺ يعتبر ذما للبيان ؛ لأنه شبهه بالسحر ، لأن السحر تمويه ، والصواب أنه مدحه لأنه عجب منه كما يعجب من السحر ، وإن البليغ يبلغ ببيانه ما يبلغ الساحر ببراعة حيلته ولطافة تصرفه ، وما كان للرسول أن يذم البيان وهو أبين الأبيناء فى البشرية ، هذا ، وإن الحديث قد روى بصورة تمجد البيان والشعر فى قوله ﷺ : « **إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكما**(*) **وإن من العلم جهلا** » (**).

● « **إنما الناسُ كَأَسْنَانِ المُشْط ، وإنما يتفاضلون بالعافية** » ومعنى العافية : الرحمة ، ولا فضل لأحد على أحد فى أحكام الدين .

● « **البلاءُ مُوَكَّلٌ بالمنطق** » .

وللرسول حديث آخر : « **البلاءُ موكَّلٌ بالقَوْل** » .

● « **التَّائبُ من الذنبِ كمنْ لا ذَنْبَ له ، والمستغْفِرُ من الذنبِ وهو مقيمٌ عليه كالمستهزىءِ بربهِ** » .

● « **الحرْبُ خُدْعَةٌ** » بضم الخاء أو فتحها فى (خدعة) .

وقد قال بعض الحكماء : نفاذ الرأى فى الحرب أنفع من الطعن والضرب .

● « **حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ** » .

قال أعرابى لرسول الله ﷺ : « **لا أعرف ما دندنتك ودندنة معاذ ؟ أنا أريد الجنة** » فقال له الرسول : « حولها ندندن » يعنى إياها نطلب بهذه الدندنة .

● « **زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا** » .

وقد أخذ المعنى بعض الشعراء فقال :

(*) الحكم والحكمة بمعنى واحد .

(**) يعنى : تكلف العالم القول فيما يجهله .

وقـــدقـــال النبىُّ وكـــان بـــرًّا

إذا زُرْتَ الحـــبيبَ فَـــزُرْهُ غِـــبًّا

والغِبُّ : أن تزور يوما وَتَدَعَ الزيارة يوما . وغِبُّ الشىء ومَغَبَّتُهُ : عاقبته ، وغِبُّ المطر : أول أوقات انقطاعه . ويقول أبو عبيد : المراد الإبطاء فى الزيارة ولم يرد يوما ويوما ، ومن ثم تكون الزيارة على غير مواظبة . (المثل رقم ١٣٠٦) .

● « **العبدُ حُرٌّ إذا قَنِعَ ، والحُرُّ عبدٌ إذا طَمِعَ** » .

● « **لاَ حَليمَ إلا ذُو أَنَاةٍ ، ولا عَليمَ إلا ذُو عَثْرةٍ ، ولا حَكيمَ إلاَّ ذُو تَجْرِبَةٍ** » .

● « **لا يجنى عليك ولا تجنى عليه** » .

يعنى أن الرجل إذا قتل رجلا خطأ لم يؤخذ بالدية ولا ابنه ولا بنو أعمامه .

● « **لَنْ يَهْلِكَ الناسُ حَتَّى يُعْذِرُوا** » . من قولهم : أَعْذَرَ الرجل : إذا كثرت ذنوبه ، وقيل : حتى يُعْذِرُوا من يعذبهم ، أى : يقيموا له عذرا .

● « **لَىُّ الوَاجِدِ ظُلْمٌ** » .

اللىّ واللّيان : المطل . من لواه يلويه ليًّا وليَّاناً . الواجد : الغنى ، والوجْدُ : الغنى .

● « **مَا وَقَى الرجلُ به عِرْضَهُ كُتِبَ له به صَدَقَةٌ** »

وبقية الحديث : « **وما أنفق المؤمن نفقةً فعلى الله خَلَفُهَا ، إلا ما كان من نَفَقَةٍ فى بُنْيانٍ أو معصية لله تعالى** » .

قيل لابن المنكدر : ما معنى (وقى الرجل به عرضه) ؟ قال : أنه يعطى الشاعر ذا اللسان .

● « **نَعُوذُ بالله من الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ** » .

يعنى النقصان بعد الزيادة أو الانتقاض بعد الاستواء . الحوْر ـ بسكون الواو ـ : من

حار الشيء : إذا نَقَصَ ، وإذا رجع . والكوْرُ ـ بسكون الواو أيضا ـ : من كار العمامة : إذا سواها على رأسه فدارت .

أما الحُور ـ بضم الحاء ـ : فهو الهلاك .

● « **هذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ** » .

أى : يحبنا أهله ونحبهم ، وهم الأنصار ، والجبل : هو جبل أحد ؛ لأنه أكبر معلم فى المدينة قبل هجرته ﷺ إليها .

● « **هذا سيِّدُ أَهْلِ الْوَبَرِ** » .

وجه الرسول هذه التحية لقيس بن عاصم .

● « **اشْتَدِّى أَزْمَةُ تَنْفَرِجِى** » .

والأزمة : الضيق والشدة . وفى ذلك يقول الشاعر :

لا تيأسَنَّ من انفِرَاجِ شديدةٍ

قد تَنْجَلِى الْغَمَرَاتُ وهى شدائدُ

● « **اعقلها وتوكل** » .

يضرب للأخذ بالثقة والاحتياط فى الأمور ، قال رجل للرسول ﷺ : ألا أرسل ناقتى وأتوكل ؟ قال : « **لا ، بل اعقلها وتوكل** » وهو فى الأمثال لأبى عبيد ـ المثل رقم ٦٤٤ .

● « **كلُّ الصَّيْدِ فى جَوْفِ الْفَرَا** » .

هذا مثل قديم ، تمثل به رسول الله ﷺ فقد أُخِّر أبو سفيان فى الإذن له بالدخول إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كدتَ تأذن لحجارة الْجُلْهُمَتَيْن قبلى ، فقال رسول الله ﷺ : « **إنك وذلك يا أبا سفيان كما قال القائل : كل الصيد فى جوف الفرا** » .

وأما قصة المثل وأصله أن قوما خرجوا للصيد ، فصاد أحدهم ظبيا ، وآخر أرنبا ، وآخر فرأ وهو الحمار الوحشى فقال لأصحابه : « كل الصيد فى جوف الفرا » أى : جميع

ما صدمتموه يسير فى جنب ما صدته . فتمثل رسول الله به ترضية لأبى سفيان الذى كان تصور أنه أهمل شأنه فى الدخول على الرسول فتأخر الإذن له بالمثول . وكلمة (الجُلْهُمَتَين) لم تسمع قبل ذلك ، واللفظ المألوف هو (جَلْهَةُ الوادى) يعنى وسطه .

● « **لا يُلْسَعُ المؤمنُ من جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ** » .

قاله الرسول لرجل اسمه أبو عزة ـ وكان شاعرا مجيدا ومُمْلِقًا ذا عيال ـ أسر يوم بدر كافرا ، فقال : يا رسول الله إنى ذو عيال وحاجة فامنن علىّ ، فقال له الرسول : على ألا تعين علىّ ـ يعنى بشعره ـ فعاهده ، فأطلقه ، ومدح الرسول بشعر جميل قائلا :

أَلاَ أَبْلِغَا عنى النبىَّ محمداً ... فإنكَ حق والمليك حَمِيدُ

وأنتَ امرؤٌ تدعو إلى الحقِّ والهدى ... عليكَ من الله الكريم شهيدُ

وأنت امرؤٌ بُوِّئْتَ فينا مَبَاءَةً ... لها درجات سهلة وصعودُ

وأنتَ مَنْ حَارَبْتَهُ لَمُحَارِبٌ ... شَقِىٌّ ومَنْ سَالَمْتَهُ لسعيدُ

ولكنْ إذا ذُكِّرْتُ بدراً وأهلها ... تأَوَّبَ مِنّى حسرةٌ وتعودُ

فلما كان يوم أحد دعاه صفوان بن أمية بن خلف إلى الخروج على المسلمين فتمنَّع أول الأمر ، ثم لم يلبث أن استجاب لدعوة زعيم الكفار وسار فى بنى كنانة فحرضهم قائلا :

أَيَا بنى عبدِ منافِ الرِّزَامْ ... أنتمْ حماةٌ وأبوكمْ حَامْ

لا تَعِدُونِى نَصْرَكُمْ بعد العامْ ... لا تُسْلِمُونى لا يَحِلُّ إسْلاَمْ

فأسر يوم أحد فقال : يا رسول الله مُنَّ علىَّ ، فقال النبىﷺ : « **لا يُلْسَعُ المؤمنُ من جُحْرٍ مرتين ، لاَ تَمْسحُ عَارِضَيْكَ بمكة وتقول : خَدَعْتُ محمداً مرتين** » .

● « **لا ينتطح فيها عنزان** » .

كانت عصماء بنت مروان من بنى أمية بن زيد تحرض على المسلمين وتؤذيهم وتقول الشعر ، فجعل عمير بن عدى عليه نذرا لله لئن عاد رسول الله من « بدر » سالما

ليقتلنها ، فعدا فى جوف الليل فقتلها ثم لحق بالنبى فصلى معه الصبح ، وكان النبىﷺ يتفحّص أصحابه إذا قام يدخل منزله . فقال لعمير : أقتلت عصماء ؟ قال : نعم . ثم قال : يا نبى الله هل علىّ فى قتلها شىء ؟ فقال رسول اللهﷺ : « لا ينتطح فيها عنزان » فأول ما سمعت هذه العبارة سمعت من رسول الله .

● « مَنْ نُوقِشَ فى الْحِسَابِ عُذِّبَ »

النقش : الاستقصاء ، ومعنى الحدِيث : من استقصى عليه فى الحساب عذب .





البـــاب الثامن

أسلوب القرآن وأسلوب النبى





الفصل الأول

التسليم الفطرى
بأن القرآن كلام الله



التسليم الفطرى بأن القرآن كلام الله

تمهيد :

كل ذى فطرة سليمة وفكر مستقيم وسليقة سوية وخبرة بالأساليب البلاغية وضروب الفصاحة والبيان لا يستطيع إلا أن يسلم بأن القرآن ليس من كلام محمد ﷺ لأنه أبلغ من كلام البشر ، ومحمد ﷺ مع كونه نبيا رسولا فهو من البشر ، ومن ثم فإنه لا يتأتى له أن يأتى بهذا الكلام . ومادام محمد لن يستطيع أن يأتى بهذا الكلام فإن مقتضى ذلك عند ذوى البصيرة النيّرة ، والرأى الصائب والحكم المحايد أن يكون هذا الكلام ـ القرآن الكريم ـ منزلا على محمد من عند رب محمد : الله خالق كل شىء .

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقد أنزل القرآن على محمد ، واقتضى علمه ـ عز وجل ـ أن المكابرين من قريش ـ أول من سمعوا القرآن لأنهم عشيرة الرسول الأقربون ـ سوف ينكرون أنه كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقد نزل من الآيات ما يؤيد أنه كلامه ـ عز وجل ـ وذلك بضروب متعددة من التحدى : أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله . يقول ـ عز وجل ـ :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾(١).

ويقول ـ عز وجل ـ :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ

---

(١) الإسراء . الآية : ٨٨ .

أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (١)

ويقول ـ عز وجل ـ تأكيدا على تنزيه القرآن الكريم من شبهة الباطل ، وأنه تنزيل من لدنه ـ عز وجل ـ :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٢).

وفى ثبات مصداقية القرآن وعظمة قدره وجليل خطره يقول الله ـ عز وجل ـ :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ ﴾ (٣).

الله ـ سبحانه ـ يعلم المكابرين والمستكبرين والضالين والمضلين والمشركين والمنكرين، وحتى لا يكون لهم حجة على الله فقد أنزل الآيات التى لا عذر لهم بعد سماعها فى أن القرآن كلامه ، وأن الفرقان كتابه .

التسليم الفطرى بأن القرآن كلام الله :

لقد كان عتاة قريش وصناديدها يضيقون ذرعا بدعوة رسول الله إياهم إلى ترك الشرك، وعبادة الله الواحد الأحد ، وتمنوا لو استطاعوا أن يقنعوا محمدا بالعدول عن دعوة الإسلام وتركه إياهم يعبدون الأوثان ، وبذلوا فى ذلك مختلف الجهود والوعود ، ولكن ما أن ينفرد رسول الله بواحد منهم ويتلو عليه آية من القرآن الكريم حتى ترتعد فرائصه لسماعه ، أو تطيب نفسه ارتياحا إليه .

---

(١) هود ، الآيات : ١٢ ـ ١٤ .

(٢) فصلت ، الآيتان : ٤١ ، ٤٢ .

(٣) الرعد ، الآية : ٣١ .

عتبة بن ربيعة ساعة سماعه القرآن :

من الذين ارتعدت فرائصهم لسماع القرآن وسلموا بأنه ليس من كلام محمد ، عتبة ابن ربيعة حينما ناب عن أعيان قريش فى التحدث إلى رسول الله فى شأن العودة عن دعوته إلى الله، وتفصيل ذلك : أن قريشاً اجتمعوا فى الحطيم ، فخطبهم عتبة بن ربيعة، فقال: إن هذا ابن عبد المطلب قد نغص علينا عيشنا ، وفرق جماعتنا وبدد شملنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، وكان فى القوم الوليد بن المغيرة وأبو جهل ابن هشام ، وشيبة بن ربيعة ، والنضر بن الحرث ، ومنبه ونبيه ابنا الحجاج، وأمية وأبىّ ابنا خلف . فى جماعة من صناديد قريش ، فقال له : قل ما شئت فإنا نطيعك ، قال: سأقوم فأكلمه، فإن هو رجع عن كلامه وعما يدعو إليه وإلا رأينا فيه رأينا ، فقالوا له : شأنك يا أبا عبد شمس .

فقام فتقدم إلى النبى ﷺ وهو جالس وحده فقال : أنعم صباحاً[1] يا محمد .

قال : يا أبا عبد شمس إن الله قد أبدلنا بهذا السلامَ تحيةَ أهل الجنة .

قال : يا ابن أخى ، إنى جئتك من عند صناديد[2] قريش ، لأعرض عليك أمورهم ، إن أنت قبلتها فلك الحظ فيها ، ولنا فيها الفسحة ، ثم قال : يا ابن عبد المطلب إنك دعوت العرب إلى أمر ما يعرفونه ، فاقبل منى ما أقوله لك ، قال : قل ، قال : إن كان ما تدعو إليه تطلب به مُلكاً فإنا نملكك علينا من غير تعب ونتوجك ، فارجع عن ذلك ، فسكت ، ثم قال له : وإن كان ما تدعو إليه أمراً تريد به امرأة حسناء فنحن نزوجك .

فقال : لا قوة إلا بالله . ثم قال له : وإن كان ما تتكلم به تريد مالاً أعطيناك من الأموال حتى تكون أغنى رجل فى قريش ، فإن ذلك أهون علينا من تشتت كلمتنا وتفريق جماعتنا ، وإن كان ما تدعو إليه جنوناً داويناك كما تداوى قيس بنى ثعلبة مجنونهم .

---

(١) أنعم صباحاً : تحية كانت كثيرة الاستعمال فى الجاهلية .

(٢) صناديد : جمع صنديد وهو السيد الشجاع .

fقال:

فسكت النبى ﷺ فقال : يا محمد ما تقول ؟ وبم أرجع إلى قريش ؟

فقال النبى ﷺ : ﴿ حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (١)، حتى بلغ إلى قوله : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (٢).

قال عتبة : فلما تكلم بهذا الكلام فكأن الكعبة مالت حتى خفت أن تمس رأسى من إعجازها . وقام فزعاً يجر رداءه . فرجع إلى قريش وهو ينتفض انتفاض العصفور ، وقام النبى ﷺ يصلى ، فقالت قريش : لقد ذهبت من عندنا نشيطاً ، ورجعت فزعاً مرعوباً ، فما وراءك ؟! .

قال : ويحكم دعونى ، إنه كلمنى بكلام لا أدرى منه شيئاً ، ولقد رعدت على الرعدة حتى خفت على نفسى ، وقلت : الصاعقة (*) قد أخذتنى ، فقدموا عنى ذلك(٣).

الوليد بن المغيرة يقول إن القرآن ليس كلام بشر :

ومن فصحاء قريش الذين كابروا ورفضوا الإيمان بالرسالة المحمدية واتخذوا منها ومن الرسول مواقف عدائية متشددة الوليد بن المغيرة المخزومى ، وكان سيد عشيرته ، وأفصح قومه ، وأخطبهم ، جاء الوليد إلى أصحاب رسول الله ﷺ وهو على كفره . فقال : اقرأوا على شيئاً من القرآن ، فقرأوا عليه . فقال : ليس هذا من كلام البشر ، وليس بشعر ، فمضى إليه أبو لهب قال : أفسدت قريشاً بهذا القول فارجع عنه ، فقال أقول : إنه سحر (٤).

---

(١) سورة فصلت ، الآيات : ١ : ٤ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ١٣ .

(*) الصاعقة : صوت الرعد الشديد الذى يصعق منه الإنسان ، أى يغشى عليه ، وهى اسم العذاب .

(٣) الخبر فى أعلام النبوة للماوردى ص ١٠٥ ـ ١٠٧ .

(٤) أعلام النبوة ، ص ٨٠ .

لقد أوشك الوليد أن يسلم ؛ لأنه سلم بأن القرآن ليس من كلام البشر ، كما أنه ليس بسحر ، فلم يبق أمامه إلا أن يعلن إسلامه لولا أن أبا لهب هدده وحمل عليه ، فعاد عن قوله ورجع فيه .

ولقد رويت هذه القصة بشكل أكثر تفصيلا ، فقد جاء الوليد بن المغيرة إلى الرسول ﷺ وقال له : اتل عليّ يا محمد ما أنزل إليك ، فأسرع الرسول ﷺ إلى ذلك طمعا فى الانقياد ، فقرأ ﴿ حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ * قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾

ومضى رسول الله ﷺ فى التلاوة حتى وصل إلى قوله ـ عز وجل ـ .

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۞ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾(١).

وما أن انتهى رسول الله ﷺ من التلاوة حتى قال الوليد بن المغيرة وكان من أفصح العرب : إن أعلاه لمورق وإنه أسفله لمعذق ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة(٢) وليس هذا من كلام البشر .

هذان مثالان لاثنين من عتاة قريش ومشركيها هما عتبة بن ربيعة ـ وقد لقى مصرعه فى غزوة بدر ـ والوليد بن المغيرة يسلّمان بأن القرآن ليس من كلام محمد ، وأنه أعظم من أن يكون كلامه ، إنهما لم يؤمنا بالقرآن كتابًا من عند الله استعلاء واستكبارا وتعنتاً وتعصّباً .

الطفيل بن عمرو الدوسى يستمع إلى القرآن فيؤمن على الفور :

وأما من جاء إلى رسول الله بغير قصد سبق ، أو نية سلفت فإنه لا يكاد يسمع بعض الآيات المنزلة حتى يوقن بأن ما سمعه هو كلام الله وليس بكلام بشر ، ومن ثم يسارع إلى الإسلام وإعلان الشهادتين ، إن هذا هو ما حدث مع الطفيل بن عمرو الدوسى الذى يحدث بنفسه أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها ، فمشى إليه رجال من قريش ، وكان الطفيل رجلا شريفا . . . شاعراً لبيباً ، فقالوا له : يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذى بين أظهُرنا قد أعْضَل بنا وفرّق جماعتنا وشتّت أمرَنا . وإنما قوله كالسِّحر يفرّق بين المرء وأبيه وبين الرجل وأخيه وبين الرجل وزوجته ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما دخل علينا ، فلا تكلمه ولا تَسْمع منه .

---

(١) سورة فصلت حتى الآية ٣٨ .

(٢) كتاب (الطراز) للإمام يحيى بن حمزة العلوى اليمنى ٣ / ٢١٨ .

قال : فوالله ما زالوا بى حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئا ولا أكلمه وحتى حَشْوت فى أذنى حين غدوتُ إلى المسجد كُرْسُفاً فرَقاً من أن يَبْلغنى شىء من قوله .

فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلِّى عند الكعبة ، فقمت قريبا منه ، فأبَى الله تعالى إلا أن يُسْمعنى بعضَ قوله ، فسمعت كلاماً حَسناً ، فقلت فى نفسى : إنى لَرجل لبيبٌ شاعرٌ ما يخفى علىَّ الحَسَنُ من القبيح ، فما يمنعنى من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان الذى يأتى به حَسناً قبلتُ وإن كان قبيحا تركت ؟

فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ فتبعته فقلت : إنَّ قومك قد قالوا لى كذا وكذا ، وإنى شاعر فاسمع ما أقول .

فقال النبى ﷺ : هات . فأنشدتُه . فقال رسول الله ﷺ : وأنا أقول فاسمع ثم قرأ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ إلى آخرها ، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ إلى آخرها ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ إلى آخرها ، وعرض على الإسلامَ ، ووالله ما سمعت قولاً قطُّ أحسنَ منه ولا أمراً أعْدَل منه فأَسلمتُ وقلت : يا نبىَّ الله إنى امرؤ مُطاع فى قومى ، وإنى راجع إليهم فداعيهم إلى الإسلام فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عَوْناً عليهم ، فقال : اللهم اجعل له آية .

فخرجت إلى قومى فى ليلة مطيرة ظلماء حتى إذا كنت بثنية تُطْلعنى على الحاضر وقع نور بين عَيْنى مثل المصباح . فقلت : اللهم فى غير وجهى إنى أخشى أن يظنوا أنها مُثْلة وقعت فى وجهى ، فتحول فوقع فى رأس سَوْطى كالقنديل المعلَّق ، وأنا أهبط عليهم من الثنية حتى جئتهم ، فلما نزلت أتانى أبى فقلت : إليك عنى يا أبت فلستَ منى ولستُ منك . فقال : لِمَ يا بنى ؟ فقلت : قد أسلمتُ وتابعت دينَ محمد . قال : أىْ بُنىَّ فدينى دينك [1] فقلت : فاغتسل وطهِّر ثيابك ، ففعل ثم جاء ، فعرضتُ عليه الإسلامَ فأَسلمَ . ثم أتتنى صاحبتى فقلت : إليك عنِّى فلستُ منكِ ولست منِّى . قالت : ولِم بأبى أنت وأمى ؟ قلت : فرَّق بينى وبينك الإسلامُ وتابعتُ دين محمد ، قالت : فدينى دينك . فقلت : اذهبى فتطهَّرى ففعَلَتْ ، فعرضتُ عليها

(١) يعنى : إننى أعتنق الدين الذى ارتضيته لنفسك .

الإسلامَ فأسلمت ، ولم تُسْلم أمي . ثم دعوت « دَوْسا » فأبطأوا عليّ ، ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت : يا نبى الله إنه قد غلبنى على دَوْس الزنا ، فادع الله عليهم ، فقال : «اللهم اهدِ دَوْساً وائت بهم . ارجع إلى قومك وارفُقْ بهم» .

فرجعتُ فلم أزَلْ بأرض قومى أدعوهم حتى هاجر النبى ﷺ إلى المدينة ، ومضى «بَدْر » و « أحُدٌ » و « الخندق » فقدِمْتُ على رسول الله ﷺ بمن أسْلَم ورسول الله ﷺ بخيبر ، حتى نزلتُ المدينةَ بسبعين أو ثمانين بيتا من « دَوْس» ، ثم لحقنا رسولَ الله ﷺ بخيبر فأَسْهَم لنا مع المسلمين .

وقال الطُّفَيْل لمّا أسْلَم :

ألا بلِّـغ لـديـك بنـى لـؤىٍّ ... علـى الشَّنآن والغضـب المُرَدِّى

بـأن الله ربَّ الـنـاس فَـرْدٌ ... تعـالـى جَـدُّه عـن كـل نِـدِّ

وأن محمـداً عَبْـد رسـولٌ ... دليلُ هُدًى ومُوضِحُ كلِّ رُشْـد

رأيـتُ لـه دلائِلَ أنبأَتْنـى ... بـأن سَبِيلَهُ يهـدِى لقـصْدِ [1]

***

أعرابى يسجد عند سماعه جملة قرآنية :

إن حادثا آخر جليل الشأن قد حدث عندما سمع أعرابى جملة من القرآن الكريم عن طريق المصادفة بدون أن يعلم أنها كلام الله ، فقد حكى أبو عبيدة أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [2] فخرّ ساجدا وقال : سجدت لفصاحة هذا الكلام[3].

إن فطرة هذا الأعرابى السليمة جعلته يتقبل هذا الكلام بالإجلال ، فقد وقر فى

(١) سبل الهدى والرشاد ٢ / ٥٤٨ ، ٥٤٩ .

(٢) سورة الحجر ، الآية : ٩٤ وتمامها ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ .

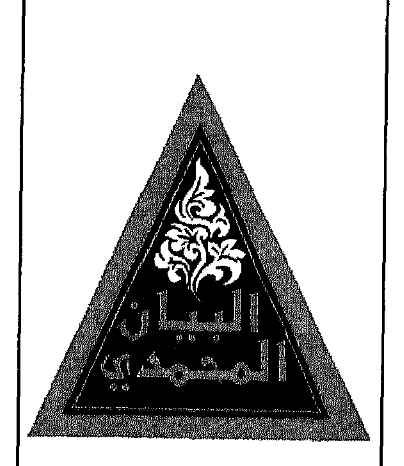
(٣) أعلام النبوة ص : ٧٩ .

خاطره حين سماعه أنه ليس بقول بشر ، ولا بدّ أن يكون كلاما ذا شأن خطير ومصدر جليل ، فلم يملك نفسه وأطلقها على سجيتها ، فكان أن سارع إلى السجود احتفالا بتفرد هذا الكلام بالفصاحة والجلال .

والمسألة عندنا تتجاوز الفطرة البلاغية العربية إلى الفطنة الإنسانية والنظرة الحيادية ، فقد سمعت الأستاذ ألان جونس Prof : Alan gones الأستاذ بجامعة أكسفورد الإنجليزية قبل سنوات يقول لى : « إننى صرت على يقين بعد أن عرضت القرآن الكريم على الكمبيوتر أنه ليس من كلام محمد » ، وحين سمعت منه ذلك قلت فى نفسى : لقد قطع الرجل ـ وهو قسّ مسيحى ـ نصف الطريق ، وآمل أن يقطع نصفه الآخر .

والأمر ليس منتهيا عند الأستاذ جونس وحده ، ذلك أنه مسبوق فى هذا الشأن بالأستاذ المستشرق المرموق « آربرى » Arburry الذى كان يعتقد ويعلن أن القرآن ليس من كلام محمد ، وقيل : إنه كان يُسِرُّ الإسلام عقيدة يؤمن بها .





الفصل الثانى

القرآن معجزة محمد ﷺ



القرآن معجزة محمد ﷺ

إن معجزة محمد الكبرى هى القرآن الذى أنزله الله عليه ، بمعنى أنه كلام الله وليس كلام محمد ، إنه معجزته الأولى، يقول الإمام أبو الحسن الماوردى فيما تضمَّنه القرآن من أنواع إعجازه :

القرآن أول معجز دعا به محمد ﷺ إلى نبوته ، فصدع فيه برسالته ، وخص بإعجازه من جميع رسله ، وإن كان كلاماً ملفوظاً وقولاً محفوظاً لثلاثة أسباب ، صار بها من أخص إعجازه وأظهر آياته :

أحدها : أن معجز كل رسول موافق للأغلب من أحوال عصره ، والشائع المنتشر فى ناس دهره ؛ لأن موسى ـ عليه السلام ـ حين بعث فى عصر السحرة خصَّ من فلق البحر يبساً ، وقلب العصا حية ما بهر كل ساحر ، وأذلَّ كل كافر ، وبعث عيسى ـ عليه السلام ـ فى عصر الطب ، فخص من إبراء الزمنى [1] وإحياء الموتى بما أدهش كل طبيب ، وأذهل كل لبيب .

ولما بعث محمد ﷺ فى عصر الفصاحة والبلاغة خص بالقرآن فى إيجازه وإعجازه بما عجز عنه الفصحاء ، وأذعن له البلغاء ، وتبلد فيه الشعراء ؛ ليكون العجز عنه أقهر ، والتقصير فيه أظهر . فصارت معجزاتهم ـ وإن اختلفت ـ متشاكلة المعانى ، متفقة العلل .

والثانى : أن المعجز فى كل قوم بحسب أفهامهم ، وعلى قدر عقولهم وأذهانهم ، وكان فى بنى إسرائيل من قوم موسى وعيسى بلادة وغباوة ؛ لأنه لم ينقل عنهم ما يُدَوَّنُ

(١) الزمنى ـ على وزن المرضى ـ : هم أصحاب العاهات .

من كلام مستحسَن ، أو يستفاد من معنى مبتكَر . وقالوا لنبيهم حين مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، فظنوا أن الإعجاز بها يصلون إليه ببداية حواسهم .

والعرب أصحُّ الناس أفهاماً ، وأحدُّهم أذهاناً ؛ قد ابتكروا من الفصاحة أبلغها ، ومن المعانى أغربها ، ومن الآداب أحسنها ، فخُصُّوا من معجز القرآن بما تجول فيه أفهامهم ، وتصل إليه أذهانهم ، فيدركوه بالفطنة دون البديهة ، وبالروية دون البادرة ؛ لتكون كل أمة مخصوصة بما يشاكل طبعها ، ويوافق فهمها .

والثالث : أن معجز القرآن أبقى على الأعصار ، وأنشر فى الأقطار من معجز يختص بحاضره ، ويندرس بانقراض عصره ، وما دام إعجازه فهو أحج وبالاختصاص أحق(١).

وجوه الإعجاز كما يراها الماوردى :

إن أبا الحسن الماوردى يذكر عشرين وجها لوجوه إعجاز القرآن الكريم ، حيث يستحيل أن يجىء هذا الإعجاز بوجوهه العشرين على لسان مخلوق ، ولو كان هذا المخلوق هو محمداً أحبّ خلق الله إلى الله .

إن الوجوه العشرين التى أثبتها الماوردى لإعجاز القرآن تبدأ بعنصر الفصاحة والبيان، وتنتهى بها أسماه المعتزلة « الصرفة » ونحن نتفق مع الإمام الكبير فى الوجوه التسعة عشر، ولا نوافقه على الصرفة ؛ لأن الكلام المنزل من لدن الخالق الأعظم يستحيل على المخلوقين أن يأتوا بمثله مطلقا .

فأما الوجه الأول وهو الفصاحة : فإن ذلك معتبر بثلاثة شروط ، هى على الترتيب : بلاغة ألفاظه ، واستيفاء معانيه ، وحسن نظمه .

والوجه الثانى : من إعجازه هو إيجازه واستيفاء معانيه فى قليل الكلام ، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ

---

(١) أعلام النبوة : ٧٦ ، ٧٧ .

﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (١).

والوجه الثالث هو علوّه عن منظوم الكلام ومنثوره ، فإن نظم أسلوبه ووصف اعتداله يخرج عن منظوم الكلام ومنثوره ، ولا يدخل فى شعر ولا رجز ، ولا سجعة ولا خطبة ، حتى تجاوز محصور أقسامه ، وباين سائر أنواعه ، بأسلوب لا يشاكل ، ونظم لا يماثل ، فصار وإن كان من حروف الكلام خارجا عن أقسام الكلام ، فقد قال أنيس الغفارى ـ وهو أخو أبى ذر الغفار ، وكان من الموصوفين بالتقدم فى البلاغة والفصاحة ـ : عرضت القرآن على السجع والشعر ، والنظم والنثر ، فلم يوافق شيئا من طرق كلام العرب ، وقد سبقت الإشارة إلى قول الوليد بن المغيرة المخزومى حين قرىء عليه شىء من القرآن : ليس هذا من كلام البشر ، وليس بشعر .

والوجه الرابع فى إعجاز القرآن هو كثرة معانيه التى لا يجمعها كلام البشر ، ومثال ذلك : ما يجمعه قليل الكلام من كثير المعانى كقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (٢) فجمع فى آية واحدة بين أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، وبشارتين .

والوجه الخامس من إعجاز القرآن ما جمعه من علوم لا يحيط بها بشر ، ولا تجتمع فى مخلوق ، فلم يكن إلا من عند الله المحيط بكل شىء علما ، حتى علمه من لم يكن به عالما .

إن الإمام الماوردى قال هذا الكلام منذ عشرة قرون ، ولقد أثبت العلم الحديث وتقدم المخترعات فى عصرنا مزيدا من معجزات القرآن الكريم فى مجال العلوم الكونية والفلكية والطبية والفيزيائية .

والوجه السادس من إعجازه : تضمنه الحجج والبراهين على التوحيد ، والرجعة ،

(١) سورة هود ، الآية : ٤٤ .

(٢) سورة القصص ، الآية : ٧ .

وعلى الدهرية والثنوية حتى قطع بحجاجه كل محتجّ ، وخصم بجدله كل خصم ألدّ .

والوجه السابع تضمنه أخبار الماضين من القرون الخالية وقصص الأمم السالفة ، وتحدّى به أهل الكتاب من قصة أهل الكهف ، وشأن موسى والخضر ، وحديث ذى القرنين ، فكان على ما ذكره أنبياؤهم وتضمنته كتبهم .

والوجه الثامن من إعجازه : ما تضمنه من علم الغيب بأخبارتكون فكانت ، كقوله لليهود : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ثم قال : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ (٢) فقطع بأنهم لا يفعلون فلم يفعلوا ، أو قوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (٣) وكان ذلك حقا فى يوم بدر ، وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ (٤) فأعاده الله تعالى إلى مكة عام الفتح ، وغير ذلك آيات كثيرة .

إن الإمام أبا الحسن الماوردى وهو يذكر وجوه الإعجاز طبقا لترتيبه إياها يجعل الوجه التاسع من وجوه الإعجاز فى إخبار القرآن الكريم بضمائر القلوب .

والوجه العاشر : هو أن جزل القرآن لا يتوعّر ولا يُسترذل، أى : لا يتوعر جزله ولا يسترذل سهله ، ويكونان إذا اجتمعا مطبوعين غير متنافرين ، ولا نجد ذلك فى غيره من كلام البشر .

والوجه الحادى عشر : اختصاص تلاوته ببواعث ليست لغيره ، وهى خمسة بواعث، أحدها : هشاشة مخرجه ، والثانى : بهجة رونقه ، والثالث : سلاسة نظمه ، والرابع : حسن قبوله ، والخامس : أن قارئه لا يكلّ وسامعه لا يملّ .

(١) سورة البقرة ، الآيتان : ٩٤ ، ٩٥ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٤
(٣) سورة القمر ، الآية ٤٥ .
(٤) سورة القصص ، الآية : ٨٥ .

والوجه الثانى عشر : أن القرآن منزل بألفاظه ومعانيه ، لا كسائر الكتب الدينية ، فإن التوراة ألقى الله ـ تعالى ـ معانيها إلى موسى ـ عليه السلام ـ فذكرها بلفظه وعبر عنها بكلامه ، وأما الإنجيل فهو ما أخبر به عيسى ـ عليه السلام ـ عن ربه وعن نفسه ، فجمعه تلامذته بألفاظهم وجعلوه كتابا متلوًّا ، وأما الزبور فأدعية وتحاميد وتسابيح تنسب إلى داود عن لفظه .

ولئن كانت معانى هذه الكتب مضافة إلى الله تعالى فليست بصيغة لفظه ، أما القرآن فنزل جامعا لألفاظه ومعانيه وترتيبه ، فصار مبايناً لجميع كتبه ، وما هذا إلا بمعونة إلهية حفظ الله تعالى بها إعجازه ، وأمد بها رسوله ، كما قال ـ تعالى ـ :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (١).

والوجه الثالث عشر من وجوه إعجازه : اقتران معانيه المتغايرة ، واقتران نظائرها فى السور المختلفة فيخرج فى السورة من وعد إلى وعيد ، ومن ترغيب إلى ترهيب ومن ماض إلى مستقبل ، ومن قصص إلى مثل ، ومن حكم إلى جدل ، فلا ينبو ولا يتنافر .

والوجه الرابع عشر من إعجازه أن اختلاف آياته فى الطول والقصر لا يخرج عن أسلوبه ، ولا يزول عن اعتداله ، فصار ذلك من إعجازه .

ويمضى الإمام الماوردى فيرى فى الوجه الخامس عشر أن مكثر تلاوته لا يزداد بالقراءة فصاحة . ولعل الماوردى لم يوفق فى إبانة ما ذهب إلى تصوره فى هذا الوجه الذى اعتبره واحدا من وجوه الإعجاز .

والوجه السادس عشر من إعجاز القرآن : تيسيره على جميع الألسنة ، حتى حفظه الأعجمى الأبكم ، ودار به لسان القبطى الألكن ، ولا يحفظ غيره من الكتب كحفظه ، ولا تجرى به ألسنة الأعجام كجريها به ، وما ذلك إلا بخصائص إلهية فضّله بها على سائر كتبه .

وإن هذا الوجه شديد الوضوح فى زماننا ، فقد شاهدنا الصبية الأتراك الذين لا

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩ .

يعرفون الحرف العربى ـ بعد أن صادر مصطفى كمال الحرف العربى ـ يحفظون القرآن كاملا ، وكذلك الحال عند الأطفال واليافعين الهنود والباكستانيين والإندونيسيين والماليزيين والصوماليين وغيرهم من أبناء البلدان المسلمة غير العربية .

والوجه السابع عشر من إعجازه : هو أن القرآن أعلى مراتب الكلام ، ذلك أن الكلام ينقسم إلى ثلاثة مراتب : منثور يدخل فى قدرة الخلق ، وشعر هو أعلى منه يقدر عليه فريق ويعجز عنه فريق ، وقرآن هو أعلى من جميعها ، وأفضل من سائرها ، تجاوز رتبة النوعين ، فخرج عن قدرة الفريقين .

وآخر وجوه الإعجاز ـ وهى من وجهة نظرنا أكثر مما ذكره الماوردى ـ هو عجز الأمم عن معارضته ، وقد تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فلم تخرجهم أنفة التحدى ، وصبروا على نغص العجز مع شدة حميتهم وقوة أنفتهم ، وقد سفه أحلامهم ، وسبّ أصنامهم ، ولو وجدوا إلى المعارضة سبيلا لعارضوه ، ولما عدلوا عنه إلى بذل نفوسهم فى قتاله ، وسفك دمائهم فى محاربته .

على أنه من قبيل الضحك والسخرية أن بعض العرب الضّالين أحسنوا الظن بأنفسهم ـ وأساءوا الظن بالناس ـ فسولت لهم أنفسهم أن يعارضوا القرآن ، فجاءت معارضتهم مسخاً مضحكا يدعو إلى السخرية والاستخفاف . من ذلك ما حكاه ابن قتيبة عن مسيلمة الكذاب أنه قال فى معارضة القرآن الكريم : يا ضفدع بنت ضفدعين، نقى كم تنقين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشراب تمنعين، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم يعتدون (*).

فلما سمع هذا أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ قال : إن هذا الكلام لم يخرج من إلّه .

وحكى عنه أيضا أنه قال : ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى ، أخرج من بطنها نسمة تسعى ، من بين شراسيف [1] وحِشَى .

(*) لمزيد من هذا السخف يراجع الباقلانى . ص : ١٥٦ ـ ١٥٨ .

(١) الشراسيف : جمع شرسوف ، وهو طرف الضلع المشرف على البطن .

وحكى عن آخر قوله : الفيل ما الفيل ، له ذنب وثيل [1]، ومشفر [2] طويل ، فإن ذلك من خلق ربنا لقليل .

وحكى الحكم عن عكرمة أن النضر بن الحارث ـ وكان من فصحاء قريش ـ عارض القرآن فقال : والزارعات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً ، فاللاقمات لقماً .

وقال آخر : قد أفلح مَنْ هَيْنَم [3] فى صلاته ، وأطعم المسكين من مِخْلاَتِه ، وأخرج الواجب من زكاته .

وقال آخر فى معارضة سورة النجم : والنجم إذا سما ، والبحر إذا طما ، ما زاغ منذركم وما طغى ، وما كذب بها وغوى ، فيما نطق به وروى . فأنزل الله تعالى فى ذلك : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾

إنه لا يختلف اثنان ـ ولو كانا غير مسلمين ـ فى أن هذه المعارضات إنما هى ضرب من هذر القول ونمط من سخيف الكلام ، ومن ثم فإن أحدا لم يحفل بها ، وإذا ذكرت فإنما تذكر على سبيل السخرية والمفاكهة ، وليس على سبيل الجد ونافع القول .

الباقلانى وإعجاز القرآن والفرق بينه وبين كلام الرسول :

إن المتحدث عن الباقلانى ومذهبه فى إعجاز القرآن يجدر به أن يشير إلى منهج سابق عليه بفترة زمنية قصيرة هو منهج أبى سليمان الخطابى البستى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ (توفى الباقلانى سنة ٤٠٣ هـ) ذلك أن الخطابى فى كتابه (إعجاز القرآن) سلك مسالك تختلف من مسالك سابقه أبى الحسن الرمانى المعتزلى المتوفى ٣٨٤ هـ وعن نهج لاحقه أبى الحسن الماوردى ؛ لأن كلا من الرمانى والماوردى ذهب إلى أن « الصرفة » واحدة من أسباب إعجاز القرآن ، على الرغم من أن الرمانى معتزلى ، والماوردى شافعى من أهل السنة .

---

(١) وثيل : ليف .

(٢) مشفر : شفة .

(٣) هينم : تلا بصوت منخفض .

لقد أنكر الخطابى « الصرفة » مستشهدا بقول الله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [1] وهو فى ذلك متفق مع معاصره الباقلانى فى إنكار الصرفة واستبعادها .

ويمكن ذكر وجوه إعجاز القرآن الكريم عند الخطابى فى عجالة سريعة ندلف بعدها إلى الباقلانى .

إعجاز القرآن عند الخطابى :

ذكر الخطابى أن دقيق النظر ، وشاهد العبر ؛ قد دلاه على ما يباين به القرآن سائر الكلام ؛ وأن العلة فى ذلك : « أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها فى نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها فى البلاغة متباينة غير متساوية . فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز المطلق الرَّسْل . وهذه أقسام الكلام الفاضل . فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والقسم الثانى أوسطه وأقصده ، والقسم الثالث أدناه وأقربه . فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة ، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة والعذوبة . وهما على الانفراد فى نعوتهما كالمتضادين ؛ لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة فى الكلام يعالجان نوعاً من الوعورة . فكان اجتماع الأمرين فى نظمه ـ مع نُبُوّ كل واحد منهما عن الآخر ـ فضيلة خصّ بها القرآن » .

ثم قال : « وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله ؛ لأمور :

منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية ، وبأوضاعها التى هى ظروف المعانى ، والحوامل لها . ولا تدرك أفهامهم جميع معانى الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التى بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها ، إلى أن

---

(١) الإسراء ، الآية : ٨٨ .

يأتوا بكلام مثله . وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى قائم به، ورباط لهما ناظم . وإذا تأمّلت القرآن وجدت هذه الأمور منه فى غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ؛ ولا ترى نظمًا أحسن تأليفاً وأشد تلاؤمًا وتشاكلاً من نظمه . وأما المعانى فلا خفاء على ذى عقل أنها هى التى تشهد لها العقول بالتقدم فى أبوابها ، والترقى إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها . وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق فى أنواع الكلام ؛ فأما أن توجد مجموعة فى نوع واحد منه ، فلم توجد إلا فى كلام العليم القدير ، الذى أحاط بكل شىء علمًا ، وأحصى كل شىء عدداً .

فتفهّم الآن ، واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، فى أحسن نظوم التأليف ، مضمنًا أصح المعانى : من توحيد له ـ عزت قدرته ـ وتنزيه له فى صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته : من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساويها . واضعًا كل شىء منها موضعه الذى لا يرى شىء أولى منه ، ولا يرى فى صورة العقل أمر أليق منه ؛ مودعًا أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مَثُلات الله بمن عصى وعاند منهم ؛ منبئًا عن الكوائن المستقبلة فى الأعصار الباقية من الزمان ؛ جامعًا فى ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه ؛ ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه ، وإنباءً عن وجوب ما أمر به ونهى عنه . ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق ـ أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قُدرَهُم : فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله ، أو مناقضته فى شكله » .

وأنَّى لهم ذلك وأمر معاناة المعانى التى تحملها الألفاظ ، شديد بالغ الشدة ؛ لأنها نتائج العقول ، وولائد الأفهام ، وبنات الأفكار .

وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر ؛ لأنها لجام الألفاظ وزمام المعانى ، وبه يتصل أخذ الكلام ، ويلتئم بعضه ببعض ؛ فتقوم له صورة فى النفس يتشكل بها البيان » .

ثم ذكر أقوال المعاندين للقرآن ، لما عجزوا عن معارضته ؛ وقال : « إن عمود هذه البلاغة التى تجتمع لها هذه الصفات ، هو وضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به ، الذى إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إمَّا تبدل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذى يكون معه سقوط البلاغة . ذلك أن فى الكلام ألفاظًا متقاربة فى المعانى يحسب أكثر الناس أنها متساوية فى إفادة بيان مراد الخطاب ؛ كالعلم والمعرفة والحمد والشكر . . والأمر فيها وفى ترتيبها عند علماء اللغة بخلاف ذلك ؛ لأن لكل لفظة منها خاصيّة تتميز بها عن صاحبتها فى بعض معانيها ، وإن كانا قد يشتركان فى بعضها » . ثم مضى يبين الفروق بين معانى الكلمات التى ذكرها ، وأتبعها بطائفة الاعتراضات التى وجهت إلى القرآن ، أو التى يمكن أن توجه إليه ؛ كتأليف معظم كلامه من ألفاظ مبتذلة فى مخاطبات العرب ، مستعملة فى محاوراتهم ؛ وقلة حظه من الغريب المشكل ، بالإضافة إلى واضحه الكثير ؛ وقلة عدد الفِقَر والغُرَر من ألفاظه ، بالقياس إلى مباذله ومراسيله . والقول بأن كثيراً من العبارات الواقعة فى القرآن ، لم تقع فى أفصح وجوه البيان وأحسنها ، وأنه قد عرض فيه سوء التأليف من نسق الكلام على ما ينبو عنه ولا يليق به ، وإدخاله بين الكلامين ما ليس من جنسهما ، مع ما فيه من الحذف والاختصار ، ومضاعفة التكرار ؛ وغير ذلك مما يشكل معه الكلام ، ويستغلق معناه ، ويخرج به عن الفصاحة العالية والبلاغة السامية .

ثم كَرَّ على تلك الاعتراضات فنقضها ، وفصّل القول فى تأويل الآيات الكثيرة التى أوردها . وبين أسرار بلاغتها تبيينًا ترتاح إليه القلوب ، وتطمئن له العقول . ثم قال : « وفى إعجاز القرآن وجه آخر ، ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذّ من آحادهم . وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره فى النفوس ، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظومًا ولا منثوراً ، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى أخرى ما يخلص منه إليه . تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق ،

وتغشاها من الخوف والفرق ما تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب . يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها . فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفتّاكها ، أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلبثوا حين وقعت فى مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا فى دينه ؛ وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيمانًا » .

عود إلى الباقلانى :

فإذا ما عاد الحديث بنا إلى الباقلانى ووجوه إعجاز القرآن التى أدارها ، فإن المؤلف يعتمد البلاغة والفصاحة وإتقانها والتخصص فيهما الوسيلة الناجعة للتوصل إلى الإيمان بإعجاز القرآن ، فيقول :

إنه لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية ، من العجم والترك وغيرهم ، أن يعرفوا إعجاز القرآن إلا بأن يعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلك ، فإذا عرفوا هذا ـ بأن علموا أنهم قد تُحُدُّوا إلى أن يأتوا بمثله ، وقرعوا على ترك الإتيان بمثله ، ولم يأتوا به ـ تبينوا أنهم عاجزون عنه . وإذا عجز أهل ذلك اللسان ، فهم عنه أعجز .

وكذلك نقول : إن من كان من أهل اللسان العربى ـ إلا أنه ليس يبلغ فى الفصاحة الحدَّ الذى يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام ، ووجوه تصرُّف اللغة ، وما يعدونه فصيحاً بليغاً بارعًا من غيره ـ فهو كالأعجمىّ : فى أنه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن ، إلا بمثل ما بينّا أن يعرف به الفارسى الذى بدأنا بذكره ، وهو ومَنْ ليس من أهل اللسان سواء .

فأما من كان تناهى فى معرفة اللسان العربى ، ووقف على طرقها ومذاهبها فهو يعرف القدرَ الذى ينتهى إليه وُسْعُ المتكلم من الفصاحة ، ويعرف ما يخرج عن الوُسْع ، ويتجاوز حدودَ القدرة فليس يخفى عليه إعجاز القرآن ، كما يميز بين جنس الخطب والرسائل والشعر ، وكما يميز بين الشعر الجيد والردىء ، والفصيح والبديع ، والنادر والبارع والغريب .

وهذا كما يميز أهلُ كل صناعة صنعتهم ، فيعرفُ الصَّيْرَفِيُّ من النقد ما يخفى على غيره ، ويعرف البزَّازُ من قيمة الثوب وجَودته ورداءته ما يخفى على غيره ، وإن كان يَبْقَى مع معرفة هذا الشأن أمرٌ آخر وربما اختلفوا فيه :

لأنَّ من أهل الصنعة من يختار الكلام المتين ، والقول الرَّصِين .

ومنهم من يختار الكلام الذى يَرُوق ماؤُه ، وتَرُوع بهجتُه ورُوَاؤه ، ويسلس مأخذه ، ويسلم وجهه ومنفذه ، ويكون قريب المتناول غير عويص اللفظ ولا غامض المعنى(١).

وعلى رسله يمضى الباقلانى مكملا نظريته فى أن نظم القرآن هو الوجه الأكثر وضوحا فى الإعجاز فيقول :

فأما شأوُ نظم القرآن ، فليس له مثال يُحتذى عليه ولا إمام يُقتدى به ، ولا يصح وقوع مثله اتفاقًا ، كما يتفق للشاعر البيت النادر ، والكلمة الشارِدَة ، والمعنى الفذّ الغريب ، والشىء القليل العجيب ، وكما يلحق من كلامه بالوحشيات ، ويضاف من قوله إلى الأَوَابِدِ ، لأن ما جرى هذا المجرى ووقع هذا الموقع ، فإنما يتفق للشاعر فى لمع من شعره ، وللكاتب فى قليل من رسائله ، وللخطيب فى يسير من خطبه . ولو كان كل شعره نادراً ، ومثلاً سائراً ، ومعنى بديعاً ، ولفظًا رشيقًا ، وكلّ كلامه مملوءاً من رَوْنَقه ومائه ، ومحلًّى ببهجته وحسن رُوائه ، ولم يقع فيه المتوسط بين الكلامَيْن ، والمتردد بين الطرفين ، ولا البارد المستَثقلُ ، والغثُّ المستنكَر ، لم يَبِن الإعجازُ فى الكلام ، ولم يظهر التفاوت العجيب بين النظام والنظام .

وهذه جملة تحتاج إلى تفصيل ، ومُبْهَمٌ قد يحتاج فى بعضه إلى تفسير .

ولكن قد يمكن أن يقال فى البديع الذى حكيناه وأضفناه إليهم : إن ذلك باب من أبواب البراعة ، وجِنسٌ من أجناس البلاغة ، وإنه لا ينفك القرآن عن فنّ من فنون بلاغاتهم ، ولا وجه من وجوه فصاحاتهم ، وإذا أُورِدَ هذا المورد ، وَوُضعَ هذا الموضع كان جديراً .

---

(١) إعجاز القرآن ، ص : ١١٣ ، ١١٤ .

وإنما لم نطلق القول إطلاقا ؛ لأنا لا نجعل الإعجاز متعلقًا بهذه الوجوه الخاصّة ، ووقفًا عليها ، ومضافًا إليها ، وإن صح أن تكون هذه الوجوه مؤثرة فى الجملة ، آخذة بحظها فى الحسن والبهجة ، متى وقعت فى الكلام على غير وجه التكلف المُسْتَبْشَع ، والتعمل المُسْتَشْنَع (١).

إن الباقلانى يتوسع فى ضرب الأمثلة من القرآن الكريم ، مثل بديع نظمه وعجيب تأليفه وتناهيه فى البلاغة ، وكون كلام العرب غير مشتمل على فصاحة القرآن وغرابته ولطيف معانيه ، وعدم التفاوت والتباين فى عجيب نظم القرآن وبديع تأليفه ، وكون نظم القرآن خارجا عن عادة كلام الثقلين ، واشتمال القرآن على جميع أنواع الخطاب عند العرب مع تجاوزه حدود المعتاد بينهم ، وتضمّن القرآن ما يمتنع على البشر من المعانى فى أصل وضع الأحكام والقواعد ، والاحتجاج فى العقائد ، والرد على المعاند ، وسهولة سبل القرآن ، وخروجه عن الوحشى المستكره ، والغريب المستنكر ، وبُعده عن التصنع والتكلف ، وقربه إلى الفهم .

وقد عمد الباقلانى إلى ضرب الأمثلة من الكتاب العزيز ، ومن كلام العرب شعرا ونثرا لشرح وجوه إعجاز القرآن ، عرض الباقلانى كل ذلك فى إطالة وتفصيل ، مع الرد على المعارضين ومناقشتهم فى توسع وعمق .

يخلص الباقلانى بعد ذلك إلى القول مخاطباً قارىء كلامه : (٢)

وإنما أطلت عليك ، ووضعت جميعه بين يديك ، لتعلم أن أهل الصنعة يعرفون دقيق هذا الشأن وجليله . وغامضَه وجليَّه . وقريبه وبعيده ، ومُعْوجَّه ومستقيمَه ، فكيف يخفى عليهم الجنس الذى هو بين الناس مُتداوَل . وهو قريب مُتناوَل ، من أمر يخرج عن أجناس كلامهم . ويبعد عما هو فى عرفهم . ويفوت مواقع قُدَرهم ؟! .

وإذا اشتبه ذلك فإنما يشتبه على ناقص فى الصنعة ، أو قاصر عن معرفة طرق

(١) المصدر السابق ، ص ١١٢ .
(٢) إعجاز القرآن ص : ١٢٤ .

الكلام الذى يتصرفون فيه ويُديرونَه بينهم ولا يَتجاوزونه ؛ فلكلامهم سُبُلٌ مضبوطة ، وطرقٌ معروفة محصورة .

وهذا كما يشتبه على من يدعى الشعر ـ من أهل زماننا ـ والعلمَ بهذا الشأن ، فيدعى أنه أشعر من البُحْترى . ويتوهم أنه أدق مسلكًا من أبى نُوَاس ، وأحسن طريقًا من مُسْلم ! وأنت تعلم أنهما متباعدان . وتتحقق أنهما لا يجتمعان ولعل أحدهما إنما يلحظ غبار صاحبه ، ويطالع ضياءَ نجْمِه ، ويُراعى خُفُوق جناحه وهو راكدٌ فى موضعه ، ولا يَضُرُّ البحترىَّ ظنُّه ، ولا يُلْحِقه بشأوِه وَهْمُه .

فإن اشتبه على متأدّب أو مُتَشاعر أو ناشىء أو مُرْمِد ، فصاحة القرآن ، وموقع بلاغته ، وعجيب براعته ، فما عليك منه ؛ إنما يخبر عن نقصه ، ويدل على عجزه ، ويُبين عن جهله ، ويُصرِح بسخافة فهمه . وركاكة عقله .

وإنما قدمنا ما قدمناه فى هذا الفصل ، لتعرف أن ما ادَّعيناه من معرفة البليغ بعلو شأن القرآن وعجيب نظمه وبديع تأليفه ، أمر لا يجوز غيره ، ولا يحتمل سواه ، ولا يشتبه على ذى بصيرة . ولا يَخِيلُ عند أخى معرفة ، كما يعرف الفصل بين طبائع الشعراء من أهل الجاهلية ، وبين المخضرمين ، وبين المحدثين ، ويميز بين من يجرى على شاكلَةِ طبعه وغريزة نفسه ، أو بين من يشتغل بالتكلّف والتصنُّع ، وبين من يصير التكلف له كالمطبوع . وبين من كان مطبوعه كالمتعمل المصنوع .

هيهات هيهات !! هذا أمر ـ وإن دَقَّ ـ فله قوم يقتلونه علما ، وأهل يحيطون به فهمًا ، ويعرفونه إليك إن شئت ، ويصورونه لديك إن أردت ، ويجلونه على خواطرك إن أحببت . ويعرفونه لفطنتك إن حاولت ، وقد قال القائل :

للحرب والضَّرْب أقْوامٌ لها خلقُوا ... وللـدَّواوين كُتـابٌ وحـُسَّابُ

ولكل عمل رجال ، ولكل صنعة ناس ، وفى كل فرقة الجاهل والعالم والمتوسط ، ولكن قد قل من يميز فى هذا الفن خاصَّة . وذهب من يُحصّل فى هذا الشأن ، إلا قليلاً !

فإن كنت ممن هو بالصفة التى وصفناها من التناهى فى معرفة الفصاحات ، والتحقق بمجارى البلاغات ، فإنما يكفيك التأمل ، ويغنيك التصوُّر .

وإن كنت فى الصنعة مُرمداً ، وفى المعرفة بها متوسطًا ، فلابد لك من التقليد ، ولا غنى بك عن التسليم ، إن الناقص فى هذه الصنعة كالخارج عنها ، والشادى فيها كالبائن منها .

فإن أراد أن نقرب عليه أمراً ، ونفسح له طريقاً ، ونفتح له بابًا ـ ليعرف به إعجاز القرآن ـ فإنا نضع بين يديه الأمثلة ، ونعرض عليه الأساليب ، ونُصور له صور كل قبيل من النَّظم والنثر . ونُحْضِرُه من كل فن من القول شيئًا يتأمله حق تأمله ، ويراعيه حق رعايته فيستدل استدلال العالم ، ويستدرك استدراك الناقد ، ويقع له الفرق بين الكلام الصَّادر عن الرُّبوبيَّة ، الطَّالع عن الإلهية ، الجامع بين الحُكْم والحِكَم ، والإخبار عن الغيوب والغائبات ؛ والمتضمن لمصالح الدنيا والدين ، والمُسْتَوعِب لجليَّة اليقين ؛ والمعانى المخترعة فى تأسيس أصل الشريعة وفروعها بالألفاظ الشريفة ؛ على تَفَنُّنها وتصرُّفها . ونَعْمِدُ إلى شىء من الشعر المُجْمَع عليه ، فَنبيِّنُ وجه النقص فيه ، ونَدُل على انحطاط رتبته ، ووقوع أبواب الخلل فيه ، حتى إذا تأمل ذلك ، وتأمل ما نذكره من تفصيل إعجاز القرآن وفصاحته ، وعجيب براعته انكشف له واتضح ، وثبت ما وصفناه لديه ووضح ، وليعرف حدود « البلاغة » ، ومواقع البيان « والبراعة » . ووجْهَ التقدم فى « الفصاحة » .

وبعد أن يعرض الباقلانى تعريف البلاغة عند عدد من الشعوب ذات الماضى الحضارى مثل الفرس واليونان والروم والهنود من نقل عن الجاحظ فى البيان والتبيين ـ ينتهى إلى هذا القول الذى أوجز فيه الفرق بين نظم القرآن وكلام الرسول : (١)

« والذى يصور عندك ما ضمنّا تصويره ، ويحصل لديك معرفته إذا كنت فى صنعة الأدب متوسطا ، وفى علم العربية متبيِّنًا أن تنظر أولا فى نظم القرآن ، ثم فى شىء من كلام النبى ﷺ فتعرف الفَصْلَ بين النظمين ، والفرقَ بين الكلامين .

(١) المصدر السابق ص : ١٢٧ ، ١٢٨ .

فإن تبيَّن لك الفصلُ ، ووقعتَ على جليَّةِ الأمر وحقيقةِ الفرْق ، فقد أدركتَ الغرض، وصادفتَ المقصد .

وإن لم تفهم الفرق ، ولم تقع على الفصل فلابد لك من التقليد ، وعلمتَ أنك من جملة العامة ، وأن سبيلك سبيلُ من هو خارجٌ عن أهل اللسان » .

ثم يعرض الباقلانى بعد ذلك على القارىء سبع خطب للرسولﷺ فى مناسبات مختلفة ، وكتابين له ﷺ أولهما إلى كسرى ، وثانيهما إلى النجاشى ، كما يعرض نسخة لعهد الصلح مع قريش عام الحديبية كنماذج للفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب النبى .

الفرق بين أسلوب القرآن وكلام النبى :

ويختم الباقلانى حكمه بعد ذلك فى الفرق بين أسلوب القرآن الكريم وكلام النبى ﷺ قائلا : « ولا أطوِّل عليك ، وأقتصر على ما ألقيته إليك ، فإن كان لك فى الصنعة حظ ، أو كان لك فى هذا المعنى حس ، أو كنت تضرب فى الأدب بسهم ، أو فى العربية بقسط ، وإنْ قَلَّ ذلك السَّهْمُ ، أو نقَص ذلك النصيب ، فما أحسَبُ أنه يَشتَبهُ عليك الفرقُ بين بَرَاعَة القرآن ، وبين ما سلف ذكره من كلام الرسول ﷺ فى خطبه ورسائله ؛ وما عساك تَسْمَعُهُ من كلامه ؛ ويتَسَاقَط إليك من ألفاظه ؛ وأقدِّرُ أنَّكَ تَرَى بين الكلامين بَوْنًا بَعيدًا ، وأمَدًا مَديداً ، ومَيْدَانًا واسعًا ، ومكانًا شاسعًا .

* * *

فإن قلت : لعله أنْ يكونَ تَعَمَّلَ للقرآن ، وتَصَنَّعَ لِنَظْمِه ، وشبه عليك الشيطان ذلك من خُبْثه فتثبَّتْ فى نفسك ، وارجعْ إلى عقلك ، واجمع لُبَّكَ ، وتيقَّنْ أن الخطب يحتشد لها فى المواقف العظام ، والمَحَافل الكبار ، والمواسم الضّخام ؛ ولا يُتَجَوَّزُ فيها ، ولا يُستهانُ بها . والرّسائلُ إلى الملوك مما يَجمعُ لها الكاتبُ جَراميزَه [1]، ويُشَمِّر لها عن جِدّ واجتهاد ؛ فكيف يقع بها الإخلال ؟ وكيف تعرض للتفريط ؟ فستعلَم لا محالةَ أنَّ نظمَ القرآن من الأمر الإلهى ؛ وأن كلام النبى ﷺ من الأمرِ النبوى .

(١) يقال : جمع فلان لفلان جراميزه : إذا استعد له وعزم على قصده، وجراميز الرجل : جسده وأعضاؤه .

فإذا أردتَ زيادةً فى التبيُّن وتقدُّمًا فى التَّعرُّف ، وإشرَافًا على الجَلِيَّة ، وفوْزاً بُمحْكَم القضية ، فتأمَّلْ ـ هداك الله ـ خُطب الصّحابة والبلغاء ، لتعلمَ أنّ نَسْجَها ونَسْجَ خطب النبى ﷺ واحد ، وسَبْكَها سَبْكٌ غيرُ مختلِف ؛ وإنما يقَعُ بيْن كلامه وكلامِ غيره ما يقعُ من التَّفاوُت بين كلام الفصِيحيْن ، وبين شعر الشَّاعريْن ، وذلك أمرٌ له مقدارٌ معروفٌ ، وحدٌّ ـ ينتَهى إليه ـ مضبوطٌ .

فإذا عرفتّ أنَّ جميعَ كلام الآدمّى منهاجٌ ، وبجملته طريق، وتبينْت ما يُمكنُ فيه من التفاوت ، نَظَرْتَ إلى نظم القرآن أخرى ، وتأملتَه مَرَّةً ثانيةً ، تُراعى بُعْدَ موقعه ، وعالىَ محلّه وموضِعه ؛ وحكَمْتَ بواجب من اليقين ، وثَلَج [1] الصَّدْر بأصْل الدين»[2].

(١) ثَلَجَتْ نفسى بالشىء ثلجاً : اشتفت به واطمأنت إليه، وثلج قلبه : تيقّن .

(٢) إعجاز القرآن للباقلانى، ص : ١٣٦ ، ١٣٧ .





الفصل الثالث

نماذج تلقائية من آيات الكتاب العـزيز
وأخرى من حـديـث رسول الله



نماذج من آيات الكتاب العزيز
وأخرى من حديث رسول الله

يقول الخطابى فى كتابه « إعجاز القرآن » بعد أن ذكر وجوها عدة للإعجاز : « وفى إعجاز القرآن وجه آخر ، وذلك صنيعه بالقلوب ، وتأثيره فى النفوس ، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورًا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال، ومن الروعة والمهابة فى أخرى ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق ، وتغشاها من الخوف والفرق ، ما تقشعرّ منه الجلود ، وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ، فكم عدوّ للرسولﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت فى مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا فى دينه » .

ويقول الباقلانى من جملة كلام أسلفنا ذكره مخاطباً من يرقب إعجاز القرآن مانصه : « والذى يصور عندك ما ضمنّا تصويره ، ويحصل لديك معرفته ـ إذا كنت فى صنعة الأدب متوسطا وفى علم العربية متبينًا ـ أن تنظر أولا فى نظم القرآن ، ثم فى شىء من كلام النبىﷺ فتعرف الفصل بين النظمين ، والفرق بين الكلامين» .

إن فحوى كلام كل من الإمامين الجليلين : الخطابى والباقلانى أن معرفة الفرق بين كلام الله وكلام النبى يكمن فى تباين أسلوبها ، وتفاضل نظمهما ، وكل من التباين والتفاضل تدركه الفطرة السليمة ، والفطنة القويمة ، والعلم بأساليب العربية ، وهذا المنهج المعيارى هو ما نميل إليه ونأخذ به ، ولذلك فقد وقع بصرنا على عدد من آيات الكتاب العزيز بشكل عشوائى من غير انتقاء وبدون اختيار ، والشىء ذاته جرى على

حديث رسول الله ﷺ وبعض أقواله بدون انتقاء أو اختيار ، فنرصد الآيات والأقوال النبوية ، وسوف تكون النفس ـ أى نفس عاقلة محايدة ـ مرتاحة إلى أن كلام الله فوق كلام البشر جميعا ، وأن كلام النبى ﷺ ـ على فصاحته وجماله وجلاله ـ هو دون كلام الله وفوق كلام البشر .

الآيات القرآنية :

قال ـ عز وجل ـ : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١).

وقال ـ عز وجل ـ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ (٢).

وقال ـ عز وجل ـ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ * لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۩ * قُلْ مَن

(١) سورة فصلت ، الآية : ٣٩ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآيات : ١٢ ـ ١٤ .

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا
وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ
جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ
الْقَهَّارُ * أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا
رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ
الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ
كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ * لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَالَّذِينَ لَمْ
يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ
أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * ۩ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا
أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ
بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ
وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ
أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ
وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ
عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (١).

وقال ـ عز وجل ـ : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ

---

(١) سورة الرعد ، الآيات من : ١٢ ـ ٢٤ .

نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (١).

وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ * وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ * وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ

---

(١) الكهف، الآيات: ٤٧ ـ ٤٩.

أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (١).

وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ * وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ (٢).

وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

---

(١) سورة الحج ، الآيات : ٣٩ ـ ٥١ .

(٢) فاطر ، الآيات ٢٧ ـ ٣٥ .

وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١).

وقال ـ عز وجل ـ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ (٢)

وقال ـ عز وجل ـ : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ

---

(١) البقرة ، الآية : ١٦٤ .

(٢) آل عمران ، الآيات : ١٩٠ ـ ١٩٥ .

يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ * لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١).

وقال ـ عز وجل ـ : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا * وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا * وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا * وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا * وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا * قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ (٢).

هذه آيات من القرآن الكريم تنسرب من مسالك السمع إلى مغالق القلوب فتفتحها وتقول للنفس السوية : إننى كلام الله المعجز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

الرسول يصف كلام الله :

إن الرسول ﷺ يصف كلام الله فيقول : « فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل

---

(١) سورة النور ، الآيات : ٣٥ ـ ٤٤ .

(٢) سورة الإسراء ، الآيات ٧٨ ـ ٨٤ .

الله على خلقه »[1].

وإن كلام الله هو المخرج من كل فتنة ، عن على - رضى الله عنه - قال : قيل : يارسول الله إن أمتك ستفتتن من بعدك ، فسأل أو سئل : ما المخرج من ذلك ؟ فقال « بكتاب الله العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، من ابتغى العلم فى غيره أضلّه الله ، ومن ولى هذا من جبار فحكم بغيره قصمه الله ، وهو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم ، فيه خبر من قبلكم ، وتبيان من بعدكم ، وهو فصل ليس بالهزل ، وهو الذى لما سمعته الجنّ قالوا ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾[2]. لا يَخْلُقُ على طول الردّ ، ولا تنقضى عبره ، ولا تفنى عجائبه »[3].

نماذج من كلام رسول الله :

إن كلام رسول الله ﷺ لا يشاكل فى إيجازه ، ولا يحاكى فى فصاحته ، ولا يماثل فى إطنابه ، ولا يبارى فى بلاغته ، وكل كلام يجرى على لسانه الشريف يبزّ بلاغة البلغاء ، ويقصر دونه فصاحة الأبيناء .

فمن كلامه الذى لا يشاكل فى إيجازه قوله ﷺ : « الناسُ بزمانهم أَشْبَهُ » وقوله : « مَا هَلَكَ امرؤٌ عَرَفَ قَدْرَه » وقوله : « لَوْ تكاشفتم ما تَدَافَنْتُمْ » وقوله : « السعيدُ من وُعِظَ بغيره » . وقوله : « حُبُّكَ للشىءِ يُعْمِى ويُصِمّ » وقوله : « العقل ألوف مألوف » وقوله : « العِدَةُ عطية » وقوله : « اللهم إنى أعوذُ بك من طَمَع يهدى إلى طَبَع » وقوله : « أفضل الصدقة جهدُ المقلّ » وقوله : « اليدُ العُليا خيرٌ من اليدِ السُّفْلى » وقوله : « تَرْكُ الشرِّ صَدَقَةٌ » وقوله : « الخيْر كثيرٌ وقليلٌ فَاعِلُه » وقوله : « الناسُ كمعادن الذهب » وقوله : « نَزَلَتِ المعونةُ على قَدْر المؤونة » وقوله : « إذا أراد اللهُ بِعَبْدٍ خيراً جعل له واعظا

---

(١) رواه الترمذى وقال : حديث حسن غريب ، والدارمى فى سننه ٢ / ٤٤١ دمشق . وابن حجر فى فتح البارى ٩ / ٥٨ .

(٢) سورة الجن ، من الآيتين : ١ ، ٢ .

(٣) الباقلانى ، ص : ١٨٥ عن القاضى ابن قتيبة فى عيون الأخبار ٢ / ٣١٣ .

من نَفْسِه » وقوله : « أَدِّ الأمانةَ إلى من ائتمنك ولا تخُنْ مَنْ خانك » وقوله : « المؤمنُ غر[1]كريم ، والفاجرُ خبٌّ[2] لئيم » وقوله : « الدنيا سجنُ المؤمنِ وبلاؤه وَجَنَّةُ الكافرِ ورخاؤه » .

إن هذه الأقوال الشريفة لسموِّ فصاحتها ووفرة حلاوتها جرت مجرى الأمثال السائرة ورددها العلماء ، وحفظها الحكماء ، وتخلق بها الكبراء .

كلام الرسول الذى لا يشاكل فصاحة :

ومن كلامه الذى لا يشاكل فى فصاحته قولهﷺ : «إياكم والمشاورة فإنها تميت الغرة وتحيى الفرة » وقوله : « لا تزال أمتى بخير مالم تر الأمانة مغنماً والصدقة مغرما » وقوله : « رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم » وقوله : « اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع وقلب لا يخشع وعين لا تدمع » وقوله :« هل يطمع أحدكم إلا غِنًى مُطغياً أو فقراً مُنْسِياً ، أو مرضاً مُفْسداً أو هَرَماً مفنداً[3] أو الدجال فهو شرٌّ غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أَدْهَى وأَمَرّ» وقوله : « ثلاثٌ منجيات وثلاثٌ مهلكات ، فأما المنجياتُ فخشيةُ الله تعالى فى السرِّ والعلانية ، والاقتصادُ فى الغنى والفقر، والحكمُ بالعدل فى الرضا والغضب ، وأما المهلكات فشحٌّ مُطاع ، وهَوًى مُتَّبَعٌ ، وإعجابُ المرء بنفسه » وقوله : « وتقبلوا لى بست أتقبل لكم بالجنة ، قالوا : وما هى يارسول الله ؟ قال : إذا حدَّثَ أحدُكم فلا يَكْذِبْ ، وإذا وَعَدَ فلا يُخْلِفْ ، وإذا ائْتُمِنَ فلا يَخُن ، غُضُّوا أبصاركم ، واحفظوا فُرُوجَكم ، وكُفُّوا أيديكم » وقوله فى بعض خطبه : « ألا إن الأيام تُطْوى ، والأعمارَ تَفْنَى ، والأبدانَ فى الثرى تَبْلَى ، وإن الليلَ والنهارَ يتراكضان تَرَاكُض البريد ، يُقَرِّبَانِ كلَّ بعيد ، ويُخْلِقَانِ كلَّ جديد ، وفى ذلك ـ عِبَاد الله ـ ما أَلْهَى عن الشهوات ، ورَغَّب فى الباقيات الصالحات » .

وقوله فى بعض خطبه وقد خاف من أصحابه فترة :

---

(١) الغر : الحسن الطوية فيه براءة .

(٢) خب : الخداع .

(٣) مفنداً : مخرفا مفقداً للعقل .

« أيها الناس : كأن الموت فيها على غيرنا كتب ، وكأنَّ الحقَّ فيها على غيرنا وَجَبَ ، وكأن الذى يُشَيَّعُ من الأموات سفرٌ عما قليل إلينا راجعون ، نُبَوِّئُهُم أجداثَهُمْ ، ونأكل تُرَاثَهُمْ كأناَّ مخلدون بعدهم ، قد نسينا كلَّ واعظة ، وأَمِناَّ كلَّ جائحة [1]، طُوبىَ[2] لمن شغلته آخرته عن دنياه ، طُوبَى لمن شغله عيْبُه عن عيوب الناس » .

وقوله لأصحابه : « خيركم من لم يترك دنياه لآخرته ، ولا آخرته لدنياه ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » .

يقول أبو الحسن الماوردى : إن كلامه ﷺ جامع لشروط البلاغة ، ومعرب عن نهج الفصاحة ، ولو مُزِج بغيره لتبين بأسلوبه ، ولظهر فيه ـ أى فى المزج ـ آثارُ التنافر ، فلم يلتبس حقُّه من باطله ، وَلَبَانَ صِدْقُهُ من كذبه .

ويمضى الماوردى قائلا : هذا ، ولم يكن ـ أىَ : الرسول ﷺ متعاطياً للبلاغة ، ولا مخالطاً لأهلها من خطباء أو شعراء أو فصحاء ، وإنما هو من غرائز فِطْرَتِه ، وبدايةِ جِبِلَّتِه ، وما ذاك إلا لغاية تُرادُ ، وحادثة تُشاد . فإن قيل : إذا كان كلامه مخالفا لكلام غيره فى البلاغة والفصاحة حتى لم يكن فيه مساجلا ، أيكون له معجزا ، ولا يكون مع عدم التحدى معجزا [3].

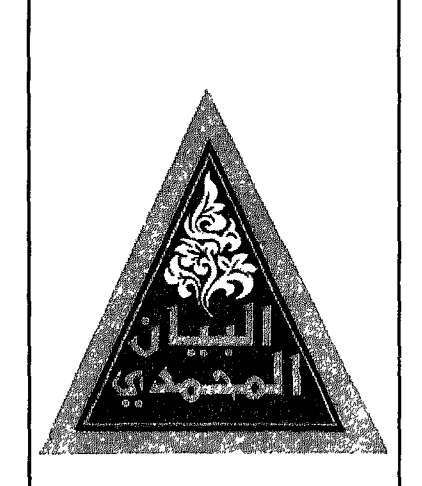
وقصارى القول فى هذا الفصل أن الفرق كبير ، والبون شاسع بين كلام الله ـ عز وجل ـ وبين كلام رسوله ﷺ مثلما أن الفرق كبير والتميز شديد الوضوح بين كلام رسول الله ﷺ وبين كلام غيره من فصحاء البشر ، ونعنى بهم هنا فصحاء العرب وبلغاءهم سواء أكان ذلك فى عصره ﷺ أو قبله أو بعده .

---

(١) جائحة : يعنى مهلكة .

(٢) الطوبى : تعنى الغبطة والسعادة والخير .

(٣) أعلام النبوة ص : ٢٦٨ .



الفصل الرابع

التناول القرآنى
والتناول النبوى لقضية بذاتها



التناول القرآنى والتناول النبوى
لقضية بذاتها

إن كلاًّ من الكتاب العزيز والسنة الشريفة يشكلان المصدر الإلهى للتشريع الإسلامى ، ذلك أن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى ؛ ولذلك قال الإمام أحمد بن حنبل : السنة مبينة للكتاب ، يدخل فى هذا المعنى أن كثيرا من الأحكام تأتى فى الكتاب العزيز مجملة ثم تضطلع السنة النبوية بتفصيلها ، كما هو الأمر فى الصلاة ، فالقرآن الكريم يشتمل على الأمر بإقامة الصلاة ، ولكن السنة النبوية الشريفة تضطلع بتفصيلاتها من نية وتكبيرات وقراءة وركوع وسجود وتشهد وغير ذلك ، والرسول ﷺ يقول : « **صلوا كما رأيتمونى أصلى** » وكذلك الشأن فى بقية التكاليف والأحكام .

وهكذا يكون النص القرآنى والحديث النبوى كثيرا ما يشتركان فى تناول الموضوع الواحد ، وهنا يبدو الفرق واضحا بين الأسلوب القرآنى الإلهى المعجز ، والأسلوب النبوى البشرى الذى هو فوق أساليب البشر ودون أسلوب العزيز الحميد .

ولمزيد من البيان والإيضاح بين أسلوب القرآن وأسلوب النّبى سوف نعرض لبعض الموضوعات التى تناولها القرآن الكريم تكليفا أو توجيها أو تقريرا ، وتناولها كذلك الحديث النبوى الشريف ، وقد سبق القول أن السنة مبينة للكتاب ومكملة لأحكامه .

رحمة الله :

الله ـ سبحانه ـ هو أرحم الراحمين ، وهو ـ جلت قدرته ـ يضمِّن كتابه العزيز تأكيده لرحمته فى العديد من السور والكثير من الآيات .

قال ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن

رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1].

إنها تجليات إلهية سامية ، تدخل إلى النفس السكينة ، وتغمر القلوب بالطمأنينة ، وتبعد عنها أسباب اليأس ودوافع القنوط ، مما يهون مواجهة الموت ويحبب لقاء الله ؛ والأسلوب الربانى فى الآية يفرض التسليم بالكمال ، والتفرد بالجلال ، لهذا الكلام الذى تحدى الإنس والجن جميعا أن يأتوا بسورة من مثله .

مثال آخر من آيات الرحمة استهلت على لسان سيدنا موسى ، وانتهت بتفضل إلهى بالرحمة الواسعة للمؤمنين المتقين .

يقول الرحمن الرحيم ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ۝ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾[2].

لننظر بعد ذلك التناول المحمدى لرحمة الله ، وكيف أن الرسولﷺأكدها للناس وحببها إليهم وثبتها فى قلوبهم ، ولكن بأسلوبه البشرى السامى فى نطاق البشرية ، الرفيع فى نطاق الإنسانية .

عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال : قُدِمَ على رسول اللهﷺبسبْىٍ ، فإذا امرأة من السبى تسعى إذ وجدت صبيا فى السبى أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته ، فقال رسول الله ﷺ: « **أتُرَوْنَ هذه المرأةَ طارحةً ولَدَها فى النار ؟ قلنا : لا والله ، فقال : الله**

---

(١) الزمر ، الآية : ٥٣ .

(٢) الأعراف : ١٥٥ ، ١٥٦ .

أرحم بعباده من هذه بولدها » (١).

ثمت أحاديث نبوية شريفة تناول فيها رسول اللهﷺرحمة الله ، بشرى للمؤمنين ، وتثبيتا لقلوبهم ، وإدخالاً لمزيد من الإيمان فى قلوبهم برحمة الله الذى وسعت رحمته كل شىء ، بنفس الأسلوب المحمدى الإنسانى الرفيع الذى يفوق فصاحة الفصحاء ، ويرجح بيان الأبيناء ، ويدفع بلاغة الإنس والجن ، ولكنه يبقى دون كلام الله بالبون الشاسع الذى يتوضح عند الاستقراء ، ويثبت عند الاقتضاء .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول اللهﷺ: « **لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى** » ، وفى رواية : «**سبقت غضبى** » (٢). متفق عليه

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول اللهﷺ يقول : « **جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه** » (٣).

وللحديث روايات أخرى .

وعن سلمان الفارسى قال : قال رسول اللهﷺ: « **والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**»(٤). رواه مسلم

وعن أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ عن النبىﷺقال : « **إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها** » (٥). رواه مسلم

الجهاد فى سبيل الله :

العقيدة الإسلامية قامت بالدعوة إلى الله على بصيرة ، قام بها رسول الله ـ صلى الله

---

(١) متفق عليه ، أورده النووى فى رياض الصالحين ، باب الرجاء .

(٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥) هذه الأحاديث رواها الحافظ النووى مخرجاً إياها فى رياض الصالحين ، صفحات : ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩١ طباعة عبد الرحمن محمد .

عليه وسلم ـ والرعيل الأول من صحابته من المهاجرين والأنصار ، وأما تثبيت الدعوة ودعم بنيانها ، وتوطيد أركانها ، وتوسيع مداها ، والإبقاء على كيانها ، والحفاظ على المؤمنين بها حتى تستمر عبادة الله فى الأرض ، فكان ذلك جميعا بأداء فريضة الجهاد فى سبيل الله .

لذلك تعددت آيات الجهاد فى الكتاب العزيز ، وتباينت أساليبها ترغيبا وترهيبا، ووعداً ووعيدا، وتتابعت آيات تفضيل المجاهدين على القاعدين فى احتفال قرآنى جليل .

يقول الله تعالى فى الجهاد فى سبيله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٢).

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ

---

(١) سورة الصف ، الآيات : ١٠ ـ ١٣ .

(٢) النساء ، الآيتان : ٩٥ ، ٩٦ .

حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٢).

هذه بعض آيات الجهاد في سبيل الله من كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الأسلوب الربانى ، وكذلك احتفل رسول الله ﷺ بالدعوة إلى الجهاد فى سبيل الله ، وقد كان هو ﷺ القائد الذى يقود المعارك ضد المشركين ، يتقدم الجيش ، وينظم الصفوف ، ويدعو إلى الثبات أمام العدو ، فلم يعرف هو وصحبه التقهقر أو الفرار ؛ لأن التكليف الإلهى يدعوه إلى ذلك ، ويمده بأنواع شتى من المدد الربانى ، الذى يكون فى أشكال مختلفة مثلما حدث فى بدر وكما جرى فى الخندق .

« إن الأحاديث فى فضل الجهاد أكثر من أن تحصر فمن ذلك (عن) أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أيُّ الْعمَل أَفْضَلُ ؟ قالَ : « **إيمانٌ باللهِ وَرَسُولِهِ** . **قيلَ** : **ثُم مَاذَا** ؟ **قَال** : **الجِهَادُ فى سَبِيلِ اللهِ** . **قيلَ** : **ثُمَّ مَاذا** ؟**قَال** : **حجٌّ مَبْرُورٌ** » متّفق عليه .

وعن ابن مَسْعود رضى الله عنه ـ قال : قُلْتُ يَارَسُولَ الله : أَيُّ الْعَمَلِ أحَبُّ إلى الله تَعَالى ؟ قال : « **الصلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا** » قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : « بِرُّ الْوالديْنِ » . قُلْتُ : ثُمَّ أيٌّ ؟ قالَ : « **الجهادُ فى سَبِيل الله** » متفق عليه .

---

(١) التوبة : ١١١ .

(٢) البقرة : ٢١٦ .

وعن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال: قُلْتُ يارَسولَ الله : أَىُّ الْعَمَلِ أفْضَلُ ؟ قالَ : « الإيمانُ باللهِ والجِهَادُ فى سَبِيلِه » متفق عليه .

وعن سهل بن سَعْدٍ رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « رِبَاطُ يَوْمٍ فى سَبيل الله خَيْرٌ منَ الدُّنْيا وَمَا عَلَيْهاَ ، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدكُم مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْياَ وَمَا عليهَا ، وَرَوْحَةٌ يَروحُهَا العَبْدُ فِى سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى أوِ الْغَدْوَةُ خَيْر منَ الدُّنياَ وَمَاعَلَيْها » متفق عليه .

وعن سلمان رضى الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ منْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقيامِه ، وَ إنْ مَاتَ فيه أُجْرِىَ عَلَيه عَمَلُهُ الذى كَانَ يَعْمَلُ وَأُجْرِىَ عَلَيْهِ رِزقُهُ وَأَمِنَ الْفَتَّانَ » رواه مسلم .

وعن فضالة بن عبيد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كُلّ مَيّتٍ يُخْتَمُ عَلى عَمَلِه إلاَّ الْمُرَابِطَ فى سبيلِ الله فَإنَّهُ يُنَمَّى لَهُ عَمَلُهُ إلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَيُؤَمَّنُ فتنةَ القَبْر» رواه أبواود والترمذى وقال : حديث حسن صحيحٌ .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « تضمَّن الله لمن خرج فى سبيله ، لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى وإيمان بى وتصديق برسلى ، فهو ضامن أن أُدْخِلَه الجنة ، أو أُرْجِعَهُ إلى منزله الذى خرج منه بما نالَ من أجر أو غنيمة ، والذى نفس محمد بيده مَامِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فى سبيلِ اللهِ إلاَّ جاءَ يَوْمَ القيامةِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ كُلِمَ ، لَوْنُه لَوْنُ دَمٍ ،وَرِيحُهُ رِيحُ مِسْكٍ ، وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لولا أن يشق على المسلمين ما قعدتُ خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ، ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى ، والذى نفس محمد بيده لَوَدِدْتُ أن أَغْزُوَ فى سبيل الله فأُقْتَلَ ، ثم أغزو فَأُقْتَل ثم أَغزو فَأُقْتَلَ » رواه مسلم وروى البخارى بعضه .

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن النبى قال : « ما أحد يدخل الجنة يحبُّ أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شىء إلا الشهيد ، يتمنى أَنْ يرجع إلى الدنيا فَيُقْتَلَ عشر مرات لما يرى من الكرامة » وفى رواية « لما يرى من فضل الشهادة » متفق عليه .

إن أحاديث الرسول ﷺ فى الجهاد كثيرة ، وهى متنوعة الأساليب من وعد ووعيد،

وترغيب وترهيب ، والترغيب فيها هو الأكثر والأوفر ، لفضل الجهاد عند الله، وفضل المجاهد على سائر المؤمنين .

وإن أحاديث الجهاد على سمو غاياتها ، وبلاغة كلامها ، وبعيد مقاصدها وتميزها على كلام البشر هى دون كلام الله ، فالفرق بينهما شاسع ، والبون بعيد .

اليتامى والمساكين :

لليتامى والمساكين سهم وافر من العناية فى القرآن الكريم ، وإنه باستعراض آيات اليتامى والمساكين نجد أن المولى ـ سبحانه وتعالى ـ قد أوحى إلى رسوله بالآيات الخاصة بهم فى مقام التكليف والتشريع ، ثم فى مقام التحذير والتشدد .

ففى مقام التكليف والتشريع تأكيدا لحق اليتيم والمسكين فى الغنائم ، يقول الله ـ

ويذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله بميثاق بنى إسرائيل فى عبادة الله الواحد الأحد والإحسان بالوالدين وذوى القربى واليتامى والمساكين ، فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (١).

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾(٢).

وفى تقرير الحفاظ على مال اليتيم يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ

---

(١) الأنفال ، الآية : ٤١ .

(٢) البقرة ، الآية : ٨٣ .

﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[1].

تلك كانت آيات التقرير الإلهى لحق اليتامى والمساكين فى مغانم جيوش المسلمين ، وفى الميثاق الذى أخذه المولى ـ سبحانه ـ على بنى إسرائيل ، وفى التأكيد على الحفاظ على مال اليتيم حتى يبلغ أشده .

وفى تقريع القرآن الكريم للعصاة وتوبيخه لهم يجعل حيثيات توبيخهم فى الإساءة إلى اليتيم وتجويع المسكين ، وذلك فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۞ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۞ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۞ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ۞ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴾[2].

كان ذلك طرفاً من الإعجاز الربانى فى السبك القرآنى حول تمكين حق اليتيم فى حسن المعاملة والحفاظ على ماله ، وتثبيت حق المسكين فى أن يطعم ويكرم ولايجوع ولا يهان .

وإذا كانت السنة مبينة للكتاب كما سبقت الإشارة فى صدر هذا الفصل ، فإن رسول الله ﷺ يسير فى مضمار كتاب الله ، ويقتفى معانيه فى الموضوع نفسه ، ولكن بأسلوب متغاير وتناول متفاوت ، إنه تغاير ما بين كلام الله وكلام البشر، وتفاوت ما بين أسلوب القرآن وأسلوب محمد ﷺ .

غير أن النبى ﷺ وقد استوعب التشريعات الإلهية فى القرآن الكريم لحقوق اليتامى

---

(١) الأنعام : ١٥٢ .

(٢) سورة الفجر ، الآيات من ١٥ ـ ٢٠ .

والمساكين فقد عمدﷺ إلى أن تكون أحاديثه في هذا الشأن بهدف الترغيب والتشجيع ، فوضح لأمته مكانة كافل اليتيم وثواب مطعم المسكين .

قال ﷺ : « **أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا** » وقال بأصبعه السبابة والوسطى . وفي رواية : « **أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين** » وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى . [1]حديث حسن صحيح

وكافل اليتيم هو القيّم بأمره ومصالحه ، وقد يكون جدا أو عمًّا أو أخاً أو غير ذلك .

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول اللهﷺ : « **كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو في الجنة كهاتين** » وأشار الراوي وهو مالك بن أنس بالسبابة والوسطى [2].

وعن نفس الموقف يروي أبو هريرة أن رسول اللهﷺ قال : « **خيرُ بيتٍ في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشرُّ بيتٍ في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه** » [3].

وعن المرأة الأيِّـم التي ترملت لكي تربي ولدها قال عوف بن مالك : قال رسول الله ﷺ : « **أنا وامرأة سفعاء الخدين ، امرأة آمت من زوجها ، فصبرت على ولدها كهاتين في الجنة** » [4].

وفي شأن من يعول يتيما يروي أبو هريرة عن النبيﷺ أنه قال : « **الساعي على الأرملة والمساكين كالمجاهد في سبيل الله الذي لا يفتر ، وكالصائم الذي لا يفطر** » [5].

---

(١) الحديث ٦٠٠٥ من شرح النووي لمسلم .

(٢) رياض الصالحين ، باب ملاطفة اليتيم والبنات . قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اليتيم له أو لغيره » معناه : قريبه أو الأجنبي عنه .

(٣) ابن ماجه (كتاب الأدب) باب حق اليتيم، رقم ٣٦٧٩ .

(٤) أبو داود (كتاب الأدب) باب في فضل من عال يتيما .

(٥) البخاري (كتاب النفقات) باب في فضل النفقة على الأهل . ومسلم كتاب الزهد .

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « **من عال جاريتين[1] حتى تبلغا ، جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين** » وضم أصابعه .

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين لها ، فأطعمتها ثلاث تمرات ، فأعطت كل واحدة منهما تمرة ، ورفعت إلى فيها تمرةً لتأكلها ، فاستطعمتها ابنتاها ، فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها بينهما ، فأعجبنى شأنها ، فذكرتُ الذى صنعتْ لرسول الله ﷺ فقال : « إن الله قد أوجب لها بهما الجنة ، أو أعتقها بهما من النار !!

هذه نماذج للفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب النبى فى موضوع اليتيم والمسكين ، ولعلنا نلحظ قدسية أسلوب القرآن الكريم الذى هو كلام الله ، وشفافية كلام الرسول المتَّسم بأعلى درجات الفصاحة البشرية .

مكانة الأنصار ومحبتهم بين كلام الله وكلام الرسول :

جاء فى فضلهم وحُبِّهم والوصية بهم والتجاوز عن مسيئهم والنَّهْى عن بُغْضِهم :

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾[2] وقال الله ـ عز وجل ـ : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[3] وقال تقدَّس اسمُه : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾[4] .

---

(١) جاريتين : يعنى بنتين .

(٢) سورة الأنفال ، آية : ٧٤ .

(٣) سورة الحشر ، آية : ٩ .

(٤) سورة الأنعام ، آية ٨٩ .

وعن غَيْلان بن جرير قال : قلت لأنس : أَرَأَيْتَ اسم الأنصار كنتم تُسَمَّوْنَ به أم سَمَّاكم الله ؟ قال : بل سَمَّانَا الله عَزَّ وجَلّ »[1]، رواه البخارى والنسائى .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - يرفعه : « **إن الله أَمَدَّنى بأَشد الناس أَلْسُناً وأَذْرُعاً ، با بْنَىْ قَيْلَة : الأوس والخزرج** » رواه الطبرانى فى الكبير .

وعن أبى واقد الليثى قال : كنت جالساً عند رسول الله ﷺ فأتاه آتٍ فالْتَقَم أُذُنَه فتَغَيَّر وَجْهُهُ وسار الدَّمُ فى أساريره ، ثم قال : « **هذا رسول عامر بن الطُّفَيْل يَتَهَدَّدُنى فكفانيه الله بالبيتين من وَلَد إسماعيل با بْنَى قَيْلَة** » ، يعنى الأنصار ، رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط .

وعن أنس - رضى الله عنه - قال : رأى رسول الله ﷺ النساء والصبيان مُقْبِلين من عُرْس فقام النبى ﷺ مُمْثِلاً [2]، فقال : « **اللهم أنتم من أَحَبِّ الناس إلىّ** » ، [قالها ثلاث مرات] . رواه البخارى [3].

وعنه أيضا قال : جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ ومعها صَبِىّ لها فكَلَّمها [رسول الله ﷺ] فقال : « **والذى نفسى بيده إنكم أَحَبُّ الناس إلىّ** » ، مَرَّتَيْن ، رواه الشيخان والنسائى .

وعن البَرَاء بن عازب رضى الله عنه يرفعه قال : قال النبى ﷺ : « الأنصار لا يُحِبُّهُم إلا مؤمن ولا يَبْغَضُهُم إلا مُنَافِق فمن أَحَبَّهم أَحَبَّه الله ومن أبغضهم أبغضه الله » [4]، رواه الستة خلا أبو داود .

وعن أنس - رضى الله عنه - يرفعه : « **آية الإيمان حُبُّ الأنصار وآيةُ النِّفَاق بُغْضُ الأنصار** » رواه الشيخان والنسائى .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه باب مناقب الأنصار جـ ٥ ص ١٠٨ .

(٢) فى النووى على مسلم جـ ١٦ ص ٦٧٠ : « ممثلا » بضم الميم الأولى وإسكان الثانية وبفتح الثاء المثلثة وكسرها ، كذا روى بالوجهين وهما مشهوران . جمهور الرواة بالفتح وفى البخارى بالكسر، ومعناه : قائما منتصباً ، وعند بعضهم مقبلا . وللبخارى فى كتاب النكاح : « ممتناً » بتاء مثناة فوق ونون . من المنة ، أى : متفضلا عليهم .

(٣) صحيح البخارى جـ ٥ ص ١١١ .

(٤) صحيح البخارى جـ ٥ ص ١١٠ .

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول اللهﷺ مَرَّ ببعض سكك المدينة فإذا بجوار يَضْرِبن بِدُفَّيْن وَيَتَغَنَّيْن ويَقُلْن :

نَحْنُ جَوَارٍ مِنْ بَنِى النَّجَّار   يَاحَبَّذَا مُحَمَّدٌ مِنْ جَـار

فقال رسول اللهﷺ: « **اللهم تعلم أنى لأَحِبُّكُنّ** » ، حديث صحيح رواه ابن ماجه .

وعن سعد بن عُبَادة يرفعه : « **إن هذا الحَىّ من الأنصار مِحْنَة : حُبُّهم إيمان وبُغْضُهم نفاق** » رواه الإمام أحمد .

وعن أبى سعيد الخُدْرىّ يرفعه : « **حُبُّ الأنصار إيمان وبُغْضُهم نِفاق** » ، رواه الإمام أحمد .

وعنه : « **لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر** » ، رواه الإمام أحمد .

وعنه أيضاً يرفعه : « **مَنْ أَحَبَّنى أَحَبَّ الأنصار ، ومن أبغضنى فقد أبغض الأنصار لا يُحِبُّهُمْ منافق ولا يبغضهم مؤمن ، من أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله الناس دِثار والأنصار شعار ، ولو سلك الناس شِعْبا وسلك الأنصار شِعباً لسلكت شِعْبَ الأنصار** » رواه الإمام أحمد (١).

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢).

وقال سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (٣).

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٣/ ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢) آل عمران ، الآية : ١٠٤ .

(٣) آل عمران ، الآية : ١١٠ .

وقال جل من قائل : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾(١).

تلك كانت كلمات الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكل آية كلمات تستهلّ بها ، فا ستهلال الآية الأولى أمر من الله ـ سبحانه ـ أن يكون بين المسلمين أمة يدعون إلى الخير .

واستهلال الآية الثانية تقرير من الله الخالق الأعظم أن أمة الإسلام هى خير أمة أخرجت للناس ، والاستهلال فى الآية الثالثة ، تقرير من الله ـ سبحانه ـ أن المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، وأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

ذلك هو جلال الإيجاز وقمة الإعجاز بأقصر الكلمات فى أعظم الموضوعات .

وفى هدى القرآن وتوجيهه يجىء التقرير المحمدى لأوامر الله ـ سبحانه ـ وللتوجهات الربانية فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو شعار جليل من شعارات الإسلام .

عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قَال : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُول : «مَنْ رَأَى مِنكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ » رواه مسلم .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ نَبِىّ بَعَثَهُ الله فى أمَّةٍ قَبلِى إلاَّ كَان لَهُ مِنْ أمَّتِه حواريّونَ وَأَصْحَابٌ يَأخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقتَدونَ بأَمْرِهِ، ثُمَّ إنَّهَا تَخْلُفُ من بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولون مَالاَيَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَالاَيُؤْمَرُونَ ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَمُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَ هُمْ بقَلْبِه فَهُوَ مُؤْمن ، لَيْسَ وَرَاءَ ذلك مِنَ الإيمَان حَبَّةُ خَرْدَلٍ » رواه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إِيَّاكُمْ والجُلُوسَ فى

(١) التوبة ، الآية : ٧١ .

الطُّرُقَاتِ » فَقَالُوا يارسول الله : مَالَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدٌّ ، نَتَحَدَّثُ فيها ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « فإذَا أَبَيْتُمْ إلا المجلِسَ فَأَعْطُوا الطريق حَقَّهُ » قَالُوا وَمَاحقُّ الطريق يارَسُولَ الله ؟ قَالَ : غَضُّ البصر ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ ، وَالأمر بالمَعْرُوف والنَّهْيُ عَنِ المنكرِ » متفق عليه .

وعن حذيفة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قَالَ : « والذِى نفْسِى بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بالْمعرُوف وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المنكرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ الله أنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عقاباً منه ثُمَّ تَدْعُونهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ » رَوَاهُ الترمذى وَقَال : حَدِيثٌ حسنٌ.

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « أفْضَلُ الجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطان جَائِرٍ » رواه أبوداود والترمذى : وقال حديث حسن .

إنه من الوضوح بمكان أن الرسولﷺ قد استلهم من الآيات القرآنية فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر آداباً لكى يربى المسلمين عليها ، مثل حق الطريق الذى هو غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، ومثل الإنذار بعقاب الله فيما لو تخلى المسلمون عن مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر اللذين هما من شعارات الإسلام ولزوميات توجيهاته .

وبعد : فإن الأمثلة كثيرة فى الفرق بين كلام الله وكلام النبى مثلما هو الحال فى آيات الربا وأحاديث الرسول ، ومثل موضوع الظلم ، ومثل طلب العلم ، ومثل كنز المال ، وغير ذلك .

وإن التفرقة بين كلام الله وكلام الرسول ﷺ سجية فى خاطر المؤمن العالم لاتساع الفرق بين النمط الإلهى فى التعبير والإحساس بالعجز الفورى عن مجاراته ، والإحساس فى الوقت نفسه عند قراءة كلام النبىﷺ أو سماعه بسمات البشرية تلازمه ، وعبق النبوة يفوح منه ، ولكنه على بشريته معجز إذا قورن بغيره من كلام البشر ، وقد أقر صحابتهﷺأنه أفصح الناس جميعا ، وقدتمثل ذلك فى قول أبى بكر له : يارسول الله ، ما رأينا الذى هو أفصح منك .

إن خير ما نختم به هذا الباب هو ما ختمنا به الفصل الأول من أن معرفة الفرق بين

أسلوب القرآن وغيره من أساليب البشر أمر يسلم به الدارسون المتخصصون من العرب ومن غير العرب مثل المستشرق (ألان جونس) الذى شغله هذا الموضوع فترة طويلة من الزمان استعان خلالها بالحاسوب (الكمبيوتر) وانتهى - طبقا لما ذكر لى - إلى أن القرآن ليس من كلام محمد ﷺ كما يسلم به العرب الفصحاء تسليم السليقة ، وهنا نعيد الخبر الذى حكاه أبو عبيدة بن معمر من أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ فخرّ ساجدا وقال : سجدت لفصاحة هذا الكلام .





الباب التاسع

الرسول والشعر

الفصل الأول : الرسول وموقفه من الشعر .

الفصل الثانى : شعراء الصحابة يمدحون الرسول .

الفصل الثالث : استسقاء الرسول .

الفصل الرابع : الرسول وخبر قس بن ساعدة .

الفصل الخامس : كعب بن زهير يعلن إسلامه وتوبته ويمدح الرسول .

الفصل السادس : الصحابيات الشاعرات .

الفصل السابع : الشعر فى عام الوفود .

الفصل الثامن : شعر الغزوات والسرايا .

الفصل التاسع : المراثى فى شهداء الغزوات .





الفصل الأول

الرسول وموقفه من الشعر

* الرسول يسمع الشعر الجميل ويرفض القبيح
* الرسول يمتدح الشعر الجاد .
* الرسول يردد الشعر مع الصحابة ولا يقرضه.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرسول وموقفه من الشعر

موقف الرسول من الشعر :ـ

تباينت مفاهيم كثير من رجال السيرة واختلفت شروح العلماء حول قضية الرسول ﷺ والشعر ، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول فى محكم كتابه : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ (١) والمفهوم من الآية الكريمة هو أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يهيء له أسباب قول الشعر ولم يهبه ملكة الشعر ؛ لأن الشعر ـ كما هو معروف ـ ملكة يهبها الله للإنسان ، تماما مثل الصورة الجميلة ، ومثل الصوت الجميل ، إذ مهما يبذل أطباء التجميل مع الوجهِ القبيح فإنه يستحيل عليهم أن يجعلوا صورة إنسان دميم مماثلة لصورة إنسان خلقه الله جميلا ، والمقياس نفسه يطبق على الصوت القبيح الذى يستحيل أن يتحول إلى صوت جميل مادام الخالق الأعظم لم يهبه ملكة الصوت الجميل ، فالله ـ سبحانه ـ ينفى عن الرسول صفة كونه شاعرا .

والقضية الثانية فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ أى : أنه لا يجمل به أن يكون شاعرا ؛ فالشعر فى كثير من حالاته يعد صفة تنال من كمال صفات صاحبه ، وهو ما عبر عنه الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ بعد ما يناهز قرنين من البعثة النبوية حين قال :

ولـولا الشِّعْـرُ بـالعلمـاء يُـزْرِى

لكنْتُ اليـومَ أَشْعَـرَ مِـنْ لَبِيدِ

ومن ثم فإنه لا ينبغى لسيد الخلق الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه أن يكون شاعرا .

---

(١) سورة يس ، الآية : ٦٩ .

تثار بعد ذلك شبهة ثلب الشعراء

فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ (1) فالمقصود بالشعراء الذين ورد ذكرهم فى الآية هم شعراء الكفار والذين يتبعونهم هم أهل الغىّ لا أهل الهدى ، وهؤلاء الأتباع هم رواة ذلك الشعر بما فيه من سفه القول وخوض فى الأعراض وهجاء للشرفاء ، فهم ـ أى الشعراء ـ هائمون فى قول الضلال ، جائرون على الحق ، متنكبون طريق الرشاد وقصد السبيل .

ثم يجىء بعد ذلك الاستثناء الإلهى فى قوله ـ عز وجل ـ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾ هذا الاستثناء قصد به شعراء رسول الله ﷺ كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله ابن رواحة وكل من كان بالصفة التى وصفه الله بها .

جاء فى تفسير الطبرى أن رجلا قال لزيد بن حارثة : يا أبا أسامة ، أرأيت قول الله ـ جل ثناؤه ـ : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ فقال زيد : إنما هذا لشعراء المشركين وليس شعراء المؤمنين ، ألا ترى أنه يقول : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فقال الرجل : فرّجت عنى يا أبا أسامة فرج الله عنك (2).

ويذكر الطبرى كذلك رواية عن سالم البراد مولى تميم الدارى قال : لما نزلت ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون . فقالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أننا شعراء ، فتلا النبى ﷺ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا

---

(1) سورة الشعراء ، الآيات : ٢٢٤ـ٢٢٦ .

(2) الطبرى الجزء ١٩ فى تفسيره الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٧ من سورة الشعراء .

﴿ وَانتَصَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ .

خلاصة الرأى هنا أن الشعر ليس فنا قبيحا ، وإنما الانحراف به عن جادة الإيمان والخلق الحسن ، وتوظيفه للأمور القبيحة ولما لا يجمل من القول هو الغواية بعينها ، وهو السوء بعينه ، وأما الشعر الذى يجاهد به قائله فى سبيل الله ، أو ذلك الذى يحمل الحكمة والرأى الجميل ، ويبشر بمكارم الأخلاق فهو قول يعجب الله ويعجب رسوله وكل ذى رأى سديد .

وأما ما أورده البخارى من قوله ﷺ : « **لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعرا** » [1] فإن المقصود بهذا الشعر هو الشعر الماجن المنحرف الطاعن فى أعراض الناس ، والمشجع على الفاحشة ، يؤيد ذلك ما روته أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ عن النبى ﷺ قال : « **إن أعظم الناس جرما إنسان شاعر يهجو القبيلة من أسرها ورجل تنفّى عن أبيه** » [2].

ويزيد رسول الله ﷺ صورة الشعر وضوحاً ، فتقول عائشة ـ رضى الله عنها ـ : سئل رسول الله ﷺ عن الشعر فقال : « **هو كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح** » [3].

ويروى البخارى الحديث بطريقة أخرى عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « **الشعر بمنزلة الكلام . حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام** » [4].

الرسول يمتدح الشعر الجاد :

وإذا كان رسول الله ﷺ قد أوضح رأيه فى الشعر من حيث كونه كلاما فيه الحسن وفيه القبيح ، والحسن منه مقبول ممتدح ، والقبيح منه مرذول مستقبح ، فإنه ﷺ يمتدح الشعر الجيد والكلام البليغ بما يطريه ويشرفه . عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ أن أعرابيا أتى النبى ﷺ فتكلم بكلام بيّن ، فقال النبى ﷺ : « **إن من البيان لسحرا ،**

---

(١) الأدب المفرد جـ ٢ الحديث رقم ٨٧٠ .

(٢) المصدر السابق ، الحديث رقم ٨٧٤ .

(٣) الحديث أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد (كتاب الأدب) باب الشعر ٨ / ١٢٢ .

(٤) الأدب المفرد جـ ٢ الحديث رقم ٨٦٥ .

وإن من الشعر لحكمة »(١) ثم يخص رسول الله ﷺ الشعر بهذا الوصف فى قوله رواية عن أبىّ بن كعب : « إن من الشعر لحكمة» (٢).

وكان إعجاب الرسول ﷺ بالبيان الناصع والشعر الجيد يتكرر حيثما قيل فى حضرته كلام بليغ ، أو أنشد فى ساحته شعر جيد ، لقد روى البيهقى فى دلائل النبوة عن ذابل ابن الطفيل بن عمرو الدوسى ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قعد فى مسجده منصرفه من الأباطح ، فقدم عليه خفاف بن نضلة بن عمرو بن بهدلة الثقفى فأنشد رسول الله ﷺ . .

كَمْ قد تَحَطَّمتْ القَلُوصُ بِىَ الدُّجَى ... فِـي مَهْـــمَهٍ قَفْرٍ مِـنَ الفَلَوَاتِ

فِـلٌ مـــن التَّـوْرِيسِ لَيْس بقَـاعِــه ... نَبْتٌ مـــن الإسْنَـاتِ والأزْمَـات

إنِّـــى أتَـانِـى فـى المَنَـام مُسَـاعِـــدٌ ... مِـــنْ جِـنٍّ وَجْرَةَ كَانَ لِي وَمُوَاتِ

يـــدْعُـــو إلَيْكَ لَيَالِيـاً ولَيَـالِيــــاً ... ثُـمَّ احْزَأَلَّ وَقَـــالَ لَسْتُ بِـآتِ

فَــرَكِبْتُ نَـاجِيـــةً أَضَـــرَّ بِنَيِّهَـــا ... جَمْــزٌ تَجُبُّ بِــهِ عَلَـى الأكَمَـاتِ

حتَّـى وَرَدْتُ إلَـى المدينَـــةِ جَاهِـداً ... كَيْمَـــا أرَاكَ مُفَــرِّجَ الكُــرُبَـات

قال : فاستحسنه رسول الله ﷺ وقال : « إنَّ من البيان كالسِّحْر وإنَّ من الشِّعْر كالحِكَم »(٣).

---

(١) المصدر السابق ، الحديث رقم ٨٧٢ .

(٢) المصدر نفسه ، الحديث رقم ٨٥٨ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٦ / ٥٠٠ .

المعانى :

القَلُوص : من النُّوق الشَّابّة وهى بمنزلة الجارية من النساء .

الدُّجَى : ـ بدال مهملة مضمومة فجيم ـ من دَجَا اللَّيْل : إذا تَمَّت ظُلْمَتُه ، والدَّياجِى : الليالى المُظْلِمة ، والدُّجْنَة : الظُّلْمَة .

المَهمه ـ بميمين مفتوحتين بينهما هاء ساكنة ـ : المَفَازة والْبَرِّيَّة .

الفَلَوَات : جمع فلاة : وهى أرض لا ماء فيها .

الفِلّ ـ بفاء مكسورة فلام ـ : القوم المُنْهَزمون ، من الفِلِّ : الكَسْر ، وهو مصدر سُمِّى به يقع على الواحد والاثنين والثلاثة .

وكان الرسول ﷺ فى بعض الأحيان يستنشد أحد مجالسيه ـ خاصة إذا كان شاعرا ـ أن يسمعه شيئا من جيد الشعر ، فيرضى بذلك ويطرب ، إن عمرو بن الشريد يروى عن الشريد قال : استنشدنى رسول الله ﷺ شعر أمية بن أبى الصلت ، فأنشدته ، فأخذ النبى ﷺ يقول : « هيه ، هيه » حتى أنشدته مائة قافية ، فقال : « **إن كاد ليسلم** » (١).

لقد كان أمية أبى الصلت يرفض عبادة الأصنام ويؤمن بالله ، وينتسب إلى فئة الحنفاء من الشعراء ، ولكنه أبى أن يسلم لأنه شهد البعثة النبوية .

وقريب من ذلك ما رواه مسلم الخزاعى ثم المصطلقى قال : شهدت رسول الله وقد أنشده منشد قول سويد بن عامر المصطلقى :

لا تـــأمننّ وإن أمسْيتَ فــى حَـرَمٍ ... إنّ المنايا بكفَّىْ كل إنســـان
واسلك طريقك تمشى غير مختشع ... حتى تبين ما يَمْنَى لكَ المانى
فكــل ذى صاحب يــومـا يفارقـــه ... وكـــل زاد وإن أبقيتـه فـــان
والخيـر والشــر مقـرونـان فـى قَرَنٍ ... بكل ذلك يأتيك الجـديـدان

من التَّوْرِيس : من وَرَّس الثوْبَ بالوَرْس : صبغَه به .
بِقَاعه ، القَاع : المُستَوى من الأرض .
الإسْنَات : من أسْنَتُوا ، أى : أَجْدبُوا .
الأَزَمَات : جمع أزَمة ، وهى الشِدَّة .
وجْرة ـ بواو مفتوحة فجيم ساكنة فراء مفتوحة فتاء تأنيث ـ : وهى فلاة بين قران وذات عرق .
المُوَاتِى : الموافق المطاوع .
احْزأَلَّ ـ بهمزة وصل مكسورة فحاء مهملة ساكنة فهمزة مفتوحة فلام مشددة ـ : انفرد ، والاحزئلال : الانفراد .
النَّاجِيَة : الناقة السريعة التى تنجو بصاحبها .
أَضَرَّ بِنِيِّها ، النَّىُّ بفتح النون وتشديد المثناة التحتية : الشحْم ، وبكسر النون : السِّمَن .
الجَمَز ـ بجيم فميم مفتوحتين فزاى ـ : ضَرْب من السَّيْر سريع فوق العَنَق .
تَجُبّ ـ بمثناة فوقية فجيم موحدة ـ : تقطع .
الأَكَمات : جمع أَكَمة ، وهى الرابية .
(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (كتاب الشعر) الحديث رقم (١) ، والأدب المفرد ٢ / ٨٦٩ ، والشمائل النبوية ص : ١٢٨ .

فقال رسول الله ﷺ : « **لو أدركته لأسلم** » وفى رواية أخرى « **لو أدرك هذا الإسلام لأسلم** » فبكى مسلم ، فقال له ابنه . يا أبه ، ما يبكيك من مشرك مات فى الجاهلية ؟ فقال : يا بنى لا تفعل ، فما رأيت مشركة تلقفت من مشرك خيرا من سويد [(١)].

ويروى أحمد بن عبد ربه أن النبى ﷺ سمع عائشة وهى تنشد شعر زهير بن خباب :

ارفع ضعيفك لا يَحُـرْ بك ضعفه ... يـومـا فتـدركـه عـواقبُ مـا جنى

يجزيك أو يثنـى عليـك فـإن مَنْ ... أثنى عليك بما فعلتَ كمـن جـزى

فقال النبى ﷺ : « **صدق يا عائشة ، لا يشكر الله من لا يشكر الناس** » [(٢)].

ويروى أبو حاتم عن الأصمعى قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : أنشدك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، فأنشده :

تركت القيان وعزف القيان ... وأدمنت تصليـة وابـتهـالا

وكـرّى المشقـر فـى حـومة ... وشنى على المشركين القتالا

فيـــاربّ لا أغبنن صفقتـى ... فقد بعت مالى وأهلى بدالا

فقال النبى ﷺ : « **ربح البيع ، ربح البيع** » .

وقدم النابغة الجعدى على رسول الله ﷺ فأنشده شعره الذى يقول فيه :

بَلَغنا السماء مجدُنا وسناؤنا ... وإنا لَنرجو فوقَ ذلك مَظْهَرَا

فقال له النبى ﷺ : « **إلى أين يا أبا ليلى ؟** » فقال : إلى الجنة يا رسول الله بك . فقال النبى ﷺ : « **إلى الجنة إن شاء الله** » فلما انتهى إلى قوله :

ولا خيرَ فى حِلْمٍ إذا لم تَكُنْ لـه ... بَوَادِرُ تَحْمِـى صَفْوَهُ أنْ يُكَـدَّرا

---

(١) المجازات النبوية ١ / ٢٦٨ . ومعنى : ما يمنى لك المانى : يعنى ما يقدر لك القادر . القرن : الحبل . الجديدان : هما الليل والنهار .

(٢) العقد الفريد ٥ / ٢٧٥ .

ولا خيرَ فى جَهلٍ إذا لم يكُنْ لـه   حَلِيمٌ إذا ما أَوْرَدَ الأمر أصـْدرا

قال النبى ﷺ : « لا يفْضُض الله فاك » فعاش مائةً وثلاثين سنة لم تَنْغُض له ثنية . أى : لم تتحرك . وفى رواية أخرى : فكان إذا سقطت له سنٌّ نبت مكانها أخرى .

على أن الثابت أن الرسول ﷺ على ذروة فصاحته لم يقل شعرا ، فقد نفى الله عنه تلك الصفة فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ طبقا لما أوضحنا فى مستهل هذا الفصل .

وإذا أنشد بيتا مشهورا من الشعر أنشده بألفاظه ومعانيه على غير وزنه العروضى ، اللهم إلا مرة واحدة أنشد فيها صدر بيت لبيد :

ألا كل شىء ماخلا الله باطل

ثم سكت عن إكمال البيت على ما فيه من توحيد لله سبحانه ، وتمجيد لذاته العلية ، والإخبار بأن نعيم الدنيا إلى زوال ، ولن يبقى إلا وجه الله ذو الجلال والإكرام ، وهو :

وكل نعيم لا محالة زائل

ولطرفة بن العبد بيت مشهور موسوم بالبلاغة ، مطرز بالمعنى الحكيم ، وهو قوله :

ستُبْدِى لكَ الأيام ما كنت جاهلا

ويـأتيـكَ بالأخبـارِ مَـنْ لـم تُـزَوِّدِ

فأنشده الرسول ﷺعلى غير الوزن الشعرى ، على هذا النحو :

ستبـــدى لـك الأيـام مـا كنت جـاهـلاً

ويـــأتيـــك مـــن لـــم تـُـزَوِّدْ بـالأخبـار

وللعباس بن مرداس بيت مشهور هو :

أتجعل نهبى نهب العبيـــ   ـــد بين عُيَيْنَةَ والأقــرعِ ؟

فأنشده الرسول ﷺ :

أتجعل نهبى نهب العبيـــــ ـــــد بين الأقـــرع وعيينـة

فقال الناس ـ محاولين رواية المصراع كما أنشأه الشاعر ـ : بين عيينة والأقرع ، فأعادها الرسول ﷺ « بين الأقرع وعيينة » ليكسر الوزن ويخرج البيت من دائرة الشعر، لأنه قد صرف نفسه بأمر إلهى عن قول الشعر ، ثم رأى ﷺ حرجا حتى فى روايته .

وإذا كان بعض العلماء ـ كما قد أسلفنا ـ يرون أنه لا يجمل بهم قول الشعر ، فإن الأنبياء أولى بذلك وأحق ، ولا يزال بيت الإمام الشافعى يرن فى أسماع الزمان :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى

لكنت اليوم أشعر من لبيد

وكان لبيد واحدا من ألمع الشعراء فى الجاهلية ، وأوفرهم بلاغة ، وأملكهم لناصية الحكمة ، فلما جاء الإسلام ، وبزغ نور الرسالة السماوية ، سارع إلى الدخول فى دعوة الحق ، وأقلع عن الشعر إقلاعا كاملا ، وقد ورد فى بعض الخبر أنه لم يقل فى إسلامه غير ذلك البيت الذى تمثل به الرسول ﷺ مجردا من وزنه على النحو الذى سلف ذكره، والبيت فى حالتيه ـ أعنى فى حالة الوزن أو حالة نثره ـ تمجيد لله ـ سبحانه وتعالى ـ وتذكير للخلق بأن البقاء له وحده وما عداه فزائل بائد :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل

وكـــل نعيـــم لا محـالـة زائـل

الحقيقة أن الشعر ـ كما قال الإمام الشافعى ـ لا يجمل بالعلماء قوله ، أو بالأحرى الأخذ بأسبابه ، والارتباط به ، والعيش فى جيشانه ؛ لأن طبيعة الشعر إذا تفرغ المرء له صرفه عن التفرغ للعلم ، وذلك على الرغم من أن فى الشعر حكمة وجمالا .

وقد كان لرسول الله ﷺ شعراء ينافحون عنه ويذودون عن الدعوة ، ويبشرون بالرسالة حسبما سوف نسوق من القول ، ولكن أحدا من هؤلاء الذين تفرغوا لقول الشعر فى خدمة الدعوة لم يعرف بين الصحابة بعلم متميز أو بفقه كثير ، ولا عليه فى

ذلك ، فقد كان فى تفرغه للذود عن حمى الرسالة ، والرد على أعدائها ، وقمع حجة الخصوم ، والدفاع عن الرسول ﷺ ما يجعل منه صحابيا عاملا ، ومجاهدا باسلا .

إن الأمر المهم أن الرسول ﷺ لم يقل الشعر ، ولم يكن خصما له ، وليس بمستبعد أنه كان يحفظ بعضه ، ولكنه لا يردده ، فإذا ما ردده فإنه يجرده من وزنه ، ومن المعروف أنه ﷺ قد روى الخطبة المشهورة البليغة لقس بن ساعدة الإيادى ، فلما وصل إلى الجزء المنظوم شعرا منها التفت إلى الصحابة وقال : أيكم يروى شعره ؟ فأنشدوه الأبيات .

هكذا كان رسول الله ﷺ يتفادى رواية الشعر أو ترديده إلا فى حالات قليلة ، وفى مواقف بعينها ، فقد روى أنه تمثل أو أنشأ رجزا ، وفى تلك المرات المعدودة لم يكن التمثل يجرى بأكثر من بيت واحد ، وقد ذهبت بعض التعليلات فى هذه الحال إلى أن الرجز أقرب إلى النثر منه إلى الشعر ، وإن تميز بشىء فهو كونه ضرباً من الوزن ، ثم أخذ الشعراء فى إنشائه بعد ذلك وأجروه مجرى القصيد (١).

لقد تمثل الرسول ﷺ ببيت رجز لأمية بن أبى الصلت ، وهو قوله :

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا   وأى عبد لك لا ألمـا

كما أنه ﷺ ـ على رواية البراء بن عازب ـ شوهد على بغلة بيضاء يوم حنين وعمه العباس وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذين بلجام بغلته وهو يقول : (٢)

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

وينبغى هنا ألا يذهب الظن إلى أن النبى ﷺ كان يقصد إلى الشعر قصدا ، ولا إلى الفخر زهوًا ، فهذان أمران يبرأ الرسول ﷺ منهما ، وإنما أراد أن يقرر حقيقتين خالصتين تثبيتا لموقف المسلمين ، وتدعيما لمعنوياتهم فى معركة تعد من أكثر المعامع التى خاضها الرسول شراسة وحرارة ، إنه النبى الصادق فى بعثته ، الأمين فى رسالته ، ثم هو بعد

---

(١) راجع إعجاز القرآن للرافعى : الفصل الخاص بالبلاغة النبوية ص ٣٤١ ، ٣٤٢ .

(٢) العقد الفريد ٥ / ٢٨٢ والشمائل المحمدية للترمذى ، ص ١٢٦ ، والبغلة التى كان يركبها الرسول هى دلدل ، وكانت بيضاء أهداها المقوقس له ، وقد ماتت فى زمن معاوية .

ذلك كريم النسب جليل المنتمى ، وإذا كان المقصد الشعرى غير وارد فى هذا البيت ، فإنه يفوق السحر بيانا ، ويتجاوز الشعر بنيانا .

ومن هذا الطراز من فن القول ما كان الرسول ﷺ يقوله يوم بناء مسجده بالمدينة ، فقد كان ينقل اللَّبِن مع من يبنون المسجد ، ويقول مشجعًا لهم مجسّماً لهم الثواب الذى ينتظرهم من رب العالمين :

هذا الحِمَالُ لا حِمَال خيبـر هذا أبَرُّ ـ ربنا ـ وأطهر

والحمال ـ بكسر الحاء ـ هو التمر ، والتمر هنا هو تمر الجنة ، وليس تمر خيبر المشهورة بالجيد منه ، وإذا كان ثمت وزن فى البيت فإن ذلك لا يعنى أن الرسول ﷺ يقصد إلى قول الشعر ، وإنما هو قول مرسل أشبه ما يكون بالشعر .

وثمت قول آخر للرسول ﷺ جرى على لسانه يوم الخندق حين رأى المهاجرين والأنصار يحفرون فى غداة باردة ، وبهم من النَّصَبِ والجوع ما بهم :

اللهم إن العيش عيش الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين :

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

وفى رواية أخرى للبخارى عن أنس رضى الله عنه ـ الروايتان كلاهما للبخارى ـ كانت الأنصار يوم الخندق تقول : (١)

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما حيينا أبدا

فأجابهم الرسول قائلا :

اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة فأكرم الأنصار والمهاجرة

لقد تصور بعض رجال السيرة أن هذا الذى قاله رسول الله ﷺ شعر، مثل ابن

---

(١) الرواية الأولى ٣ / ٢٢ . والرواية الثانية ٢ / ١١١ وينظر كذلك صحيح مسلم (كتاب المساجد وموضع الصلاة) باب ابتناء مسجد النبى ٢ / ٦٥ .

شهاب الزهرى فى قوله : ولم يبلغنا فى الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعر غير هذا[1].

والحقيقة أن هذا الذى قاله الرسول ليس بشعر إلا إذا حدث تغيير فى الرواية الأولى باستبدال لفظ (لاهُمَّ) ـ يعنى اللهم ـ بلفظ (اللهم) ، ومع ذلك فإن قول الشعر فى أى حالة لم يكن مقصدا من مقاصد الرسول . ولابن عبد ربه رأى سديد فى هذا الضرب من القول ، إذ يقرر أن هذا الكلام هو من المنثور الذى يوافق المنظوم وإن لم يتعمد به قائله المنظوم ، ومثل هذا من كلام الناس كثير مما يأخذه الوزن ولا يراد به الشعر ، ولا يسمى قول النبى ﷺ ـ وإن كان موزونا ـ شعرا ، لأنه لا يراد به الشعر . ومثله فى آى الكتاب كثير ، فمن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ﴾ ومثله : ﴿وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴾ ومنه ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ﴾[2].

الرسول يردد الشعر مع الصحابة ولا يقرضه :

كان صحابة رسول الله ﷺ موسومين بالبلاغة والفصاحة وتذوق حلو الكلام ، وقد لا يعرف كثير من الناس أن عددا من الصحابة كانوا شعراء ، ولسنا نقصد حسان بن ثابت أو عبد الله بن رواحة أو كعب بن مالك ، فهؤلاء من الشهرة بمكان ، وكانوا ببلاغتهم واستبسالهم فى الذود عن الرسول والدفاع عن العقيدة ما جعلهم فى مقدمة شعراء الدعوة ، ولكننا نقصد آخرين من الصحابة الشعراء من أمثال أبى بكر ، وعلىّ ، والعباس عم رسول الله ، وأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وهو ابن عم رسول الله ، وطالب بن أبى طالب أخى علىّ ، وهو أيضا ابن عم رسول الله ، وعبدالله بن

---

(١) مجلد المغازى من تاريخ الإسلام للذهبى ص : ١٩ ويراجع صحيح البخارى (كتاب الفضائل) باب هجرة النبى إلى المدينة .

(٢) العقد الفريد (كتاب الزمردة) جـ ٥ ص : ٢٨٣ .

الحارث السهمى ، وأبى زيد الأنصارى، وعمرو بن العاص ، وخبيب بن عدى ، وأبى الحكم بن سعيد بن يربوع ، وناجية بن جندب حامل لواء رسول الله فى الحديبية ، وأبى أنيس موهب بن رياح ، وعامر بن الأكوع ، والعباس بن مرداس وغيرهم كثيرين مما لا يتسع المقام هنا لذكرهم .

بل قد كان من بين الصحابيات عدد كبير من الشاعرات ، تأتى فى مقدمتهن بطبيعة الحال تماضر بنت الشريد المعروفة بالخنساء ، ومنهن صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ وقُتيلة بنت النضر ، وهند بنت أثاثة ، ونعم بنت سعيد امرأة الصحابى شماس بن عثمان ، وغيرهن .

كان الشعراء يرتجزون وهم فى صحبة الرسول ﷺ فى المهمات الكبيرة كبناء المسجد، أو حفر الخندق ، أو الارتحال فى سفر أو غزوة ، كما كانوا يرددون الجيد من الشعر على سمعه الشريف ، فيطرب لذلك حينا ويردد معهم حينا آخر ، بل أحيانا كان يردد بيت شعر فى مناسبة طارئة ، مثال ذلك ترديده ﷺ هذا البيت :

هلْ أنتِ إلاّ إصبعٌ دَميتِ ... وفى سبيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ

عن جندب بن سفيان البجلى أن حجرا أصاب إصبع رسول الله فدميت ، وكان ذلك فى معركة أحد ، وقيل : بل قبل الهجرة ـ والرأى الأول أصوب ـ فأنشد الرسول هذا البيت . والبيت من أرجوزة لعبد الله بن رواحة من جملة أبيات رددها فى غزوة مؤتة ، وهى الغزوة التى استشهد فيها سنة ٨ هـ :

هل أنت إلا إصبع دَميتِ ... وفى سبيل الله ما لقيتِ

يا نفس إلاّ تقتلى تموتى ... هذا حمام الموت قد صَليتِ

وما تمنيت فقد أعطيتِ ... إن تفعلى بفعلها هُديتِ

وإن تأخرتِ فقد شقيتِ [1]

---

(١) الشمائل المحمدية للترمذى بشرح البيجورى ، ص ١٢٥ وتاريخ الإسلام للذهبى ، قسم المغازى ص : ٤٠٥ .

ولقد سلف القول أن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ قد سئلت : هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشىء من الشعر ؟ فقالت : كان يتمثل بشعر ابن رواحة ، ويتمثل بقوله :

ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

ويقول الشريف الرضى : إنه جاء فى السيرة النبوية أن المسلمين كانوا يرتجزون عند حفر الخندق بجعيل بن سراقة الضُّمرى ويقولون :(١)

سَمّـاهُ مِنْ بَعْدِ جُعَيْلٍ عَمْرَا   وكانَ للبائِسِ يومًا ظَهْرَا

فكان النبى ﷺ يقول معهم : « عمرا » و « ظهرا » أى : يردد قافية المصراع من البيت، وهى سنة متبعة حتى اليوم فى مجالس الشعر فى دول الخليج .

كان جعيل بن سراقة يعمل مع الصحابة فى الخندق ويقول مثل قولهم ويضحك إليهم ، فإن اسم « جعيل » من الأسماء القبيحة ؛ لأنه تصغير جُعْلٍ ، وهو نوع من الخنافس ، وكان الرسول ﷺ يفضل الأسماء الجميلة على الأسماء القبيحة ، فغير اسم «جعيل » إلى « عمرو » فجعل الصحابة يداعبون جعيلا بصنيع رسول الله ﷺ به .

وإذا كان الرسول ﷺ قد ردد القافية مع الصحابة وهم يرتجزون ويداعبون جعيل بن سراقة ، فإنه ﷺ كان يرتجز يوم الخندق بشعر عبدالله بن رواحة .

عن البراء ـ رضى الله عنه ـ قال : « رأيت النبى ﷺ يوم الخندق وهو ينقل التراب حتى وارى التراب شعر صدره ، وفى رواية : حتى وارى التراب بياض بطنه ، وهو يرتجز برجز عبدالله بن رواحة :

اللهمَّ لولا أنت ما اهْتَدَيْنَا   ولا تَصَدَّقْنَا ولا صَلَّيْنَا

فَـأَنْزِلَـنْ سكينَـةً علينَـا   وَثَبِّتْ الأقدامَ إنْ لاَقَيْنَا

إنَّ الأعداءَ قد بَغَوْا عَلَيْنَا   إِذَا أَرَادُوا فِتْنَـةً أَبَيْنَـا

---

(١) المجازات النبوية ، ص : ٦٤ .

يرفع بها صوته »[1].

ويورد الذهبى خبرا ينسب فيه الأبيات لعامر بن الأكوع ، وراوى الخبر هو سلمة بن الأكوع حيث يقول :[2]

خرجنا مع النبى ﷺ إلى خيبر ، فسرنا ليلا ، فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع : ألا تسمعنا من هنيهاتك ؟ يعنى كلماتك أو أراجيزك ، وكان عامر رجلا شاعرا ، فنزل يحدو بالقوم ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهْتدَيْنَــا ... ولا تَصَدَّقْنَــا ولا صَلَّيْنَـا

فاغفْــر فداءً لك ما اقتضينا ... وثبت الأقــدام إن لاقينــا

وألقينْ سكينــة علينــــا ... إنــا إذا صِيــحَ بنــا أتينــا

وبالصياح عوّلـوا علينا

فقال رسول الله ﷺ : « من هذا السائق ؟ » قالوا : عامر ، قال : « يرحمه الله » . قال رجل من القوم : وجبت يا رسول الله ، لولا أمتعتنا به ، فأتينا خيبر فحاصرناهم . . . . . . قال : فلما تصافّ القوم كان سيف عامر فيه قصر ، فتناول به ساق يهودى ليضربه ، فرجع ذباب سيفه فأصاب عين ركبة عامر فمات منه ، فلما قفلوا قال سلمة وهو آخذ بيدى : لما رآنى رسول الله ﷺ ساكتًا قال : مالك ؟ قلت : فداك أبى وأمى ، زعموا أن عامرا حبط عمله ، قال : « من قاله ؟ » قلت : فلان وفلان وأُسَيْد بن حُضَيْر، فقال : « كذب من قاله ، وله أجران ـ وجمع بين إصبعيه ـ إنه جاهد ، قلّ عربى مشى بها مثله » .

والغريب فى الأمر أن الذهبى نفسه يورد الخبر على النحو الذى تمثلنا به قبل قليل منسوبا إلى عبدالله بن رواحة ، وكلّ من عبدالله بن رواحة وعامر بن الأكوع شاعر[3]،

(١) صحيح البخارى ٥ / ١٤٠ باب غزوة الخندق . وصحيح مسلم ٣ / ١٤٣٧ رقم ١٢٣ غير أنه ذكر الخبر فى غزوة خيبر ، والصواب هو غزوة الخندق . والأبيات فى ديوان عبدالله بن رواحة ص : ١٠٦ .

(٢) تاريخ الإسلام قسم المغازى ، ص : ٣٣٧ ومرة أخرى ص : ٣٤١ ، ٣٤٢ . وزاد المعاد ٢ / ١٤٨ .

(٣) تاريخ الإسلام ، ص : ٢٤٥ .

وهو خلْطٌ ما كان ينبغى أن يتورط فيه مؤرخ كبير مثل الذهبى ، على أن ثمت تعليلا يمكن أن يكون مقبولا ، هو أن عامرا الأكوع كان معجبا بأبيات عبدالله بن رواحة التى ارتجز الرسول بها فى غزوة الخندق - وهى سابقة على غزوة خيبر - فجعل إعجابه بها دافعا له إلى أن يتغنى بها بين يدى الرسول حاديا فى الليل فى الطريق إلى خيبر.

هذا استطراد اقتضته الضرورة ، إذ ليس مرادنا تحقيق نسبة الشعر إلى قائله وإن كنا قد فعلنا ، ولكن مرادنا هو أن الرسول ﷺ قد ارتجز بقطعة من شعر عبدالله بن رواحة ، وإن الأبيات بما فيها من مناجاة للخالق واعتراف بأفضاله ونعمه ، ودعاء بتثبيت الأقدام عند ملاقاة العدو ، جديرة بأن ينالها شرف ترديد رسول الله لها .

وإن شعر عبدالله بن رواحة ذو قبول عند رسول الله ﷺ لأنه شعر لله وفى سبيل الله ، وفيه سموّ المعنى ، وفحولة الصوغ ، ورجولة الأداء .

يورد ابن قيم الجوزية شعرا آخر أنشده عبدلله بن رواحة بين يدى رسول الله وهو يطوف بالبيت فى عمرة القضاء ، على هذا النحو: [1].

خرج رسول الله ﷺ معتمرا فى ذى القعدة سنة سبع - بعد أن رجع من فتح خيبر - وهو الشهر الذى صده فيه المشركون عن المسجد الحرام قبل عام، حتى إذا بلغ يأجَج - موضع على ثمانية أميال من مكة - وضع الأداة كلها - الحجف والمجان والنبل والرماح - ودخلوا بسلاح الراكب : السيوف ، فلما قدم رسول الله - أى مكة - أمر أصحابه فقال :

« اكشفوا عن المناكب ، واسعوا فى الطواف » ليرى المشركون جلدهم وقوتهم ، وكان يكايدهم بكل ما استطاع ، فوقف أهل مكة : الرجال والنساء والصبيان ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وهم يطوفون بالبيت ، وعبدالله بن رواحة بين يدى رسول الله ﷺ يرتجز متوشحا بالسيف :

خَلُّوا بَنِى الكفَّار عن سَبِيلِهِ   قد أَنْزَلَ الرحمن فى تنزيلِهِ

فى صحف تُتْلَى على رسولِهِ   يا ربِّ إنِّى مؤمنٌ بِقِيلِهِ

---

(١) زاد المعاد ٢ / ١٦٨ .

إنّـى رأيتُ الحـقَّ فـى قبولـه   اليومَ نَضْرِبكُـمْ على تأويلـهِ
ضَرْبًا يُـزيـلُ الهـامَ عَـنْ مقيلـهِ   ويُـذْهِـلُ الخليـلَ عـنْ خليلـهِ

ويكمل الترمذى الخبر رواية عن أنس أن عمر بن الخطاب قال للشاعر :

يا ابن رواحة : بين يدى رسول الله ﷺ وفى حرم الله تقول الشعر ؟؟ فقال ﷺ : «**خلّ عنه يا عمر ، فلهى فيهم أسرع من نضح النبل**» (١).

وكان كفار مكة قد خلوا الطريق الذى سلكه رسول الله ﷺ إلى البيت ، وخرجوا من مكة يومئذ إلى رءوس الجبال .

كان عبدالله بن رواحة شديد الحب لرسول الله شأنه فى ذلك شأن بقية الصحابة ، ولكنه كان هو وحسّان ينفردان بالشعر الذى كان يؤدى عمل كتيبة كاملة فى الجهاد فى سبيل الله ، ثم إن عبدالله بن رواحة كان يتميز عن حسان بفروسيته وإقدامه على خوض المعارك ، وقد جعله رسول الله ﷺ أميرا على جيش غزوة مؤتة فيما لو استشهد من أمّرهما رسول الله قبله . لقد عاد الرسول ﷺ من عمرة القضاء فى ذى الحجة سنة سبع ، فلما كان جمادى سنة ثمان بعث بجيش إلى مؤتة ـ فى الأردن حاليا ـ وأمّر على الناس زيد بن حارثة وقال : « **إن أصيب ـ أى : استشهد أو جرح ـ فجعفر ـ أى : جعفر ابن عمه أبى طالب ـ فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة ، فإن أصيب فليرتض المسلمون رجلا**» فلما تهيـأوا للخـروج بكـى ابـن رواحة ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أما والله مـا بـى حب الـدنيـا ولا صبابـة إليهـا ، ولكنـى سمعت الله يقـول : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود . فقال المودعون : صحبكم الله وردكم إلينا صالحين ودفع عنكم . فأنشد ابن رواحة :

لكننـى أسـأل الرحمن مغفـرةً   وضربةً ذاتَ فرغ تقذف الزَّبَدَا
أو طعنةً من يدى حَرَّانَ مجهـزةً   بحربةٍ تُنْفِذُ الأحشاءَ والكبـدا

---

(١) الشمائل المحمدية ص : ١٢٧ . ومعنى نضربكم على تأويله ـ وفى رواية تنزيله ـ أى : نضربكم إن نقضتم العهد ومنعتم النبى من دخول مكة . ومعنى يزيل الهام عن مقيله : أى يزيل الرأس عن محله .

حتى يقولوا إذا مرُّوا على جَدَثـى   يـا أرشدَ اللهُ من غازٍ وقد رَشَـداَ

ثم وقف بين يدى رسول الله وقال مودعا :

فَثَبَّتَ اللهُ مـا آتاكَ مـن حَسَنٍ   تَثْبِيتَ موسى وَنَصْراً كالذى نُـصِرُوا

إنِّى تَفَرَّسْتُ فيك الخيرَ نافلةً   واللهُ يعلـمُ أنـــى ثـابتٌ بَـصـــرُ

أنتَ الرسولُ فَمَنْ يُحْرَمْ نَوَافِلَهُ   والوجْهَ مِنْهُ فَقَـدْ أَزْرَى بِـهِ القَــدَرُ

ثم خرج القوم حتى وصلوا إلى (معان) فبلغهم أن هرقل قد نزل قريبا منهم فى مائة ألف من الروم ومائة ألف من المستعربة ، وكان قوام جيش المسلمين ثلاثة آلاف . فقالوا : نبعث إلى رسول الله ﷺ نخبره ، فشجع الناسَ عبدالله بن رواحة قائلا : يا قوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم لها تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا كثرة وإنما تقاتلهم بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فإن يظهرنا الله به فربما فعل، وإن تكن الأخرى فهى الشهادة ، وليست بشر المنزلتين . فقال الناس : والله لقد صدق فانشمر الناس وهم ثلاثة آلاف حتى لقوا جموع الروم بقرية يقال لها (مشارف) ثم انحاز المسلمون إلى مؤتة .

يقول أبو هريرة ـ وكان فى الكتيبة ـ : شهدت مؤتة فلما رأينا المشركين ، رأينا ما لا قبل لأحد به من العدة والسلاح والكراع والديباج والذهب ، فبرق بصرى ، فقال لى ثابت بن أقْرَم : مالك يا أبا هريرة !! كأنك ترى جموعا كثيرة !! قلت : نعم ، قال : لم تشهد معنا بدرا ، إنا لم ننصر بالكثرة .

ودارت رحى الحرب واستشهد زيد ، فحمل جعفر الراية وقاد المعركة فاستشهد ، ثم تقدم عبدالله بن رواحة فأخذ الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه ، وجعل يتردد بعض التردد ثم قال :

أقسـمْتُ يـا نفسُ لَتَنْزِلِنَّـهْ   لَتَنْـزِلِــنَّ أَوْ لَتُكْـرَهِنَّـــهْ

إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وشدُّوا الرَّنَّـهْ   مـالـى أراكِ تكـرهين الجنَّـــهْ

قــد طــالَ مــا كُنْتِ مُطْمئِنَّـهْ هلْ أنْتِ إلاَّ نطفة فى شَنَّـهْ (*)

ثم أنشد أيضا مخاطبا نفسه مشجعا إياها :

يا نفسُ إلاّ تُغْتَلى تَمُوتِى هـذا حِمامُ الموت قد صَلِيتِ

وَمَـا تمنَّيْت لقدْ أعْطِيتِ إِنْ تفعلى فِعْلَهُمَا هُدِيتِ (*)

ثم أخذ سيفه فَقاتل فاستشهد .

قال عبدالله بن عمر ـ وكان فى الكتيبة ـ : ففتشناه ـ أى : ابن رواحة ـ فوجدنا فيما أقبل من جسده بضعا وسبعين بين طعنة ورمية ، وقيل بضعاً وتسعين (١).

والذى نذهب إليه فى نهاية هذا الفصل أن الرسول ﷺ لم يكن يقول القصيد ـ وهو أحد فروع الشعر السبعة ـ أو يردده ، وإنما كان قليلا ما ينشد الرجز ويردده ، فقد ورد فى الصحيحين عن البراء بن عازب أن رجلا قال له : أفررتم يوم حنين عن رسول الله ﷺ ؟ فقال البراء : لكن رسول الله ﷺ لم يفر ، لقد رأيته وهو على بغلته البيضاء وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بلجامها ، والنبى ﷺ يقول :

أَنَـا النَّبِـىُّ لا كذِبْ أَنَـا ابنُ عَبْـدِ المطَّلِبْ (٢).

وفى الصحيحين أيضا عن البراء أنه قال : « رأيت النبى ﷺ ينقل معنا التراب يوم الأحزاب وقد دارى التراب بياض بطنه وهو يقول :

اللهــمَّ لَـوْلاَ أَنْتَ مَـا اهْتَـدَيْنَـا وَلاَ تَصَدَّقْنَـا وَلاَ صَلَّيْنَا

فَـأَنْـزِلَــنْ سَكِينَـةً علينـــــا وثَبِّتْ الأقْدَامَ إنْ لاَقَيْنَا

(*) أجلب القوم : يعنى صاحوا ، من الجلبة . الرنة : من مادة الرنين ، وهو صوت ترجيع كالبكاء ، النطفة : الماء القليل الصافى . الشنة : السقاء البالى . إن تفعلى فعلهما : يعنى فعل صاحبيه زيد وجعفر استبسالا واستشهادا .

(١) السيرة لابن هشام ٢ / ٣٧٩ والذهبى ٤٠٢ ـ ٤٠٥ .

(٢) صحيح البخارى (كتاب الجهاد) باب من رأى العدو فنادى بأعلى صوته ٤ / ٨١ و (كتاب المغازى) باب غزوة ذى قرد ٥ / ١٦٥ . وصحيح مسلم (كتاب الجهاد) باب غزوة ذى قرد ٣ / ١٤٣٢ رقم ١٣١ .

إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا (١)

وهى أرجوزة أوردناها فيما سلف من صفحات .

وروى أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق وينقلون التراب على متونهم أى : على ظهورهم ـ ويقولون :

نحن الذين بَايَعُوا محمدًا عَلَى الإسلامِ مَا بَقِينَا أَبَدا

وفى رواية : عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا .

والنبى ﷺ يجيبهم :

اللهمَّ لاَ خَيْرَ إلاَّ خَيْرُ الآخِرَه

فَبَارِكْ فى الأَنْصَارِ والمهاجِرَهْ (٢).

الرسول يستنشد الشعراء الصحابة :

مثلما كان الرسول ﷺ يردد الشعر مع الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فى المناسبات التى تستدعى أن يجاملهم أو ينشطهم فى العمل أو يستحثهم على الجهاد أو غير ذلك من الأغراض ، فإنه ﷺ كثيرا ما كان يستنشد شعراءه الصحابة متى ما دعت المناسبة إلى ذلك .

يقول مؤيدا هذا الموقف عبدالله بن مسعود الذى يروى أنه قد بلغ النبى أن قوما نالوا أبا بكر بألسنتهم ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ، ليس أحد منكم أَمَنَّ علَيَّ فى ذات يده ونفسه من أبى بكر ، كلكم قال لى : كذبت ، وقال لى أبو بكر : صدقت ، فلو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر » ثم التفت إلى حسان فقال : « هات ما قلت فىّ وفى أبى بكر » فقال حسان : قلت يا رسول الله :

(١) صحيح البخارى (كتاب المغازى) باب غزوة الخندق ٥ / ١٤٠ . وصحيح مسلم (كتاب الجهاد) باب غزوة خيبر ٣ / ١٤٣٧ رقم ١٢٣ .

(٢) صحيح البخارى (كتاب المغازى) باب غزوة الخندق ٥ / ١٣٨ .

إذا تذكّرْتَ شجـواً مـن أَخِي ثقـةٍ

فاذْكرْ أخـاكَ أبا بكـر بما فَعَلاَ

التالىَ الثَّانِيَ المحمـودَ شِيمَتَــــه

وأولَ الناسِ طُـرًّا صَدَّقَ الرُّسُــلاَ

والثّانِيَ اثنين فى الغارِ المنيفِ وقـد

طاف العدوُّ بـه إذْ صَعَّدَ الجبـلاَ

وكـان حِبَّ رسولِ اللهِ قـد علمـوا

مـن البريَّةِ لم يَعْـدِلْ بـه رَجُــلاَ

خيـرُ البريـةِ أَتْقَاهَــا وَأَرْأَفُهـــاَ

بَعْـدَ النبىِّ ، وأوفـاهَـا بِمَا حَمَـلاَ

فقال ﷺ : « صدقت يا حسان ، دعوا لى صاحبى » قالها ثلاثا (١).

ومن ذلك أيضا ما بلغ رسول الله ﷺ من أن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب هجا رسول الله ﷺ وشجعته على ذلك قريش وهى قبيلة رسول الله ، والذى هجا رسول الله هو ابن عمه الحارث . فكيف السبيل إلى الثأر ؟! يقصّ الشعبى الخبر فيقول :

أتى حسان بن ثابت النبى ﷺ فقال : يا رسول الله : إن أبا سفيان بن الحارث هجاك ، وأسعده على ذلك نوفل بن الحارث وكفار قريش ، أفتأذن لى أن أهجوهم يا رسول الله ؟ فقال النبى ﷺ : فكيف تصنع بى ؟ - يعنى إنهم من قومى ، وهجاؤك إياهم هجاء لى - فقال حسان : أسلُّك منهم كما تسلّ الشعرة من العجين . قال : اهجهم وروح القدس معك ، واستعن بأبى بكر فإنه علاّمة قريش بأنساب العرب ، فقال حسان يهجو نوفل بن الحارث :

وإنَّ وُلاَةَ المجدِ مِنْ آلِ هاشمٍ بنُـو بِنْت مخـزومٍ ووالــدُكَ الْعَبْــدُ

(١) جمهرة أشعار العرب للقرشى ، ص : ٣١ .

وما وَلَدَتْ أبناءُ زُهْرَة منهـــمُ   صمياً ولَـمْ يلحـقْ عجـائِزَكَ المجـدُ
فأنتَ لئيمٌ نِيطَ فى آل هاشـمٍ   كما نِيطَ خلفَ الراكبِ القدحُ الفردُ

قال : فلما أسلم أبو سفيان بن الحارث قال له النبى ﷺ : أنت منى وأنا منك ، ولا سبيل إلى حسان[1].

وكان حسان مقدما عند رسول الله فى الاستنشاد ، فقد كان الرسول ﷺ يقول له : **«شنّ الغطاريف على بنى عبد مناف ، فوالله لَشِعْرُكَ أشد عليهم من وقع السهام فى غلس الظلام ، وتحفظ ببيتى فيهم . قال : والذى بعثك بالحق نبيا لأسلنك منهم سلَّ الشعرة من العجين . ثم أخرج لسانه فضرب به أرنبة أنفه ، وقال : والله يا رسول الله إنه ليخيل لى أنى لو وضعته على حجر لفلقه ، أو على شعر لحلقه . فقال النبى ﷺ: أيد الله حسانا فى هجوه بروح القدس**[2].

ويروى ابن عبد ربه هذا الخبر عن هجاء أبى سفيان بن حرب رسول الله ﷺ : يزيد بن عمرو بن تميم الخُزاعى عن أبيه عن جدّه : أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن أبا سفيان يهجوك . فقال رسول الله ﷺ : « **اللهم إنه هَجانى وإنى لا أقول الشعر ، فاهجه عنى** » فقام إليه عبد الله بن رواحة فقال : يا رسول الله ، إيذن لى فيه . قال : « **أنت القائل : فثبت الله ما آتاك من حسن ؟** »

قال : نعم . قال : وإياك فثبت الله . ثم قام إليه كعب بن مالك فقال :

يا رسول الله ، إيذن لى فيه . قال : أنت القائل : « هممت »؟ قال : نعم . قال : لست له ، ثم قام حسان بن ثابت فقال : يا رسول الله ، إيذن لى فيه ، وأخرج لسانه فضَرب به أرْنبة أنفه ، وقال : والله يا رسول الله إنه ليخيَّل لى أنى لو وضعته على حجر لفلقه ، أو على شعر لحلقه . فقال : « **أنت له ، اذهب إلى أبى بكر يخبرك بمثالب القوم ثم اهجهم وجبريل معك** » فقال يرد على أبى سفيان :

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٠ .
(٢) العقد ٥ / ٢٧٧ .

ألاَ أبلغْ أبــا سُفيـــان عَنّــى	مُغَلْغَلـةً فقــدْ بَـــرِحَ الخفــاء
هجـوتَ محمــداً وأجبتُ عنـه	وعنــدَ الله فـــى ذاك الجـــزاءُ
أتهجـــوه ولَسْــتَ لــه بِنـــدٍّ	فَشرُّكُما لخَيرِكُــما الفِـــدَاء
أَمَــنْ يهجو رسـولَ الله منكــم	ويُطْريـه ويَمــدَحُـهُ سَـــواءُ
لـنـا فى كُـل يـومٍ من مَعــدٍّ	سِبـابٌ أو قِتـالٌ أو هجَـــاءُ
لسـانـى صـارمٌ لا عيبَ فيـه	وبَحْرى لا تكدِّرُهُ لا تُكـرِّرُهُ الِّلاءُ
فـإن أبـى ووالـدَه وعِـرْضـى	لِعـرْضِ محمـدٍ منكم وِقَــاءُ (١)

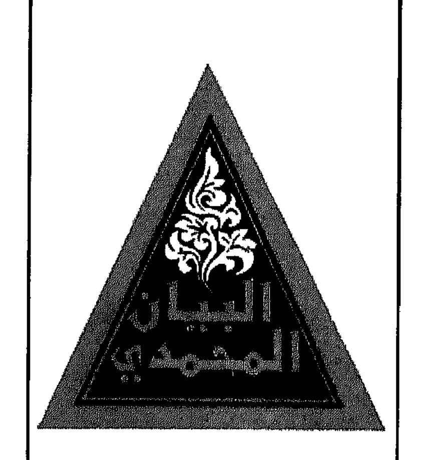
وعن هشام بن عروة عن أبيه (يعنى الزبير) عن عائشةقالت : كان رسول الله ﷺ يضع لحسان بن ثابت منبراً فى المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله ﷺ أو قال : ينافح عن رسول الله ﷺ ويقول رسول الله ﷺ : « **إن الله تعالى يؤيد حسان بروح القدس ما ينافح أو يفاخر عن رسول الله ﷺ** » .

ويؤخذ من الحديث ـ تبعا لتفسير البيجورى ـ حلّ إنشاد الشعر فى المسجد ، بل يندب إذا اشتمل على مدح الإسلام وأهله ، وهجاء الكفر وأهله (٢).

---

(١) العقد ٥ / ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(٢) الشمائل المحمدية ، ص : ١٢٩ .



الفصل الثانى

شعراء الصحابة يمدحون الرسول



شعراء الصحابة يمدحون الرسول

كان رسول الله ﷺ جامعا لأسباب الفضل كله قولا وعملا وسلوكا ، يملأ حبه قلوب الناس جميعا قبل الرسالة وبعدها ، حتى إن كبار أعدائه لم يستطيعوا أن ينالوه بكلمة سوء وهم يسعون لإيقاع الأذى به ، وقد رأينا كيف أن قيصر استدعى أبا سفيان ابن حرب وألقى على أسماعه عددا من الأسئلة حول أمانة محمد ﷺ وصدقه ، فأجاب عنها جميعا بما لا ينال من فضل رسول الله ، ولا ينتقص من شمائله .

هذا ، وحبُّ رسول الله ـ قبل ذلك وبعده ـ فريضة على كل مسلم ، فكان منطقيا ـ والأمر كذلك ـ أن تفيض قرائح الشعراء أنهارا من القصائد فى مدحه ، وهم لا يمدحونه كما يمدحون الملوك ، ولكنهم ينزهون شخصه الشريف عن هذا النمط من القول ، ويصوغون مدائحهم بما يتناسب مع خلقه ، ويضمنون قصائدهم بما يتسق مع شمائله .

إن من أجمل الصيغ التى مدح بها الرسول ﷺ تلك التى التقطها حسان بن ثابت كبير مداحى رسول الله ، وهى اقتران اسم رسول الله فى الشهادتين ، وفى التشهد باسم ربنا ـ جل وعز ـ وذلك فى قوله (١):

أَغَـرُّ عليـه للنُّبـوةِ خـاتـمٌ ... مـن الله مشهـود يلـوح ويُشْهَـدُ

وضمَّ الإلهُ اسمَ النبىِّ إلى اسْمِهِ ... إذا قـال فى الخَمْسِ المـؤذنُ : أَشْهَـدُ

---

(١) ديوان حسان ص : ٥١ .

وشـقَّ لـه مـن اسمـه ليُجِلَّـهُ　　فـذو العـرشِ محمـودٌ وهـذا محمـدُ
نبـيٌّ أتـانـا بـعـد يـأسٍ وفترةٍ　　من الرسْلِ ، والأوثانُ فى الأرض تُعْبَدُ
فـأمسى سراجا مستنيراً وهادياً　　يلـوح كمـا لاح الصَّقِيـلُ المهنَّـدُ
وأنْـذَرَنَـا نـارًا وَبَشـر جنَّـةً　　وعلَّمنـا الإسـلامَ ، فـالله نَحْمَـدُ

ويقرن حسان مديح رسول الله ﷺ بأبيات عميقة باستقرار الإيمان ، يسبح فيها الله ، ويمجد ذاته العلية ، ويحمد نعماه وهداه قائلا :

وأنتَ إلـهَ الخلـقِ ربِّـى وخـالقـى　　بذلك ما عُمِّرْتُ فى الناس أَشْهَـدُ
تَعَالَيْتَ ربَّ الناسِ عن قولِ مَنْ دعا　　سِـواكَ إلهـاً ، أنتَ أعلـى وأمجـدُ
لك الخلـقُ والنعمـاءُ والأمـرُ كلُّـه　　فـإيَّـاك نستهـدِى وإياكَ نَعْبُدُ

وآل بيت النبى ﷺ جلهم شعراء : أعمامه أبو طالب والعباس وحمزة ، وعماته صفية وبرّة وعاتكة وأميمة وأروى كلهن شاعرات ، وأبناء أعمامه علىّ وأبو سفيان بن الحارث وغيرهم ينسب إليهم شعر غير قليل .

وكان العباس شديد التعلق برسول الله حتى قبل أن يعلن إسلامه ، فقد حضر مع رسول الله بيعة العقبة ، وله مع الأنصار حوار جليل . وحين عاد الرسول من تبوك قال له العباس : يا رسول الله ائذن لى أمتدحك ، فقال ﷺ فى تودد وارتياح : « قل ، لا يفضض الله فاك » فأنشد العباس [1]:

من قَبْلِهَا طِبْتَ فى الظِّلال وفـى　　مُسْتَوْدَعٍ حيثُ يُخْصَفُ الورَقُ
ثـم هبَطْتَ البـلادَ لا بشـرٌ　　أنتَ ولا مضغـةٌ ولا عَلَـقُ
بـل نطفـةٌ تركب السفينَ وقـد　　أَلْـجمَ نَسْـرًا وأهلَـهُ الغـرقُ
تنقَّـلُ مـن صُلبٍ إلـى رحـمٍ　　إذا مَضَـى عـالَـمٌ بـدَا طبقُ

(١) زاد المعاد ٣ / ١٣

حتى اسْتَوَى بيتُكَ المهيمنُ من ... خنـدفٍ عُلْيا تحتها النطـقُ

وأنتَ لمَّا وُلِـدْتَ أشْـرقَت الأر ... ضُ وضـاءت بنـورِكَ الأفُـقُ

فنحنُ من ذلك النورِ فى الضِّيَا ... ءِ وسبـلِ الرشـادِ نختـرقُ

فإذا عدنا إلى حسان ـ وسوف نعود إليه كثيرا فيما يستقبل من حديث ـ وجدناه الشاعر الأول مدحا لرسول الله وذوداً عن حياض الرسالة ، ودفاعا عن الرسول ، وهجاء لخصومه وأعدائه ولو كانوا من أهل بيت عبد المطلب ، ثم هو بعد ذلك المسجل لمواقع النصر ، المعلن عن أفراح المؤمنين ، الباكى على شهدائهم وقتلاهم ، إلى غير ذلك مما سوف نعرض له فى مكانه فى الصفحات القادمة .

على أن حساناً لا ينسى أنه من الأنصار ، والأنصار هم الذين آووا رسول الله ونصروه ، وهو صنيع يحفظه لهم رسول الله ﷺ فكان حسان يرى فى ذلك لونا من ألوان الفخار . يقول حسان مسجلا ذلك ذاكرا ما حدث فى بدر [1]:

قَـوْمـى الـذين هـمُ آوَوْا نبيـَّهـمُ ... وصـدَّقـوه وأهـلُ الأرض كُفَّارُ

إلا خَصـائـصَ أقْـوام همُ سَلفٌ ... للصَّالحين مـع الأنصـار أنْصـار

مُسْتبشـرين بقَسْـمِ الله قـوْلهُـم ... لمَّا أتاهُـمْ كـريمُ الأصل مُختار (*):

أهلا وسهلاً ففى أمْنٍ وفى سَعَة ... نِعْـم النَّبىُّ ونِعْـم القَسْـم والجـار

فـأنْـزلـوه بـدار لا يُخاف بهـا ... مـن كـان جـارَهـم دارا هـى الـدَّار

وقـاسمُـوه بها الأمْوال إذْ قدموا ... مهاجرين وقَسْـمُ الجـاحـد النـَّار

(١) السيرة ١ / ٦٦٤ .

(*) القسم : الحظ والنصيب .

سراة القوم : خيارهم . وغاروا : قصدوا الغور ، وهو ما انخفض من الأرض ، يريد تشتتوا . الضمير فى البيتين قبل الأخير يعود على الشيطان الذى غرر بهم .

سِرْنا وسارُوا إلى بَدْر لحَيْنهم … لو يعلمون يَقين العِلم ما ساروا

دلاَّهُمُ بغُرور ثم أسْلمهم … إنَّ الخَبيث لمن والاهُ غَرَّار

وقال إنى لكم جارٌ فأوْرَدَهم … شرَّ المَوارد فيه الخزْى والعار

ثم التقينا فولَّوْا عَن سَراتِهمُ … مِنْ مُنْجدين ومنهم فرْقة غارُوا

وشبيه بموقف حسان فى قصيدته سالفة الذكر ، موقف العباس بن مرداس السلمى ، وهو ابن الشاعرة الصحابية الخنساء ، وله إخوة ثلاثة ، وكلهم أشقاء ، وهم سراقة وحزن وعمرو ، وكلهم شعراء ، ولكن العباس أشعرهم .

وكان لمرداس والد العباس صنم اسمه « ضِماد » وأوصى العباس أن يعبده ، ولكنه حين علم برسالة محمد ﷺ أحرقه ولحق بالنبى وقال فى ذلك (١):

لعمرى إنى يوم أجعل جاهدا … « ضِمَادًا» لرب العالمين مُشَارِكَا

وتركى رسول الله والأوسُ حوله … أولئك أنصار له ما أولائكا

كتاركِ سهلِ الأرضِ ، والحزْنَ يبتغى … ليسلكَ فى غيبِ الأمور المسالكا

فآمنتُ بالله الذى أنا عبده … وخالفتُ من أمسى يريد المهالكا

ووجهت وجهى نحو مكة قاصدا … وتابعتُ بين الأخشبيْن المُبَارَكَا

نبىٌّ أتانا بعد عيسى بناطق … من الحق فيه الفصل منه كذلكا

أمينا على الفرقان أول شافع … وآخر مبعوث يجيب الملائكا

والعباس بن مرداس من فرسان الصحابة ، وله قصيدة غريبة مدح بها رسول الله ، ومن خلالها مدح الضحاك بن سفيان قائد بنى سليم يوم حنين وفيها سمة من الفخر بقومه مثلما فعلَ حسّان يقول فيها :

---

(١) الأغانى ١٣ / ٦٥ ، ٦٦ .

يــا خــاتــم النُّبَآءِ إنَّكَ مُرْسَــلٌ   بالحق ، كلُّ هُدى السبيل هُداكا

إنَّ الإلـــه بنــى عليــك محبَّــةً   فــى خَلْقــهِ ومُحَمَّـدًا سَـمَّاكــا

ثُـمَّ الـذينَ وَفَـوْا بما عـاهـدتَــهم   جُنـدٌ بعَثْتَ عليهم الضَّحَّاكـا [1]

رجُــلاً بــه ذَرَبُ السِّـلاح كأنَّــه   لَمَّــا تكَنَّفَـه العَــدُوُّ يَرَاكـــا [2]

يغشى ذوى النَّسَب القَريب وإنما   يبغــى رضاَ الرَّحمن ثـم رِضَاكــا

أُنْبيكَ أنــى قــد رأَيْتُ مَكَــرَّهُ   تحتَ العَجاجَة يدْمَغُ الإشراكا [3]

طَــوْرًا يُعـانِـقُ باليَـدَينِ وتــارَةً   يَفْرِى الجماجِـمَ صارمـا بتَّاكـا [4]

يغشَـى به هــامَ الكماة ولو ترَى   منه الذى عاينتُ كـان شِفاكـا [5]

وبنـو سُلَيْـم مُعْنِقُـون أمـامــه   ضَرْبا وطَعْنـا فى العـدوّ دِراكا [6]

يَمْشُــون تحْتَ لِـوَائِـهِ وكأنَّهُــم   أُسْـدُ العَـريـنِ أرَدْنَ ثَمَّ عِراكا [7]

مــا يَرْتَجُون مــن القَريبِ قـرابـة   إلاَّ لطــاعَــة ربهــم وَهَـوَاكـــا

هذِى مَشاهدُنا التى كانَتْ لنَــا   مَعْــــروفَــةً ووَلِيُّنــا مَوْلاَكــا

وقصائد العباس بن مرداس ذات وقع خاص فى المسامع ، لأنه فى مديحه لرسول الله ﷺ يمزج المديح بمظاهر الفروسية والفداء والإقبال على خوض المعامع فى سبيل الله ،

---

(١) هو الضحاك بن سفيان الكلابى أحد فرسان غزوة هوازن .

(٢) ذرب السلاح : حدته ومضاؤه ، ومنه يقال : فلان ذرب اللسان ، إذا كان حاد اللسان .

(٣) العجاجة : الغبار المنتشر . ويدمغ : يقهر ويذل ؛ وهو من الضرب على الدماغ .

(٤) يفرى : يقطع . ويروى « يقرى » بالقاف ؛ أى : يقدم الجماجم قرى لسيفه . وبتاك : قاطع .

(٥) الهام : الرءوس . والكماة : جمع كمى ، وهو الشجاع المستتر فى سلاحه .

(٦) معنقون : مسرعون . يقال : أعنق يعنق : إذا أسرع . ودراك : متتابع .

(٧) العرين : موضع الأسد . والعراك : المدافعة فى الحرب .

وإن بداوته الظاهرة فى بنية قصائده تضفى على شعره مزيدا من المهابة ، وقدرا كبيرا من حسن القبول ، وهو هنا يمدح رسول الله فى مجال فخاره بنصر الله يوم حنين ويقول : (١)

يا أيها الرَّجل الذى تَهْوِى بـه ... وجْناءُ مُجْمَرَةُ المَناسم عِرْمِسُ

إمَّا أتَيْتَ على النَّبِىّ فقُلْ لَـهُ ... حَقًّا عَلَيكَ إذا اطمَأنَّ المجْلِسُ

ياخيرَ من رَكِبَ المطِىَّ ومنْ مَشَى ... فوقَ التراب إذا تُعَدُّ الأنْفُسُ

إنَّا وَفَيْنَا بالذى عَاهَدْتَنا ... والخيلُ تُقدَعُ بالكُمَاةِ وتُضرَسُ

إذ سال من أفْنَاءِ بَهْثَةَ كلها ... جمعٌ تظلُّ به المخارمُ ترجُسُ

حتى صَبَحْنَا أهلَ مكةَ فيلقًا ... شهباءَ يَقْدُمُها الهمامُ الأشوسُ

من كلِّ أغلبَ من سُلَيْم فوقه ... بيضاء محكمة الدخال وَقَوْنَسُ

يُرْوِى القناةَ إذا تجاسر فى الوغَى ... وتخالُهُ أسَداً إذا ما يَعْبسُ

وعلَى حُنَيْنٍ قد وَفَى من جمعنا ... ألفٌ أُمِدَّ به الرسولُ عِرَنْدَسُ

كانوا أمام المؤمنين دريئةً ... والشمسُ يومئذٍ عليهمْ أشْمُسُ

نَمْضِى ويحرسُنَا الإلهُ بحفظِهِ ... والله ليس بضائعٍ مَنْ يَحْرُسُ (*)

---

(١) السيرة ٢ / ٤٦٧ ، ٤٦٨ .

(*) المعانى

تهوى به : تسرع . والوجناء : الناقة الضخمة ، أو هى الغليظة الوجنات البارزتها ، وذلك يدل على غئور عينيها ، وهم يصفون الإبل بغئور العينين عند طول السفار . والمجمرة : المجتمعة المنضمة ، وذلك أقوى لها . والمناسم : جمع منسم ، وهو مقدم طرف خف البعير . وعرمس : شديدة ؛ وأصل العرمس : الصخرة الصلدة ، وتشبه بها الناقة الجلدة القوية .

تقدع : تكف . بهثة : حى من سليم . المخارم : الطرق فى الجبال . ترجس : تهتز . الهمام : السيد . الأشوس : الذى ينظر نظر المنكبر . الأغلب : الشديد الغليظ . محكمة الدخال : يعنى الدرع القوى النسج . القونس : أعلى بيضة الحديد . العضب : السيف القاطع . اللدن : يقصد به الرمح اللين ، مدعس : طعّان . عرندس : شديد . دريئة : مدافعة . أشْمُسُ : جمع شمس ، يريد لمعان الشمس فى كل درع وسيف وبيضة وسنان ، وكأنها شموس .

وقدم وفد همدان من اليمن على رسول الله ﷺ ولقوا رسول الله مرجعه من تبوك ، ووقف شعراؤهم بين يديه يرتجزون ، ونشط خطباؤهم يخطبون ، وعلى رأسهم « مالك ابن نمط » فأعلنوا إسلامهم ، وبايعوا رسول الله ﷺ فزودهم الرسول بكتاب إلى قومهم، وقد ولّى « مالكاً » أمرهم ، فقال مالك فى ذلك مادحا رسول الله ﷺ :(١)

ذكرتُ رسولَ اللهِ فـى فَحْمَةِ الدُّجَى
ونحنُ بأعلَى رَحْـرَحَـانَ وَصَلْـــدَدِ

وَهُـنَّ بنـا خُـوصٌ طـلائحُ تَغْتَلِى
بـرُكْبـانِهـا فـى لاَحِـبٍ متمـــدِّدِ

على كلِّ فَتْلاَءِ الـذراعيـن جَسْرَةٍ
تمــرُّ بنـا مـرَّ الهِجَفِّ الْخُفَيْـــدَدِ

حَلَفْتُ بربِّ الـراقصاتِ إلى منىً
صَوَادِرَ بالركبانِ مِنْ هَضْبِ قَــرْدَدِ

بـأنَّ رسـولَ اللهِ فينَــا مُصــدَّقٌ
رسولٌ أَتَـى من عند ذى الْعَرْشِ مُهْتَدِ

فمـا حملت من ناقةٍ فوق رَحْلِهاَ
أَشَــدَّ عــلى أعـدائـــه مِـنْ مُحَمَّـــدِ

وأَعَطـى إِذَا مَـا طَالِبُ العُرْفِ جَـاءَهُ
وأَمْضَــى بحـدِّ المشـرفـىِّ المهَنَّــدِ (*)

وتأكيدا لتقبل رسول الله ﷺ الاستماع إلى الشعر يُنشد بين يديه ، فيستجيب قلبه

---

(١) عيون الأثر ٢ / ٢٤٦ .

(*) المعانى :

رحرحان وصلدد : موضعان . الخوص : واحدتها خوصاء ، وهى الغائرة العيون . تغتلى : تشتد فى سيرها . اللاحب : الطريق الواضح . الجسرة : القوية على السير . الهجف : الذكر الضخم من النعام . الخفيدد : الهجف . الراقصات : الإبل . والرقص : ضرب من السير . القردد : ما ارتفع من الأرض .

الكبير لمعانيه السامية ، وتتأثر نفسه الشريفة برجع صداه ، ما ذكره سعيد بن المسيب ـ وهو سيد التابعين وأحد الفقهاء السبعة فى المدينة ـ حين قيل له : إن قبيصة بن ذؤيب[1] يزعم أن الخليفة [2] لا يُناشَدُ الأشعار ، قال : ولم لا يناشد الخليفة الأشعار وقد نوشد رسول الله ﷺ يومَ قدم عليه عمرو بن سالم الخزاعى مستنصرا . وكانت قريش وبنو بكر قد اعتدوا على خزاعة ، وأصابوا منهم ما أصابوا ، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله من العهد والميثاق بها استحلوا من خزاعة ، وكانت خزاعة فى عقد رسول الله وعهده ، وكان هذا العدوان مما أسهم فى الإعداد لفتح مكة .

وقف عمرو بن سالم بين يدى رسول الله وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى الناس وأنشد :

يــاربِّ إنــى نـاشــدٌ محمــداَ ... حِلْفَ أبينــا وأبيه الأَتْلــدَا

قـد كنتـمُ وُلْـدًا وكنّـا والـدَا ... ثُمَّتَ أسْلَمْنَـا فلـم نَنـزِعْ يَـدَا [3]

فانصُـرْ هـداكَ اللهُ نصرًا أَعْتَـدَا ... وادْعُ عبــادَ اللهِ يــأتــوا مَــدَدَا [4]

فيهــمْ رســول اللهِ قــد تجــرَّدَا ... إنْ سِيمَ خَسْفـاً وَجْهُـهُ تَـرَبَّـدا [5]

فـى فيلقٍ كالبحر يجرى مُـزْبِدَا ... إنَّ قـريشــا أخلفـوك الموْعِــدَا

ونقضُـوا ميثـاقَك المؤكَّــدَا ... وجعلـوا لـى فـى كَـدَاءٍ رَصَـدَا

وزعمُـوا أنْ لستُ أدعُـو أحـدَا ... وهُــمْ أَذَلُّ وَأَقَــلُّ عَــــدَدَا

هــمْ بَيَّتُــونـاَ بـالْوَتيرِ هُجَّـدَا ... وقَتَلُـونَـا رُكَّعــاً وَسُجَّــــدَا [6]

---

(١) كان قبيصة من الفقهاء الوجوه ، ثم كان على خاتم عبد الملك بن مروان .

(٢) الخليفة هو عبد الملك .

(٣) أراد أن عبد مناف أمهم من خزاعة ، وكذلك قصى أمه فاطمة بنت سعد الخزاعية الولد ـ بضم الواو ـ يعنى الولد .

(٤) الأعتد : الحاضر . والمدد : العون .

(٥) تجرد ، أى : شمر وتهيأ للحرب ، سيم ، أى : طلب منه وكلف ، الخسف : الذل . تربد : تغير إلى السواد .

(٦) الوتير : اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة . الهجّد : يعنى النيام ، ويعنى أيضا المستيقظين ، لأنه من الأضداد .

فى رواية سعيد بن المسيب أن الرسول ﷺ لما استمع إلى هذا الشعر دمعت عيناه ، ونظر إلى سحابة قد بعثها الله فقال : « **والذى بعثنى بالحق نبيًّا إن هذه السحابة لتستهلّ بنصر بنى كعب** » وخرج بمن معه لنصرهم .

وفى رواية ابن إسحاق [١] وابن سيد الناس [٢] أن رسول الله ﷺ قال : نُصرت يا عمرو ابن سالم ، ثم عرض لرسول الله عَنَانٌ من السماء ـ أى : سحاب ـ فقال : إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب . وفى رواية ابن عبد البر ـ فى الاستيعاب ـ قال رسول الله ﷺ : « **لا نصرنى الله إن لم أنصر بنى كعب** » .

فلما كان يوم الفتح الأكبر ـ فتح مكة ـ جاء أنس بن زنيم الدّيلى إلى رسول الله ﷺ يعتذر عما فعلته بنو بكر بخزاعة ، ومما قال فيهم عمرو بن سالم الخزاعى ، وكان منطقيا أن يمزج ابن زنيم بين الاعتذار والمدح فى قالب واحد فقال [٣]:

أأنتَ الذى تُهْدى مَعَدٌّ بأمره … بَلِ اللهُ يهديهِمْ وقالَ لَكَ اشْهَدِ

وماحَمَلَتْ مِنْ ناقةٍ فَوْقَ رَحْلِها … أبَرَّ وأوْفى ذمَّةً مِن مُحَمَّدِ

أحَثّ على خيرٍ وأسبغَ نائلا … إذا راحَ كالسَّيفِ الصقيلِ المُهَنَّدِ

وأكْسَى لبُرْدِ الخالِ [٤] قبلَ ابْتذالِه … وأعطى لرأسِ السَّابقِ المتجردِ

تعلَّم [٥] رسولَ اللهِ أنَّك مُدْرِكى … وأنَّ وَعِيدًا منك كالأخذِ باليدِ

تَعَلَّمْ رسُولَ اللهِ أنَّكَ قادِرٌ … على كلِ صرمٍ [٦] مُتْهِمين ومُنجِدِ

---

(١) السيرة لابن هشام ٢ / ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

(٢) عيون الأثر ٢ / ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٣) السيرة ٢ / ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، وفى سبل الهدى والرشاد ٦ / ٤١١ ، ٤١٢ نسبت الأبيات إلى أسيد أناس .

(٤) الخال : ضرب من برود اليمن ، وهو من رفيع الثياب . والسابق (هنا) : الفرس . والمتجرد : الذى يتجرد من الخيل فيسبقها .

(٥) تعلم : اعلم . والوعيد : التهديد .

(٦) صرم : بيوت مجتمعة . ومتهمين : ساكنين فى التهام ، وهى المنخفض من الأرض . والمنجد : من يسكن النجد ، وهو المرتفع .

تَعَلَّم بأن الرَّكب ركْبُ عُوَيْمِر هُمُ الكاذبونَ المُخلفُو كل موْعِدِ

ونَبّوا رسولَ الله أني هَجَوْتُه فلا حملَت سوطى إليَّ إذَنْ يدى

سِوَى أنني قد قُلْتُ وَيْلَ امّ فِتْيةٍ أُصِيبُوا بنحسٍ لا بطلقٍ وَأسْعُدِ (١)

أَصَابَهُمُ مَنْ لم يكنْ لدمائهمْ كِفَاءً فعزَّتْ عَبْرَتِى وَتَجلُّدِى

إن القارىء المتذوق للشعر يقف وقفة إعجاب أمام قول أنس :

وما حملت من ناقة فوق رحلها

أبَرَّ وأوفى ذمة من محمدِ

أَحَثَّ على خير وأسبغ نائلا

إذا راح كالسيف الصقيل المهنّد

إنه نفس المعنى الذى صاغه فيما بعد ـ فى عام الوفود ـ مالك بن نمط رئيس وفد همدان بنفس الكلمات حين قال :

فما حملتْ من ناقةٍ فوق رحلها

أشدَّ على أعدائه من محمدِ

وأعطى إذا ما طالبُ العُرفِ جاءه

وأمضى بحدِّ المشرفيّ المهندِ

وهنا يسأل المرء نفسه : هل أخذ مالك المعنى من أنس بن زنيم فى مدحه رسول الله يوم فتح مكة ؟ أم أنه السليقة العربية البدوية لاصطياد المعنى البكر المستمد من طبيعة البيئة المشتركة ؟

---

(١) الطلق : الأيام السعيدة .

لعل الرأى الأخير هو الذى نميل إليه ، فقد يقع ـ فى الشعر ـ الحافر على الحافر كما يقول أبو الطيب . وقد قال دعبل الخزاعى عن بيت أنس : إنه أصدق بيت قالته العرب .

ومن الشعر الذى مدح به رسول الله ﷺ فاستحسنه وأثنى على قائله ما رواه ذابل بن الطفيل بن عمرو الدوسى عن مقدم خُفَاف بن نضلة بن عمرو بن بهدلة الثقفى على رسول الله ﷺ وهو قاعد فى مسجده منصرفه من الأباطح ، فأنشده : (١)

كَمْ قد تَحَطَّمتْ القَلُوصُ بِيَ الدُّجَى ... فِي مَهْمَـهٍ قَفْرٍ مِـنَ الفَلَـــوات

فِلّ من التَّوْرِيسِ لَيْس بِقَاعِـــــهِ ... نَبْتٌ مـن الإِسْنَاتِ والأَزْمَـــات

إنِّـى أتَانِـى فـى المَنَــام مُسَاعِـدٌ ... مِنْ جِنِّ وَجْرَةَ كَـانَ لـي وَمُـــوَاتِ

يدْعُــــو إِلَيْـكَ لَيَالِيـــاً ولَيَالِيـــاً ... ثُــمَّ احْزَأَلَّ وَقَـــالَ لَسْتُ بِـــآتِ

فَرَكِبْتُ نـاجِيـــة أضَـرَّ بِنَيِّهَـــا ... جَمْـزٌ تَـجبُّ بِـهِ عَلَـى الأَكَمَاتِ

حتَّـى وَرَدْتُ إِلَـى المدينَـةِ جَاهِـدًا ... كَيْمَــا أرَاكَ مُفَــرِّجَ الكُرُبَــاتِ

فلما انتهى خفاف من إنشاده استحسنه رسول الله ﷺ وقال : « **إن من البيان كالسحر ، وإن من الشعر كالحكم** »(٢)(*).

---

(١) أورد ابن حجر فى الإصابة ترجمة مقتضبة لذابل بن الطفيل برقم ٢٤٢٨ بالمجلد الأول ، كما أورد خبر وفادة خفاف ابن نضلة على رسول الله ﷺ وإنشاده قصيدته ، وإطراء رسول الله إياها فى الترجمة رقم ٢٢٧٤ من نفس المجلد . والخبر بجملته أخرجه أبو سعد النيسابورى فى شرف المصطفى ، والبيهقى فى دلائل النبوة .

(٢)الأبيات فى سبل الهدى والرشاد ٦ / ٥٠٠ ونهاية الأرب للنويرى ١٨ / ١٤٦ ، وأبيات منها فى ترجمة خفاف السابق الإشارة إليها فى الإصابة .

(*) معانى المفردات :

تحطمت : يعنى تكسرت ، القلوص : الناقة الشابة . الدجى : ظلمة الليل ، المهمه : المفازة والبرية . الفلوات : جمع فلاة ، وهى الأرض لا ماء فيها ، الفل ـ بفاء مكسورة ـ : القوم المنهزمون ، من الفل : وهو الكسر . التوريس : من ورّس الثوب بالورس ، أى : صبغه . الإسنات : الجدب . وجرة : اسم لفلاة بين قران وذات عرق بها =

ومجمل القول : إن مدائح الشعراء فى رسول ﷺ من الوفرة والدفء والجمال والعمق بحيث لا تستقصى ، وقد قيلت فى مناسبات متعددة ، وهى أكثر ما تكون فى الغزوات والوفود ، وهى فى جملتها نماذج صادقة لموقف رسول الله ﷺ من الشعر ، تمثل مبلغ عنايته بالاستماع إليه ، ومقدار إعجابه بما كان رفيع المعانى شريف القصد منه ، وقد بدا ذلك واضحا فى مواقف كثيرة ، منها هذا الموقف ، ومواقفه من سليم فى هوازن ، وموقفه حين استمع إلى عمرو بن سالم ، وموقفه من شعر قتيلة بنت النضر وغير ذلك كثير .

=الوحش ولا ماء فيها . المواتى : الموافق ، احزألّ : يعنى انفرد . والاحزئلال : الانفراد ، الناجية : الناقة السريعة التى تنجو بصاحبها ، النىّ : الشحم واللحم ، الجمز ، ضرب من السير السريع ، تجبّ : تقطع . وروى تخب ـ بالخاء ـ من الخبب : وهو نوع من المشى السريع .



الفصل الثالث

استسقاء النبى ﷺ

- الشعراء يناشدون الرسول الاستسقاء .
- الرسول يستسقى به وهو غلام .



استسقاء النبى ﷺ

المطر حياة الناس والحيوان والنبات ، إذا كثر سعد الناس ، وارتوت الأنعام ، واخضر الشجر ، واعشوشبت الأرض ، وعاش الناس فى نعيم وعيش رغيد ، وإذا انحبس المطر أجدبت الأرض ، وجف الضرع ، وصوح النبات . وقل الخير .

ولكن الناس إذا ما اتجهوا إلى الله بقلوب مؤمنة ، ونفوس ضارعة ، وأرواح خاشعة ، وسألوه ـ سبحانه ـ وصلوا صلاة الاستسقاء ـ وهى شعيرة إسلامية ـ تفضل الله عليهم بِسَوْق السحاب ، وهطول الأمطار التى تبدل جدبهم خصبا ، وفقرهم غنى ، وبؤسهم سعادة .

وكانت عبارات رسول الله ﷺ وهو يتضرع إلى الله فى طلب السقيا واستمطار السحاب نموذجا فريدا لألوان المناجاة الربانية ، ومثالا نورانيا للضراعات الإلهية ، بلاغة قول ، وفصاحة لفظ ، ونصاعة بيان ، وعمق خشوع ، وصرف خضوع . إنها مناجاة سيد الخلق لسيده إله الكون الإله الرزاق الجواد الذى له ما فى السموات والأرض، سبحانه اللطيف الخبير .

قال أنس بن مالك : قَحَل الناسُ على عهد رسول الله ﷺ فأتاه المسلمون فقالوا : يا رسول الله : قَحَطَ المطرُ، ويَبِس الشجرُ ، وهلكت المواشى ، وأَسْنَتَ الناسُ ، فاسْتَسْقِ لنا ربَّك عزّ وجلّ .

فقال : إذا كان يوم كذا وكذا فاخرجُوا واخرُجُوا معكم بصدَقات .

فلما كان ذلك اليوم خرج رسولُ الله والناسُ معه ، يمشى ويمشُون ، عليهم السكينةُ والوقار ، حتى أَتوا المُصَلَّى ، فتقدَّم النبى ـ عليه السلام ـ فصلَّى بهم ركعتين ، يَجهَر فيهما بالقراءة ، فلما قضى صلاتَه استقبل القومَ بوجهه ، وقلَبَ رداءه ، ثم جَثا

على رُكْبَتَيْه ، ورفع يديه ، وكبر تكبيرة قبل أن يَسْتسقِي ، ثم قال : « **اللهمّ اسْقِنَا وأغثْنا ، اللهمّ اسْقِنا غَيْثاً مُغِيثاً ، وَحَيًا رَبِيعاً ، وجَدًا طَبَقاً غَدَقاً مُغْدِقاً مُونِقاً عامًّا ، هَنِيئاً مَرِيئاً مريعاً ، مُرْتِعاً مُرْبِعاً وابِلاً ، سابلاً مُسْبَلاً مُجَلِّلاً دائماً دِرَراً ، نافعاً غيرَ ضارٍّ ، عاجِلاً غيرَ رائثٍ . اللهمّ غَيْثاً تُحيى به البلاد ، وتُغيثُ به العباد ، وتجعله بَلاغاً للحاضِر منا والباد .**

اللهمّ أنزِلْ فى أرضِنا زينتَها ، وأنزِل علينا فى أرضِنا سُكْنَها .

اللهمّ أنزِل علينا من السماء ماءً طَهُورا ، فأحْيِ به بلدةً مَيْتاً ، واسْقِه ممّا خلَقْتَ لنا أنعاماً وأناسيَّ كثيرا » .

قال فما بَرِحْنا حتى أقبل قَزَعٌ من السَّحاب ، فالتأم بعضُه إلى بعض ، ثم مطَرتْ عليهم سبعة أيام ولياليَهنّ لا يُقْلِعُ عن المدينة .

فأتاه المسلمون ، فقالوا : يا رسول الله ، قد غَرقَت الأرضُ ، وتهدَّمت البُيوت ، وانْقَطَعَت السُّبُل ، فادْعُ الله تعالى أن يصرفَها عنّا . فضحك رسول الله ﷺ على المِنْبَر حتى بَدَتْ نواجِذُه ، تعجُّباً لسُرعة مَلالة ابن آدم ، ثم رفع يديه ، فقال : « **اللهمَّ حَوالَيْنا ولا عَلَينا ، اللهمّ على رُؤوس الجبال ، ومَنابت الشجر وبُطون الأودية وظُهورِ الآكام** » .

فتصدَّعت عن المدينة حتَّى كانت فى مثل التُّرْس عليها كالفُسْطاط ، تُمْطَر مَراعِيها ولا يُمْطَر فيها قَطْرةٌ . (١)(*)

---

(١) منال الطالب ١ / ٩٨ ، ٩٩ ، والحديث خرجه الزمخشرى فى الفائق ١ / ٣٤١ .

(*) معانى المفردات :

القحط : احتباس المطر . أسنت الناس ، فهم مسنتون : إذا دخلوا فى السنة ، وهى الجدب . الحيا : المطر . الجدا (مقصورا) : المطر العام . الطبق : الذى يطبق الأرض ، أى : يعمّ وجهها ، الغدق ـ كالعسل ـ : الكثير القطر ، المريع : المخصب الناجع فى الماشية . المربع ـ بالباء ـ : الدائم المقيم ، الوابل : المطر الشديد ، السابل : السحاب الماطر . الدرر ـ بكسر ثم نصب ـ : جمع الدرة : وهى المطر . الرائث : البطىء ، السكن ـ بضم ثم سكون ـ : القوت الذى يسكن به فى البلاد ، القزع : جمع قزعة ـ بفتح القاف والزاى ـ هى القطع المتفرقة من السحاب ، الظراب ـ بكسر الظاء ـ : جمع ظرب ـ بفتح ثم كسر ـ : هو الجبيل الصغير . الآكام : الروابى .

الرسول يناشده الشعراء الاستسقاء :

عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن أعرابيا جاء إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، قد أتيناك وما لنا بعير يئطّ ، ولا صبىّ يصطبح ، وأنشد :

أَتَيْـناكَ والعَذراءُ يَدمَى لبانُـهـا ... وقـد شُغِلَتْ أمُّ الصَّبىّ عـن الطِّفْـل

وأَلْقَـى بكَفَّيْه الفَتِىّ اسْتِكـانـةً ... مـن الجـوع ضَعْفـاً ما يُمِرُّ ومـا يُحْلِى

ولا شىءَ ممَّا يأكل الناسُ عندنـا ... سِوى الحَنْظَل العامِىِّ والعِلْهِزِ الفَسْل

وليـس لنـا إلاَّ إليـكَ فِرارُنـا ... وأيـن فِـرارُ الـنـاس إلاَّ إلى الـرُّسْل (١)

فقام رسولُ الله ﷺ يجرُّ رداءَهُ حتى صَعِد المِنبرَ ، فحَمِد الله وأثنى عليه ، ورفع يديه إلى السماء ، فقال : « **اللهم اسْقِنا غيثاً مُغِيثاً مَريعاً غَدَقاً طَبَقاً ، عاجلاً غيرَ رائث ، نافعاً غيرَ ضارّ ، تملأ به الضَّرع ، وتُنبت به الزَّرع ، وتُحيى به الأرضَ بعد موتها وكذلك تُخرَجُون** » .

قال : فما رد رسول الله يديه إلى نحره حتى التقت السماء بأرْواقِها ، وجاء أهلُ البطانة يَضجُّون : يا رسولَ الله ، الغَرَقَ الغَرَقَ . فرفع يدَه إلى السماء ، وقال : « **اللهمّ حَوالَيْنا ولا علينا** » فانْجابَ السحابُ عن المدينة حتى أحْدَقَ بها كالإكليل . فضحك رسولُ الله ﷺ حتى بَدَتْ نَواجذُه ، ثم قال : لله أبو طالب ! لو كان حيًّا قرَّتْ عيناه ، مَن الذى يُنشِدُنا قولَه ؟ فقام على بن أبى طالب ، فقال : يا رسولَ الله ، كأنك أردتَ قوله :

وأبيضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَـامُ بـوَجْهِه ... ثِمالُ اليَتامى عِصْمةٌ للأرامـلِ

يَـلُوذُ بـه الهُـلاَّكُ مـن آل هـاشـمٍ ... فهمُ عنده فى نَعْمـةٍ وفَواضِـلِ

كـذَبْتُـم وبيتِ الله يُبْـزَى محمَّـدٌ ... ولما نُقَـاتِلْ دُونـه ونُنـاضِـلِ

ونُسْلِمَـهُ حتَّـى نُصرَّع حـولَـهُ ... ونَـذْهَـلَ عـن أبنائـنا والحَلائِلِ

(١) هذه الأبيات تنسب إلى لبيد يخاطب بها رسول الله ﷺ حين وفد عليه فى جماعة من قومه مع اختلاف فى الرواية .

فقال رسول الله : أجَلْ ، فقام رجلٌ مِن كِنانة ، فقال :

لَكَ الحمدُ والحمدُ ممَّنْ شَكرْ ... سُقِينا بوَجْهِ النبيّ المَطَرْ

دَعا الله خالقَهُ دَعوةً ... إليه وأشْخَصَ منه البَصَرْ

فلم يكُ إلا كإلْقا الرِّداءِ ... وأسرَعَ حتى رأينا الدِّرَرْ

دُفاقَ العَزائِلِ جَمَّ البُعاقِ ... أغاثَ به الله عُلْيا مُضَرْ

وكان كما قالهُ عَمُّهُ ... أبو طالب أبيضُ ذو غُرَرْ

به الله يَسْقِىَ صَوْبَ الغَمام ... وهذا العِيانُ كذاك الخَبَرْ

فمَنْ يشكُر الله يَلْقَ المَزِيدَ ... ومَن يَكْفرُ الله يَلْقَ الغِيَرْ

فقال رسول الله ﷺ : « **إن يك شاعرٌ أحسنَ فقد أحسنْتَ** » (١).

نلاحظ هنا أن الرسول ﷺ قد أبدى ارتياحه لأبيات عمه أبى طالب فى الاستسقاء ـ وكان أبو طالب وأكثر بنيه شعراء مجيدين ـ كما أن الرسول ﷺ قد أطرى الشاعر الكنانى وحيَّاه بإحدى عباراته الناصعة البيان إعجابا بشعره ، وذلك فى قوله الشريف : « **إن يك شاعر أحسن فقد أحسنت** » .

---

(١) منال الطالب ١ / ٩٩ وما بعدها ، والخصائص الكبرى للسيوطى ٢ / ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

المعانى:

الأطيط : حنين الناقة وصياحها ، يريد أن الجدب قد ذهب بالإبل كلها ، الاصطباح : شرب الصبوح ، وهو ما يشرب من اللبن وغيره فى الغداة . اللبان : الصدر . الاستكانة : الذل والخضوع . ما يمر وما يحلى ، أى : ما يتكلم بمّر من الكلام ولا حلو ، وذلك بسبب الجوع والضعف ، العلهز ـ بكسر العين والهاء ـ : شىء كانوا يدخرونه لعام الجدب يأكلونه ، الأرواق : الأثقال ، أى : ألقت السماء بمائها الكثير المثقل للسحاب . أهل البطانة : هم الذين كانوا ينزلون حوالى المدينة . الإكليل : العصابة التى تعمل على الرأس كالتاج ، أى : صار السحاب حول المدينة كالإكليل حول الرأس . قرت عيناه ، أى : بردت دمعتها ؛ لأن دمع السرور بارد ، ودمع الحزن حار ، الثمال ـ مثلثة الثاء ـ : المطعم ـ بضم الميم ثم سكون فكسر ـ يستسقى الغمام بوجهه ، أى : بجاهه وحرمته . نصرع ـ بتشديد الراء المكسورة ـ أى : نقتل ونرمى على الأرض . الحلائل : الزوجات . الدّرر ـ بكسر الدال ـ جمع درة : المطر . العزائل : مقلوب العزالى جمع عزلاء ، وهى : فم المزادة من أسفلها الذى يخرج منه الماء ، البعاق ـ بالضم ـ المطر العظيم الانصباب . الصوب : نزول المطر . الغير ـ بكسر الغين ـ : الحوادث وتغير الحال .

الرسول يُستسقَى به وهو غلام :

تروى هذا الخبر رقيقة (مصغرة) بنت أبى صيفى بن هاشم بن عبد المطلب بن هاشم ، وهى والدة مخرمة بن نوفل . وكانت لدة لعبد المطلب ، وأدركت البعثة النبوية وأسلمت ، وكان لها صحبة لرسول الله ﷺ وهى التى حدثت رسول الله ﷺ بشأن تآمر قريش عليه فى ليلة اجتماعهم يريدون قتله ، فتحول عن فراشه وبات فيه علىّ بن أبى طالب (1) .

قالت : تتابَعتْ على قُرَيْشٍ سِنُو جَدْب ، أَقْحَلت الأرضَ والضَّرعَ ، وأرَقَّت العَظْمَ فبينا أنا راقدةٌ ـ اللَّهُمَّ ـ أو مُهَوِّمةٌ ، ومعى صِبْوَتِى ، إذ أنا بهاتفٍ صَيِّتٍ يَصْرُخ بصوتٍ صَحِلٍ ، اقْشعَرَّ له جلدى ، يقول : يا معشرَ قريش ، إن هذا النبىَّ المبعوث منكم قد أظَلَّتْكم أيَّامُه ، وهذا إبَّانُ نُجُومِه ، فَحَىَّ هَلاً بالحَيَا والخِصْب ، ألا فانظروا فيكم رجلاً وَسِيطًا جُساماً طُوالاً ، أبيضَ بَضًا ، أَشَمَّ العِرْنِين ، أَوْطَفَ الأهداب ، سَهْلَ الخَدَّين ، له فَخْرٌ يَكْظِم عليه ، وسُنَّةٌ تَهْدى إليه ، ألا فَلْيَخْلُص هو وولَدُه ، وليدْلِفْ إليه من كُلِّ بَطْنٍ رجلٌ ، ألا فَلْيَشُنُّوا من الماء ، ولْيَمَسُّوا من الطِّيب ، ولْيَسْتَلِمُوا الرُّكْنَ ، ولْيَطَّوفُوا بالبيت العتيق سَبعاً ، ثم لْيَرتَقُوا أبا قُبَيْس ، ألا وفيهم الطَّيِّبُ الطاهرُ لِداتُه ، ألا فَلْيَسْتَسْقِ الرجلُ ، ولْيُؤَمِّن القومُ ، ألا فغِثْتُم إذاً ما شِئتم وعِشْتُم .

قالت : فأصبحتُ ـ علم الله ـ مَذْعُورةً ، قد قَفَّ جِلْدِى ، ووَلِهَ عَقْلِى ، فاقتَصَصتُ رُؤْياى ، ونَمَتْ فى شعاب مكَّةَ ، فوالحُرْمَةِ والحَرَم إن بقى بها أَبْطَحىٌّ إلاّ قال : هذا شَيْبَةُ الحَمْدِ ، وتتامَّتْ عنده رجالاتُ قُرَيش ، وانقَضَّ إليه من كلِّ بَطْنٍ رجلٌ ، فشَنُّوا ، ومَسُّوا ، واسْتَلَموا واطَّوَّفُوا ، ثم ارتَقَوْا أبا قُبَيْس ، وطَفِق القومُ يدِفُّون حَوْلَه ، ما إن يُدْرِكُ سَعْيُهم مَهْلَهُ ، حتى قَرُّوا بذِرْوَة الجَبل ، واسْتَكَفُّوا جَنابَيْه .

فقام عبدُ المطلب ، فاعْتَضَد ابنه محمداً ، فرفعه على عاتِقه ، وهو يومئذٍ غلامٌ قد أيفَع أو كَرَب ، ثم رفع يديه ، فقال : اللهمَّ سادَّ الخَلَّةِ وكاشفَ الكُرْبة ، أنت عالِمٌ غيرُ

---

(1) الإصابة ٤ / ٣٠٣ الترجمة رقم ٤٢٥ .

مُعَلَّم ، ومسئول غير مُبَخَّل ، وهذه عِبِدَّاؤك وإماؤك بِعذِرات حَرَمِك ، يَشْكُون إليك سَنَـتَهم ، أذْهَبَت الخُفَّ والظِّلْفَ ، فاسْمَعَنَّ اللهُـمَّ ، وأَمْطِرَنَّ علينا غَيْثاً مُرْبِعاً مُغْدِقاً . فوربِّ الكعبةِ ماراموا حتى تَفجَّرت السماءُ بمائِها ، وكَظَّ الوادى بثَجِيجه ، فسمعتُ شِيخانَ قُريش وجِلَّتَها : عبدَ الله بنَ جُدْعانَ ، وحَرْبَ بْنَ أميَّة ، وهشامَ بن المغيرة ، تقول لعبد المطَّلب : هنيئاً لك أبَا البَطحاء ، وفى ذلك تقول رُقَيْقَةُ :

بشَيْبةِ الحَمْـدِ أسْقى الله بَلْـدَتَنا ... وقـد فَقَـدْنا الحَيَـا واجْلَوَّذَ المَطَـرُ

فَجـادَ بـالمـاء جَـوْنيٌّ لـه سَبَلٌ ... سَحًّـا فعاشَتْ به الأنعامُ والشَّجـُر

مَنًّـا مـن الله بالميـمون طـائـرُهُ ... وخيـر مَـن بُشِّرتْ يوماً بـه مُضَرُ

مُبارَكُ الوجهِ يُسْتَسْقَى الغَمـامُ به ... مـافى الأنام لـه عِدْلٌ ولا خَطَرُ (١)

هكذا كان الشعر فى ركاب رسول الله ﷺ وحوله وبين يديه منذ أن كان يافعا يستسقى به المطر مع جده المحب له والأثير لديه ، ثم رافقه استسقاء فى سنوات الرسالة ، استنشادا ومديحا ودفاعا عنه وهجاء لأعدائه ووصفا لمعاركه وتسجيلا لمواقعه ورثاء لشهداء دعوة الإسلام على النحو المبين فى حنايا هذا الفصل . وكان شعرا جادا

---

(١) الفائق ٣ / ١٥٩ ـ ١٦٢ ودلائل النبوة ١ / ٣٦١ ـ ٣٦٥ ، وأسد الغابة ٧ / ١١١ ـ ١١٣ .

المعانى :

الرقود : النوم المستحكم . التهويم : النوم الخفيف ، الصبوة ـ بالكسر ـ : الأولاد الصغار . الصحل ـ بفتح ثم كسر ـ : الذى فى صوته بحة . إبان نجومه : يعنى وقت ظهوره . أشم العرنين : مرتفع الأنف . أوطف الأهداب ، من الوطف ، وهو طولها . الكظم : الكتم والإمساك على الشىء . ألا فليخلص هو وولده : يعنى فليتميزوا وينفردوا من الناس . الشنّ : صب الماء على الرأس والبدن متفرقا ، ومنه شن الغارة : إذا أخذتهم من نواحيهم . قفَّ الجلد : إذا تقبض وارتعد . الوله : الحيرة والدهش ، الأبطحى : المنسوب إلى أبطح مكة ، وهو ظاهرها . يَدِفُّون ـ بالفاء المشددة ـ من الدفيف ، وهو : المرّ السريع ، استكفّوا به ـ بالفاء المشددة ـ : أحدقوا به وصاروا حوله . أيفع الغلام أو كَرَبَ ، أى : إذا شبّ وترعرع وشارف الاحتلام . الخَلَّة ـ بالفتح ـ : الحاجة . العِبدَّاء : العبيد ، العَذِرَات : جمع عذرة ، وهى فناء البيت . ماراموا : مابرحوا وما زالوا ، الثجيج : الماء المصبوب المتدفق . اجْلَوَّذ المطر أى : ذهب وقل ، وأصله من اجلوذ فى السير ، أى : أسرع . السَّبَل ـ بالتحريك ـ : المسبَل . الميمون طائره ، أى : المبارك المقبل السعيد ، وهو من التيمن بالطير السانح ، وضده التشاؤم بالطير البارح . العِدْل : المثل والنظير .

نبيلا بناء غير مترخص ولا متخاذل ، وكان الرسول يمتدحه ويطرى منشديه بعبارات محمدية لا يصدر مثلها إلا عنه ـ صلى الله وسلم وبارك عليه ـ ولا يزال إطراؤه لشاعر كنانة يرن فى أسماعنا فى رفق وإجلال ، وذلك فى قوله الشريف : « **إن يك شاعر أحسن فقد أحسنت**» .





الفصل الرابع

الرسول وخبر قسّ بن ساعدة



الرسول وخبر قس بن ساعدة الإيادي

نحن نسوق هذا الخبر فى مقام احتفال رسول الله ﷺ بالشعر الجيد الذى تؤدى روايته نفعا ، ويخلف إنشاده موعظة ، فقد عرفنا من خلال ما هو مسطور فى هذا الباب أن عناية رسول الله ﷺ كانت منصرفة إلى الشعر البليغ الذى يخدم غاية نبيلة ويخلف أثرا جميلا .

وقبل أن نمضى قدما فى حديث قس وخبره لا يفوتنا أن نشير إلى أن بعض الحفاظ قد صنفوا هذا الخبر بين الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة ، ومن ثم كان علينا قبل أن نضمّن هذا الخبر الكتاب الذى بين أيدينا ، إعمال بعض الجهد لكى نتأكد من صحة الخبر ، وعما إذا كان الحديث صحيحا أو موضوعا .

لقدحفلت كتب التراث بذكر خبر قس ، وهذه الكتب من الطبقة العليا مثل البيان والتبيين للجاحظ ، والعقد الفريد لابن عبدربه ، والمعمرين لأبى حاتم . والأغانى لأبى الفرج ، ودلائل النبوة لأبى نعيم ، والأوائل لأبى هلال العسكرى ، والمنازل والديار لأسامة بن منقذ ، وتصحيح الفصيح لابن درستويه ، وشرح مقامات الحريرى للشريشى ، وخزانة الأدب للبغدادى ، وغير ذلك .

هؤلاء المؤلفون العظام جعلونا نتريث فى قبول الطعن الذى وجهه بعض الحفاظ الذين لهم مقامهم من الإجلال مثل شيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة » والحافظ الهيثمى فى « مجمع الزوائد» والجلال السيوطى فى « اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة » .

على أن هناك محدثين لهم قدرهم ومكانتهم فى خدمة حديث رسول الله ﷺ قد أيدوا

صحة الخبر مثل الحافظ ابن كثير فى « السيرة النبوية » والبيهقى فى « دلائل النبوة» وابن سيد الناس فى « عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير »

ولقد لفت نظرنا بشكل خاص رواية الحافظ الفتح بن سيد الناس من حيث صحة الإسناد وثقة الرواة الذين ضمتهم السلسلة عن طريقين : الطريق الأول بداية من الشيخة أمة الحق شامية ابنة الإمام الحافظ أبى على الحسن بن محمد البكرى ، وانتهاء بمجالد عن الشعبى عن عبدالله بن عباس (١).

والطريق الثانى بداية من شيخه أبى الفتح يوسف بن يعقوب الشيبانى وانتهاء بعبد الله بن عباس (٢).

أما وقد اطمأن القلب إلى صحة الخبر ، فإننا نجد أنفسنا بين روايتين لا تختلفان إلا من حيث بعض التقديم وبعض التأخير ، هما رواية الحافظ مجد الدين أبى السعادات ابن الأثير المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ورواية الحافظ الفتح بن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ هـ، وإن كلا من الرجلين حافظ محدث ثقة ، ولكننا آثرنا إيراد رواية ابن الأثير لأنه أسبق زمنا ، ولأنه صاحب مشاركة فى التأليف الأدبى ، فضلا عن كتبه فى علوم الحديث ، فمن ذلك كتاب البديع ، وصناعة الكتاب ، والمختار فى مناقب الأخيار ، وديوان رسائل ، ومنال الطالب فى شرح طوال الغرائب (٣)، وهو الكتاب الذى بين أيدينا ، والذى بذل فيه محققه عناء كبيرا وجهدا مشكورا . يقول الخبر :

لمّا قدم وفدُ عبد القيس على رسول الله ﷺ ، قال لهم : أفيكم مَن يعرفُ قُسَّ بن ساعدةَ الإيادىَّ ؟ قالوا : كلُّنا نعرِفُه يا رسول الله . قال : فما فَعَل ؟ قالوا : هَلَك . قال: لستُ أنساه بسُوق عُكاظ فى الشهر الحرام ، واقفٌ على جملٍ أحمرَ وهو يُنادِى ويقول: يا أيها الناسُ اجتمعوا واستمعوا . وإذا سمعتم فَعُوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا ، وإذا انتفعتم فقولوا ، وإذا قُلْتُم فاصدُقُوا ، مَن عاشَ ماتَ ، ومَن مات فاتَ ، وكلُّ ما

(١) عيون الأثر ١ / ٦٨ .

(٢) المصدر السابق ١ / ٦٩ .

(٣) تحقيق الدكتور محمود محمد الطناحى ، مركز إحياء التراث بجامعة أم القرى بمكة المكرمة .

هو آتٍ آت ، مَطَرٌ ونَبات ، وأحياءٌ وأموات ، وأرزاقٌ وأقوات ، وجَمِيعٌ وأشتات ، وآياتٌ بعد آيات ، إنَّ فى السماءِ لَخَبراً ، وإن فى الأرض لَعِبَراً ، يَحارُ فيها البَصَرُ ، مِهادٌ موضوع ، وسَقْفٌ مرفوع ، ونُجومٌ تَمُور ، وبِحارٌ لا تغُور ، ومَنايا دَوَانٍ ، ودَهْرٌ خَوَّانٌ ، كحَذْوِ النِّسْطاس ، ووزن القُسْطاس . أقْسَم قُس قَسَماً حَقًّا ، لا كاذِباً فيه ولا آثِما : إن لله دِيناً هو أرْضَى له من الدِّين الذى أنتم عليه .

ثم قال : مالى أرى الناسَ يذهبونَ فلا يَرْجعون ! أرَضُوا فأقامُوا ، أم تُرِكُوا فنامُوا ؟

ثم التفتَ رسولُ الله ﷺ إلى أصحابه ، فقال : أيُّكم يَرْوِى لنا شعرَه ؟ فقال أبو بكر: أنا شاهِدٌ له فى ذلك اليوم حيث يقول :

فـى الـذاهبينَ الأوَّلـيـنَ	مِن القُرُون لنـا بَصَائِـــرْ
لمـــا رأَيْتُ مـــوارِداً	للموتِ ليس لهـا مَصَـــادِرْ
ورأيتُ قَومـى نحوهـا	يَمْضى الأكابِرُ والأصاغِـرْ
لا يَرْجِعُ الماضِـى ولا	يَبْقَـى مــن الباقِينَ غابِـرْ (*)
أيْقَنْتُ أنِّى لامُحَــــا	لَـةَ حيثُ صار القومُ صائِـرْ

قال : فقام إلى رسول الله ﷺ شيخ من عبدِ القَيْس ، طويلُ القامةِ عظيم الهامةِ ، ضَخْمُ الدَّسِيعةِ ، جَهْوَرِيُّ الصَّوت ، فقال : فِداكَ أبِى وأمِّى يا رسول الله ، وأنا فقد رأيتُ من قُس بنْ ساعدة عَجَباً .

فقال له رسول الله : وما الذى رأيتَ منه يا أخا عبدِ القَيْس ؟

فقال : خرجتُ فى جاهِلِيَّتى ، أريغُ بَعِيراً شرَدَ منِّى ، أقْفُو أثَرَه فى تَنائِف حِقافٍ ، ذات ضَغابِيسَ ، وعَرَصات جَثْجاثٍ ، بين صدُور جِرْعانٍ ، وغَمِير حَوْذَانٍ ، ومَهْمَهِ ظِلْمانٍ ، ورَضِيع أيْهُقانٍ ، فبينا أنا فى تلك الفَلَوات أجُوبُ بسبسبها ـ وفى رواية :

(*) البيت فى عيون الأثر هكذا :

لا يرجع الماضى إلىّ ولا من الباقين غابر

سَبْسبَها ـ وأرمُقُ فَدْفَدَها . إذ أنا بهضبةٍ فى تَسوَائِها أراكُ كَبَاثٍ ، مخضوضلةٌ بأغصَانها كأنَّ بريرها حَبُّ فُلْفُلٍ ، من بَواسِقِ أَقحُوانٍ ، وإذا أنا بِعَينٍ خرَّارةٍ ، ورَوْضَةٍ مُدْهامَّةٍ ، وشجرةٍ عاديَّة ، وإذا قُسُّ بنُ ساعِدةَ جالِس فى أصل تلك الشجرة ، وبيده قضِيبٌ ، فدَنَوتُ منه ، فقلت : انْعَمْ صَباحاً ، فقال : وأنت فَنعِمَ صَباحُك . .

قال : وإذا قَبْران بينَهما مسجدٌ ، فقلت : ما هذان القَبْران ؟ فقال : هذان قَبْرا أَخَوَيْن كانا لى ، يعبدان الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فى هذا الموضع ، فأنا مقيمٌ بين قبريهما . أعبُدُ الله تعالى حتى ألحقَ بهما ، ثم أقبل على القبرين يبكى ، ويقول :

خَليلَيَّ هُبَّا طـال مـا قـــد رَقَدْتُمـــا ... أجِدَّكُمـــا ما تَقْضِيـانِ كَراكُما (*)

أرى النومَ بينَ العَظْمِ والجلْدِ منكـــما ... كأَن الذى يَسقِى العُقارَ سَقاكُما

ألـم تعلَما أنـى بِسمْعـــانَ مُفْــرَدٌ ... ومالىَ فيه منْ حبيبٍ سواكمـــا

مُقيـمٌ علـى قبريكما لستُ بارحـاً ... أذُوبُ الليالى أو يجيبَ صَـداكُما

وأبكيكُمـا طـُولَ الحيـاةِ ومـا الذى ... يردُّ على ذى لـوعةٍ إن بكـاكمـا

كأنكمـا والمـوتُ أقـربُ غـايــــةٍ ... برُوحى فى قبريكُما قد أتاكمـــا

فلو جُعِلت نَفْس لنَفْس فداءهـــا ... لجُدْتُ بنفسى أن تكونَ فِداكُمـا

فقال رسولُ الله ﷺ : « **يرحمُ الله قُسّاً ، أما إنه سيُبْعَثُ يومَ القيامة أمَّةً وحْدَه** » .

يقول ابن الأثير : وفى رواية أخرى : قدم الجارُودُ بن عبد الله فى وفدِ عبدِ القيس ، على رسول الله ﷺ ، وكان سيِّداً فى قومه ، مُطاعاً فى عشيرته ، فى كُلِّ كمِىٍّ صِنْدِيد ، قد دَوَّمُوا العمائمَ ، وتَرَدوا بالصَّماصِم ، يَجُرُّون أسيافَهم ، ويَسْحَبون أذيالَهم ، كأنهم

(*) خالج بعض الدراسين شك فى نسبة هذه الأبيات لقسّ ، ونسبوها إلى عيسى بن قدامة الأسدى ، وبمراجعتنا للمصدر الذى ذكر فى هذا الشأن وجدنا أن عيسى بن قدامة كان ينشدها على قبرين لصديقين له ، كان ينشد الأبيات وهو يشرب خمرا ، ولم يذكر المصدر أنه صاحب الشعر وقائله ، وإنما ذكر أنه كان يترنم به ، كذلك أورد ياقوت قصيدة قريبة فى صوغها إلى قصيدة قسّ ونسبها إلى نصر بن غالب يرثى صديقين له ، وليس فى ذلك بأس ، فربما تأثر نصر بقصيدة قسّ فرسم على منوالها (يراجع الأغانى ١٤ / ٤٢ ، ٤٣ طبعة بولاق ومعجم البلدان مادة رواند) .

أسْدُ غِيل ، يَقْدُمُها ذو لَبُؤةٍ مِهُولٍ ، فلما دخلوا المسجدَ ، دَلَف الجارُودُ ، وحسر لِثَامَهُ، وأحسنَ سلامَه ، ثم قال :

يـا نبيَّ الهُــدَى أَتَتْكَ رِجَــالٌ   قَطَعَتْ مَهْمَهـاً وآلاً فــآلا

وطَوَتْ نَحْوَكَ الصَّحاصِحَ طُـراً   لاتَخالُ الكَلالَ فيك كَـلالا

كُــلَّ يَهْماءَ يَقْصرُ الطَّرْفُ عنها   أرْقَلَتْها قِلاصُنا إرْقــالا

وطَوتْها الجيــادُ تَجْمَعُ فيهــا   بكُمـاةٍ كـأنْجُمٍ تتــلالا

تَبْتغى دَفْعَ بــأسٍ يــومٍ عَبوسٍ   أوْجَلَ القَلْبَ ذِكْره ثُمَّ هــالا

فقرَّبَه رسولُ الله ، وأدناه ، وقال : « يا جارُودُ ، لقد تأخَّر بك وبقومك الموعِدُ ، وطال بكم الأمَدُ » .

فقال : والله لقد أخطأ من أخطأكَ قَصدُه ، وعَدِم رُشْدَه ، وتلك ـ وايمُ الله ـ أكبرُ خَيْبة وأعظم حَوبةٍ، والرائدُ لا يَكْذِبُ أهلَه ، ولا يغُشُّ نفسَه ، لقد جئتَ بالحقّ ، ونطقتَ بالصِّدق ، ولقد وجدتُ وصفَك فى الإنجيل ، ولقد بَشَّر بك ابنُ البَتُول ، ولا أثَرَ بعد عَين ، ولاشكَّ بعد يقين ، مُدَّ يَدك فأنا أشهدُ أن لا إله إلاَّ الله ، وأنَّك رسولُ الله .

فآمن الجارُودُ ، وآمَن مِن قومه كلُّ سيِّدٍ .

ثم قال : يا جارُودُ ، هل فى جماعةِ عبدِ القيس مَن يَعرفُ لنا قُسّاً ؟

فقال : كلُّنا يعرفه ، وأنا مِن بين قومى كنت أقْفُو أثرَه ، وأطلُبُ خبَره ، كان قُسُّ سِبْطاً من أسْباطِ العرب ، صحيح النَّسب ، فصيحاً ذا خُطَبٍ ، عُمِّر خَمسَمِائَةِ سنة ، أو ستمائة ، يتَقَفَّرُ القِفار ، لاتُكِنُّه دار ، ولا يُقِرُّه قَرار . يتَحَسَّى فى تَقَفُّره بَيْضَ النَّعام ، ويأنس بالوَحْش والهَوامّ . وهو أوَّلُ مَن تألَّه من العرب ، وأعبَدُ مَن تَعبَّد فى الحِقَب . ثم أطال فى وصفه نَثْراً ونَظْما .

فقا النبى ﷺ : « على رِسْلِكَ يا جارُودُ ، فلستُ أنساه بسُوق عُكاظ على جملٍ له

أَوْرَقَ ، وهو يتكلَّم بكلامٍ مُونِقٍ ، ماأظُنُّ أنِّى أحفظه ، فهل فيكم يا معشر المُهاجِرين والأنصار من يحفظُ لنا منه شيئا ؟ » .

فوثَبَ أبو بكر ، وقال : أنا أحْفظُه ، وكنت حاضراً ذلك اليومَ حينَ خَطَب ، أيُّها الناسُ اسمَعُوا وعُوا . وذكر نحْوَ ماتقدَّم . وفيه بعد قوله : « وإنَّ فى الأرض لَعِبَراً » : ليلٌ داجٍ وسماءٌ ذات أبراجٍ ، وأرضٌ ذاتُ رِتاج ، وبحارٌ ذاتُ أمواج . وذكر الحديث إلى آخر الأبيات الرائية .

ثم قال : وقام رجلٌ من الأنصار ، كأنَّه قِطعة جَبَل ، ذو هامةٍ عظيمة وقامةٍ جَسيمة ، قد دَوَّم عِمامتَه ، وأرخَى ذُؤابَته ، مُنِيفٌ أنُوفٌ أشدَقُ أجَشُّ الصوت ، فقال : لقد رأيتُ من قُسٍّ عَجَباً ، وشهدتُ منه مُرْعِباً ، خرجتُ فى الجاهلية أطلبُ بعيراً لى شرَدَ منّى فى تَنائِف حقائف ، ذات دَعادِعَ وزَعازِعَ ، ليس بها للركْب مَقِيلٌ ، ولا لغير الجِنّ سبيل ، فإذا أنا بَموئل مَهُولٍ ، فى طَوْدٍ عظيم ، ليس به إلا البُومُ ، إذْ ركبَنى اللَّيل ، فوَلَجْتُه مذعوراً ، لا آمنُ فيه حَتْفى ، ولا أركَنُ فيه إلى غير سيفى ، فبِتُّ بليلٍ طويل ، كأنه بليلٍ مَوصُول ، أرْقُب الكوكبَ ، وأرْمُق الغَيْهبَ ، حتى إذا اللَّيلُ عَسعَس ، وكاد الصبح أن يتنفَّس ، ولاحَ الصَّبَاح ، واتَّسع الإيضاح ، فتركتُ المَوْرَ ، وأخذتُ فى الجَبل ، فإذا أنا بالفَنِيق يُشَقْشِق النُّوق ، فملكت خِطامَه ، وعلوتُ سنامه ، فمَرِح طاعة ، وهزَزْتُه ساعةً ، حتى إذا لَغِبَ ، وذَلَّ منه ما صَعُب ، بَرَكَ فى رَوضةٍ خَضِرةٍ ، نَضِرةٍ عَطِرة ، ذاتِ حَوْذانٍ وقُرْيانٍ ، وعُنْقُزانٍ وَعبيثران ، وحلىّ وأقاح وجَثْجاثٍ ، وبرَارِىَ وشَقائقَ وبَهار ، كأنما بات الجوُّ بها مَطِيراً ، وباكَرَها المُزْنُ بُكُوراً ، فَخِلالُها شَجَرٌ ، وقَرارُها نَهَرٌ ، فجعل يَرْتَعُ أبّاً ، وأصيدُ ضَبّاً ، حتى إذا أكلتُ وأكَل ، ونَهَلْتُ ونَهَل ، وعَلَلْتُ وعَلَّ ، حلَلْتُ عِقالَه ، وعَلَوتُ جِلالَهُ ، وأوسعتُ مَجالَه ، فَاغْتَنَمَ الحملةَ ، ومَرَّ كالنَّبْلَة ، يَسبِقُ الرِّيح ، ويقطَعُ عَرْضَ الفَسيح ، حتى أشرَفَ بى على وادٍ ، وشجرةٍ من شَجرِ عادٍ ، مُورِقَةٍ مُونِقَة ، قد تَهَدَّلَت أغصانُها ، كأنما بَريرُها حَبُّ فُلْفُلٍ ، فدنوتُ ، فإذا أنا بقُسِّ بن ساعِدة فى ظلِّ شجرة ، بيده قَضِيب من أراك ، وهو يقول :

يا ناعِيَ الموتِ والملحودُ فى جَدَثٍ … عليهمُ من بقايا بَزِّهِـمْ خِـرَقُ

دَعْهـُم فإنَّ لهم يوماً يُصاحُ بهمُ … فهُمْ إذا أُنْبِهُوا من نومِهم فَرِقُوا

حتى يعودُوا لحالٍ غير حالِـهـمُ … خَلْقاً جَديداً كما مِن قَبْلِه خُلِقُوا

منهم عُراةٌ ومنهم فى ثيابهـــمُ … منها الجَديدُ ومنْها المُنْهَجُ الخَلَقُ

ثم ذكر حديثَ القَبْرين والشِّعر ، كما سَبَق ، فقال النبى ﷺ : « **رحم الله قُسّاً ، أرجو أن يبعثَه الله أُمَّةً وحدَه** » .

أخبار قس بن ساعدة وما روى عنه من خطب ومن شعر لم تقتصر روايته على رواة الأخبار والأشعار ، وإنما جرى توثيقها على يد الحفاظ ورواة حديث رسول الله ﷺ على النحو الذى أوردنا فى صدر هذا الحديث عن قس ، وإن أخبار قس تمثل واحدة من البينات التى توضح عناية رسول الله ﷺ بالشعر الراقى الرقيق ، الذى يعالج موضوعات الحكمة وقضايا الأخلاق ، وحقائق الإيمان بالله خالقا للكون مرسلا للأنبياء، باعثا الخلق يوم الحساب والنشور (*).

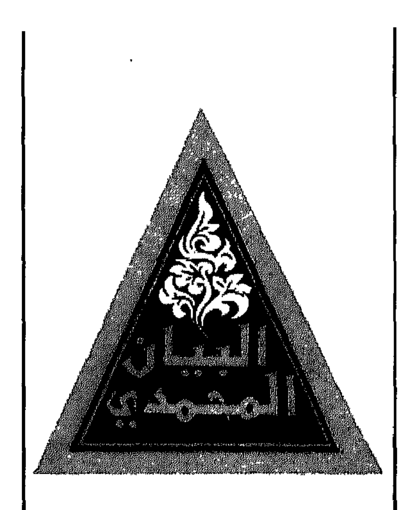
(*) معانى المفردات :

الأشتات : المتفرقون ، مار الشىء : إذا تحرك ، النسطاس : ريش السهم ، الدسيعة : مجتمع الكتفين ، وقيل : العنق ، أريغ : أطلب ، التنائف : جمع تنوفة ، وهى الفلاة البعيدة ، الحقاف : جمع حقف ، وهو الكثيب المجتمع المائل من الرمل . الضغابيس جمع ضغبوس ، وهو نبت يؤكل ـ الجثجاث : نبت أصفر طيب الرائحة . الجرعان ـ بكسر الجيم ـ جمع جرعة ـ بفتح الجيم والراء ـ الرملة التى لا تنبت شيئا ولا تمسك ماء . الغمير : هو المغمور المستور ـ الحوزان : بقلة ذات نورٍ أصفر . الظلمان : جمع ظليم ، وهو ذكر النعام . الأيهقان : الجرجير البرى . الفدفد : المكان الصلب المستوى . الكباث : ثمر الأراك قبل نضجه . والبرير : ثمر الأراك إذا نضج . المخضوضلة : الرطبة الندية . المدهامة : الشديدة الخضرة حتى تميل إلى السواد . أجدَّكما ؟ أى : أبجدّ منكما لا تقضيان نومكما ؟ الحوبة ـ بالفتح والضم ـ : الإثم ، لا أثر بعد عين ، أى : لا يطلب أثر الشىء بعد أن تُرى عينه وذاته . الكن ـ بكسر ـ أى : السترة . يتحسّى فى تقفره بيض النعام : يعنى أنه كان فى سياحته لا يجد طعاما ، فإذا وجد بيض النعام تحسّاه نياً . التأله : التعبد . الأنوف ـ بفتح الهمزة ـ : هو كبير الأنف ، وكنى به عن الشرف والمجد ، الدعادع : الأرض الجرداء من النبات ، جمع دعدع . الزعازع : الشدائد ، جمع زعزع . المقيل : موضع القائلة ، وهى شدة الحر . ركبه الليل : إذا أدركه . عسعس الليل : إذا ولى وأدبر إلا أقله ، وعسعس الليل : إذا أقبل ، وهو من الأضداد ، المور ـ بسكون الواو ـ : الطريق . ومار الشىء : ذهب . اللغوب : الإعياء ـ القريان : جمع قرىّ ـ بوزن صبىّ : هو مجرى الماء فى الروض ـ العنقزان ـ بضم العين والقاف وبفتحهما أيضا ـ : أصل القصب الغض ، العبيثران : نبت طيب الرائحة ، الحلىّ ـ بفتح وكسر ـ الكلأ اليابس . الربع بفتح ثم سكون : الرعى والتردد فى المرعى ، النَّهَل : الشرب والرى ، والعلّ : الشرب بعد الشرب . المنهج ـ بضم الميم ـ: البالى ، يقال : نهج الثوب : إذا بلى .

ومن ناحية أخرى فإن التكريم الذى ناله قس بن ساعدة من لدن رسول الله ﷺ لم ينله بشر آخر من أعلام التاريخ من البشر ؛ لأن رسول الله ﷺ روى بعض كلامه المنثور، وكان يعرف شعره المنظوم ، غير أنه ﷺ اكتفى بذكر النثر ، وطلب إلى الصحابة ترديد الشعر ، استمع إليه بعناية واهتمام ورضى وسرور .

لقد فعل رسول الله ذلك مع ذكرى قس لأنه سمعه تجرى كلمات التوحيد على لسانه، ويتكرر ذكر البعث والنشور فى كلامه ، فى وقت لم يكن من الحنفاء ـ وهم قلة ـ من كان على شاكلة قس فى إيمانه المعلن ، وتوحيده الصريح .





الفصل الخامس

كعب بن زهير

يعلن إسلامه وتوبته ، ويمدح رسول الله
بقصيدته الشهيرة


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كعب بن زهير يمدح الرسول
ويعلن إسلامه

بيت زهير :

زهير بن أبى سلمى هو أحد الشعراء الثلاثة الفحول المتقدمين على سائر شعراء الجاهلية باتفاق ، وإنما الخلاف على تقديم أحدهم على الآخر ، وهم : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة الذبيانى ، وقد أنجب زهير ولدين شاعرين مرموقين ، هما : بجير ، وكعب اللذان هما صلب هذا الفصل .

وقبل أن نمضى قدما فى خبر بجير وكعب وصلة كل منهما برسول الله ﷺ يجمل بنا الإشارة إلى ما انفردت به أسرة زهير من هيمنة على المحيط الشعرى العربى فى الجاهلية والإسلام ، ويترجم هذا الرأى ابن الأعرابى فى قوله : لزهير فى الشعر مالم يكن لغيره ، كان أبوه شاعرا ، وخاله شاعرا ، وأخته سلمى شاعرة ، وأخته الخنساء شاعرة، وابناه كعب وبجير شاعرين ، وابن ابنه عقبة الملقب بالمضرّب بن كعب شاعرا[1] وللمضرب ابن اسمه العوام كان شاعرا [2].

هكذا تضم الأسرة خمسة شعراء فى نسق واحد هم : العوام بن عقبة بن كعب بن زهير بن أبى سلمى[3] ومن ثم فقد قيل : إن الشعر لم يتصل فى ولد أحد من الفحول ما اتصل فى ولد زهير .

وقد كان زهير يتأله ويتعفف فى شعره ، وإن بعض أبياته تدل على إيمانه بالبعث ، وذلك فى قوله :

---

(١) خزانة الأدب للبغدادى ٢ / ٣٣٢ ، ٣٣٣ .
(٢) خزانة الأدب للبغدادى ٩ / ١٥٣ .
(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص : ١٤٣ .

يُؤَخَّـرْ فَيُودَعْ فـى كتابٍ فَيُدَّخَرْ

ليومِ الحسابِ أو يُعَجَّلْ فَيُنْقَـم

حتى ليظن أن زهيرا لو أدرك مبعث رسول الله لما تأخر فى الاستجَابة لداعى الإيمان ، ولكنه مات قبل المبعث بسنة واحدة .

كعب يوبخ أخاه على إسلامه :

أما كعب وبجير ابنا زهير فقد أسلما ، أسلم بجير مبكرا ، وكان مقربا من الرسول ﷺ وحضر فتح مكة فى صحبة رسول الله ، وأما كعب فقد تأخر إسلامه ، بل إنه لم يرض عن إسلام أخيه ، وبعث إليه بأبيات يوبخه فيها على إسلامه ، ويعرض بالرسالة والرسول ﷺ قال فيها :

ألا أبْلِغا عَـنى بُجَـيْراً رِسـالـةً ... فهل لَكَ فيما قلتُ وَيْحكَ هَلْ لكـا ؟ [١]

فبَيِّنْ لنا إنْ كنتَ لستَ بفـاعِـلٍ ... عَلـى أىِّ شـىء غيـر ذلك دَلَّكـا ؟[٢]

علـى خُلُقٍ لم أُلْفِ يَوْما أبا لَـهُ ... عَلَيْـهِ ومـا تُلْفِـى عَلَيْـه أبا لَكـا

فإن أنتَ لم تفعلْ فلستُ بآسف ... ولا قـائـل إمّـا عَثَرتَ : لَعـاً لَكـا [٣]

سَقاكَ بِهـا المَأْمُـونُ كأسًا رَوِيَّـةً ... فـأنْهَلَكَ المـأمـونُ منهـا وعَلَّكـا [٤]

وقد أورد ابن هشام رواية أخرى للأبيات باختلاف قليل ، ولكنها لا تبعد عن المعنى الذى قصد كعب إليه [٥].

---

(١) أبلغا : خطاب لاثنين ، والمراد الواحد ، أو خطاب لواحد مؤكد بنون توكيد خفيفة ، قلبت ألفا فى الوصل على نية الوقف .

(٢) فبين لنا : أى اذكر لنا مرادك من بقائك على دينك .

(٣) لعا لك : كلمة تقال للعاثر ، وهى دعاء له بالإقالة من عثرته .

(٤) روية (فعيلة بمعنى مفعلة ، بضم الميم وكسر العين) أى : مروية . والنهل : الشرب الأول ، والعلل : الشرب الثانى . والمأمون : يعنى النبى ﷺ كانت قريش تسميه به وبالأمين قبل النبوة .

(٥) تراجع السيرة ٢ / ٥٠٢ .

وكان بجير من عمق الإيمان . بحيث كره أن يكتم الأبيات عن رسول الله ﷺ فأنشده إياها ، فلما سمع رسول الله قول كعب : « سقاك بها المأمون » قال : « **صدق وإنه لكذوب . أنا المأمون** » ولما سمع « على خلق لم تلف أما ولا أبا عليه » ـ وهى من الرواية الثانية للأبيات ـ قال : « **أجل ، لم يلف عليه أباه ولا أمه** » وقد قال رسول الله ﷺ ذلك تعبيرا عن غضبه واستيائه .

بجير يحضُّ كعبا على الإسلام :

هنالك تحركت مشاعر الأخوة فى قلب بجير وقد خاف على أخيه من الكفر والقصاص ، فلما قدم رسول الله ﷺ منصرفه من الطائف كتب بجير إلى أخيه كعب يخبره بسوء العاقبة التى نالت كل من هجا رسول الله أو آذاه ، وأن من بقى من شعراء قريش كابن الزبعرى وهبيرة بن أبى وهب قد هربوا كل مهرب ، وقال بجير لأخيه : فإن كانت لك فى نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائبا ، وإن لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض ، أى : إلى محل ينجيك منه ، وألحق بجير هذه الأبيات برسالته :

مَنْ مبلغٌ كعباً فهل لكَ فى التى
تلومُ عليها باطلاً وهى أَحْزَمُ

إلى اللهِ ـ لا الْعُزَّى ولا اللّاتِ ـ وَحْدَهُ
فتنجُو إذا كان النجاءُ وَتَسْلَمُ

لَدَى يومٍ لا ينجو وليس بِمُفْلِتٍ
من الناسِ إلاَّ طاهرُ القلبِ مُسْلِمُ

فَدِينُ زُهيرٍ وهو لا شَىْءَ دِينُهُ
ودينُ أَبِى سُلْمَى عَلَىَّ مُحَرَّمُ

يروى ابن هشام وابن سيد الناس خبر كعب بعد ذلك قائلين :(١)

---

(١) السيرة ٢ / ٥٠٢ وعيون الأثر ٢ / ٢٠٩ .

فلما بلغ كعباً الكتاب ، ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه ، وأرجف به من كان فى حاضره ـ أى : فى الحى الذى يقيم فيه ـ من عدوه ، فقالوا : هو مقتول ، فلما لم يجد من شىء بُدًّا قال قصيدته التى يمدح فيها رسول الله ﷺ ويذكر خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه ، ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح ، فصلى مع رسول الله ﷺ ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ فقال : هذا رسول الله ﷺ فقم إليه واستأمنه ، فقام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه ، فوضع يده فى يده ، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه ، فقال : يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم . قال : أنا يا رسول الله كعب بن زهير .

كعب يسلم وينشد قصيدته :

وهنا وثب عليه رجل من الأنصار قائلاً : يا رسول الله دعنى وعدو الله أضرب عنقه ، قال رسول الله ﷺ : دعه عنك فإنه قد جاء تائباً نازعا ، فغضب كعبٌ على هذا الحى من الأنصار لما صنع به صاحبهم ، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير ، فقال فى قصيدته (*) التى قال حين قدم على رسول الله ﷺ :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول (١)

وما سُعادُ غَداةَ البَيْنِ إذْ رَحَلوا ... إلا أغَنُّ غضيضُ الطَّرْف مَكْحول (٢)

هَيْفاءُ مُقْبِلَةً عَجْزاءُ مُدْبِرَةً ... لا يُشتكَى قِصَرٌ منها ولا طُول (٣)

(*) القصيدة جاءت كاملة فى ابن هشام صفحة ٥٠٤ ـ ٥١٣ .

(١) بانت : يعنى فارقت . متبول : يعنى أسقمه الحب ، لم يفد : أى لم يخلص من الأسر . مكبول : يعنى مقيد .

(٢) الأغن (هنا) : الظبى الصغير الذى فى صوته غنة ، وهى صوت يخرج من الخياشيم ، وغضيض الطرف : فاتره . ومكحول : من الكحل وهو سواد يعلو جفون العين من غير اكتحال . شبه محبوبته وقت الفراق بالظبى الموصوف بغنة الصوت ، وغض الطرف ، والكحل ، وهى من صفات الجمال .

(٣) هيفاء : صفة مشبهة من الهيف (بالتحريك) وهو ضمور ودقة الخاصرة ، ومقبلة : حال . وعجزاء : صفة أيضا، أى : كبيرة العجز ، وهو الردف . ولا يشتكى قصر : أى لا يشتكى الرائى عند رؤيتها قصرا فيها . يريد أن =

تَجْلـو عـوارِضَ ذى ظَلْـمٍ إذا ابتسمتْ   كـأنَّـه مُنْهَـلٌ بـالـرَّاحِ مَعْلـول (١)

شُجَّتْ بـذِى شَبَـمٍ مِـن مـاءِ مَحْنِيَـةٍ   صَافٍ بأبطحَ أضْحَى وَهْوَ مَشْمُـول (٢)

تَنْفى الـرّيـاحُ القَـذَى عنـهُ وأفْرَطَـهُ   مِـن صَوْبِ غـاديـةٍ بيضٌ يَعـالِيلُ (٣)

فَيـالَـهـا خُلَّـةً لـو أنهـا صَـدَقَتْ   بوَعْـدِها أوْ لَـوَ انَّ النُصحَ مَقْبـول (٤)

لكنهـا خُلَّـةٌ قَـدْ سِيـطَ من دَمِهـا   فَجْـعٌ ووَلْـعٌ وَإخْـلافٌ وتَبْـديل (٥)

فما تَـدومُ(٦) علـى حـالٍ تكـونُ بهـا   كمـا تَلَـوَّنُ فـى أثْـوابِها الغُـول (٧)

=هذه المحبوبة يحسن منظرها فى كل حال ، فإذا أقبلت فهى هيفاء ، وإذا أدبرت فهى عجزاء ، وهى متوسطة بين الطول والقصر .

(١) تجلو : تصقل وتكشف ، والعوارض : جمع عارض أو عارضة ، وهى الأسنان كلها ، أو الضواحك خاصة ، أو هى من الأنياب . والظلم (بفتح الظاء وسكون اللام) : ماء الأسنان وبريقها ، أو هو رقتها وبياضها . والمنهل (بزنة اسم المفعول) : المسقى ، من أنهله ، إذا سقاه النهل (بفتحتين) وهو الشرب الأول . وبالراح : متعلق بمنهل . والراح : الخمر . ومعلول : من العلل (بالفتح) . وهو الشرب الثانى . يريد أن سعاد إذا ابتسمت كشفت عن أسنان ذات بياض ورقة ، وكأن ثغرها لطيب رائحته قد سقى الراح مرة بعد مرة .

(٢) شجت : مزجت حتى انكسرت سورتها ، وهو مجاز . لأن الأصل فى الشج الكسر . وذو شبم : ماء شديد البرد . والمحنية (بفتح فسكون فكسر) : منعطف الوادى ، وخصه لأن ماءه أصفى وأبرد . والأبطح : المسيل الواسع الذى فيه دقاق الحصى ، وماء الأباطح عندهم معروف بصفائه . وأضحى : أخذ فى وقت الضحى قبل أن يشتد حر الشمس . والمشمول : الذى ضربته ريح شمال حتى برد ، وهى أشد تبريدا للماء من غيرها .

(٣) القذى : ما يقع فى الماء من تبن أو عود أو غيره ، مما يشوبه ويكدره . وأفرطه : سبق إليه وملأه . والصوب : المطر . والغادية : السحابة تمطر غدوة ، ويروى « سارية » وهى السحابة تأتى ليلا . واليعاليل : الحباب الذى يعلو وجه الماء . وقيل المراد بالبيض اليعاليل : الجبال الشديدة البياض ينحدر عليها ماء المطر ، ثم يسيل إلى الأباطح . يريد أن الرياح تزيل القذى عن ذلك الماء الذى مزج به الراح ، حتى لم يبق فيه ما يكدر ، وأن ذلك الأبطح ملأته الفقاقيع البيض ، التى نشأت من مطر السحابة الغادية .

(٤) الخلة (بالضم) : الصديقة . يوصف به المذكر والمؤنث والمفرد وغيره ، يريد أنها صديقة كريمة ، ولو أنها صدقت فى الوعد ، وقبلت النصح ، لكانت على أتم الخلال ، وأكمل الأحوال .

(٥) سيط : أى خلط بلحمها ودمها هذه الصفات المذكورة فى البيت . ويروى : شيط (بالشين المعجمة) وهو بمعناه والفجع : الإصابة بالمكروه كالهجر ونحوه . والولع والولعان : الكذب . والإخلاف : خلف الوعد . يريد أن محبوبته متصفة بهذه الأخلاق ، حتى صارت كأنها مختلطة بدمها .

(٦) فى رواية : تقوم .

(٧) الغول : ساحرة الجن ، فى زعمهم . يزعمون أن الغول ترى فى الفلاة بألوان شتى ، فتأخذ جانبا عن

وما [1] تَمَسَّك [2] بالعهد الذى زعمت ... إلا كما يُمسك الماءَ الغرابيلُ

فلا يغرَّنْكَ ما مَنَّتْ وَما وَعَدَت ... إنّ الأمانىَّ والأحلامَ تَضْليل [3]

كانتْ مواعيدُ عُرقوب لَهَا مَثَلا ... وما مواعيدُها إلا الأباطِيلُ [4]

أرْجو وآمُلُ أنْ تَدْنو مودَّتُها ... وما إخال لَدَيْنَا مِنْكِ تَنْوِيل [5]

أمْسَتْ سُعادُ بأرض لا يُبلِّغها ... إلا العِتاقُ النَّجِيبات المَراسيل [6]

ولن يُبَلِّغها إلا عُذَافِرَةٌ ... لَهَا على الأينِ إرْقالٌ وتَبْغيل [7]

من كلّ نَضَّاخة الذِّفْرى إذا عَرِقت ... عُرْضَتُها طامِسُ الأعْلامِ مَجْهُولُ [8]

=الطريق ، فيتبعها من يراها ، فيضل عن الطريق فيهلك . يريد أن هذه المحبوبة لا تدوم على حال تكون عليها . بل تتغير من حال إلى حال ، فتتلون بألوان شتى وترى فى صور مختلفة ، كما تتلون الغول فى أثوابها بألوان كثيرة .

(١) فى رواية : ولا .

(٢) تمسك ، يروى بفتح التاء ، على أنه مضارع حذفت إحدى تاءيه ؛ أو بضم التاء وفتح الميم وكسرالسين المشددة . «ولاتُمَسِّكُ » . يشبه تمسكها بالعهد بإمساك الغرابيل للماء ، مبالغة فى النقض والنكث وعدم الوفاء بالعهد ، لأن الماء بمجرد وضعه فى الغربال يسقط منه .

(٣) ما منت : ما منتك إياه ، وحملتك على تمنيه ، أو ما كذبت عليك فيه . يقول : لا تغتر بما حملتك على تمنيه منها ، أو بما كذبت عليك فيه من الوصل ، وما وعدتك به من ترك الهجر ، فإن الأمانى التى يتمناها الإنسان ، والأحلام التى يراها فى منامه سبب فى الضلال ، وضياع الزمان .

(٤) كانت : صارت . وعرقوب (بضم العين وإسكان الراء وضم القاف) : رجل اشتهر عند العرب بإخلاف الوعد ، فضرب به المثل فى الخلف . والأباطيل : جمع باطل ، على غير قياس .

(٥) التنويل : العطاء ، والمراد به (هنا) : الوصل . يريد أنى مع اتصافها بالجفاء وإخلاف الوعد ، ، وعدم الوفاء بالعهد ، لا أقطع الرجاء من مودتها ، ولا أيأس من وصلها ، بل أرجو وآمل أن تقرب مودتها .

(٦) العتاق : الكرام ؛ الواحد : عتيق . والنجيبات : جمع نجيبة ، وهى القوية الخفيفة . ويروى « النجيات » أى السريعات ، والمراسيل : جمع مرسال (بالكسر) وهى السريعة . يريد أن محبوبته صارت بأرض بعيدة لا يوصله إليها إلا الإبل الكرام الأصول ، القوية السريعة .

(٧) العذافرة : الناقة الصلبة العظيمة . والأين : الإعياء والتعب . والإرقال ، والتبغيل : ضربان من السير السريع . يقول : لا يبلغ تلك الأرض إلا ناقة صلبة عظيمة قوية على السير .

(٨) النضاخة : الكثيرة رشح العرق . والذفرى : النقرة التى خلف أذن الناقة ، وهو أول ما يعرق منها . وعرضتها : همتها . وطامس الأعلام : الدارس المتغير من العلامات التى تكون فى الطريق ليهتدى بها . يريد أن هذه الناقة=

تـرْمِــى الغُيُــوبَ بعَيْنَــىْ مُـفْــرد لَهَقٍ ‏ ‏ ‏ إذا تَوَقَّــدَتِ الحُــزَّانُ والمِيــل (١)

ضَخْـمٌ مُقَلَّـدها فَعْـمٌ مقيَّدُهـا ‏ ‏ ‏ فى خَلْقِها عـن بنـاتِ الفَحلِ تَفضيل (٢)

غَلْبـاءُ وَجْنـاء عُلْكُـومٌ مُـذكَّـرة ‏ ‏ ‏ فى دَفِّهـا سَعَـةٌ قُـدَّامُهـا مِيـل (٣)

وجِـلْدُهـا مِـن أطُـوم مـا يـؤيِّسه ‏ ‏ ‏ طلْح بضَاحِيَـةَ المَتْنَيْنِ مَهْـزُولُ (٤)

حَـرْفٌ أخـُوهـا أبُوهـا مِـنْ مُهجَّنـة ‏ ‏ ‏ وعمُّهـا خالُهـا قَـوْدَاءُ شِمْليـل (٥)

=كثيرة العرق ، وذلك لا يكون إلا مع اشتداد فى السير ، وجهد نفسها فيه ، وأنها عارفة الطريق الدارس الأعلام ، المجهول المسالك ، لكثرة أسفارها وسلوكها المفازات .

ويروى الشطر الثانى من هذا البيت :

« ولاحها طامس . . . . » . ‏ ‏ ولاحها : غيّرها . ولعله الأدق .

(١) الغيوب : آثار الطريق التى غابت معالمها عن العيون . والمفرد : الثور الوحشى الذى تفرد فى مكان ، وشبه عينيها بعينيه لأنه ألف البرارى وخبرها ، ولكونه من أحد الوحوش نظرا . واللهق (بفتح الهاء وكسرها) الأبيض . والحزان (بضم الحاء وكسر وتشديد الزاى) : الأمكنة الغليظة الصلبة تكثر فيها الحصباء ، وهى جمع حزيز . والميل (بالكسر) : جمع (ميلاء) بالفتح ، وهى العقدة الضخمة من الرمل .

(٢) المقلد : موضع القلادة فى العنق . وفعم : ممتلىء . ويروى : « عبل » وهوبمعناه . والمقيد : موضع القيد ، يريد قوائمها . وبنات الفحل : الإناث من الإبل المنسوبة للفحل المعد للضراب . يصف الناقة بضخامة العنق ، وذلك مؤذن بضخامة جميع هامتها ، وبعظم القوائم ، وذلك دليل على قوتها فى السير ، وطاقتها على ثقل الحمل . وبتفضيلها على غيرها فى عظم الخلقة ، وحسن التكوين .

(٣) غلباء : غليظة العنق . ووجناء : عظيمة الوجنتين ، أو هى من الوجين ، وهو ما صلب من الأرض . وعلكوم : شديدة . ومذكرة : عظيمة الخلقة تشبه الذكران من الأباعر . وفى دفها سعة : أى هى واسعة الجنبين ، وهو كناية عن عظم الخلقة ، وقدامها ميل : كناية عن طول عنقها ، أو سعة خطوها .

(٤) الأطوم ـ بفتح الهمزة ـ سلحفاة بحرية غليظة الجلد ، وقيل : هى الزرافة . ويؤيسه : يذلله ولا يؤثر فيه . والطلح (بالكسر) القراد دويبة معروفة يلزق بالدابة . والضاحية من كل شىء : ناحيته البارزة للشمس . والمتنان : ما يكتنف صلبها عن يمين وشمال من عصب ولحم . وإنما خص ضاحية المتنين ، لأن القراد فى الشمس تقوى همته ، وتكثر حركته . ويشتد امتصاصه للدم . ومهزول : صفة لطلح ، أى قراد مهزول من الجوع . يريد أن جلد هذه الناقة فى غاية النعومة والملاسة ، فلا يؤثر فيه القراد المهزول من الجوع فيما برز للشمس من ناحيتى صلبها عن يمين وشمال .

(٥) الحرف (فى الأصل) : القطعة الخارجة من الجبل ، شبه الناقة بها فى القوة والصلابة . والحرف (أيضا) : الناقة الضامرة . وأخوها أبوها . . . الخ : يريد أنها مداخلة النسب فى الكرم ، لم يدخل فى نسبها غير أقاربها . والمهجنة : الكريمة الأبوين من الإبل ، والقوداء : الطويلة الظهر والعنق . وهى من صفات الإبل التى تمدح بها . والشمليل : الخفيفة السريعة .

يَمْشي القُـــرادُ علَيهـــا ثـم يُــزْلِقــُـهُ مِنْهـــا لَبـــانٌ وَأَقْرابٌ زَهـــاليــــل (١)

عَيْرانــةٌ قُذِفتْ بالنَّحض عـن عُرُضٍ مِرفَقُهـــا عَـنْ بَنـاتِ الـزَّوْرِ مَفْتــولٌ (٢)

كــأنَّمَا فــاتَ عَيْنَيهـــا ومَـذْبحهـــا من خَطْمِهَـــا ومـع اللَّحْيَيْنِ بِـرْطيــل (٣)

تمــر مثـلَ عَسيبِ النَّخْــل ذا خُصــل فـي غـارِزٍ لـم تَخَوَّنْـهُ الأحــالِيــل (٤)

قَنْـــوَاءُ فـي حُـرَّتَيْهـا لِلْبَصيــر بِهـــا عتْــقٌ مُبِينٌ وفـــي الخـــدَّيْن تَسْهيــل (٥)

تَخْـدِي علــى يَسَـراتٍ وَهْـيَ لاحقَـــةٌ ذَوَابــلٍ مَسُّهُـــنّ الأرْضَ تحليــــــلُ (٦)

---

(١) يزلقه : من الإزلاق ، أى يسقطه . ومنها : أى عنها . واللبان (بالفتح) : الصدر ؛ وقيل وسطه . والأقراب (بالفتح) : الخواصر ، والمراد بالجمع هنا المثنى . والزهاليل : الملس ، جمع زهلول . يريد أن هذه الناقة لملاستها لا يثبت القراد عليها .

(٢) العيرانة : الناقة المشبهة عير الوحش فى سرعته ونشاطه وصلابته ، وهذا مما يستحسن فى أوصاف الإبل والنحض: اللحم . وعن : بمعنى من . وعرض (بضمتين أو بضم ، فسكون) : جانب ، والمراد هنا العموم . يريد أنها رميت باللحم من كل جانب من جوانبها . والمرافق : يريد المرفقين . والزور : الصدر، وقيل : وسطه . وبنات الزور : ما يتصل به مما حوله من الأضلاع وغيرها ، يريد أن مرفق تلك الناقة مصروف عما حوالى الصدر من الأضلاع وغيرها فتكون مصونة عن الضغط ، لبعد مرفقها عن أضلاعها ، فلا يصطك بها لخفتها ونشاطها .

(٣) الخطم : الأنف وما حوله . واللحيان : العظمان اللذان تنبت عليهما الأسنان السفلى من الإنسان وغيره . . والبرطيل (بالكسر) : حجر مستطيل . يريد أن وجهها من خطمها ومن اللحيين يشبه الحجر المستطيل ، والمراد المسافة من وجهها إلى عينيها .

(٤) عسيب النخل : جريده الذى لم ينبت عليه الخوص ، فإن نبت عليه سمى سعفا . وذا خصل : يريد ذيلا له لفائف من الشعر . وفى غارز : أى على ضرع . ولم تخونه : لم تنقصه . والأحاليل : مخارج اللبن ، جمع إحليل (بالكسر) . يريد أن هذه الناقة تمر ذنبا مثل جريدة النخل فى الغلظ والطول ، كثير الشعر ، على ضرع لم تنقصه مخارج اللبن ، لكونها لا تحلب ، فيكون ذلك أقوى لها على السير .

(٥) القنواء : المحدودبة الأنف . ويروى : « وجناء » . وقد عد الشاعر هذا من صفات المدح مع أن المنقول عن العرب أن القنا عيب فى الإبل والخيل . والحرتان : الأذنان . والعتق (بالكسر) : الكرم . والمبين : الظاهر . وتسهيل : سهولة ولين : لاخشونة ولا حزونة . يريد أن هذه الناقة محدودبة الأنف ، يظهر للعارف بالإبل الكرام كرم ظاهر فى أذنيها ، لحسنهما وطولهما ؛ ونجابة فى خديها : سهولة وليونة .

(٦) تخدى : تسرع . ويروى « تخذى » بمعجمتين ، أى تسترخى ، وهذا أبلغ فى المدح ، لأنها مع استرخائها فى السير تلحق النوق السوابق ، فكيف لو أسرعت . وفى (أ) : « تهوى » وهى بمعنى الأولى . واليسرات : القوائم الخفاف . و لاحقة : أى والحال أنها لاحقة بالنوق السابقة عليها ، أو بالديار البعيدة عنها . وفى رواية « وهى لاهية » أى : غافلة عن السير ، فهى تسرع فيه من غير اكتراث ومبالاة ، كأن ذلك سجية لها . وقد فسر ابن هشام =

سُمْرِ العُجايات يتركْـنَ الحصَى زِيَمـا لم يَقِهِـنَّ رُءُوسَ الأكْـمِ تَنْعيـلُ (١)

كـأنَّ أوْبَ ذِراعَيهـا وقـد عَـرِقَتْ وقـد تَلفَّـعَ بـالقُورِ العَساقيـلُ (٢)

يَـوْمـا يظلّ بـه الحِرْبـاءُ مُصْطَخِـداً كـأنَّ ضَـاحِيَـهُ بالشَّمسِ مَمْلُـول (٣)

وقـال للقَوْمِ حـادِيهم وقـد جعلت وُرْقُ الجنَادِب يَرْكُضْن الحَصا قِيلـوا (٤)

شَـدَّ النهـارِ ذرَاعـا عَيْطَـلٍ نَصَف قـامت فجـاوَبها نُكْـدٌ مَثـاكِيـلُ (٥)

=«اللاحقة» بالضامرة، فيكون مرجع الضمير (هى) لليسرات . والذوابل : جمع ذابل ، وهو الرمح الصلب اليابس ، شبه قوائمها بها فى الصلابة والشدة . ومسهن : أى مس تلك اليسرات للأرض أو وقعهن عليها . وتحليل : أى قليل لم يبالغ فيه ، يريد أن هذه الناقة سريعة فى السير بقوائمها ، سريعة الرفع عن الأرض ، كأنها لاتمسها إلا تحلة القسم، فهى فى غاية الإسراع فى سيرها .

(١) العجايات : الأعصاب المتصلة بالحافر ؛ وقيل : اللحمة المتصلة بالعصب المنحدر من ركبة البعير إلى الفرسن ، يشبه عصبها أو لحم قوائمها بالرماح السمر لقوته وصلابته . وزيما : متفرقا . والأكم : هى الأراضى المرتفعة . والتنعيل : شـد النعـل على ظفر الدابة ليقيهـا الحجـارة . يريد أن أعصاب قوائم هذه الناقة شديدة كالرماح السمر، ولشدة وطئها الأرض تجعل الحصى متفرقا ، ولصلابة خفافها لاتحتاج إلى تنعيل يقيها الحجارة التى تكون فى رءوس الأكم ، فلا تحفى ولا ترق قدمها .

(٢) الأوب (بالفتح) : سرعة التقلب والرجوع . وعرقت : أى وقت عرقها لا لتعب ولا لإعياء لما تقدم من وصفها بالقوة والصلابة ، بل لشدة الحر . وتلفع : اشتمل والتحف . والقور (بضم القاف) : جمع قارة ، وهى الجبل الصغير ، والعساقيل : السراب . يصف سرعة ذراعى ناقته فى وقت الهاجرة وانتشار السراب فوق صغار الجبال . وسيأتى ذكر المشبه به فى البيت الثالث بعد هذا ، وهو خبر كأن ، وهذا البيت متأخر عن البيتين التابعين له فى (أ) .

(٣) الحرباء (بالكسر) : ضرب من العظاء ، يستقبل الشمس حيثما دارت ، ويتلون بألوان الأمكنة التى يحل فيها ، ومصطخدا : محترقا بحر الشمس ، ويروى : « مصطخما » ، أى منتصبا قائما ، كما يروى « مرتبئا » أى : مرتفعا . وضاحيه : ما برز للشمس منه . ومملول : موضوع فى الملة ، وهى الرماد الحار . يريد أن الجبال الصغار تلفعت بالسراب فى يوم يصير فيه الحرباء محترقا بالشمس ، كأن البارز للشمس فى أوب ذلك اليوم من ذلك الحيوان خبز معمول بالملة .

(٤) الحادى : السائق للإبل . وللورق : جمع أورق أو ورقاء ، وهو الأخضر الذى يضرب إلى السواد . وقيل : الورقة : لون يشبه لون الرماد . والجنادب : جمع جندب (بضم الدال وتفتح) ضرب من الجراد . وقيل : الجراد الصغير ، وإنما يكون هذا الصنف فى القفار الموحشة القوية الحرارة ، البعيدة من الماء . ويركضن الحصى : يحركنه بأرجلهن لقصد النزول ، بسبب الإعياء عن الطيران ، من شدة الحر . وقيلوا : أمر من قال يقيل قيلولة ، وهى الاستراحة فى وقت شدة الحر . والمراد أن هذا اليوم أشد حرا حتى إن الحادى الذى من شأنه أن ينشط الإبل قال للقوم : قيلوا واستريحوا .

(٥) شد النهار : وقت ارتفاعه . وهو مبالغة فى شدة الحر . والعيطل : الطويلة . والنصف : المتوسطة فى السن وذلك حين استكمال قوتها ، وبلوغ أشدها ، فتكون أسرع فى الحركة ، وأمكن فى القوة ، والنكد : جمع نكداء ، وهى التى لا يعيش لها ولد . والمثاكيل : جمع مثكال بالكسر ، وهى الكثيرة الثكل . فى هذا البيت والبيت السابق الذى =

نَـوَّاحـةٌ رِخْـوَة الضَّبْعين ليسَ لهَـا ... لَمَّـا نَعَـى بِكْـرهـا النَّـاعـون مَعْقـولُ (١)

تَفْـرى اللَّبَـانَ بكَفَّيْهـا ومِدْرَعُـها ... مُشَقَّـقٌ عـن تَـراقيهـا رَعَـابيـلُ (٢)

تَسْعَـى الغُـواة جنَـابَيها وقـوْلهُـم ... إنَّك يـا بـنَ أبـى سُلمَـى لَمَقْتُـولُ (٣)

وقـالَ كـلُّ صَديقٍ كُنتُ آملُـهُ ... لا أُلْهِيَنَّكَ إنـى عنـكَ مَشْغُـولُ (٤)

فقُلتُ : خَـلُّوا سـبيلى لا أبا لكُم ... فكُـلُّ مـا قَـدَّر الـرَّحمـنُ مَفْعـُول (٥)

=أوله : «كأن» يشبه سرعة حركة يدى هذه الناقة بسرعة حركة يدى المرأة الطويلة المتوسطة فى السن : فى اللطم على وجهها لشدة حزنها على ولدها ، يجاوبها نسوة لا يعيش أولادهن ، فيشتد فعلها ، ويقوى ترجيع يديها عند النياحة ، لرؤية حزن غيرها ، وشدة لطمهن .

ورواية الشطر الأول من هذا البيت فى بعض الروايات هكذا :

أوْبُ يَدَىْ فاقـدٍ شَمْطاءَ مُعْولَـةٍ

والفاقد : التى فقدت ولدها . والشمطاء : التى خالطها الشيب . والمعولة : الرافعة صوتها بالبكاء .

(١) النواحة : الكثيرة النوح على ميتها . ورخوة الضبعين : مسترخية العضدين . والبكر بالكسر : أول الأولاد ومعقول (هنا) معناه العقل . يريد أن هذه المرأة كثيرة النوح على ميتها ، مسترخية العضدين ، فيداها سريعتان فى الحركة ، ولما أخبرها الناعون بموت أول أولادها لم يبق لها عقل ، فهى لا تُحِسُّ بالإعياء والتعب ، شأن هذه الناقة التى لا تحس بإعياء ولا تعب فى سيرها .

(٢) تفرى : تقطع . واللبان : الصدر . والمدرع : القميص . ورعابيل : قطع متفرقة ، وهو جمع رعبول . يريد أن هذه المرأة تقطع مدرعها بأناملها لذهاب عقلها ، فقميصها مشقوق عن عظام صدرها قطعا كثيرة . يشبه الناقة بهذه المرأة فى أن كلا منهما مسلوب الإدراك ، فلا يحس بما يلاقى من مشقة وشدة .

(٣) الغواة : المفسدون ، جمع غاو . جنابيها : بحواليها ، تثنية جناب (بفتح الجيم) . ومقتول : أى متوعد بالقتل ، لأن النبى ﷺ كان قد أهدر دمه ، وهذا البيت فى بعض الروايات هكذا :

تمشى الغواة بجنبيهـا وقـولهـم . . . . . الخ

(٤) آمله : أؤمل خيره وأترجى إعانته فى الملمات . وألهينك : أشغلنك . (لا) فيها : نافية ، والتوكيد قليل مع النفى . والمعنى : لا أشغلك عما أنت فيه من الخوف والفزع ، بأن أسهله عليك وأسليك ، فاعمل لنفسك ، فإنى لا أغنى عنك شيئا ، وقد يكون الكلام مثبتا ، واللام فيه للقسم ، أى : والله لأجعلنك مشغولا عنى ، فلا تطلب منى نصرة أو معونة . ويروى هذا البيت :

« وقال كل خليل . . . . . الخ »

(٥) خلوا سبيلى : اتركوه . وقوله : لا أبا لكم : ذم لهم ، لكونهم لم يغنوا عنه شيئا ، أو مدح لهم على سبيل التهكم والاستهزاء .

كـل ابنِ أنثى وإن طـالت سلامتُه ... يـَوْمـا علـى آلَـةٍ حَـدبـاء مَحْمـول (١)

نُبِّئْـتُ أنَّ رسـولَ الله أوعَـدنـي ... والعَفْـو عنـد رسـول الله مـأْمُـول (٢)

مَهـْلا هـَداك الذى أعْطـاك نافِلَـة الـقـرآن ... فيهـا مَـواعيظٌ وتَفْصِيـل (٣)

لا تـأخُـذَنِّـى بـأقْوَال الوُشاة وَلـمْ ... أُذنِب ولـو كثرت فـىَّ الأقـاويـل (٤)

لقَـد أقُـومُ مَقـامـا لـو يقُـومُ بـه ... أرَى وأسمـعُ مـا لـو يَسمـعُ الفيـلُ (٥)

لظَـلَّ يَـرْعَـد إلا أنْ يكـون لـه ... مِـنَ الرَّسـول بـإذْنِ الله تَنْـويـلُ (٦)

حتـى وضَعتُ يَمينى مـا أُنازِعُـه ... فـى كفّ ذى نَقِمـاتٍ قِيلُـه القيـلُ (٧)

---

(١) الآلة الحدباء : النعش الذى يحمل عليه الميت . يقول : كل إنسان صائر إلى الموت طالت سلامته أو قصرت ، فلا يشمت بى أحد إذ هلكت .

(٢) نبئت : أخبرت . ويروى : « أنبئت » . وأوعدنى : تهددنى بالقتل . ومأمول : مرجو ومطموع فيه .

(٣) هداك : زادك هدى ، أو هداك الله للصفح والعفو عنى ، فيكون على هذا البيت داعيا لنفسه . والنافلة : الزيادة ، وسمى القرآن نافلة لأنه عطية زائدة على النبوة .

(٤) هذا البيت من تتمة الاستعطاف والتلطف فى القول ، فلا ، وإن كانت ناهية بسحب وضعها ، لكن المراد منها التضرع والتذلل . والمعنى : لا تستبح دمى بسبب أقوال الوشاة الساعين بينى وبينك بالإفساد والكذب والبهتان .

(٥) لقد أقوم : معناه : والله لقد أقوم مقاما ، فهو جواب قسم محذوف . ويروى : « إنى أقوم مقاما » والأولى أبلغ للقسم . والمقام (هنا) : مجلس النبى . والمراد بالقيام فيه حضوره ، والمعنى على المضى ، أى : لقد حضرت مجلسا .

(٦) يرعد : تأخذه الرعدة ، ويصح بناؤه للمفعول . والتنويل : التأمين . والمعنى : لصار الفيل يضطرب ويتحرك من الفزع ، وإنما خصه بذلك لأنه أراد التعظيم والتهويل ، والفيل أعظم الدواب جثة وشأنا . إلا أن يكون له من الرسول بإذن الله تأمين يسكن به روعه ، وتثبت به نفسه . ورواية هذا البيت فى بعض المصادر :

لظل ترعـد من وجـد بوادره ... إن لم يكن من رسول الله تنويل

والوجد : شدة الحزن . والبوادر : اللحم الذى بين العنق والكتف .

وفى بعض المصادر زيد هذا البيت :

ما زلتُ أقْتَطِعُ البَيْدَاءَ مُدَّرِعا ... جُنْحَ الظَّلام وثوْبُ اللَّيلِ مَسْبُولُ

(٧) حتى وضعت : أى فوضعت . وخص اليمين لأن الأشياء الشريفة تفعل باليمين . ولا أنازعه : أى حال كونى طائعا له ، راضيا بحكمه فى ، غير منازع له ولا مخالف . والنقمات (بفتح فكسر) جمع نقمة والمراد بصاحب النقمات : النبى ﷺ لأنه كان ينتقم من الكفار ، فكان شديد السطوة والإغلاظ فيهم . وقيله : قوله . والمراد أن قوله معتد به لكونه نافذا ماضيا . يشير بالبيت إلى حاله مع النبى ﷺ حين قدم عليه وهو فى المسجد ، ووضع يده فى يده يستأمنه

فَلَهْـو أخـوف عنـدى إذْ أكلِّمُـه ... وقيـــلَ إنَّكَ مَنْســوبٌ ومَسْئُــولُ (١)

مـن ضَيْغَم بضَـراء الأرض مُخْدَرُهُ ... فـى بَطْـن عثَّر غِيـــلٌ دونـهُ غيـلُ (٢)

يغْدُو فيُلْحِم ضرغامين عيشُـهما ... لحـمٌ مـن النَّاس مَعفـور خَراديـــل (٣)

إذا يُســاور قِـرنـا لا يَـحـلّ لـهُ ... أن يتـــرُكَ القِــرن إلا وهــو مَفْلُـــولُ (٤)

منــه تَظَـلّ سِباع الجـوّ نـافـرةً ... ولا تَمَشَّـــى بـــواديـــه الأراجيـــــلُ (٥)

ولا يـــزَالُ بـواديه أخـُو ثِقَـةٍ ... مُضَـرَّجُ البـــزّ والـدُّرْسـانِ مـأكـولُ (٦)

إنّ الـرَّسـولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بـه ... مُهَنَّــدٌ مـــن سُيـــوفِ الله مَسلـــولُ (٧)

---

(١) أخوف : أشد إخافة وإرهابا . ومنسوب : أى إلى أمور صدرت منك ، كقولك لأخيك بجير : « سقاك بها المأمون» . . . الخ . ومسئول : أى عن سببها ، أو مسئول عن نسبك ، فكأنه يقول : من قبيلتك التى تجيرك منى ؟ ومن قومك الذين يعصمونك منى ؟ فقد تبرأوا منك ، وتخلوا عنك . ويروى : « لذلك أهيب » و « فذاك أهيب » و«لكان أهيب » و « فلهو أخوف » . ويروى : « أرهب » مكان : « أهيب » .

(٢) ضيغم : أسد . وضراء الأرض : الأرض التى فيها شجر . والمخدر : غابة الأسد . وعثر (بفتح العين وتشديد المثلثة) : اسم مكان مشهور بكثرة السباع . والغيل : الشجر الكثير الملتف . وغيل دونه غيل ، أى : أجمة تقربها أجمة أخرى ، فتكون أسدها أشد توحشا ، وأقوى ضراوة .
يريد أن رسول الله ﷺ أهيب من أسود عثر فى آجامها . وفى رواية « من خادر » . والخادر : الأسد الداخل فى خدره، وهو حينئذ يكون أشد قوة وبأسا .

(٣) يغدو : يخرج فى أول النهار يتطلب صيدا لشبليه . وفى رواية : « يغذو » بالذال : أى يطعم . ويلحم : يطعمهما اللحم . والضرغام : الأسد . ويريد بالضرغامين شبليه . ومعفور : ملقى فى العفر ، وهو التراب ، ووصفه بذلك لكثرته وعدم اكتراثه به لشبعه . وخراديل : قطع صغار . يصف هذا الأسد بكثرة الافتراس ، وعظم الاصطياد .

(٤) يساور : يواثب . والقرن (بكسر القاف) : المقاوم فى الشجاعة . وفى ذكر القرن إشارة إلى أن هذا الأسد لا يساور ضعيفا ولاجبانا ، وإنما يساور مقاومه فى الشجاعة ، ومساويه فى القوة . والمفلول : المكسور المهزوم .

(٥) الجو : اسم موضع ، أو هو ما اتسع من الأودية ، أو ما بين السماء والأرض . ونافرة : بعيدة ، ويروى : « ضامزة » والضامز : الذى يمسك جرته بفيه ولا يجتر . ويروى « ضامرة » أى : جياعا لعدم قدرتها على الاصطياد . والأراجيل : الجماعات من الرجال ، وهو جمع أرجال ، وأرجال : جمع رجل ، ورجل : اسم جمع لراجل ، يصف هذا الأسد بالقوة ، حتى خافته السباع والناس .

(٦) أخو ثقة : الشجاع الواثق بشجاعته . ومضرج : مخضب بالدماء . ويروى : (مطرح) ، أى : مطروح . والبز: السلاح . والدرسان (بضم الدال) : أخلاق الثياب ، الواحد دريس . ومأكول : أى طعام لذلك الأسد . يريد أنه لا يمر بوادى هذا الأسد شجاع إلا أكله وطرح ثيابه التى مزقها ، فلا يولع إلا بالشجعان ، ولا يلتفت لغيرهم .

(٧) يستضاء به : يهتدى به إلى الحق . ويروى : « لسيف » فى مكان « لنور » وقد كانت عادة العرب إذا أرادوا=

فى عُصْبة مِن قُريشٍ قال قائلُهم . ببَطنِ مكّةَ لمّا أسْلَمُوا زُولُوا (١)

زالُوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُف . عند اللّقاء ولا مِيلٌ مَعازِيلُ (٢)

شُمُّ العرانين أبطالٌ لَبُوسُهُمُ . من نَسْجِ داودَ فى الهَيْجا سَرابيلُ (٣)

بِيضٌ سَوابغ قد شُكَّت لها حَلَق . كأنها حَلَقُ القَفْعاءِ مَجْدُولُ (٤)

ليسُوا مَفاريح إن نالت رِماحُهُمُ . قَوْماً وليسُوا مَجازِيعاً إذا نِيلُوا (٥)

يَمْشونَ مشىَ الجِمال الزُّهْر يَعصِمُهُمْ . ضَرْبٌ إذا عَرَّد السُّودُ التَّنابيلُ (٦)

=استدعاء من حولهم من القوم أن يشهروا السيف الصقيل ، فيبرق ، فيظهر لمعانه من بعد فيأتون إليه ، مهتدين بنوره، مؤتمين بهديه . شبه الرسول بذلك . والمهند : السيف المطبوع فى الهند ، وسيوف الهند قديما أحسن السيوف . ومن سيوف الله : أى من سيوف عظمها الله بنيل الظفر والانتقام . والمسلول : المخرج من غمده .

(٦٣) العصبة : الجماعة . ويروى : « فى فتية » جمع فتى ، وهو السخى الكريم . وزولوا : فعل أمر من زال التامة ، أى : تحولوا وانتقلوا من مكة إلى المدينة .

(٦٤) الأنكاس : جمع نكس (بالكسر) وهو الرجل الضعيف . والكشف (بضم فسكون وحرك للشعر) : جمع أكشف، وهو الذى لا ترس معه ، أو هم الشجعان الذين لا ينكشفون فى الحرب ، أى لا ينهزمون . والميل : جمع أميل، وهو الذى لا سيف له ، أو هو الذى لا يحسن الركوب فيميل عن السرج . والمعازيل: الذين لاسلاح معهم، واحدهم معزال (بكسر الميم) .

(٦٥) شم : جمع أشم ، وهو الذى فى قصبة أنفه علو ، مع استواء أعلاه . والعرانين : جمع عرنين ، وهو الأنف . وصفهم بهذا الوصف إما على الحقيقة لأن ارتفاع الأنف من الصفات المحمودة فى خلق الإنسان ، وإما على المجاز ، يريد ارتفاع أقدارهم ، وعلو شأنهم . واللبوس : ما يلبس من السلاح . ونسج داود : أى منسوجه ، وهو الدروع. والهيجا (بالقصر هنا) : الحرب . والسرابيل : جمع سربال ، وهو القميص أو الدرع . ووصفها بأنها من نسج داود دليل على مناعتها .

(٦٦) بيض : مجلوة صافية مصقولة ؛ لأن الحديد إذا استعمل لم يركبه الصدأ . والسوابغ : الطوال السوابل ، ويلزم من طول الدروع قوة لابسيها ، إذ حملها مع طولها يدل على القوة والشدة . وشكت : أدخل بعضها فى بعض ، ويروى : « سكت » بمعنى ضيقت . والقفعاء : ضرب من الحسك ، وهو نبات له شوك ينبسط على وجه الأرض ، تشبه به حلق الدروع . ومجدول : محكم الصنعة .

(٦٧) مفاريح : كثيرو الفرح . ونالوا : أصابوا . ومجازيع : كثيرو الجزع . ويروى : « لا يفرون . . . الخ » .

(٦٨) الزهر : البيض . يصفهم بامتداد القامة ، وعظم الخلق ، والرفق فى المشى ، وبياض البشرة ، وذلك دليل على الوقار والسؤدد . ويعصمهم : يمنعهم . وعرد : فر وأعرض عن قرنه وهرب عنه . والتنابيل : جمع تنبال ، وهو القصير .

لا يَقَـعُ الطَّعْنُ إلا فـى نُحورِهُـم   ومـا لَهُـم عَـن حِياضِ المـوتِ تَهليـلُ (١)

نحن لسنا فى الحقيقة أمام قصيدة شعر ، ولكننا أمام صرح عظيم من صروح البيان المضىء ، تجلى لنا فى شكل قصيدة مشعشعة بالبلاغة ، مسربلة بالفصاحة ، متوجة بمقدرة شعرية فذة ، وملكة فنية نادرة ، يتحدر الشعر من خلالها تحدر الماء النمير الروى من شلالات أعطافها الرى والرواء ، والقوة والعطاء ، حتى إن النبى ﷺ وهو أفصح الفصحاء وأبين الأبيناء ـ حين وصل كعب فى إنشاده إلى قوله :

إن الرسول لنور يستضاء بـه

مهند من سيوف الله مسلول

نظر إلى من حوله من قريش كأنه يومى إليهم أن يسمعوا . ثم كساه بعد ذلك بردته إعجابا بقصيدته ، وتعبيرا عن قبوله توبته ، وهى البردة التى اشتراها بعد ذلك معاوية بعشرين ألف درهم ، وكان الخلفاء يلبسونها فى العيدين (٢).

إن الرسول ﷺ كان يكرم مادحيه ، وإن كان مدحه ﷺ فى حد ذاته تكريما لقائله ، ولكن تكريمه كعباً على هذا النحو بخلع بردته عليه يوضح اكتشاف رسول الله عبقرية شعرية جديدة انضمت إلى كتيبة شعراء رسول الله بدءاً بحسان ومروراً بكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة والعباس بن عبد المطلب وأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعباس بن مرداس السلمى وغيرهم . هذه الشاعرية الفذة التى اكتشفها رسول الله ﷺ فى كعب بن زهير وزكاها ، قد وضعها النقاد فيها بعد موضع الاعتبار والانتباه ، فقد قيل لخلف الأحمر : زهير أشعر أم ابنه كعب ؟ فكانت إجابته على هذا النحو من ترجيح كعب على أبيه : لولا أبيات لزهير أكبرها الناس لقلت : إن كعبا أشعر منه ، ثم ذكر الأبيات التى عناها ، وهى : (٣)

---

(١) وقوع الطعن فى نحورهم : دليل على أنهم لا ينهزمون حتى يقع الطعن فى ظهورهم . وحياض الموت : موارد الحتف ، يريد بها ساحات القتال . وتهليل : تأخر . ويروى « فما لهم عن حياض الموت » بالصاد المهملة ، جمع حوص ، بمعنى مضايقه وشدائده .

(٢) الشعر والشعراء : ١٥٦ .

(٣) المصدر السابق : ١٣٩ .

لمن الديارُ بِقُنَّةِ الحَجْرِ أَقْوَيْن من حِجَجٍ ومِنْ دَهْرِ

ولأنْتَ أشجعُ من أسامة إذْ دُعِيَ النَّزَالُ ولجَّ فى الذُّعرِ

ولأنت تَفْرِى ما خَلَقْتَ وبَعْضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِى

لو كنتَ من شيءٍ سوى بشرٍ كنتَ المنَوِّرَ ليلةَ البدْرِ (*)

وهذا عكرمة بن جرير يقول : سألت أبى : من أشعر الناس ؟ قال : أجاهلية أم إسلامية ؟ قلت : جاهلية ، قال : زهير .

ولكن الحطيئة الشاعر الفذ راوية زهير يعرف قدر كعب ، فيطلب من كعب أن يقول شعرا يذكر اسمه فيه معه ، أى : مع كعب لعلمه بمكانة كعب بين الشعراء وخلود شعره فيما يرويه الأدباء ويقول له : قد علمتم روايتى لكم أهل البيت - يعنى بيت زهير - وانقطاعى إليكم ، فلو قلت شعرا تذكر فيه نفسك ثم تذكرنى بعدك ؛ فإن الناس أروى لأشعاركم ، فقال كعب : (١)

فَمَنْ للقوافِى شَأْنَها مَنْ يَحُوكُهَا
إذَا مَا مَضَى كَعْبٌ وَفَوَّزَ جَرْوَلُ

كَفَيْتُكَ لا تَلْقَى منَ الناسِ واحداً
تَنَخَّلَ مِنْهَا مِثْلَ مَا يَتَنَخَّلُ

يُثَقِّفُهَا حتى تَلِينَ كُعُوبُهَا
فَيُقْصِرُ عنها مَن يُسِيءُ وَيَعْمَلُ

ولقد عارض هذه الأبيات كثير من الشعراء ، إما بالتزام البحر والقافية ، وإما بالتزام المعنى ، منهم مزرِّد أخو الشماخ ، والكميت ، وعدىّ بن الرقاع ، وإبراهيم بن هرمة ،

(*) المعانى :

القنة : هى الجبل الذى ليس بمنتشر ، أقوين : يعنى خلون .

(١) الشعر والشعراء ، ص : ١٥٦ .

فوّز : بمعنى مضى ومات ، وجرول هو الحطيئة ، واسمه جرول بن أوس .

وكلهم من الشعراء العظام ، ولعل أقرب معانى الشعراء إليها هو قول الكميت يصف قوافيه فى قوله :

مهذبـةً لا كَقَـوْلِ الهُـذَا ... ءِ مِمَّنْ يُسِيءُ وَمَـنْ يَعْمَـلُ

وَمَـا ضَرَّهَا أَنَّ كَعباً ثَـوَى ... وفَـوَّزَ مِـنْ بَعْـدِهِ جَـرْوَلُ

إن لامية كعب بن زهير من القصائد التى نالت شهرة واسعة بين ما حوته دواوين العرب من أشعار ، وذلك لأسباب كثيرة ، أهمها سببان رئيسيان ، السبب الأول : أنها قيلت فى مدح رسول الله ﷺ فنالت بذلك شرف الخلود ، والسبب الثانى : هو عبقرية كعب وشاعريته الفذة التى احتفل بها النقاد والشعراء وفضلوها حتى على شاعرية أبيه على النحو الذى ذكرناه قبل قليل .

ولذلك يجمل بنا ألا نقف عند شرح مفرداتها فى الهوامش الماضية ، وإنما هى محتاجة إلى شىء من التوقف حيال بعض مبانيها وغير قليل من معانيها .

بين يدى القصيدة :

القصيدة تقع فى ما يناهز ستين بيتا ، أو هى على التحديد طبقا لأدق الروايات ثمانية وخمسون بيتا ، يلفت النظر فيها أن مدخلها فى النسيب يحوز خمسة وثلاثين بيتا ، أى : أكثر من نصف أبيات القصيدة ، وهو أمر يعيبه النقاد المتأخرون ، ولكن كعبا لم يكن يعنيه هذا الشىء ، وكل الذى كان يعنيه هو تميز بضاعته وجودة شعره إلى الحد الأسمى ، لأن الغزل بسعاد لم يتعد أربعة عشر بيتا ، وأما بقية مدخل النسيب فهو فى وصف ناقته التى تحمله إلى الحبيبة .

فأما سعاد موضوع الغزل فقد قيل : إنها زوجته ، فهو ـ والحال كذلك ـ لم يشبب بأنثى محرمة عليه ، وقيل : بل هى مجرد اسم يرمز للمحبوبة التقليدية التى جرى الشعراء قديما على التغزل بها فى استفتاح قصائدهم مما لا يشكل مؤاخذة أخلاقية من منطلق التشهير بامرأة غريبة عنه ، ومن ثم لم يعترض الرسول ﷺ على إنشاد القصيدة فى المسجد .

أما لب أبيات الغزل فهو البيت التى تمثله جميع الشعراء من بعده وحفظته ذاكرة كل أديب من زمنه إلى زمننا ، وهو قوله :

هيفاءُ مقبلـةً عَجْـزَاءُ مـدبـرةً

لا يشتكـى قِصَـرٌ منها ولا طولُ

ولقد ركز كعب على جمال بطلة نسيبه ، فخلع عليها سمات الحسن المعروفة ومعاييره المألوفة فى فحولة من القول ، غير أنه لم يلبث أن نعتها بأنها لا تفى بعهد ، ولا تصدق فى وعد ، فمواعيدها مثل مواعيد عرقوب .

وأما الموضوع الحقيقى لمقدمة النسيب فكان ـ على ما أشرنا قبل قليل ـ وصف ناقته ، لقد أطال فى نعتها وأبدع فى وصفها إلى حدِّ التغزل بها ، لأنه أضفى عليها من صفات الجمال ما يمكن أن يضفيه محب على حبيبته ، ثم زاد على ذلك فخلع عليها جميع الصفات الكريمة التى يمكن أن يخلعها شاعر على ناقة ، وإن وصف كعب لناقته هو أوفى وصف لناقة فى شعر شاعر .

ومن السمات الفنية المعجبة التى تميزت بها لامية كعب هو ذلك الخلوص الرشيق من النسيب إلى مدح رسول الله ﷺ إنه خلوص لبق ، سهل الجناب ، موسوم بالعمق ، موشىٌّ بالحكمة .

يقول كعب فى هذا الموقف :

وقـال كـل صـديـق كنت آملــه   لا ألهينـك إنـى عنـك مشغــول

فقلت : خلُّوا سبيـلى لا أبا لكـمُ   فكـل مـا قـدر الرحمـن مفعــول

كل ابن أنثى وإن طالت سلامتــه   يـومــا علـى آلة حـدبـاء محمـول

نبئت أن رســول الله أوعــدنـــى   والعفـو عنـد رسـول الله مأمــول

أما أبيات الاعتذار فقد بلغت من السمو والإتقان وعمق المعنى وحسن السبك قريبا مما بلغته أبيات النابغة الذبيانى الذى عرف بأنه خير من اعتذر ، أو بعبارة النقاد : هو خير الشعراء إذا رهب .

لا تَأْخُذَنّـي بأقوالِ الوشاةِ ولـم   أذنْب ولـو كثرتْ فيَّ الاقاويـلُ

لقــد أقـوم مقـاماً لو يقـومُ بـه   يرى ويسمع ما لو يسمع الفيلُ

لظـلَّ يَـرعـد مـن وجـد بوادره   إن لم يكن من رسول الله تنويـلُ

حتى وَضَعْتُ يمينى ما أنازعها   فى كفِّ ذى نَقِمَاتٍ قِيلُهُ القيــلُ

إن كل صيغ المديح فى القصيدة لما يعد فى الطبقة العليا ، ولكن كعبًا حلَّقَ فى سماء لم يحلق فيها شاعر غيره ، وذلك فى قوله مادحا رسول الله ﷺ :

إن الرسـول لنــور يستضــاء بــه

مهنّـد مـن سيـوف الله مسلــول

فى عصبة من قريش قال قائلهـم

ببطـن مكـة لمـا أسلمـوا زولــوا

ويحلق كعب فى كبد سماء فن الشعر وهو يمدح صحابة رسول الله ، وقد قصر مديحه ـ قصر نظر منه ـ على الصحابة من قريش وأهمل الأنصار ، وذلك فى قوله :

شـــم العــرانين أبطــال لبوسهـــم   من نسج داود فـى الهيجـا سـرابيل

بيض ســوابـغ قـد شُكّت لهـا حَلَـقٌ   كـأنهــا حَلَــقُ القَفْعَــاء مجــدول

ليســوا مفـاريـح إن نـالت رماحهـم   قـومـا وليســوا مجــازيعــا إذا نيلـوا

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم   ضـرب إذا عـرّد السـود التنـابيــل

وهنا تكون كبوة الشاعر الذى غلبه الموقف فعرض بالأنصار ووصفهم بالقماءة والفرار، وهو هنا لم يكن منصفا ؛ لأن الأنصار هم حماة الدعوة وركنها الركين ، غير أن كعبا لم ينس ذلك الأنصاريَّ الذى هَمَّ بقتله غضبا منه ؛ لأنه سبق أن عرض بالرسول ﷺ فى أبياته التى كان بعث بها إلى أخيه بجير حين علم بإسلامه ، فعامل كعب الأنصار كلهم بتصرف واحد منهم .

كعب يمدح الأنصار :

وما أن عرَّض بالأنصار حتى كانت القصيدة قد تم إنشادها إلا البيت الأخير الذى أتم به مدح المهاجرين ، وهنا قال له رسول الله ﷺ : « لولا ذكرت الأنصار بخير ؟! ـ يعنى هلا ذكرتهم بخير ـ فهم لذلك أهل » . وكذلك فعل الصحابة من قريش ، فقد أنكروا عليه وقالوا : لم تمدحنا إذْ هجوتهم .

ولكن كعبا حين تشرب عقيدة الإسلام وروحها التى جعلت من المسلمين ـ والأنصار فى مقدمتهم ـ إخوة له فى الإسلام ، سارع إلى مدحهم وتمجيد بلائهم مع رسول الله ﷺ وموضعهم من اليمن فى قصيدة يقول فيها :

مَن سَرَّهُ كرمُ الحياة فلا يزَلْ ... فى مقْنَبٍ من صالحى الأنصار [1]

ورِثُوا المَكارِمَ كابِراً عَن كابرٍ ... إنَّ الخِيارَ هُمُ بنُو الأخيار

المُكرِهين السَّمْهرِىَّ بأذرعٍ ... كَسَوَالِف الهِندىّ غير قِصار [2]

والنَّاظِرينَ بأعيُنٍ مُحْمَرَّةٍ ... كالجَمر غير كليلة الأبصارِ

والبائعينَ نُفوسَهُم لنبيِّهِم ... للْمَوْتِ يومَ تعانُقٍ وكِرَارِ

والقائدين [3] النَّاسَ عن أدْيانِهِمْ ... بالمَشرَفِىّ وبالقَنا الخَطَّارِ [4]

يتطهَّرُون يَرَوْنَهُ نُسْكا لهم ... بدماء مَنْ عَلِقُوا منَ الكُفَّارِ

دَربوا كما دَرِبَتْ ببطْنِ خَفِيَّةٍ ... غُلْبُ الرقاب من الأسود ضَوَارِى [5]

وإذا حَلَلْتَ لِيَمْنَعُوكَ إليهمُ ... أصْبَحْتَ عند معاقل الأعفارِ [6]

(١) المقنب : الجماعة من الخيل . يريد به القوم على ظهور جيادهم .
(٢) السمهرى : الرمح . وسوالف الهندى : يريد حواشى السيوف ، وقد يراد به الرماح أيضا لأنها قد تنسب إلى الهند .
(٣) وروى البيت « والذائدين » بمعنى المانعين والدافعين .
(٤) المشرفى : السيف . والقنا : الرماح ، جمع قناة . والخطار : المهتز .
(٥) دربوا : تعودوا . وخفية : اسم مأسدة . وغلب الرقاب : غلاظ الأعناق . وضوارى متعودات الصيد والافتراس.
(٦) المعاقل : جمع معقل ، وهو الموضع الممتنع . والأعفار : جمع عفر ، وهو ولد الوعل ، ويضرب المثل بامتناع أولاد الوعول فى قلل الجبال .

ضَرَبُـوا عَلِيًّا يَوْمَ بَـدْرٍ ضَرْبَـةً ... دانَتْ لوَقْعَتِهـا جميـع نِـزَارِ (١)

لو يعلَـمُ الأقـوامُ عِلْمِـىَ كُلَّـه ... فيهـمْ لصَدَّقنـى الـذين أُمـارِى (٢)

قوْمٌ إذا خوَتِ النجـومُ فإنهـم ... للطَّـارِقين النَّـازِلينَ مَقـارِى (٣)

فى الغُرّ مِن غسَّانَ من جُرْثومةٍ ... أعْيَت مَحَـافِرُهـا علـى المِنْقـارِ (٤)

وإذا كانت قصيدة كعب فى مدح رسول الله ﷺ تمثل نمطا أسمى من أنماط الشعر العربى ، فإن لكعب شعرا جميلا بل كل شعره جميل له نكهة متميزة وطعم تفرد به دون غيره من الشعراء ، فمن ذلك قوله : (٥)

لو كنتُ أعجبُ من شىءٍ لأَعْجَبَنِى ... سَعْـىُ الفتى وهـو مَخبوٌّ لـه القَـدَرُ

يَسعَى الفتى لأمـورٍ ليـس يُدْرِكُهـا ... والنفـسُ واحـدةٌ والـهـمُّ منتشِـرُ

والمـرء مـا عـاشَ ممـدودٌ لـه أَمَـلٌ ... لا تنتهى العيْنُ حتـى ينتهـى الأثَـرُ

ومما يستجاد له أيضا قوله : (٦)

إن كنتَ لا تـرهَـبُ ذمِّـى لِمَـا ... تعـرفُ مـن صَفْحِـى عـن الجاهـلِ

---

(١) علياً : يريد على بن مسعود بن مازن الغسانى ، وإليه تنسب بنو كنانة ، لأنه كفل ولد أخيه عبد مناة بن كنانة بعد وفاته ، فنسبوا إليه .

(٢) أمارى : أجادل .

(٣) خوت النجوم : أى سقطت ولم تمطر فى نوئها . والطارقون : الذين يأتون بالليل . والمقارى : جمع مقراة ، وهى الجفنة التى يصنع فيها الطعام للأضياف . يريد أنهم إذا انحبس المطر ، واشتد الزمان ، وعمّ القحط ، يكونون أصحاب قصاع لقرى الأضياف الذين يطرقونهم ، وينزلون بهم .

(٤) هذا البيت ساقط من بعض الروايات .

(٥) الشعر والشعراء : ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٦) خزانة الأدب للبغدادى : ٩ / ١٥٤ .

فَاخْشَ سُكوتِى إذْ أنَا مُنْصِتٌ
فيـكَ لمسمـوعِ خَنَـا الـقائـلِ
والسـامـعُ الـذمّ شـريـكٌ له
ومُطْعِـمُ المـأكـولِ كـالآكِـــلِ
مقـالـةُ السـوءِ إلـى أهلِهـَـا
أسـرَعُ مِـنْ مُنَحـدِرٍ سـائـلِ
ومَـنْ دعَـا النـاسَ إلى ذَمِّـهِ
ذَمُّـوهُ بـالحـقِّ وبـالبَـاطِـلِ

ولكن تبقى قصيدة كعب فى مدح رسول الله ﷺ هى عروس قصائده ، بل عروس المدائح كلها .





الفصل السادس

الصحابيات الشاعرات

- الخنساء
- صفية بنت عبد المطلب
- نعم امرأة شماس بن عثمان
- قُتيلة بنت النضر
- الشيماء بنت الحارث
- هند بنت أثاثة بن عباد



الرسول والصحابيات الشاعرات

لقد صار من الوضوح بمكان أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الشعر الجيد . فكان يستنشد الشعراء الصحابة مثل حسان ، وعبدالله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وكعب بن زهير .

ومثلما كان الرسول يستمع إلى الشعراء الصحابة ويطرب لشعرهم ويطرى عطاء ملكاتهم فقد كان يفعل الصنيع نفسه مع الشاعرات الصحابيات من أمثال الخنساء ، وقتيلة بنت النضر ، والشيماء أخته من الرضاع .

الخنساء :

ولقد كانت أشعر الصحابيات الخنساء بنت عمرو بن الشريد التى خلد شعرها مع الزمان ، والتى كان رسول الله ﷺ يطرب لشعرها لبلاغته وجودته ، وعمق معانيه واتساع آفاقه .

والخنساء ليس اسمها ، وإنما هو لقب لها ، وقد كانت تنادى أيضا بلفظ : خُناس، وأما اسمها فهو « تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد » وينتهى نسبها لمضر .

وكانت الخنساء فى أول أمرها تهوى الشعر ، فتقول البيتين والثلاثة ، حتى قتل أخواها الفارسان صخر ومعاوية ، وكانت تحبهما حبًّا أكثر مما هو مألوف فى شأن حب الأخت إخوتها ، وكانت أكثر حبا لصخر لجوده وفروسيته وشدة عطفه عليها ، ولكونه محبوبا فى العشيرة .

وقد أجمع أهل العلم بالشعر ـ فيما يذكر العباس ـ أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها

أشعر منها ، ولقد وفدت على رسول الله ﷺ من بنى سليم فأسلمت معهم ، وذكروا ـ أى : أهل العلم بالشعر ـ أن رسول الله ﷺ كان يستنشدها ويعجبه شعرها ، وكانت تنشده وهو يقول : هيه يا خناس ، ويومىء بيده ﷺ (١).

كانت الخنساء أشعر النساء فى الجاهلية ، وكذلك كانت فى الإسلام ، وقد عاشت حتى خلافة عمر ـ رضى الله عنه ـ وكانت حضرت حرب القادسية ودفعت أبناءها الأربعة العباس بن مرداس وإخوته إلى أتون المعركة ، وقد ملأتهم حماسا بخطبة مشهورة، فاستشهدوا جميعا ، ولما بلغها خبر استشهادهم فى المعركة قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته .

يقول ابن قتيبة : كان النابغة الذبيانى تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، فأنشده الأعشى أبو بصير ، ثم أنشده حسان ابن ثابت ، ثم الشعراء ، ثم جاءت الخنساء السلمية فأنشدته ، فقال لها النابغة : والله لولا أن أبا بصير أنشدنى لقلت : إنك أشعر الجن والإنس ، فقال حسان : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ومن جدك ، فقبض النابغة على يده ثم قال : يابن أخى إنك لا تحسن أن تقول مثل قولى :

فــإنــك كالليل الــذى هــو مدركــى
وإن خلــتُ أن المنتــأى عنــك واســع

ثم قال للخنساء : أنشديه ، فأنشدته ، فقال : والله ما رأيت ذات مثانة ـ أى امرأة ـ أشعر منك ، فقالت له : والله ولا ذا خصيين (٢).

وتذكر بعض كتب التراجم أنها لم تلد إلا شاعرا (٣) ويقول البغدادى : إنها كانت صاحبة مكانة خاصة عند رسول الله ﷺ وكان ﷺ يقول : إنها أشعر الناس .

كانت المناسبة التى لقبها فيها الرسول بأنها أشعر الناس أن عدى بن حاتم الطائى لما

---

(١) معاهد التنصيص ١ / ٣٤٨ وما بعدها .
(٢) الشعر والشعراء ٣٤٤ .
(٣) خزانة الأدب للبغدادى ١ / ٤٣٤ وما بعدها .

قدم على الرسول وحادثه قال : يا رسول الله : إن فينا أشعر الناس ، وأسخى الناس ، وأفرس الناس .

قال : سمِّهم . قال : أما أشعر الناس فامرؤ القيس بن حُجْر ، وأما أسخى الناس فحاتم بن سعد ـ يعنى أباه ـ وأما أفرس الناس فعمرو بن معد يكرب . فقال رسول الله ﷺ : « ليس كما قلت يا عديّ ، أما أشعر الناس فالخنساء بنت عمرو ، وأما أسخى الناس فمحمد ـ يعنى نفسه ـ وأما أفرس الناس فعلى بن أبى طالب » .

وفى تقديمها على الشعراء قيل لجرير : من أشعر الناس ؟ قال : أنا لولا الخنساء ، قيل : بِمَ فَضَلَتْكَ ؟ قال : بقولها :

إن الزمان وما يَفْنَى له عجبٌ
أبقى لنا ذَنَباً واستُؤْصِلَ الراسُ
إن الجديدين فى طولِ اختلافهما
لا يَفْسُدَانِ ولكن يَفْسُدُ الناسُ (١)

كانت الخنساء تمدح أخاها كثيرا ، فقيل لها : قد فضّلته على أبيك . وفى رواية : ما مدحت أخاك حتى هجنت أباك .

فقالت هذه الأبيات :

جَارَى أباه فأقبلا وهُما	يتعاوران ملاءة الحضر
حتى إذا نزت القلوب وقد	لُزَّتْ هناك العذرُ بالعذر (*)
وعلا هتاف الناس : أيهما ؟	قال المجيب هناك : لا أَدْرِى
برزت صفيحة وجه والده	ومضى على غلوائه يجرى

(١) المصدر السابق ، الصفحات نفسها .

(*) الحضر ـ بسكون الضاد وقبلها حاء مفتوحة ـ : العدو والجرى . لزت : يعنى لصقت . والعذر ـ بضم العين ـ : جمع عذار ، يعنى عذارى فرسيهما لصق بعضها ببعض وقت التسابق .

أولى فأولى أن يساويه ... لولا جلال السن والكُبر

وهما كأنهما وقد برزا ... صقران قد حطا على وكر

يقول الشريف المرتضى فى مقام الإعجاب بهذه الأبيات : ولعمرى إنها قد بلغت فى مدح أخيها ـ من غير إزراء على أبيها ـ النهاية ؛ لأنها جعلت تَقَدُّمَ أبيه له عن قدرة منه على المساواة ومن غير تقصير منه ، وإنما أفرج له عن السبق معرفة بحقه ، وتسليما لكبره وسنه .

ويستطرد الشريف قائلا : ويشبه أن يكون الكميت أخذ من الخنساء قوله فى مُخَلّد ابن يزيد بن المهلب : (١)

ما إن أرى كأبيك أدرك شأوه

أَحَدٌ ومثلك طالبا لم يُلْحَقِ

تتجاذبان ، له فضيلة سنّه

وتلوتَ بعدُ مصلياً لم تُسْبَقِ

إن تنزعا وله فضيلة سبقه

فبمثل شأو أبيك لم يُتعلَّق

ولئن لحقت به على ما قد مضى

من بُعد غايته فأحج وأخلِق (*)

ويمضى الشريف المرتضى مشيرا إلى الشعراء الذى رسموا على منوال شعر الخنساء فى أخيها وأبيها فيذكر قصيدة رائية للمؤمل بن أُميل الكوفى المحاربى يمدح المهدى فى حياة أبيه المنصور ، وأخرى لعباد بن شبل ، وثالثة للعتابى ، ورابعة لأبى نواس فى الفضل بن الربيع ، وأخرى لأبى تمام فى أبى سعيد الثغرى .

---

(١) أمالى المرتضى ١ / ٩٩ .

(*) يريد القول : إن سبقك أبوك فلا غرو فإنه لم يسبق قط ، وإن سبقته فأنت جدير بالسبق .

ويردّ الشريف بيت عدى بن الرقاع فى قوله يصف حمارا وأتانا يتشاجران : إلى الخنساء . وذلك فى قوله :

يتعاوران من الغبار ملاءة بيضاء محدثة هما نسجاها (١)

فإذا عدنا مرة ثانية إلى أبيات الخنساء فى أخيها وأبيها وقعنا على هذا الخبر الطريف الذى دكره الفضل بن الربيع حاجب الرشيد ، قال : أجرى الرشيد الخيل ذات يوم فجاء فرسه سابقا ، وفرس المأمون مصليا ـ أى : تاليا للجواد السابق ـ فاستفزه الفرح ، وتداخلت المأمون كآبة ، وبصر الرشيد بالأصمعى فقال له : ما عندك فى هذين الفرسين يا أصمعى ؟ فقال : ما قالت الخنساء يا أمير المؤمنين ، وأنشده الأبيات : «جارى أباه فأقبلا وهما » . . فلما انتهى إلى آخرها قال له : لا يفضض الله فاك ، فأنت بإصابتك التمثيل ووضعه موضعه مواز للخنساء فى شعرها الذى أجادته وما قصّرت عن غاية الإحسان ، لله هى !! (٢).

كانت الخنساء من بلاغة القول ونفاسة الشعر وعمق المعنى بحيث كرمها رسول الله ﷺ وهو أبلغ الناس وأفصحهم وأكثرهم بصراً بالقول السديد . فمن قصيدة لها ترثى صخرا أخاها : (٣).

وما الغيث فى جعد الثرى دمث الربى
تبعــق منــه العــارضُ المتهلــــلُ (*)
بــأجـزل سَيْباً مـن يـديـك ونعمـةً
تَـجود بهـا بل سَيْبُ كفِّـك أجــزلُ
وَجَــارُكَ محفــوظ منيــعٌ بِنجـــوةٍ
مـــن الضيـــم لا يُـرْزَأ ولا يتذلـــل

١) أمالى الشريف المرتضى ١ / ١٠٠ ـ ١٠٤ .

(٢) حماسة أبن الشجرى ١ / ٣٧١ ـ ٣٨٠ .

(٣) حماسة إبن الشجرى ١ / ٣٢٥ .

(*) ثرى جعد ، ثرى متراكم غليظ . الدّمث ـ بفتح الدال ـ يعنى السهولة واللين . تبعق المزن : يعنى انهمر بالمطر .

فمـا بلغت كـفُّ امـرىء متنـاولٍ
بها المجْدَ إلاَّ حيثُ ما نِلْتَ أطـولُ
ولا بَلَّغَ المُهْدون فى القول مدحـةً
ولـو أكثروا إلا الذى فيـك أفضـلُ

إن الخنساء فى شعرها قد رجحت أشهر أصحاب المراثى الجيدة المعاصرين لها ، والذين جاءوا بعدها ، وعلى رأسهم أبو ذؤيب الهذلى ، وجرير شاعر العصر الأموى .

وفى مرثية أخرى فى صخر أخيها تقول :

فلـولا كَثْرَةُ البـاكيـن حولـى ... علـى إخوانهـم لقتلْتُ نَفْسـى
وما يبكون مثلَ أخـى ولكـنْ ... أُعَـزِّى النفسَ عنـه بالتَّأسـّى
يذكِّرنى طلوع الشمس صخـرا ... وأذكـره لكـل غـروب شمـس

وقد أعجب النقاد من قديم بالبيت الأخير ، فهى تقول : أذكره فى أول النهار بالغارة ، وفى آخره بالضيفان . ويذكر المبرد أن مصعب بن الزبير تمثل يوم قُتل ببيت شبيه بالبيت الثانى فقال :

وإن الأُلـى بالطفِّ من آل هاشم
تأسَّـوا فسنُّوا للكـرام التأسِّيـا (١)

لقد استنشد رسول الله ﷺ الصحابية الشاعرة الخنساء بنت عمرو بن الشريد وفضلها على سائر الشعراء ؛ لأنه ﷺ هو القاتل : « **إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة** » .

صفية بنت عبد المطلب :

هى عمة الرسول ﷺ وشقيقة عمه حمزة وأم الصحابى الزبير بن العوام ، وكانت من الصحابيات السابقات إلى الإسلام ، وكانت شجاعة فصيحة شاعرة .

---

(١) الكامل للمبرد ١ / ١٤ .

فأما شجاعتها فقد تجلت فى قتلها الجاسوس اليهودى يوم أحد ، ومجمل الخبر طبقا لرواية ابن سعد : أن النبى ﷺ كان إذا خرج من المدينة لقتال عدوه رفع أزواجه ونساءه فى أطم حسان بن ثابت ؛ لأنه كان من أحصن آطام المدينة . وتخلف حسان عن الخروج يوم أحد ، فجاء يهودى فلصق بالأطم يستمع ويتجسس ، فقالت صفية لحسان : انزل إلى هذا اليهودى فاقتله ، ويبدو أن حسّانا هاب الموقف أو كان مريضا فأخذت عمودا ونزلت فختلته حتى فتحت الباب قليلا قليلا ثم حملت عليه فضربته بالعمود فقتلته [١].

ومثلما كان يوم أحد مجللا بالحزن عند فرسان المعركة ، فقد كان كذلك أيضا عند صفية ، فهى إذ انتصرت فى صباح ذلك اليوم بقتلها اليهودى الذى تجرأ على نساء رسول الله وحاول التجسس عليهن فقد فقدت شقيقها حمزة الفارس البطل الشهيد . لقد اتجهت صفية إلى ميدان المعركة وقد انهزم الناس وبيدها رمح تضرب به وجوههم وتقول : انهزمتم عن رسول الله ؟! فلما رآها رسول الله ﷺ قال لابنها : يازبير ، المرأة ، وكان شقيقها حمزة قد بُقر بطنه ، فكره رسول الله أن تراه ، فقال الزبير : يا أمه ، إليك إليك، فقالت : تنحّ لا أم لك . فنظرت إلى حمزة ، ولم تلبث دموعها أن فاضت ، ثم أنشأت هذه الأبيات فى رثائه [٢].

أسائلــة أصحــاب أُحُــدٍ مخافــة	بنات أبـى مـن أعجــم وخبير
فقال الخبير : إن حمـزة قـد ثــوى	وزيرُ رســول الله خيــرُ وزيــر
دعاه إله الحق ذو العرش دعـــوة	إلــى جنــة يحـيا بها وســرور
فــذلك مـاكنـا نرجّى ونرتجـــى	لحمـزة يـوم الحشــرخيـر مصير
فوالله لا أنساك ما هبت الصبـــا	بكــاء وحزنـا محضـرى ومسيرى

(١) الطبقات الكبرى : ٨/ ٤١ .

(٢) السيرة لابن هشام : ٢/ ١٦٧ .

على أسد الله الذى كان مدرهـا

يذود عن الإسلام كل كفور

فياليت شلوى عند ذاك وأعظمى

لـدى أضبع ترتادنى ونسور

أقول وقد أعلى النعىّ عشيرتى :

جزى الله خيرا من أخ ونصير(*)

ولصفية شعر آخر فى رثاء أبيها عبد المطلب ، وكانت إذ ذاك شابة أضناها موت أبيها الرجل العظيم ، فقالت :(1)

أرقت لصوت نائحة بليل ... على رجل بقارعة الصعيد

ففاضت عند ذلكم دموعى ... على خدى كمنحدر الفريد

على رجل كريم غير وغل ... له الفضل المبين على العبيد

على الفياض شيبة ذى المعالى ... أبيك الخير وارث كل جود

صدوق فى المواطن غير نِكس ... ولا شَخت المقام ولا سنيد

طويل الباع أروع شيظمىّ ... مطاع فى عشيرته حميد

رفيع البيت أبلج ذى فضول ... وغيث الناس فى الزمن الْحَرُودِ

عظيم الحلم من نفر كرام ... خضارمةٍ مَلاَوِثَةٍ أسود

فلو خلد امرؤ لقديم مجد ... ـ ولكن لا سبيل إلى الخلود ـ

(*) **معانى المفردات :**

الأعجم : الذى لا يفصح . مسيرى ، أى : غيابى ، المدره : الذى يدفع عن القوم . الشلو : البقية ، النعىّ : النوح والبكاء بصوت ، أو الذى يأتى بخبر الميت .

(1) السيرة لابن هشام 1 / 169 ، 170 .

لكــان مخلَّدا أخــرى الليــالى لفضل المجـد والحسب التليـد (**)

نُعم امرأة شماس بن عثمان :

ولمناسبة قصيدة صفية بنت عبد المطلب فى رثاء أخيها حمزة حين استشهد يوم أحد، يسوقنا ذلك إلى ذكر صحابية أخرى شاعرة بكت زوجها لاستشهاده فى اليوم نفسه، إنها نعم امرأة شماس بن عثمان .

وكان شماس حريًّا بأن يبكى عليه لولا أنه قضى شهيدا فى سبيل الله .

يقول ابن هشام : واسم شماس : عثمان، وإنما سمى شماسا لأن شماسا من أبناء النصارى قدم مكة فى الجاهلية، وكان جميلا حتى إن الناس عجبوا من جماله ، فقال عتبة بن ربيعة ـ وكان خال شماس ـ : أنا آتيكم بشماس أحسن منه ، فجاء بابن أخته عثمان بن عثمان فسمى شماسا (١).

ويكمل أستاذنا المرحوم مصطفى السقا خبر شماس فيقول : إن اسمه عامر، وشماس لقب غلب عليه ، وأمه صفية بنت ربيعة بن عبد شمس ، شهد بدرا وقتل يوم أحد شهيدا ، وكان يوم قتل ابن أربع وثلاثين سنة ، وكان رسول الله ﷺ يقول : «ما وجدت لشماس شبها إلا الجنة » يعنى مما يقاتل يومئذ عن رسول الله ، وكان رسول الله ﷺ لا يرمى ببصره يمينا ولا شمالا إلا رأىٰ شماسا فى ذلك الوجه يذبّ بسيفه ، حتى غشى رسول الله ﷺ فترس بنفسه دونه حتى أصيب إصابة قاتلة ، فحمل إلى المدينة وبه رمق، فأدخل على عائشة ـ رضى الله عنها ـ فقالت أم سلمة ـ أم المؤمنين ـ : ابن عمى يدخل على غيرى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « احملوه إلى أم سلمة » فحمل إليها فمات عندها بعد أن مكث يوما وليلة (٢).

(**) الفريد : الدر . الوغل : الضعيف الساقط . النِّكس : الذى لا خير فيه . الشخت : الضامر . السنيد : الضعيف الذى لا يستقل بنفسه . الشيظمى : الفتى الجسيم . الخضارمة : جمع خضرم ، وهو الجواد المعطاء . الملاوثة : جمع ملواث ، وهو ذو القوة .

(١) السيرة ١ / ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٢) المصدر نفسه هامش صفحة ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

هذا الفارس الشاب الجميل الذى أسلم صغيرا وهاجر إلى الحبشة ، الذى استشهد محاربا فى سبيل الله ، ومدافعا عن رسول الله لم تستطع زوجته الصحابية الشاعرة إلا أن تبكيه مسجلة بكاءها فى أبيات من أرق ما يقال فى رثاء الفرسان المؤمنين الشهداء ، فأنشدت فى ذلك أبياتا منها :(١)

يا عينُ جودِى بفيضٍ غيرِ إِبْسَاسِ
على كريمٍ من الفتيانِ أَبَّاسِ

صَعْبِ البديهةِ ميمونٍ نَقِيبَتُه
حَمَّالِ أَلْويةٍ رَكَّابِ أفراس

أقول لما أتى الناعى له ـ جزعا ـ :
أودى الجواد وأودى المطعم الكاسى

وقلت لما خلت منه مجالسه :
لا يبعد الله عنا قرب شماس (*)

ولما كان هذا هو حال نُعم من الحزن والأسى فإن أخاها أبا الحكم بن سعيد بن يربوع أجابها معزِّيًا إياها ومواسيا فقال :(٢)

اقنى حياءك فى ستر وفى كرم
فإنما كان شماسٌ من الناس

لا تقتلى النفس إذ حانت منيته
فى طاعة الله يوم الروع والباس

---

(١) السيرة لابن هشام ٢ / ١٦٨ .

(*) **معانى المفردات :**

الإبساس : أن تمسح بطن الناقة لتدر اللبن ، والمقصود هنا أن الدمع يفيض بغير تكلف . الأبّاس : هو القوى الشديد البأس ، البديهة : أول الرأى والأمر . ميمون النقيبة : يعنى مسعود الفعال . الألوية : جمع لواء ، وهو العلم . المطعم الكاسى : يعنى الجواد الذى يطعم الناس ويكسوهم .

(٢) المصدر السابق الصفحة نفسها ، ولكن محقق الكتاب ذكر البيتين الأول والثالث بشيء من الاختلاف ونسبهما لحسان ابن ثابت . السيرة هامش ١ / ٣٦٧ .

قد كان حمزة ليث الله فاصطبرى

فذاق يومئذ مـن كـأس شمـاس

قُتَيْلة بنت النضر بن الحارث :

كانت قتيلة ابنةً للنضر بن الحارث المخزومى القرشى ، وكان أحد المحاربين القرشيين ضد المسلمين فى وقعة بدر ، وقد وقع أسيرا ، وأمر الرسول ﷺ بقتله ، فقالت قتيلة ترثيه وتوجه خطاب توجعها إلى الرسول ﷺ :(١)

يـا راكبـاً إن الأثيـل مَظّنـة ... من صُبح خامسة وأنت مُوفقُ

أبْلِـغ بهـا مَيْتـاً بأنَّ تحيـة ... ما إن تزال بها النجائبُ تخفـق

منـى عليـك وعَبـرة مَسْفوحـة ... جادت بواكِفها وأخـرى تَخْنـق

هل يَسمعنّى النَضْر إن ناديتـُه ... أم كيف يَسمع مَيّتٌ لا ينطق

أمحمـد يـا خيرَ ضِنء كَريمـة ... فى قَومها والفحلُ فحلٌ مُعرق

ما كـان ضَـرَّك لو مَننت وربما ... مَنَّ الفتى وهو المَغيظ المُحنـق

أو كنت قابـل فديـة فلننفقن ... بـأعزّ مـا يغلـو بـه مـا يُنفـق

فالنَّضر أقربُ من أسرت قرابـة ... وأحقُّهـم إن كـان عِتْق يُعتق

ظَلّت سيوفُ بنى أبيه تَنُوشُـه ... لله أرحـامٌ هنـاك تُمَـزّق

صبـراً يُقـاد إلـى المنية مُتعبـاً ... رسف المُقيّد وهو عانٍ مُوثَق (*)

فيقال : إن رسول الله ﷺ لما بلغه هذا الشعر قال : لو بلغنى هذا قبل قتله لمننت عليه .

---

(١)السيرة لابن هشام ٢ / ٤٢ ، ٤٣ والعقد الفريد ٥ / ٢٧٩ والإصابة ٤ / ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

(*) المفردات :

الأثيل : موضع قرب المدينة بين بدر ووادى الصفراء ، مظنة : أى موقع الظن ، النجائب : الإبل الكرام، تخفق : يعنى تسرع ، الواكف : السائل ، الضنء : الأصل .

وفى الإصابة رواية عن الزبير بن بكار : أن رسول الله ﷺ رق لها حتى دمعت عيناه ، وقال لأبى بكر : يا أبا بكر لو سمعت شعرها لم أقتل أباها .

إن قتيلة بنت النضر ليست مجرد مثال للشاعرات الصحابيات وحسب ، ولكن تعليق رسول الله ﷺ يترجم عن الطبيعة الرحيمة فى تكوين رسول الله ﷺ ورقة مشاعره، مع أن قريشا كلها بما فيها النضر لو ظفرت برسول الله ما توانت فى قتله .

الشيماء بنت الحارث :

هى أخت النبى ﷺ من الرضاع ، واسمها حذافة ، ولكنها تلقب بالشمّاء والشيماء، فغلبت صفتها على اسمها ، وقد كانت الشيماء تحتضن رسول الله مع أمها وهو طفل رضيع ، وإخوته ﷺ من الرضاعة غير الشيماء : عبدالله ، وأنيسة ، وحذيفة

وفى يوم حنين انهزمت هوازن التى منها بنوسعد بن بكر ، ووقع منهم أسرى كثيرون وسبايا كثيرات . وكان من بين السبايا الشيماء ، فقالت لبعض جيش المسلمين : أنا أخت صاحبكم ، فلما قدموا بها إلى رسول الله قالت : يا محمد أنا أختك من الرضاع ، قال : وما علامة ذلك ؟ قالت عضّة عضضتها فى ظهرى وأنا متوركتك ، فعرف رسول الله ﷺ العلامة ، فبسط لها رداءه وأجلسها عليه ودمعت عيناه وقال لها : إن أحببت فأقيمى عندى محببة مكرمة ، وإن أحببت أن أمتعك فارجعى إلى قومك ، فقالت : بل تمتعنى وتردنى إلى قومى ، فمتعها وردها إلى قومها ، فأسلمت وأعطاها رسول الله نعما وشاء وثلاثة أعبد وجارية (١).

إن بنى سعد بن بكر الذين ربى فيهم رسول الله ﷺ رضيعا وغلاما معروفون بالفصاحة ، والرسول ﷺ يقرر ذلك فى قوله الشريف : « **أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش وربيت فى بنى سعد بن بكر** » ولذلك فقد كانت أخته الشيماء ترتجل الشعر والرجز فى صغرها وفى كبرها .

---

(١) طبقات ابن سعد : قسم النساء ، والإصابة ٤ / ٣٤٤ ، والاستيعاب بهامش الإصابة نفس الصفحة .

وكذلك كان رجال القبيلة فصحاء شعراء حتى إن رئيس القوم أبا جرول الجشمى يقول : أَسَرَنَا النبى ﷺ يوم حنين ، فبينما هو يميز الرجال من النساء إذ وثبت فوقفت بين يديه وأنشدته :

امنن علينا رسول الله فى حرم ... فإنك المرء نرجوه وننتظر

امنن على نسوة قد كنت تَرْضَعُها ... يا أرجح الناس حلماً حين يُختبر

إنا لنشكر للنعمى إذا كُفِرَت ... وعندنا بعد هذا اليوم مدخر

يقول أبو جرول : فذكّرته حين نشأ فى هوازن وأرضعوه ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لله ولكم ، فقالت الأنصار : وما كان فهو لله ورسوله ، فردت الأنصار ما كان فى أيديها من الذرارى والأموال (١).

فإذا ما عاد الحديث بنا إلى الشيماء وجدناها قد شغلت بأخيها محمد ﷺ حبا ، وشغفت به عطفا ، فمن شعرها فيه قولها مرتجزة : (٢)

محمدٌ خير البشرْ ... ممن مضى ومن غبرْ

من حج منهمُ أو اعتمر ... أحسن من وجه القمر

من كل أنثى وذكر ... من كل مشبوب أغرّ

جنبنى الله الغير ... فيه وأوضح لى الأثر

ومن رجزها الجميل قولها فى الرضيع محمد وهى ترقّصه ، أى : تغنى له طفلا :

هذا أخ لى لم تلده أمّى ... وليس من نسل أبى وعمِّى

فديتُه من مُخولٍ مُعِمِّ ... فأنمِهِ اللهم فيما تُنْمِى

ومن نفيس شعر الشيماء فى محمد الصغير وهى ترقصه ﷺ هذا الدعاء الطيب الرقيق :

---

(١) العقد الفريد ٥ / ٢٧٩ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ١ / ٤٤٦ .

يــا ربنــا أبــق أخــى محـمدا حتــى أراه يــافعــا وأمــردا
واكبتْ أعـاديـه معـا والحسّدا وأعطه عــزًّا يـدوم أبـــدا

ومن الطريف أن أبا عروة الأزدى كان إذا أنشد هـذا الشعر للشيماء يقول : ما أحسن ما أجاب الله دعاءها [(١)].

هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب :

إن هندا مطلبية قرشية ، أسلمت بمكة فى فجر الدعوة ، وقد خاضت معارك الإسلام بشعرها ، ونافحت عن رسول الله ، وهجت كفار قريش ، وجرى بينها وبين هند بنت عتبة زوج أبى سفيان مناقضات شعرية [(٢)]، فكانت فى ذلك شريكة لحسان، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، مع فارق القدرة القولية بينها وبينهم، كما أنها قالت مراثى فى بعض شهداء بدر وبخاصة الصحابى الجليل عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف شهيد بدر وحامل أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين .

فى وقعة أُحُد وقفت هند بنت عتبة على صخرة مشرفة تفتخر بقتل حمزة وغيره ممن أصيب من المسلمين فى المعركة ، وهى تقول بأعلى صوتها [(٣)]:

نحـن جزيناكـم بيـومِ بَـدْرِ والحربُ بعد الحرب ذات سُعْـرِ
ما كان عن عتبةَ لى من صـبرِ ولا أخـــى وعمـــه وبكـــرى
شفيتُ نفسى وقضيتُ نذرى شفَيْتَ « وحْشىُّ » غليلَ صدرى
فشكرُ « وحشىٍّ » علىَّ عمرى حتـــى تَـرِمَّ أعظمـى فى قبرى [(*)].

---

(١) الإصابة ٤ / ٣٤٤ الترجمة رقم ٦٢٣ .
(٢) الإصابة ٤ / ٤٢٢ الترجمة رقم ١٠٨٦ .
(٣) السيرة لابن هشام ٢ / ٩١ ، ٩٢ .
(*) معانى المفردات :
السعر ـ بضمتين ـ : الالتهاب . الغليل : العطش أو حرارة الجوف . ترم : أى تبلى وتتفتت .

فأجابتها هند بنت أثاثة فقالت :

خَزيتِ فى بـدرٍ وبعد بـدر | يا بنت وقّاعٍ عظيمِ الكُفْرِ
صبّحكِ اللهُ غـداةَ الفجـر | مِلْهَـاشِمِيّينَ الطـوالِ الزُّهْرِ
بكـلِ قَطّـاعٍ حسـامٍ يَفْرى | حمزةُ ليثى وعلـىٌّ صقـرى
إذْ رام شَيْـبٌ وأبـوكِ غدرى | فخضّبَا منه ضواحى النَّحْـرِ

ونذرك السوء فشرُّ نذر (**).

ولما قطعت رجل عبيد الله بن الحارث أحد أبطال بدر وشهدائها سارع الشعراء إلى رثائه بجميل القول وبليغ الرثاء ، وكان عبيد الله قد قتل عتبة والد هند زوج أبى سفيان، وفى الوقت نفسه كان عتبة قد أصاب رجل عبيدة فقطعها ، وكان قطعها سببا فى موته شهيدا ، قال كعب بن مالك يرثى عبيدة الشهيد :

أيـا عينُ جـودى ولا تبخلـى | بـدمعـك حقّـا ولا تَنْـزُرِى
علـى سيـّدٍ هـدَّنـا هُلْكـُهُ | كـريـم المشـاهـدِ والعنصرِ
جرىءِ المقَدّمِ شاكى السـلاح | كـريـم النَّثَـا طيبِ المكسـرِ
عبيـدةُ أمـسى ولا نـرتجيــه | لعـُرفٍ عـرانـا ولا مُنكـر
وقد كان يحمى غـداة القتــا | لِ حاميةَ الجيش بالمبْتَرِ (***)

وأما الصحابية هند بنت أثاثة فقد قالت ترثى عبيدة بن الحارث بهذه الأبيات (١):

(**) الوقاع : الكثير الوقوع فى الدنيا . ملها شميين ، أى من الهاشميين ، الزهر : أى البيض ، يفرى : يعنى يقطع ، شيب : أرادت شيبة ، ضواحى النحر : ما ظهر من الصدر .

(***) معانى المفردات :

لا تنزرى : أى لا تقللى الدمع . شاكى السلاح : أى حاد السلاح . النثا : هو ما يتحدث به عن الرجل من خير أو شر . طيب المكسر : أى أصيل غير مهجن . المبتر : يعنى السيف . من البتر .

(١) ابن هشام ٢ / ٤١ ، ٤٢ .

لقـد ضُمِّنَ الصفـراءُ مجدًا وسـؤددا	وحلماً أصيـلا وافرَ اللُّبِّ والعقلِ
عبيـدةَ فـابكيـه لأضيـافِ غُـرْبـةٍ	وأرملةٍ تهْوِى لأشعثَ كالجِـــذْلِ
وبكّيـه للأقــوامِ فـى كـل شتـوةٍ	إذا احمرَّ آفاقُ السماء مـن المحْــلِ
وبكّيـه للأيتـامِ والـريـــحُ زفــرةٌ	وتشبيبِ قدْرٍ طالمـا أَزْبَدَتْ تَغْلِي
فإن تصبح النيرانُ قد مات ضوؤها	فقد كان يُذكيهنَّ بالحطَبِ الجـزل
لطـارق ليــلٍ أو لملتمسِ القِـــرَى	ومستنبح أضحى لديه على رِسْلِ (*).

لقد كان الشعر واحدا من أسلحة الدعوة الإسلامية يبشر بها ويذود عنها ، ولم يكن لواء الشعر معقودا على الصحابة الرجال وحدهم ، ولكن الصحابيات الشاعرات قد شاركن فى المعركة ، وقد كان رسول الله ﷺ يبارك هؤلاء وأولئك من الصحابة الشعراء والصحابيات الشاعرات على حدّ سواء .

(*) الصفراء : موضع بين مكة والمدينة ، الأشعث : المتغير ، الجذل : أصل الشجرة وغيرها ، أى أنه ثابت قوى . المحل : القحط . الزفزف من الرياح : الشديدة السريعة ، التشبيب : إيقاد النار تحت القدر . أزبدت : يعنى رمت بالزبد . الجزل : الغليظ ، المستنبح : الرجل الذى يضل بالليل فينبح مثل الكلب لتجاوبه كلاب الحى . الرسل بكسر الراء : اللبن .



الفصل السابع

الشعر فى عام الوفود

- القبائل والأفراد
- وفد بنى تميم
- وفود الجارود بن المعلىّ وسلمة بن عياض



الشعر فى عام الوفود

تمهيد :

كان العام التاسع الهجرى هو عام الوفود ، فبعد انتصارات المسلمين بفتح مكة وغزو هوازن والطائف وزحف المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وإذعان الجزيرة العربية لدعوة الإسلام ، تهيأت وفود القبائل للتوجه إلى المدينة المنورة لإعلان إسلامها ومبايعة محمد ﷺ وكان رسول الله ﷺ قد استقر فى المدينة وأمّر أبا بكر على الحجيج فى ذلك العام ، فجعل رسول الله يستقبل وفود القبائل التى كانت تقدم فصحاء رجالها من خطباء وشعراء لإلقاء خطبهم أو إنشاد قصائدهم بين يد الرسول ، وغالبا ما كان يجرى حوار بينهم وبين رسول الله ، فكان ﷺ يتلطف معهم فى حواره الذى كان يفيض بآدب الكلام ، ويتحلى بأدب النبوة طبقا لما سبق تناوله فى صدر هذا الكتاب عند حديثنا عن فصاحته ﷺ .

على أن كثيرا من الوافدين من قبائل وأفراد كانوا يؤثرون تقديم شعرائهم إلى الرسول لبيعة رسول الله وإلقاء قصائد المديح بين يديه ، أو لإظهار ما عندهم من بضاعة الفصاحة متمثلة فيما ينشد شعراؤهم من شعر .

فمن وفود القبائل الذين صاحبتهم شعراؤهم : وفد همدان وشاعرهم وملكهم مالك ابن نمط ، ووفد جهينة وشاعرهم عمرو بن مرة الجهنى ، ووفد حضرموت وشاعرهم كليب بن أسد بن كليب ، ووفد بنى عذرة وشاعرهم زَمِلُ بن عمرو العذرى ، ووفد مزينة وشاعرهم خزاعى بن عبد نُهْم ، ووفد بنى كلب وشاعرهم عبد عمرو بن جبلة بن وائل بن الجُلاَح الكلبى ، ووفد بنى قشير وشاعرهم قرة بن هبيرة بن سلمة الخير بن قشير ، ووفد بنى تميم وشاعرهم الزبرقان بن بدر .

ومن الأفراد الوافدين الذين أنسوا فى أنفسهم فصاحة القول شعرا : أعشى بنى مازن وخُفَافُ بن نَضْلَة بن عمرو بن بَهْدَلَة الثقفى ، وذُبَابُ بن الحارث من بنى أَنَسِ الله بن سعد العشيرة، وفَرْوَةُ بن مُسَيْك المرادى ، والجارود العبدى وبصحبته سَلَمة بن عياض الأسدى [١] .

وإذا كان المجال يضيق عن الحديث عن تلك الوفود من جماعات وأفراد فإنه لا يضيق بأنموذجين لهذه الوفود اتسما بالغرابة وشىء من الشغب ، فأما وفد القبيلة فهو وفد بنى تميم ، وأما وفد الأفراد فهو وفود الجارود العبدى وحليفه سلمة بن عياض الأسدى على رسول الله ﷺ .

وفد بنى تميم :

كان قدوم وفد بنى تميم على رسول الله ﷺ يتسم بالصخب والشغب، وخشونة البداوة التى لا تليق مع مقام النبوة .

لقد كان الوفد مكونا من رجالات بطون تميم ، وعلى رأسهم عُطَارِد بن حاجب بن زُرارة ، وفيهم الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، وهذان كان قد سبق إسلامهما. وشهدا مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحنيناً والطائف ، والزبرقان بن بدر ، وعمرو بن الأهتم المنقرى ، وقيس بن عاصم المنقرى ، وقيس بن الحارث ، ونعيم بن يزيد .

لقد تبدت خشونة الوفد وقصور أدبه ونقص لياقته فى أنهم حين دخلوا مسجد رسول الله نادوا رسول الله من وراء حجراته : أن اخرج إلينا يا محمد ، وكرروا ذلك ثلاث مرات فتأذى رسول الله ﷺ من صياحهم ، فخرج إليهم، وفى رواية الإمام أحمد عن الأقرع بن حابس ، وابن المنذر عن البراء بن عازب أن الأقرع أتى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد اخرج إلينا . فلم يجبه ، فقال : يا محمد إن حمدى لزين وإن ذمى لشين ، فقال الرسول ﷺ : « **ذاك الله عز وجل** » فقالوا : يا محمد ، جئناك نفاخرك ، فَأْذَن لشاعرنا وخطيبنا ، فقال ﷺ فى سلوك أدب النبوة : قد أذنت لخطيبكم ، فليقل ، فقام عُطَارِد ابن حاجب فقال :

(١) يُراجع الباب الواحد والعشرون ومابعده من الجزء السادس من سبل الهدى والرشاد .

الحمد لله الذى له علينا الفضل والمنّ ، وهو أهلُه ، الذى جعلنا مُلوكا ، ووهب لنا أموالا عظاما ، نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعزَّ أهل المشرق وأكثره عددا ، وأيسره عُدَّة ، فَمنْ مثلنا فى الناس ، ألسنا برُءوس الناس وأُولى فضلهم ؟ فمن فاخرنا فليَعدُّدْ مِثْل ما عدّدنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نُعرف بذلك .

أقول هذا لأن تأتوا بمثلِ قَوْلِنا ، وأمرٍ أفضلَ من أمْرِنا . ثم جلس .

فقال رسولُ اللهﷺلثابت بن قَيْسِ بن الشَّماس ، أخى بنى الحارث بن الخزرج : قم ، فأجبْ الرجل فى خطبته . فقام ثابت ، فقال :

الحمدُ الله الذى السمواتُ والأرضُ خَلْقُهُ ، قضَى فيهن أَمرَه ، ووَسِعَ كرسِيُّهُ عِلْمَه ، ولم يكُ شىءٌ قطُّ إلا من فضله ، ثم كان من قُدرته أن جَعَلَنَا ملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسولا ، أكرمه نسبا ، وأصدقه حديثا ، وأفضله حسبا ، فأنزل عليه كتابَه وأْتمنه على خلقه ، فكان خيرةَ الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان به ، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أكرمُ الناس حسباً ، وأحسن الناس وجوهًا ، وخير الناس فِعالا ، ثم كان أوّل الخلق إجابة ، واستجاب لله حين دعاهُ رسول اللهﷺنحن ، فنحن أنصارُ الله ووزراءُ رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منعَ منَّا ماله وَدَمَهُ ، ومن كفر جاهدناه فى الله أبدا ، وكان قتلُه علينا يسيرا . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم .

ولما أن انتهى ثابت بن قيس من خطبته البليغة اتجه الزبرقان بن بدر إلى رجل منهم قائلا : يا فلان ، قم فقل أبياتا تذكر فيها فضلك وفضل قومك [(١)]، وفى رواية أن الزبرقان هو نفسه نهض قائما وأنشد : [(٢)]

نحْنُ الكـرَامُ فَلا حَىّ يُعـادلُنـا   منَّـا المُلُـوكُ وفينا تُنْصَبُ البيـع [(٣)]

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٦ / ٤٤٠ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٥٦٢ ، وتاريخ الإسلام للذهبى ، قسم المغازى : ٥٦١ .

(٣) البيع : مواضع الصلوات والعبادات ، واحدها بيعة (بكسر الباء) .

وكَمْ قَسَرْنا مِنَ الأحياءِ كُلِّهِمِ ... عند النِّهابِ وفضْلُ العزِّ يُتَّبَعُ

ونحن يطعِمُ عند القَحْطِ مُطْعِمنا ... مِنَ الشِّواءِ إذا لم يُؤنَسِ القَزَعُ (١)

بما نَرى النَّاس تأتينا سُراتهُمُ ... من كلِّ أرضٍ هُوِيًّا ثم تَصْطَنِعُ (٢)

فنَنْحَرُ الكُومَ عُبْطًا في أرُومَتِنا ... للنازلين إذا ما أُنْزِلوا شَبِعوا (٣)

فلا تَرانا إلى حَيٍّ نُفاخِرُهُمْ ... إلا استَفادوا فكانوا الرأسَ يُقْتَطعُ

فَمَنْ يُفاخِرنا في ذاَ نعرِّفُه ... فيرجعُ القَوْمُ والأخْبارُ تُسْتمعُ

إنَّا أبَيْنا ولا يأبى لَنا أحَدٌ ... إنا كذلكَ عند الفَخْرِ نرْتَفِعُ

وكان حسَّان غائبا ، فبعث إليه رسول الله ﷺ قال حسان : جاءني رسولُه ، فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم ، فخرجت إلى رسول الله ﷺ وأنا أقول :

مَنَعْنا رسولَ اللهِ إذ حلَّ وسطَنا ... على أنْفِ راضٍ من مَعَدٍّ وراغِمِ

مَنَعْناهُ لما حلَّ بين بُيُوتِنا ... بأسيافِنا مِنْ كلِّ باغٍ وظالمِ

ببَيْتٍ حَريدٍ عِزُّهُ وثَراؤه ... بجابيةِ الجَوْلانِ وَسْطَ الأعاجِمِ (٤)

هل المجدُ إلا السودَدُ العَوْدُ والنَّدَى ... وجاهُ المُلوكِ واحتمالُ العَظائمِ (٥)

قال حسان: فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقام شاعر القوم ، فقال رسول الله ﷺ : قم يا حسَّان فأجب الرجلَ فيما قال . فقام حسان ، فقال :

---

(١) القزع (بالتحريك) : السحاب الرقيق . يريد إذا لم تمطرهم السماء ، فأجدبت أرضهم .

(٢) هويا : سراعا .

(٣) الكوم : جمع كوماء ، وهي العظيمة السنام من النوق . وعبطا : أي عن غير علة . وفي أرومتنا : أي هذا الكرم متأصل فينا .

(٤) البيت الحريد : الفريد الذي لا يختلط بغيره لعزته . وجابية الجولان : بلد بالشام . يريد أن النبي نزل وسط حيّ من الأنصار ذوي منعة ، وأنهم ذوو جاه . ولهم صلة بالغساسنة ملوك الشام .

(٥) السؤدد العود : المجد القديم الذي يتكرر على الزمان . وهذه الأبيات من قصيدة لحسان عدة أبياتها أربعة عشر .

إنْ الذَّوائبَ مِنْ فِهْرٍ وإخوتهم ... قد بَيَّنُوا سُنَّةً للنَّاس تُتَّبَع (١)

يَرْضَى بهم كلُّ من كانت سَريرتُه ... تَقْوَى الإله وكلَّ الخير يَصْطَنِع (٢)

قَومٌ إذا حاربَوا ضرُّوا عدوَّهُمُ ... أو حاوَلوا النَّفْع فى أشْياعهم نَفعوا

سَجيَّة تلك منْهم غيرُ مُحْدثَة ... إنَّ الخلائق فاعلم شرُّها البِدَع (٣)

إن كان فى الناس سبَّاقون بعدهم ... فكل سَبْق لأدنى سبقهم تَبَعُ

لا يَرقَع الناس ما أوهَت أكفُّهُمُ ... عند الدفاع ولا يُوهون ما رَقعوا (٤)

إن سابَقوا النَّاس يوما فاز سَبْقُهُمُ ... أو وَازنوا أهل مجد بالندى متَعَوا (٥)

أعِفَّة ذُكِرَتْ فى الوَحْى عفَّتهم ... لا يَطْبَعُونَ ولا يُرديِهِمُ طَمَع (٦)

لا يَبْخَلُونَ على جارٍ بفَضْلهم ... ولا يَمَسُّهُمُ مِنْ مَطْمَعٍ طَبَعُ (٧)

إذا نَصَبْنا لِحَيٍّ لم نَدِبَّ لهُم ... كما يدبُّ إلى الوَحشِيَّة الذَّرعُ (٨)

نَسمُو إذا الحَرْبُ نالَتْنا مَخالبُها ... إذا الزَّعانفُ مِنْ أظْفارها خَشَعوا (٩)

لا يفخَرُونَ إذا نالُوا عَدوَّهم ... وإن أُصيبُوا فلا خُورٌ ولا هُلُع (١٠)

كأنهم فى الوَغَى والمَوتُ مُكْتَنِعٌ ... أُسْدٌ بحَلْيَةَ فى أرْساغها فَدَعُ (١١)

---

(١) الذوائب : السادة . وأصله من ذوائب المرأة ، وهى غدائرها التى تعلو الرأس .

(٢) رواية الشطر الثانى فى الديوان : « تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا » وسيرويه ابن هشام بهذه الرواية بعد قليل .

(٣) السجية : الطبيعة .

(٤) ما أوهت : ما هدمت .

(٥) متعوا : زادوا ، يقال : متع النهار ، إذا ارتفعت شمسه .

(٦) لا يطبعون : لا يتدنسون .

(٧) الطبع : الدنس .

(٨) نصبنا : أظهرنا العداوة ولم نسرها . والذرع : ولد البقرة الوحشية .

(٩) نسمو : ننهض . والزعانف : أطراف الناس وأتباعهم . وخشعوا : تذللوا .

(١٠) الخور : الضعفاء ، والهلع (ككتب) : الجازعون ، الواحد : هلوع .

(١١) مكتنع : دان . وحلية : مأسدة باليمن . والأرساغ : جمع رسغ ، وهو موضع القيد من الرجل . فدع : اعوجاج إلى ناحية

خُـذ منهُمُ مـا أَتى عَفوًا إذا غَضِبُـوا ولا يكـن هَمُّكَ الأمْـر الـذى مَنَعُـوا [١]

فـإنَّ فى حَربهـم فاتْركْ عَداوتهـم شَـرًّا يُخاضُ عليـه السَّـمُّ والسَّلَـعُ [٢]

أكـرِمْ بقـومٍ رسـولُ الله شيعَتُهـم إذا تفـاوتَتِ الأهـواءُ والشِّيَـعُ

أهـدَى لهُم مِدْحتى قَلْبٌ يُـؤازِرُه فيمـا أُحِبّ لسـانٌ حائِكٌ صَنَـع [٣]

فـإنهُـم أفضَـلُ الأحْيـاء كلِّهـمِ إن جدَّ بالنَّاس جِدُّ القوْل أو شَمَعُـوا [٤]

وتضيف الرواية أن الزبرقان بن بدر لمَّا قدم عَلى رسول اللهﷺفى وفد بنى تميم قام فقال :

أتَيْناكَ كيما يعْلَمَ النَّاسُ فَضْلنَـا إذا احتفلوا [٥]عند احتضَارِ المواسِـمِ [٦]

بأنَّا فُرُوعُ النَّاس فـى كلّ موطِـنٍ وأنْ ليـس فـى أرضِ الحِجـازِ كدارم [٧]

وأنـا نـذُود المُعْلمِينَ إذا انْتَخَـوْا ونضـرب رأس الأصْيَـدِ المُتفـاقِـم [٨]

وأن لَنـا المِرْبـاعَ فـى كلّ غارةٍ نُغيـرُ بنَجْـدٍ أو بـأرض الأعـاجـمِ [٩]

---

(١) عفوا : من غير مشقة .

(٢) السلع : نبات مسموم .

(٣) صنع : يحسن القول ويجيده .

(٤) شمعوا : هزلوا . وأصل الشمع : الطرب واللهو ، ومنه جارية شموع : إذا كانت كثيرة الطرب .

(٥) وفى رواية : اختلفوا .

(٦) المواسم : جمع موسم ، وهو الموضع الذى يجتمع فيه الناس مرة فى السنة ، كاجتماعهم فى الحج ، واجتماعهم بعكاظ وذى المجاز وأشباههما .

(٧) دارم : من بنى تميم .

(٨) المُعَلِّمُون : الذين يعلمون أنفسهم فى الحرب بعلامة يعرفون بها ، ويروى : « العالمين » . وانتخوا : من النخوة ، وهو التكبر والإعجاب . والأصيد : المتكبر الذى لا يلوى عنقه يمينا ولا شمالا . والمتفاقم : المتعاظم ، من تفاقم الأمر : إذا عظم واشتد .

(٩) المرباع (بكسر الميم) : أخذ الربع من الغنيمة ، يريد أنهم رؤساء . والنجد : ما ارتفع من الأرض ، ويريد بنجد : بلاد العرب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقام حسَّان بن ثابت فأجابه ، فقال :

هلِ المجْد إلا السُّودَدُ العَوْدُ والنَّدى ... وجاهُ المُلوكِ واحتمال العَظائم

نَصَرْنا وآوَيْنا النَّبىَّ محَمَّداً ... على أنْف راضٍ من مَعَدّ وراغم

بحَىٍّ حَريدٍ أصْلُهُ وثَراؤه ... بجابية الجَوْلان وَسْط الأعاجم

نَصَرْناهُ لما حَلَّ وسْط ديارنا ... بأسْيافنا منْ كُلِّ باغٍ وظالمِ

جَعَلْنا بَنينا دُونَهُ وبنَاتنا ... وطِبْنا لَهُ نَفْسا بفَىء المغانم

ونحن ضَرَبْنا النَّاسَ حتى تتَابَعوا ... على دينه بالمُرْهَفاتِ الصَّوَارِمِ (١)

ونحن وَلَدْنا من قُرَيْش عَظيمَها ... ولدنا نبىّ الخَيْرِ مِن آل هاشمِ (٢)

بنى دارِمٍ لا تفخَرُوا إن فَخْرَكُمْ ... يَعُودُ وبَالاً عندَ ذِكْرِ المَكارمِ (٣)

هَبلْتُمْ عَلَيْنا تَفْخَرُونَ وأنْتُم ... لَنا خَوَلٌ ما بينَ ظِئْرٍ وخادِمِ ؟ (٤)

فإنْ كُنْتُمْ جئتُم لِحَقْنِ دِمائِكُمْ ... وأموالكم أن تُقْسَمُوا فى المَقاسمِ

فلا تجْعَلوا للهِ ندًّا وأسْلِمُوا ... ولاَ تلْبَسوا زِيًّا كزىّ الأعاجِمِ (٥)

لقد كانت معركة بلاغية حامية بين الزبرقان شاعر بنى تميم الذين وفدوا على رسول الله وفيهم صلف وخشونة ، وبين حسان شاعر رسول الله ، المسلح بعقيدة السماء ، المعان بتشجيع سيد الأنبياء ، فكانت نتيجة هذا الحوار الشعرى الساخن ، ذلك الحكم الذى أصدره أحد رؤوس تميم وهو الأقرع بن حابس فى قوله :

---

(١) المرهفات الصوارم : السيوف القاطعة .

(٢) يشير بهذا البيت إلى أن أم عبد المطلب جد النبى ﷺ كانت جارية من الأنصار .

(٣) الوبال : الثقل .

(٤) هبلتم : فقدتم وثكلتم . والظئر : التى ترضع ولد غيرها ، وقد تأخذ على ذلك أجرا ؛ وأصله الناقة تعطف على ولد غيرها .

(٥) الند : المثل والشبه .

« وأبي إن هذا الرجل - يعني رسول الله - لمؤتّى له ، لَخَطيبُه أخطبُ من خطيبنا ، وَلَشَاعِرُهُ أشعر من شاعرنا ، وَلَأَصْوَاتُهُمْ أعلى - وفي رواية : أحلى - من أصواتنا » .

وانتهى هذا اللقاء وأسفر عن نتيجتين عظيمتين ، الأولى : أن في بنى تميم نزل من القرآن الكريم قوله - عز وجل - : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ تقريعاً لهم على خشونة سلوكهم وعدم تأدبهم مع رسول الله ﷺ وحسن توجيه لهم ولعامة المسلمين . والثانية أنهم أسلموا جميعا ، وأحسن رسول الله ﷺ جوائزهم .

وفود الجارود بن المعلّى وسلمة بن عياض :

هذان الوافدان يمثلان أنموذجا لوفود من جاءوا منفردين للقاء رسول الله ﷺ وفيهم فصاحة القول وامتلاك ناصية الشعر ، ووجه الغرابة في هذين الوافدين أنهما حين اعتزما الوفود على رسول لم يكونا مسلمين ، فأولهما وهو الجارود كان نصرانيا [1]، وثانيهما وهو سلمة كان وثنيا [2]ولكنهما كانا حليفين ، فقررا - على قدر ما صور لهما خيالهما - أن يعقدا ما يتصورانه اختبارا لصدق محمد ﷺ في نبوته .

قال أبو عبيدة معمر بن المُثَنَّى [3]: قدم الجارود العبدى على رسول الله ﷺ ومعه سلمة بن عياض الأسدى ، وكان حليفاً له في الجاهلية ، وذلك أن الجارود قال لسلمة ابن عياض الأسَدى : إن خارجاً خَرَج بتهامة يَزْعُم أنه نبى ، فهل لك أن نخرج إليه ؟ فإنْ رأينا خَيْراً دخلنا فيه ، فإنه إن كان نَبيا فللسابق إليه فضيلة ، وأنا أرجو أن يكون النبى الذى بَشَّر به عيسى بن مريم . وكان الجارود نصرانيًّا قد قرأ الكتب .

ثم قال لِسَلَمة : « ليضمر كل واحد منا ثلاث مسائل يسأله عنها ، لا يُخْبِر بها صاحِبَه ، فَلَعَمْرِى لئن أَخْبَر بها إنه لَنَبِيٌّ يُوحَى إليه » . ففعلا . فلما قَدِما على رسول

---

(١) له ترجمة في الإصابة برقم ١٠٤٢ بالمجلد الأول .

(٢) له ترجمة في الإصابة برقم ٣٣٩١ بالمجلد الثانى .

(٣) كان أبو عبيدة من أعلام الأدب واللغة والنحو والتاريخ والرواية وأخبار العرب وأيامهم وقد عرف بالعصبية ضد العرب ، وله تصانيف يناهز عددها مائتين ، وعمّر طويلا ، وتوفى سنة ٢٠٨ هـ .

الله ﷺ قال له الجارود : بَم بَعَثَك رَبُّك يا محمد ؟ قال : « بشهادة أن لا إله إلا الله وأنى عبدُ الله ورسولهُ ، والبراءة من كل نِدٍّ أو وَثَن يُعْبد من دون الله تعالى ، وإقام الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة بحقها ، وصَوْم شهر رمضان ، وحَج البيت ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[1].

قال الجارود: إنْ كنت يا محمد نبيّاً فأخبِرْنَا عَمَّا أَضْمَرنَا عليه . فخفق[2] رسول الله ﷺ كأنها سَنَة ثم رفع رأْسَه وتَحَدَّر العَرَق عنه فقال : « أمَّا أنت يا جارود فإنك أضمرت على أن تسألنى عن دماء الجاهلية ، وعن حِلْف الجاهلية ، وعن المَنِيحة [3]، ألاَ وإن دم الجاهلية موضوع وحلفها مشدود . ولم يزدها الإسلام إلا شدة ، ولا حلف فى الإسلام ، ألا وإنَّ الفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر دابة أو لبن شاة ، فإنها تغْدُو برِفْد ، وتروح بمِثْلِهِ .

وأما أنت يا سلمة فإنك أضْمَرْتَ عليـ أن تسألنى عن عبادة الأصنام . ، وعن يوم السَّبَاسِب [4]وعن عَقْل الهجين [5]، فأما عبادة الأصنام فإن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ [6]و أما يوم السباسب فقد أعقب الله تعالى منه ليلة خَيْراً من ألف شهر ، فاطلبوها فى العَشْر الأواخر من شهر رمضان ، فإنها ليلة بُلجَةٌ سَمْحَة لا رِيحَ فيها ، تَطْلُع الشمس فى صبيحتها لاشُعَاعَ لها ، وأما عَقْل الهَجِين فإن المؤمنين إخوة تتكافأ دِماؤهم يُجِيرُ أقصاهم على أدناهم ، أكْرَمُهُم عند الله أتقاهم » .

فقال : نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت عبد الله ورسوله .

---

(١) الآية ٤٦ من سورة فصلت .

(٢) خفق : أى نعس .

(٣) المنيحة : هى المنحة . وقد تقع المنحة على الهبة مطلقاً .

(٤) يوم السباسب : عيد للنصارى ، ويسمونه الشعانين .

(٥) تسمى الدية عقلا .

(٦) الآية ٩٨ من سورة الأنبياء .

وعند ابن إسحاق (١) عَمَّن لاَ يَتَّهِم عن الحَسَن أن الجارود لما انتهى إلى رسول الله ﷺ كَلَّمه فعَرَض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ودعاه إليه ، ورَغَّبه فيه . فقال : يا محمد إنى كنتُ على دين ، وإنى تارك دينى لِدينك ، أفَتَضْمَنُ لى دينى ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « نَعَم أنا ضامِن أن قد هَداكَ الله إلى ما هو خَيْر منه » . فأسْلَمَ وأسلم أصحابه . ثم سأل رَسُولَ الله ﷺ الحُمْلان فقال : « والله ما عندى ما أحملكم عليه » فقال : يا رسول الله فإن بيننا وبين بلادنا ضَوَالّ (٢) من ضَوَالّ الناس أفَنَتَبَلَّغ عليها إلى بلادنا ؟ قال : « لا ، إيَّاكَ وَإيَّاهَا فإنما تلك حَرَقُ النار » (٣) .

فقال : « يا رسول الله ادْعُ لنا أن يجمع الله قومَنا » . فقال : « اللهم اجمع لهم ألْفَةَ قومهم وبارك لهم فى بَرِّهم وبَحْرِهم » . فقال الجارود : يا رسول الله أى المال أتخذ ببلادى ؟ قال : « وما بلادك ؟ » قال : مأواها وعاء ونَبْتُها شِفاء ، وريحها صَبَا ، ونَخْلُها عوادٍ . قال : عليك بالإبل إنها حمولة ، والحَمْل يكون عدداً . والناقة ذَوْداً » .

وقال الجارود :

شَهِدْتُ بأنَّ الله حَقٌّ وَسَامَحَت ... بَنَاتُ فُؤادى بالشهادة والنَّهضِ

فأبْلِغْ رَسُولَ اللهِ عنى رِسَالَةً ... بأنِّى حَنِيفٌ حَيْثُ كُنْتُ مِنَ الأرْضِ

وَأنْتَ أمِينُ اللهِ فى كُلِّ خَلْقِهِ ... عَلَى الوَحْى من بين القُضَيْضَةِ والقَضِّ

فَإنْ لم تكن دَارِى بِيَثْرِبَ فِيكُمُ ... فَإنِّى لكم عِنْدَ الإقَامَةِ والخَفْضِ

أُصَالِحُ مَنْ صَالَحْتَ مِن ذِى عَدَاوَةٍ ... وأبْغَض مَن أمْسَى على بُغضِكم بُغْضِى

(١) السيرة لابن هشام ٢ / ٥٧٥ .

(٢) ضَوال ـ بفتح الضاد المعجمة وتخفيف الواو وتشديد اللام ـ : جَمْع ضَالَّة ، وهى الضائعة من كل ما يُقْتَنَى من الحيوان وغيره ، يقال : ضَلَّ الشىء : إذا ضاع ، وَضَلَّ عَنِ الطريق : إذا حَارَ ، وهى فى الأصل فَاعِلة ، ثم اتُّسِع فيها فصارت من الصفات الغالبة ، وتَقَع على الذكر والأنْثَى ، والاثنين ، والجَمْع ، والمُراد بها فى هذا الحديث الضَّالَّة من الإبل والبَقَر مِمَّا يَحْمِى نَفْسَه ويَقْدر على الإبعاد فى طَلَب المَرْعَى والماء بخلاف الغَنَم .

(٣) حَرَقُ النَّار ـ بفتح الحاء [illegible] الراء وبالقاف ـ : لَهَبُها ، وقد يُسَكَّن ، والمعنى أن ضَالَّة المؤمن إذا أخذها إنسانٌ لِيَتَمَلَّكَها أدَّته إلى [illegible]

وأُدنِــى الَّــذِى والَّيْتَــةُ وأُحِبُّـهُ ... وَإنْ كَانَ فى فِيهِ العَلاقِمُ مــن بُغْضِ

أَذُبُّ بِسَيْفِى عَنْكُــمُ وأُحِبُّكُـمْ ... إذَا ما عَدَوْكُمْ فى الرِّفاقِ وفى النَّقْضِ

وأجعَلُ نَفْسِى دُونَ كُـلِّ مُلِمَّـةٍ ... لَكُمْ جُنَّةٌ مِن دُونِ عِرْضِكُمُ عِرْضِى

وقال سَلَمة بن عياض الأسدى رضى الله عنه :

رَأَيتُـكَ يَـــاخَيــْرَ البَرِيَّــةِ كُلِّهـــا ... نَشَرْتَ كِتَاباً جَاء بالحَقِّ مُعْلَمَـا

شَرَعْتَ لنـا فيه الهُدَى بَعْدَ جَوْرِنـا ... عَنِ الحَقِّ لَمَّا أَصبحَ الأمْـرُ مُظْلِمَا

فَنَوَّرْتَ بِالقـرآنِ ظُلُمَــاتِ حِنْدِسٍ ... وَأَطْفَأْتَ نَـارَ الكُفْـر لَمَّا تَضَرَّمَـا

تَعـَـالَــى عُلُـوُّ اللهِ فَــوْقَ سَمَائِــهِ ... وَكَانَ مَكَـانُ اللهِ أعْلى وَأَكْرَمَــا

ولما عاد الجارود إلى قومه دعاهم إلى الإسلام فاستجابوا لدعوته ، ثم إنه بعد ذلك صحب أعيان قومه ووفدوا على رسول الله ﷺ وأنشد بين يديه متاعب الرحلة إليه قاطعين الصحارى مجتازين الفدافد بإبلهم القوية وجيادهم الأصيلة ابتغاء الثواب والفوز يوم الحساب :

يَــا نَبِــى الهُــدَى أتَتْــكَ رِجَـــالٌ ... قَطَعَتْ فَــدْفَــداً (١) وآلاً فَآلاً (٢)

وَطَوَتْ نَحْوَكَ الصَّحَاصِحَ (٣) طُــرًّا ... لا تَخَـــالُ الكَــلاَلَ فـيه كَــلاَلاَ

كُـلُّ دهْنَاء (٤) يَقْصُرُ الطَّرْفُ عَنْهـَـا ... أَرْقَلَتْهَا قِلاَصُنَــا (٥) إرقَـــالاَ (٦)

---

(١) الفَدْفَد ـ بفاءين مفتوحتين بعد كل فاء دال مهملة الأولى ساكنة ـ : وهى الفَلاَة لا شىء فيها ، وقيل : هى الأرض الغليظة ذات الحَصَى ، وقيل : المكان المرتفع ، وقيل الفدفد : الأرض المستوية .

(٢) الآل : السراب ، وقال فى الصحاح : والآل الشخص ، والآل الذى تراه فى أول النهار وآخره كأنه يرفع الشخوص ، وليس هو السراب .

(٣) الصحاصح ، والصحصاح ، والصحصحان : ما استوى من الأرض .

(٤) الدهناء : موضع ببلاد بنى تميم .

(٥) القلاص : الفتىّ من الإبل .

(٦) الإرقال : ضرب من العَدْوِ فوق الخبب ، وأرقل المفازة : يعنى قطعها .

وَطَوَتْـهَـا الجِيَـادُ تَجْمَـح [1] فِيهَـا بِكُمَـاةٍ كَـأَنْجُـمٍ تَتَـلالا
تَبْتَغِـى دَفْـعَ بُـوسٍ يَوْمٍ عَبُـوسٍ أَوجَـلَ القَـلْبَ ذِكْرُهُ ثم هـالا [2]

وجملة القول أن شعر الوفود وفير فى كتب السيرة ، وقد قدمنا فى صدر هذا الفصل عددا كبيرا من أسماء الوفود الجماعية والمفردة التى سعت إلى ساحة الحضرة المحمدية ، يشدو شعراؤها بقصائد الإيمان ، ويبايعون الرسولﷺعلى الإسلام والفداء ، فى غلالات شفافة من عذب القول وعميق الحب وحلاوة الإنشاد .

---

(١) تجمح : أى تسرع .

(٢) الهول : الخوف والأمر الشديد . وهاله : أفزعه .



الفصل الثامن

شعر الغزوات والسرايا



شعر الغزوات والسريا

إن غزوات الرسول ﷺ وسراياه من الكثرة بمكان ، وكان شعراء الرسول ينشدون نفيس الشعر وجيّد القصيد مع الغزوات وبعدها ، حتى إن الشعر الذى قيل فى هذه المعارك يشكل ثروة أدبية إسلامية تحتاج إلى دراسة وتمثل وتمحيص ،وتمنح شباب أدباء المسلمين فيضا من التجارب وينبوعا من الحكم وزادًا من التراث .

ومن أهم غزوات الرسول التى رافقها الشعر واحتفل بها الشعراء : بدر ، وأحد ، وبنى قينقاع ، وبنى النضير ، وغزوة الرجيع ، وغزوة الخندق ، والمريسيع أو بنى المصطلق ، وخيبر ، وذات الرقاع ، ومؤتة ، وفتح مكة ، والطائف ، وتبوك .

وأما السرايا فهى من الكثرة بحيث لا يتيسر حصرها فى هذا المجال الضيق ، وكل الذين قادوا الغزوات والسرايا إذا لم يكن الرسول ﷺ مشاركا ، هم من أبطال الصحابة وفرسان المؤمنين ، وإن عددا كبيرا منهم من أصحاب المواهب فى فن القول شعرا كان أو خطابة .

الشعر فى غزوة بدر :

غزوة بدر هى واحدة من أهم غزوات رسول الله ﷺ بل هى أهمها جميعا ؛ لأنها تمثل أول انتصار للمسلمين على المشركين ، ومن هنا كان احتفال الشعر به كبيرا ، وكان حصاده فيها وفيرا ، وكانت المعانى الإسلامية والقيم الأخلاقية والمواقف الإيمانية متعددة الأشكال مختلفة الأساليب متباينة المناهج ، وهى فى مجملها وتفصيلاتها طرز جديدة من فن الشعر ، وقيم مستحدثة فى مسيرة فن القريض .

كان الانتصار فى غزوة بدر كاسحا وعظيما ، كان انتصار القلة المؤمنة على الكثرة

المشركة فقد كان عدد المشركين أضعاف عدد المؤمنين ، وإن جيش المشركين ضم أساطين الكفر وفرسان الظلام ، ولذلك فإن لغة الشعر وبنيته كانتا منسجمتين مع جلال الموقف وضخامة الانتصار .

كان حسان بن ثابت فارس الحلبة بين شعراء بدر بغير منازع ، ومن ثم فقد كان شعره يكتسى زهوا وينضح فخارا ، وهو يتشفى فى هزيمة قريش قائلا (١):

لقد علِمَتْ قريشٌ يوم بـدْر ... غداةَ الأسْر والقَتْل الشَّديد

بأنَّا حينَ تَشْتَجر العـوالى ... حُماةُ الحَرْب يومَ أبـى الـوَليد (٢)

قتَلْنا ابْنَىْ ربيعة يومَ سـارَا ... إلَيْنَا فى مضاعَفـة الحـَديـد (٣)

وفرَّ بها حكيمٌ يومَ جـالـَت ... بنو النجَّار تَـخْطِـرُ كالأسُودِ (٤)

وولَّتْ عند ذاك جُـموع فِهْر ... وأسْلَمَها الحُوَيـْرثُ مِـنْ بعـيد

لقد لاقَيـتُمْ ذُلاًّ وقـَتْلاً ... جَهيزًا نافذا تحـتَ الـوَريـد (٥)

وكلُّ القَوْم قَدْ وَلَّـوا جميعا ... وَلم يَلْووا على الحَسَب التَّليـد (٦)

وكما سبق أن ذكرنا كان حسان وافر العطاء كثير الإنشاد فى غزوة بدر وعنها ، وكانت قريحته فياضة معطاءة ، وكانت معانيه متأبية رفيعة ، ونفحات الإيمان كانت توشى أبياته من أولها إلى آخرها ممزوجة بمشاعر العزة وأحاسيس الفخار .

ولعل هذه المقطوعة من شعر النصر والإيمان تعدّ مثلا لهذا النسق من القول الذى

---

(١) ابن هشام ٢/١٩ .
(٢) تشتجر : تختلط وتشتبك . والعوالى : أعالى الرماح .
(٣) يريد « بمضاعفة الحديد » : الدروع التى ضوعف نسجها .
(٤) فر ، قال أبو ذر : من رواه بالقاف ، فهو من باب التقريب ، وهو فوق المشى ، ودون الجرى . ومن رواه بالفاء ، فهو من الفرار ، وهو معلوم . وتخطر : تهتز وتتجرد فى المشى إلى لقاء أعدائها .
(٥) جهيزا : سريعا ، يقال : أجهز على الجريح ، وذلك إذا أسرع قتله . والوريد : عرق فى صفحة العنق .
(٦) التليد : القديم .

التزم به حسان فى شعر الغزوات . يقول شاعر الرسول الأول فى هذا اللون [(١)]:

فما نخشى بحول الله قوما ... وإن كثروا وأجمعت الزحوف

إذا ما ألَّبُوا جَمْعا عَلينا ... كفانا حدَّهم ربٌّ رَءُوف [(٢)]

سمَوْنا يَوْمَ بَدْرٍ بالعَوالى ... سراعا ما تُضَعْضِعُنَا الحتُوف [(٣)]

فلَم تَر عُصْبةً فى النَّاس أنْكَى ... لمن عادَوْا إذا لَقِحت كَشُوف [(٤)]

ولكنَّا توكَّلنَا وقلْنا ... مآثِرُنا ومَعْقِلنا السُّيوف [(٥)]

لَقيناهُم بها لَمَّا سَمَوْنا ... ونحنُ عِصابةٌ وهُمُ أُلُوف

ويعمد حسان إلى الإغراب فى المعانى والتنويع فى قوافيه فى خضم قصائد النصر ، وكأنه طائر محلق فى سماء البيان ، أو كأنه ربان ماهر متمكن ينشر أشرعته على صفحات أمواج محيط هادر فينشر هذه الأبيات[(٦)].

دعُوا فَلَجات الشَّام قد حال دُونها ... جِلادٌ كأفواهِ المخاضِ الأوَارِك [(٧)]

بأيْدى رجال هاجروا نحو ربِّهم ... وأنصاره حقاً وأيْدِى المَلائك

إذا سَلكَتْ للغَوْرِ من بَطْنِ عالج ... فقُولا لها ليس الطَّريق هُنالِك [(٨)]

---

(١) السيرة ٢/ ٢٣ .

(٢) ألبوا : جمعوا .

(٣) ما تضعضعنا ، أى ما تذلنا ولا تنقص من شجاعتنا . والحتوف : جمع حتف ، وهو الموت .

(٤) لقحت : حملت . والكشوف (بفتح الكاف) : الناقة التى يضربها الفحل فى الوقت الذى لا تشتهى فيه الضراب ، فاستعارها (هنا) للحرب . ولقحت الحرب : إذا هاجت بعد سكون .

(٥) المآثر : جمع مأثرة ، وهى ما يتحدث به عن الإنسان من خير أو فعل حسن . والمعقل : الممتنع الذى يلجأ إليه .

(٦) السيرة ٢/ ٢١٣ .

(٧) الفلجات : جمع فلج ، وهو الماء الجارى؛ سمى فلجا لأنه فدخ فى الأرض ، وفرق بين جانبيه . والمخاض : الحوامل من الإبل . وارك : التى ترعى الأراك ، وهو شجر .

(٨) الغور : المنخفض من الأرض . وعالج : مكان فيه رمل كثير .

أقَمْـــنا علـى الرَّسِّ النـزُوع ثمـانـيـا   بأرْعَنَ جَـرَّارٍ عَرِيضِ المَبَـارِك (١)

بكُلّ كُمَيْت جَـوْزُه نصـْف خَلْـقـه   وقُبٍّ طوالٍ مُشرفات الحَـوَارك (٢)

ترَى العَرْفَجَ العامِيَّ تَذْرِى أُصُـولـه   مَناسِمُ أخْفاف المَطىِّ الرَّواتِـك (٣)

فـإن نَلْـقَ فى تَطْوَافِـنا والتمـاسـنا   فُراتَ بن حَيَّان يكُنْ رَهـنَ هالك

وإن تَلْـقَ قَيْس بن امرىء القيْس بعده   يُـزَدْ فى سوادٍ لونُه لـونُ حـالك

ويسهم فى توثيق المعركة شعرا وبيانا شاعر آخر من شعراء رسول الله ﷺ مركزا على أبى سفيان الذى كان ذا رأى فى المعركة يتمثل فى تلافى لقاء المسلمين بالفرار وبإثناء زعماء قريش عن خوضها ، ويشير الشاعر إلى مصرع زعماء قريش وبخاصة عتبة وابنه وأبى جهل .

إن الشاعر فى هذه القصيدة وهو عبد الله بن رواحة ـ وقيل : بل هو كعب بن مالك ـ شديد التمسك بحبال رسول الله ﷺ فداء وولاء ، فيقول (٤):

وَعَدنَا أبا سُفيـانَ بدرًا فلـم نَجِـدْ   لميـعـاده صِـدْقا وما كان وَافيـا

فأُقـسِم لـو وافَيْتَنا فلَقـيتـنا   لأُبتَ ذَميـما وافتَـقَدْتَ المَوَالـيا

ترَكـنَا به أوْصـالَ عُتـْبة وابنـه   وعمرًا أبا جَهْل ترَكْـناه ثـاوِيـا (٥)

عصـيْتم رسـولَ الله أُفٍّ لدينكم   وأمْركم السّىء الذى كان غاوِيـا (٦)

---

(١) الرس : البئر . والنزوع : التى يخرج ماؤها بالأيدى . والأرعن : الجيش الكثير الذى له أتباع وفضول .

(٢) الكميت : الفرس . وجوزه : وسطه ، ويريد بطنه . وقب : جمع أقب ، وهو الضامر . والحوارك : جمع حارك ، وهو أعلى الكتفين من الفرس .

(٣) العرفج : نبات . والعامى : الذى أتى عليه العام . وتذرى أصوله : تعقلها : تطرحها . ومناسم : جمع منسم ، وهو طرف خف البعير . والرواتك : المسرعة .

(٤) السيرة ٢/ ٢١٠ ، ٢١١ .

(٥) ثاويا : يعنى مقيما .

(٦) السيء (بالتخفيف) : هو السيّء (بالتشديد) .

فإنى وإن عنَّفْتمونى لقائلٌ فِدًى لرسولِ الله أهلى ومالـيا (١)

أطعناه لم نَعْدلْهُ فينا بغَيْره شِهابا لنا فى ظُلْمة الليل هاديا (٢)

ويحتشد الصحابى كعب بن مالك أحد شعراء رسول الله المبرزين لوصف المعركة بتفصيلاتها ، وهو النهج الذى سار عليه المتنبى بعد ذلك بأربعة قرون ، ويحرص كعب على أن يوشى قصيدته بأبيات يعطرها بذكر رسول الله ﷺ ومن حوله الأنصار يحيطون به ويفتدونه ، والكل شاكى السلاح ، تتحرك جموعهم تحت لوائه على نحو بديع ، ويضمِّن كعب قصيدته قدرا من الفخر ببعض بنى قومه الأوس وجمع من بنى النجار - وهم أخوال رسول الله - ومجسما هزيمة قريش ومصارع أعيانها الكبار من أمثال عتبة بن ربيعة وأخيه شيبة وأبى جهل وغيرهم من رءوس المشركين ، فكانت القصيدة مزاجا من الوصف والتسجيل والفخر بالنصر وتأصيل للقيم الإسلامية وترسيخ للمعانى الإيمانية :

يقول كعب بن مالك : (٣)

عجبتُ لأمر الله والله قادرٌ على ما أرادَ ، ليس لله قاهرُ

قَضَى يومَ بدرٍ أنْ نُلاقِيَ معشرًا بَغَوْا ، وسبيلُ البغْيِ بالناسِ جائرُ

وقد حَشَدُوا واسْتَنْفَرُوا منْ يليهمُ من الناسِ حتى جمعُهم متكاثرُ

وسارتْ إلينا لا تُحاوِلُ غيْرَنا بأجْمَعِهَا كعبٌ جميعًا وعامرُ

وفينَا رسولُ الله والأوْسُ حوْلَهُ لهُ معقل منهم عزيزٌ وناصرُ

وجمعُ بنى النَّجار تحت لوائِهِ يُمَشَّوْن فى الماذىِّ والنقْعُ ثائرُ

فلمّا لقيناهم وكلٌّ مجاهدٌ لأصحابه مُسْتبسِلُ النفسِ صابرُ

---

(١) عنفتمونى : يعنى لمتمونى .
(٢) لم نعدله : يعنى لم نر معه غيره .
(٣) السيرة ٢/ ١٤ ، ١٥ .

شَهِـدْنَا بأنَّ الله لا ربَّ غيرُهُ ... وأن رسـولَ الله بالحقِّ ظاهـرُ (*)

ويستطرد كعب فيصف التحام الجيشين ومصارع صناديد قريش وفرسانها قائلا :

وقدْ عُرِّيَتْ بيضٌ جِفَافٌ كأنها ... مَقَابِيسُ يُزْهِيهَا لِعَيْنَيْكَ شاهـرُ

بهنَّ أَبَدْنَا جَمْعَهُمْ فتبددوا ... وكان يُلاقى الحَيْنَ مَنْ هو فاجـرُ

فَكُبَّ أبو جهل صريعًا لوجهه ... وعُتْبَةُ قد غادَرْنَهُ وهو عائـرُ

وشَيْبَةُ والتيمىُّ غادَرْنَ فى الوغى ... وما منهمُ إلاَّ بذى العرشِ كافـرُ

فَأَمْسَوْا وَقُودَ النارِ فى مُسْتَقَرِّهَا ... وكلُّ كفُورٍ فى جهنَّمَ صائـرُ (*)

على أن أكثر الشعراء قولا فى قتلى قريش هو حسان بن ثابت ، صحيح أن قصائده فى هذا السبيل لم تخل من إظهار الشماتة بهم والتشنيع عليهم والنيل منهم ، ولكنها كانت فى جوهرها تأديبا لهم وثأرا منهم وقصاصا مما أوقعوا برسول الله من أذى وهو بين ظهرانيهم ، وما نهبوه من أموال المسلمين ، واستيلاء على ممتلكاتهم وديارهم ، وكان قتلى المشركين فى بدر هم صفوة رجال قريش وحكماؤها وزهرة شبابها ، فمنهم على سبيل المثال : عتبة بن ربيعة ، وابنه الوليد ، وأخوه شيبة ، وهم الذين ثأرت لهم هند بنت عتبة زوج أبى سفيان باكتراء العبد الأسود « وحشى عبد بنى نوفل » ليقتل أسد الحرب حمزة بن عبد المطلب ، ومنهم حنظلة بن أبى سفيان بن حرب ، وأبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، ومنهم النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط ، وغيرهم .

لقد كانت هزيمة قريش ثقيلة ، وكان قتلاهم من ذوى القدر والمكانة عندهم ، فكان أمرا طبيعيا أن يكثر الشعراء المسلمون القول فى خسائر قريش فى بدر ، فيقول حسان(١) :

(*) **المعانى** : الماذى : الدروع البيض اللينة . النقع : الغبار . يزهيها : يعنى يستخفها ويحركها . أبدنا : من الفعل أباد، أى : أهلك ، العاثر : الساقط .

(١) ابن هشام ٢/ ٢١ .

ألا ليتَ شِعْرى هل أتى أهلَ مـكَّةٍ ... إبارتُنَا الكـُفَّار فى ساعة العُـسْرِ [1]

قَتَلنـا سَـرَاة القَوْم عنـد مَجالـنا ... فلم يَرْجعوا إلا بقاصِمَة الظَّهـْر [2]

قَتَلنـا أبا جَهْـلٍ وعُتـبَةَ قبْلـه ... وشَيْبَةَ يَكْبو لليَـدَين وللنـحْر [3]

قَتَلنـا سُـوَيْـدًا ثـم عُتـْبَة بعـْده ... وطُعْمة أيضـًا عنـد ثائـرة القَتْر [4]

فكـم قـد قَتَلنـا مِـن كَريـم مُـرزَّإٍ ... له حَسَـبٌ فى قـَوْمِه نابِه الـذِّكـر

تـرَكنـاهُـم للعـاويـات يَنـُبْنَهـُـم ... وَيَصْلَوْنَ نارًا بعدُ حاميةَ القـَعْر [5]

وفى مقطوعة أخرى يذكر حسان واقعة بدر وما جرى فيها من قتلى فى بطون قريش، ويخصّ هنا بنى أسد التى رزئت بمقتل غير قليل من رجالها وصناديدها ، وهم : زمعة ابن الأسود بن المطلب بن أسد ، وابنه الحارث بن زمعة ، وأبو البخترى واسمه العاصى ابن هشام بن الحارث بن أسد ، ونوفل بن خويلد بن أسد ، وهو الذى قرن أبا بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله فى حبل حين أسلما .

هؤلاء الجبابرة من بنى أسد قد خصهم حسان بأن أفرد لهم مكانا خاصا فى شعره عن بدر ، حيث يقول :

خابتْ [6] بنو أسـَد وآبَ غَزيُّـهم ... يومَ القَليـب بسَوْءة وفُضُـوحِ [7]

---

(١) إبارتنا ، أى إهلاكنا ؛ تقول : أبرنا القوم : أى أهلكنا هم .

(٢) سراة القوم : سادتهم وخيارهم . ويريد « بقاصمة الظهر » : الداهية التى تقصم الظهور ، أى : تكسرها فتبينها . يقال : قصم الشىء : إذا كسره فأبانه ، فإذا لم يبنه قيل : فصمه (بالفاء) .

(٣) يكبو : يسقط .

(٤) يريد « بثائرة القتر » : ما ثار من الغبار وارتفع . والقتر : الغبار .

(٥) العاويات : الذئاب والسباع . وينبنهم ، أى : يأتونهم مرة بعد مرة . ويروى : يَنُشْنَهُمْ ، أى : يتناولنهم .

(٦) « خابت » ، من رواه بالخاء المعجمة ، فهو من الخيبة ، ومن رواه (حانت) بالحاء المهملة ، فهو من الحين ، وهو الهلاك .

(٧) الغزى : جماعة القوم الذين يغزون .

مِنهم أبو العاصى تجــدَّلَ مُقْعَــصًا
عن ظَهْر صادقةِ النَّجاء سَبـُوح (١)

حينًا له مـن مـانــع بســلاحــه
لمَّا ثـوَى بمقــامه المـــَذْبــوحِ

والمرءُ زَمْعـــةُ قد تَرَكْنَ وَنـــحـــرهُ
يـَدْمَى بعـانـد مُعْبَط مَسْفُوح (٢)

مُتوسِّدًا حُـرَّ الجـبين مـُعـَفَّرًا
قد عُرَّ مارِن أنــفِه بقُـــبُوح (٣)

ونَجــا ابـنُ قَيْسٍ فـى بقيَّـة رَهـطـه
بشَفـا الرّمـاق مُوَليـا بجـُروح (٤)

وفى الذروة من شعر حسان بن ثابت فى انتصار المسلمين فى بدر ومصارع أعلام المشركين فيها قصيدته البائية ، مفصلا كرات الأوس وبنى النجار على المشركين ، وكأنهم أسد غاب يكتسحون ضحاياهم ، ذاكرا مخاطبة رسول الله لهم وقد جندلت جثثهم فى القليب وهو يقول : يا أهل القليب ، بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس، ثم قال : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟

يقول حسان مترجماً عن هذا الموقف فى رائعته البائية :

عرفت ديار زينب بالـكثـــيب
كخط الوحى فى الــورق القـــشيب

تَدَاوَلَها الرّياحُ وكل جــــوْن
من الوسْمىّ مُنْهمرٍ سَكـوب (٥)

فأمسَى رسْمها خَلَقا وأمـــسَتْ
يَبابا بعد ساكِنها الحَبـيب (٦)

فَدَعْ عنْك التَّذَكُّر كلَّ يــــومٍ
ورُدَّ حرارة الصـــَّدْر الـكَئـــيب

---

(١) تجدل : صرع على الأرض . واسم الأرض : الجدالة . ومقصعا : أى مقتولا قتلا سريعا . ويريد « بصادقة النجاء » فرسا سريعة . والنجاء : السرعة . والسبوح : التى تسبح فى جريها كأنها تعوم .

(٢) العاند : الذى يجرى ولا ينقطع ، والمعبط : الدم الطرى . والمسفوح : السائل المنصبُّ .

(٣) معفرا ، أى : لاصقا بالعفر ، وهو التراب . وعر : لطخ . ومارن الأنف : مالان منه .

(٤) شفا كل شىء : حده وطرفه . والرماق : بقية الحياة .

(٥) الوسمى : مطر الخريف .

(٦) يبابا : قفرا .

وخبّر بالذى لا عيـــبَ فـــيه بصِـــدْق غيرِ إخبار الـكَـذُوب

بما صنَع المليك غـــداةَ بـدرٍ لنا فى المُشْركيــن من النَّصـــيب

غداةَ كأنّ جَمْعَـــهـــم حِــراءٌ بدَت أركانُه جُنْحَ الغـــُروب (١)

فلاقَيْنَـــاهمُ منـــَّا بجـــَمْع كأُسْد الغاب مـــُرْدان وشيــــبِ

أمــام محـــمَّد قـــد وَازَرُوه على الأعداء فى لَفْح الحـُروب (٢)

بأيديهم صَوارِمُ مـــُرْهـــَفاتٌ وكلُّ مجرَّب خاظِى الكُعـوب (٣)

بنُو الأوْس الغَطارفُ وازرَتـــها بنو النجَّار فى الدّين الصلِيب (٤)

فغادَرْنَا أبا جَهْلٍ صـــريـــعا وعـــُتْبَةَ قد تركنا بالجَبـــُوب (٥)

وَشَيْبَةَ قد تَرَكـــنا فى رجـــال ذوى حسبٍ إذا نُسبوا حَسـيـبِ

يـــُناديهم رســـولُ الله لـمـَّا قَذَفناهُمْ كبَاكِبَ فى القَلِيبِ (٦)

ألم تجدُوا كلامى كان حـَقـــًّا وأمْرُ الله يأخذُ بالـــقــــُلوب ؟

فما نَطقُوا ، ولو نطقُوا لـــقالوا : صدقتَ وكنتَ ذا رأى مُصـيب !

فى هذا الموقف الرهيب الذى صرع فيه أعداء الله وخصوم وحدانيته ، يشفق رسول الله على واحد من صحابته قد لقى أبوه المشرك مصرعه أمامه ، فقد كان فى جيش المشركين بعض أبناء عمومة الرسول ، وكان منهم عبد الرحمن بن أبى بكر ، وكان منهم عتبة بن ربيعة وولده ، بينما كان ولده أبو حذيفة فى جيش رسول الله .

---

(١) حراء بمكة . وجنح الغروب : حين تميل الشمس للغروب .

(٢) وازروه : أعانوه . ولفح الحروب : نارها وحرها . ويروى : « لقح » ومعناه التزيد والنمو ، يقال : لقحت الحرب ، إذا تزيدت .

(٣) الصوارم المرهفات : السيوف القاطعة . والخاظى : المكتنز . والكعوب : عقد القناة .

(٤) الغطارف : السادة ، واحدهم : غطريف : وحذفت الياء من الغطاريف لإقامة وزن الشعر . والصليب : الشديد .

(٥) الجبوب : وجه الأرض . وقيل : هو المدر ؛ الواحدة : جبوبة .

(٦) كباكب : جماعات .

قال ابن إسحاق : ولما أمر رسولُ الله ﷺ أنْ يُلْقوا فى القليب ، أُخذ عُتبةُ بن ربيعة ، فسُحب إلى القَليب ، فنظر رسول الله ﷺ - فيما بلغنى - فى وجه أبى حُذَيفة بن عُتبة ، فإذا هو كَئِيبٌ قد تغير لونه ، فقال : يا أبا حُذيفة ، لعلَّك قد دخَلك من شأن أبيك شىء ؟ أو كما قال ﷺ فقال : لا ، والله يا رسول الله ، ما شككتُ فى أبى ولا فى مصْرعه ، ولكننى كنتُ أعرف من أبى رأيا وحلْما وفضلا ، فكنت أرجو أنْ يَهْديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيتُ ما أصابه ، وذكرتُ ما مات عليه من الكفر ، بعد الذى كنتُ أرجو له ، أحزننى ذلك ، فدعا له رسول الله ﷺ بخير ، وقال له خيرا [١].

الشعر فى غزوة الخندق :

سميت غزوة الخندق لأن المسلمين تحت قيادة رسول الله ﷺ قد حفروا خندقا يحول عمقه واتساعه دون تقدم المشركين من قبائل العرب ومن ألَّبهم على الحرب من يهود ، وسميت كذلك بغزوة الأحزاب لأن بنى النضير بعد خيانتهم وإجلائهم إلى خيبر أرادوا أن يكيدوا لرسول الله فألبوا قريشا على قتاله ، وعاهدوهم على ذلك ، فخرجت قريش وبنو سليم وبنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة ، فكانت هذه الحملة المتعددة القبائل بالإضافة إلى يهود تشكل جيشا ينوف عدده على عشرة آلاف بِعَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ ، وكان عدد المقاتلين المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف ، يندس من حولهم المنافقون ، ويكيد لهم من ورائهم اليهود .

كان زمان الغزوة شهر ذى القعدة سنة خمس طبقا لرواية الواقدى[٢] ، وشهر شوال طبقا لرواية ابن إسحاق [٣].

ومن المفارقات التى تدعو إلى التأمل فى هذه الغزوة ذلك التحالف الغريب بين عبدة الأصنام والأوثان من قريش وحلفائها وبين اليهود الذين هم أهل كتاب ، حتى إن

---

(١) السيرة ١/ ٦٤١ .

(٢) المغازى ٢/ ٤٤٠ .

(٣) قسم المغازى من تاريخ الإسلام للذهبى ، ص : ٢٣٣ .

قريشا نفسها لم تسلم بصدق هذا الحلف حين قال زعماؤها : يا معشر يهود ، إنكم أهل كتاب وعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ فكانت إجابة يهود : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق ، وهو قول كان موضع شك المشركين ، وقد نزل فيهم قول الله ـ عز وجل ـ مثبتا هذا الموقف : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾[1]

وفى هذه الغزوة بذل المؤمنون جهدا كبيرا فى حفر الخندق ، ولما رأى رسول الله ﷺ ما بهم من الجوع والنَّصَب دعا لهم الدعاء المشهور الذى ظن بعض الباحثين أنه شعر ، وما هو بشعر ، وذلك فى قوله الشريف :

« **اللهم إن العيش عيش الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرة** » وفيها تمثل الرسول بأبيات عبد الله بن رواحة ـ وفى رواية أنها لعامر بن الأكوع : ـ

اللهم لولا أنت ما اهتـــديـنا ... ولا تصدقنـــا ولا صـليـــنا

فأنزلن سكيــــنـــة عليــــنا ... وثبت الأقدام إن لاقيـــنا

إن الألى قد بغـــوا عليـــــنا ... وإن أرادوا فتـــنة أبيـــنا

إن هذه الأبيات مع كونها نموذجا للإيمان والاستبسال فهى أيضا دعاء وابتهال مما يصور ضراوة المعركة وحرج موقف جيش المسلمين أمام كثافة جيش الأحزاب واستفزاز فرسانهم للمجاهدين المؤمنين ، ومحاولة اجتياز الخندق فى أحد أطرافه الضعيفة ، وهو ما صوره القرآن الكريم أصدق تصوير ووصفه أدق وصف فى قوله ـ عز وجل ـ :

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ

(١) النساء ، الآية : ٥١ .

ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾(١).

على أن التحاما قتاليا بين الجيشين لم يكتب له أن يتم ، وكان أبرز قتال هو ذلك النزال الذى دعا إليه عمرو بن ودّ من صناديد فرسان قريش ، وكان عمرو بن ودّ فيما تروى الأخبار قد قاتل يوم بدر حتى أثخنته الجراح فلم يشهد يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق خرج مُعْلَماً لِيُرَى مكانه ، واتجه نحو فرسان المسلمين وقال : من يبارزنى ؟ فبرز له علىّ ـ رضى الله عنه ـ وقال له : يا عمرو ، إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه ، قال له : أجل ، فقال علىّ : إنى أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام ، قال : لا حاجة لى بذلك ، قال علىّ : فإنى أدعوك إلى النزال ، قال : لم يا ابن أخى ، فوالله ما أحب أن أقتلك ، قال على ـ رضى الله عنه ـ : لكنى والله أحب أن أقتلك ، ثم كانت المبارزة المشهور خبرها ، فقتله علىّ ، وبدأت علامات الهزيمة تكسو وجوه فرسان قريش ، فألقى عكرمة يومئذ رمحه وتقهقر، فقال علىّ فى ذلك مصورا نزاله مع عمرو بن ود :

نَصَرَ الحجارةَ مِنْ سفاهة رأيه
ونَصرتُ دينَ محمدٍ بضرابِ

نازلْتهُ فتركتُهُ مُتَجَدِّلاً
كالجذعِ بين دكَادِكٍ وروابى (*)

لا تحسبُنَّ الله خاذلَ دِينِه
ونبيِّهِ يا معشرَ الأحزابِ

(١) الأحزاب ، الآيتان : ١٠ ، ١١ .

(*) الدكادك : جمع دكداك ، وهو ما تكبس واستوى من الرمل . الكِراع والخف : يعنى الخيل والإبل .

وقد أرسل الله الرياح العاصفة على مضارب الأحزاب وكانت العلاقة بينهم قد تفككت عراها ، وروح القتال خبت نارها ، وكان الصحابى نعيم بن مسعود قد قام بتوجيه من رسول الله ﷺ بنزع الثقة بين الأحزاب واليهود ، فقال أبو سفيان لقومه : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف . وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإنى مرتحل ، ثم قام إلى جمله وأطلق عقاله .

وإذا كانت معركة القتال لم تشتعل نارها ، فإن معركة الشعر قد اشتد أوارها ، خاصة وأن المسلمين لما انصرفوا من الخندق لم يعودوا إلى بيوتهم وإنما اتجهت جموعهم بأمر من رسول الله إلى بنى قريظة ؛ لأنهم كانوا قد ظاهروا قريشا وأعانوهم على حرب رسول الله .

يقول عبد الله بن عمر : نادى فينا رسول الله ﷺ يوم انصرف من الأحزاب : «**أ لالا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة**» ولبس رسول الله لأُمَتَهُ ، ففزع الناس للحرب ، وبعث عليا على المقدمة ودفع إليه اللواء ، وحاصرهم رسول الله خمسا وعشرين ليلة فيما يذكر ابن إسحاق [1] وانتهى الأمر بقبولهم ما يحكم به سعد بن معاذ عليهم ، فأرسل إليه رسول الله يستدعيه فأتى به محمولا على حمار وهو مضنى من جرحه الذى أصيب به فى الخندق ، فقال الرسول : أشر إلىّ فى هؤلاء ، فقال : لو وليت أمرهم قتلت مقاتلتهم وسبيت ذراريهم وقسمت أموالهم ، فقال رسول الله ﷺ : «**والذى نفسى بيده ، لقد أشرت فيهم بالذى أمرنى الله به**» .

هكذا خرج المسلمون من الخندق سالمين بنصر الله ، ثم كانت خيانة بنى قريظة سببا فى إجلائهم والتخلص منهم ، ثم بدأت معركة الشعر التى كان طرفها من جانب كفار المشركين : ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهرى ، وعبد الله بن الزبعرى ،

---

(١) مغازى الذهبى ، ص : ٢٥٧ .

ومسافع بن عبد مناف بن وهب بن حذافة ، وهبيرة بن أبى وهب الذى كان أكثر شعره فى رثاء عمرو بن عبد ودّ ، وكان طرفها من جانب المسلمين كعب بن مالك ، وحسان ابن ثابت ، وكان كعب هو فارس الحلبة فى الخندق ، وحسان فارس الحلبة فى غزوة بنى قريظة ، وقد نال كعب بن مالك ثناء رسول الله ﷺ فيما قاله فى غزوة الخندق .

يقول ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهرى فى غزوة الخندق مفتخرا بالأحزاب التى جيشت جيوشها لقتال المسلمين ، مقتفيا نهج عمرو بن كلثوم فى معلقته المشهورة وزنا وقافية ومعنى فى قصيدة نجتزىء منها [1]:

ومُشْفِقَةٍ تظنُّ بنا الظــنونــا ... وقد قُدْنا عَرَنْدَسَةً طحــوناَ [2]

كأن زُهَاءَها أُحــُد إذا مـــا ... بدتْ أركانه للــناظــرينـــا

ترى الأبدانَ فيها مُسْــبَغَاتٍ ... على الأبطالِ والْيَلَبِ الحصيـــنا

وجُرْدًا كالقداح مُســـوَّماتٍ ... نَؤُمُّ بهـــا الغــُوَاةَ الخاطئـــينا

كأنهمُ إذا صالوا وَصـــُلْـــنَا ... ببابِ الخَنْدَقيْن مــُصَافِحــُونَا

أناسٌ لا نَرى فيهمْ رشـــيدًا ... وقــد قالوا أَلَسْنــَا راشــدينــا

فَأَحْجَرْنَاهُـــمُ شهـرًا كَرِيتـاً ... وكنـا فوقهـم كالــقاهــريـــنا

نُرَاوِحُهُمْ ونغْـــدو كـلَّ يـومٍ ... عليهــمْ فـى السِّلاحِ مُدَجَّجِينَا

هكذا يقدم الشاعر ألوانا من الفخر مألوفة المعانى مكررة على الأسماع ، ولولا ذكر الخندق ما عرف قارىءٌ غرضَ القصيدة ، ولمزيد من تبيان الغرض يقول الشاعر :

---

(١) ابن هشام ٢/ ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢) معانى الكلمات : العرندسة : الشديدة القوة ، يريد الكتيبة . الطحون : التى تطحن كل ما مرت به . زهاءها : تقديرها . الأبدان هنا بمعنى الدروع . اليلب : الترسة أو الدرق . الجرد : الخيل العتاق . القداح : السهام . أحجرناهم : حصرناهم . شهرا كريتا : يعنى كاملا .

فَلَوْلاَ خندقٌ كانوا لــديـه ... لَدَمَّرْنَا عليهمْ أجمعيــنا
ولكنْ حال دونَهم وكانــوا ... به من خوفنا مُتَعَوِّذِينــاَ

ينهض للرد على الشاعر بنفس البحر والقافية وكأنها نقائض متحاورة كعب بن مالك أحد شعراء رسول الله فيقول فى الفخر بالمسلمين قولا يرجح قول ضرار ويزيد عليه معانى إيمانية جديدة على الشعر العربى مثل الصبر على المحن ، والإيمان بالله ، والتوكل عليه ، ونصرة رسول الله قائلا :

وسائلةٍ تســـائلُ ما لقيـــنـا ... ولو شَهِدَتْ رأتنا صابرينا
صبرنا لا نــــرى لله عِــــدْلاً ... على ما نابنا متــوكليـــنا
وكان لنا النبىُّ وزيرَ صِـــدْقٍ ... به نَعلو البريةَ أجمعـينـــا
نقاتلُ معشراً ظَلَمُوا وعــقُّــوا ... وكانوا بالعداوة مُرْصِدِيــنا
نعاجلهــم إذا نهــضوا إلينــا ... بضربٍ يُعْجِلُ المتسرعينــا
تـرانـا فـى فضافضَ سابغــاتٍ ... كغُدْرانِ المَلا مُتَــسَرْبِلينـــا
وفـى أَيْمَانـنـا بيــضٌ خفــافٌ ... بها نشْفِى مِرَاحَ الشاغبــينا
بباب الخندقين كـأن أُسْـــدًا ... شوابكهن يحمين العرينـــا
لِنَنْصُرَ أحمــــداً واللهَ حـــتى ... نكون عبادَ صدقٍ مخلصـينا
ويعلمَ أهلُ مكةَ حين ســـاروا ... وأحزابٌ أَتَوْا متـــحزّبيـــنا
بأن الله ليـــس له شريـــكٌ ... وأن اللهَ مولى المـــؤمنيـــنا

وقال عبد الله بن الزبعرى قصيدة بائية طويلة فى وصف جيش المشركين وقواده لم تخل من رسم صور محكمة لجيوشهم ، يقول فيها : (١)

---

(١) ابن هشام ٢/ ٢٥٧ .

فيها الجيادُ شَوَازِبٌ مجــــنونــةٌ ... قُبُّ البطون لَوَاحِــبُ الأقــــرابِ

من كلِّ سلهبةٍ وأجردَ سَلْـهَبٍ ... كالسِّيدِ غَالَبَ غــفلةَ الرقَّـــابِ

جيشٌ عيينةُ قاصدٌ بـــلوائـه ... فيه وصخرٌ قائــــدُ الأحــــزاب

قَرْمَانِ كالبدرَيْنِ أصبح فيهــما ... غيثُ الفقيرِ ومعقلُ الهـرُّاب (*)

ويردّ حسان بن ثابت واصفا خيبة جيش الأحزاب وتفرق جمعهم بهبوب عاصفة مزقت صفوفهم ، مجتلبا معانى إيمانية ، ومؤكدا على المساعدات الإلهية على هذا النحو(1):

فَدَعِ الديارَ وذكرَ كلِّ خـــريدةٍ ... بيضاءَ آنسةِ الحـــديثِ كَعَـابِ

واشْكُ الهمومَ إلى الإله وما تـرى ... من معشرٍ ظلموا الرسولَ غِضَابِ

ساروا بأجمعهم إلـــيه وألَّبـــوا ... أهلَ القـُرى وبَوَادِىَ الأعــــرابِ

جيشٌ عُيَيْنَةُ وابن حـربٍ فيــهمُ ... متخطِّمُون بحلبـــةِ الأحـــزابِ

حتى إذا وَرَدُوا المدينةَ وارْتَجَـوْا ... قَتْلَ الرسولِ ومغنـــمَ الأسلابِ

وَغدوْا علينَا قـادرين بِأَيْدِهــمْ ... رُدُّوا بغيظـــهمُ على الأعـــقابِ

بهبوبِ مُعْصِفَـةٍ تفرِّقُ جمـعهـم ... وجنودِ ربِّكَ ســيد الأربــــابِ

فكفى الإلهُ المؤمنين قِتــالَهُـمْ ... وأثابهم فى الأجْرِ خيْرَ ثــوابِ(*)

ومثلما فعل حسان فى الرد على ابن الزبعرى ، انطلق كعب بن مالك ورسم على

(*) **المعانى** : الشوازب : الضامرة . المجنونة : المقودة . قب البطون : يعنى ضامرة البطون . السلهبة : الطويلة . السِّيد : الذئب . قرمان : يعنى سيدان عظيمان ، هما عيينة بن حصن قائد فزارة ، وصخر هو أبو سفيان . معقل الهراب : ملجؤها .

(1) السيرة ٢/٢٥٨ .

(*) **المعانى** : الخريدة : المرأة الناعمة . والكعاب : التى نهد ثديها فى أول ما ينهد . ألبوا : جمعوا . متخطمون : مختلطون . الأيد : يعنى القوة . المعصفة : هى الريح الشديدة .

منوال حسان ، وأنشأ قصيدة من جيد الشعر معنى وصوغا ووصفا وإيقاعا ، ذكر فيها الخيل والفرسان والصوارم من رماح وسنان التى كانت سلاح كتيبة المسلمين فى الخندق، تلك الكتيبة التى [1]:

أَعْيَتْ أَبَا كَـرِبٍ وأعـيتْ تُبَّـعًا ... وأَبَتْ بَسَالَتُها علـى الْأَعْـرابِ

ومواعظٍ مِنْ ربنا نُـهْـدَى بها ... بلسانِ أَزْهَـرَ طيِّـبِ الأثـوابِ

عُرِضَـتْ علينا فَاشْتَهَيْنَـا ذِكْرَهَا ... مِنْ بعدِ ما عُرِضَتْ على الأحزابِ

حِكَماً يراها المجرمـون بزعمهـم ... حَرَجاً ويفهمها ذوو الألبـاب

جاءتْ سَخِينَةُ كى تُغَـالِبَ رَبَّـها ... فَلَيُغْلَبَنَّ مُغالِبُ الْغَـلَّابِ [2]

يقول ابن هشام : حدثنى من أثق به قال : حدثنى عبد الملك بن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، قال : لما قال كعب بن مالك :

جاءت سخينة كى تغالب ربها ... فليغلبن مغالب الغلاب

قال رسول الله ﷺ : « **لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا** » [3].

وهذا القول الذى قاله رسول الله ﷺ لا يعنى فقط امتنان الرسول وفرحه بالشعر الجيد ، ولكن الله ـ سبحانه ـ أيضا يشكر للشاعر المؤمن جهده ؛ إذ وظف الشعر فى خدمة دين الله ورسوله .

لقد قال كعب بن مالك شعرا كثيرا فى غزوة الخندق ، وهو أكثر شعراء المسلمين إنشادا فى شأن هذه الموقعة ، وأكثر شعره فيه من المستوى الرفيع ذى المسحة الإسلامية

---

(١) السيرة ٢/ ٢٥٩ .

(٢) **معانى أبيات كعب البائية :**

أبو كرب وتُبّع : ملكان من ملوك اليمن . الأزهر : الأبيض . حرجا : يعنى حراما . الألباب : يعنى العقول . سخينة : هو لقب قريش فى الجاهلية .

(٣) ابن هشام ٢/ ٢٦١ .

الخالصة ، والسمة الإيمانية السابغة ، مع إبداع فى وصف الجيش فرسانا وسلاحا وكرا وفرا ، مما يجعلنا نتوقع أن عين أبى الطيب المتنبى لم تكن بعيدة عن قراءة هذا الشعر وهو يعدّ قصائده لوصف معامع سيف الدولة الحمدانى ، فإن روح كعب بن مالك تسرى فى ثناياها .

ولعل من الخير أن نختم حديث الشعر فى غزوة الخندق بذكر هذه القصيدة النفيسة لكعب بن مالك (١) :

مَن سَرَّهُ ضَرْبٌ يُمَعْمِعُ بعضُه ... بعضًا كمَعْمَعَة الأباء المُحْرَق (٢)

فَلْيأْتِ مَأسَدةً تُسَنّ سُيوفها (٣) ... بين المذاد (٤) وبين جزْع (٥) الخندق

دَرِبوا بضَرْبِ المُعْلِمين وأسْلَموا ... مُهُجات أنْفُسِهِمْ لِرَبِّ المَشرق (٦)

فى عُصْبَة نَصَرَ الإلهُ نبيَّهُ ... بهِمُ وكانَ بعَبْدِه ذا مَرْفق (٧)

فى كلّ سابِغَة تَخُطُّ فضولُها ... كالنَّهْى هَبَّتْ ريحُهُ المُتَرَقْرِق (٨)

بَيْضاء مُحْكَمة كأنَّ قتيرها ... حدَق الجَنادِب ذات شَكٍّ موثَق (٩)

جَدْلاء يَحْفِزها نِجادُ مُهَنَّد ... صافِى الحَديدة صارم ذى رونَق (١٠)

---

(١) ابن هشام ٢٦١-٢٦٣ .

(٢) المعمعة : صوت التهاب النار وصريفها . والأباء : القصب ، ويقال : الأغصان الملتفة .

(٣) المأسدة : موضع الأسود ، ويعنى بها هنا موضع الحرب .

(٤) المذاد : موضع بالمدينة حيث حفر الخندق ، وقيل : هو بين سلع وخندق المدينة .

(٥) الجزع : الجانب .

(٦) المعلمون : الذين يعلمون أنفسهم فى الحرب بعلامة يعرفون بها . والمهجات : الأنفس ؛ الواحدة : مهجة . ولرب المشرق : يريد لرب المشرق والمغرب ، فحذفه للعلم به .

(٧) العصبة : الجماعة .

(٨) السابغة : الدروع الكاملة . وتخط فضولها : ينجر على الأرض ما فضل منها . والنهى : الغدير من الماء . والمترقرق : الذى تصفقه الريح فيجىء ويذهب .

(٩) القتير : مسامير الدروع . والجنادب : ذكور الجراد . والشك : إحكام السرد .

(١٠) الجدلاء : الدرع المحكمة النسج . ويحفزها : يرفعها ويشمرها . والنجاد : حمائل السيف . وصارم : قاطع . والرونق : اللمعان .

تِلْكم مع التـقوى تـكون لباسَـنـا — يوم الهياج وكـلّ سـاعةٍ مَصــدَق

نَصَل السُّيوف إذا قَصُـرن بخَطْونـا — قـُدُما ونُلْحقـهـا إذا لم تلـحـق

فترى الجَماجِـم ضاحـيا هاماتهُـا — بَلْـهَ الأكُفَّ كأنَّها لم تُـخْلق (١)

تَلْقى العدوَّ بفـخْمـة (٢) ملْمُومـة — تَنْفى الجُموع كفَصْد رأس المَشْرق (٣)

ونُعِـد للأعـداء كُـلَّ مُقَلَّـص — ورْدٍ ومَحْجـولِ القوائـم أبلـقِ (٤)

تَرْدِى بفُرسـان كـأنَّ كـماتَهـم — عند الهياج أُسود طَلّ مُلـثق (٥)

صُدق يُعـاطون الكُماةَ حـتُوفَهـم — تحت العَماية بالوَشيـج المُزْهـق (٦)

أمرَ الإلهُ بـربطـها لعـدوه — فى الحـرْب إنّ الله خَـيْرُ مـُوفِّـق

لتـكُونَ غيـْظًا للعـدوّ وحُيَّـطًا — للدّارِ إنْ دَلَـفَتْ خُيـول النـزَّق (٧)

ويُعـينُنا اللهُ العــزيـزُ بقُـوَّة — منـه وصِدْق الصَّبْر ساعـةَ نـلْتـقى

ونُطيـع أمـرَ نَبـينا ونـُجيـبه — وإذا دعـا لكـريهـة لـم نُسْبَـقِ

ومتى يُناد إلى الشـدائدِ نـأْتِـهـا — ومتى نَرَ الحَوْماتِ فيهـا نُعْنـق (٧٤)

مَنْ يَتَّبِعْ قولَ النـبىّ فـإنـه — فينا مُطَـاعُ الأمرِ حـقُّ مُصـدَّقِ

---

(١) الجماجم : الرءوس . وضاحيا : بارزا للشمس . وبله : اسم فعل بمعنى اترك ودع ، ويصح نصب « الأكف » به ، أو جره على أنه مصدر مضاف له .

(٢) يريد « بالفخمة » : الكتيبة .

(٣) الململومة : المجتمعة ، والمشرق : جبل بين الصريف والعصيم من أرض ضبة .

(٤) المقلص . الفرس الخفيف .

(٥) تردى : تسرع . والكماة : الشجعان . والطل : الضعيف من المطر . والملثق : مايكون من الطل من زلق وطين ، والأسد أجوع ماتكون وأجرأ فى ذلك الحين .

(٦) يريد بالعماية : سحابة الغبار وظلمته . والوشيج : الرماح . والمزهق : المذهب للنفوس .

(٧) حيط : جمع حائط ، وهو اسم فاعل من حاط يحوط . ودلفت : قربت . والنزق : الغاضبون السيئو الخلق ؛ الواحد : نازق .

(٨) الحومات : مواطن القتال ؛ الواحدة : حومة . ونعنق : نسرع .

فبذاكَ ينصرُنا ويُظهِرُ عزَّنَا ... ويُصِيبُنَا من نَيلِ ذاك بِمِرْفَقِ

إنَّ الذين يكذِّبون محمدًا ... كفروا وضلُّوا عن سبيلِ المتقِي

الشعر فى غزوة مؤتة وفى فتح مكة :

كانت السنة الثامنة من الهجرة النبوية الشريفة متميزة عن بعض ما سبقها من سنوات السيرة النبوية بحدثين كبيرين كان لهما أثر فى البنية الأساسية لمسيرة الدعوة الإسلامية ، أولهما غزوة مؤتة ، وترجع أهميتها إلى أنها أول لقاء مباشر بين جيش المسلمين وجيش الروم ، كما أنها كانت تسمى غزوة جيش الأمراء ، وسبب هذه التسمية يعود إلى أن رسول الله ﷺ قد أمر بتولية ثلاثة من كبار الصحابة الإمارة على الجيش ، أولهم زيد بن حارثة ، وهو من أحب صحابة رسول الله ﷺ إلى ذاته الشريفة ، فقد كان الرسول ﷺ قد تبناه قبل أن يحرِّم التبنى فى الإسلام ، وكان يسمى زيد بن محمد كما أنه الوحيد بين الصحابة الذى ورد اسمه ـ تحديدا ـ فى القرآن الكريم(١)، وإن تأمير رسول الله لزيد على جيش مؤتة لذو دلالة خاصة على أهمية هذه الغزوة وخطورة شأنها .

فإن استشهد زيد انتقلت إمارة الجيش إلى جعفر بن أبى طالب ، وهو أشهر من أن يعرّف ؛ لأنه ابن عم رسول الله ، ومن أوائل المسارعين إلى الدخول فى الإسلام من آل البيت . فإن استشهد جعفر انتقلت الإمارة إلى عبد الله بن رواحة أحد الصحابة الأكثر قربا إلى رسول الله ﷺ وواحد من كبار شعراء الدعوة الذين نافحوا عنها وأخلصوا لها ، وأكثروا الإنشاد بين يدى رسول الله ﷺ ثم هو بعد ذلك من الأنصار ، وفى تقليده إمارة الجيش بعد استشهاد جعفر تكريم للأنصار ، الذين مافتىء رسول الله ﷺ يحرص على تكريمهم فى كل مناسبة تسنح وكل فرصة تلوح .

والحدث الثانى فتح مكة فهو الآية الكبرى ، والانتصار العظيم ، والحدث الحاسم، الذى بدت إرهاصاته قبل ذلك بعامين فى الحديبية ، وفيها نزل قول الله

---

(١) فى سورة الأحزاب ، الآية : ٣٧ وفيها قول الله تعالى : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها . . . ﴾ الآية .

ـ سبحانه ـ مبشرا بالفتح واعدًا به : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾(١).

بفتح مكة تميزت السنة الثامنة من هجرة رسول الله ﷺ مثلما تميزت السنة الأولى ، فإذا كانت السنة الأولى تمثل اتخاذ دار حصينة للدعوة ، واستقرارا مكانيا لرسول الله ﷺ ونقطة انطلاق لحمتها المهاجرون وسداها الأنصار ، فإن فتح مكة يمثل مرحلة تكميلية فى مسيرة الدعوة وازدياد استقرارها ، فقد عاد بيت الله إلى عبّاد الله وموحديه ، وبفتح مكة دخلت قريش فى دين الله راضية أو مذعنة ، وبفتح مكة تحطمت جميع الأصنام وأبيدت عامة الأوثان ، وأصبح بيت الله مطهرا من كل شرك ، بريئا من كل دنس ، يذكر فيه اسم الله بالعشيّ والإبكار .

ليس غريبا ـ والأمر كذلك ـ أن يكون للشعر مجال رحب وميدان فسيح فى كل من الحدثين الجليلين : غزوة مؤتة ، وفتح مكة .

الشعر فى مؤتة :

ليس بمستغرب أن يكون الشعر فى غزوة مؤتة مقصورا على عبد الله بن رواحة فى مرحلة الإعداد والزحف وخوض الغمار ؛ لأنه أحد قوادها الذين شرفهم رسول الله بإمارة جيشها ، وأما بعد الغزوة وعودة الجيش واستشهاد الثلاثة الكبار فقد كان للشعر نشاط حزين فى بكائهم والإشادة ببسالتهم والترحم على كل الشهداء الذين أبلوا البلاء الحسن فى أتونها .

ومثلما كان حمزة صاحب النصيب الأوفى من رثاء شعراء المسلمين فى أُحُدُ فقد كان جعفر بن أبى طالب صاحب المراثى الأوفر عددا بين شهداء مؤتة .

---

(١) الآيات الثلاث الأولى من سورة الفتح .

أما الغزوة نفسها وشعر عبد الله بن رواحة فيها فقد بدأ من لحظة التوديع .

يقول ابن هشام [1]:

تجهّز الناس ثم تهيأوا للخروج ، وهم ثلاثة آلاف ، فلما حضر خروجهم ودَّع الناسُ أُمراءَ رسول الله ﷺ وسلموا عليهم . فلما ودّع عبدُ الله بنُ رواحة من ودّع من أمراء رسول الله ﷺ بكى ؛ فقالوا : ما يُبكيك يابن رواحة ؟ فقال : أما والله ما بى حبّ الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ آيةً من كتاب الله ـ عز وجل ـ يذكر فيها النار ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [2]، فلستُ أدرى كيف لى بالصَّدر بعد الورود ؛ فقال المسلمون : صَحِبَكم الله ودفع عنكم ، وردَّكم إلينا صالحين ؛ فقال عبد الله بن رواحة :

لكنَّنى أســألُ الرَّحمــنَ مَغـْفــرةً ... وضربةً ذات فَرْغٍ تقذفُ الزَّبَدا [3]

أو طَعْنَةً بيَدَىْ حــرّانَ مُــجْهزة ... بحرَبْة تُنْفِذ الأحشاءَ والكَبِـدا [4]

حتى يُقال إذا مَرُّوا على جدَثى [5] ... أرشده الله من غازٍ وقد رَشَـدَا [6]

وحين شرع الجيش فى الخروج لم يطق عبد الله بن رواحة الانصراف قبل أن يتوجه لوداع رسول الله ﷺ وملء ناظريه من وجهه الشريف ، وإلقاء التحية شعرا فى حضرته مثلما تعوّد على ذلك فى سابق عهده معه ، وأنشد قائلا :

فثبَّت الله ما آتاك من حــَسَنٍ ... تثبيتَ موسى ونَصْرًا كالذى نُصروا [7]

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ / ٣٧٣ .

(٢) سورة مريم ، الآية : ٧١ .

(٣) ذات فرغ : ذات سعة . والزبد هنا : رغوة الدم .

(٤) مجهزة : سريعة القتل . وتنفذ الأحشاء : تخترقها .

(٥) الجدث والجدف : القبر .

(٦) فى رواية : « يا أرشد الله » .

(٧) كذا فى م ، ر ، وفى أ « نصرا » .

إنى تفرّستُ فيكَ الخـيرَ نافـلـةً ... الله يعلم أنى ثابـتُ البَـصَر [1]

أنتَ الرَّسولُ فمَن يُـحرَم نَوافلـه ... والوجْهَ منه فقد أزرى به القـدرُ [2]

ولقد رويت هذه الأبيات بترتيب آخر على هذا النحو [3]:

أنتَ الرَّسولُ فمَن يُحرم نـوافـلَـه ... والوَجْهَ منهُ فـقدْ أزْرَى به الـقـدَرُ

فثبَّت الله ما آتـاك مِن حـسَنٍ ... فى المرسلين ونصرا كالـذى نُصـرُوا

إنى تفرَّست فيك الخـير نافـلةً ... فراسةً خالفتْ فيكَ الذى نـظروا [4]

انطلق جيش المسلمين متجها إلى الشمال انطلاق الذين يسعون متسابقين لنيل النصر أو اللحاق بجنة الرضوان ، تظللهم نفحات الرحمن ، حتى إذا نزلوا بأرض معان ـ شرق الأردن الحالية ـ بلغهم أن هرقل قد نزل غير بعيد عنهم فى « مآب » من بلقاء الشام فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم مائة ألف أخرى من قبائل لخم وجذام وبهراء والقين وبلىّ تحت قيادة رجل يقال له مالك بن زافلة .

كان من الأمور الجديرة بالنظر أن يفكر المسلمون فى موقفهم ، إنهم ثلاثة آلاف فقط، وإن يكن الواحد منهم بمائة رجل من الأعداء ، ولكن الجيش الذى ينتظرون لقاءه عدته مائتا ألف رجل ، فقالوا : نكتب إلى رسول الله بالخبر ونتلقى توجيهاته ، فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بغير ذلك فنذعن لأوامره .

هنا ينبرى عبد الله بن رواحة مشجعاً جيش المسلمين قائلا : يا قوم والله إن التى تكرهون للّتِى خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما تقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلِقُوا فإنما هى إحْدَى الحُسنيين إما

---

(١) فى هذا البيت إقواء .
(٢) نافلة : هبة من الله وعطية . والنوافل : العطايا و المواهب . وأزرى به القدر ، أى : قصر به .
(٣) المصدر السابق ٢ / ٣٧٤ .
(٤) يعنى بذلك المشركين .

ظهور وإما شهادة . قال : فقال الناس : قد والله صدق ابنُ رواحة . فمضى الناس فقال عبد الله بن رواحة فى مَحْبسهم ذلك :

جَلَبْنـا الخَيـلَ مـن أجـأٍ وفَـرْعٍ ... تُغَرُّ من الحَشيش لها العُكُومُ (١)

حَذَوناها منَ الصـوَّان سِـبْـتا ... أزلَّ كأنّ صَفْحَـتَه أديـمُ (٢)

أقامَت ليْلَـتَـيْن على مَعَـانٍ ... فأُعْقِبَ بعدَ فترتها جُـمُـومُ(٣)

فرُحنا والجِـيـاد مُسَـوَّمـات ... تَنَفَّسُ فى مَناخِرها السَّمُومُ(٤)

فَلا وأبـى مـآبَ لنَـأْتِيَنْـهـا ... وإن كانت بها عـرَبٌ ورومُ(٥)

فَعَبَّـأْنا أعِنتَّـهـا فَجـاءَتْ ... عَوابسَ والغُبارُ لَهَا بَرِيـم(٦)

بذى لجَبٍ كأنّ البَيْـضَ فـيـه ... إذا بَرزتْ قوانِسُها النُّجـومُ (٧)

فراضـيـة المَعِيـشَة طلقَتْهـا ... أسنَتُّهَـا فتـَنْكِحُ أو تَئـيـمُ(٨)

---

(١) أجأ : أحد جبلي طيء ، والآخر سلمى . وفرع (بالفتح) : اسم موضع من وراء الفرك . وقال ياقوت : « الفرع : أطول جبل بأجأ وأوسطه » . . وتغر (بالغين المعجمة) : تطعم شيئا بعد شيء . يقال : غر الفرخ غرا وغرارا : زقه . والعكوم : جمع عكم (بالفتح) وهو الجنب . ويروى : جلبنا الخيل من آجام قرح ـ بضم القاف ـ وهو سوق وادى القرى .

(٢) حذوناها : جعلنا لها حذاء ، وهو النعل : والصوان : حجارة ملس ؛ واحدتها صوانة . والسبت : النعال التى تصنع من الجلود المدبوغة . وأزل ، أى : أملس صفحته ظاهرة . والأديم : الجلد . . وقال السهيلى : « أى : حذوناها نعالا من حديد ، جعله سبتا لها مجازا . وصوان : من الصون ، يصون حوافرها ، أو أخفافها ، إن أراد الإبل ، فقد كانوا يحذونها السريح ، وهو جلد يصون أخفافها . وربما يكون أراد بالصوان : يبيس الأرض ، أى لاسبت لها إلا ذلك .

(٣) معان (بفتح الميم) : موضع بالشام . والفترة : الضعف والسكون . والجموم : اجتماع القوة والنشاط بعد الراحة .

(٤) مسومات : مرسلات . والسموم : الريح الحارة .

(٥) مآب : اسم مدينة فى طرف الشام من نواحى البلقاء .

(٦) البريم فى الأصل : خيطان مختلطان أحمر وأبيض ، تشدهما المرأة على وسطها أو عضدها ، وكل مافيه لونان مختلطان فهو بريم أيضا . يريد ما علاها من الغبار ، فخالط لونه لونها . والدمع المختلط بالإثمد ، وهذا أقرب لمعنى البيت : أى أن دموع الخيل اختلطت بالتراب فصارت كالبريم .

(٧) ذى لجب : أى جيش . واللجب : اختلاط الأصوات وكثرتها ، والبيض : مايوضع على الرأس من الحديد . والقوانس : جمع قونس ، وهو أعلى البيضة .

(٨) تئيم : تبقى دون زوج ، يقال : آمت المرأة إذا لم تتزوج .

بهذه المعانى الرفيعة التى تضمنها هذا الشعر البليغ خاض المسلمون ـ على قلة عددهم ـ غمار حرب ضروس أمام عدو يفوقهم أكثر من ست وستين مرة ، فكانت الجنة ثوابا لشهدائهم ، وحياة الصابرين جزاء لمن كتبت لهم النجاة .

وإذا كان عبد الله بن رواحة لم يستطع أن يسجل حلاوة الشهادة شعرا لأنه لا سبيل إلى ذلك بعد أن ودع الحياة ، فإنه كان يحلم بنيلها ويتمناها ، وقد عبر عن ذلك فى شعر جميل رواه زيد بن أرقم(١).

قال زيد : كنت يتيما لعبد الله بن رواحة فى حجره ، فخرج بى فى سفره ذلك وقد أردفنى على حقيبة رحله ، فوالله إنه ليسير ليلةً إذ سمعته ينشد أبياتا فى طلب الشهادة ، فلما انتهى من إنشاده بكيت ، فخفقنى بالدرة وقال : ما عليك يالكع أن يرزقنى الله شهادة وترجع بين شعبتى الرحل وحدك .

أما أبيات عبد الله بن رواحة فى طلب الشهادة فهى قوله مناجيا ناقته :

إذا أَدَّيْتِنِى وحملتِ رَحْلِى	مسيرةَ أربعٍ بعدَ الحساء (٢)
فشأنُك أنعُمٌ وخَلاَك ذمٌّ	ولا أَرْجِعْ إلى أهلى ورائى(٣)
وجاء المُسلمونَ وغادَرُونى	بأرضِ الشامِ مُشْتهِىَ الثَّوَاءِ (٤)
وردَّكَ كلُّ ذى نسب قَرِيب	إلى الرحمن مُنْقطعَ الإخاء
هنالك لا أبالى طَلْعَ بَعْلٍ	ولا نَخْلٍ أسافلها رِوَاء (٥)

كان ذلك هو إسهام الشعر فى غزوة مؤتة ، جادت به قريحة صحابى شاعر فارس

---

(١) السيرة ٢/ ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

(٢) الحساء : جمع حسى وهو ماء يغور فى الرمل حتى يجد صخرا ، فإذا بُحث عنه وجد .

(٣) فشأنك أنعم : يريد أنه لا يكلفها سفرا بعد ذلك ، وإنما تنعم مطلقة ؛ لعزمه على الموت فى سبيل الله . ولا أرجع : قال أبو ذر : « هو مجزوم على الدعاء ، دعا على نفسه أن يستشهد ولا يرجع إلى أهله » .

(٤) الثواء . الإقامة فى المكان ، وفعله : ثوى يثوى (من باب ضرب) .

(٥) البعل : الذى يشرب بعروقه من الأرض . ورواء (بكسر الهمزة) : صفة النخل .

قائد ، تمنى الشهادة فنالها ، ودق أبواب الجنة فهلَّلت لمقدمه ورحبت باجتيازه عتباتها ولعل أبياته الهمزية هذه هى أرق شعر وأعمقه وأنبله وأفصحه قيل فى هذه الغاية السامية .

الشعر فى فتح مكة :

أسلفنا القول فى مستهل هذا الفصل أن بدايات النصر كانت مقرونة بهجرة رسول الله ﷺ ووصوله سالما إلى المدينة المنورة ، وأن ذروة النصر قد تمت بفتح مكة ودخوله ﷺ إليها مظفرا ، ترفرف رايات الإسلام من حوله ، وتتألق بنوده فى سمائها ، ومن حوله ﷺ الألوية المظفرة ، يتقدم كل لواء أميره وقائده ، ومن ثم فليس من المبالغة أن يوصف هذا الحدث الكبير بأنه أفراح الإسلام ، وانتصارات الإيمان ، وتثبيت أعلام عقيدة الله على أركان بيته بعد تحريره من الشرك وتطهيره من الأصنام .

هنا جادت قرائح الشعراء الصحابة بما لم تَجُدْ بمثيل له من قبل ، بلاغة قول ، وفصاحة شعر ، وجزالة صوغ ، ونصاعة بيان ، وحرارة وجدان .

إن بجير بن زهير بن أبى سلمى ، وقد مضى خبر سبقه إلى الإسلام وإيمانه بالرسالة وتوجيه أخيه كعب إلى الهدى ومدح رسول الله بواحدة من أشهر ما مدح به الرسول من قصيد ، يهتز طربا بنصر الإسلام وفتح مكة وعودة الرسول إليها مظفرا ، فتجود قريحته بهذه الأبيات الجزلة البناء :

نَفَى أَهْلَ الْحَبَلَّقِ كلُّ فجٍّ ... مُزَيْنَةُ غُدْوَةً وبنُو خِفَافِ (١)

ضربناهم بمكَّة يومَ فَتْحِ النَّبِىِّ الخَيْرِ بالبِيضِ الخِفَافِ

صَبَحْناهم بسبْعٍ من سُلَيْمٍ ... وألفٍ من بنى عثمان وافِ (٢)

---

(١) الحبلَّق : أرض يسكنها قبائل من مزينة وقيس . والحبلّق : الغنم الصغار ، ولعل الشاعر أراد بقوله : « أهل الحبلق» يعنى أصحاب الغنم . وبنو خفاف : بطن من سليم .

(٢) بسبع : أى بسبعمائة . وبنو عثمان : هم مزينة .

نَطا أكتَافَهُـمْ ضَرْبـا وطَعـــنا(١) ورشْقـا بالمرَيَّشَـةِ الـلِّـطــــاف (٢)

تَـرَى بينَ الصُّفـوف لهَـا حَفيفـا كمـا انصاع الفُواق مـن الرِّصـــاف (٣)

فـرُحنَا والجيـادُ تجـول فيــهِمْ بأرْمـــاحٍ مـُقــوَّمــةِ الثـِّقـــاف

فأبْنَـا غـانِمينَ بمـا اشتهينـــا وآبوا نادميـــنَ علـــى الخـــلاف

وأعطينـــا رســـولَ الله منـــّا مَواثِقنــــا على حُسْـنِ التَّصـــافى

وقــد سمعــوا مَقالَتنـا فهـمُّوا غَــداة الــرَّوع مِنــَّا بـانصــراف (٤)

ولا يتخلف عن موكب الشعر فى فتح مكة الفارس الصحابى الشاعر عباس بن مرداس ، وهو ابن الصحابية الشاعرة الفذة الخنساء . لقد أسهم العباس بن مرداس بشعره وسيفه فى كثير من الغزوات قبل الفتح وبعده ، ومن الطبيعى أن يتشكل شعر العباس بأجواء الفتح ، وأن يختلط سدى شعره ولحمته بصهيل الخيل وغبار سنابكها واشتباك القنا وبريق السيوف . يقول عباس بن مرداس فى فتح مكة (٥):

مِنّا بمكّة يومَ فَتْـحِ محمـــّدٍ أَلْفٌ تسيلُ به البطاحُ مُسَـوَّمُ (٦)

نَصَروا الرَّسولَ وشاهَدوا أيّامـــه وشعارُهُمْ يومَ اللِّقاءِ مُقـــَدَّمُ (٧)

فى مَنزِلٍ ثبتَتْ به أقْدامـُهـــُمْ ضَنْكٍ كأنّ الهامَ فيه الحَنْـــتَمُ(٨)

جَرَّتْ سَنابِكَها بنَجْدٍ قَبْـلَهـــا حتى استَقادَ لها الحجازُ الأدهـــَمُ

---

(١) كذا فى م ، ر . وفى أ : « أكنافهم » بالنون . والأكناف : الجوانب .

(٢) نطا : أراد نطأ ، فخفف الهمزة . والرشق : الرمى السريع ، والمريشة : يعنى السهام ذوات الريش .

(٣) الحفيف : الصوت . وانصاع : انشق . والفواق هنا : الفوق ، وهو طرف السهم الذى يلى الوتر . والرصاف : جمع رصفة ، وهى عصبة تلوى على فوق السهم .

(٤) السيرة لابن هشام ٢ / ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

(٥) السيرة ٢/ ٤٢٦ .

(٦) البطاح : جمع بطحاء ، وهى الأرض السهلة المتسعة . ومسوم : أى مرسل ، أو هو المعلم بعلامة .

(٧) شعارهم : علامتهم فى الحرب .

(٨) ضنك : ضيق . والهام : الرءوس : والحنتم . الحنظل .

اللهُ مَكَّنَــهُ لــــهُ وأذلَّـــهُ ... حُكْمُ السُّيوفِ لنا وجَدٌّ مِزْحَم (١)

عُودُ الرياسةِ شَامخٌ عِرْنِينُــهُ ... مُتَطَلِّعٌ ثُغَرَ المكارمِ خِضْرِمُ (٢)

وفى مقام الاعتذار والاستسلام يقف أَنَسُ بن زُنَيْم الدّيلى بين يدى رسول الله يعتذر مما كان قاله فيهم عمرو بن سالم الخزاعى ، وهى الأرجوزة الدالية القافية التى أنشدها عمرو بن سالم بين يدى رسول الله فكانت سببا من أسباب المسارعة إلى فتح مكة ، ومطلعها :

يارب إنى ناشدٌ محمــدا ... حلف أبينا وأبيه الأَتْلَدَا

وفيها يذكر نقض قريش وأحلافهم عهدهم لرسول الله ويقول :

هم بَيّتونا بالوتير هُجَّدا ... وقتلونا رُكَّعاً وسُجَّدَا

إن قصيدة أنس بن زنيم من أرق ما قيل فى الاعتذار لرسول الله ﷺ ومن أجمل ما قيل فى مدحه ﷺ قال أنس : (٣)

أأَنتَ الذى تُهْدَى مَعَدٌّ بأمـــرِه ... بَلِ اللهُ يَهْدِيهم وقـــالَ لَك اشهَـدِ

وما حَمَلَتْ مِنْ ناقةٍ فَوْقَ رَحْلِـها ... أَبَرَّ وأوْفى ذمةً مـــن مُـحَمـــد

أَحَثَّ على خيرٍ وأسبغَ نائـــلا ... إذا راحَ كالسيف الصَّقيـلِ المُهنَّد

وأَكْسَى لبُرْدِ الخال قبل ابْتذالـهِ ... وأعْطى لـرأس السَّابق المتجرّد (٤)

تعلّمْ رسولَ الله أنَّكَ مُدْرِكـى ... وأنَّ وَعيدًا مِنك كالأخذِ باليــد (٥)

---

(١) مزحم : كثير المزاحمة ، يريد أن جدهم غالب .

(٢) العود (هنا) : الرجل المسن ، العرنين : طرف الأنف . الخضرم : هو الجواد الكثير العطاء .

(٣) السيرة ٢ / ٤٢٤ .

(٤) الخال : ضرب من برود اليمن ، وهو من رفيع الثياب . والسابق (هنا) : الفرس . والمتجرد : الذى يتجرد من الخيل فيسبقها .

(٥) تعلّم : اعلم . والوعيد : التهديد .

تَعَلَّمْ رسُولَ الله أَنَّكَ قــادِرٌ ... على كل صِرْمٍ مُتْهِمين ومُنجِـد (١)

تعَلَّمْ بأن الرَّكبَ رَكْبُ عُوَيْـمرٍ ... هُمُ الكاذبونَ المُخْلفُو كلّ موْعِـد

ونَبَّوْا رسولَ الله أنّى هَجـوْتـُه ... فلا حملَت سوطى إلىّ إذَنْ يـدِى

إلى أن يقول :

فإنِّى لا دِيناً فَتَقْتُ وَلاَ دَمًا ... هَرَقْتُ تَبَيَّنْ ـ عَالِمَ الحقِّ ـ فاقْصِدِ

إن الصحابى بديل بن عبد مناف بن أم أصرم لا يكاد يسمع شعر أنس بن زنيم حتى يسارع إلى الرد عليه فيما يشبه النقائض ، ولكن فى غير إسفاف ، فقد كان القوم جميعا مستظلين بوقار الفتح مذعنين لقداسة هذا اليوم العظيم . قال بديل مجيباً :

بَكَى أَنَسٌ رزْناً فأعـوِلـهُ البُكا ... فَأَلاَّ عَديًّا إذْ تـطَـلُّ وتُبْعـدُ (٢)

بكَيْتَ أبا عَبْسٍ لقُرْب دمائـهـا ... فتُعذِرَ إذْ لا يُوقِـدُ الحـربَ مـُوقـدُ

أصابـهـمُ يومَ الخـنادِمِ فتـيـةٌ ... كِرامٌ فسَلْ ، منهم نُفَيْلٌ ومعـبَدُ (٣)

هنـالك إن تُسفَـح(٤)دموعُـك لا تُلَمْ ... عليهم وإن لم تدمعِ العينُ فاكمَدُوا (٥)

وفى مجال فتح مكة وهزيمة المشركين وشعرائهم ، هنا يتطلع المرء إلى ما يمكن أن يصنعه شاعر الشرك والمشركين عبد الله بن الزِّبَعْرَى ، لقد عمد إلى الفرار مثلما صنع غيره من عتاة المشركين ، فشدّ الرحال إلى نجران وقد ظن أنه بمنجاة من سوء المصير ومن سيف القصاص العادل .

---

(١) صرم : بيوت مجتمعة . ومُتْهِمين : ساكنين فى التهام ، وهى المنخفض من الأرض . والمنجد : من يسكن النجد ، وهو المرتفع .

(٢) العويل : رفع الصوت بالبكاء . وتطل : يبطل دمها ولا يؤخذ بثأرها .

(٣) يوم الخنادم : أراد يوم الخندمة ، فجمعها مع ماحولها ، وهى جبل بمكة .

(٤) تسفح : تسيل .

(٥) فى أ : فأكمدِ (بكسر الدال) على أنه أمر للواحد ، وبهذه الرواية يكون فى البيت إقواء .

لقد كان ابن الزبعرى شديد العداوة لرسول الله وللمسلمين ؛ يحاربهم بالسيف ويهجوهم باللسان ، ويؤلب عليهم القبائل ، ويأتمر بأمر عتاة كفار قريش ، لقد وهم ابن الزبعرى حين ظن أن نجران صارت له دار أمن وسلام ، ولكن سيف حسان بن ثابت المتمثل فى عبقريته طارده هناك ، وأرسل إلى نجران أبياتا قال فيها :

لَا تَعْدَمَنْ رجلاً أَحَلَّكَ بُغْضَـــــهُ

نجرانَ فى عيشٍ أَحَذَّ لَئـــيمِ

بَلِيَتْ قناتُكَ فى الحـــروبِ فأُلْفِيَتْ

خوَّارةً خَوْفَاءَ ذاتَ وُصـــُومِ

غَضَبُ الإِلَهِ على الزِّبَعْرَى وَابْنِهِ

وعَذَابُ سُوءٍ فى الحياةِ مقيمِ

فلما وصل شعر حسان إلى مسامع ابن الزبعرى لم يجد خيرا من أن يتوجه إلى رسول الله وهو جالس فى أصحابه ، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال : « **هذا ابن الزبعرى ومعه وجه فيه نور الإسلام** » فلما وقف على رسول الله ﷺ قال : السلام عليك يا رسول الله ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله ، الحمد لله الذى هدانى للإسلام ، لقد عاديتك ، وأجلبت عليك وركبت الفرس والبعير ، ومشيت على قدمىّ فى عداوتك ، ثم هربت منك إلى نجران وأنا لا أريد أن أقرّ بالإسلام أبدا ، ثم أرادنى الله منه بخير ، وألقاه فى قلبى ، وحبّبه إلىّ ، وذكرت ما كنت فيه من الضلالة واتباع ما لا ينبغى من حجر يُذبح له ويُعبد ، لا يدرى من عبده ، ولا من لا يعبده .

هنا تبدو ملامح النبوة وأخلاقها على وجه رسول الله ، فلا تصدر منه كلمة لوم أو إشارة تقريع ، وإنما يقول فى سماحة ووقار : « **الحمد لله الذى هداك للإسلام ، إن الإسلام يجبّ ما كان قبله** » .

هنا يقف ابن الزبعرى بين يدى الرسول منشدا معتذرا قائلا :

يا رسولَ المليكِ إنَّ لســانــــى رَاتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أَنــَا بـــــُورُ
إِذْ أُبَارِى الشيطانَ فى سُنَنِ الـغَىِّ وَمن مَال مَيْلَهُ مَثــــْـــبُورُ
آمَنَ اللحمُ والعظَامِ لِرَبِّــــى ثُم قلبى الشهيدُ أَنْتَ النذيــرُ
إننــى عنكَ زاجرٌ ثَمَّ حَـيــًّا مِــنْ لُؤَىٍّ وكلهــم مغــرورُ (١)

ويدخل عبد الله بن الزبعرى من باب الإيمان الواسع والسماحة الأوسع ، وينتظم قافلة المؤمنين .

ومن أخلاق النبوة التى كانت جبلة رسول الله وسماحته وهو فى أوج الانتصار ما حدث مع فضالة بن عمير بن الملوح الليثى الذى أراد قتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة ، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : أفضالة ؟ ! قال : نعم : قال : « **ماذا كنت تحدث به نفسك ؟** » قال : لا شىء ، كنت أذكر الله ، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال : « **استغفر الله** » ثم وضع يده الشريفة على صدره فسكن . وكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق شىء أحب إلىّ منه ، ورجع فضالة إلى أهله ، قال : فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلم إلى الحديث ، فقلت : لا .

وانبعث فضالة يقول :

قالتْ هلمَّ إلى الحديثِ فقلت لا
يَأْبَى عـــــلَىَّ اللهُ والإســــلامُ
لَوْ مَا رأَيتِ محمداً وقَبِـــيلَــهُ
بالفتح يَوْمَ تُكَـــسَّرُ الأصــــنامُ
لَرَأَيْتِ دِينَ الله أَضْحَى بَيِّنــا
والشركُ يَغْشَى وَجْهَهُ الإظـلامُ (٢)

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٧٥ ، ٣٧٦ .
(٢) المصدر السابق ٥ / ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

وتتجلى سماحة رسول الله فى ذلك اليوم ، يوم الفتح الذى يوحى إلى النفس أنه كان يوما جهوما ؛ وأن رسول الله كان فى ذلك اليوم مقطب الوجه عبوسا ، ولكن الواقع كان على العكس من ذلك . فقد مرت كتيبة رسول « الخضراء» وكان أعطى رايته سعد بن عبادة الذى كان يتقدم الكتيبة ، فلما مرّ سعد براية رسول الله ، وكان أبو سفيان يرقب سير المواكب ، نادى أبا سفيان فقال : اليومُ يومُ الملحمة ، اليومُ تستحلُّ الحرمة ، اليوم أذلَّ الله قريشا .

فلما مرّ رسول الله ﷺ بأبى سفيان ، قال : يا رسول الله ، أمرت بقتل قومك ؟ ! ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة ؟ قال : « ما قال ؟ » قال أبو سفيان : قال كذا وكذا ، وإنى أنشدك الله فى قومك ، فأنت أبرّ الناس ، وأرحم الناس ، فقال رسول الله ﷺ : «كذب سعد يا أبا سفيان ، اليوم يوم المرحمة ، اليوم يوم يعظم الله فيه الكعبة ، اليوم يوم تكسى فيه الكعبة ، اليوم يوم أعزّ الله فيه قريشا » .

فى مضمار هذه الأحداث ينشىء ضرار بن الخطاب الفهرى ـ وكان من شعراء المشركين ـ شعرا يستعطف به رسول الله على أهل مكة وقد سمع قول سعد ، ولكى يكون وقع الشعر أبلغ فى انعطاف رسول الله ﷺ على قريش فقد أرسل به امرأة أنشدته على مسامع الرسول معترضة إياه فى موكبه .

قالت المرأة منشدة شعر ضرار :

يا نبيَّ الهدى إليكَ لَجَا ... حيُّ قريشٍ ولاتَ حِينَ لَجاءِ

حين ضاقتْ عليهمُ سعةُ الأرْ ... ضِ وعاداهمُ إلهُ السماءِ

والْتَقَتْ حلْقَتَا البِطَان عَلَى القَوْ ... مِ ونُودُوا بِالصَّيْلم الصّلْعاءِ

إنَّ سَعْدًا يُرِيدُ قَاصِمَةَ الظَّهْـ ... ـرِ بِأَهْلِ الحَجُون وَالْبَطْحَاءِ

خَزْرَجِيٌّ لَوْ يَسْتَطِيعُ من الغيـ ... ـظ رَمَانابالنَّسر والعَوَّاءِ (١)

(١) وفى رواية : « خزرجى لايستطيع من البغض رمانا بالنسر والعواء »

وغِرُ الصَّدْرِ لاَ يَهُمُّ بِشَيءٍ ... غير سَفْكِ الدِّما وَسَبْى النِّسَاءِ

قَدْ تَلَظَّى عَلَى الْبِطَاحِ وَجَاءَتْ ... عَنْهُ هِنْدٌ بِالسَّوْءَةِ السَّوْآءِ

إذْ يُنادِي بِذُلِّ حَيّ قُرَيْشٍ [1] ... وابن حَرْب بِذَا مِنَ الشُّهَدَاءِ

فلَئِنْ أَقْحَمَ اللِّوَاءَ وَنَادَى ... يَا حُمَاةَ الْأَدبَارِ أَهلَ اللواءِ

ثُمَّ ثَابَتْ إِلَيْهِ من بُهْم الخز ... رج والْأَوْس أَنْجُمُ الْهيجَاءِ

لتكونن بالبطاح قريش ... فِقعَةُ الْقَاعِ فِي أَكُفِّ الْإِمَاءِ

فأنهينَه فإنه أَسَدُ الْأَسْ ... د لَدَى الْغَاب والغ فى الدِّمَاءِ [2]

إنَّه مُطْرِقٌ يُرِيدُ لَنَا الْأَمْ ... رَ سكوتاً كَالْحَيَّةِ الصَّمَّاءِ

فلما سمع رسول الله ﷺ هذا الشعر أرسل إلى سعد فنزع اللواء من يده وجعله إلى ابنه قيس بن سعد ، ورأى رسول الله ﷺ أن اللواء لم يخرج من يد سعد حتى صار إلى ابنه [3].

ولعل « همزية » حسّان الشهيرة كانت العروس العصماء بين القصائد الحسان التى جادت بها قرائح شعراء الرسول فى فتح مكة . لقد أطلق حسان لنفسه العنان ، وترك شاعريته على سجيتها فحنّت لماضيها فى افتتاح القصائد بالوقوف على الأطلال ، واستهلالها بالنسيب وذكر طيف الحبيب ، والتفنن فى وصف الخمر ، وهو نمط من القول كان يألفه الشاعر فى الجاهلية ، ولكن لا بأس فى ذلك مادام الأمر لم يتجاوز حدود التخيّل وإطار التمثُّل .

إن حسان بن ثابت ينشىء أبياتا يستغرق فيها نماذج الماضى عدتها تسعة على هذا النحو [4]:

---

(١) وفى رواية : إذ ينادى ياذل حى قريش .

(٢) وفى رواية :

فانهينه فإنه الأسد الأسـ ... ـود والليث والغ فى الدماء

(٣) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٣٦ .

(٤) ديوان حسان ص : ١١ ومابعدها ، والسيرة ٢/ ٤٢٢ ومابعدها .

عفت ذاتُ الأصابع فالجِــواءُ	إلى عذراءَ مــنزلُـــــها خــــلاءُ
ديارٌ من بنى الحَسْحاس قَفْــرٌ	تُعَفِّيها الرَّوامـسُ والـــسَّماء [1]
وكانَتْ لا يَزَالُ بهـــا أنيـــسٌ	خِلال مُرُوجها نَعَـمٌ وشـــاء [2]
فدَعْ هذا ، ولكنْ مَنْ لِطَـيْفٍ	يُؤَرِّقُنِى إذا ذَهَـبَ العِـشاء[3]
لِشَعْثاءَ التى قد تَـيَّمَتْـــــهُ	فليْسَ لقَلْبِهِ منــها شـــفاء[4]
كأنّ خَبيئَةً مِن بيـــــت رأس	يكون مزاجَهَا عسلٌ ومـــاءُ [5]
إذا ما الأشْرِباتُ ذُكِرْنَ يَوْمـــا	فهُنَّ لطيِّب الراحِ الفـــِداءُ [6]
نوَلِّيها المَلامَةَ إن أَلَـــــمْنَا	إذا ما كان مَغْثٌ أو لحـــاءُ [7]
ونَشْرَبها فتَتْرُكنا مــُلوكـــــا	وأُسْدًا ما يُنَهْنِهُنَا اللـــِّقاءُ [8]

بعد ذلك يخطو حسان إلى صلب الغرض من قصيدته فيصور أجواء الفتح وحركة الفرسان ونشاط الخيل مهيئا جوًّا إسلاميا فى نطاق من العون الربانى بذكر جبريل ـ

---

(١) بنو الحسحاس : حى من بنى أسد . وأصل الحسحاس : الرجل الجواد ، ولعله مراد هنا . والروامس : الرياح التى ترمس الآثار ، أى : تغطيها ، والسماء : المطر . (عن السهيلى) .

(٢) النعم : المال الراعى ، وهو جمع لاواحد له من لفظه ، وأكثر مايقع على الإبل ، والشاة من الغنم ، يقع على الذكر والأنثى ، والجمع شاء وشياه .

(٣) الطيف : خيال المحبوبة يلم فى النوم . ويؤرقنى : يسهرنى . يريد أن الطيف إذا زال عنه وجد له لوعة تؤرقه .

(٤) شعثاء : اسم امرأة ، قيل هى بنت سلام بن مشكم اليهودى ، كما فى السهيلى ، وقيل : هى امرأة من خزاعة ، كما فى نوادر ابن الأعرابى ، وقيل غير ذلك .

(٥) الخبيئة : الخمر المخبوءة المصونة المضنون بها . وبيت رأس : موضع بالأردن مشهور بالخمر الجيدة . وبعد هذا البيت فى الديوان المطبوع بأوربا :

على أنيابها أو طعم غض ... من التفاح هصره اجتناء

وعلق عليه السهيلى فقال : البيت موضوع ، لايشبه شعر حسان ولا لفظه .

(٦) الأشربات : جمع الأشربة : جمع شراب . يريد أن الأشربة غير راح بيت رأس لاتدانيها فى اللذة .

(٧) نوليها الملامة : نصرف اللوم إليها . إن ألمنا : إن فعلنا مانستحق عليه اللوم . يقال : ألام الرجل فهو مليم . والمغث : الضرب باليد ، واللحاء : السباب .

(٨) ينهنهنا : يزجرنا ويردنا .

عليه السلام ـ ورسالة محمد ﷺ وهو لا ينسى فى هذا السياق أن يفخر بقومه الأنصار ، ويقول :

عَدِمنْا خَــيْلَنَا إن لَمْ تَـرَوْهَـــا ... تُثِيرُ النَّقْعَ مَــوْعِدُها كَــدَاءُ (١)

يُنازِعْـنَ الأعِنــَّةَ مـُصْغِـيات ... على أكتافِها الأَسَـــلُ الظِّـماءُ (٢)

تظلُّ جــيَادنَا مُتَمــطِّـــرات ... يُلَطِّمُهُنَّ بالخُـمُرِ النِّـــساءُ (٣)

فإمَّا تُعْرِضُوا عــنَّا اعــتَمَرنَـــا ... وكان الفَتحُ وانكشف الغِطـاءُ (٤)

وإلا فاصْبِرُوا لجِــلادِ يـــوْمٍ ... يُعِزُّ اللهُ فـــيهِ منْ يــشَـاءُ (٥)

وجــبريلٌ رســولُ الله فِيـــنا ... وروح القُدْسِ ليس له كِــفاءُ (٦)

وقال الله قد أرْســلْتُ عَبــْداً ... يقُولُ الحَقَّ إنْ نَفَعَ البَــلاءُ (٧)

شَهِـدتُ به فَقُومُوا (٨) صَدِّقُــوهُ ... فقلــتُمْ لا نــقــوم ولا نَشَاءُ

وقالَ اللهُ قد سيَّرْتُ جُــنْدًا ... هُمُ الأنْصَارُ عُرْضَتُها اللــقاء (٩)

لنَا فى كلِّ يـــوْمٍ مَنْ مَعَــدّ ... ســبابٌ أو قِتــالٌ أو هــجاءُ

---

(١) النقع : الغبار . وكداء (بوزن سحاب) : ثنية بأعلى مكة .

(٢) الأعنة : جمع عنان ، وهو اللجام . والمصغيات : المواثل المنحرفات للطعن . والأسل : الرماح . والظماء : العطاش . ويروى : (يبارين الأسنة) بدل : (ينازعن الأعنة) . و (مصعدات) بدل مصغيات .

(٣) المتمطرات : قيل معناه المصوبات بالمطر . ويقال : المتمطرات : التى يسبق بعضها بعضا . ويلطمهن : تضرب النساء وجوههن لتردهن . والخمر : جمع خمار ، وهو ماتغطى به المرأة رأسها ووجهها ، أى أن النساء كن يضربن وجوه الخيل بخمرهن يوم الفتح . قال السهيلى : وقال ابن دريد فى الجمهرة : كان الخليل رحمه الله يروى بيت حسان : (يطلمهن بالخمر) وينكر : (يلطمهن) ويجعله بمعنى ينفض النساء بخمرهن ما عليهن من غبار أو نحو ذلك .

(٤) اعتمرنا : أدينا مناسك العمرة ، وهى زيارة بيت الله الحرام .

(٥) الجلاد : القتال بالسيوف . ويروى : (يعز الله) بدل (يعين الله) .

(٦) كفاء : مثل .

(٧) البلاء : الاختبار .

(٨) رواية الديوان : (وقومى) .

(٩) عرضتها اللقاء : عادتها أن تتعرض للقاء ، فهى قوية عليه .

فنُحْكِمُ بالقَوَافِى مَنْ هَجَانا ... ونَضْرِبُ حين تختلِطُ الدّماءُ (١)

ولما كان أبو سفيان ـ واسمه المغيرة ـ بن الحارث بن عبد المطلب ـ وهو ابن عم النبى ـ قد هجا رسول الله وعارض الرسالة ، فإن حسانا يتصدى له ويهجوه دون أن ينصرف هجاؤه إلى آل البيت ، فقد كان رسول الله يشفق من أن ينال هجاء حسان أحدا من بيت عبد المطلب ، ولكن حسانا كان يجيبه قائلا : والله لأسلنك منهم كما تسلّ الشعرة من العجين ، وقد فعل حسان ذلك فى حرص بالغ وذلك فى قوله :

ألا أبْلغْ أبَا سُفيانَ (٢) عنّى ... مُغَلغَلَةً (٣) فقد بَرِحَ الخفاءُ

بأن سُيوفَنا تَرَكَتْكَ عَبْدًا ... وعبدُ الدّار سادَتُها الإماءُ (٤)

هَجَوْتَ محمَّدًا وَأَجَبْتُ عنهُ ... وعندَ الله فى ذَاكَ الجزَاءُ

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيرِكُمَا الْفِدَاءُ

هَجَوْتَ مُباركا بَرًّا حَنِيفاً ... أمِينَ الله شيمتُه الوفاءُ (٥)

أمن يَهجْورسولَ اللهمنكمْ ... ويمدَحُه وينصرهُ سَوَاءُ ؟

فإنّ أبى ووالده وعِرضى ... لعرض محمَّد منكم وِقَاءُ

لسانى صارمٌ لا عيبَ فيه ... وبحرى لا تُكدرِّه الدّلاءُ

قال ابن هشام : قالها حسَّان يوم الفتح . ويُروى : « لسانى صارم لا عتب فيه »

---

(١) نحكمه : نمنعه ونكفه ، ومنه سمى القاضى حاكما ؛ لأنه يمنع الناس من الظلم .

(٢) أبو سفيان : هو المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبى ، وكان هجا النبى قبل أن يسلم .

(٣) مغلغلة : رسالة ترسل من بلد إلى بلد . ورواية هذا البيت فى الديوان :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى ... فأنت مجوَّف نخب هواء

المجوف : الخالى الجوف ، يريد به الجبان ، وكذلك النخب والهواء .

(٤) [illegible] أن سيوف الأنصار جعلت أبا سفيان كالعبد الذليل يوم فتح مكة ، وأن سادة بنى عبد الدار صاروا كالإماء فى [illegible] والهوان .

(٥) [illegible] : المسلم ؛ لأنه مال عن الباطل إلى الحق ، وشيمته : يعنى طبيعته .

وبلغنى عن الزهرى أنه قال : لما رأى رسول الله ﷺ النِّساء يَلْطمن الخيلَ بالخُمُر تبسّم إلى أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه .

الحق أن فتح مكة مثلما كان عيدا للإيمان كان عيدا للشعر أيضا ؛ تنفس فيه الشعراء المسلمون الصعداء فتأنقوا فى القول ، وتألقوا فى الفخر ، ولا ضير عليهم فى ذلك ؛ لأن سلاح الشعر لم يكن أقل شأنا من وقع السيف ورشق الرماح .





الفصل التاسع

مراثى شعراء الرسول
شهداء الغزوات



مراثى شعراء الرسول
شهداء الغزوات

شهداء أحد :

كانت تجربة المسلمين فى أحد شديدة المرارة حادة المذاق ، ذلك لأنهم قبل عام واحد كان النصر حليفهم على أعداء الله وأعدائهم فى بدر ، أما فى أحد فقد اختلف الحال ؛ لأنهم لم يلتزموا تخطيط رسول الله ﷺ فى المعركة حين أمر رسول الله فيلق الرماة ألا يغادروا مكانهم مهما كانت الأسباب ، ولكنهم حين حمى وطيس المعركة وظهر لهم أن الغلبة للمسلمين تركوا أمكنتهم ليغنموا ما خلفه قتلى المشركين فى ميدان القتال ، مما جعل كفة المعركة تتحول لصالح كفار قريش .

ولكن الهزيمة التى لحقت بجيش المسلمين فى أحد لا ينبغى أن تحجب مواقف وأحداثا لم تتكرر فى غير غزوات رسول الله ﷺ فقد كان أشد المقاتلين المسلمين قوة واستبسالا أبا دجانة سماك بن خرشة ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب .

أما أبو دجانة فقد حارب بسيف رسول الله ﷺ فى خبر أوردته كل كتب السيرة ، فعن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ أخذ سيفا يوم أحد فقال : « **من يأخذ منى السيف بحقه ؟** » فقام أبو دجانة وقال : وما حقه ؟ قال : « **أن تضرب به فى العدو حتى ينحنى** » قال : فأنا آخذه يارسول الله ، فأعطاه إياه ، وكان رجلا شجاعا يختال عند الحرب : وكان إذا قاتل أعلم بعصابة له حمراء فاعتصب بها ، ثم جعل يتبختر بين الصفين ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه يتبختر: «**إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن**» .

وفى رواية أن أبا دجانة لما قال : وما حقه يارسول الله ؟ قال : « **ألا تقتل به مسلما**

ولا تفرَّ به عن كافر»[1] فقاتل به أبو دجانة حتى أمعن فى الناس ، يعنى أمعن فى قتل المشركين . وحين اقترب المشركون من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ترَّس أبو دجانة بنفسه دون رسول الله ، يقع النبل فى ظهره وهو منحنٍ على رسول الله حتى كثرت فيه النبل ، وكذلك فعل مصعب بن عمير إذ ظل يقاتل دون رسول الله ﷺ حتى قتل ، قتله ابن قميئة الليثى ، وهو يظنه رسول الله ﷺ فرجع إلى قريش فقال : قتلت محمدا .

وأما حمزة عم رسول الله ﷺ فإن بلاءه فى ساحة القتال واستبساله فى لقاء المشركين واجتياحه رقاب الفرسان لما حدا بأعدائه وبخاصة هند بنت عتبة ، زوج أبى سفيان ابن حرب أن تتآمر على اغتياله فى ساحة المعركة باستئجار العبد الحبشى المسمى «وحشى » الذى ندم على فعلته بعد إسلامه فى فتح مكة ، ووطن نفسه على تكفير ذنبه فى قتل حمزة ، فتقدم فى حرب الردة وقتل مسيلمة الكذاب .

كان حمزة ـ فيما يروى سعد بن أبى وقاص ـ يقاتل يوم أحد بين يدى رسول الله ﷺ بسيفيْن ويقول : أنا أسد الله .

ومن بطولات الصحابة يوم أحد ـ رواية عن أنس ـ أنه لما انهزم الناس عن رسول الله وقف أبو طلحة يترس على رسول الله بحجفة معه ، وكان رجلا راميا ، شديد التمكن فى استعمال قوسه وسهامه ، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة ، وكان الرجل يمر بالجعبة فيها النبل فينثرها لأبى طلحة ، وحين كان يشرف رسول الله فينظر إلى الصناديد يتحاربون كان أبو طلحة يقول له : يا نبى الله بأبى أنت وأمى ، لا تشرف ، يصيبك سهم من سهام القوم ، نحْرِى دون نَحْرِكَ .

إن يوم أحد كان ـ برغم الهزيمة ـ يوما مشهودا لبطولات صحابة رسول الله من فاز بالحياة منهم أو من فاز بالشهادة ، وهى بطولات فريدة وخارقة ، وحتى نساء المسلمين كن صاحبات مواقف شجاعة فى معمعة القتال ، يقول أنس : لقد رأيت عائشة بنت أبى بكر (أم المؤمنين) وأم سُلَيْم بنت مِلْحَان ـ وهى أمه ، أى : أم أنس ـ وهما

---

(١) مغازى الذهبى ١٣٧ .

مشمرتان أرى خدم سوقهما - أى : الخلاخيل - تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانه فى أفواه القوم[1].

إن مواقف البطولة والإيثار فى غزوة أحد لمما يعتز به وجه الإسلام ، منها موقف عبد الله بن جحش ، وموقف سعد بن الربيع وهو يجود بنفسه ، وأنس بن النضر عم أنس ابن مالك ، وعمرو بن الجموح ، ووالد أبى سعيد الخدرى .

لقد جاد عدد من كبار الصحابة من مهاجرين وأنصار بأرواحهم فى أشد المعارك التى خاضها المسلمون شراسة ، وكانوا جميعا من الصفوة ، فحزن الناس على شهدائهم وبكوهم ، وحزن رسول الله ﷺ على صحابته الشهداء وقال : « **زملوهم بدمائهم ، فإنه ليس أحد يُكْلَمُ فى الله إلا وهو يأتى يوم القيامة وجرحه يدمى ، لونه لون الدم وريحه ريح المسك** » .

وكان حزن رسول الله ﷺ أشد ما يكون على حمزة ؛ فهو عمه ، وتربه فى العمر ، وأخوه فى الرضاع ، وكان رسول الله ﷺ وحمزة وأبو سلمة بن عبد الأسد، إخوة من الرضاعة ، أرضعتهم مولاة لأبى لهب اسمها ثويبة ، فلما وقف الرسول ﷺ على حمزة قال : « **لن أصاب بمثلك أبدا ، ما وقفت موقفا قط أغيظ إلىّ من هذا** » ثم قال : « **جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب فى أهل السموات السبع : حمزة بن عبد المطلب أسد الله ، وأسد رسوله** » [2].

كان حزن الرسول على حمزة هو حزن محمد الإنسان على عمه وأخيه من الرضاعة وصاحبه والمدافع عنه فى أحلك الأوقات أيام كان المشركون يلحقون به الأذى قبل الهجرة ولذلك فإنه ﷺ وقد مر بدار من دور الأنصار من بنى عبد الأشهل وظفر ، فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم ذرفت عيناه ﷺ فبكى ، ثم قال : « **لكن حمزة لا بواكى له** » فلما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير إلى دار بنى عبد الأشهل أمرا نساءهم أن يتحزمن ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله ، فلما سمع رسول الله بكاءهن على حمزة خرج

---

(١) المغازى للذهبى ص : ١٤٢ .

(٢) السيرة لابن هشام ٢ / ٩٦ .

عليهن وهنّ على باب مسجده يبكين عليه ، فقال : « **ارجعن يرحمكن الله ، فقد آسيتنّ بأنفسكن** » (١).

من هنا كان رثاء الشعراء لقتلى المسلمين بصفة عامة ولحمزة ـ رضى الله عنه ـ بصفة خاصة تخفيفا لمشاعر الحزن فى قلب رسول الله ، واستجابة للخسارة الكبرى التى حلت بالمسلمين بفقد حمزة صاحب المواقف والشمائل ، الفارس المغوار فى سبيل الله ، المدافع عن رسول الله ، الذائد عن حمى الرسالة الخاتمة .

على أن من الأمور الجديرة بالذكر قبل أن نعرض المراثى التى قالها شعراء الرسول فى شهداء أحد أن نشير إلى أن الانتصار الموقوت الذى ظفر به الجانب المشرك من قريش قد جعل شعراءهم يتفاخرون بهذا النصر وينشئون القصائد التى يشنون من خلالها حملة على المسلمين، وقد وقر فى خواطرهم أن ذلك يفت فى عضد المسلمين ويوهن من عزائمهم ، ولكن شعراء الرسول كانوا لهم بالمرصاد، فلا يكاد شاعر مشرك ينشىء قصيدة وينشرها حتى ينفر له شاعر مسلم يناقضه بقصيدة أخرى تكذب أقواله وتسفه أحلامه وتهدم أوهامه .

لقد كانت معركة نقائض شعرية لم تخل من خطورة ، وكان القصيد فيها متين السبك بعيد المرامى عند كل فريق ، ولعل معارك النقائض التى شهدها عصر بنى أمية واشترك فيها جرير والفرزدق والأخطل والراعى وغيرهم كانت شديد التأثر بنقائض شعراء الرسول وشعراء المشركين من حيث الشكل والإطار أكثر من تأثرها بنقائض الجاهليين .

كان جانب المشركين يمثله من الشعراء عبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب الفهرى، وهبيرة بن أبى وهب المخزومى وعمرو بن العباس، وكان لواء الدفاع الإسلامى منعقدا على حسان بن ثابت وكعب بن مالك، وكانت المبادرة تنبع من جانب شعراء المشركين إلا فى حالة أو حالتين ، فلا يلبث شعراء الرسول أن ينشطوا للرد عليهم فى كفاءة وحسم (٢).

---

(١) السيرة لابن هشام ٢ / ٩٩ .

(٢) وردت نماذج كثيرة من هذه النقائض فى السيرة لان هشام ٢ / ١٢٩ وما بعدها .

على أن وصف الحرب فى أحد قد استولى على قريحة كعب بن مالك، فقد كان مقتنعا بقدرة المسلمين على امتلاك ناصية النصر برغم قلة عددهم وكثرة عدد جيش المشركين وعددهم؛ لأن ثمت فرقا كبيرا بين عزم المحارب المؤمن وعزم المحارب المشرك، ومن الطبيعى أن يعطر الشاعر الصحابى أردان قصيدته بذكر رسول الله ﷺ والإشادة ببعض مناقبه، وهذا بعض ما قصد إليه كعب بن مالك فى قصيدته[1]:

سـائِلْ قُرَيشا غدَاة السَّفْح من أُحُدٍ ... مـاذا لَقِينا وما لاقَوْا مِـنَ الحَـرَبِ[2]

كُنَّا الأسـودَ وكانوا النُّمْر إذ زَحفـوا ... مـا إنْ نُرَاقِبُ مـن آلٍ ولا نَسَـبِ[3]

فكَمْ تَركـنا بهـا مـن سَيِّدٍ بـَطَلٍ ... حامـى الذِّمار كَرِيم الجَدّ والحَسَب[4]

فينـا الرَّسولُ شِـهابٌ ثُـم يَتْبـعه ... نُورٌ مُضِىءٌ له فَضْل على الشُّهـب

الحَـقُّ مَنْطِقه والعَـدْل سِـيـرتُهُ ... فمَنْ يُجِبْه إليه يَنْـجُ مـن تَبَـب[5]

نَجْد المُقدَّم، ماضِى الهَـمّ، مُعْتزم ... حين القُلوب على رجْفٍ من الرُّعُب[6]

يَمْضِى ويَذمرُنا عن غير مَعْصِـيَة ... كأنه البدرُ لم يُطبع على الكَـذب[7]

بَدَا لنـا فاتَّبَـعْـناه نُصَـدِّقُـه ... وكذَّبـوه فكُـنَّا أسعـدَ العَـرَب

جالُوا وجُلْنـا فما فاءوا ومـا رَجَـعوا ... ونحن نَثْقِفهم لم نَأْلُ فى الطَّـلَـب[8]

ليسا سواءً وشَتَّـى بين أمْـرِهمـا ... حزْبُ الإله وأهـل الشِّرك والنُّصُـب[9]

---

(١) السيرة ٢ / ١٦١.

(٢) السفح: جانب الجبل مما يلى أصله.

(٣) النمر: جمع نمر، وهو معروف.

(٤) حامى الذمار: أى يحمى ما تجب حمايته.

(٥) التبب: الخسران.

(٦) الرجف: التحرك. والرعب: الفزع.

(٧) لم يطبع: لم يخلق.

(٨) جالوا: تحركوا. وفاءوا: رجعوا. ونثقفهم: نتبعهم. ولم نأل: لم نقصر.

(٩) النصب: حجارة كانوا يذبحون لها ويعظمونها.

ومن الأحداث الجديرة بالذكر والانتباه أن نصر المشركين على المسلمين لا يصح أن يسمى نصرا ؛ لأن خسائرهم فى قادتهم وحملةلوائهم كانت من الجسامة بمكان ، ذلك أن لواءهم كان معقودا على بنى عبد الدار ، وقد كان ذلك أيضا فى بدر حيث زلزلوا زلزالا ، ولذلك فإن أبا سفيان بن حرب قائد جيش المشركين فى أحد كان قليل الثقة فى حملة لواء جيشه ، وكان على رغم كثافة جيشه يخشى الهزيمة ؛ لأنه قد استقر فى أعماقه أن بنى عبد الدار ليسوا أكفاء لحمل اللواء ، ومن ثم أراد أن يستثير نخوتهم ويحرضهم على القتال قبل التحام الجيشين ، فقال لهم : يابنى عبد الدار ، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءنا ، وإما أن تخلّوا بيننا وبينه فنكفيكموه ، فهموا به وتواعدوه وهددوه ، وقالوا فى غضب واستعلاء : نحن نسلم إليك لواءنا ؟ ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع ؟

ولكن حملة اللواء هؤلاء من بنى عبد الدار كانوا يمثلون نقطة الضعف فى جيش المشركين ، فقد قتل المسلمون منهم أحد عشر رجلا كان كل واحد منهم يحمل اللواء بعد مصرع زميله طبقا لرواية ابن هشام ، وإن حسان قد حسبهم تسعة .

كان مصرع حملة اللواء على يد جنود المسلمين وقادتهم نقطة ضعف واستهزاء لجيش قريش ، حتى إن أكثر من شاعر من شعراء الرسول جعل حملة اللواء مادة للسخرية بالمشركين والنيل منهم والفخر عليهم والاستهزاء بهم ، لقد فعل ذلك حسان وفعله أيضا كعب بن مالك .

فأما أسماء أصحاب اللواء من بنى عبد الدار الذين لقوا مصارعهم فى ميدان أحد فمنهم : طلحة بن أبى طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار ، قتله على ابن أبى طالب ، وأبو سعيد بن أبى طلحة ، قتله سعد بن أبى وقاص ، وقيل : بل قتله على بن أبى طالب . وعثمان بن أبى طلحة ، قتله حمزة بن عبد المطلب ، ومسافع بن طلحة والجُلاَس بن طلحة ، قتلهما عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح ، وكلاب بن طلحة والحارث بن طلحة ، قتلهما قزمان حليف بنى ظفر ، وقيل : إن

الذى قتل كلابا هو عبد الرحمن بن عوف ، وأرطاة بن عبد شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، قتله حمزة بن عبد المطلب ، وأبويزيد بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار (شقيق مصعب بن عمير) قتله قزمان ، والقاسط بن شُريح بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، قتله قزمان ، وصؤاب غلام أبى زيد بن عمير، قتله قزمان ، ويقال : قتله على بن أبى طالب ، وقيل : بل سعد بن أبى وقاص(١).

هكذا يكون جيش المشركين قد نكب فى أحد عشر صنديدا من قواده ، عشرة منهم كانوا حملة اللواء ، الأمر الذى جعل حسان بن ثابت ينال منهم ويحمل عليهم ويهجوهم ويسخر من رجالهم فى قصيدة مشهورة مطلعها :

منــع النــوم بـالعشـاء الهمـوم

وخيـــال إذا تغــور النجــوم

وهى واحدة من أجود قصائده خطط لها تخطيطا منهجيا هندسيا بارعا ، فقد جعل الأبيات الستة الأولى فى النسيب على عادة الشعراء الجاهليين والمخضرمين، وجعل الأبيات الستة التالية فى الفخر بخاله مسلمة بن مخلد بن الصامت والاعتزاز بنفسه وبأبيه ثابت بن المنذر فى مواقف نبيلة أشاد بها ، ثم خصص أبياتا خمسة لهجاء ابن الزبعرى شاعر المشركين ، وبقية القصيدة تضم أبياتا نفيسة المحتوى كريمة الصوغ بالغة التأثير فى النيل من حملة اللواء الذين لقوا مصرعهم ، ومن قريش التى كان أكثر جيش أحد يتكون منهم .

يقول حسان يذكر أصحاب اللواء يوم أحد : (٢)

مَنَــعَ النَّـوْمَ بالعـَشاء الهُمــومُ ... وخـَــيَالٌ إذَا تــــَغُورُ الـنُّجــومُ

مِنْ حَبيب أضَافَ قَلــبَك مِنْه ... سـَقَم فهــو داخِلٌ مَكْتــومُ (٣)

---

(١) ابن هشام ٢/ ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢) دايون حسان ص : ٢٢٦ ، ٢٢٧ وسيرة ابن هشام ٢ / ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٣) أضاف : نزل وزار .

يا لَقَوْمى هَلْ يَقْتُلُ المــرءَ مــثلى　　واهِنُ البَطْش والعِظام ســؤوم (١)

لــو يَــدِبُّ الحَــوْلِىّ مــن ولــد الــذر عــلــيهــا لأنْدَبَتْهــا الكـُلــُـوم (٢)

شأنُهَا العِطْر والفِراشُ ويَعْلــو　　هــا لُجَين لؤلؤ مَنْــظــُوم (٣)

لَمْ تَفُتْها شَمْسُ النَّهــارِ بشــىْءٍ　　غيرَ أنّ الــشباب ليــسَ يــدُوم

إن خالى خَطِيبُ جابِيــة الجــوْ　　لان عند النُّعمان حيــن يـقُوم (٤)

وأنَا الصَّقر عند باب ابنِ سَلمْى　　يــوم نُعْــمان فى الكُبــول سَقِيــم

وأُبــىٌّ وواقــدٌ أطْــلِــقــا لــى　　يــوْمَ راحــا وكَبلهم مَخْطُوم (٥)

ورهَنْــتُ اليَدين عنهم جميعا　　كلُّ كَــفٍّ جُزء لهــا مَقْســُوم

وَسطَتْ نِســبتى الذَّوائبَ منهــم　　كلّ دارٍ فيــها أبٌ لى عــظيــم (٦)

وأبى فى سُميــحة القائل الفــا　　صِل يوم الْتَقَتْ عليه الخُصوم (٧)

تلك أفعالُنا ، وفِعْل الزِّبعــرَى　　خاملٌ فى صــديــقــه مــذمــوم

ربّ حِلْــم أضــاعــه عَدم المــا　　لِ وجَهْــل غَطَّى عليه النَّعيم (٨)

لا تُسَبَّنَّــى فَلَســتَ بــسبــى　　إنّ سَبِّى من الرّجال الكَريــم (٩)

مــا أبــالى أنبَّ بالحَزْنِ تَيــسٌ　　أم لَحَانى بظَهْر غَيْــبٍ لَئيم (١٠)

---

(١) الواهن : الضعيف ، والسئوم : الملول .

(٢) الحولى : الصغير ، وأندبتها : أثرت فيها ، من الندب ، وهو أثر الجرح . والكلوم : الجراحات .

(٣) اللجين : الفضة .

(٤) خالى : يريد به مسلمة بن مخلد بن الصامت . والجابية : الحوض الصغير . والجولان : موضع بالشام .

(٥) خطوم : مكسور .

(٦) وسطت : توسطت ، والذوائب : الأعالى .

(٧) سميحة : بئر بالمدينة ، كان عندها احتكام الأوس والخزرج فى حروبهم إلى ثابت بن المنذر والد حسان بن ثابت .

(٨) ويروى . غطا « بتخفيف الطاء » أى : علا وارتفع .

(٩) السب : هو الذى يقاوم الرجل فى السب ، ويكون شرفه مثل شرفه .

(١٠) نب : صاح . ولحانى : ذكرنى عائبا .

وِلِىَ البأسَ منكم إذْ رَحَلْتم ... أسرةٌ من بَنى قُصَىِّ صميم [1]

تِسْعَةٌ تَحْمِل اللوَاء وطارتْ ... فى رَعاع من القَنا مَخْزوم [2]

وأقامُوا حتى أُبيحوا جَمِيعا ... فى مقَام وكُلُّهم مَذْمُوم

بدمٍ عانكٍ وكان حفاظا ... أن يُقيموا إن الكريم كريم [3]

وأقامُوا حتى أُزيروا شَعُوبًا ... والقَنا فى نُحُورهم مَحْطومُ[4]

وقريش تَفِرّ مِنَّا لِواذّا ... أن يُقِيموا وخَفَّ منها الحُلوم [5]

لم تُطِق حَمْلَهُ العواتِقُ منهم ... إنما يَحمْل اللواء النُّجوم [6]

كان حسان شديد الاعتزاز بهذه القصيدة ، فقد كتبها ليلا ، أى : ليلة المعركة ، فدعا قومه فقال لهم : خشيت أن يدركنى أجلى قبل أن أصبح ، فلا ترووها عنى .

على أن حمزة بن عبد المطلب قد استأثر بأكثر المراثى نظرا لمكانته عند رسول الله ولموقعه فى صفوف فرسان الصحابة ، وبلائه العظيم فى معارك الإسلام ، ولشدة حزن رسول الله ﷺ على موته ، ولأنه قد مثل بجثته ، وأخرجت كبده، ولاكتها بأسنانها هند بنت عتبة على النحو الذى صورته الأخبار .

كانت مراثى كعب بن مالك وبكائياته فى حمزة من أجود مارثى به الصحابى العظيم وعلى نهج الجاهليين من الشعراء يستهل كعب قصيدته بشىء من الشكوى والنسيب ثم يدلف إلى الغرض الذى أنشأ قصيدته من أجله وهو الرثاء ، فيذكر محاسن الفقيد ومناقبه قائلا : (*)

---

(١) الصميم : الخالص النسب .

(٢) الرعاع : الضعفاء .

(٣) العانك : الأحمر .

(٤) شعوب : اسم للمنية .

(٥) لواذا : مستترين . والحلوم : العقول .

(٦) العواتق : جمع عاتق ، وهو مابين الكتف والعنق . والنجوم : المشاهير من الناس .

(★) السيرة ٢/ ١٥٧ .

طَرقتْ هُــمُومُك فالرقاد مُسَهَّدُ	وجزِعْتَ أن سُلخ الشــبابُ الأغْيـدُ (١)
ودَعَتْ فؤادَك للهَوى ضَــمْــرِيَّةٌ	فهواك غَورِىٌّ وصَــحْــوك مُنْــجِــدُ (٢)
فدَع التَّمادىَ فى الغَوَايــة ســادِرا	قد كنــتَ فى طلــب الغَواية تُفْــنَدُ (٣)
ولقد أَنَــى لك أنْ تَناهَــى طائِعــا	أو تَسْــتَفيــق إذا نَهــاك المُرْشِــدُ (٤)
ولقد هُدِدْتُ لفَقْد حَـمزة هَــدَّةً	ظَلَّــت بناتُ الجَوْف منهــا تَرْعَــدُ (٥)
ولـوَ انَّه فُـجِعَت حِــرَاء بمثْلـه	لرأيتُ رَاســىَ صَخْرِهــا يـتبـدّدُ (٦)
قَــرْمٌ تَــمَكَّــنَ فى ذُؤابة هــاشــمٍ	حيث الــنُّبوّةُ والنــدَى والسُّــودَدُ (٧)
والعاقرُ الكُومَ الجِلادَ إذا غــدتْ	ريحٌ يَكــادُ الماءُ منهــا يَــجْمُــدُ (٨)
والتَّاركُ القِرْنَ الكَمِىَّ مُجــدَّلا	يوْمَ الكَــريهــــة والقَنا يَتَقَصــدُ (٩)
وتـراهُ يـرْفُلُ فى الحَــديد كأنَّــه	ذو لِبْدةٍ شَــثْنُ البراثــنِ أرْبَــدُ (١٠)
عــمُّ النــبىّ محمـــد وصفيُّـــه	ورد الحِــمامَ فطَـــاب ذاك المَــوْرِدُ
وأتى المَنِيــةَ مُعْلِـما فى أُســرةٍ	نَصَروا الــنبى ومنهم المُسْتَشْهَدُ (١١)

---

(١) مسهد : قليل النوم . وأراد : فالرقاد رقاد مسهد ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . وسلخ : أزيل (بالبناء للمجهول فيهما) . والأغيد : الناعم .

(٢) ضمرية : نسبة إلى ضمرة ، وهى قبيلة . وغورى : نسبة إلى الغور ، وهو المنخفض من الأرض ، وفى ر : «وصحبك» بدل « وصحوك» .

(٣) تفند : تلام وتكذب .

(٤) أنى : حان .

(٥) بنات الجوف : يعنى قلبه وما اتصل به من كبده وأمعائه ، وسماها بنات الجوف ؛ لأن الجوف يشتمل عليها .

(٦) حراء : جبل ، وأنثه هنا حملا على البقعة . والراسى : الثابت .

(٧) القرم : السيد الشريف . وذؤابة هاشم : أعاليها .

(٨) الكوم : جمع كوماء ، وهى العظيمة السنام من الإبل . والجلاد : القوية .

(٩) الكمى : الشجاع . ومجدلا : مطروحا على الجدالة ، وهى الأرض . ويتقصد : ينكسر .

(١٠) ذو لبدة : يعنى أسدا . واللبدة : الشعر الذى على كتفى الأسد . وشثن : غليظ . والبراثن للسباع بمنزلة الأصابع للناس . والأربد : الأغبر يخالطه سواد .

(١١) معلما : مشهرا نفسه بعلامة يعرف بها فى الحرب . والأسرة : الرهط .

ولقـد إخـالُ بـذاك هندًا بُشـرت ... لتميـت داخـلَ غصَّـة لا تَـبردُ(١)

مماَّ صـبحْنا بالعَقَـنْقل قَوْمـهَا ... يومـا تَغَيَّـبَ فيـه عنها الأسْعَد(٢)

وبِبـئْرِ بـدْرٍ إذ يـرَدُّ وُجوهَهُمْ ... جِبْرِيـلُ تحـت لوائنـا وُمحَمَّد

حـتى رأيتُ لَدى النبى سَرَاهـم ... قِسْمَيْنِ : يَقْتُل منَ نشاءُ ويـطْرد (٣)

فأقـامَ بـالعطن المعطَّن منـهـمُ ... سبْعون : عُتْـبةُ منهمُ والأسْود (٤)

وابنُ المغيرة قد ضَـربْنا ضَرْبـة ... فوق الوَرِيد لها رشاشٌ مـُزبِـد (٥)

وأُمَيـَّة الجُمـَحِىُّ قوَّمَ مـيْلَه ... عـَضْبٌ بأيْـدى المُؤْمنيـن مُهنـد

فأتاكَ فَلُّ المـُشْركِـين كأنـهُم ... والخَيْلُ تَثْفـنهم نعامٌ شُـرَّدُ (٦)

شَتَّان مَن هو فى جَهَنَّم ثـاويـا ... أبدًا ومـن هو فى الجنـان مُـخَلَّـد

وبالرغم مما قاله كعب بن مالك من شعر كثير فى بكاء حمزة ، فإن ذلك لم يشبع عاطفته الدافقة فى حزنها الجارف على مصرع البطل الكبير ، وإنما يستنشد الآخرين من رجال ونساء ويستبكيهم ، لقد فعل ذلك مع صفية بنت عبد المطلب أخت حمزة لأمه وأبيه ، وهذه الصيغة الاستبكائية لم تخرج عن كونها مرثية حزينة فى أسلوب لم ينتهجه غيره فقال :

صَفيَّة قُومى ولا تـَعْجـزى ... وبَكـِّى النـِّساءَ على حَـمْـزةِ

ولا تَسـأمى أن تُطيلى البـُكا ... عـلى أسـَدِ الله فى الهـِزَّة (٧)

---

(١) إخال : أظن (وكسر الهمزة لغة تميم) . والغصة : مايعترض فى الحلق فيشرق .

(٢) العقنقل : الكثيب من الرمل .

(٣) سراتهم : خيارهم .

(٤) العطن : مبرك الإبل حول الماء . والمعطن : الذى قد عود أن يتخذ عطنا .

(٥) الوريد : عرق فى صفحة العنق . والرشاش المزبد : الدم تعلوه رغوة .

(٦) الفل : القوم المنهزمون . وتثفنهم : تطردهم وتتبع آثارهم .

(٧) الهزة : الاهتزاز والاختلاط فى الحرب .

فقــد كانَ عــزًا لأيتــامـــنا ... ولَيْــثَ المَلاحم فى البِـــزّة (١)

يُريد بــذاك رِضـا أحْـــمدٍ ... ورِضْـوانَ ذِى العَرْش والـــعِزَّة

ويعمد عبد الله بن رواحة إلى نهج مغاير لنهج صاحبه ؛ لأن مرثيته فى مستهلها قد غلب عليها البكاء ، وكساها الحزن ، واكتنفها الأسى ، مع صيغ من الترحم المشمول بروح التسليم والإيمان ، ثم مالبث الشاعر أن ذكر مافعله أبطال المسلمين بصناديد المشركين يوم بدر من قتل ومطاردة معددا أسماء بعضهم ، مذكرا بمصارعهم قائلا : (٢).

بكَتْ عَيْنى وحُقَّ لها بُكاهــا ... وما يُغنى البُكاء ولا العَـــويـــلُ

على أسد الإلهِ غداةَ قــالـــوا ... أحَمزةُ ذاكمُ الرجلُ القَتـــيـــل ؟

أُصيب المُسْلمون به جميعــا ... هُناك وقد أُصِيـب بـــه الرَّســولُ

أبا يَعْلِى لك الأركانُ هـُدَّت ... وأنت الماجدُ البر الوَصُـــولُ (٣)

عَليك سلامُ ربّك فى جنان ... مُخالطـــهـــا نَعيــــمٌ لا يـــزُولُ

ألا ياهاشمَ الأخْيارِ صـــبْرًا ... فــكُلُّ فعالكم حَسَنٌ جَميـــلُ

رسولُ الله مُصْطَبِر كـــريمٌ ... بأمر الله يَنْــطـق إذ يَقـــُولُ

ألا مَنْ مُبــلغ عنى لُؤَيّـاً ... فَبعد اليَوْم دائــلــةٌ تــدُولُ(٤)

وقبل اليَوْم ماعَرَفوا وذاقــُوا ... وقائِعنَا بها يُشْفَى الغَليـــل (٥)

نَسيتم ضَرْبنا بقَلِيــب بـدرٍ ... غـداةَ أتاكُمُ المَوْتُ العَجــيلُ

---

(١) الملاحم : جمع ملحمة ، وهى الحرب التى يكثر القتل فيها . البزة : السلاح .

(٢) ابن هشام ٢ / ١٦١ ، ١٦٢ .

(٣)ـ أبو يعلى : كنية حمزة رضى الله عنه . والماجد : الشريف .

(٤) الدائلة : الحرب .

(٥) الغليل : حرارة العطش والحزن .

غداة ثوى أبو جهل صريعا — عليه الطيرُ حائمةٌ تجولُ

وعُتْبَةُ وابْنُه خرًّا جميعاً — وشَيْبةُ عضَّهُ السيفُ الثقيلُ

وَمَتْرَكنا أميةَ مُجْلَعبًّا — وفى حَيْزُومِهِ لَدْنٌ نبيلُ[1]

وهام بنى ربيعةَ سائلوها — ففى أسيافِنا منها فُلولُ

ألا ياهندُ فابكى لا تَملّى — فأنت الوالهُ العَبْرَى الهَبُولُ [2]

ألا ياهندُ لا تُبْدِى شماتاً — بحمزةَ إنَّ عِزَّكُمُ ذَلِيلُ

وهند التى عناها الشاعر هى هند بنت عتبة زوج أبى سفيان بن حرب التى لاكت كبد حمزة بعد أن استأجرت من رماه بحربة من بعد فأصابته فى مقتل ، وكان أبوها عتبة ابن ربيعة قد لقى مصرعه فى غزوة بدر ، وكان من صناديد قريش وساداتها وصاحب جود وحكمة فى الجاهلية ، وممن لقى مصرعه فى بدر أيضا عمها شيبة بن ربيعة وأخوها الوليد بن عتبة .

تلك نماذج قليلة من فيض الشعر المتدفق الذى قيل فى أحد ، وفى رثاء شهداء المسلمين فى ساحة المعركة .

رثاء شهداء مؤتة :

لم يشتد حزن رسول الله على شهداء الغزوات إلا فى غزوتين ، الأولى كانت فى أحد ، والثانية كانت مؤتة ، وبين الغزوتين زمن ليس بالقصير، فقد كانت أحد فى السنة الثالثة للهجرة ، وكانت مؤتة فى السنة الثامنة .

وفى أحد قتل حمزة ومصعب بن عمير ، وهما ألمع شخصيتين إسلاميتين بين قتلى أحد ، وإن كان آخرون قد لقوا مصرعهم مثل شماس بن عثمان ، وعمارة بن زياد بن السكن ، وأوس بن ثابت أخو حسان بن ثابت .

---

(١) مُجْلَعِبًّا : ممتدا على الأرض ، والحيزوم : أسفل الصدر .

(٢) الواله : الفاقدة ، العبرى : الكثيرة الدموع . الهبول : الفاقدة .

وأما فى مؤتة فثمت ثلاثة من الصحابة المقربين إلى رسول الله ﷺ وقد أمّر ثلاثتهم بنفسه على جيش الغزاة ، لقد جعل اللواء لزيد بن حارثة ، فإن أصيب انتقل إلى جعفر ابن أبى طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة .

لقد أبلى الجيش بلاء حسنا مع أن عدده لم يكن يتجاوز ثلاثة آلاف محارب يواجههم مائتا ألف مقاتل فى جيش الروم ، واستشهد الأمراء الثلاثة بعد استبسالهم فى القتال استبسالا غير مسبوق فى مثل حالتهم .

إن المرات التى بكى فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أموات قليلة العدد ، منها بكاؤه على شهداء مؤتة ؛ لأن لكل واحد منهم مكانة خاصة فى قلب النبى ـ صلى الله عليه وسلم .

فأما زيد بن حارثة فهو حامل اللواء الأول ، وهو حبّ رسول الله ، وكان الرسول قد تبناه فى أول الدعوة فكان يقال له زيد بن محمد ، ثم زالت تلك البنوة بتحريم الإسلام لها . وزيد هو أول من أسلم من الموالى . يقول الزهرى : ما علمنا أحدا أسلم قبله (١) .

ولمكانة زيد عند رسول الله ، فإنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ آخى بينه وبين عمه حمزة أسد الله .

يقول أسامة بن زيد : قال رسول الله ﷺ لأبى : « **يازيد أنت مولاى ومنى وإلىّ وأحب القوم إلىّ** » (٢) .

وروى حماد بن زيد عن خالد بن سلمة المخزومى قال : أصيب زيد ـ يعنى فى مؤتة ـ فأتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منزله ، فجهشت بنت زيد فى وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبكى حتى انتحب ، فقال سعد بن عبادة : يارسول الله ، ما هذا ؟ فقال : « **شوق الحبيب إلى حبيبه** » (٣) .

---

(١) مغازى الذهبى ، ص : ٤١٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٤١٣ .

(٣) المصدر نفسه ص : ٤١٤ .

هذا ما كان من أمر مكانة زيد عند رسول الله ، وأما جعفر بن أبى طالب فهو ابن عم رسول الله وشقيق علىّ وأخو حمزة ، هذا يستشهد فى أحد وذاك يستشهد فى مؤتة ، وكان جعفر من السابقين الأولين ، هاجر الهجرتين ، فكان الرسول ﷺ يقول له «**أشبهت خَلْقِى وَخُلُقِى** » (١) ولذلك كان أبو هريرة يقول : إنه أفضل الناس بعد النبى ﷺ وعن عكرمة قال : سمعت أبا هريرة يقول : ما احتذى النعال ولا ركب المطايا ولا وطىء التراب بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر بن أبى طالب (٢).

وفى استشهاد جعفر يقول أحد بنى مرة بن عوف : والله لكأنى أنظر إلى جعفر بن أبى طالب يوم مؤتة اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ثم تقدم فقاتل حتى قتل ، وقال ابن إسحاق : هو أول من عقر فى الإسلام (٣)، وإكمالا لأحداث استشهاد جعفر يقول ابن هشام : حدثنى من أثق به أن جعفراً أخذ اللواء بيمينه ـ بعد استشهاد زيد ـ فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضده حتى قتل ، فأثابه الله بذلك جناحين فى الجنة يطير بهما حيث يشاء ، يقول عبد الله بن عمر : كنت معهم فى تلك الغزوة ، فالتمسنا جعفرا فوجدنا فيما أقبل من جسمه بضعا وتسعين بين طعنة ورمية .

هذا ، وكان رسول الله ﷺ يحمل لجعفر حبا عظيما ينمّ عنه هذا الخبر . قال عبد الله ابن جعفر : أنا أحفظ حين دخل رسول الله ﷺ على أمّى فنعى لها أبى ، فأنظر إليه وهو يمسح على رأسى ورأس أخى وعيناه تهرقان الدموع ثم قال : « **اللهم إن جعفرا قد قدم إلى أحسن ثواب ، فاخلفه فى ذريته بأحسن ما خَلَفْتَ أحداً من عبادك فى ذريته** » **ثم قال** : « **يا أسماء ، ألا أبشرك ؟** » **قالت** : **بلى ؛ بأبى أنت وأمى ، قال** : « **إن الله جعل لجعفر جناحين يطير بهما فى الجنة** » (٤).

وأما عبد الله بن رواحة فقد أتينا بشىء من أخباره فى فصل « شعر الغزوات » وهو يستعد للقتال فى غزوة مؤتة ، وإذا كان كل من زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب من

---

(١) رواه البخارى ومسلم من حديث البراء .

(٢) الإصابة جزء أول الترجمة رقم ١١٦٦ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المغازى للواقدى ٢/ ٧٦٦ ، ٧٦٧ .

المهاجرين فإن عبد الله بن رواحة خزرجى من الأنصار ، وهو أحد النقباء الاثنى عشر فى بيعة العقبة ، وشاعر رسول الله ، وقد جمع الإسهام فى الدعوة والمنافحة عنها إلى خوض غمار الحرب بسيفه فى كثير من الغزوات ، وعلى وجه الخصوص بدر وأحد والخندق والحديبية ، كما أنه صحب رسول الله ﷺ فى عمرة القضاء ، وبلغ من ثقة رسول الله فيه أن استخلفه على المدينة فى إحدى غزواته ، ولعله فى ذلك الشاعر الوحيد بين شعراء رسول الله الذى جمع فى الجهاد بين سلاحين : سلاح السيف ، وسلاح الشعر ، أو بلغة عصرنا : كان أمير السيف والقلم ، والأمر الجدير بالذكر هنا أنه كان يكتب فى الجاهلية ، وهو أخو أبى الدرداء لأمه ، وخال الصحابيين الفارسين : النعمان ابن بشير ، وزيد بن أرقم (١) .

وكان عبد الله بن رواحة يجمع بين الشعر والخطابة ، فحين نزل جيش المسلمين بأرض الشام وعلموا أنهم أمام جيوش يبلغ تعدادها مائتى ألف مقاتل من الروم والمستعربة من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلىّ ، ترددوا وقالوا : نكتب لرسول الله فنخبره بعدد عدونا ، فقام عبد الله بن رواحة خطيبا وقال : والله يا قوم إن الذى تكرهون للذى خرجتم له تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل العدو بعدّة ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانْطَلِقُوا فإنما هى إحدى الحسنيين ، إما ظهور - يعنى نصراً - وإما شهادة ، فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة (٢).

وحين نشبت المعركة واستشهد صاحباه القائدان زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب أخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه وجعل يشجع نفسه منشدا :

أقسمتُ يا نفسُ لَتَنْزِلَنَّهْ ... لَتَنْزِلِنَّهْ أو لَتُكْرَهِنَّهْ

إذْ جَلَبَ الناسُ وشَدُّوا الرَّنَّهْ ... مَالِى أراكِ تكرهين الجنَّهْ

---

(١) مغازى الذهبى ٤١٤ .

(٢) حلية الأولياء .

لَطَالَمَا قـد كنـْتِ مطـمئنَّة   هلْ أنتِ إلَّا نطفةٌ فى شَنَّة (*)

ثم عاد يخاطب نفسه مرة أخرى قائلا :

يا نفـسُ إلَّا تُقْتَـلِى تَمُوتِى   هـذَا حِمامُ الموتِ قـَدْ صَلِيتِ

وما تمنَّيْتِ فقـد أُعْطِيـتِ   إنْ تفعلى فِعْلَهُمَا هُدِيت (**)

ثم تقدم وخاض غمار الحرب واستشهد .

هؤلاء هم الأمراء الثلاثة الذين خاضوا الغمار ببسالة فريدة، فقد قادوا جيشا من بضعة آلاف فى مواجهة جيش تعداده مائتا ألف مقاتل ، ومن ثم تكون معركة مؤتة من حيث توصيفها غير مسبوقة فى تاريخ الحروب .

وهؤلاء الثلاثة هم الذين بكى عليهم سيد البشر وترقرقت الدموع فى عينيه الشريفتين وعم الحزن قلوب المسلمين فى المدينة كلها ، وتسابق شاعرا رسول الله ـ بعد استشهاد ثالثهم ـ فى البكاء عليهم وإنشاد المراثى بعد فقدهم .

إن حسان بن ثابت يذرف الدموع السخان على شهداء مؤتة الثلاثة الذين تتابعوا فى الاستشهاد تتابعهم فى حمل اللواء فيرسل هذه البكائية المسربلة بالأسى، الموشاة بالأحزان، ولمعرفة حسان بمكانة جعفر عند رسول الله ، خاصة وأنه كان واحدا من أقرب أهل البيت شبها برسول الله خَلْقًا وخُلُقًا . فإنه يخصه بقدر مستقل من الأبيات يذكر فيها شمائله ، ويعدد أسماء نجوم آل بيت النبوة : على وحمزة والعباس وعقيل ، وعلى رأسهم سيد البشرية وخاتم الرسل ﷺ قال حسان : (***)

تـأوَّبنى ليـــــلٌ بيثـرب أعْـسَـــرُ   وهَـمٌّ إذا ما نَوَّم الناسُ مُسْهِرُ (١)

(*) الرنة : صوت القوس . والشنة : القربة الخلقة .

(**) الضمير فى فعلهما يعود على صاحبيه : زيد وجعفر .

(***) ديوان حسان ص : ١٠٦ .

(١) تأوبنى : عاودنى ورجع إلى . وأعسر : عسير . ومسهر : مانع من النوم .

لـــذكرى حبيبٍ هيَّجت لـى [1] عَبرَة — سَفُوحـــا وأسبـــاب البكـاء التَّذَكُّرُ [2]

بَـلى ، إن فقدان [3] الحبيبِ بلـيَّةٌ — وكـمْ من كريـــمٍ يُبْـتَلى ثـم يـَصْـبرُ

رأيـتُ خيارَ المؤمنـــينَ تـــوَارَدُوا — شَعُوبَ وخَلْـقًا بعدَهـــم يتـأخَّرُ [4]

فـــلا يُبْعِـدنَّ الله قـتلى تـَتابَعـــُوا — بمُؤتةَ منهـــم ذو الجناحـــين جـَعـْفرُ

وزيـــدٌ وعبــــد الله حين تـَتابَعـُوا — جميعا وأسبـــابُ المنيَّـــة تَـــخْطِرُ [5]

غـداةَ مضَوا بالمؤمنــــين يقودُهـــم — إلى الموت مـــيمونُ النَّقيـبة أزْهَـر [6]

أغرُّ كضوء البـــدر مـــن آل هاشـــم — أبِيٌّ إذا سـِيمَ ا لظُّلاَ مَةَ مجْـسَر [7]

فطاعَنَ حتـــى مـــال غير مـُوَســـَّد — لمُعتـــرك [8] فيــــه قنـا مُتَكَسِّرُ [9]

فصـــار مَع المـُستَشـْهدين ثـَوَابــُهُ — جـنانٌ وملتـــفُّ الحَدائـــقِ أخْـضـَرُ

وكـنَّا نَرى في جــعفر مـــن محمــــَّد — وفاءً وأمـْرًا حـــازما حـــيـن يـَأمــرُ

فـــما زَال في الإســـلامِ من آل هاشـمٍ — دعائـــمُ عـــز لا يـــَزُلْن ومَفْخــَرُ

هُمُ جبلُ الإسلام والناس حَولهم [10] — رِضامٌ إلى طـــَوْدٍ يَروق ويقْـهـــَرُ [11]

---

(١) في ديوان حسان : ثم .

(٢) سفوح : سائلة غزيرة

(٣) في ديوان حسان (بلاء وفقدان) .

(٤) قال أبو ذر : من رواه بضم الشين ، فهو جمع شعب ، وهى القبيلة ؛ وقيل : هو أكثر من القبيلة ؛ ومن رواه بفتح الشين ، فهو اسم للمنية ، من قولك : شعبت الشيء : إذا فرقته ، ويجوز فيه الصرف وتركه . وخلفا : أى من يأتى بعد . ورواية هذا الشطر الأخير في ديوانه :

شعوب وقد خلقت فيمن يؤخر

(٥) تخطر : تختال وتهتز .

(٦) ميمون النقيبة : مسعود الجد ، وأزهر : أبيض .

(٧) أبيّ : عزيز الجانب . وسيم : كلف وحمل (بالبناء للمجهول فيهما) . والمجسر : المقدام الجسور .

(٨) المعترك : موضع الحرب .

(٩) في الديوان . « فيه القنا يتكسر » .

(١٠) في الديوان : « حوله» .

(١١) الرضام : جمع رضم ، وهى الحجارة يتراكم بعضها فوق بعض . والطود : الجبل .

بَهَالِيـلُ منـهم جَعْـفرٌ وابـن أمِّـه — عليٌّ ومنهُم أحمدُ المتـخـيَّرُ [1]

وحمـزةُ والعبَّاسُ مـنـهُمْ ومنهـمُ — عَقيلٌ وماءُ العود من حيثُ يُعْـصَرُ

بهم تُفـرَجُ الـلأواءُ فى كلِّ مـأزقٍ — عَماسٍ إذا ما ضاق بالناس مَصـدَرُ [2]

هُمُ أولـياءُ الله أنـزَل حـكْمـه — عليهم ، وفيهـم ذا الكتـابُ المُطـهَّرُ

وعلى نفس النهج من البكاء والحزن والوجد والأسى ينشىء كعب بن مالك بكائيته اللامية ممجّدا ثباتهم معظّما بسالتهم ، فقد جادوا بنفوسهم رخيصة فى سبيل الله متتابعين واحدا بعد الآخر ، ولقد تطابقت الخواطر عند كل من حسان وكعب فى تخطيط منهج القصيدة حين جعل كل منهما الأبيات الأولى فى البكاء على الأبطال الثلاثة ثم كان شىء من التخصيص لتمجيد جعفر ، ثم بعد ذلك تمجيد أبناء بيت النبوة بذكر شمائلهم وتفصيل محامدهم على هذا النهج البليغ : (*)

نام العـيونُ ودَمعُ عَيْنِـكَ يَهْمُـلُ — سَحًّا كما وكَف [3] الطِّبابُ المُخضلُ [4]

فى لَيْـلـةٍ وَرَدَتْ عَلَيَّ هُمُومُها — طوْراً أَحِنُّ [5] وتـارةً أتَمـلْـمـلُ [6]

واعتادنـى حُزْنٌ فَبِتّ كأنـنـى — بِبَـنَاتِ نَعْشٍ والسِّماكِ ، مُوَكّـلُ [7]

وكأنَّـما بينَ الجَوانحِ والحـشَى — مما تأوّبَنـى شـهـابٌ مُـدْخَلُ [8]

---

(١) البهاليل : جمع البهلول : وهو السيد الوضىء الوجه .

(٢) اللأواء : الشدة . والعماس : المظلم . يريد ظلامه من كثرة النقع المثار وقت الحرب .

(*) السيرة ٢/ ٣٨٥ .

(٣) همل الدمع : سال ، وسحا : صبا ، ووكف : قطر .

(٤) الطباب : جمع طبابة ، وهى سير بين خرزتين فى المزادة ، فإذا كان غير محكم وكف منه الماء . وفى رواية الضباب . والمخضل : السائل الندى .

(٥) أحن (بالحاء المهملة) : من الحنين ، وفى رواية : « أخن» (بالخاء المعجمة) . والخنين : صوت يخرج من الأنف عند البكاء .

(٦) أتململ : أتقلب متبرما بمضجعى .

(٧) يريد أنه بات يرعى النجوم طول ليله من طول السهاد .

(٨) المدخل : النافذ إلى الداخل .

وجْـــدًا على النَّفَرِ الذينَ تَتابعُوا — يوما بـــمؤتـــة أُســنِدوا لم يـُنْقــلُوا

صَلَّى الإلَهُ عَلَيهــم مِنْ فِتـــيَةٍ — وسَقَى عِظامهمُ الغَمـــامُ المُسْبِلُ [1]

صَبَروا بمؤتــــةَ للإله نُفوسَهُمْ — حَذَرَ الــرَّدَى ومخافــةَ أن يَنكـُلُوا [2]

فمــضَوا أمامَ المـُسلمين كأنهمْ — فُنـــقٌ عليهـــنّ الحديدُ المُرْفَلُ [3]

إذ يَــهْتَدُون بجعـــفَر ولوائـــه — قـــُدَّام أوَّلـــهِـــمْ فنِـــعم الأوّل

حــتى تَفَرَّجتِ الصُّفوفُ وجعَفرٌ — حيثُ التقَى وعْثُ الصُفوف مجَدَّل [4]

فتغـــيَّر القَمَر المُنيـــر لفَقــْده — والشمسُ قد كسَفَتْ وكادتْ تأفل [5]

قَـرْمٌ [6] عـلا بُنْيانُه من هـاشــمٍ — فَرْعا أشَمَّ وســؤْدُدًا ما يُنـــْقَـل [7]

قَوْمٌ بهم عـــصَم الإلَهُ عِبـــادَهُ — وعَليــهـــم نَزَل الكتـــاب المـُنـــْزَل

فضَلُوا المعـــاشَر عِزّة وتكـــرُّما — وتَغَمَّدَتْ أحْلامـــُهُمْ من يَـجْهَـل [8]

لا يُطْلقون إلى السَّفَاهِ حُـــباَهُـمُ — وَيُـــرَى خَطِيبُهُمْ بِحَقٍّ يَفْصِـلُ [9]

بيضُ الوجوه تُرَى بُطونُ أكفِّهـِمْ — تندَى إذا اعتذرَ الزَّمانُ المُمْحِـل [10]

---

(١) المسبل : المطر .

(٢) صبروا نفوسهم : حبسوها على ما يريدون . وينكلوا : يرجعوا هائبين لعدوهم .

(٣) الفنق : الفحول من الإبل ، الواحد : فنيق . المرفل : الذى تنجر أطرافه على الأرض ، يريد أن دروعهم سابغة .

(٤) وعث الصفوف : التحامها حتى يصعب الخلاص من بينها ، تشبيها بالوعث ، وهو الرمل الذى تغيب فيه الأرجل ويصعب فيه السير . ومجدل : مطروح على الجدالة ، وهى الأرض .

(٥) تأفل : تغيب .

(٦) القرم : السيد .

(٧) فى رواية : ما ينفل ـ بالفاء ـ ومعناه : لا يحجر .

(٨) تغمدت من يجهل : سترت جهل الجاهلين .

(٩) إطلاق الحبوة : كنايه عن النهضة للنجدة . والحبوة (فى الأصل) : أن يشبك الإنسان أصابع يديه بعضها فى بعض . ويجعلها على ركبتيه إذا جلس . وقد يحتبى بحمائل السيف وغيرها .

(١٠) الممحل : وهو الشديد القحط .

وبهَدْيهمْ رضِيَ الإله لخـلْـقِهِ   وبجِدّهمْ نُصِرَ النّبِيُّ المُرْسَل (١)

لقد كانت غزوة مؤتة ينبوعا للشعر النبيل قبل التحام الرماح واطراد الصدام واقتحام المكاره ممثلا فى شعر عبد الله بن رواحة وهو يعد نفسه لخوضها ، وكانت مرة أخرى معينا للشعر الحزين ، ومصدرا للألم المبرح فى نفس رسول الله ونفوس صحابته حين وضعت الحرب أوزارها ، واستشهد ثلاثة من خيار قواد المسلمين من صحابة رسول الله ، غير أن البلوى كانت أكثر جسامة بفقد جعفر لمكانته من رسول الله وصحابته ، ولأنه كان فى مرحلة الشباب من عمره ، وقد خلف أبناء صغارا كزغب القطا لم يكادوا يستوعبون نكبتهم فى مصرع أبيهم ، ورسول الله يعزى والدتهم فى أبيهم . إن عبد الله بن رواحة لم ينجب فكانت المصيبة بفقده فى نطاق الاحتمال ، وإن زيدا قد خلف ولده أسامة وهو أقرب إلى اليفاع بل أدنى إلى الشباب ، وأما جعفر فكانت المصيبة فيه على النحو الذى ذكر ، ومن ثم احتشدت قرائح الشعر للإمعان فى بكائه والإكثار من رثائه .

يقول حسان فى مرثية خصصها للبكاء على جعفر ، وقد خصه بعدد من المراثى ، ونحا فى نسجها منحًى جديدا غير مسبوق فى تتابع المعانى على مساحة القصيدة على الرغم من انتهاء البيت بالقافية .(٢):

ولقد بكيْتُ وعَزَّ مُهْلَكُ جعْفرٍ   حِبُّ النّبىّ على البريَّة كُلِّها
ولقد جزِعْتُ وقلتُ حين نُعِيتَ لى   مَنْ للجِلاد لدى « العُقاب» وظلِّها (٣)
بالبيضِ حين تُسَلّ من أغمادها   ضَرْبا وإنهالِ الرّماح وعَلِّها (٤)
بعد ابن فاطِمةَ المُبارَكِ جعْفَرٍ   خَيْر البريَّة كلِّها وأجلِّها (٥) .

---

(١) وفى رواية : « وبحدهم » بالحاء المهملة . فمن رواه بالحاء المهملة فمعناه بشجاعتهم وإقدامهم ؛ ومن رواه «بجدهم» بالجيم المكسورة ، فهو معلوم .

(٢) ابن هشام ٢/ ٣٨٦ والديوان ص ١٩٨ .

(٣) العقاب : اسم لراية رسول الله ﷺ .

(٤) الإنهال : الشرب الأول . والعلل : الشرب الثانى أو المتتابع .

(٥) فاطمة : هى أم جعفر وعلى بن أبى طالب ، وهى فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وهى أول هاشمية ولدت لهاشمى .

رزءًا وأكْرَمــهـا جميعا مَحْتِـدًا وأعَـزَّها مُتَـظَلَّـما وأزَلَّـهـا (١)

للحقّ حين ينوبُ غـير تَنَحُّـل (٢) كَـذبًا ، وأنْداهـا يدًا (٣)، وأقلَّـها

فُحْشا ، وأكثرِها إذا ما يُجْتَدَى (٤) فَضْـلا ، وأبْـذَلِهَا نَـدًى ، وأبَلَّـها (٥)

بالعــُرف غيرَ محمــَّدٍ لا مثلُـه حـيٌّ مـنَ احـْياء البريـّة كلِّـها

إن مراثى شعراء الرسول ﷺ من الوفرة بمكان ، سواء أكان ذلك فى أحد أم فى مؤتة أم فى غيرهما من الغزوات والمناسبات الحزينة ، وهى من الشعر المتميز بالوقع الحزين ، الموشىّ باللون الإيمانى والسمت الإسلامى الذى ظهر لأول مرة فى سماء الشعر العربى ، ولم يكن معروفا قبل فيها سلف من سنين ، ومن ثم كان له الصدى الجديد الذى يكافىء جدته ، والوقع العميق الذى يلائم عواطفه الجياشة ومناهله الدافقة .

---

(١) المحتد : الأصل .

(٢) التنحل : الكذب .

(٣) فى رواية : « وأغمرها ندى» .

(٤) الاجتداء : طلب الجدوى ، وهى العطية .

(٥) وفى رواية : « وأنداها يدا » .



الأنواع البلاغية فى كلام الرسول

الفصل الأول : المعانى .

الفصل الثانى : البيان .

الفصل الثالث : البديع .





الفصل الأول

المعانى

- تمهيد
- الإيجاز
- الإطناب
- الإبهام والتفسير
- المساواة



المعانى

(١)

تمهيد :

كان رسول الله ﷺ رأس الفصاحة ، ومجمع البلاغة ، وذروة البيان ، وقد مرّ بنا فى الفصول الأولى شرح واف لهذه القضية بحيث صارت من المسلّمات ، إنه ﷺ القائل : «**أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش** » . وهو القائل أيضا : « **أنا أفصح من نطق الضاد** » [١].

وقال ﷺ : « **أوتيت خمساً لم يُعْطَهُنَّ قبلى أحد : كان كل نبى يُبْعَثُ إلى قومه ، وبُعِثْتُ إلى كل أحمر وأسود ، وأُحِلَّت لى الغنائم ، وجُعِلَتْ لى الأرض مسجدا وطهوراً ونُصِرْتُ بالرعب بين يدىَّ مسيرة شهر ، وأوتيت جوامع الكلم** »[١].

وأيًّا ما كانت مدلولات مصطلحات الفصاحة والبلاغة والبيان فهى جميعا تنبع من فيض بيانه ، وتصبّ فى ساحة سنته الفينانة المباركة .

لقد قرر الأقدمون أن الفصاحة راجعة إلى الألفاظ ، والبلاغة راجعة إلى المعانى ، فإذا صح ذلك فإنه منطبق على كلام رسول الله ﷺ وإذا قيل ـ طبقا لمذاهب بعض البلاغيين ـ : كل كلام فصيح فهو بليغ ، وكل بليغ من الكلام فهو فصيح ، انصرف ذلك أيضا إلى كلام رسول الله ﷺ ومن البداهة بمكان أنه ينطبق قبل ذلك على كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ وينصرف إليه .

كان الرسول ﷺ يخاطب العرب بلغاتهم على اختلاف قبائلهم ، لقد وقف بين

(١) الطراز : لأمير المؤمنين الإمام يحيى بن حمزة ١ / ٣٣ .

يديهﷺ طهغة بن أبى زهير النهدى يتكلم بكلام فيه كثير من الألفاظ الغريبة ، فلما أجابه الرسول باللغة نفسها وبعدد من الألفاظ الغريبة على أسماع القرشيين ، قال له علىّ ـ رضى الله عنه ـ : يارسول الله ، نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ، فقال ﷺ : « **أدبنى ربى فأحسن تأديبى** » .

ولأبى بكر ـ رضى الله عنه ـ نفس الملاحظة حول موضوع مماثل مضى ذكره فى فصل سابق ، مما يؤكد انفراد الرسولﷺ دون بقية العرب بمعرفة لغة القبائل جميعها فهماً وكلاماً .

رُوى أنهﷺ قال لأبى تميمة الهجيمى : « **إياك والمخيلة** » فقال : يارسول الله ، نحن قوم عرب ، فما المخيلة ؟ فقالﷺ : « **سَبْلُ الإزار** » .

والمعنى المراد هنا هو الكبر أو نحوه (١)، وكان الرافعى ـ رحمه الله ـ يقول عن فصاحة الرسول : لا نعرف فى الناس من يتهيأ له الأسلوب الجامع المانع على توثق السرد وكمال الملاءمة كما نراه فى الكلام النبوى .

لقد كان أسلوبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ السهل الممتنع حقا وكمالا واكتمالاً ، مثال ذلك ما قاله عن ماء البحر ، وقد سأله رجل قائلا : يارسول الله إنا نركب أرماثاً فى البحر ، فتحضر الصلاة وليس معنا ماء لشفاهنا ، أنتوضأ بماء البحر ؟ قال : « **هو الطهور ماؤه الحِلّ ميتته** » .

ومن روائع فنون البيان التى كانت تجرى على لسانهﷺ إجاباته عن أسئلة صحابته ، وما أكثر ما سأل الصحابة رسول الله فى مختلف القضايا التى كانت تشغلهم فى أمور دينهم ودنياهم .

قيل : يا رسول الله : أمتك ستفتتن من بعدك . فسئل ما المخرج من ذلك ؟ فقال : « **بكتاب الله العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من عزيز حميد ، من ابتغى العلم فى غيره أضلّه الله ، ومن وَلِىَ هذا من جبار فحكم بغيره قصمه**

---

(١) عن إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعى ، ص ٣٤٩ .

الله ، وهو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم ، فيه خبر مَنْ قَبْلكُم ، وتبيانُ مَنْ بعدكم ، وهو فصل ، ليس بالهزل ، وهو الذى لما سمعته الجنّ قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ لا يَخْلُقُ على طول الرد ، ولا تنقضى عِبَرُه ، ولا تفنى عجائبه »(١) .

إن علماء البلاغة ـ والأمر كذلك ـ لما عزموا على منهجة فنهم ، وأقبلوا على تخطيط موضوعاتهم فقسموها إلى علوم ثلاثة ، هى : المعانى ، والبيان ، والبديع ، ثم قسموا كل علم من هذه العلوم الثلاثة إلى موضوعات حددوها ، وعناوين ابتكروها ، كان زادهم الذى استقوا منه مادتهم القرآن الكريم والحديث الشريف ، فكل من كتاب الله وكلام رسوله ﷺ متضمن هذه الموضوعات ، محتو لهذه الفنون بها حفلا به من أمثلة لا تحصى ونماذج لا تُسْتَقْصَى ، ومن ثم فسوف يكون عرضنا لما صارت أنواعا بلاغية من كلام رسول الله ﷺ متسقا مع النهج الذى انتهجه البلاغيون القدماء ، منسجما مع الأسماء التى سموها ، والعناوين التى اصطلحوا على تحديدها ، واتخذها الدارسون بعد ذلك منهجا وطريقا .

وحتى يكون القارىء على بينة من العلوم الثلاثة ـ البيان والمعانى والبديع ، وفهم لارتباط بعضها ببعض ، واشتباك الواحد منها بالآخر ، وتداخلها جميعاً بعضها ببعض وانتسابها إلى أصل واحد هو علم البلاغة والفصاحة ـ فإننا نعرض فى هذا الشأن توصيف الإمام البلاغى أمير المؤمنين يحيى بن حمزة لهذه العلوم ، وارتباط بعضها بالبعض الآخر . يقول الإمام يحيى بن حمزة (٢):

اعلم أن هذه الأنواع الثلاثة ـ أعنى المعانى وعلم البيان وعلم البديع ـ مآخذُها مختلفة ، وكلُّ واحدٍ منها على حظ من علم البلاغة والفصاحة ، ولنضرب لها مثالاً يكون دالاًّ عليها ، ومبيناً لمَوْقع كلّ واحدٍ منها ، وهو أن تكون حَبَّاتٍ من ذهبٍ ودُرَرٍ ولآلِىء ويواقيت ، وغير ذلك من أنواع الأحجار النفيسة ، ثم إنها أُلِّفَتْ تأليفا بديعاً ،

(١) القاضى ابن قتيبة فى (عيون الأخبار) ٢ / ٣١٣ .

(٢) الطراز ٣ / ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

بأن خُلِطَ بعضُها ببعض ، ورُكِّبَتْ تركيباً أَنيقاً ، ثم بعد ذلك التأليف ، تارةً تجعلُ تاجاً على الرأس ، ومرةً طَوْقاً فى العنق : ومرة بمنزلة القُرْطِ فى الأذُن ، فالألفاظ الرائقة بمنزلة الدُّرَر واللآلى ، وهو علم المعانى ، وتأليفُها وضمٌّ بعضها إلى بعض ، هو علم البيان ؛ ثم وضْعُها فى المواضع اللائقة بها عند تأليفها وتركيبها ، هو علم البديع ، فوضْعُ التاج على الرأس بعد إحكام تأليفه هو وَضْعٌ له فى موضعه ، ولو وُضِع فى اليد أو الرجْل ، لم يكن موضعاً له ، وهكذا الكلامُ بعد إحكام تأليفه يُقصد به مواضعه اللائقة به ، وما ذكرناه من المثال هو أقربُ ما يكون فى هذه العلوم الثلاثة وتمييزِ مواقعها .

لقد اصطلح البلاغيون على أن « المعانى » أحد علوم البلاغة الثلاثة التى هى المعانى والبيان والبديع ، وقالوا : إنها قواعد يعرف بها أحوال اللفظ العربى التى يطابق بها مقتضى الحال ، وإن المراد بأحوال اللفظ ، الأمور العارضة له من التقديم والتأخير والإثبات والحذف وغير ذلك[1] .

ولقد حصر البلاغيون مسائل « علم المعانى » فى ثمانية موضوعات هى :

١ ـ أحوال الإسناد الخبرى .

٢ ـ أحوال المسند إليه .

٣ ـ أحوال المسند .

٤ ـ أحوال متعلقات الفعل .

٥ ـ القصر .

٦ ـ الإنشاء .

٧ ـ الفصل والوصل .

٨ ـ الإيجاز .

٩ ـ الإطناب .

---

(١) معجم البلاغة العربية ، مادة « المعانى » ص : ٤٥٣ .

١٠ ـ المساواة .

وعرّف السكاكى فى كتابه « مفتاح العلوم » علم المعانى بأنه تتبع خواص تراكيب الكلام فى الإفادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ؛ ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره .

ثم استطرد قائلا : وأعنى بتراكيب الكلام التراكيب الصادرة عمن له فضل تمييز ومعرفة ، وهى تراكيب البلغاء وليس التراكيب الصادرة عمن سواهم .

وقد زاد بعض البلاغيين إلى هذه الموضوعات : الإبهام والتفسير ، والخبر والإنشاء ، والفصل والوصل .

ولما كان موضوع كتابنا هو البيان المحمدى فإن المنهج الذى اتبعناه لا يكاد يعنيه من هـذه التقاسيم إلا ما كان متصلا بالحـديث الشريف ، ومـن ثـم سـوف تكـون عنايتنا ـ تطبيقا ـ منصرفة إلى الإيجاز والإطناب ، والإبهام والتفسير ، والمساواة .

(١)

الإيجاز :

عـرّف بعض القدمـاء ـ مثل الرمـانى ـ الإيجـاز بأنـه تقليل الكـلام مـن غير إخـلال بالمعنى ، والإيجاز على وجهين : حذف وقصر ، فالحـذف إسقاط كلمة للإجـزاء عنها بدلالة غيرها مـن الحال أو فحـوى الكلام . وذلك مثل قولـه ـ تعالى ـ : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ . والقصر بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف ، مثل قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ .

ويقول صديقنا الأستاذ الدكتور بدوى طبانة : إن معنى الإيجاز فى اصطلاح علماء البيان هو اندراج المعانى المتكاثرة تحت اللفظ القليل ، وأصدق مثال فيه قوله ـ تعالى ـ ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ فهاتان الكلمتان قد جمعتا معانى الرسالة كلها ، واشتملت على كليات النبوة وأجزائها وكقوله ـ تعالى ـ :

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(١).

ولقد مر بنا فى الباب السابق ما رواه أبو عبيدة من أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرّ ساجدا وقال : سجدت لفصاحة هذا الكلام .

وقد بالغ بعضهم فى تمجيد الإيجاز إلى المدى الذى جعل فيه البلاغة هى الإيجاز ، فقد سئل : ما البلاغة ؟ فقال : الإيجاز ، قيل : وما الإيجاز ؟ قال : حذف الفضول ، وتقريب البعيد(٢).

أما وتلك فضائل الإيجاز ومحاسنه فإننا نجده ذائعا موفورا فى كلام الرسولﷺ .

قال رسول الله ﷺ لربيعة بن كعب الأسلمى وقد سألة مرافقته فى الجنة : « **أَعِنِّى على نفسك بكثرة السجود** » .

بهذا البيان الناصع ، وبهذا الإيجاز البليغ ، وبهذا الأسلوب السهل الممتنع الذى لا يحاكيه أسلوب ولا يماثله بيان ، يجيب رسول اللهﷺ واحدا من صحابته وقد سأله أمنيةً يتركز حولها مسعى كل مسلم ؛ ويستقطب جوهرها آمال كل مؤمن . يقول الرسول لربيعة : « أعِنّى على نفسك »(٣) يعنى : دخول الجنة لا يكون بدعائى لك وحسب ، وإنما بعونك لى فى الساحة الربانية بكثرة السجود لله ؛ لأن السجود لله أشرف حالات العبودية ، « **وأقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد** » ، ولأن فى السجود لله عزة للعبد ، وفى الخضوع للخالق تمنّع على الخضوع للمخلوق ، فالذى يسجد لله يمتنع عليه السجود لغير الله ، وفى ذلك كمال العبودية لله ، التى هى كمال الإيمان ، والجنة طريقها التوحيد للخالق ، والإيمان به ربًّا واحدا لا شريك له ، وهنا يستطيع اللبيب أن يتنبه إلى القيم الإيمانية الأساسية التى استقطبتها أول آية أنزلت على الرسول الكريم ، حيث بدأت بـ « اقرأ » وتضمنت العلم والقلم ، وختمت بطلب السجود فى قوله ـ تعالى ـ :

---

(١) معجم البلاغة العربية ، مادة الإيجاز ، رقم ٨٨٨ ص : ٧٠٢ .

(٢) المصدر السابق ، المادة نفسها .

(٣) زاد المعاد فى هدى خير العباد ١ / ٨٠ .

﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ .

والإيجاز نوعان طبقا لما ذكرنا قبل قليل بالحذف وبالقصر ، ولكن الإمام يحيى بن حمزة اليمنى يرى أن النوع الأول هو الإيجاز بالتقرير ، وأما النوع الثانى فهو بالقصر ، ومفهومه هنا لا يختلف عن مفهوم سابقيه ولاحقيه ، ويختلف فى تعريف الأول قائلا(١): الإيجاز بالتقرير وهو الذى تكون ألفاظه مساوية لمعناه ، لايزيد أحدهما على الآخر ، مثل قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **الحلال بيّن ، والحرام بَيِّنٌ ، وبَيْنَ ذلك مشتبهات** » .

ومن ذلك قولهﷺ : « **إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى** » . **وقولهﷺ** : « **دع ما يريبك إلى ما لا يريبك** » .

وهكذا يختلف الإمام يحيى بن حمزة مع جمهرة البلاغيين فى تعريف الصنف الأول من الإيجاز ، وهو فى الوقت نفسه يدعم رأيه بثلاثة نماذج كلها من حديث رسول الله ﷺ .

وما ورد فى جملة الإيجاز عن رسول اللهﷺ كثير ، فمن ذلك قوله : « **لاَ ضَرَرَ ولا ضِرَارَ فى الإسلام** » ومعنى « لاضرر » أى : لا ينبغى لأحد أن يضر غيره ، ومعنى قوله : « لا ضرار فى الإسلام » أنه لا ينبغى لك أن تضر أحدا ، ولا ينبغى له أن يضرك .

ومن هذا أيضا قولهﷺ : « **المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء ، وعوّدوا كل جسم ماعتاد** » .

ومن ذلك أيضا قولهﷺ : « **الطمع فقر ، واليأس غنى** »(٢).

إنّ هذه النماذج من أقوال الرسولﷺ هى من جوامع الكلم التى خصّ بها دون غيره من البشر .

ومن روائع الإيجاز النبوى قولهﷺ حكاية عن الله ـ تعالى ـ : « **أعددتُ لعبادى**

---

(١) الطراز ٢ / ١٢٠ .

(٢) المصدر السابق ٢ / ١٢٨ .

الصالحين ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

ومن الإيجاز الرشيق قوله ﷺ فى طلب الرزق : « **إن الرزق ليطلب الرجل كما يطلبه أجله** » وقوله ﷺ : « **الرزق رزقان : رزق تطلبه ، ورزق يطلبك** » .

ومن فرائد الإيجاز فى كلام النبى ﷺ ما رواه سفيان بن عبد الله - رضى الله عنه - قال : قلت لرسول الله ﷺ : يارسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك . قال : « **قل آمنت بالله ثم استقم** » .

ومن جواهر إيجاز رسول الله ﷺ وإعجازه قوله : « **الضعيف أمير الركب** » . وقوله : « **إن من البيان لسحرا** » .

وأما الإيجاز القرآنى فمن الكثرة بمكان ، وقد تقتضينا اللياقة - ونحن نذكر الإيجاز فى كلام النبى - أن نتمثل لبعض ضروب الإيجاز القرآنى .

فمن الإيجاز القرآنى فى صفة الجنة قوله - تعالى - :

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ .

﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ .

وفى صفة أهل النار قوله - تعالى - :

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ .

(٢)

الإطناب :

الإطناب : هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة جديدة من غير ترديد، هكذا جاء

تعريف الإطناب تعريفا موجزا ، ومن ثم يكون التعريف بالإطناب قد جاء بأسلوب الإيجاز .

ولمزيد من تعريف الإطناب قيل : إنه الاشتداد فى المعانى أخذاً من قولهم : أطنبت الريح : إذا اشتدّ هبوبها ، وأطنب الرجل فى سيره : إذا اشتد فيه .

والإطناب ـ كما هو معروف ـ مقابل للإيجاز ؛ لأن الإيجاز دلالة اللفظ على معناه من غير نقصان فيخلّ ، ولازيادة فيملّ ، وأما التطويل فهما متساويان فى تأدية المعنى خلا أن الإطناب مختص بفائدة جديدة ، ولأجلها كان ممتازا عن التطويل ، ومثال ذلك كمن سلك لطلب مقصد من المقاصد ثلاث طرق ، فإنها كلها موصلة إلى مايريده ، فأحدها أقرب الطرق ـ وهو نظير الإيجاز ـ والطريقان الآخران متساويان فى الإطالة ، وهما نظير الإطناب والتطويل ، خلا أن أحدهما مختص إما بمتنزه حسن أو بمياه عذبة ، أو بزيارة صديق أو غير ذلك من الفوائد ، فهو نظير الإطناب ، أما التطويل فلا فائدة وراءه ، وهو مذموم فى الكلام (١).

ويقول أبو الحسن الرمانى فى الإطناب وقد قرن الحديث عنه بحديث عن الإيجاز : الإيجاز بلاغة ، والتقصير عىّ ، كما أن الإطناب بلاغة ، والتطويل عىّ . والإيجاز لا إخلال فيه بالمعنى المدلول عليه ، وليس كذلك التقصير ؛ لأنه لابد فيه من الإخلال .

وأما الإطناب فإنما يكمن فى تفصيل المعنى وما يتعلق به فى المواضع التى يحسن فيها ذكر التفصيل ، وأما التطويل فعيبٌ وعىّ ؛ لأنه تكلف الكثير فيما يكفى فيه القليل ، فكان كالسالك طريقا بعيدا جهلا منه بالطريق القريب ، وأما الإطناب فليس كذلك ؛ لأنه كمن سلك طريقا بعيدا لما فيه من النزهة الكثيرة والفوائد العظيمة (٢).

والإطناب واضح الظهور فى الأسلوب القرآنى ، مثلما هو كامل الوضوح فى الحديث النبوى .

---

(١) معجم البلاغة العربية ، المادة رقم ٤٨٥ ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ .

(٢) إعجاز القرآن للرمانى ، ص : ٣ .

ففى أهل الجنة نورد الآيات التى تناولتهم بالإطناب ، مثل : قوله ـ تعالى ـ :

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾(١).

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾(٢).

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ * قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾(٣).

ذلك وردت فى كتاب الله آيات بينات وضح فيها الإطناب فى وصف أهل النار ، :

وله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾(٤).

توله ـ تعالى ـ : ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾(٥).

---

(١) سورة محمد ، الآية : ١٥ .

(٢) سورة الغاشية ، الآيات : ١٠ـ١٥ .

(٣) سورة الإنسان ، الآيات : ١٢ـ١٩ .

(٤) سورة المؤمنون : ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٥) سورة الحج ، الآيات : ١٩ ـ ٢١ .

ومثلما سقنا نماذج من الأسلوب المعجز من كلام الله فى أطر من الإطناب فإننا نسوق نماذج من كلام سيد المرسلين فى نفس الأطر من أساليب الإطناب ، وسوف نرى أنها دون كلام الله ، ولكنها فوق كلام البلغاء من البشر .

قال ﷺ : « **مَنْ سَقَى مؤمناً شَرْبَةً سقاهُ اللهُ من الرحيق المختوم . أو قال : من نَهْرِ الكَوْثَر ، وَمَنْ كَسَا مؤمناً كساهُ اللَّهُ مِنْ سُنْدُسِ الجَنَّة ، وَمَنْ أَطْعَمَ مؤمناً لُقْمَةً أطْعَمَهُ اللهُ منْ طيبَّاتِ الجنة وفوَاكِهِهَا** » (١).

ومن الإطناب قوله ﷺ : « **لاَ يَكْمُلُ إيمانُ العبدِ باللهِ حتى يكونَ فيه خمسُ خصال : التوكلُ على الله ، والتفويضُ إلى الله ، والتسليمُ لأمرِ الله ، والرِّضا بقضاء الله ، والصبرُ على بلاءِ الله ، إنه من أحَبَّ للَّه ، وأَبْغَضَ لِلَّه ، وأَعْطَى لله ، وَمَنَعَ لله فقد اسْتَكْمَلَ الإيمان** » .

إنه ﷺ ذكر خصالا خمسا جعلها أصلا فى كمال الإيمان ، ثم أتبعها بما يمكن أن يكون ثمرات لها ، والمصداق لأمرها ، فكل من اكتملت فيه هذه الخصال وكانت تصرفاته كلها لله : من حب ، وبغض ، ومنح ، ومنع ، كان كامل الإيمان .

ومن الإطناب البديع فى الأسلوب المحمدى قوله ﷺ : « **إنَّ العَبْدَ لا يُكْتَبُ فى المسلمين حتى تَسْلَمَ الناسُ من يَدِهِ ولِسَانِهِ ، ولا يُعَدُّ من المؤمنين حتى يَأْمَنَ أخوه بَوَائِقَهُ ، وجارهُ بَوَادِرَهُ ، ولا يَنَالُ درجةَ المتقين حتى يَدَعَ مَا لا بأس به حِذَارًا مَا بِهِ الْبَأْس** » .

فهذا الإطناب البليغ هو نفسه ترجمة لإيجاز بليغ فى نفس المعنى فى قول رسول الله ﷺ : « **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده** » وفى قوله أيضا : « **والله لا يؤمن والله لا يؤمن** » قيل : من يارسول الله ؟ قال : « **الذى لا يأمن جاره بوائقه** » .

هكذا يتناول رسول الله ﷺ القضية الواحدة فيسوقها فى إطار من الإيجاز فتكون فى قمة البلاغة ، ويصوغها فى ثياب من الإطناب فتجىء فى أنصع بيان .

---

(١) أحاديث الإطناب منقولة عن الإمام يحيى بن حمزة ، من كتابه (الطراز) الجزء الثانى ص : ٢٤٨ وما بعدها .

ومن قبيل الإطناب الذى يتدفق عمقا وجمالا فى كلام رسول الله ﷺ قوله :

« يا ابن آدم ، تؤتى كل يوم برزقك وأنت تحزن ، وينقص كل يوم من أجلك وأنت تفرح ، تعطى ما يكفيك وتطلب ما يطغيك ، لا من كثير تشبع ، ولا بقليل تقنع » .

لقد منح الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله محمدا جوامع الكلم ، فجرت أساليب البلاغة سلسة فى كلامه ، وتفجرت عيون البيان خصبة فى قوله ، سواء أكان هذا القول إيجازا أم إطنابا ، وعلى أى نهج جاء كان الكمال إطاره ، والجلال محتواه .

(٣)

الإبهام والتفسير :

هذا ضرب آخر من ضروب البلاغة فى نطاق علم المعانى ، حفل القرآن الكريم بالكثير من ضروبه ، مثلما اشتمل حديث رسول الله ﷺ على غير قليل من نماذجه .

يقول الإمام يحيى بن حمزة العلوى اليمنى :

اعلم أن المعنى المقصود إذا ورد فى الكلام مبهما ، فإنه يفيده بلاغة ، ويكسبه إعجابا وفخامة ، وذلك لأنه إذا قرع السمع على جهة الإبهام فإن السامع له يذهب فى إبهامه كل مذهب ، ومصداق هذه المقالة قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ ثم فسّره بقوله ـ عز وجل ـ : ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ (١). وهكذا فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا ﴾ فأبهمه أولا ثم فسّره بقوله : ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (٢)

ففى إبهامه فى أول وهلة ثم تفسيره بعد ذلك تفخيم للأمر وتعظيم لشأنه ، فإنه لو قال : وقضينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع ، وإن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا بعوضة ، لم يكن فيه من الفخامة وارتفاع مكانة فى الفصاحة مثل مالو أبهمه قبل ذلك .

---

(١) سورة الحجر ، الاية : ٦٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٦ .

ويستطرد الإمام العلوى فى مزيد من الإبانة لموضوع الإبهام والتفسير قائلا : يؤيد ما ذكرناه هو أن الإبهام أولا يوقع السامع فى حيرة وتفكر واستعظام لِمَا قَرَعَ سَمْعَه ، فلا تزال نفسه تنزع إليه ، وتشتاق إلى معرفته والاطلاع على كنه حقيقته ، ألا ترى أنك إذا قلت : هل أدلك على أكرم الناس أباً ، وأفضلهم فعلا وحسبا ، وأمضاهم عزيمة وأنفذهم رأيا ؟ ثم تقول : فلان ، فإن هذا وأمثاله يكون أدخل فى مدحته مما لو قلت فلان الأكرم الأفضل الأنبل ، وما ذاك إلا لإبهامه أولا وتفسيره ثانيا (١) .

وثمت ضربان فى هذا النسق من علم المعانى ، أى : من الإبهام والتفسير.

فأما الضرب الأول : فهو مايرد مبهما من غير تفسير ، وهو وارد كثيرا فى القرآن الكريم ، مثل قوله ـ تعالى ـ فى قصة موسى : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ ﴾ (٢) فلم يذكر الفعلة بعينها مع كونها معلومة ؛ لما فى ذلك من المبالغة فى أمرها وتعظيم شأنها ، وكقوله ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ يريد بذلك الطريقة أو الحالة أو الخصلة إلى غير ذلك من المحتملات المتعددة ، وأى شىء من هذه الأمور قَدَّرْتَهُ فإنك لا تجد له من البلاغة ـ وإن بالغت فى الإفصاح به ـ الذى تجده من مذاق الفصاحة مع الإبهام .

ومن هذا قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾(٣)، يريد أنه بلغ مبلغا تقاصرت العبارة عن كنهه ، فحذف ذلك وأقام الإبهام مقامه .

إن مواقع هذا الضرب فى القرآن الكريم أكثر من أن تحصى ، فإذا ما اتجهنا إلى السنة الشريفة وجدنا الرسولﷺ يقول : « **عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من أحببت فإنك مفارقه ، واعمل ماشئت فإنك ملاقيه** » .

فالإبهام هنا يشتمل على معان جمة ، ونكت كثيرة ، ومواعظ زاجرة .

---

(١) الطراز ٢ / ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية : ١٩ .

(٣) سورة طه ، الآية : ٧٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن هذا الضرب أيضا قوله ﷺ : « **أحبب حبيبك هوناً ما ، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هوناً ما ، عسى أنْ يكون حبيبك يوماً ما** » .

يقول الإمام يحيى بن حمزة : فهذا من رشيق الإبهام وبديعه ، ومن عجيب أمره ودقيق سره أنه أمر بالاعتدال فى حالتى الحب والبغض ، ومجانبة الإفراط والتفريط ، فقال : أحبب حبيبك على الهون من غير إفراط فى حبه ؛ فلعلك أن ترجع عن ذلك فى بعض الأيام وإن قلّ ، فأتى بالهون منكّرا مبهما ، وباليوم منكّرا مبهما ؛ ليدل بهما على شدّة المبالغة فى المفقود .

ومن هذا الضرب الأول أيضا قوله ﷺ : « **خذوا العطاء ما كان عطاء ، فإذا تجاحفت**(1) **قريش ملكها فاتركوه** » وفى حديث آخر أو رواية أخرى : « **خذوا العطاء ما كان عطاء ، فإذا تجاحفت قريش الملك فلا تأخذوه ؛ فإنما هو رشوة** » فالإبهام هو قوله : « ماكان عطاء » لاشتماله على مقاصد عظيمة .

الضرب الثانى :

وهو فى الإبهام الذى ظهر تفسيره ، مثل قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ فقوله : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ مبهم وقد فسره بقوله : ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ ﴾ وفى إبهامه أولا ثم تفسيره ثانيا ، تفخيم للأمر وتعظيم لشأنه ، ولو قال من أول وهلة : « **وقضينا إليه أن دابر هؤلاء القوم مقطوع** » لم يكن فيه ماكان مع الإبهام من الفخامة .

ولم يكن الأسلوب النبوى بعيدا عن هذا الضرب الثانى من الإبهام الذى ظهر تفسيره فثمت أحاديث عدة فى هذا المجال :

قال ﷺ : « **ألا أنبئكم بأمرين خفيفة مؤنتهما عظيم أجرهما لن يُلْقَى اللهُ بمثلهما ؟** » ثم قال بعد ذلك تفسيرا لهما : « **الصمت وحسن الخلق** » .

---

(1) تجاحفوا : يعنى تناوشوا وتقاتلوا .

وقوله ﷺ : « **ألا أدلكم على ما إذا فعلتموه تحاببتم ؟ قالوا : نعم ، قال : أفشوا السلام** »

إن تفسير ما أبهم فى الحديثين السابقين يعظم من شأن ما اشتملا عليه من البلاغة .

وفى مثال آخر يقول رسول الله ﷺ : « **ألا أدلكم على أخسر الناس صفقة ؟قالوا : نعم ، قال : من باع آخرته بدنيا غيره** »(١).

إن هذا الباب من الإبهام والتفسير واسع الجناب فى كتاب الله ، مثلما هو عظيم الشأن فى حديث رسول الله ، وهو ضرب عظيم من ضروب البلاغة القرآنية والمحمدية .

(٤)

المساواة :

ذهب أكثر البلاغيين إلى تقسيم « المعانى » إلى الإيجاز والإطناب والمساواة ، ولقد عرضنا لفرعى الإيجاز والإطناب بالدراسة فى الفصلين السابقين ، وأما المساواة فإن جاز تناولها فى كلام البلغاء فإن ذلك لايجوز مع كلام الله ولا مع حديث رسول الله ؛ لأن الأصل فى أسلوب القرآن وإعجازه هو المساواة ؛ لأن الإيجاز والإطناب يعدان من الظواهر ، أما المساواة فهى الأصل ، وهى البنية الأسلوبية القرآنية ، وهى نفسها البنية الأساسية فى كلام النبى ﷺ وأسلوبه إذا تكلم ، ونستطيع القول إنه إذا ما عزلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تعاملت مع الإيجاز والإطناب ، فإن سائر القرآن وسائر حديث رسول الله ليست إلا أسلوب المساواة .

وقد يكون من التوفيق فى هذا الفصل أن نعرض لأسلوب رسول الله من زاويتى الجزالة والرقة ، وسنلتقى بمثالين لكل زاوية ، ليس من باب التخفيف على القارىء ، ولكن لأن القارىء الحصيف لا يخطىء الجزالة ، ولا تفوته الرقة وهو يستعر أحاديث رسول الله ﷺ .

---

(١) الطراز ٢ / ٨٣ ـ ٨٧ .

ففى الجزالة : [1].

قال ﷺ : « يا ابن آدم تؤتى كل يوم برزقك وأنت تحزن ، ويَنْقُصُ كلُّ يوم من عمرك وأنت تفرح ، أنت فيما يكفيك ، وتطلب ما يطغيك ، لابقليل تقنع ، ولا من كثير تشبع » .

وقال ﷺ : « أما رأيت المأخوذين على الغِرّة ، المزعجين بعد الطمأنينة ، الذين أقاموا على الشبهات ، وجنحوا إلى الشهوات ، حتى أتتهم رسلهم ، فلا ما أملوا أدركوا ، ولا إلى مافاتهم رجعوا ، قدموا على ماعملوا ، وندموا على ما خلّفوا ، ولن يغنى الندم ، وقد جف القلم » .

وفى رقة الأسلوب :

يقول ﷺ معبرا عن هذا المذهب[2]:

« كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، واعدد نفسك فى الموتى ، فإذا أمسيْتَ فلا تحدثها بالصباح ، وإذا أصبحت فلا تحدثها بالمساء ، وخذ من صحتك لسقمك ، ومن شبابك لهرمك ، ومن فراغك لشغلك » .

وقوله ﷺ :

« رحم الله امرأ تكلم فغنم ، أو سكت فسلم ، إن اللسان أملك شىء للإنسان» .

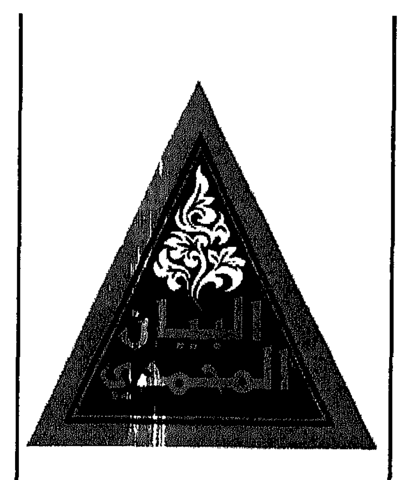
وقوله ﷺ :

« عائد المريض على مخارف الجنة حتى يرجع » .

---

(١) الطراز ١ / ١١٧ .

(٢) الطراز ١ / ١١٨ .



الفصل الثانى

البيـــان

- التمثيل والمماثلة
- التشبيه
- المجاز
- الاستعارة



البيـــان

البيان لغة : هو الكشف والتوضيح والظهور .

وهو فى الاصطلاح : المنطق الفصيح المعبر عما فى الضمير ، وقد يستعمل بمعنى الإثبات بالدليل .

والبيان عند البلاغيين : هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بتراكيب مختلفة فى وصوح الدلالة على المعنى المراد ، بأن تكون دلالة بعضها أجلى من بعض [(١)].

ويعالج الجاحظ موضوع البيان ومفهومه فيقول : إن الدلالة الظاهرة على المعنى الخفى هو البيان الذى سمعت الله ـ عز وجل ـ يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه ، بذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أصناف العجم .

ويمضى الجاحظ فى علاجه لمصطلح البيان قائلا : والبيان اسم جامع لكل شىء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضى السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ، ومن أى جنس كان ذلك الدليل ؛ لأن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأى شىء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان فى ذلك الموضع [(٢)].

وعلم البيان هو الذى يحترز به عن التعقيد المعنوى ، وسمى كذلك ـ أى : سمى علم البيان ـ لأنه له مزيد تعلق بالوضوح والبيان من حيث إن علم البيان يعرف به

---

(١) معجم البلاغة العربية ، مادة (البيان) ورقمها ٩٣ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ٧٥ ، ٧٦ .

اختلاف طرق الدلالة فى الوضوح والبيان ، وإن كثيرا من البلاغيين يسمى علوم البلاغة الثلاثة ـ المعانى والبيان والبديع ـ علم البيان ، لتعلقها جميعا بالبيان ، وهو المنطق الفصيح المعرب عما فى الضمير [1].

ويذهب الإمام يحيى بن حمزة فى تعريف البيان مذهبا مغايرا حين يقرر أن البيان مورده المجاز على أنواعه ، وذلك فى قوله : اعلم أن علم البيان من عوارض الألفاظ ، ومورده المجاز على أنواعه ، ومعناه : إيراد المعنى الواحد فى طرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه والنقصان ، فعلى قدر إغراق المجاز وحسنه يزيد المعنى وضوحاً ، وعلى قدر نزوله وَبُعْدِه ، ينتقص المعنى [2].

ومهما كان الأمر فقد استقر البلاغيون على موقف شبه محدد فى أن موضوعات البيان هى التشبيه والتمثيل والاستعارات والمجاز والكنايات .

(١)

التمثيل والمماثلة والمثل :

لقد عمدنا إلى إيراد العنوان على هذا النمط حتى لا ينصرف ذهن القارىء إلى التمثيل الذى هو التشبيه ، أو إلى المثل السائر ، ومن ثم أوردنا لفظ المماثلة ، وهى أن تمثل شيئا بشىء آخر مثل قوله ﷺ :

« **ظَهرُ المؤمنِ مشجبه ، وخِزَانَتُه بطنه ، وَرَاحِلته رجله ، وذخيرتُه ربه** » .

ومثل قوله أيضا : « **المؤمن فى الدنيا ضيف ، وما فى يديه عاريّة ، والضيف مرتحل ، والعاريّة مؤداة ، ونعم الصهر القبر** » .

ولقد ورد عن الرسول ﷺفى مجال الاعتصام بالكتاب والسنة والاستمساك بعرى الإيمان ، وعلاقته بالآخرين كثير من المماثلات التى كان ﷺأحد طرفيها ، ولقد أرسلها جميعا لهدى الناس ووضعهم على المحجة البيضاء .

---

(١) معجم البلاغة العربية ، مادة (البيان) .

(٢) الطراز ٣ / ٢٢٨ .

عن أبى موسى عبدالله بن قيس الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قال :(١)

قال رسول الله ﷺ : « مَثَلُ مَا بَعَثَنِى الله بِهِ مِنَ الْهُدَى والعِلم كَمَثَلِ الغَيْثِ أَصَابَ أَرْضاً ، فَكَانَ مِنها نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الماءَ ، فَأَنْبَتتِ الكَلأَ وَالْعُشْبَ الكثير ، وكانت مِنْهَا أَجَادِبُ أمسَكَتِ الماءَ فَنَفَعَ الله تَعَالَى بِهَا الناسَ فَشَربُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وأَصَابَ منها طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِىَ قِيعَانٌ لاَ تُمسِكُ ماءً ولا تُنبِتُ كلأً . فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فى دين الله وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِى الله بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَم يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الذى أُرسِلتُ بِهِ » (*).

والحديث هو مثل للنبى فى إبلاغه عن الله ـ عز وجل ـ ودعوته إلى سبيله وأنه بعثه رحمة للعالمين ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى صراط مستقيم .

قال النووى : ضرب النبى ﷺلما جاء به من الدين مثلا بالغيث العام الذى يأتى الناس فى حال حاجتهم إليه . وكذا كان حال الناس قبل مبعثه ، فكما أن الغيث يحيى البلد الميت فكذا علوم الدين تحيى القلب الميت ، ثم شبَّه السامعين له بالأرض المختلفة التى نزل الغيث بها ، فمنهم العالم المعلم فهو بمنزلة الأرض الطيبة التى شربت فانتفعت فى نفسها وأنبتت فنفعت غيرها .

ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه غير أنه لم يعمل بنوافله ولم يتفقه فيما جمع لكنه أداه لغيره ، فهو بمنزلة الأرض التى يستقر فيها الماء فينتفع الناس به ، وهو المشار إليه بقوله : « **نضر الله امرأً سمع مقالتى فوعاها فأداها كما سمعها** » .

ومنهم من سمع العلمَ فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره ، فهو بمنزلة الأرض السَّبْخة أو الملساء التى لا تقبل الماء ، أو تفسده على غيرها .

---

(١) صحيح البخارى (كتاب العلم) وصحيح مسلم (كتاب الفضائل) حديث رقم ١٥ ، وأمثال الحديث للرامهرمزى ص ٢٤ .

(*) المفردات : الغيث : المطر . الكلأ : الحشيش رطبه ويابسه ، العشب : هو الرطب منه ، الأجادب : جمع أجداب، من جدبت الأرض فلا تنبت شيئا .

وقريب من التمثيل السابق ما عبر عنه رسول الله ﷺبأن رسالته منجاة لمن تبعها، ومهلكة لمن خالفها ، وذلك فى الحديث الشريف : (١)

« إن مثلِى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال : يا قوم ، إنى رأيت الجيش بعينى ، وإنى أنا النذير العريان ، فالنجاء ، فأطاعه طائفة منهم فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبته طائفة فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، كذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق » (*).

لقد خاطب رسول الله القوم بالأسلوب الذى هو مألوف عندهم بحيث يكونون أكثر استيعاباً له وأخذاً به ، وهو إلى الإطناب أقرب وإلى التفصيل أوفى ؛ حتى تستقر المعانى فى نفوسهم ، وتنفذ إلى عقولهم وقلوبهم .

ولقد رُوِىَ الحديث السابق بصيغة أكثر تفصيلا وتوضيحا عن عبدالله بن يزيد عن أبيه أن رسول الله ﷺخرج ذات يوم فنادى ثلاث مرات : **« أيها الناس إن مَثَلى وَمَثَلَ ما بعثنى الله به كمثل قوم خافوا عدوا أن يأتيهم فبعثوا رجلا يتراءى لهم ، فبينما هو كذلك إذ أبصر العدو فأقبل لينذر قومه ، فخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فأهوى بثوبه : أيها الناس أتيتم ـ ثلاث مرات ـ يا قوم إنى رأيت الجيش بعينى ، وأنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذب طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به من الحق ، ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق»**(٢).

ومن الأمثال التى تصور حاله ﷺوحال بعض الناس الذين ينير لهم الطريق ،

---

(١) أمثال الحديث للرامهرمزى . ص ٢٠ .

(*) النذير العريان : الذى قد ظهر صدقه ، ومنها عرى الأمر : إذا ظهر . والطائفة من كل شىء : قطعة منه ، تقول : طائفة من الناس ، وطائفة من الليل . قال عز وجلّ : ﴿ وطائفة من الذين معك ﴾ .

(٢) صحيح البخارى (كتاب الرقاق) و (كتاب الاعتصام) . وصحيح مسلم (كتاب الفضائل) حديث رقم ١٦

ويمهِّد لهم المسالك ، ويهديهم إلى الصراط السويّ ، فينصرفون عنه إلى المهالك ، رغم حرصه عليهم ، والأخذ بحجزاتهم ، قوله ﷺ في حديث استمد صيغته من القرآن الكريم :

روى الشيخان عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « مثلى ومثلُ **الناس : كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حَوْله جعل الجنادبُ والفَراشُ وهذه الدواب التى تقع فى النار يقَعْن فيها ، وجعل يحجزهنَّ ويَغْلِبْنَهُ فيقَعن فيها ، فأنا آخذ بحُجَزكم عن النار ، وأنتم تقتحمون فيها »** .

ولفظ مسلم : « **فذلك مثلى ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم هلمّ عن النار فتغلبوننى تقتحمون فيها** »[1].

وثمت حديث آخر عن مَثَلِ الرسول وَمَثَلِ من أطاع رسالته ، ومن شذّ عنها ، وفيه حبكة التشبيهات ، ورقة الصوغ ، وبهاء المعانى ، مع جمال الترغيب الذى يغنى عن مسالك الترهيب .

عن الحسن قال :[2] قال رسول الله ﷺ : « إنما مَثَلِى وَمَثَلُكم كمثل قوم سلكوا مَفَازةً غبراء ، لا يدرون ما قَطَعُوا أكثر ، أو ما بَقِىَ منها ، فَحَسِرَتْ ظهورُهُم ، ونَفِدَ زَادُهُم ، وسَقَطُوا بين ظَهْرَىِ المفازةِ فأيقنوا بالهلاك (فى النص : الهلاكة) فبينا هم كذلك إذ خرج عليهم رجلٌ فى حُلَّةٍ يَقْطُرُ رأْسُهُ ، فقالوا : إن هذا الحديث عهدٍ بِرِيفٍ ، فانتهى إليهم فقال : يا هؤلاء ما شأنكم ؟ فقالوا ما ترى كيف حَسِرَتْ ظهُورُنا ونَفِدَتْ أزوادُنا بين ظهرىْ هذه المفازةِ ، لا ندرى ما قطعْنا منها أكثر أم ما بَقِىَ ، فقال : ما تجعلون لى إن أوردتكم ماءً رِوَاءً ورياضاً خُضْراً ؟ قالوا حُكْمَكَ . قال : تُعْطُونِى عُهُودَكُمْ ومواثِيقَكُمْ ألاَّ تَعصَونى . ففعلوا ، فمالَ بهم فأوردهم ماءً رِوَاءً ورياضًا خُضْراً، فمكثَ يسيراً ثم قال : هلمُّوا إلى رياضٍ أعشبَ من رياضكم هذه ، وماءٍ أَرْوَىٍ من مائكم هذا ، فقال جُلُّ القوم : ما قَدَرْنَا على هذا حتى كِدْنا ألا نَقدِرَ عليه ،

---

(١) صحيح البخارى (كتاب الرقاق) وصحيح مسلم(الفضائل) حديث رقم ١٧ .

(٢) الرامهرمزى : أمثال الحديث ص : ٥٧ وقد ورد الحديث بصيغة مختلفة قليلا فى مسند الإمام أحمد ١ / ٢٦٧ .

وقالت طائفه منهم : أَلَسْتُمْ قد جعلتم لهذا الرجلِ عهودكم ومواثيقكم ألاَّ تَعْصَوْه وقد صَدَقكُم فى أوّل حديثه ، فآخرُ حديثه مثْلُ أَوَّلِهِ ، فراح وراحوا معه ، فأورَدَهُمْ رياضاً خُضْرًا وماءً رِوَاءٍ ، وأتى الآخرين العدوُّ من ليلتهم فأصبحوا بين قتيلٍ وأسير » .

وفى شأن الرسالة وكونها الخاتمة ، وشأن الرسول ﷺ وكونه خاتم الأنبياء المكمل لما جاءوا به من رسالات ، يضرب الرسول ﷺ مثلا لنفسه ومثل الأنبياء السابقين على هذا النحو المتناهى بلاغة ، المتسامى صيغة وصورة وبيانا .

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « إن مثلى ومَثَلَ الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضعَ لبنةٍ من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلاَّ وُضعت هذه اللبنة !! قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »(١).

إن الله أكمل بمحمد دينه ، وختم به رسالته ، وأتم به نعمته على المؤمنين ، والعرب تمثل ما يبالغون فيه من الوثاقة والأصالة وعقد المكارم وما شابه ذلك بالبنيان ، والله ـ سبحانه ـ يقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾(٢).

وللمؤمن والفاجر فى صيغ التمثيل التى رويت عن رسول الله ﷺ نصيب وافر ، إنه ﷺ يضرب مثلا للمؤمن الذى يقرأ القرآن ، والمؤمن الذى لا يقرأ القرآن ، والفاجر الذى يقرأ القرآن ، والفاجر الذى لا يقرأ القرآن ، ويصوغ لكل واحد من هؤلاء مشبها به لا تتوفر أسباب اكتمال الصورة المثلى له إلا بمثل هذا النهج من البلاغة المحمدية. قال رسول الله ﷺ : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مرٌّ ، ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مرّ ولا ريح لها ، ومثل جليس السوء كصاحب الكير

(١) البخارى ، باب خاتم النبيين ٤ / ٢٢٦ .

(٢) سورة الصف ، الآية : ٤ .

إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه » [1]. متفق عليه .

ولأن المؤمن لا يتأتّى منه إلا النفع ، ولا يصدر عنه إلا الخير ، فإن رسول الله ﷺ قد اختار النحلة له مثلا فقال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ :

« مثل المؤمن كمثل النحلة ، إن أكلت أكلت طيّباً ، وإن وضعت وضعت طيباً ، وإن وقفت على عود نخر لم تكسره » [2].

وفى مقام التربية المحمدية واختيار الجليس ، يتمثل الرسول ﷺ للجليس الصالح كما يتمثل لجليس السوء .

عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : **« إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يُحْذِيَك [*]، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يُحرِقَ ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحا منتنة »** [3].

وتمثيل رسول الله ﷺ للصلاة مثل « فريد » أنيق ، فقد شبهها بنهر جارٍ على باب المسلم ، يغتسل فيه خمس مرات كل يوم ، وذلك فى قوله الشريف : [4]

« مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جارٍ غمرٍ على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات » .

ومن الطبيعى أن تكون « الدنيا » مجالاً للتناول فى صيغ التمثيل التى طرحها رسول الله ﷺ فى أحاديثه ، مثلما هو مجال للتناول فى الكتاب العزيز ؛ لأن الدنيا مرتبطة بالآخرة إيجاباً وسلباً ، فالدنيا مزرعة الآخرة ، من زرعها بالخير جناه جنات فى الآخرة وحسن ثواب ، ومن زرعها شرورا ومعصية جناه جحيما وسوء مآب .

---

(١) ورواه النسائى ، وأورده النووى فى رياض الصالحين فى (كتاب الفضائل) باب فضل قراءة القرآن .

(٢) فتح القدير ٥ / ٥١٤ رقم ٨١٥٣ .

(*) يحذيك : يعنى يعطيك .

(٣) رواه الشيخان والإمام النووى فى رياض الصالحين فى باب (زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبتهم) ص ١٦٣ .

(٤) رواه مسلم ، وأورده الإمام النووى فى رياض الصالحين فى باب (فضل الأذان) .

لقد ورد ذكر « الدنيا » فى القرآن الكريم فى نحو مائة وثلاث عشرة آية ، وورد ذكرها فى مقام التمثيل مرات غير قليلة ، ففى مقام التمثيل يقول ـ عز وجل ـ :

﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١) .

ويقول ـ جل من قائل ـ : ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ وذلك اجتزاء من الآية الكريمة : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (٢) .

ويقول ـ عز وجل ـ : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ (٣) .

ويقول ـ عز وجل ـ ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤)

ويقول ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١١٧ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٨٥ .

(٣) سورة الرعد ، الآية : ٢٦ .

(٤) سورة يونس ، الآية : ٢٤ .

مُّقْتَدِرًا ﴾ (١).

إن القارىء الفطن وهو يستقرىء آيات التمثيل المختصة بالدنيا فى القرآن الكريم يلاحظ أن السياق المعنوى فيها منصرف إلى التحذير منها والاحتراز من شرورها ، وكذلك فعل رسول الله ﷺ وهو يعرض لها .

قال رسول الله ﷺ : « **نعمتِ الدارُ الدنيا لمن تزوَّدَ فيها خيراً لآخرته ما يُرْضِى به رَبَّه ، وبئستِ الدارُ الدنيا لمن صَدَّتْهُ عن آخِرَتِهِ وقَصَّرتْ به عن رِضَى ربه ، وإذا قال العبدُ : قَبَّحَ اللهُ الدنيا قالت الدنيا : قَبَّح الله أعصانا لِرَبِّه** » (٢).

إن قوله ﷺ :

« قصرت به عن رضى ربه » يعنى قصّر هو بها عن رضى ربه . وقوله : « قالت الدنيا : قبح الله أعصانا لربه » يعنى أن العاصى هو المقبوح فيها ، فجعل الاتعاظ بها بمعنى القول منها .

وعن عبدالله بن مسعود قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير قد أثر الشريط فى جنبه ، فقلت : لو نِمْتَ يا رسول الله على ما هو ألين من هذا !؟ فقال : «**مالى وللدنيا ، إنما مثلى ومثل الدنيا كمثل رجل مرّ بأرضٍ فلاة ، فرأى شجرة فاستظلّ تحتها ، ثم راح وتركها** » (٣).

والمعنى المستخلص من هذا الحديث : هو سرعة انقطاع الدنيا بصاحبها .

وثمت حديث آخر فى شأن حقارة الدنيا ورخص شأنها وهوانها على الله ، ما رواه المستورد بن شداد عن النبى ﷺ قال : وإنى لفى ركب مع النبى ﷺ إذ مرّ بِسَخْلَةٍ (*) منبوذة ، فقال : « **أترون هذه هانت على أهلها ؟ فوالذى نفسى بيده للدنيا أَهْوَنُ على الله من هذه على أهلها** » (٤).

---

(١) سورة الكهف ، الآية : ٤٥

(٢) أمثال الحديث لابن خلاد الرامهرمزى ص : ٥٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص : ٥٥ .

(*) السخلة : ولد الشاة ، وهى اسم يجمع الذكر والأنثى . والمنبوذة : الملقاة ، من نبذت الشىء : إذا ألقيته .

(٤) المصدر السابق . ص : ٥٦ .

وعن مجتمع المسلمين وما يحدث فيه من انحرافات تؤدى إلى فساده وإيقاع الضرر بالجمهرة فيما لو ترك للمنحرفين الحبل على الغارب ، يعالج رسول الله ﷺ هذه القضية التى شاعت فى مجتمع زماننا ، ويشبه المجتمع بسفينة فيها أخلاط من الناس : ملتزم ومتهاون ، ومستمسك ومترخص ، وفطن وساذج ، فكيف يكون علاج الموقف ؟ هذا هو ما يتناوله الرسول ﷺ فى حديث السفينة : (1).

عن النعمان بن بشير - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال : « مَثَلُ القَائِمِ فى حُدُود الله وَالْوَاقِعِ فيها كَمَثَلِ قوم استَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعلاَهَا وَبَعْضُهُم أَسْفَلَهَا وَكَانَ الذين فِى أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاء مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهِمْ ، فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِى نَصِيبِنَا خَرْقاً وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ، فإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جميعًا ، وإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيدِيهم نَجَوْا ونَجَوْا جَمِيعًا » (*). رواه البخارى .

إن كثيرا من الأميين الدينيين - ويطلقون على أنفسهم صفة العلمانية - يطالبون بحرية القول ، وتعنى حرية القول عندهم الطعن فى دين الله ، والدعوة إلى الإباحية والمجون ، والخوض فى قضايا الجنس ، وتسفيه ما اصطلح مجتمع المسلمين عليه من تماسك وعفة وأدب ، إن مثل هؤلاء كمثل ركاب السفينة ، لو خُلِّى بينهم وبين ما يريدون غرقوا وأغرقوا معهم الآخرين ، وإن حِيلَ بينهم وبين ما يريدون فعله نَجَوْا ونجا معهم سائر المجتمع .

وعلى النهج نفسه من تربية المجتمع أخلاقيا وإسلاميا ما ضربه الرسول ﷺ مثلا للإسلام والقرآن وحدود الله ، ليكون ذلك سبيلا إلى الجنة ، وطريقا يؤدى إلى دخولها .

أما الحديث الشريف الذى ساق الرسول ﷺ المثل من خلاله ، فهو قوله ﷺ (2):

---

(1) رياض الصالحين : باب فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ص : ٩٧ .

(*) القائم فى حدود الله : هو المنكر لها القائم فى دفعها ومقاومتها ، والمراد بالحدود : ما نهى الله عنه . استهموا : يعنى اقترعوا .

(2) الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام ، ص : ٣٤ ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٤ / ١٨٢ .

« ضَرَبَ الله مَثَلاً صِراطاً مستقيماً ، وعلى جَنْبَتَى الصِّراط سُورٌ فيه أبوابٌ مَفْتُوحة ، وعلى تلك الأبواب سُتُورٌ مُرْخَاةٌ ، وعلى رَأْس الصِّراط داعٍ يقول : ادخُلوا الصِّراط ولا تَعْوجُوا » .

قال : فالصِّراط : الإسلام ، والسُّتُور : حدود الله ، والأبواب المفتَّحة : مَحارِم الله ، وذلك الداعى : القرآن .

ومن أحاديث رسول الله ﷺ المشتملة على التمثيل الذى يُعَلِّمُ به الصحابة الصبر وسعة الصدر والحلم فى مواقف الغضب ، وضرورة الالتزام بهذه الصفات ما رواه القاضى عياض قال :

روى أن أعرابيا جاءه ﷺ يطلب منه شيئا فأعطاه ، ثم قال : « آحسنت إليك ؟ » قال الأعرابى : لا ، ولا أجملت . فغضب المسلمون وقاموا إليه ، فأشار ﷺ إليهم أن كُفُّوا ، ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه وزاده شيئا ، ثم قال : « آحسنت إليك ؟» : قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . فقال له النبى ﷺ: « **إنك قلت ما قلت ، وفى نفس أصحابى من ذلك شيء ، فإن أحببتَ فقل بين أيديهم ما قُلتَ بين يدى حتى يذهب ما فى صدورهم عليك** » قال : نعم ، فلما كان الغد أو العشىّ جاء ، فقال ﷺ: « **إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى ، أكذلك** » ؟ قال ـ أى : الأعرابى ـ : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال النبى ﷺ: « **مثلى ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه ، فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا ، فناداهم صاحبها : خلّوا بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها واستوى عليها ، وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه ، دخل النار** »[1].

تلك نماذج بيانية من أحاديث رسول الله ﷺ فى المثل أو التمثيل أو المماثلة ، وما من حديث منها إلا وهو قمة الإعجاز الأسلوبى البشرى ، مستهدفا الهداية والتربية وسداد السلوك وحسن الخلق وكمال الدين ، وهى فى جملتها نبراس للبلغاء ، بها يستضيئون ، ونبع للفصحاء ، منها يرتوون ، وهدى للدهماء والأسوياء بها ينصرون ويهتدون .

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١ / ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٢)

التشبيــه :

التشبيه ـ طبقا لتعريف البلاغيين ـ : هو الإخبار بالشبه ، وهو اشتراك الشيئين فى صفة أو أكثر ولا يستوعب جميع الصفات ، أو هو الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه ، أو هو صفة الشىء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة ، لا من جميع جهاته ، لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه .

ولقد جعل البلاغيون للتشبيه أركاناً أربعة ، هى : المشبه ، والمشبه به ـ ويسميان طرفى التشبيه ـ وأداة التشبيه ، ووجه الشبه الذى يجب أن يكون أقوى وأظهر فى المشبه به منه فى المشبه .

هذا والتمثيل ضرب من ضروب التشبيه ، غير أن التشبيه عام والتمثيل أخصّ منه ، فكل تمثيل تشبيه ـ وقد لاحظنا ذلك عند تعرضنا للتمثيل ـ وليس كل تشبيه تمثيلا [1].

ففى بيت قيس بن الخطيم :

وقـد لاح فى الصبـح الثريـا لمـن رأى

كعنقـود مـلاحيَّةٍ حيـن نـوَّرا

تشبيه حسن ولكن لا نستطيع القول إنه تمثيل ، وكذلك الحال فى قول ابن المعتز

قـد انقضـت دولـةُ الصـيام وقـد

بَشَّـر سُقْـمُ الهـلال بالعيـدِ

يتلـو الثريّـا كفـاغرٍ شـَرِهٍ

يفتـحُ فـاه لأكْـلِ عُنْقُـودِ

وأما التمثيل فمثل قول صالح بن عبد القدوس :

---

(١) أسرار البلاغة ، ص : ٨٤ . .

وإنَّ مــن أَدَّبْتَهُ فــى الصِّبــا | كالعـود يُسقـى الماءَ فـى غَرسِهِ
حتـى تــراه مـورقــاً نــاضـراً | بعــد الذى أبصــرتَ من يُبْسِهِ

ولقد أوردنا فى الصفحات السابقة قبائل من نماذج التمثيل التي جاءت فى أحاديث رسول الله ﷺ.

ومن الأمور التى لاحظناها فى موضوعنا هذا ، أن التمثيل فى كلام الرسول ﷺمن الوفرة بمكان ، وليس الأمر كذلك فى التشبيهات ، ذلك لأن طبيعة التمثيل أقرب إلى نهج التربية والتوجيه ومضمار الخير وطريق الشر .

وأما التشبيهات فوظيفتها بلاغية أكثر منها تعليمية تبشيرية ، وها نحن نعرض نماذج من التشبيهات النبوية :

عن أنس : كان النبى فى بعض أسفاره ، وغلام أسود يقال له أنجشة يحدو ، فقال رسول الله ﷺ: « **يا أَنْجَشَةُ : رُوَيْداً سَوْقَكَ بالقَوارِير** »(١).

إن الرسول كنّى عن ذكر النّساء بالقوارير ، شَبَّهَهُنّ بها لرقتهن ، وضعفهن من الحركة ، وضعف البنية ، وقلة التحمل ، وهناك من جعل معنى الحديث : سقهن كسوقك بالقوارير .

ومن تشبيهات رسول الله ﷺقوله فى الصحابة : « **مثل أصحابى كمثل الملح فى الطعام ، لا يصلح الطعام إلا بالملح** » .

وهذا تشبيه عقلى أو هو صورة عقلية ، وهو أن الناس يصلحون بالصحابة كما يصلح الطعام بالملح ، والشبه بين صلاح العامة بالخاصة وبين صلاح الطعام بالملح لا يتصور أن يكون محسوسا (٢).

وهناك من أقوال رسول الله ﷺما يعد تشبيه مفرد بمركب ، والمثال على ذلك : «**الكمأة جدرىّ الأرض** » (٣) والكمأة : ثمرة درنية مثل البطاطة تنمو تحت الأرض، ثم

---

(١) أمثال الحديث لابن خلاد الرامهرمزى ، ص : ١٢٧ .
(٢) أسرار البلاغة ، ص ٦٤ .
(٣) المثل السائر ٢ / ١٢٤ ، ١٣٨ طـ دار الرفاعى .

إذا ما قاربت النضوج ظهرت قريبة على وجه الأرض كالفقاعة ، ولذلك فإن سكان الأقطار الخليجية يسمونها الفقع .

وهذا التشبيه فضلا عن كونه تشبيه مفرد بمركب ، فهو أيضا تشبيه بليغ ، لعدم إثبات أداة التشبيه ، وهو كذلك من التشبيهات التى تقع موقع المبتدأ والخبر .

على أن أكثر التشبيهات النبوية قد جاءت فى صورة تشبيه مركَّبٍ بمركب مع اختلاف صيغ التشبيه نفسه .

يقول ﷺ: « **وهل يَكُبُّ الناسَ على مناخرهم فى نار جهنم إلاَّ حصائدُ ألسنتهم**»[1].

فكأن الرسول ﷺ قال : كلام الألسنة كحصائد المناجل ، وهو نوع من التشبيه لا يكون المشبه به مذكورا فيه ، وإنما تذكر صفته ، فالمنجل هنا ـ وهو المشبه به ـ لم يذكر، وإنما ذكرت صفته وهو الحصد . والتشبيه ـ كما أسلفنا ـ تشبيه مركب بمركب .

هذا ، وإن فحوى هذا التشبيه النبوى الشريف هو النهى عن الغيبة والنميمة ، وهو أبلغ مراتٍ عديدةً من النهى المباشر .

ومن التشبيهات النبوية الفريدة فى بنيتها ومرماها البعيد ، قوله ﷺ: « **الناس كإبل المائة ، لا تكاد تجد فيها راحلة** »[2].

---

(١) المصدر السابق ٢ / ١٢٥ ، ورياض الصالحين ، باب تحريم الغيبة والأمر بحفظ اللسان ص : ٤٩٣ طـ مصطفى محمد . وتمام الحديث هو : عن معاذ ـ رضى الله عنه ـ قال : قلت : يا رسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار ، قال : « لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسّره الله تعالى عليه ، تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا » ثم قال : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل من جوف الليل » ثم تلا : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ حتى بلغ ﴿ يعملون ﴾ ثم قال : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ » قلت : بلى يا رسول الله . قال « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد » ثم قال : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله » ؟ قلت بلى يا رسول الله . فأخذ بلسانه قال : « كفّ عليك هذا » قلت : يا رسول الله : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : « ثكلتك أمك ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) أسرار البلاغة للإمام الجرجانى ، ص : ١٠٠ .

والتشبيه هنا مثل سابقه من حيث كونه تشبيه مركب بمركب ، ولكن الخلاف بينهما هو أن التشبيه السابق لم يكن يتحتم فيه ذكر المشبه به ، بينما يجمل فى هذا الحديث أن يذكر المشبه به ، وإلا كان المعنى مختلا ، والتعسف ظاهرا ، وهو ما يتنزه أسلوب رسول الله ﷺ عن التورط فيه . والمقصود بالراحلة : كل بعير نجيب قوى على الأسفار والأحمال ، ومناط التشبيه هنا أن الكامل فى الخير والزهد فى الدنيا مع رغبته فى الآخرة والعمل لها قليل ، مثلما أن الراحلة النجيبة نادرة فى الإبل الكثيرة .

ومن تشبيهات رسول الله ﷺ الفريدة المثال فى اختيار الجليس ـ وقد سبق ذكره ـ قوله :(١)

« إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ؛ فحامل المسك إما أن يحذيكَ ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد ريحا خبيثة » . متفق عليه

ومن التشبيهات النبوية المركبة ـ وقد سبق رواية الحديث بصيغة أخرى ـ قوله ﷺ :

« مَثَلُ المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجّة طَعْمُها طيّبٌ وريحُها طيّبٌ ، ومَثَلُ المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ، لا ريح لها وطعمها مرّ » .

إن النبى ﷺ شبه المؤمن القارىء وهو متصف بصفتين هما الإيمان والقراءة بالأترجة ، وهى ذات وصفين ، هما الطعم والريح الطيب ، وكذلك يجرى القياس فى المؤمن غير القارىء ، وفى المنافق القارىء ، والمنافق غير القارىء ، وهذا التشبيه أيضا من باب تشبيه المركب بالمركب .

ونعود فنكرر القول بأن الرسول ﷺ كان يعالج قضايا الإسلام عن طريق التمثيل ، وهو النهج الذى بدا واضحا فى القرآن الكريم ، والعلة فى ذلك هو ما سبق أن ذكرناه من أن كل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلا .

---

(١) أورده الإمام النووى فى رياض الصالحين ، فى باب زيارة أهل الخير ومجالستهم ، ص : ١٦٣ كما أورده ضياء الدين ابن الأثير فى المثل السائر ٢ / ١٤٥ طـ الرفاعى .

(٣)

المجـاز:

المجاز ـ كما يعرّفه عبد القاهر الجرجانى ـ : هو كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له فى وضع واضعها لملاحظةٍ بين الثانى والأول فهى مجاز ، وإن شئت قلت : كل كلمة جزت بها ما وقعت له فى وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعا لملاحظة بين ما تُجُوِّز بها إليه وبين أصلها الذى وضعت له فى وضع واضعها فهى مجاز(١).

وأما ابن رشيق فهو يقدم للمجاز تعريفا أسهل من ذلك الذى قدمه عبد القاهر ، وذلك إذ يقول : معنى المجاز : طريق القول ومأخذه ، وهو مصدر « جُزْتُ مَجَازًا » كما تقول : قمتُ مقاما ، قلتُ مقالا . ويمضى ابن رشيق إلى القول : والمجاز فى كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة ، وأحسن موقعا فى القلوب والأسماع ، وما عدا الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن مُحَالاً مَحْضاً فهو مجاز لاحتماله وجوه التأويل ، فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز ، إلا أنهم خصّوا به ـ أعنى اسم المجاز ـ بابا بعينه ، وذلك أن يسمى الشىء باسم ما قاربه أو كان منه بسبب ، كما قال جرير :

إذا سَقَطَ السماءُ بأرضِ قومٍ رَعَيْنَاهُ وإن كانـوا غِـضَابَا

أراد المطر ؛ لقربه من السماء ، ويجوز أنه أراد بالسماء السحاب لأن كل ما أظلك فهو سماء ، وقال « سقط » يريد سقوط المطر الذى فيه ، وقال : « رعيناه » والمطر لا يرعى ، ولكن أراد النبت الذى يكون عنه ، فهذا كله مجاز (٢).

ويذهب الإمام يحيى بن حمزة إلى أن المجاز هو مورد البيان وذلك فى قوله : اعلم أن علم البيان من عوارض الألفاظ ، ومورده المجاز على أنواعه ، ومعناه إيراد المعنى الواحد فى طرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه والنقصان ، فعلى قدر إغراق المجاز وحسنه يزيد المعنى وضوحا ، وعلى قدر نزوله وبُعْده ينتقص المعنى (٣).

---

(١) أسرار البلاغة ، ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

(٢) العمدة ١ / ٢٦٥ ، ٢٦٦ طـ دار الجيل .

(٣) الطراز ٣ / ٢٢٨ .

ويعلل ابن رشيق كون التشبيه من المجاز وكون الكناية من المجاز بقوله : وأما كون التشبيه داخلا تحت المجاز فلأن المتشابهين فى أكثر الأشياء إنما يتشابهان بالمقاربة على المسامحة والاصطلاح ، لا على الحقيقة ، وكذلك الكناية فى مثل قوله ـ عز وجل ـ عن عيسى ومريم ـ عليهما السلام ـ : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ كناية عما يكون عنه من حاجة الإنسان ، وقوله ـ تعالى ـ عن آدم وحواء ـ صلى الله عليهما ـ ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا ﴾ كناية عن الجماع ، وقول النبى ﷺ لحاد كان يحدو به : « **إياك والقوارير** » كناية عن النساء لضعف عزائمهن (١).

ونحن حين نعرض للمجاز النبوى ومن قبله مجاز القرآن ، فإنه ينبغى أن نفطن إلى أن القرآن الكريم نزل بالأسلوب الإلهى المعجز حاوياً كل أسباب البلاغة ، حاملاً كل ألوان البيان ، حيث لم يكن هناك حين نزول الوحى نقاد أو دارسون قد تعارفوا على أن يطلقوا هذا النوع أو ذاك من الأشكال البلاغية : اسم التشبيه أو المجاز أو الاستعارة أو الكناية ، أو الجناس أو المقابلة أو التصريع إلى غير ذلك من الأسماء . والشىء ذاته ينطبق على كلام رسول الله ﷺ فالقرآن ممثلا فى كتاب الله ، والسنة ممثلة فى حديث رسول الله متعاصران : الوحى ينزل مفرقا ، والرسول ﷺ تصدر عنه الأحاديث متتابعة ، شرحاً للعقيدة وإكمالاً للأحكام وتبييناً للقرآن وإرساءً للشريعة وتعليماً للصحابة .

فلما تفتحت الآفاق فى العلوم الدينية واللغوية والأدبية كان علم البلاغة والبيان واحدا من هذه العلوم التى كان همها الأول دراسة إعجاز القرآن ، ثم دراسة الحديث النبوى الشريف ، ومنهما إضافة إلى التراث الأدبى وبخاصة الشعر ، كان استخلاص العلوم البلاغية والبيانية ، إنهم جمعوا المادة ، ومنها استنبطوا القواعد ثم قاموا على تطبيقها ، ولذلك سوف يكون عرضنا للمجاز فى حديث رسول الله مرتبطا بالمعانى السامية التى تناولها الرسول بأسلوبه البشرى المعجز ، وليس ارتباطا بما تعارف عليه النقاد من مجاز لغوى أو مجاز عقلى .

إن أول ما نعرض له من المجازات النبوية فريق منها مرتبط بالإسلام كعقيدة ثابتة

---

(١) العمدة ١ / ٢٦٨ .

الأركان لا تهتز بالأحداث ، ومن ثم ينبغى أن يكون التعامل معها صادراً من هذا الثبات .

يقول ﷺ فى هذا المقام :

« إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولا تبغّض إلى نفسك عبادة الله ، فإن المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .

يقول الشريف الرضى فى هذا المجاز : إنه وصف الدين بالمتانة ، والمراد أنه صعب الظهر ، شديد الأسر ، مأخوذ من متن الإنسان وهو ما اشتد من لحم منكبيه ، وقد وصفه رسول الله بذلك لمشقة القيام بشرائطه ، والأداء لوظائفه ، فأمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يدخل الإنسان أبوابه مترفقا ، ويرقى هضابه متدرجا ، ليستمر على تجشم متاعبه ، وشبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ العابد الذى يتعب نفسه ويستنفد طاقته بالمنبتّ، وهو الذى يغذ السير ويتعب ظهر الدابة منقطعا من رفقته ، ومنفردا عن صحابته ، فتعجز مطيته عن إكمال المسير ، ولا يقطع شقة الطريق (١).

ثم يكون المجاز التالى حول فضل الإسلام على معتنقيه ، وأنه مستأصل لذنوب المسلم قبل إسلامه ، وفيه يقول ﷺ:

« الإسلام يَجُبُّ ما قبله » وهو مجاز ، لأن الفعل (جبّ) يعنى اختزال سنام الإبل من أصله ، فكأنه ﷺ جعل الإسلام مستأصلا لكل الذنوب التى اقترفها المسلم قبل إسلامه ، ويعفّى على كل ما تقدم من الجنايات والسوءات (٢).

والمجاز الثالث حول الإسلام يتسق فى جلاله مع سموّ الصياغة المحمدية ، والإعجاز البشرى للبلاغة النبوية ، يقول ﷺ:

« إن الله ـ سبحانه ـ جعل الإسلام دارا ، والجنة مأدبة ، والداعى إليها محمدا ـ صلى الله عليه وعلى آله » (٣).

---

(١) المجازات النبوية ، ص : ١٧٦ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ٥١ .

(٣) المجازات النبوية ، ص : ١٤٣ .

والمجاز هنا هو أنه ﷺ أقام الإسلام مقام الدار ، والجنة مقام المأدبة ، والنبى مقام الدال عليها والداعى إليها ، وهو مجاز غير مسبوق فى موضوعه ، ولا ملحوق فى رقته وبلاغته .

●●●

أما وقد أوردنا مجازات الرسول ﷺ عن الإسلام ، فمن الطبيعى أن نعرض الحديث التالى عن كتاب الإسلام ، وهو القرآن الكريم ، وذلك فى قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « إن القرآن شافعٌ مشفَّع ، ومَاحِلٌ مُصَدَّق » (1) وهذا القول مجاز ، والمراد هنا أن القرآن سبب لثواب العامل به ، وعقاب العادل عنه ، والماحل : هو الشاكى .

والصلاة عماد الإسلام ، أو هى ـ طبقا للحديث النبوى الشريف ـ عماد الدين ، وهى لذلك تستأثر بهذا النطق النبوى الشريف البليغ الرفيع :

« **لكل شىء وجه ، ووجه دينكم الصلاة ، فلا يشينَنَّ أحدُكم وَجْهَ دينه ، ولكل شىء أنف ، وأنف الصلاة التكبير** » (2).

والمراد هنا أن الصلاة يعرف بها جملة الدين ، كما أن الوجه يعرف به جملة الإنسان ؛ لأنها أظهر العبادات ، وجعل أنفها التكبير ، لأنه أول ما يبدو من أشراطها ، ويسمع من أركانها .

والتكبير مثلما يكون فى الصلاة إحرامًا وركوعًا وقيامًا وسجوداً ، فهو أيضا استهلال الأذان ، ثم يكون النطق الثانى فيه ـ يعنى فى الأذان ـ : شهادة أن لا إله إلا الله .

سمع رسول الله ﷺ مؤذنًا يقول : « **أشهد أن لا إله إلا الله ، فقال : صدَّقَكَ كلُّ رطبٍ ويابس** » (3).

والمجاز هنا أن الرطب واليابس من الشجر والعشب والماء والتراب لا كلام لهما ، ولا روح فيهما ، وإنما أراد ﷺ أن تصديقهما بلسان الخلق لا بلسان النطق ، فجميع

---

(1) المصدر السابق ، ص : 233 .
(2) المصدر السابق ، 167 .
(3) المجازات النبوية ، ص : 178 .

المخلوقات شاهدة بأن لا إله إلا الله من شواهد الصانع الحكيم ، فهى من هذه الوجوه متكلمة وإن كانت خرساء ، ومفصحة وإن كانت عجماء .

●●●

والعلم فى الإسلام فريضة بنص حديث رسول الله ﷺ وإن السورتين الأولى والثانية فى ترتيب النزول القرآنى تحضّان على العلم ، الأولى ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ والثانية قسم بالحرف والقلم وما يسطره ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ومن ثم كان العلم حريًّا بتشريف رسول الله لذكره ، فقال فى دلك أكثر من حديث ، بعضها من قبيل المجاز الرفيع ، قال ﷺ :

« العلم خزائن ، ومفتاحها السؤال ، فاسألوا رحمكم الله ، فإنه يؤجر أربعة : السائل ، والمجيب ، والمستمع ، والمحبّ لهم » (١).

وهذا القول أيضا مجاز ، والمراد تشبيه العلم فى قلوب العلماء بالخزائن المستغلقة ، وإنما تفتح بسؤال السائلين ، ويستخرج ما فيها ببحث الباحثين .

ثم يكون الحديث النبوى التالى مجازيًّا مرتبطا بالعلم والعقل والنفس . يقول الهادى البشير ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ :

« العلم رائد ، والعقل سائق ، والنفس حرون » (٢)

إن كل جملة هنا مجاز ، فقد شبه ﷺ العلم بالرائد الذى يتقدم أمام الحىّ فيدلهم على المنزل الخصيب ، وشبه العقل بالسائق لأنه يحثّ الإنسان على سلوك النهج الأسلم ، ويحمله على الذهاب فى الطريق الأقوم ، وشبه النفس بالدابة الحرون ؛ لأنها تتقاعس عن الرشد ، وتضرب بالسوط حتى تسلك الطريق الصالح .

●●●

(١) المجازات النبوية ، ص : ١٦٩ .
(٢) المجازات النبوية ، ص : ١٦١ .

وَلِمَا للأنصار من مكانة فى قلب رسول الله ﷺلقيامهم بنصرته يوم أن عاداه الأهل وانفضّ عنه القريب ، فقد وردت كثير من الأحاديث فى فضلهم ، والإشادة بشمائلهم، وتكريم الرسول لهم .

فمن مجازاته ﷺقوله للأنصار : « **أنتم الشعار ، والناس الدثار** » (١).

والشعار : هو الثوب الذى يلى بدن الإنسان ، والدثار هو ما يتدثر به ويكون فوق الملابس الداخلية ، والمراد أن الأنصار هم أقرب الناس من رسول الله ، وبقية الناس أبعد منهم مكانا ومكانة .

ومثلما احتفل الرسول ﷺبالأنصار تكريما وثناء ، فقد روى عنه ﷺكثير من الأحاديث حول الصحابة خاصة من مهاجرين وأنصار ، وحول المسلمين عامة فى كل الأزمنة وجميع الأمكنة ، وهو ﷺيشرع للعلاقات التى تربطهم بعضهم ببعض على هذا النحو النبيل من القول الرفيع :

« **المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يدٌ على من سواهم**»(٢).

والمعنى أن مثلهم مع كثرتهم فى وجوب الإنفاق بينهم مثل اليد الواحدة ، فكما لا يتصور أن يخذل بعض أجزاء اليد بعضا ، وأن تختلف بها الجهة فى التصرف ، كذلك سبيل المؤمنين فى تعاضدهم على المشركين ؛ لأن كلمة التوحيد جامعة لهم ، فلذلك كانوا كنفس واحدة .

●●●

والجنة هى جائزة المولى ـ جل وعزّ ـ للمؤمنين الصادقين . والنار جزاء المشركين الكافرين ، وقد وردتا كثيرا فى أحاديث رسول الله ﷺوهو ﷺيعرضهما هنا فى مجال التعبير المجازى النبوى الرفيع :

قال ﷺ: « **حُفتِ الجنةُ بالمكاره ، وحُفَّتِ النارُ بالشهوات** » (٣).

---

(١) المجازات النبوية ، ص : ٤٢ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص : ٣٣٦ .

(٣) المجازات النبوية ، ص : ٣٠٣ .

والمراد أن جميع الأعمال التى تؤدى إلى الجنة وتوصل إليها طريقها وعر ، ومذاقها مرٌّ، ولذلك قيل : « **حفت الجنة بالمكاره** » على سبيل المجاز .

وعلى عكس ذلك لما كانت الأفعال المؤدية إلى دخول النار كثيرة الملاذّ ، صار من البلاغة أن يقال : « **حفت النار بالشهوات** » .

ثمت حديث آخر حول مؤهلات أهل الجنة ومواصفاتهم ، إنه لا يدخلها إلا من كان مؤهلا لها ، وهو ما يصوره الرسول ﷺفى كلمات قليلة .

يقول ﷺفى مقام المجاز : « **لا يدخلُ الجنةَ لحمٌ نَبَتَ من سُحْتٍ** »(١).

هذا القول مجاز ؛ لأنه ﷺشبه أعضاء الجسم بنبات أغصان الشجر لما بينهما من التشابه ، فالعروق كالعروق ، واللحاء كالجلد ، والإيراق كالحياة ، واليبس كالوفاة .

●●●

ومثلما كرم الرسول ﷺالأنصار وهم أهل المدينة المنورة ، فكذلك انصرف اهتمامه كثيرا إلى تكريم المدينة نفسها ، وذلك فى الأمر الإلهى الذى صدر إليه باختيارها مهاجراً له ولصحابته .

قال ﷺ: « **أُمِرْتُ بقرية تأكلُ القُرَى ، تَنْفِى الخَبَثَ كما يَنْفِى الكيرُ خَبَثَ الحديد**»(٢).

فقوله : « **أمرت بقرية تأكل القرى** » مجاز ، والمراد أن أهلها يقهرون أهل القرى فيملكون بلادهم ويغنمون أموالهم ، فكأنهم يأكلونهم . والمراد بقوله : « تنفى الخبث كما ينفى الكير خبث الحديد » أن أهلها يتمحصون فينتفى عنها الأشرار ، ويبقى بها الأخيار .

ولقد كرّم رسول الله ﷺالمدينة المنورة بامتداحها حين امتدح جبل « أحد » ولعل الرسول الكريم قد اختار جبل أحد بذاته لما يرتبط به من ذكرى ماثلة فى أذهان المسلمين

---

(١) المجازات النبوية ، ص : ٨٥ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ٢٥٥ .

لما أصيبوا بجواره من الهزيمة المعروف خبرها ، فأراد الرسول أن يلبسه ثوبا من التكريم تزول معه ذكريات الهزيمة الأليمة .

قال رسول الله ﷺ وقد نظر إلى جبل « أحد » منصرفه من غزاة خيبر : « **هذا جبل يحبُّنا ونحبّه** »[1] وهو قول محمول على المجاز ؛ لأن الجبل لا يحبّ ولا يُحَبّ ، والمراد أن «أُحُدًا » جبل يحبنا أهله ونحبّ أهله ، وأهله هم أهل المدينة من الأنصار ، وهم الأوس والخزرج .

وكانت الخيل مناط اهتمام رسول الله ﷺ فهى عدة الإنسان فى الحرب والسلام ، وللرسول فيها أقوال كثيرة ما بين مجازات واستعارات وتشبيهات .

قال ﷺ فى الخيل : « **ظهورها حِرْزٌ ، وبطونها كنزٌ** »[2] والمراد أنها منجاة من المعاطب وملجأة عند المهارب إذا ركبت ، وأنها تنمى الأموال باستيداع بطونها نطف الفحولة فتلد لهم الجياد النجيبة .

ومن أقوال الرسول ﷺ التى جرت مجرى الأمثال السائرة فى الخيل ، وهى فى الوقت نفسه تدخل تحت باب المجاز، عبارته البليغة : « **الخيل معقودٌ بنواصيها الخير** »[3] ففى «الحقيقة » لا يتصور أن نواصى الخيل ينعقد بها الخير ، وإنما المراد أن الخير كثيرا ما يدرك بواسطة الخيل ويُوصل إليه عليها ، فهى كالوسائل إلى بلوغه ؛ لأنهم عليها يفوقون الأعداء ، ويبلغون العلياء ، ويصيبون المغانم ، فكأنه معقود بنواصيها لشدة ملازمته لها .

●●●

وفى تمجيد الكرماء وتشجيع العطاء والترغيب فى الإنفاق والإكثار من بذل الصدقات تروى كثير من أحاديث رسول الله ﷺ .

قال ﷺ : « **اليد العليا خير من اليد السفلى** »[4] وهو فى فن المجاز من القمة ؛ لأن

---

(١) المجازات النبوية ، ص : ٢٥ .

(٢) المجازات النبوية ص : ٢٨ .

(٣) المجازات النبوية ، ص : ٤٩ .

(٤) المجازات النبوية ، ص : ٣٨ .

الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أراد باليد العليا يد المعطى ، وأراد باليد السفلى يد المستعطى ، وفى الحقيقة أنه ليس ثمت يد عالية ويد نازلة سافلة ، وإنما المراد أن المعطى أعلى رتبة من الآخذ فى مجال الرفد .

وقد جاء مجاز آخر من المجازات النبوية فيه ذكر ما هو متصل بتحسين الإنفاق والبذل ، غير أنه جاء فى مجال ما كان يجرى من حوار بين الرسول ﷺوبين أزواجه .

فقد قال رسول الله ﷺلأزواجه : « أَسْرَعُكُنَّ لحاقاً بِي أَطْوَلُكُنَّ يَدًا » [1] فلما سمعن منه هذا القول أخذت كل واحدة منهن تقيس ذراعها لتظهر أطولهن يدا ، إلى أن توفيت زينب بنت جحش وكانت كثيرة التصدق ، فعلمن حينئذ أن المراد بطول اليد كثرة البر ووفرة البذل .

ومن المجازات التى يربى الرسول من خلالها مجتمع المسلمين ما روى عنه ﷺفى شأن زيارة المريض ، قال ﷺ:

« **عائد المريض على مخارف الجنة** » [2].

جعل ﷺ زائر المريض كالماشى فى طريق يفضى به إلى الجنة ، ويوصله إلى دار الإقامة .

تلك نماذج قليلة من المجازات النبوية التى وردت فى أحاديث رسول الله ﷺومحاوراته مقتديا فيها بالمجازات القرآنية التى ألف فيها علماء الأمة عشرات الكتب النفيسة التى حفلت بها المكتبة الإسلامية ، وازدانت بها خزائن كتب التراث الإسلامى .

(٤)

الاستعارة فى كلام الرسول :

اهتم اللغويون والبلاغيون والنقاد بالأنواع البلاغية ، منذ أواخر القرن الثانى والثالث ، وقد لقيت « الاستعارة » منهم عناية غير قليلة .

---

(١) المجازات النبوية ص : ٥٨ ، وأسرار البلاغة ، ص : ٣٣٠ وفيها جاء بصيغة أخرى وهى : قال النبى ﷺ وقد قالت له نساؤه : أيتنا أسرع بك لحاقا يا رسول الله ؟ فأجاب : « أطولكن يدا » يريد السخاء والجود وبسط اليد والبذل .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ٨٨ والمخارف : جمع مخرفة ، وهى الطريق .

يقول ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ : إن العرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى أو مجاوراً لها أو مشاكلا ، فيقولون للنبات : نوء؛ لأنه يكون عن النوء عندهم ، ويقولون للمطر : سماء ، لأنه من السماء ينزل ويقولون : ضحكت الأرض : إذا أنبتت ؛ لأنها تبدى عن حسن النبات ، وتتفتق عن الزهر ، كما يفترّ الضاحك عن الثغر (١).

ويقول ابن المعتز المتوفى ٢٩٦ هـ عن الاستعارة : هى استعارة الكلمة لشىء لم يعرف بها لشىء عرف بها (٢).

ويقول أبو هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩١ هـ : هى نقل العبارة عن موضع استعمالها فى أصل اللغة إلى غيره لغرض ، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه ، أو تأكيده والمبالغة فيه ، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ ، أو تحسين المعرض الذى يبرز فيه (٣).

ولما كانت الاستعارة فرعا من المجاز ، فإن ابن رشيق القيروانى المتوفى ٤٦٣ هـ يقول فيها : الاستعارة أفضل المجاز ، وأول أبواب البديع ، وليس فى حلى الشعر أعجب منها ، وهى من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ، ونزلت موضعها (٤). ويعرض ابن رشيق أمثلة كثيرة من أقوال الشعراء منها المعجب ومنها القبيح ، ويذكر تعريفات بعض البلاغيين لها كالقاضى الجرجانى وأبى الحسن الرمّانى ، وابن جنى ، ثم ينتهى إلى القول : والاستعارة إنما هى من اتساعهم فى الكلام اقتداراً ودالة ، ليس ضرورة ، لأن ألفاظ العرب أكثر من معانيهم ، وليس ذلك فى لغة أحد من الأمم غيرهم ، فإنما استعاروا مجازا واتساعًا ، ألا ترى أن للشىء عندهم أسماء كثيرة وهم يستعيرون له مع ذلك ؟ على أنّا نجد أيضا اللفظة الواحدة يعبر بها عن معانٍ كثيرة ، نحو « العين » التى

---

(١) كتاب (تأويل مشكل القرآن) ص : ١٠٢ .
(٢) كتاب البديع ص : ١٩ .
(٣) كتاب الصناعتين ، ص : ٢٦٨ .
(٤) العمدة ١ / ٢٨٦ .

تكون جارحة ، وتكون الماء ، وتكون الميزان ، وتكون المطر الدائم الغزير ، وتكون نفس الشيء وذاته ، وتكون الدينار ، وما أشبه ذلك كثيرا [١].

وينسج عبد القاهر الجرجانى المتوفى ٤٧١ على منوال ابن رشيق فيعدّ الاستعارة فرعاً من المجاز ، ثم يقول عنها : الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء ، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره ، وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه [٢].

فالأساس الذى تقوم عليه الاستعارة هو التشبيه ، ولذلك عُدَّ أصلا وَعُدَّتْ الاستعارة فرعا . ومنذ ابتداء البحث فيهما ـ التشبيه والاستعارة ـ والعلماء يخلطون بينهما فيجعلون بعض الاستعارات تشبيهات ، وكثيراً ما يعكسون فيطلقون على بعض التشبيهات لقب الاستعارة [٣]على أن معالم الاستعارة ما لبثت أن استقلت عن أصلها الذى استمدت منه وهو التشبيه ، وأصبح التفريق بينهما أمراً معنويا .

ولقد وضع البلاغيون للاستعارة تعريفات عديدة ، ينبع أكثرها من معين واحد ، وتصب فى بحر واحد ، فمن أمثلة هذه التعريفات قولهم :

* الاستعارة : استعمال العبارة فى غير ما وضعت له فى الأصل .
* الاستعارة : تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل للإبانة .
* الاستعارة : ذكر الشيء باسم غيره وإثبات ما لغيره له ؛ لأجل المبالغة فى التشبيه .
* الاستعارة أن تذكر أحد طرفى التشبيه وتريد به الطرف الآخر ، مدَّعياً دخول المشبه فى جنس المشبه به ، دالا على ذلك بإثباتك للمشبّه ما يخص المشبه به .
* الاستعارة : مجاز لغوى علاقته المشابهة .
* الاستعارة : تشبيه حذف أحد طرفيه .

---

(١) المصدر السابق ١ / ٢٧٤ .
(٢) دلائل الإعجاز ، ص : ٥٣ .
(٣) معجم البلاغة العربية : للدكتور بدوى طبانة ، ص : ٤٦٠ .

فإذا أردنا أن ننتهى فى الاستعارة إلى تعريف مبسط موحد عمدنا إلى ما عرفها به الأستاذان على الجارم ومصطفى أمين فى قولها :

الاستعارة من المجاز اللغوى ، وهى تشبيهٌ حذف أحد طرفيه ، فعلاقتها المشابهة دائما . وهى قسمان :

١ ـ تصريحية وهى ما صرح فيها بلفظ المشبه به .

٢ ـ مكنية : وهى ماحذف فيها المشبه به ورمز له بشىء من لوازمه . وتنقسم الاستعارة أيضا إلى أصلية وتبعية :

١ ـ فهى أصلية إذا كان اللفظ الذى جرت فيه اسماً جامداً .

٢ ـ وتكون تبعية إذا كان اللفظ الذى جرت فيه مشتقًّا أو فعلا .

والشىء الجدير بالذكر فى هذا السياق هو أن تقسيم الاستعارة إلى أصلية وتبعية عام فى الاستعارة سواء أكانت تصريحية أو مكنية .

تلك تعريفات كان لابد من ذكرها للتعرف على الاستعارة وأقسامها المختلفة ، ولتكون المعايير بين يدى القارىء إذا ما عنّ له فى مجال قراءته لهذا الفصل أن يتعرف بواسطتها على نوع الاستعارة ، تصريحية كانت أم مكنية ، أصلية كانت أم تبعية .

أما هدفنا نحن من ذكر الاستعارات النبوية فهو الإبانة عن البلاغة المعجزة للرسول ﷺ فى نطاق بشريته وهو يتناول قضايا الإسلام وأحكامه ، وتبصيره المسلمين بما ينبغى أن يلتزموه أو يتركوه فى مجال تربيته لهم وتوجيهه إياهم وتنوير الطريق وإضاءة السبيل فى كل ما يعن له ﷺ أن يزودهم به ، أو ما يتبادر إلى أذهان الصحابة من أمور يودون معرفتها أو يريدون استيضاحها ، فجاء ذلك كله فى ثوب من البلاغة الأرفع ، والبيان الأسمى والصوغ الأنصع ، ولم يكن كلام الله أو أقوال رسوله ﷺ مستهدفة تقسيم الكلام على النحو البيانى الذى ورد فيها تمثلنا له من الكتاب العزيز أو الحديث الشريف ، ففيهما ـ الكتاب والحديث ـ ما ينوف مرات ومرات على المسميات التى استخرجها البلاغيون منهما ، وكلما مرّ الزمان وتعاقبت السنون ظهر من آيات الإعجاز

وعلاماته فى كتاب الله وحديث رسوله ما هو زادٌ للمؤمنين تقرّ به أعينهم ، وتنشرح به صدورهم ، وما هو حجة على المنكرين ، تسودّ به وجوههم وتضيق به حياتهم ، ويستكن منه مكرهم .

كان من الأمور الطبيعية أن تشمل الاستعارات النبوية الإسلام عقيدة وشريعة وأركانا وإخبارا ، والاستعارات فى هذا الموضوع من الكثرة بمكان ، فالجماعة فى الإسلام تشمل وجوده مظهرا ومخبرا ، ومن ثم فقد جرت هذه الاستعارة على لسان رسول الله .

قال ﷺ: « **من خالف الجماعة فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه** »(١).

وهذه استعارة ؛ لأن الربقة حبل يربط بين عودين ، ثم تُجعل فيه عرى فتربق فيه السخال ، أى : تربط فيه . فالإبل تُعقل ، والغنم تُرْبَق ، فشبه ﷺما فى عنق الإنسان من لوازم الإسلام ومعاقد الإيمان بالربقة التى فى عنق السخل ، لأنها تصدّه إذا همّ بالشرود ، وكذلك الإسلام يمنع صاحبه من الارتكاس فى المحظورات .

ومن محاسن الاستعارات فى شأن الإسلام وتقاعس المسلمين فى بعض مراحله المستقبلية قوله ﷺ: « **إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا** »(٢) فقد جعل الإسلام فى أول أمره شبيها بالرجل الغريب الذى قلّ أنصاره ، وبعدت دياره ؛ لأن الإسلام كان على هذه الصفة فى أول ظهوره ، ثم اشتد ساعده ، واستقرت قواعده . وقوله ﷺ: «**وسيعود غريبا** » أى : يعود إلى مثل الحال التى كان عليها فى أول أمره فى قلة عدد العاملين بشريعته ، والقائمين بأحكامه .

وشبيهٌ بالاستعارة السابقة قوله ﷺ: « **إن الإسلام بدأ جَذَعاً ثم ثَنِيًّا ثم رَبَاعِيًّا ، ثم سَدِيساً ثم بَازِلاً ، وما بعد البُزُولِ إلا النقصان** »(٣).

إن هذا الكلام كله استعارات ، والمراد تمثيل الإسلام فى تنقل أحواله وتغاير أوصافه

---

(١) المجازات النبوية ، ص : ٢٠١ .
(٢) المجازات النبوية ، ص : ٣٦ .
(٣) المجازات النبوية ، ص : ٢٨٤ .

بولد الناقة ينتقل فى أسنانه ، فيكون أول أمره جَذَعاً ـ يعنى فى الخامسة من عمره ـ ثم ثَنِيًّا ـ يعنى فى السادسة ـ ثم رَبَاعِيًّا ـ يعنى فى السابعة ـ ثم سَدِيساً ـ يعنى فى الثامنة ـ ثم بَازِلاً ـ يعنى فى التاسعة ـ وهى سن التّمام ، وليس بعدها إلا النقصان . ومدار القصد النبوى أن الإسلام بدأ فى غاية الصغر ثم انتهى إلى غاية الكبر ، وأنه ﷺ يخشى عليه نقيصة التمام .

وعن عماد الإسلام وحقيقة وجوده مظهراً ومخبراً يقول ﷺلمعاذ بن جبل : « **أَلاَ أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ** » قال : بلى يا رسول الله . قال : « **رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة ، وذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجهاد** » .

كأنه ﷺجعل الإسلام رأس دين الله المتقدم ، ورئيسه المعظم ، وجعل الصلاة عموده الذى به قوامه ، أى : نظامه وعماده وملاكه ، وجعل الجهاد ذروة سنامه ؛ لأنه بعد الرأس أعلى مشارفه وأرفع مراتبه ، وبه ـ أى : الجهاد ـ يشاد بناؤه ، ويقام لواؤه . ويقمع أعداؤه (١).

والقرآن الكريم هو كتاب الله وكلامه ، وحامل تشريعه وضامن أحكامه ، وهو مصدر العقيدة وعماد التوحيد ، ومعجزة الإسلام الخالدة ، ومن ثم كانت عناية الرسول بالقرآن الكريم لا يحدها قول ، ولا ينتهى إليها مطاف ، ولذلك فقد كثرت فيه الأحاديث التى تشمل جميع الأنواع البلاغية من تمثيل ومجاز وتشبيه واستعارة .

قال ﷺفى عهد كتبه لعماله على اليمن : « **فإن هذا القرآن حبل الله المتين ، فيه إقامة العدل ، وينابيع العلم ، وربيع القلوب** » (٢).

وهنا ثلاث استعارات :

الأولى : قوله ﷺ: « **فإن هذا القرآن حبل الله المتين** » فشبه القرآن بالحبل الممدود بين الله ـ سبحانه ـ وبين خلقه فى أنه عصمة لمن استعصم به ، ومسكة لمن استمسك به .

---

(١) المجازات النبوية ، ص : ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ١٥٤ .

الثانية : قوله : « **ينابيع العلم** » فإن ما يفتحه القرآن من أبواب العلم وطرقه ينقع الغليل بعد الشك المحيِّر كما يبرد الماء الغلة بعد الطقس المبرح ، فلذلك شبهه ﷺ بعيون الماء ، وينابيع الرواء .

الثالثة : قوله : « **ربيع القلوب** » فجعل القرآن للقلوب الواعية بمنزلة الربيع للإبل الراعية ؛ لأن القلوب تنتفع بتدبر القرآن وتأمله ، كما تنتفع الإبل بما يجود به الربيع ، فهذا غذاء للأرواح كما أن ذاك غذاء للأجسام .

وعن تلاوة القرآن السليمة المجوّدة المؤثرة فى النفوس النافذة إلى القلوب يقول ﷺ : «**من سره أن يقرأ القرآن غضًّا كما أنزل ، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد**»[1] فالغضّ صفة للثمر أو النبت الذى لم يطل مكثه بعد مجتناه ، فيؤثر فيه الزمان، ويعتريه التغيير والفساد ، فأراد النبى ﷺ أن من يأخذ القرآن عن ابن أم عبد وهو عبد الله بن مسعود أو يسلك فى القرآن نهجه ، فقد أخذه سليماً من الفساد والتغيير، بريئاً من التحريف والتبديل .

وقد روى هذا الخبر على نحو آخر ، وهو قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « **من سرَّه أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل** » والمعنى فى الروايتين واحد .

وروى أبو هريرة : « **من أحبَّ أن يقرأ القرآن غريضاً كما أنزل . .** » والغريض : هو الطرىّ . وهو أيضا فى معنى الروايتين السابقتين .

وعن الدنيا وفنائها والآخرة وبقائها ، ورخص الأولى ونفاسة الثانية يقول رسول الله ﷺفى مقام تقويمهما فى إحدى خطبه :

« **ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة** » .

والاستعارة هنا أن الدنيا بمثابة الهارب المولّى ، فالارتحال بمعنى الرحيل ، والارتحال أيضا بمعنى امتطى الرحل استعداداً للسفر ، وأن الآخرة بمثابة القادمة الباقية أو هى

---

(١) المجازات النبوية ، ص : ١٢٣ .

بمنزلة الطالب السابق فى الحلبة . وفى هذا القول الشريف أكثر من عنصر من عناصر البديع ، وهو ما سوف نبينه فى الفصل القادم إن شاء الله .

والصلاة فى الإسلام هى عماد الدين ، وقد ذكرنا قبل قليل قول رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل : « **ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه . .** » الحديث ، **وفيه يذكر الرسول أن « عماد الأمر الصلاة »**

وإن أحاديث الرسول ﷺ فى الصلاة كثيرة وفيرة ، وفى الاستعارة التى بين أيدينا الآن يربط رسول الله ﷺ بين الوضوء والصلاة ؛ فالصلاة لا تجوز بغير الوضوء ، فيقول :

« **إن المسلم إذا توضأ ثم صلى الخمس تحاتّت خطاياه كما يتحاتّ الورق** » [(١)] والمراد أن الله تعالى يكفر عنه خطاياه بسرعة ، فتنحط أوزارها كما تتساقط الأوراق عن أغصانها إذا زعزعتها الرياح ، وغنىٌّ عن البيان أن الصلاة ينبغى أن تكون مقرونة باجتناب الكبائر .

ويذكر الرسول ﷺ أوقات الصلاة فى عدة أحاديث ، وفى عهده إلى عماله باليمن الذى مر ذكره قبل قليل يقول فى وقت العصر والعشاء : « **والعصْرَ إذا كان ظلُّ كلِّ شىء مِثلَه وكذلك ما دامت الشمس حيَّةً . والعشاءَ إذ غَابَ الشفق إلى أن تَمضِىَ كواهِلُ الليل** » [(٢)].

فنحن هنا أمام استعارتين ، الأولى : قوله ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ : « ما دامت الشمس حية » والمراد بحياة الشمس هنا كونها فى بقية من الاحمرار من قبل أن يفضى لونها إلى التغير والاصفرار ، ولذلك قالوا : شمس مريضة إذا ولّى احمرارها وأقبل اصفرارها ، والاستعارة الثانية قوله ﷺ : « إلى أن تمضى كواهل الليل » والمراد أن تمضى أوائله ، فسماها كواهل تشبيها لليل بالمطايا السائرة التى تتقدم أعناقها وهواديها ، ويتبعها أعجازها وتواليها ، ومن هنا قالوا فى السارى ليلا : اتخذ الليل جملا ، ويقولون أيضا : ركب الليل ، لما جعلوه بمنزلة الظهر المركوب ، والبعير المرحول : يعنى الذى يتخذ للرحيل والسفر .

---

(١) المجازات النبوية ، ص : ٢١٠ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ١٥٥ .

ومن الفرائض التى جاءت فى أحاديث رسول الله ﷺفى صيغة الاستعارة قوله ﷺفى جملة قليلة الكلمات ولكنها وافرة الخير والبركات .

« **الصوم جُنَّةٌ ما لم يَخْرِقْهَا** » والجُنَّةُ : كل ما وقى ، ويخرقها ، أى : يمزقها ويجعل فيها خرقاً ، وفى هذه الاستعارة شبه الرسول ﷺالصوم الذى يجنّ صاحبه من وقوع العَذَاب إذا أخلص له النية ، فجعل من اعتصم فى صومه من الزلل ، وتوقّى ذنوب القول والعمل ، كمن صان تلك الجنة وحفظها .

إن الشريف الرضى يصف هذه الاستعارة فيقول : إنها من أحسن التمثيلات وأوقع التشبيهات (١).

ومن أجلّ نعم الله على عباده أن الصوم لا يكون فى فصل بذاته ، وإنما هو مثلما يكون فى الصيف بحرارته ونهاره الطويل ، يكون كذلك فى الشتاء بطقسه المقبول المحمول ، ونهاره القصير الذى لا يكاد يحس الصائم فيه جوعا أو عطشا ، والله ـ سبحانه ـ فضلا منه وكرما يثيب صائم رمضان فى الشتاء ـ إذا كان صومه مصوناً من جارحات الصوم ـ بوافر الثواب وعميم المغفرة ، فشهر رمضان أيًا ما كان موقعه من فصول السنة « **أوله رحمة ووسطه مغفرة وآخره عتق من النار** » يستوى فى ذلك مجيئه فى الصيف أو الربيع أو الخريف أو الشتاء .

قال ﷺ : « **الصوم فى الشتاء الغنيمة الباردة** » (٢).

يقولون : هذه غنيمة باردة إذا حِيزَتْ بغير استعمال السلاح والتعرض للجراح ، لأنه ليست كل الغنائم كذلك ، فكأنه ﷺفى هذه الاستعارة جعل صوم الشتاء غنيمة باردة؛ لأن الصائم يحوز فيه الثواب الجزيل بلا معاناة مشقة ، أو مكابدة تعب ، لقصر نهاره وعدم التعرض للشمس وحرارتها والعطش وضراوته .

ويتناول الرسول ﷺالمؤمن وعلاقته بالمؤمن ، والمؤمن وعلاقته بالمشرك ، وطبيعى أن

(١) المجازات النبوية ، ص : ٢٠٩ ، ٢١٠ .
(٢) المجازات النبوية ، ص : ١٦ .

تكون علاقة المؤمن بأخيه المؤمن فى نطاق الإيجابية ، وليس كذلك الموقف فى علاقة المؤمن بالمشرك .

يقول ﷺفى الحالة الأولى : « **المؤمن مرآة المؤمن** » ذلك لأن المرآة سبب للعلم بما لولاها لم يعلم ؛ لأن ذلك العلم طريقه الرؤية ، ولا سبيل أن يرى الإنسان وجهه إلا بالمرآة وما يجرى مجراها من الأجسام الصقيلة ، فقد جمع الرسول ﷺبين المؤمن والمرآة فى صفة معقولة ، وهى أن المؤمن ينصح أخاه ويريه الحسن من القبيح كما تُرِى المرآةُ الناظر فيها ما يكون بوجهه من الحسن وخلافه (١).

وفى الحالة الثانية يقول ﷺ : « **لا تستضيئوا بنار المشركين** » فاستعار النار للرأى والمشورة ، أى : لا تهتدوا برأى المشركين ولا تأخذوا بمشورتهم (٢).

وأدعية رسول الله ﷺواستغفاراته من العمق الروحانى ، والإشراق البيانى ، بحيث تحبب إلى الصالح فضلا عن العاصى طَرْقَ باب التَّوبة ، وغشيان عتبات الابتهالات والاستغفار ، وقد مر بنا باب كامل فى أدعية رسول الله وابتهالاته ، وهى فى حالاتها - مجازات كانت أو حقيقة - سلّم إذا ارتقاه التائب نال نعمة المغفرة . فمن هذه الأدعية التى جاءت فى صيغة استعارة ما كان ﷺيقوله فى دعاء يدعو به : « **ربّ تقبل توبتى واغسل عنى حوبتى** » (٣) والحوبة : هى المأثم ، والمراد فى هذه الاستعارة : احطط عنى وزرى واغفر ذنبى وخطيئتى . ولما كانت المعصية ، كالأقذار التى تصيب الإنسان فيقبح منظره ، أقام - عليه الصلاة والسلام - إماطة وزرها وإسقاط إثمها مقام غسل الأدران ، لأن الإنسان يعود بعدها نقى الثوب طاهراً من العيب .

وغنى عن البيان أن الرسول ﷺمعصوم من الزلل والخطايا ، ولكنه يعلم العصاة من أمته كيف يكون الاستغفار وكيف يكون الندم على الإثم المقترف والخطيئة المرتكبة .

وإن مدن الإسلام وأقاليمه كانت موضع عناية الرسول ﷺورعايته ، كانت هكذا

---

(١) عبد القاهر : أسرار البلاغة ، ص : ٢٥٢ .

(٢) المثل السائر لابن الأثير ٢ / ١٠٣ .

(٣) المجازات النبوية ، ص : ١٨٣ .

مكة والمدينة ، وكانت هكذا أيضا الحجاز واليمن ومصر والشام ، وأحاديثه الشريفة فى تلك المدن والأقاليم ملء السمع والبصر ، ولكنه ﷺ حين يتناول مدينة أو قطراً يكون تناوله من زاوية بعينها أو بسبب حادثة بذاتها ، لقد تحدث عن مكة كثيرا ، حبًّا وإكباراً مرة ، وشوقا وحنيناً مرات ، ولكن المناسبة التى بين أيدينا كانت بمناسبة غزوة بدر وفيها قال :

« **هذه مكة قد رمتكم بأفلاذ كبدها** » وفى رواية :

« **قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها** » .

قال رسول الله ﷺ ذلك عند خروجه إلى بدر للقتال ، وكان المسلمون قد ظفروا ببعض فُرَّاط قريش ـ وهم الذين يتقدمون القوم ـ فأتوا بهم النبى ﷺ فسألهم عمن خرج فى ذلك اليوم من علية القوم ، فقالوا : فلان وفلان ، وعددوا قادتهم وفرسانهم ، فقال الرسول ﷺ : « **هذه مكة قد رمتكم بأفلاذ كبدها** » والمراد بذلك أعيان القوم ورؤساؤهم . فكأنه ﷺ أقام مكة مقام الحشا التى تجمع الأعضاء الشريفة كالقلب والكبد والفؤاد ، وجعل رجال قريش كشُعَبِ الكبد التى تحنو عليها الأضالع وقاية لها .

يقول الشريف الرضى فى هذا السياق : وهذه من أنصع العبارات وأوقع الاستعارات[1].

والمدينة المنورة هى الأخرى كثيرا ما جرى ذكرها فى حديث رسول الله ، وكل أحاديثه فيها إطراءٌ لها ، وتمجيدٌ لأهلها الأنصار من الأوس والخزرج ، ولكن المدينة بلد غير مطير ، وربما كان ذلك من باب إشفاق رسول الله عليها وعلى سكانها ، مع أنها تقع بين قطرين مطيرين : الشام فى الشمال واليمن فى الجنوب .

يذكر الرسول ﷺ المدينة المنورة وسكنه فيها ، فيقول : « **أُسْكِنتُ بأقلِّ الأرض مطراً ، وهى بين عينى السماء : عينٍ بالشام وعينٍ باليمن** »[2] والشاهد هنا هو تشبيه كل من الشام واليمن ـ وهما قطران ممطران ـ بعينى السماء ، وقد تكون العين هنا هى العين

(١) المجازات النبوية ، ص : ٢٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص : ٨٢ ، ٨٣ .

الإنسانية الدّامعة ، أو هى الينبوع الذى يجود بالماء ، فكما أن ماء العين موصول لا ينقطع ، فكذلك قطر السماء فى هذين البلدين متصل غير منقطع .

هذا ما كان من أمر ذكر البلدان ، فأما الأقطار فقد أشرنا إلى أنه ﷺ ذكر الشام واليمن والحجاز ، كما ذكر ﷺ فارس ومصر ، والرسول - صلاة الله وسلامه عليه - يذكر الحجاز هنا فى ثلاثة ألفاظ ، ولكنها تغنى عن عشرات الصفحات مدحاً وتكريما وتشريفاً ، يقول رسول الله ﷺ فى صفة الحجاز هذه الجملة المكونة من ثلاث كلمات :
« **الحِجَازُ قَطِيفَةُ الْإِيمان** »(1).

والقطيفة : هى الكساء الغليظ الذى يضم جسم الإنسان ، والمراد بالاستعارة أن الحجاز يحيط بالإيمان ، ويجمع شمله ، ويضمّ أهله ، كما تضم القطيفة جملة بدن الإنسان إذا اشتمل بها ودخل فيها ، ذلك أن أهل الحجاز من قريش ثبتوا على الإسلام بعد دخولهم فيه ، ولم يرتد منهم أحد ، وقد جاء فى الأخبار أنه ما من قبيلة من قبائل العرب بعد وفاة النبى إلا وقد فشا فيها الارتداد إلا قريشا وثقيفا ، فإنه لم يرتدّ منهم أحد .

هذا وإن أحاديث رسول الله ﷺ فى توجيه المسلمين وتربيتهم على الخير ، وتنشئتهم على الإيمان ، وغرس الرحمة فى قلوبهم وصلة أرحامهم ، وتثبيت أركان مجتمعهم ، وغير ذلك من الأغراض التى صيغت بأساليب البيان المختلفة من الوفرة بمكان ، ومن الحكمة بحسبان ، ومن الرقة بمقدار ، يقول ﷺ فى خير الزواج :

« **اغتربوا لا تُضْوُوا** »(2) وهى استعارة ، والمراد هنا تزوجوا الغرائب ولا تتزوجوا القرائب .

والضَّوَى : ضُؤول الجسم ودقته ، ويقال : أضوت المرأة إذا أتت بولد ضاوٍ ، وهم يقولون : الغرائب أنجب .

ويقول الرسول ﷺ فى الثقة بنعم المولى - سبحانه - ودوام جوده على خلقه :

---

(1) المجازات النبوية ، ص : ٩٥ .
(2) المصدر السابق ، ص : ٧٥ .

« **يمين الله ملأى سحَّاءُ لا يغيضها الليل والنهار** »[1] والمراد باليمين فى هذه الاستعارة نعمة الله ، وقد وصفها بالامتلاء لكثرة منافعها فجعلها كالعين الثرة التى لا يغيضها المواتح ولا تنقصها النوازح ، والسحّ : شدة المطر .

وفى تشجيع المسلمين على صلة ذوى رحمهم ولو بكلمة طيبة يقول الرسول ﷺ :

« **بُلُّوا أرحامكم ولو بالسلام** »[2] وفى رواية « **انضحوا أرحامكم** » والمراد من هذه الاستعارة : صِلُوا أرحامكم ولو بالسلام ، يعنى جدّدوا المودة بينكم وبين أقربائكم ولو بالسلام عليهم تشبيها ببلّ السقاء اليابس ؛ لأنه لا يتبلل إلا بملء الماء ، وهذا القول أبلغ ما نصح به امرؤ ليصل ذوى رحمه .

وفى عودة المريض والسؤال عنه يصدر عن رسول الله ﷺ من طيب القول ما لو وعاه الناس لجعلوا من عودة المرضى فرضا عليهم كالصلاة والصدقات ، يقول رسول الله ﷺ :

« **من عاد مريضا لم يزل يخوض الرحمة حتى يجلس ، فإذا جلس اغتمس فيها** »[3] .

والمراد من الاستعارة التعبير عن كثرة ما يناله عائد المريض من جزيل الأجر وعظيم الثواب . فشبهه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالذى يخوض الماء الوفير فى مشيته ، والمنغمس فيه عند جلسته .

وإذا كانت الشعوب الغربية ترى فى عودة المريض إثقالا عليه فإن الإسلام ورسول الإسلام يريان أن فى عيادة المريض إسهاما فى شفائه وربطا بينه وبين الحياة العامة التى يتمنى أن يعود إليها سليما معافى ، وقد جاء فى الحديث الشريف كلام إنسانى جليل فى مقام عيادة المريض مثل ذلك المجاز البديع الذى سقناه فى مكانه من « فصل المجاز » ممثلا فى قول رسول الله ﷺ : « **عائد المريض على مخارف الجنة** » .

---

(١) المجازات النبوية ، ص : ٧٨ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٨٠ .
(٣) المجازات النبوية ، ص : ٢٥٠ .

ومن الاستعارات النبوية التى تربى المسلمين على العمل والاعتماد على النفس هذا الحديث الشريف الجليل :

« **من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه** »[1] إنها استعارة المراد منها أن من تأخر بسوء عمله عن مواقف الفخر ومقتضيات الفضل ، لن يتقدم إليها بشريف نسبه ، فجعل ﷺالإبطاء والإسراع مكان التّأخر والتقدم .

ومن توجيهات الرسول ﷺوتربية أبناء المسلمين على التريث فى اختيار المرأة الصالحة زوجاً ، والتخلى عن الإسراع فى ذلك بدافع من جمال ظاهر يستتر وراءه لؤم خاف وانحراف محجوب ، قوله ﷺ : « **إياكم وخضراء الدمن** »[2].

ووجه البلاغة فى الاستعارة هنا أن المقصود ليس لون النبات النامى على الدّمنة أو طعمه أو شكله ، بل القصد منه شبه عقلى بين المرأة الحسناء فى المنبت السوء وبين تلك النابتة على الدمنة ، وهو حُسْنٌ فى الظاهر فى رأى العين مع فساد فى الباطن ، وطيبُ الفرع مع خُبْثِ الأصل .

وهذا الحديث الشريف مجاز مثلما هو استعارة ، مثلما هو كناية .

ومن الأحاديث النبوية التى تصلح تشبيها ، مثلما تصلح مجازا ، مثلما تصلح استعارة مثلما تصلح كناية ، حديث القوارير ، والحديث قد سبق ذكره ، وهو قول رسول الله ﷺ للحادى الذى كان يحدو للإبل فتسرع وكان اسمه أنجشة :

« **يا أنجشة ، رفقا بالقوارير** » .

فقد شبه الرسول ﷺ النساء المرتحلات فى ضعفهن بالقوارير الرقيقة التى لا تحتمل المشاق ، فنهى الحادى أنجشة عن الاستمرار فى حدائه الذى يجعل الإبل تزيد من سرعتها .

---

(١) المصدر السابق ، ص : ٣١٧ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص : ٦٢ والدمن : مفردها دمنة ، وهى ما اختلط من البعر والطين ، أى : المزبلة ، وهى أيضا آثار الدار .

ومن المعروف أن المجاز يشمل الاستعارة والكناية والتشبيه . وسوف نعرض لهذا الحديث مرة أخرى حين نعرض للكناية .

(٥)

الكناية :

الكناية موضع لاختلاف كثير من البلاغيين مع سهولة فهم معناها ويسر الوقوع على هدفها ومرماها ، فقد ذهب كل عالم من علماء البلاغة إلى حصر تعريف لها ، ثم لا يلبث خَلَفُه أن ينقضوا فعله ، وكان أكثرهم مناقضة البلاغى الإمام يحيى بن حمزة العلوى .

يقول ابن الأثير : حدّ الكناية الجامع لها هو أنها كل لفظة دلّت على معنى يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز ؛ لأن الكناية فى أصل الوضع أن تتكلم بشىء وتريد غيره .

ثم يزيد ابن الأثير الأمر إيضاحا فيقول : اعلم أن الكناية مشتقة من الستر ، يقال : كنّيت الشىء : إذا سترته ، وأُجْرِى هذا الحكم فى الألفاظ التى يُسْتَرُ فيها المجاز بالحقيقة فتكون دالة على الساتر وعلى المستور معا ، ألا ترى إلى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ فإنه إن حُمِلَ على الجماع كان كناية ، وإن حمل على الملامسة التى هى مصافحة الجسد الجسد كان حقيقة [١].

وَيَنْقُضُ الإمام يحيى بن حمزة كلام ابن الأثير ومن سبقه ممن تصدوا لتعريف الكناية من أمثال عبد القاهر الجرجانى وابن سراج المالكى وغيرهم ، ثم يقول : والمختار عندنا فى بيان ماهية الكناية أن يقال : هى اللفظ الدال على معنيين مختلفين : حقيقة ومجاز من غير واسطة لا على جهة التصريح .

وبعد أن ينتهى يحيى بن حمزة العلوى من تفسيره لقوله ، يعود إلى تقرير أن أكثر علماء البيان يعدّون الكناية من أنواع المجاز خلافا لابن الخطيب الرازى فإنه أنكر كونها

(١) المثل السائر ٣/ ٦٢ ، ٦٣ .

مجازا ، وزعم أن الكناية عبارة عن أن تذكر لفظة وتفيد بمعناها معنى ثانيا هو المقصود(١).

وذهب ابن الأثير وغيره إلى أن الكناية جزء من الاستعارة ، لأن الاستعارة لا تكو ن إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له ، وكذلك الكناية فإنها لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المكنى عنه . ونسبة الكناية إلى الاستعارة نسبة خاص إلى عام ، فيقال : كل كناية استعارة وليست كل استعارة كناية .

ويجىء العالم البلاغى الشاعر المعاصر على الجارم ـ رحمه الله ـ وييسر على الدارسين مفهوم الكناية وتعريفها فيقول : الكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى . وتنقسم الكناية باعتبار المكنىّ عنه ثلاثة أقسام ، فإن المكنى عنه قد يكون صفة ، وقد يكون موصوفا ، وقد يكون نسبة .

أما أمثلة الكنايات من حديث رسول الله ﷺفهى كثيرة .

عن ابن عباس عن النبى ﷺقال : « **من شقّ عصا المسلمين فقد خلع رِبقَةَ الإسلام**» (٢).

والشقاق : المخالفة ، يقال : شُقَّتْ عصا المسلمين : إذا اختلفت كلمتهم وتبدد شملهم ، والربقة : القلادة ، والكناية هنا يدل ظاهرها على موقع المراد منها .

ومن الكنايات النبوية الطريفة قول رسول الله ﷺلأنجشة : « **ويحك يا أنجشة سوقك بالقوارير** » وفى رواية « رفقا بالقواير » (٣)وقد مر بنا هذا الحديث فى آخر فصل الاستعارات ـ السابق على هذا الفصل ـ حيث اعتبر الحديث استعارة ، ولا بأس فى ذلك ، لكن الأصل فيه أنه كناية ، وكل كناية استعارة وليست كل استعارة كناية تبعا لما ذكرنا قبل سطور قليلة .

---

(١) الطراز ١ / ٣٧٣ـ ٣٧٥ .

(٢) أمثال الحديث لابن خلاد الرامهرمزى ، ص : ١٢٤ .

(٣) الطراز ١ / ٤٠٧ والمثل السائر ٣ / ٧٤ ، ٧٥ .

إنها ـ كما يقول يحيى بن حمزة العلوى ـ كناية لطيفة ، فقد كنّى الرسول ﷺ عن النساء بالقوارير من وجوه ثلاثة :

أولها : لِمَا هُنَّ عليه من حفظ الأجنَّة ، والوعاء : كالقارورة تحفظ ما فيها .

ثانيها : لاختصاصهن بالصفاء والصقالة ، والحسن والنضارة .

ثالثها : لما فيهن من الرقة والمسارعة إلى التغير والانثلام كما يتسارع الانكسار إلى القارورة لرقتها .

يقول يحيى عن الوجه الثالث : « وهذا هو الوجه الذى يومىء إليه الرسول ﷺ حيث قال فى حديث غير هذا : « **رفقاً بالقوارير** » .

ومن الكنايات ما ورد فى الأخبار النبوية فى قول النبى ﷺ : « **إنه كانت امرأة فيمن كان قبلنا ، وكان لها ابن عمٍّ يحبها ، فراودها عن نفسها فامتنعت عليه ، حتى إذا أصابتها شدة فجاءت إليه تسأله ، فراودها فمكنته من نفسها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة ، قالت له : لا يحل لك أن تفضّ الخاتم إلا بحقه ، فقام عنها وتركها**»[1] فهذه كناية واقعة فى موقعها .

وفى الرواية التى جاء بها يحيى بن حمزة اختلفت الألفاظ بعض الشىء ، يقول : «**فلما قعد منها مقعد الخائن ، قالت له : اتق الله ولا تفضض الخاتم إلا بحقه ، فقام وتركها**» فكنّت المرأة بالخاتم عن بكارتها ، وأنها بمنزلة الشىء المختوم الذى لم ينكسر ختمه[2].

ومن الأحاديث التى صُوِّرت استعارة وصورت فى الوقت نفسه كناية قوله ﷺ حين رأى أهل مكة يتقدمون يريدون لقاءه للحرب : « **هذه مكة قد ألقت إليكم بأفلاذ كبدها يريدون أن يحادوا الله ورسوله** » .

لقد عدّ الشريف الرضى هذا الحديث من باب الاستعارات واستفتح به الأمثلة التى

(١) المثل السائر ٣ / ٧٤ .
(٢) الطراز ١ / ٤٠٨ .

ساقها فى كتابه « المجازات النبوية » وقد أوردناه فى فصل الاستعارات السابق على هذا الفصل .

ولكن الحديث كناية أيضا ، فكنّى الرسول ﷺبقوله : « أفلاذ كبدها » عن الرؤساء الأكابر ؛ لأن الكبد من أهم أعضاء جسم الإنسان وأعزها ، فكنّى بها عنهم .

ومن الكنايات اللطيفة ما ورد عن بُدَيْل بن ورقاء الخزاعى وقد جاء إلى الرسول ﷺ فى عام الحديبية حين نزل على الركيّة فى نفر من قومه من تهامة فقال : « أتى ركب كعب ابن لؤى وعامر بن لؤى ، نزلوا على مياه الحديبية ، معهم العُوذُ المطَافِيلُ ، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت » .

فقوله : « العوذ المطافيل » جعلها كناية عن النساء والصبيان ، والعوذ : جمع عائذ، وهى الناقة التى قوى ولدها ، والمطافيل : جمع مُطْفِل، وهى الناقة التى معها ولدها لقرب عهدها بالنتاج .

ويجوز أيضا حمل هذا الكلام على حقيقته ، أى : معهم الأموال الكريمة التى تكون قواما لهم فى الحرب وعونا لهم ، والأموال هنا هى الإبل ، والإبل جلّ أموال العرب(١) .

ومن الكنايات النبوية أيضا قوله ﷺ: « **إياكم وخضراء الدمن** » وهذا تحذير ، وكنى بقوله : « خضراء الدمن » عن المرأة الحسناء فى المنبت السوء ، وإنما كنى بذلك عنها لأمرين :

الأمر الأول : لأن أول عشرتها يكون حسنا موافقا ، ومن بعد ذلك تعود إلى الفساد والرداءة كزرع المزابل ، فإنه يعجب أولا ، ثم يذبل ويجفّ ويزول على القرب .

والأمر الثانى : لأن غضارتها ورونقها مُدَّتُهَا أيام قليلة ثم تصير مقحلة يابسة (٢) .

ومن الطريف أن هذا الحديث تنازعه ثلاثة من البلاغيين ، هم : الشريف الرضى

---

(١) المثل السائر ٣ / ٧٥ والطراز ١ / ٤٠٩ ، ٤١٠ .

(٢) الطراز ١ / ٤١٠ .

وقـد عدّه مـن المجـار [1] وقـد تناولناه عند حديثنا عن المجاز . وعبد القاهر الجرجانى[2] وقد تناولناه فى حديثنا عن الاستعارات ، وها هو أمير المؤمنين الإمام يحيى ابن حمزة العلوى يعدّه كناية ، وقد صدق الثلاثة العلماء البلغاء ، فهذا الحديث مجاز واستعارة وكناية فى وقت واحد .

وليس ذلك بمستبعد أن يصدر عن أفصح الفصحاء ﷺ الذى أوتى جوامع الكلم .

---

(1) المجازات النبوية ، ص : ٦٠ .

(2) أسرار البلاغة ، ص : ٦٢ .





الفصل الثالث

علم البديع

● المحسنات اللفظية:

السجع ، الجناس.

● المحسنات المعنوية :

الطباق والمقابلة ، لزوم ما لا يلزم ، الإرصاد ، اللف والنشر .

علـم البـديـع

البديع : علم يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقته لمقتضى الحال ، وهو أحد علوم البلاغة الثلاثة : المعانى والبيان والبديع .

ومن البلاغيين من يسمى هذه العلوم الثلاثة : علم البديع ، ويعللون هذا الإطلاق بأن البديع هو الشيء الذى يستحسن لطرافته وغرابته وعدم وجود مثاله من جنسه ، وهذه العلوم كذلك . ومنهم من يسمى علمى (البيان والبديع) علم البيان تغليبا للبيان المتبوع على البيان التابع .

ووجوه تحسين البيان التى يبحث فيها علم البديع قسمان : قسم يرجع إلى المعنى ، وقسم يرجع إلى اللفظ ، ومن ثم فهو علم المحسنات اللفظية ، والمحسنات المعنوية[1].

وغنى عن البيان أن أول من ألف كتابا فى هذا الفن هو الخليفة الأديب الناقد الشاعر عبد الله بن المعتزّ المتوفى سنة ٢٩٦ هـ وقد جعل عنوان كتابه « البديع » يعنى الجديد المستحدث ، وقد اشتمل منهجه فى كتابه على خمسة فنون ، هى : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، وردّ أعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامى .

وهكذا فإن مفهوم ابن المعتز لفنون البديع مغاير للمفهوم الاصطلاحى الذى انتهى إليه البلاغيون وارتضوه ، الذى أشهر موضوعاته فى المحسنات اللفظية : الجناس ـ أو التجنيس ـ والاقتباس ، والسجع ، وفى المحسنات المعنوية : التورية ، والطّباق ، والمقابلة ، وحسن التّعليل ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه ، ولزوم ما لا يلزم ، والإرصاد ، وأسلوب الحكيم ، وغيرها .

وفنون البديع التى ذكرها ابن المعتز موجودة أصلا ـ طبقا لكلامه ـ فى القرآن الكريم

---

(١) الدكتور بدوى طبانة : معجم البلاغة العربية : مادة علم البديع ، ص : ٦٧ .

وأحاديث رسول الله ﷺ وكلام الصحابة والأعراب وأشعار المحدثين من أمثال بشار بن برد ، ومسلم بن الوليد ، وأبى نواس ، ودعبل الخزاعى ، والعكوك ، والعتابى ، وأبى تمام ، ومن سلك نهجهم وسار فى دربهم . وينبّه ابن المعتز فى نهاية مقدمته لكتاب «البديع » إلى أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شىء من أبواب البديع التى جاءت فى كتابه ، مع أن الواقع أنهم استحدثوا أمورا مستجدة فيما أطلقوا عليه المحسنات المعنوية .

المحسنات اللفظية

المحسنات اللفظية - طبقاً لاصطلاح البلاغيين - التجنيس أو الجناس ، والاقتباس، والسجع ، وإذا كان البلاغيون القدامى قد درجوا على تقديم التجنيس عند دراستهم للمحسنات اللفظية ، فنحن نفضل فى منهجنا هذا أن نبدأ بالسجع ؛ لأن ثمت تحفظات ارتبطت باستعماله والإيغال فيه ، ولأنه الأكثر استعمالا ، والأوفر ورودا فى كلام البلغاء .

وأما الاقتباس فإن صح تناوله فى الدراسات العامة فإنه لن يجد مكانا فى هذا الكتاب؛ لأن رسول الله ﷺ ظل استعماله للاقتباس محصورا فى الاقتباس من كتاب الله ولم يتعده إلى غيره ؛ لأنه لا يعلو على كلامه كلام إلا القرآن الكريم ، وإن اقتباس الرسول ﷺ من القرآن فى خطبه ورسائله ومواعظه وسائر كلامه من الوضوح بمكان بحيث لا يحتاج إلى تناول فى هذا الفصل من كتابنا .

(١)

السجع :

يختص السجع بالنثر دون الشعر ، مثلما يختص التصريع بالشعر ، وقد عرّفه القدما : بأنه تواطؤ الفواصل فى الكلام المنثور على حرف واحد [١] ، وبعبارة أوضح : هو توافق الفاصلتين فى الحرف الأخير ، وأفضله ما تساوت فقره .

---

(١) المثل السائر ١ / ٣٠٨ .

ولقد تحرج بعض الأقدمين من استعمال السجع بحجة أن رسول الله ﷺ قد نهى عنه ، والحقيقة أن الرسول لم ينه عن استعماله ، وإنما كره السجع الذى غلا قائله فى تصنعه ، فقال ﷺ : « **أسجعاً كسجع الكهان ؟** » .

وبيان ذلك ما رُوِى من أن رسول الله ﷺ أمر رجلا بدفع دية جنين ، وبيّن له مقدار الدية ، فقال الرجل : أرأيت من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح ولا استهلّ ، أليس مثل ذلك يُطَلّ ؟ ـ أى : يهدر دمه ـ فقال الرسول ﷺ مستنكرا هذا التقعّر فى الكلام ـ : « **أسجعا كسجع الجاهلية؟** » وفى رواية : « **أسجعاً كسجع الكهان ؟** » وفى رواية : « أسجع كسجع الجاهلية » .

وكان سجع الكهان ثقيلا على السمع كريه الوقع على الأذن ، فمن أمثلة سجع الكهان قول سطيح الكاهن ـ وهو ابن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب ـ : « عبد المسيح ، جاء إلى سطيح ، وهو موفٍ على الضريح ، لرؤيا المُوبَذان ، وارتجاسِ الإيوان» (١).

ومن ذلك مافعل الكاهن فى قصّة هند بنت عتبة حين قال لما امتحن قبل السؤال عن قصتها : « ثَمَرَةٌ فى كَمِرَة » فقيل له : نريد أبْيَنَ من هذا ، فقال « حَبَّةُ بُرٍّ فى إحْليل مُهْر » (٢) .

لم يكن السجع نفسه إذن هو المنهى عنه ، ولكن النهى كان عن هذا النمط منه ، وما يتضمنه من معان مغلوطة ، وتنبؤات مكذوبة .

يحلل الجاحظ هذا الموقف بقوله : (٣)

الذى كرّه الأسجاع بعينها وإن كانت دون الشعر فى التكلّف والصنعة ، أن كهان العرب الذين كان أكثر أهل الجاهليّة يتحاكمون إليهم وكانوا يدّعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رئيًّا من الجنّ ، مثل حازى جهينة ، ومثل شِقٍّ ، وَسَطِيح ، وعُزَّى سَلِمة وأشباههم ، كانوا يتكهّنُون ويحكمون بالأسجاع كقوله : والأرضِ والسماء ، والعُقَاب

(١) المثل السائر ١ / ٣١١ ، ٣١٢ .

(٢) المثل السائر ١ / ٣١١ . نقد النثر، ص : ١٠٧ .

(٣) البيان والتبيين ١ / ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

والصَّقْعَاء ، واقعة ببقعاء ، لقد نفَّر المجد بنى العشراء ، للمجد والسَّنَاء»(★).

أما قدامه بن جعفر فيعلل إنكار الرسول ﷺ لهذا الأسلوب « لأنه ـ أى : الرجل ـ أتى بكلامه مسجوعاً كله ، وتكلَّف فيه السجع تكلف الكهان ، وأما إذا أتى به فى بعض كلامه ومنطقه ولم تكن القوافى مختلقة متكلفة ، ولا متمحلة مستكرهة ، وكان ذلك على سجيّة الإنسان وطبعه ، فهو غير منكر ولا مكروه » .

ويعود ابن الأثير لمحاورة من ذمّوا النثر والرد عليهم ، فيقول :

« وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ، ولا أرى لذلك وجهاً سوى عجزهم عن أن يأتوا به ، وإلا فلو كان مذموماً لما ورد فى القرآن الكريم حتى إنه ليؤتى بالسورة جميعا مسجوعة ، كسورة الرحمن ، وسورة القمر ، وغيرهما » .

ويمضى ابن الأثير قائلا : « وقد ورد على هذا الأسلوب من كلام النبى ﷺ شيء كثير أيضا » .

فمن ذلك مارواه ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «**استحيوا من الله حق الحياء** » قلنا : إنا لنستحيى من الله يارسول الله ، قال : « **ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا** » .

فإن قيل : إن النبى ﷺ قال لبعضهم منكراً عليه وقد كلمه بكلام مسجوع : «**أسجعا كسجع الكهان ؟**» ولولا أنه مكروه لما أنكره النبى ﷺ فالجواب عن ذلك ـ والقول لابن الأثير ـ أناَّ نقول : لو كره النبى ﷺ السجع مطلقاً لقال : « أسجعاً » ؟ ثم سكت ، ولكنه قال : « أسجعاً كسجع الكهان ؟ » ، فصار المعنى معلقا على أمر ، وهو إنكار الفعل لماّ كان على هذا الوجه ، فعلم أنه ذم من السجع ما كان مثل سجع الكهان لا غير ، وإنه لم يذم السجع على الإطلاق .

(★) المعانى : الرئى : هو الذى يعتاد الإنسان من الجن يحبه ويؤالفه ، الحازى : الكاهن ، شق : هو شق بن أنمار ، زعموا أنه كان شق إنسان له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة . الصقعاء : التى فى وسط رأسها بياض . البقعاء من الأرض : هى ذات الحصى الصغار . نفر ـ بتشديد الفاء ـ حكم لهم بالغلبة على غيرهم ، بنو العشراء : من بنى مازن بن فزارة بن ذبيان .

بل إنه ﷺ غيّر الكلمة عن وجهها إتباعا لها بأخواتها من أجل السجع ، فقال لابن ابنته : « **أعيذه من الهامّة والسّامة ، وكل عين لامّة** » لأن الأصل فيها من « ألمّ » فهو «ملمّ» .

وكذلك قوله ﷺ : « **ارجعن مأزورات غير مأجورات** » وإنما أراد « مَوْزُورات» من الوِزْر ، فقال : « مأزورات» لمكان « مأجورات » طلبا للتوازن والسجع ، وهذا يدلك - ولايزال القول لابن الأثير - على فضيلة السجع (١).

وإذن فاستكراه الرسول للسجع ليست ظاهرة تشيع بين الدارسين ، وإنما هى حادثة بعينها أسىء فهمها ، ذلك أن السجع من علامات رقة الأسلوب ونصاعته ، ورونقه وجزالته ، وقد سرى السجع الجميل فى كلام رسول الله ﷺ بأشكاله الأنيقة ، وصياغاته الرقيقة ، طبقاً لما سوف نتمثل به بعد قليل .

وأما سجع الكهان فهو نمط من القول تضيق بسماعه الأذن ، ويتأذى منه السمع ، مثل ذلك الذى أثر عن شِقٍّ وعن سطيح .

ولكن إذا كانت الألفاظ المسجوعة ذات رقة ورنين ، ومعنى كريم ، وأناقة وحسن ترنيم ، فإن النفس تشتاق إلى سماعها ، والأذن ترتاح إلى إيقاعها ، وهذا النوع الجميل من السجع يشيع فى أسلوب القرآن الكريم ، ويكثر فى كلام الرسول ﷺ .

والأمثلة من القرآن الكريم من الوفرة بمكان ، كقوله - تعالى - : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ * فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ (٢)

أو قوله - تعالى - : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ (٣)

وقوله - تعالى - : ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا * فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ (٤).

---

(١) المثل السائر ١ / ٣٠٨ - ٣١١ .

(٢) الواقعة ، الآيات : ٢٧ - ٣٠ .

(٣) الضحى ، الآيتان : ٩ ، ١٠ .

(٤) العاديات ، الآيات : ١ - ٥ .

والسجع على أشكال مختلفة ، فمنه الطويل ، ومنه القصير ، ومنه المعتدل المتساوي ، وهذا الأخير أفضل أنواع السجع ما لم تطل فقرة وتقصر أخرى ، أو ما لم يكن السجع مجافيا للطبع : ثِقَلَ وَقْع ، وَغَثَاثَةَ لَفْظٍ .

فمن أمثلة السجع القصير قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾(١)

ومن أمثلة السجع المتوسط قوله ـ تعالى ـ : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ * وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ * سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ * وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ * فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ * سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ * وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ * بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ * إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ * ﴾(٢)

ومن أمثلة السجع الطويل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾(٣).

وكذلك الحال فى كلام رسول الله ﷺ فالسجع فى الأسلوب المحمدى عذب الإيقاع، كريم المعنى ، ترتاح إليه النفوس ، وتقر برقته الأسماع ، وتنشرح لمضامينه الصدور ، ومنه السجع القصير والمعتدل والطويل ، وهو فى جميع حالاته ـ قصيرا كان أو معتدلا أو طويلا ـ لا يدانيه قول إنسان ، ولا يرقى إلى مستواه حديث بشر .

---

(١) سورة النجم ، الآيات من : ١ ـ ٧ .

(٢) سورة الأعلى كلها .

(٣) سورة هود ، الآيتان : ٩ ، ١٠ .

فمن سجعه القصير مارواه عبد الله بن سلام قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس قِبَلَهُ - يعنى مضوا مسرعين - وقالوا : قدم رسول الله ، فجئت لأنظر ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، فكان أول شىء سمعته منه قوله : « **أيها الناس : أطعموا الطعام ، وأفشوا السلام ، وَصِلُوا الأرحام ، وَصَلُّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام** » [1].

سجع قصير ، موافق للطبع ؛ ناعم الجرس ، عميق الوقع ، ينسرب إلى القلب ، يصافح السمع ، ويمازج العقل . ولا تصلح لفظة أخرى لتحل محل الكلمة المسجوعة وتؤدى وظيفتها أو تعمل عملها .

وأما سجعه المعتدل فمنه قوله ﷺ : [2]

« **واعلموا أنكم عن قليل راحلون ، وإلى الله صائرون ، فلا يغنى عنكم هناك إلا عمل صالح قدمتموه ، أو حسن ثواب حُزْتُمُوه ، إنكم إنما تُقْدمون على ما قَدَّمْتُم ، وتُجازَوْنَ على ما أَسْلَفْتُمْ ، فلا تَخْدَعَنَّكُم زخارف دنيا دنية ، عن مراتبِ جَنَّاتٍ عَلِيَّة** » .

ومن سجعه الطويل قوله ﷺ : [3]

« **ألا وإن من علامات العقل ، التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والتزود لسكنى القبور ، والتأهب ليوم النشور** » .

وتلك نماذج مختلفة من السجع فى كلام صاحب الرسالة ﷺ :

● « نزلت المعونة على قدر المؤونة » [4].

● قوله ﷺ للأنصار : « **إنكم تكثرون عند الفزع ، وتقلّون عند الطمع** » **وفيه أيضا طباق** .

---

(١) مسند أحمد ٥/ ٤٥١ وسنن الترمذى ٢ / ٧٩ .

(٢) الطراز ٣/ ٣٠ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) أعلام النبوة ، ص ١٦٧ .

● قوله ﷺ : (١)

« تعوّذوا بالله من جهد البلاء ، وَدَرَك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء » .

● وقوله ﷺ :

« الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان » .

● وقوله ﷺ :

« هو أوضح دليل ، إلى خير سبيل » .

● وقوله ﷺ :

« ربنا تقبّل توبتى ، واغسل حوبتى » .

والحوبة : هى المأثم ، وهو من دعاء الرسول ﷺ وقد أورده الشريف الرضى بقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « رب تقبل توبتى واغسل حوبتى »(٢).

● وقوله ﷺ :

« الناس معادن كمعادن الفضة والذهب ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا ، والأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » متفق عليه .

● وقوله ﷺ :

« إن الرفق لا يكون فى شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه » .

● وقوله ﷺ :

« بشر خديجة ـ رضى الله عنها ـ ببيت فى الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نَصَب» متفق عليه .

---

(١) البخارى (كتاب القدر)باب من تعوذ بالله من درك الشقاء ٨ / ١٥٧ ومسلم (كتاب الذكر) باب التعوذ وسوء القضاء ٤ / ٢٠٨٠ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ١٨٣ .

والقصب : اللؤلؤ المجوف .

● وقولهﷺ :

« لا تزال أمتى بخير ما لم تر الفىء مغنما ، والصدقة مغرما » يقول عبد القاهر الجرجانى : « لا تجد فى جميع ما ذكر لفظا اجْتُلِبَ من أجل السجع ، وتُرِكَ له ما هو أَحَقُّ بالمعنى منه ، وأبرُّ به ، وأَهْدَى إلى مذهبه» [1] .

(٢)

التجنييس أو الجناس :

التجنيس والجناس بمعنى واحد ، ومعناه فى مصطلح علماء البيان : هو أن تتفق اللفظتان فى وجه من الوجوه ويختلف معناهما .

والجناس قسمان : تام وناقص .

الجناس التام :

ويسمى أيضا بالكامل والمستوفى والحقيقى ، وهو أن تتفق الكلمتان فى لفظهما ووزنهما وحركاتهما ، ولا تختلفان إلا من جهة المعنى ، ومثاله قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾[2] .

ويذكر الإمام يحيى بن حمزة العلوى أن ليس فى القرآن من التجنيس الكامل غير هذه الآية [3]. والساعة الأولى بمعنى القيامة ، والساعة الثانية هى الساعة الزمنية التى يتكون من مجموعها الليل والنهار .

وفى كلام رسول اللهﷺ لم نقع إلا على مثال واحد ، وهو قولهﷺ لما نازع الصحابة جرير بن عبد الله يوم أحد أيهم يقبض زمام ناقة الرسول ، فقالﷺ : « خَلُّوا بين جَرِيرٍ

(١) أسرار البلاغة ، ص : ١٢ .
(٢) سورة الروم ، الآية رقم : ٥٥ .
(٣) الطراز ٢ / ٣٥٦ .

والجَرير » وجرير هو الصحابى جرير بن عبد الله ، وجرير الثانية (المعرفة بأل) تعنى زمام الناقة .

الجناس الناقص :

ويقال له أيضا : المشبه ، وغير التام ، وهو يأتى على أنحاء مختلفة، وهو : ما اختلف فيه اللفظان فى واحد أو أكثر من المواصفات التى ذكرت فى الجناس التام .

وهو على أضرب كثيرة ، منها : المختلف ، والمطلق ، والمصحّف ، والمضارع ، والمعكوس ، والمركب ، والمذيّل ، والمزدوج أو المردد ، والمشوش ، والمجنب ، والمردوف والمكتنف ، والمطرف ، والمحرف ، وغير ذلك مما لم يضعوا له اسما .

وطبيعى أن لا يجىء من كلام رسول الله ﷺ ما تنطبق عليه هذه المسميات جميعا ؛ لأن أكثر هذه المسميات تنطبق على الشعر ، وليس جميعها مما يدخل فى حوزة النثر ، كما أن هذه التسميات وضعت فى مراحل متأخرة بدأت فى القرن الثالث الهجرى حتى القرن التاسع ، ومن هنا فإن المصطلحات البديعية وعناصرها قد تكاثرت وتعددت وتضخمت إلى آماد بعيدة ، ولكننا سوف نعرض لنماذج من أقوال الرسول ﷺ التى ينطبق عليها بعض الأضرب التى سلف ذكرها .

● قال رسول الله ﷺ : « **اللهم كما حَسَّنْتَ خَلْقِى حَسِّنْ خُلُقِى** » .

إن الحروف هنا متساوية فى (خَلْقى وخُلُقى) فى تركيبها ، ولكنها مختلفة فى وزنها ، ومن ثم فقد اصطلح على تسمية هذا الضرب من التجنيس « بالمختلف » [1].

● وقال رسول الله ﷺ : « **أسلمُ سالمها الله ، وغِفَارٌ غفر الله لها ، وعُصَيَّةُ عصت الله ورسوله ، وتُجَيْبُ أجابت الله ورسوله** » وروى الحديث بترتيب آخر فى تقديم القبائل وتأخيرها فقدم « عصيّة» وأخر « أسلم » .

ويسمى هذا الضرب بالجناس « المطلق » لأن اللفظتين مشتركتان فى الاشتقاق ،

---

(٢٢) الطراز ٢ / ٣٥٩ وأسرار البلاغة ١ / ٣٨٦ .

ويدخل فى هذا الضرب قوله ﷺ : « **الظلم ظلمات يوم القيامة** » وقوله : « **لا يكون ذو الوجهين وجيها عند الله** » وقولهﷺ : « **المسلم من سلم الناس من لسانه ويده** » .

●وقال رسول اللهﷺ : « **عليكم بالأبكار ؛ فإنهن أشدّ حُبًّا ، وأقلّ خِباً** » والخب : هو الخداع ، وقد جرى التصحيف فى لفظى : حب ، وخب . ولذلك فإنه يطلق على هذا الضرب : التجنيس « المُصَحَّف » (1) لأن من لايفهم المعنى يصحف أحدهما إلى الآخر لتشابههما فى الخط ، كما يطلق أيضا على هذا الضرب : « المرسوم » .

وهذا الضرب من المصحّف ينطبق على قول رسول اللهﷺفى إحدى خطبه : « **ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، وإن الآخرة قد ارتجلت مقبلة** »(2).

● يقول ﷺ : « **الخيْل معقودٌ بنواصيها الخير** » والأمر الواضح أن اللام والراء متقاربتان فى « الخيل والخير » حتى إن أكثر الأطفال يبدأون عند تعلم الكلام بنطق الراء لاما .

إن هذا الضرب من القول هو التجنيس الذى يطلق عليه التجنيس « المضارع » وهو الجمع بين كلمتين متجانستين لا تفاوت بينهما إلا بحرف واحد ، سواء وقع متقدما أو وقع متأخرا (3).

ويدخل فى نطاق هذا الضرب قوله ﷺ : « **بَشِّرْ خديجة ـ رضى الله عنها ـ ببيتٍ فى الجنة من قصب (*)، لا صخب فيه ولا نصب** » متفق عليه .

ومن هذا النوع أيضا من المضارع قولهﷺ: « **إن الرفق لا يكون فى شىء إلاّ زانه ، ولا يُنْزَع من شىء إلا شانه** » .

ومنه أيضا قولهﷺ : « **رب تقبل توبتى ، واغسل حوبتى** » (والحوب والحوبة : المأثم) .

---

(1) الطراز ٢ / ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

(2) المجازات النبوية ، ص : ١٣٩ .

(3) الطراز ٢ / ٣٦٧ .

(*) القصب : هو اللؤلؤ المجوف .

● وقال ﷺ : « **جار الدار أحق بدار الجار** » وهذا الضرب يسمى المعكوس ، أو التجنيس بالتبديل ، وهذه التسمية الأخيرة أطلقها عليه قدامة بن جعفر .

وهذا النوع من التجنيس المعكوس نوعان :

الأول منهما : هو عكس الألفاظ ، وهو ما يدل عليه حديث رسول الله حول: «جار الدار » (١).

والنوع الثانى : هو عكس الحروف ، مثل كرسى ، يسرك ، فلوقرأت « يسرك » من اليسار إلى اليمين ، يعنى عكست قراءتها فإنها ستكون « كرسى » .

وقد جاء هذا المثل فى شعر أحد المغرمين بالصنعة :

أهديت شيئا يقلّ لولا

أحدوثة الفال والتّبرّكْ

كُرْسِى تفاءَلْتُ فيه لمَّا

رأيت مَقْلُوبهُ يَسُرُّكْ

وقد جاء ذلك فى لفظ عقرب ، وبرقع ، مثلما جاء فى الجملة القرآنية : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ ﴾ من الآية الكريمة ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٢).

يقول ابن الأثير : وهذا النوع الثانى من الجناس المعكوس نادر الاستعمال ، لأنه قلّ ما يقع كلمة تقلب حروفها فيجىء معناها صوابا (٣).

● بقى ضرب من الجناس غير التام يمكن أن يستمدّ له اسم من بعض كلام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن البلاغيين لم يفعلوا أكثر من أنهم قدموا توصيفا لهذا الضرب دون أن يقدمواله تسمية ، فقالوا : (٤)

---

(١) الطراز ٢ / ٣٧٠ .

(٢) سورة يس ، من الآية : ٤٠ .

(٣) المثل السائر ١/ ٣٩٦ .

(٤) المثل السائر ١ / ٣٩٧ .

« من المشبه بالتجنيس ـ أى : الجناس غير التام ـ وهو مايساوى وزنه تركيبه غير أن حروفه تتقدم وتتأخر ، وقد ضرب ابن الأثير مثلا لهذا الضرب من الجناس الناقص ببيت أبى تمام فى قصيدة عمورية .

بيض الصفائح لا سود الصحائف فى
متــــونهنّ جـــلاءُ الشــــكِّ والرِّيَبِ

وقد ورد ذلك فى كلام رسول الله ﷺ فى فضيلة تلاوة القرآن الكريم : « **يقال لصاحب القرآن : اقرأ وَارْقَ ورتّلْ كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ** » فقوله ﷺ : « اقرأ » و « ارق » من التجنيس المشار إليه .

ويمكن أيضا أن يربح هذا الضرب من التجنيس المشار إليه مثلا آخر من كلام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ يقول : « **إنَّ لِلَّهِ تعالى فى كلِّ مِحْنَةٍ مِنْحَةً** » ، ذلك أن قوله الشريف « محنة » و « منحة » من نوع التجنيس نفسه .

المحسنات المعنوية

(١)

الطباق والمقابلة :

عدّ أكثر البلاغيين الطباق ضربا مستقلا من ضروب البديع مثله فى ذلك مثل المقابلة ، ولقد سُمِّىَ الطباق : تطبيقاً ، وتضادًّا ، وتكافُؤاً ، وعرفوه بأنه يُؤْتَى بالشىء وبضده فى الكلام ، وضربوا مثلا بذلك من قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾(١).

إن الإمام يحيى بن حمزة العلوى صاحب « الطراز » يعترض على هذه التسمية ،

(١) الطراز ٢ / ٣٧٧ .

ويقول فى ذلك ـ وفى قوله كثير من النصفة ـ : والأجود تلقيبه بالمقابلة ؛ لأن الضدين يتقابلان ، كالسواد والبياض ، والحركة والسكون ، وغير ذلك من الأضداد من غير حاجة إلى تلقيبه بالطباق والمطابقة (١).

غير أن جمهرة البلاغيين لما عرَّفوا الطباق بالجمع بين الشىء وضده فى الكلام ، فقد وقفوا عند الكلمة وضدها ، فإذا زاد الأمر عن ذلك لم يعد يسمى طباقا ، وإنما يسمى حينئذ مقابلة .

وللطباق أمثلة ليست كثيرة فى حديث رسول الله ﷺ مثل قوله : « **خير المال عين ساهرة لعين نائمة** » (٢)بمعنى أن خير المال عين ماء ينام صاحبها وهى تظل فائضة تسقى .

ومن الطباق أيضا قول رسول اللهﷺ للأنصار : « **إنكم تكثرون عند الفزع ، وتقلّون عند الطمع** » يعنى يكثرون عند الملمات والحرب ، ويقلون عند المغانم ويتعففون عنها ، والطباق هنا بين « تكثرون » و « تقلّون » .

فأما المقابلة فهى : أن يؤتى بشيئين أو أكثر ـ وليس بشىء واحد ، فذاك هو الطباق ـ ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب .

مثال ذلك ماروته السيدة عائشة عن النبىﷺ أنه قال لها : « **عليك بالرفق ياعائشة ؛ فإنه ما كان فى شىء إلا زانه ، ولا نزع من شىء إلا شانه** »(٣).

إنه من الطريف أن المؤلف أورد هذا الحديث يستشهد به على الطباق قائلا : «فجمع بين الزين والشين ، وهما ضدان » والصواب أنه مقابلة لأنه أتى بشيئين هما وجود الرفق والزين ، وأتى بما يقابلهما وهما نزع الرفق والشين .

وها نحن نعرض عددا من أحاديث رسول اللهﷺ تشتمل جميعا على العنصر البديعى « المقابلة » وهى جميعها من الوضوح بمكان .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ .
(٢) المثل السائر ٣ / ١٧٢ .
(٣) الطراز ٢ / ٣٨٠ .

● عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال :

« **الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا ، والأرواح جنود مجنّدة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف**»[1]. رواه مسلم

● « **ما من يوم يُصْبح العبد فيه إلاَّ مَلَكَانِ ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفاً ، ويقولُ الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا** » . متفق عليه

● يقول الماوردى : من « بديع » الحديث :

قال ﷺ : « **صنائع المعروف تقى مصارع السوء** » رواه الترمذى

وهكذا نجد أحاديث « المقابلات » السالف ذكرها تتضمن الإتيان بشيئين يقابلهما مثلهما .

وها نحن نأتى بنماذج من المقابلة تضم ثلاثة أشياء يقابلها مثلها .

● قال ﷺ من خطبة : « **ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة** » [2].

إن أطراف المقابلة هى الدنيا وارتحالها مدبرة ، يقابلها الآخرة ومجيئها ـ الارتحال عكس الارتحال ـ مقبلة .

● وقوله ﷺ : « المؤمن غرّ كريم ، والفاجر خبٌّ لئيم »[3].

إن أطراف المقابلة الثلاثة من الوضوح بمكان .

● وقوله ﷺ : « **الدنياسجن المؤمن وبلاؤه ، وجنة الكافر ورخاؤه** »[4].

---

(١) رياض الصالحين : باب زيارة أهل الخير ومجالستهم ، ص : ١٦٤ ، والمجازات النبوية ، ص : ٦٥ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ١٣٩ .

(٣) أعلام النبوة ، ص : ١٦٧ .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

تلك كانت نماذج من أحاديث رسول الله التى احتوت ضَرْبَىْ الطباق والمقابلة فى فن البديع ، وفيها تتجلى الفصاحة المحمدية والبيان النبوى الذى استمد منه كثير من فنون البلاغة العربية .

(٢)

لزوم ما لا يلزم :

لا يخطر على بال أحد أن رسول الله ﷺ قد عمد إلى قول ما تنطبق عليه مظاهر الفن البديعى المتأخر « لزوم مالا يلزم » ذلك أن الذين أسهموا بإبداعهم فى هذا الفن قد خلوا إلى أنفسهم ساعات طوالا لكى يدبجوا هذا اللون البديعى من أمثال المعرى فى الشعر ، وكتاب العصر المملوكى فى النثر ، وتبدو الصنعة المتعسفة فى كلامهم شعرا كان أو نثرا .

إن ضياء الدين بن الأثير يصف هذا الفن فيقول : إنه من أشق هذه الصناعة مذهبا ، وأبعدها مسلكا ، وذلك لأن مؤلفه يلتزم ما لا يلزم[1] .

وأما رسول الله ﷺ فبالقطع لم يعمد إلى ذلك ولا جال بخاطره أن يرتب كلامه على ذلك النسق البديعى الذى شاع متأخرا زمانا ، وإنما هى فصاحته الأصيلة وبلاغته التى أنعم الله بها عليه ، وتكوينه البيانى الربانى ، وتملكه لمجامع الكلم ، كل ذلك جعل كلامه ﷺ يستوعب مختلف أساليب البيان ، ويستعمل أغلب ضروب البديع .

إن لزوم ما لا يلزم يقال له « الإعنات » ـ وهى تسمية صادقة دقيقة ـ يرد فى المنثور والمنظوم على حدّ سواء ، وهو التزام حرف مخصوص قبل حرف الروىّ ، وهو قليل فى «الكتاب العزيز » ومن أمثلة ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَٱلطُّورِ ۞ وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ ﴾ وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴾ وقوله ـ تعالى ـ ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ۞ فِي سِدۡرٍ مَّخۡضُودٍ ۞ وَطَلۡحٍ مَّنضُودٍ ﴾ .

---

(١) المثل السائر ١/ ٤٠١ .

وفى الحديث الشريف نتف من هذا اللون من البديع [1]، ولكنها بالقطع غير مقصودة ، مثل قوله ﷺ : « **ولْيُحْسِنْ عمله ، وَلْيُقَصِّر أمله** » وقوله : « **إن أفضل الناس عبدٌ أخذ من الدنيا الكفاف ، وصاحَبَ فيها العفاف** » وقوله ﷺ فى صفة الدنيا : « **واهجروا لذيذ عاجلها لكريه آجلها** » .

وهذا الضرب من فن البديع قليل أيضا فى السنة الشريفة ، مثل قلته فى القرآن الكريم .

(٣)

الإرصاد :

هو أن يكون أول الكلام مرصدا لفهم آخره ، ويكون مشعراً به ، فمتى قرع سمع الإنسان أول الكلام فإنه يفهم آخره ، ويسرى ذلك على المنثور والمنظوم .

وهو فى الشعر كثير ، كما أنه موجود فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع وأكثر من آية على نحو ما جاء فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ﴾ فإذا قرع السمع جملة ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ ﴾ توقع أن يسمع بعدها ﴿ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ﴾ [2] . ويقع ذلك أيضا فى مثل قوله ـ تعالى ـ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [3] .

ومثلما وقع الإرصاد فى القرآن الكريم فإنه جرى أيضا على لسان سيد المرسلين ﷺ فى مثل قوله : « **فما بعد الموت من مستعتب ، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار** » فمتى سمع السامع قوله : « فما بعد الدنيا من دار » فإنه يتوقع أن بقية الكلام هو « **إلا الجنة أو النار** » لما بينهما من شدة الملاءمة .

---

(١) الطراز ٢ / ٣٩٨ .
(٢) المثل السائر ٣ / ٢٤٦ .
(٣) الطراز ٢ / ٣٢١ .

ومن الإرصاد أيضا قول رسول اللهﷺ لما سار لفتح خيبر ، إذ أنه حين رآها قال : «**الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين**» فقولهﷺ : «**إذا نزلنا بساحة قوم**» فيه وعيد بالبوار ، ومن ثم فهو دال على قوله : «**فساء صباح المنذرين**»[1].

ويتعدد الإرصاد فى قولهﷺ فى صفة القرآن وتتكرر صيغه . والعبارات المقصودة بذلك قولهﷺ : « **فإذا التبست عليكم الأمور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن ، فإنه شافع مشفع ، وشاهد مصدق ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار ، وهو أوضح دليل إلى خير سبيل ، من قال به صُدِّق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل** »[2].

(٤)

اللّفُّ والنشر:

هو فى مفهوم البلاغيين : ذكر الشيئين على جهة الاجتماع مطلقين عن التقييد ، ثم يُوَفَّى بما يليق بكل واحد منهما ، اتكالا على أن السامع ـ لوضوح الحال ـ يرد إلى كل واحد منهما ما يليق به ، وهو فى الحقيقة جمع وتفريق ، واشتقاقهما من قولهم : لفّ الثوب : إذا جمعه ، ونَشر الثياب : إذا فرّقها .

ومثال اللف والنشر من القرآن الكريم قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

فجمع بين الليل والنهار بواو العطف ، ثم أضاف إلى كل واحد منهما ما يليق به ، فأضاف السكون إلى الليل ؛ لأن حركات الخلق تسكن ليلا ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[3] إضافة إلى النهار ؛ لأن ابتغاء الأرزاق إنما يكون نهارا ،

---

(١) المصدر السابق ٢ / ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

(٢) الطراز ٢ / ٣٢٤ .

(٣) القصص ، الآية : ٧٣ .

واكتفى فى الإضافة بها يعلم من ظاهر الحال ، وهو أن السكون مضاف إلى الليل لما فيه من الاستراحة ، وأن الابتغاء مضاف إلى النهار لما يظهر فيه من الحركة ، ولم يقل : جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ، والنهار لتبتغوا من فضله إيثارا لما يظهر فى اللف بعده النشر(١).

أما اللف والنشر فى كلام رسول اللهﷺ فمثل قوله :

« **فإن المرء بين يومين : يوم قد مضى أحصى فيه عمله فحتم عليه ، ويوم قد بقى لا يدرى لعله لا يصل إليه** » فقوله : « **بين يومين** » يكون من اللف لاشتمالها على ما يكون ماضيا ومستقبلا ، وهذه هى فائدة اللف ، ثم إذا نشرهما بعد ذلك بقوله : « **يوم قد مضى أحصى فيه عمله** » فهذا يتناول الماضى ، « **ويوم قد بقى لا يدرى ما يفعل فيه** » وهذا يتناول المستقبل ، فهذه حقيقة اللف والنشر ، ولو لم يرد اللف والنشر لقال فيه : إن المرء بين يومين ، يوم قد مضى ويوم قد بقى(٢) .

ومن هذا أيضا قولهﷺ : « **وقد رأيتم الليل والنهار كيف يبليان كل جديد ، ويقربان كل بعيد ، ويأتيان بكل موعود** » فلفّ الليل والنهار جميعا ، ثم فصّل أحكامهما بعد ذلك ، ولو لم يرد اللف والنشر لقال : وقد رأيتم الليل كيف يبلى كل جديد ، ويقرب كل بعيد ، ويأتى بكل موعود ، ورأيتم النهار كيف يبلى كل جديد ويقرب كل بعيد ويأتى بكل موعود .

ومن اللف والنشر كذلك فى كلام الرسولﷺ قوله : « **إنما يؤتى الناس يوم القيامة من إحدى ثلاث : إما من شبهة فى الدين ارتكبوها ، أو شهوة للذّة آثروها ، أو عصبية لحميّة أعملوها ، فإذا لاحت لكم شبهة فاجلوها باليقين ، وإذا عرضت لكم شهوة فاقمعوها بالزهد ، وإذا عنّت لكم عصبية فادرأوها بالعفو** » .

إن هذا الكلام حوى قدرا جميلا من لطائف الإجمال والتفصيل ، واشتمل على

---

(١) الطراز ٢ / ٤٠٤ .

(٢) المصدر السابق ٤٠٥ .

محاسن اللف والنشر ، ومن يتأمل كلام الرسولﷺ يجد فيه نماذج من هذا الضرب البليغ من ضروب البلاغة والبديع .

إن فصاحة رسول الله وبيانه لم يقفا عند حدود ما تعارف عليه معاصروه ـ وهم من صفوة البلغاء وزبدة الفصحاء ـ وإنما امتد على مساحة الأرض والزمان كنزا زاخرا للبلاغة ، ومعينا لا ينضب من البيان .

* * *

تم بحمد الله وفضله قبيل فجر السبت ٥ من المحرم ١٤١٦هـ الموافق ٣ من يونية ١٩٩٥م، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .



مراجع الكتاب

- القرآن الكريم .
- الإتقان فى علوم القرآن : لجلال الدين السيوطى ٩٩١ ط الحلبى .
- كتاب الأحاديث الأربعين فى أمثال أفصح العالمين ليوسف بن إسماعيل النبهانى ١٣٥٠ هـ .
- كتاب الأحاديث الأربعين النووية ، للإمام أبى زكريا يحيى بن شرف النووى ٦٧٦ هـ .
- الأحاديث القدسية ، إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة .
- الأحاديث القدسية الأربعينيّة ، للدكتور عز الدين إبراهيم .
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، لأبى الحسن الماوردى ٤٥٠ هـ طبعة الحلبى .
- أخبار القضاة : للقاضى وكيع محمد بن خلف بن حيان ٣٠٦ هـ طبعة عالم الكتب ، بيروت .
- أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار : أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق ، ت : ٢٤٤ هـ . ط : الماجدية - مكة .
- أخلاق النبى وآدابه : للحافظ أبى محمد عبدالله بن جعفر الأصبهانى ٣٦٩ هـ المعروف بأبى الشيخ . ط الدار المصرية اللبنانية / مصر .
- أدب الدنيا والدين : لأبى الحسن الماوردى ط الدار المصرية اللبنانية / مصر .
- أدب الكاتب : لأبى محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الكوفى الدينورى ٢٧٦ هـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية / مصر .
- الأدب المفرد : للإمام البخارى طبعة السلفية القاهرة .
- الأذكار : للإمام الحافظ أبى زكريا يحيى بن شرف النووى ط الدار المصرية اللبنانية .

- الاستيعاب فى معرفة الصحاب : لأبى عمر بن عبد البر ط نهضة مصر .
- أسرار البلاغة : لعبد القاهر الجرجانى ، طبعات عديدة .
- إسلام النجاشى : للواء محمود شيت خطاب ، ط بغداد .
- الإسلام والعلاقات الدولية : للدكتور محمد الصادق عفيفى ، دار الرائد العربى بيروت .
- أسنى المطالب فى أحاديث مختلفة المراتب : للشيخ محمد السيد الحوت إدارة إحياء التراث الإسلامى / مصر .
- الإصابة فى تمييز الصحابة : للإمام شيخ الإسلام أحمد بن على بن حجر العسقلانى المتوفى ٨٥٢ هـ ، ط دار صادر بيروت .
- أصول علم السياسة : للدكتور طه بدوى ، جامعة الإسكندرية .
- إعجاز القرآن : لأبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى ٤٠٣ هـ ، دار المعارف ، القاهرة .
- إعجاز القرآن للفقيه المحدث أبى سليمان أحمد بن محمد الخطابى ٣٨٨ هـ .
- إعجاز القرآن : لمصطفى صادق الرافعى ، دار الكتاب العربى ، بيروت .
- أعلام الحديث فى شرح حديث البخارى : لأبى سليمان الخطابى . تحقيق الدكتور محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود . أم القرى .
- إعلام الساجد بأحكام المساجد : لمحمد بن عبد الله الزركشى ٧٩٤ هـ عالم الكتب / بيروت .
- إعلام المسلم بما اتفق عليه البخارى ومسلم فى الترغيب والترهيب : سميح عباس ، الدار المصرية اللبنانية .
- أعلام النبوة لأبى الحسن الماوردى ، دار إحياء العلوم / بيروت .
- أعلام النساء : لعمر رضا كحالة - ط دمشق .
- أقضية رسول ﷺ لابن الطلاع أبى عبد الله محمد بن فرج المالكى ٤٩٧ هـ تحقيق محمد ضياء الرحمن الأعظمى ، دار الكتاب اللبنانى / مصر .

ـ الأمالى : للشريف المرتضى على بن الحسين الموسوى ٤٣٠ هـ ، طـ القاهرة .
ـ إمتاع الأسماع لتقى الدين أبى العباس أحمد بن على المقريزى ٨٤٥ هـ . ط : القاهرة
ـ الأمثال : لأبى عبيد القاسم بن سلام ٢٢٤ هـ . جامعة أم القرى .
ـ الأمثال : لأبى هلال العسكرى (سنذكره بعنوانه الأصلى وهو « جمهرة الأمثال » فى مكانه من الترتيب الهجائى) المؤسسة العربية الحديثة / القاهرة .
ـ الأمثال : للميدانى (وسوف نذكره بعنوانه الأصلى وهو : مجمع الأمثال) .
ـ الأمثال للواحدى (وسوف نذكره بعنوانه الأصلى وهو : الوسيط فى الأمثال) طـ الكويت .
ـ أمثال الحديث : لابن خلاد الرامهرمزى ٣٦٠ هـ . ويسمى أيضا : أمثال النبى .
ـ الأمثال والحكم : لأبى الحسن الماوردى ، دار الحرمين ، قطر .
ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوى) لناصر الدين أبى سعيد عبدالله ابن عمر الشيرازى البيضاوى ٦٨٥ هـ مؤسسه شعبان للنشر والتوزيع ، بيروت .
ـ بحر العلوم (تفسير) لأبى الليث نصر بن محمد السمرقندى ٣٧٣ هـ طـ الإرشاد / بغداد .
ـ البداية والنهاية للحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير ٧٧٤ هـ ، طـ بيروت .
ـ البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن : لكمال الدين عبد الواحد الزملكانى ٦٥١ هـ تحقيق د . أحمد مطلوب .
ـ بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز : لمجد الدين الفيروزابادى ٨١٧ هـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
ـ بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد : للقاضى عياض بن موسى اليحصبى السبتى ٥٤٤ هـ ، طـ وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ـ الرباط .
ـ بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة : لجلال الدين السيوطى ٩١١ هـ .
ـ بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب : لمحمود شكرى الألوسى ، مطبعة الرحمانية .

- البيان والتبيين : للجاحظ ٢٥٥ هـ لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- تاريخ الإسلام : للإمام أبى عبدالله شمس الدين الذهبى ٧٤٨ هـ مجلد المغازى ، دار الكتاب اللبنانى / القاهرة .
- تاريخ بغداد : للخطيب البغدادى أبى بكر حمد بن على ٤٦٣هـ دار البيان العربى / بيروت .
- تاريخ التراث العربى « المجلد الأول » لفؤاد سيزجن ، ترجمة الدكتور محمود حجازى .
- تاريخ الرسل والملوك : لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ٣١٠ هـ ، مكتبة خياط / بيروت .
- التاريخ الصغير : للإمام محمد بن إسماعيل البخارى ٢٥٦ هـ دار التراث ، القاهرة .
- التبر المسبوك فى نصائح الملوك : للإمام أبى حامد الغزالى ٥٠٥ هـ ، ط بيروت .
- تحفة المودود فى أحكام المولود : لمحمد بن أبى بكر بن أيوب بن قيم الجوزية ٧٥١ هـ دار الكتب العلمية / بيروت .
- تذكرة الحفاظ : للإمام أبى عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد الذهبى ٧٤٨ هـ ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت .
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذاهب مالك : للقاضى عياض بن موسى اليحصبى ٥٤٤ هـ ، مكتبة الحياة ، بيروت .
- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف : للحافظ زكى الدين عبد العظيم المنذرى ٦٥٦ هـ . الدار المصرية اللبنانية .
- التعريفات : للشريف على بن محمد الجرجانى ٨١٦ هـ .
- تهذيب الأسماء واللغات : للإمام يحيى بن شرف الدين النووى ٦٧٦ هـ ط المنيرية / القاهرة .
- تهذيب التهذيب : لشيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى ٨٥٢ هـ ، مكتبة صادر ، بيروت .

- جامع مسانيد النساء ، وذكرهن وأحوالهن : لإبراهيم محمد الجمل ، الدار المصرية اللبنانية .
- جامع الأصول من أحاديث الرسول : للمحدث الأصولى مجد الدين أبى السعادات المبارك بن محمد بن الأثير ٦٠٦ هـ ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة .
- جامع البيان فى تأويل القرآن (تفسير) لأبى جعفر محمدبن جرير الطبرى ٣١٠ هـ ، مصطفى البابى الحلبى .
- جامع التحصيل فى أحكام المراسيل : للحافظ صلاح الدين أبى سعيد خليل بن كيكلدى العلائى ، طـ بغداد .
- الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير : للحافظ جلال الدين السيوطى ٩١١ هـ ، طـ مصطفى البابى الحلبى .
- جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم : للإمام الحافظ زين الدين عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد بن رجب البغدادى ٧٩٥ هـ تحقيق الدكتور محمد الأحمدى أبو النور، إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية / القاهرة .
- الجامع لأحكام القرآن (تفسير) لأبى عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ٦٧١ هـ ، دار القلم ، القاهرة .
- الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع : للخطيب البغدادى (أبى بكر أحمد بن عل) ٤٦٣ هـ مكتبة الفلا ح ، الكويت .
- جمع الجوامع (أو الجامع الكبير) للإمام الحافظ جلال الدين السيوطى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد ، جمعهما محمد بن محمد بن سليمان الرودانى المغربى ، إصدار إبراهيم أمين فودة ، مكة المكرمة .
- جمهرة الأمثال : لأبى هلال العسكرى ، الحسن بن عبدالله ٣٩٥ هـ تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ، و د . عبد المجيد قطامش ، القاهرة .
- جمهرة خطب العرب ، محمد زكى صفوت ، طـ مصطفى البابى الحلبى .

- حجة الوداع : لمحمد زكريا الكاندهلوى ، منشورات المجلس العلمى بالهند
- حديث أم زرع (انظر بغية الرائد فى حرف الباء) للقاضى عياض .
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : لأبى نعيم الأصفهانى ٤٣٠ هـ . دار صادر بيروت .
- الحماسة الشجرية : لضياء الدين أبى السعادات هبة الله بن الشجرى ٥٤٢ هـ دار المعرفة / بيروت .
- حياة محمد ﷺ للدكتور محمد حسين هيكل باشا ، دار المعارف ، القاهرة .
- خزانة الأدب ولب لباب العرب : لعبد القادر بن عمر البغدادى ١٠٩٣ هـ ، الهيئة المصرية للكتاب .
- الخصائص الكبرى : للإمام الحافظ جلال الدين السيوطى ، دار الكتب العلمية / بيروت .
- الدرر فى اختصار المغازى والسير: لأبى عمر يوسف بن عبد البر ٤٦٣ هـ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : للبيهقى أحمد بن الحسين ٤٥٨ هـ دار الكتب العلمية / بيروت .
- ديوان حسان بن ثابت ، دار إحياء التراث العربى / بيروت .
- الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف : لمجد الدين الفيروزابادى ٨١٧ هـ .
- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين : لأبى زكريا يحيى بن شرف النووى ، مكتبة عبد الرحمن محمد بالأزهر / القاهرة .
- زاد المعاد فى هدى خير العباد : لشمس الدين أبى عبدالله محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية ٧٥١ هـ ط مصطفى البابى الحلبى .
- سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد : للإمام محمد بن يوسف الصالحى الشامى ٩٤٢ هـ ، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

- سنن الترمذى (الجامع الصحيح) لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة ٢٩٧ هـ تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ، دار الحديث القاهرة .
- سنن الدارمى (مسند الدارمى) للحافظ أبى محمد عبدالله بن عبد الرحمن بن الفضل ٢٥٥ هـ .
- سنن أبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى الأزدى ٢٧٥ هـ الدار المصرية اللبنانية / القاهرة .
- سنن ابن ماجه : أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ٢٧٣ هـ تحقيق محمد مصطفى الأعظمى ، الشركة السعودية العربية .
- سنن النسائى : الحافظ أبى عبد الرحمن محمد بن شعيب بن على . . . بن دينار ٣٠٣ هـ بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة .
- السير : لمحمد بن الحسن الشيبانى ١٨٩ هـ .
- السيرة النبوية : لابن هشام عبد الملك ٢١٣ هـ تحقيق الأستاذ مصطفى السقا وآخرين مكتبة مصطفى البابى الحلبى / القاهرة .
- السيرة النبوية لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ٣١٠ هـ تحقيق جمال بدران الدار المصرية اللبنانية / القاهرة .
- شرح السنة : للحسين بن مسعود بن محمد البغوى الحافظ ٥١٠ هـ المكتب الإسلامى ، دمشق .
- شرح الشفا فى شمائل صاحب الاصطفا : للإمام نور الدين القارى الهروى ١٠١٤ هـ تحقيق الشيخ حسنين محمد مخلوف ، مطبعة المدنى ، القاهرة .
- الشعر والشعراء : لابن قتيبة الدينورى ٢٧٦ هـ / تحقيق محمود شاكر ، دار المعارف .
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى : للقاضى عياض بن موسى اليحصبى ، مصطفى البابى الحلبى .
- الشفا فى مواعظ الملوك : لعبد الرحمن بن الجوزى ٥٩٧ هـ دار الحرمين / الدوحة .

- الشمائل المحمدية : للترمذى بشرح البيجورى .
- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا : لأبى العباس أحمد بن على القلقشندى ٨٢١ هـ وزارة الثقافة والإرشاد القومى / مصر .
- صلح الحديبية الفتح المبين : لشوقى أبو خليل ، دار الفكر ، دمشق .
- صحيح البخارى ، دار إحياء التراث العربى / بيروت .
- صحيح البخارى ، لجنة إحياء كتب السنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة .
- صحيح مسلم ، شرح الإمام النووى ٦٧٦ هـ ، المطبعة العصرية / القاهرة .
- طبقات الحفاظ : للحافظ جلال الدين السيوطى ، مكتبة وهبة ، القاهرة .
- طبقات الشافعية : لتاج الدين السبكى ٧٧١ هـ ، تحقيق محمود الطناحى ، وعبد الفتاح الحلو .
- طبقات الشعراء : لابن المعتز ٢٩٦ هـ ، تحقيق عبد الستار فراج ، دار المعارف / القاهرة .- الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٣٠ هـ ، دار صادر / بيروت .
- الطبقات الكبرى : للإمام عبد الوهاب الشعرانى ٩٧٣ هـ ، مصطفى البابى الحلبى .
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز ؛ للإمام يحيى بن حمزة العلوى ٧٤٥ هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- العقد الفريد : لأحمد بن عبد ربه ٣٢٧ هـ ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار الكتاب العربى / بيروت .
- عقيدة الموحدين : لعبد الله بن سعدى الغامدى ، تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز .
- علم الحديث : لشيخ الإسلام ، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ٧٢٨ هـ عالم الكتب ، بيروت .
- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده : لأبى على الحسن بن رشيق القيروانى ٤٥٦ هـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار الجيل / بيروت .

ـ عمل اليوم والليلة لابن السنّى ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة .

ـ عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير : لفتح الدين أبى الفتح محمد بن سيد الناس اليعمرى الإشبيلى الأندلسى المصرى ٧٤٣ هـ ، دار المعرفة / بيروت .

ـ عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى ٢٧٦ هـ ، وزارة الثقافة والإرشاد / القاهرة .

ـ غريب الحديث : لابن قتيبة الدينورى ٢٧٦ هـ .

ـ غريب الحديث : لمجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير ٦٠٦ هـ ، وعنوانه الأصلى (النهاية فى غريب الحديث) .

ـ غريب القرآن : للراغب الأصفهانى ٥٦٥ هـ ، وعنوانه الأصلى (المفردات فى غريب القرآن) مكتبة الأنجلو المصرية .

ـ الفتاوى الكبرى : لشيخ الإسلام ابن تيمية ٧٢٨ هـ ، تحقيق الشيخ حسنين محمد مخلوف ، دار المعرفة / بيروت .

ـ فتح البارى شرح صحيح البخارى : لشيخ الإسلام أحمد بن حجر العسقلانى، طـ مصطفى البابى الحلبى .

ـ فهرسة ما رواه ابن خير عن شيوخه : لأبى بكر محمد بن خير بن عمر اللمتونى الإشبيلى ٥٧٥ هـ ، دار الآفاق الجديدة / بيروت .

ـ فى ظلال القرآن : للأستاذ سيد قطب ١٩٦٥ م ، دار الشروق ، القاهرة .

ـ فى النظام الإسلامى للدولة الإسلامية : للدكتور محمد سليم العوا ، المكتب المصرى الحديث / القاهرة .

ـ الكامل فى الأدب : لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد ٢٨٦ هـ ، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر .

ـ الكامل فى التاريخ : لأبى الحسن عز الدين محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الجزرى ٦٣٠ هـ ، دار الكتاب العربى / بيروت .

ـ الكشاف (فى تفسير القرآن) لجار الله محمود بن عمر الزمخشرى ٥٣٨ هـ .

ـ الكشف والبيان : لأبى عبد الله محمد بن سعيد القلهاتى ، تحقيق الدكتورة سيدة الكاشف طـ القاهرة .

ـ لسان الميزان : لشيخ الإسلام أحمد بن حجر العسقلانى ٨٥٢ هـ ، ط بيروت ١٣٩٠ هـ .

ـ المتجر الرابح فى ثواب العمل الصالح : لأبى محمد شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطى ٧٠٥ هـ ، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش ، النهضة المدنية ، مكة المكرمة .

ـ المتخير من حديث رسول الله ﷺ تخيّره جمال الدين الألوسى ، بغداد .

ـ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر : لضياء الدين أبى الفتح نصر الله بن محمد بن الأثير ٦٣٧ هـ ، تحقيق الدكتور أحمد الحوفى والدكتور بدوى طبانة ، دار الرفاعى ، الرياض .

ـ المجازات النبوية : للشريف الرضى أبى الحسن محمد بن الحسين ٤٠٦ هـ مصطفى البابى الحلبى .

ـ مجمع الأمثال : للميدانى أحمد بن محمد ٥١٨ هـ ، ط القاهرة .

ـ مجموعة الوثائق النبوية للعهد النبوى والخلافة الراشدة : للدكتور محمد حميد الله ، دار النفائس .

ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر: لأبى الحسن على بن الحسين المسعودى ٣٤٦ هـ. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ المكتبة التجارية الكبرى / القاهرة.

ـ المسند : للإمام أحمد بن محمد بن حنبل ٢٤١ هـ شرح الشيخ أحمد محمد شاكر، دار المعارف / القاهرة .

ـ مشارق الأنوار على صحاح الآثار : للقاضى أبى الفضل عياض بن موسى اليحصبى السبتى ٥٤٤ هـ ، دار التراث / القاهرة .

ـ مطلع الفرائد ومجمع الفوائد : لجمال الدين محمد بن محمد بن نباتة المصرى ، مجمع اللغة العربية ، دمشق .

ـ معاهد التنصيص للعباسى .

ـ معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) لياقوت الحموى الرومى ٦٢٦ هـ ، مرجوليوث .

ـ معجم البلاغة العربية : للدكتور بدوى طبانة ، دار المنار ، جدة .

ـ معجم البلدان : لياقوت الحموى الرومى ٦٢٦ هـ دار صادر / بيروت .

ـ معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ للدكتور صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد / بيروت .

ـ المغازى النبوية للواقدى : محمد بن عمر ٢٠٧ هـ .

ـ مفتاح العلوم : لأبى يعقوب يوسف بن أبى بكر محمد بن على السكاكى ، ت ٦٢٦ هـ ، طبع مطبعة التقدم العلمية بمصر .

ـ مفتاح كنوز السنة للدكتور أ . ى . فنسنك ، ترجمة محمد فؤاد عبد الباقى ، دار إحياء التراث العربى .

ـ المفردات فى غريب القرآن : للراغب الأصفهانى الحسين بن محمد ، ٥٦٥ هـ، مكتبة الأنجلو المصرية .

ـ المفهم فى شرح صحيح مسلم : لأبى العباس أحمد بن عمر الأنصارى القرطبى ٦٥٦ هـ ، دار الكتاب اللبنانى ، القاهرة .

ـ منال الطالب فى شرح طوال الغرائب : للمحدث الأصولى مجد الدين أبى السعادات مبارك بن محمد بن الأثير ٦٠٦ هـ جامعة أم القرى .

ـ المواهب اللدنيّة بالمنح المحمدية : للشيخ العلامة أحمد بن محمد القسطلانى ٩٢٣ هـ، المكتب الإسلامى ، دمشق .

ـ موطأ الإمام مالك ١٧٩ هـ وشرحه تنوير الحوالك لجلال الدين السيوطى ٩١١ هـ ، مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة .

ـ ميزان الاعتدال فى نقد الرجال : للإمام محمد بن أحمد الذهبى ٧٤٨ هـ ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .

- النبى فى القرآن الكريم : للإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق ، ط الأمانة العامة للدعوة الإسلامية .

- نثر الدرّ : للوزير الكاتب أبى سعد منصور بن الحسين الآبى ٤٢١ هـ ، الهيئة المصرية للكتاب .

- نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ للدكتور عون الشريف قاسم، دار الكتاب اللبنانى .

- نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى : لظافر القاسمى ، بيروت .

- نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية : للشيخ عبد الحى الكتانى دار الكتاب العربى / بيروت .

- نقد النثر : لقدامة بن جعفر ٣٣٧ هـ .

- نهاية الأرب فى فنون الأدب : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى . طبع دار الكتب المصرية .

- النهاية فى غريب الحديث للحافظ مجد الدين أبى السعادات المبارك بن محمد بن الأثير ٦٠٦ هـ .

- هداية البارى إلى صحيح البخارى : للسيد عبد الرحيم عنبر الطهطاوى ، دار الرائد العربى / بيروت .

- الوثائق السياسية اليمينة : لمحمد بن الأكوع ، مركز الدراسات / صنعاء .

- وثيقة إنشاء الدولة الإسلامية : للدكتور جعفر عبد السلام ، بحث بمجلة كلية الشريعة والقانون ، عدد (٢) جامعة الأزهر .

- الوسيط فى الأمثال : للواحدى ، على بن أحمد ٤٦٨ هـ دار الكتب الثقافية / الكويت .

- وصايا الرسول ﷺ لعطية محمد سالم ، دار التراث ، المدينة المنورة .
- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى : للسمهودى ، على بن عبد الله بن أحمد ٩١١ هـ .
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : للقاضى شمس الدين أحمد بن خلكان ٦٨١ هـ ط دار الثقافة / بيروت .





فهارس الكتاب



فهرس الآيات

فهرس الأحاديث النبوية

(حرف الألف)

(المحلى بأل من حرف الألف)

(حروف الباء إلى الظاء ..)

(المحلى بأل من حرف الباء إلى حرف الظاء)

(المحلى بأل من حرف العين)

(حرف الغين)

(حرف الفاء)

(حرف القاف)

(حرف الكاف)

(حرف اللام)

(حرف الميم)

(المحلى بأل من حرف الميم)

(حـرف النـون)

(المحلى بأل من حرف النون)

(حرف الهاء)

(حرف الواو)

(المحلى بأل من حرف الواو)

(حرف « لا »)

(حرف الياء)

(المحلى بأل من حرف الياء)



فهرس الأعـلام

الاســم	الصفحـات
حـرف الألف	
آدم	١٢٥ ، ٢٨٩ ، ٣١٧ ، ٥٧٠ ، ٧٢٦ ، ٧٤٥
آربرى	٤٧٥
آسية بنت مزاحم	٦٦ ، ٣٩٤ ، ٤٤٢
الآبى	٢٧٥ ، ٣٧٩
أبان بن سعيد بن العاص	٢١٨
إبراهيم عليه السلام	٣٧ ، ٣٩ ، ١٢٣ ، ٢٥٨ ، ٢٩٧ ، ٣١٤ ، ٣٥١
إبراهيم ابن النبى ﷺ	١٢٣
إبراهيم بن محمد بن عرفة (نفطويه)	٤٣٢
إبراهيم بن هرمة	٣٠٣
ابن أبى أوفى	٧٣
ابن أبى حاتم	١٩٠
ابن أبى الدنيا	٣٨٦ ، ٤٥٠
ابن أبى عاصم	٨٤
ابن إسحاق	٨٧ ، ٩٠ ، ٢٩٤ ، ٣٠٨ ، ٥٦٣ ، ٦٤٠ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٩٩
ابن الأعرابى	٥٨٩

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف السين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حـرف الغين

حـرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس القبائل

حرف التاء

حرف الزاى

حرف السين

حرف الشين

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الميم

حرف الياء

فهرس القوافي

صدر البيت	قافية البيت	بحره	الصفحة	السطر	الشاعر
			الهمزة		
مستضحك	الأقذاءُ	الكامل	٤٥٢	١٠	الحسين بن مطير
وأحْسَنُ منك	النّساءُ	الوافر	٤٨	٩	حسّان بن ثابت
ألا أَبْلغْ	الخَفَاءُ	الوافر	٥٥٢	١	حسّان بن ثابت
عَفَتْ	خَلاَءُ	الوافر	٦٧٨	١	حسّان بن ثابت
يا بَني	لجـاءِ	الخفيف	٦٧٦	١٧	ضرار بن الخطاب الفِهْرى
عدمت	كداءِ	الوافر	٢٨٨	١٨	حسان بن ثابت
إذا أَدَّيتني	الحساء	الوافر	٦٦٩	١٢	عبد الله بن رواحة
			(ب)		
وقد قال	غِبًّا	الوافر	٤٥٨	١	(مجهول)
إذا سقط	غضابا	الوافر	٧٤٤	١٦	جرير بن عطية
للحرب	وحَسَّابُ	البسيط	٤٩٢	٢٠	(مجهول)
سائل	الهَرَبِ	البسيط	٦٨٩	٦	كعب بن مالك
رأيتك	كعْبِ	الطويل	١٥٩	٢	قطن بن حارثة العليمى
نَصَرَ	بضرابِ	الكامل	٦٥٦	١٤	على بن أبى طالب
أعيتْ	الأعرابِ	الكامل	٦٦١	٤	كعب بن مالك
فدعْ	كعابِ	الكامل	٦٦٠	٨	حسان بن ثابت
فيها الجيادُ	الأقراب	الكامل	٦٦٠	١	عبد الله بن الزبعرى
عرفت	القشيب	الوافر	٦٥٢	١٣	حسان بن ثابت
			(ت)		
يا نَفْسُ	تَمُوتي	الرجز	٥٤٨ ، ٧٠١	٢١ ، ٢٠	عبد الله بن رواحة
كم قَدْ	الفلوات	الكامل	٥٣٤ ، ٥٦٥	٨ ، ٧	خفاف بن نضلة

هل أنتِ	دميتِ	الرجز	٥٤٢	١٣	عبد الله بن رواحة
		(خ)			
خابت	وفُضُوحِ	المتقارب	٦٥١	١٤	حسان بن ثابت
		(د)			
لكنني	الزَّبدا	البسيط	٥٤٦ ، ٦٦٦	٢٠ ، ١٠	عبد الله بن رواحة
يا ربَّنا	وأمردا	الرَّجز	٣٢ ، ٦٢٦	٨ ، ١	الشيماء
يارَبّ	محمدًا	الرَّجز	٢٨٤ ، ٥٦٢	١٢ ، ١٠	عمرو بن سالم الخزاعى
لا تيأسَنَّ	شدائدُ	الكامل	٤٥٩	١١	(مجهول)
وإنّ ولاة	العَبْدُ	الطويل	٥٥٠	٢١	حسان بن ثابت
بكىٰ	وتبعدُ	الطويل	٦٧٣	٩	بديل بن عبد مناف
وأنت إله	أشهـدُ	الطويل	٥٥٦	٧	حسان بن ثابت
أغرُّ	ويُشْهَدُ	الطويل	٥٥٥	١٥	حسان بن ثابت
طرقتْ	الأغيَدُ	الكامل	٦٩٤	١	كعب بن مالك
ألا أبلغَا	حميدُ	الطويل	٤٦٠	٨	أبو عزَّة الشاعر
ألا بلغ	المردّى	الوافر	٤٧٤	٩	الطفيل بن عمرو الدوسي
ذكرتُ	وصلددِ	الطويل	١٥٣ ، ٥٦١	١٢ ، ٥	ذو المشعار ، مالك بن نَمَط
أأنت الذي	اشْهَدِ	الطويل	٥٦٣ ، ٦٧٢	١١ ، ١٢	أنس بن زنيم
ستُبدي	تزوِّدِ	الطويل	٥٣٧	١٤	طرفة بن العبد
ولولا الشعرُ	لبيدِ	الوافر	٥٣١ ، ٥٣٨	١٦ ، ٧	محمد بن إدريس الشافعي
لقد علمتْ	الشديدِ	الوافر	٦٤٦	٦	حسان بن ثابت
قد انقضت	بالعيدِ	المنسرح	٧٤٠	١٦	عيد الله بن المعتز
أرقتُ	الصعيدِ	الوافر	٦٢٠	٩	صَقيَّة بنت عبد المطَّلب
		(ر)			
في الذاهبين	بصائرْ	مجزوء الكامل	٥٨١	٩	قس بن ساعدة
محمدُ	غَبَرْ	الرجز	٦٢٥	١٢	الشيماء (حذافة بنت الحارث)

لك الحمدُ	المطرْ	المتقارب	٥٧٢	٢	رجل من كنانة
اللهمَّ	والمهاجرهْ	الرَّجز	١٦٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤٩	٣ ، ١٢ ، ٨	عبد الله بن رواحة
سمَّاهُ	عمْرا	الرجز	٥٤٣	٧	من أرجازهم فى حفر الخندق
بلغنا	مَظْهرا	الطويل	٥٣٦	١٦	النابغة الجعدى
وقد لاحَ	نَوّرا	الطويل	٧٤٠	١٣	قيس بن الخطيم
ما أنت	الخابرُ	السَّريع	٤٢٤	١٦	(مجهول)
لو كنتُ	القدرُ	البسيط	٦٠٥	٨	كعب بن زهير
فثبَّت	نُصِرُوا	البسيط	٥٤٧ ، ٦٦٦	٣ ، ١٦	عبد الله بن رواحة
بشيبة الحمد	المطرُ	البسيط	٣٦ ، ٥٧٤	١ ، ٦	رُقيقة بنت أبى صيفى
امْنُنْ	وننتظرُ	البسيط	٦٢٥	٤	أبو جرول الجُشمى
تكفيه	الغَمَرُ	البسيط	٤٥٥	٤	أعشى باهلة
تأوّبني	مسهرُ	الطويل	٧٠١	١٨	حسان بن ثابت
عجبتُ	قاهرُ	الطويل	٦٤٩	١٣	كعب بن مالك
يا رسولَ	بــورُ	الخفيف	٦٧٥	١	عبد الله بن الزبعرىٰ
قومي	كِفارُ	البسيط	٥٥٧	١٢	حسان بن ثابت
أسائلةٌ	وخَيبرِ	الطويل	٦١٩	١٦	صفية بنت عبد المطلب
أيا عينُ	تنزُرى	المتقارب	٦٢٧	١١	كعب بن مالك
ألا ليت	العُسرِ	الطويل	٦٥١	١	حسان بن ثابت
والحرب	شُعْرِ	الرجز	٦٢٦	١٥	هند بنت عتبة
يا بنت	الكُفْرِ	الرجز	٦٢٧	٢	هند بنت أثاثة
يا آل فِهْرٍ	والنفرِ	البسيط	٣٨	٤	(رجل من زَبيد)
نحن جوار	النَّجّارِ	الرجز	٥٢٢	٣	(نشيد لجوارٍ فى المدينة)
من سرَّه	الأنصارِ	الكامل	٦٠٧	٩	كعب بن زهير
			(ز)		
صفية	حمزة	المتقارب	٦٩٥	١٥	كعب بن مالك

وأبيضَ	للأراملِ	الطويل	٥٧١	١٨	أبو طالب بن عبد المطلب
إن كنت	الجاهلِ	السريع	٦٠٨	١٤	كعب بن زهير
بيضُ	الأوّلِ	الكامل	١٦٣	١٥	حسان بن ثابت
خلوا	سبيله	الرجز	٥٤٥	٢١	عبد الله بن رواحة

(م)

أَيَا بَني	الرزامْ	الرجز	٤٦٠	١٥	أبو عزة الشاعر
رأيْتُك	مُعْلِما	الطويل	٦٤١	٥	سلمة بن عياض
إن تغفر	جَمَّا	الرَّجز	٥٣٩	١٣	أمية بن أبي الصَّلت
من مبلغ	أحزمُ	الطويل	٥٩١	١٤	بجير بن زهير
مَنَعَ	النجومُ	الخفيف	٦٩١	٩	حسان بن ثابت
إن خالي	يقومُ	الخفيف	٢٥٨	١	حسان بن ثابت
جلبنا	ألعكومُ	الوافر	٦٦٨	٣	عبد الله بن رواحة
مِنَّا بمكة	مُسَوَّمُ	الكامل	٦٧١	١٢	العباس بن مرداس
قالت	والإسلامُ	الكامل	٦٧٥	١٥	فضالة بن عمير الليثى
هل المجدُ	العظائمِ	الطويل	٦٣٧	٢	حسان بن ثابت
أتيناك	المواسمِ	الطويل	٦٣٦	٨	الزبرقان بن بدر
منعنا	وراغمِ	الطويل	٦٣٤	١٠	حسان بن ثابت
يؤَخَّرْ	فيُنقمِ	الطويل	٥٩٠	١	زهير بن أبي سلمى
إن الشّهابَ	والحكمِ	البسيط	٤٣٠	٢١	فارس بن الحسين الهذلى
لا تَعْدَمَنْ	لئيمِ	الكامل	٦٧٤	٥	حسان بن ثابت

(ن)

أقسمتُ	لتَنْزلَنَّهْ	الرَّجز	٥٤٧، ٧٠٠	٢١، ٢٠	عبد الله بن رواحة
ومشفقة	طحونا	الوافر	٦٥٨	٨	ضرار بن الخطاب الفهرى
وسائلة	صابرينا	الوافر	٦٥٩	٧	كعب بن مالك
اللهم	اهتدَيْنَا	الرَّجز	٥٤٣، ٥٤٨، ٦٥٥	١٩، ١٦، ١٢	عبد الله بن رواحة

لا تأمَنَنَّ	إنسانِ	البسيط	١٩ ، ٥٣٥	٩ ، ١٠	سويد بن عامر
إني امرؤ	أَفَنْ	السريع	٢٥٧	١٦	قيس بن عاصم المنقرى
		(هـ)			
يتعاوران	نسجاها	الكامل	٦١٧	٣	عدى بن الرقاع
يا باريَ	باريها	البسيط	٤٥٥	٩	(مجهول)
		الألف المقصورة			
ارفع	جنىٰ	الكامل	٥٣٦	٦	زهير بن خَبَّاب
		(ى)			
وعدنا	وافيا	الطويل	٦٤٨	١٢	عبد الله بن رواحة أو كعب بن مالك

فهرس الأماكن والبلدان

حرف الباء

حرف الحاء

حـرف الخاء

حـرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

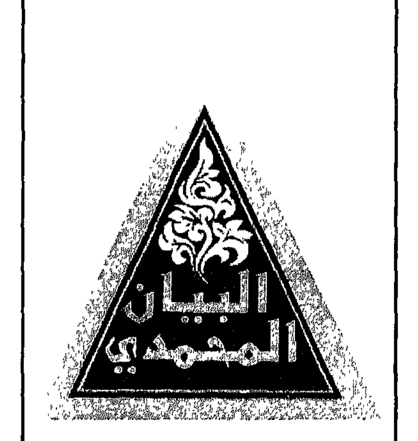
حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف الميم



فهرست المحتويات



الباب الأول

سمات الرسول وصفاته وشمائله

فى الجاهلية والإسلام

الباب الثانى

كتب الرسول صلى الله عليه وسلم ورسائله

الباب الثالث

عهود الرسول ﷺ ومعاهداته

الباب الرابع

خطب الرسول ﷺ

الباب الخامس

أدعية رسول الله ﷺ وروحانياته

الباب السادس

الوصايا

الباب السابع

الأمثال النبوية السائرة

الباب الثامن

أسلوب القرآن وأسلوب النبى

الباب التاسع

الرسول والشعر

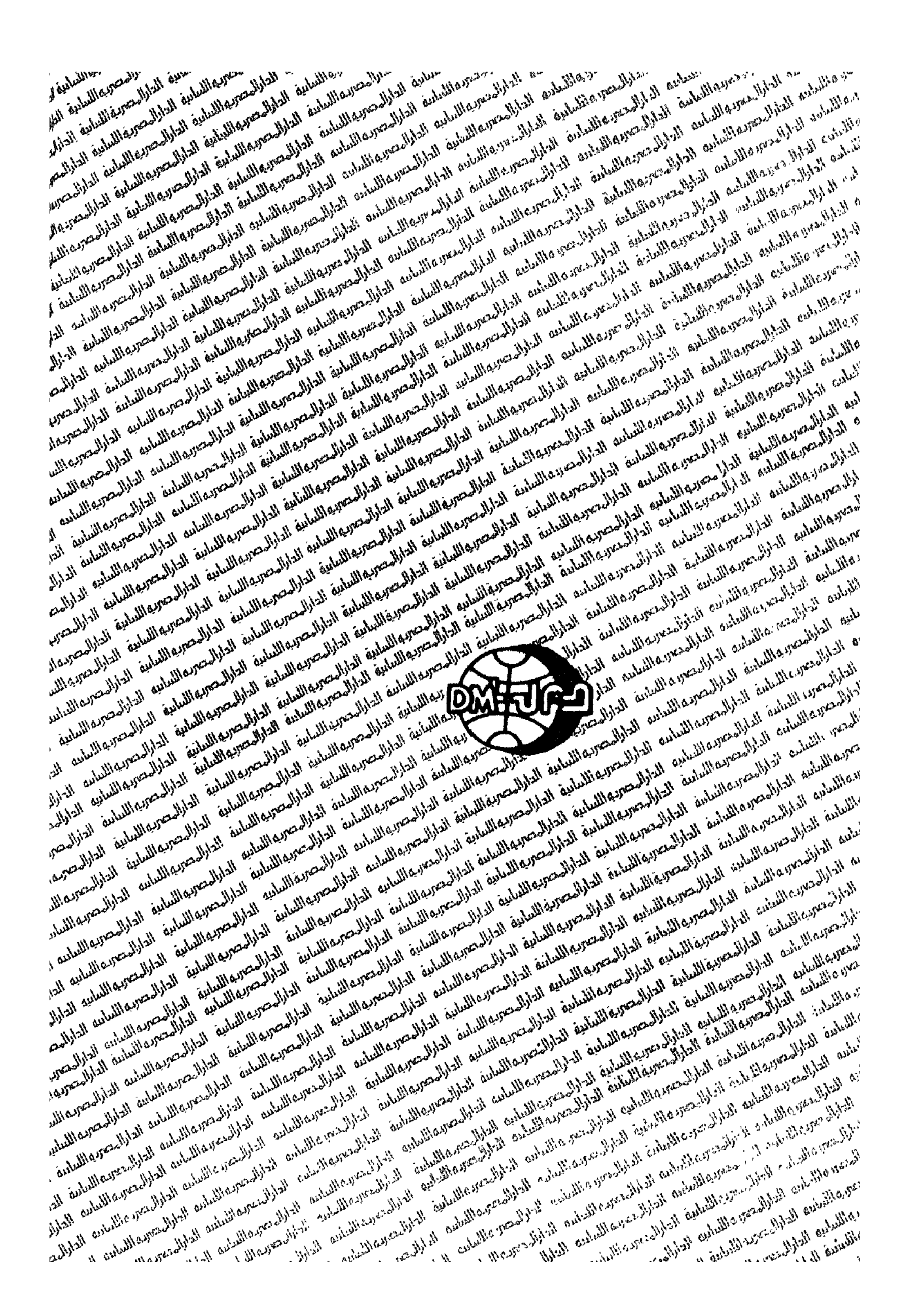
الباب العاشر

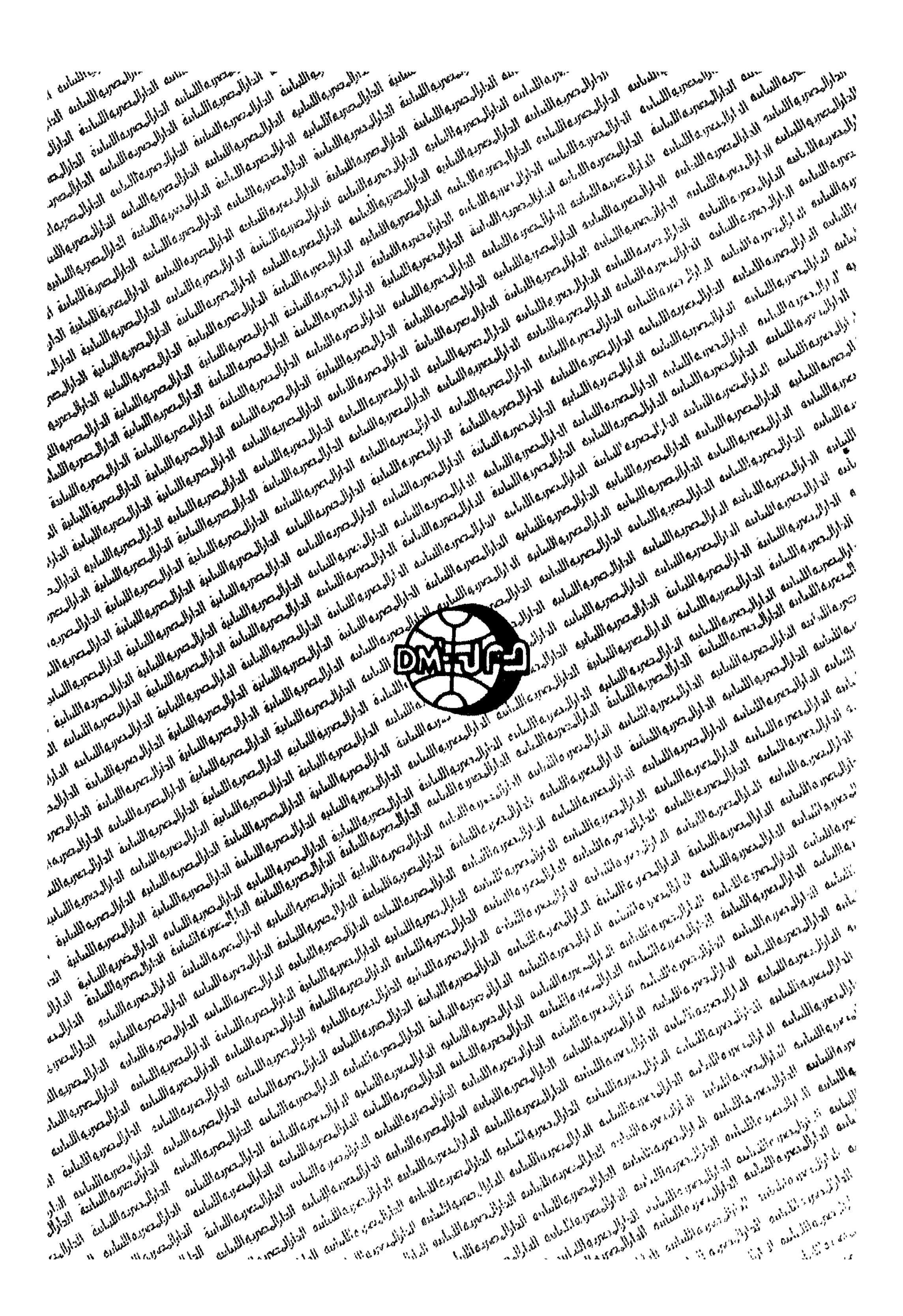
الأنواع البلاغية فى كلام الرسول

الفهارس






الدار المصرية اللبنانية
DM


الدار المصرية اللبنانية

